فهرس

الجزء الحادى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

(تم فهرس الجـزء الحادى عشر من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجـــزء الحادى عشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الحادى عشر

طبـــع
بالمطبعة الأمــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٥ هـ
١٩١٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى[1]

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يُكْتَب من الوِلَايات عن الملوك ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطَّرَف الأوّل

(فى مصطلَح كُتَّاب الشرق)

قد تقدّم فى الكلام على ما كان يُكْتَب عن الخلفاء أنّ الوِلَايات فى الخلافة العبَّاسيَّة ببَغْدادَ كانت تَصْدُر عن الخُلَفاء دُونَ الملوك المُساهِين لهم فى الأمر، لا يُشارِكونَهم فى شيء من الوِلَايات أصلا . وقد تقدّم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الوِلَايات هناك .

والمقصود هنا ما كان يُكْتَب عن ملوك بنى جَنْكِزخان من البيت الهُولاكوهى فمَنْ بعدَهم . ولم أقِفْ على شيء من مصطَلَحهم فى ذلك فأُورِدَه هنا .

---

(١) وقع سهوا فى آخر الجزء العاشر أن أوّل الجزء الحادى عشر "الفصل الثالث" وصوابه "الثانى"

الطـــرَف الثانى

(فى مصطلَح كُتَّاب الغَرْب والأَنْدلُس فيما يُكتَب من الوِلايات عن الملوك)

واعلم أنهم يعبِّرون عما يُكتَب فى جميع ولاياتهم بالظَّهائر: جمع ظَهِير(١)، يفتتحونه بلفظ «هذا ظهير» كما تقدّم بيانُه فى الكلام علىٰ ما كان يكتب عن خُلَفاء المغرِب .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف)

وهـذه نسخةُ ظَهِيرٍ بنيابة السلطنة بالحضرة من إنشاء أبى عبد الله بن الخطيب، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ، منْزِلتُه فى الظهائر منزلةُ المعتَمد به من الظُّهَراء، ومحلُّه من الصُّكُوك، الصادرةِ عن أعاظم المُلُوك، محَلُّ أُولِى الرايات، الخافقةِ العَذَبات، والآراء . فتَحَ علىٰ الإسلام، من بعد الإبهام، أبوابَ السَّرَّاء، وراقَ طِرازًا مُذْهَبا علىٰ عاتِق الدَّولة الغَرَّاء، وأعملَ عوامل الجهاد فى طاعة ربِّ العباد، شارعة لأهل الكفر والعِناد، من باب الإعمال والإغراء .

أمر به فلان لصَدْر صدُور أودّائه ، وحُسَامه المشهورِ علىٰ أعْدائه، ووليِّه الذى خَبَر صِدْقَ وفائه ، وجَلّى فى مِضْمار الخُلُوص له مُغَبِّرًا فى وُجُوه أكفائه . شيخ شُيُوخ المجاهدين، وقائدِ كتائبه المنصورةِ لغزْو الكافرين والمعْتدين، وعُدَّتِه التى يُدافع بها عن الدِّين، وسائِقِ وِرْدِه المبَرِّز فى الميادين، الشيخ الأجلّ الأعزّ الأسنىٰ، الأمجد،

(١) فى اللسان وغيره ''الظهير العون يستوى فيه الواحد والجمع'' . وقد جمعه الفرّاء علىٰ ظهراء . وفى شرح الأشمونى عن بعض النحويين أنه يشترط فى جمع فعيل علىٰ فعائل أن يكون علما لمؤنث . تأمل .

الأسعد ، الأصعد ، الأغنى ، الأحمى ، الأحب ، الأوصل ، الأفضل ، المجاهد ، الأقضى ، الأرضى ، الأمضى ، الشهيد ، المقدس ، المرحوم أبى عبد الله بدر الدين ابن شيخ الشيوخ وعلم الأعلام ، المدافع عن حوزة الإسلام ، البعيد الغارة فى تخوم عبدة الأصنام ، الشيخ الكبير ، الجليل الخطير ، الرفيع ، الصدر ، المعظم ، الموقر ، صاحب الجهاد الأرضى ، والعزم الأمضى ، المقدس ، المرحوم أبى عمران (موسى) ابن أبى زيد رحو بن محيو بن عبدالحق بن محيو ، وصل الله سعده ، وحرس مجده ، وبلغه من مظاهرة دولته وموازرة خلافته قصده . رفع قبة العناية والاختيار على عماد ، وأشاد بدعوة التعظيم [مسمعا](١) كل حى وجماد ، وقابل السعى الكريم بإحماد ، وأورد من البر غير ثماد ، واستظهر بالوفاء الذى لم تستتر ناره برماد ، ولا قصرت جياده عن بلوغ آماد ، وقلد سيف الجهاد عاتق الحسب اللباب ، وأعلق يدى الاستظهار بأوثق الأسباب ، واستغلظ على الأعداء بأحب الأحباب . لما قامت له البراهين الصادقة على كرم شيمه ، ورسوخ قدمه ، وجنى منه عند الشدة والتمحيص ثمرة ما أولاه من نعمه ، قابل بالرعى كرائم ذممه ، وعظائم خدمه ، وشد اليد على عهده الذى عرفه حين انتكثت العقد وأخلق المعتقد ، واستأسد النقد(٢) ، وتنكر الصديق ، وفرق الفريق ، وسدت على النظرة الطريق ، وتميز المغرق والغريق ، فأثقل له ميزان المكافات ، وسجل له رسم المصافات ، وجعله يمين الملك الذى به يناضل ، ويقاطع ويواصل ، وسيف الجهاد ، الذى يحمى بمضائه حوزة البلاد ، ومرآة النصح التى تتجلى بها وجوه الرشاد . فقدمه ـ أعلى الله قدمه ، وشكر

---

(١) الزيادة عن "ريحانة الكتاب" لابن الخطيب .

(٢) النقد بالتحريك السفل من الناس ، وضرب من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه يقال هو أذل من النقد . أنظر اللسان .

نِعَمه، وأسعده فيما يمّمه، ونَشر بالنصر علَمَه ـ شيخَ الغُزاة بحضرته العليّه، وسائر بلادِه النصريه : ترجعُ القبائلُ والأشياخ إلىٰ نظره فى السّكَنات، وتَستدرّ علىٰ يده من مقامه الكريم غُيومَ البركات ؛ وتُقرّر وسائلَها بوَساطة حُظْوته، وتقصر خُطاها آعترافا بحقّه الواجب عن خُطْوته . فعليه تدورُ أفلاكُ جماعاتهم كُلّما آجتمعُوا وأْتلفُوا، وبحجة فضله يزولُ إشكالُهم مهما آختلَفُوا ؛ وبلسانه المُبِين يقرّر لهم ماأسلَفُوا، وفى كَنَف رَعْيه ينشأ من أعقبوا من النَّشأة وخلّفُوا؛ وبإقدامه تنهَض أقدامهم مهما توقّفُوا . فهو يَعْسُوب كتائبهم الملتفّه ، وفِرْزانُ قِطَعهم المصْطَفّه ؛ وشَهْمُ جوارِحهم الفارِهه ، وعيْنُ عيونهم النّابِهه ، وتأويلُ أمورهم المتشابهه ؛ عن نظره يَرِدُون ويَصدرون، وبإشارته يَرِيشُون ويَبْرُون وآثارَه يقتفُون ؛ وبتَلْعة دواره المَرينىّ فى خدمة مقامه النصرىّ يَقِفُون . فهو الذى لا تأنَفُ أشرافُ القبائل منَ آقتفاء آثاره ، ولا تجهل رِفعةَ مِقداره ؛ فلبيته المَزِيّةُ بالحق ، المستوجبةُ للفخر بسابقةِ السعادة لعبد الحَقّ ؛ ولذاته قَصَب السبق ، ولوفائه الشُّهرة فى الغرب والشّرْق .

فليتولّ ذٰلك ـ تولّاه الله ـ منْشرحا بالعز صدْرُه، مستمدّا[(1)] من شمسِ سعادته بدْرُه، معروفا حقّه معظّما قدرُه ؛ فهى خُطّة قومه ، وفريسةُ حَوْمه، وطِيّةُ أمسِه ويَوْمه ؛ وكُفْءُ خطْبته، ومَرْمىٰ رُتبته ؛ وحَلْيُ جِيده، ومَظْهرُ توفيقه وتسديده . مُطْلقا من عِنانِ الثناء، علىٰ أهل الغَناء، معاملا بصادق الإطراء، لذوى الآراء، متغمّدا بالإغضاء، هَفَواتِ أهل آلمَضاء، معرّفا بالقبائل، والعشائر والفصائل ؛ كُلّما وفدُوا من الآفاق للاستلحاق ؛ منبّها علىٰ مَظانّ الآستحقاق، مُطبّقا للطباق، مميّزا لجيادها يومَ السّباق ؛ حريصا علىٰ إنماء الأعداد، مطابقا مَفاصلَ السَّداد ؛ محتاطًا علىٰ الأموال التى تمترى

(1) فى ريحانة الكتاب «مشرقا» .

بها أكُفُّ الجباية ضُروعَ العباد، واضعًا مالَ الله حيثُ وضعه الحق من الوَرَع والاستداد، [لا] سيّما فى هذه البِلاد؛ حتّىٰ تعظُم المَزَايا والمَزَاين، وتتوفّر الكَتائبُ والخَزائن ويبتهجَ السامعُ ويُسَرَّ المُعاين؛ ويظهر الفضلُ علىٰ من تقدم، وأنّ الظُّهَراء كَمْ غادَرت من متردَّم، ويتحسَّرَ من قَصَّر ويتندم، وعند الله يَجِدُ كلٌّ ماقدم. فهى قلادةُ الله التى يُضيع مَنْ أضاعها، ويَرْضىٰ(١) عمن أعمل فيها أوامِرَه وأطاعها. وهو، ــ وصلَ الله سعادتَه! وحرس مجادتَه! ــ أولىٰ مَن لاحظ ضرائرها، واستطلع من ثَنايَا التوكل علىٰ الله بشائرها: نَسبًا وحسبا، وجدًّا وأبا، وحَدًا وشَبا، ونَجْدة وصَحتْ مَذْهبا.

وعلىٰ الغُزاة ــ وفَّر الله جموعَهم! وأنجدَ تابعهم ومتبوعَهم! ــ أن يعرفوا قدْرَ هذا التعظيم الذى خفقتْ أعلامُه، وصَحتْ أحكامُه؛ والاختصاص الذى لَطُف محلُّه، والاعتناءِ الكريم الذى ضَفَا ظِلُّه؛ فيكونوا من إيجاب حقِّه حيثُ حَدّ ورَسَم، وميَّز ووَسَم؛ لايتخلّف أحد منهم [فى خدمته](٢) أيده الله عن إشارته الموفَّقه، ولا يَشِذُّ عن رياسته المطلقه؛ بحول الله تعالىٰ وقُوّته.

⁂

وهذه نسخة ظَهير بنيابة السلطنة ببعض الأعمال، وهى:

هذا ظهيرٌ كريمٌ، مضَمَّنه استجلاءٌ لأمور الرَّعايا واستِطلاع، ورعايةٌ كَرُمت منها أجناسٌ وأنواع؛ وعدلٌ بَهَر منه شُعَاع، ووصَايا يجب لها إهْطاع.

أصدَرْناه للفقيه أبى فلان. لمَّا تقرَّر لدَينا دينُه وعدله وفضله رأينا أنه أحقّ مَن نُقلِّده المُهمَّ الأكيد، ونرمى [به](٢) من أغراض البِرِّ الغرَضَ البعيد؛ ونستكْشف به

(١) فى "ريحانة الكتّاب" التى لايضيع من أضاعها، ويوفى صاعها.
(٢) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

أحوالَ الرَّعايا حتّىٰ لايغيب عنا شئٌ من أحوالها، ولايتطرَّقَ إليها طارقٌ من إهمالها، ويُنهِى إلينا الحوادثَ التى تنشأ فيها إنهاءً يتكفل بحياطة أبشارها وأموالها. وأمرناه أن يتوجه إلىٰ جهة كذا ـ حاطها الله ـ فيجمعَ الناس فى مساجدهم، ويندُبُهم من مَشاهدهم. ويبدأ بتقرير غرضنا فى صلاح أحوالهم، و إحساب آمالِهم (١)، ومكابدتنا المشقّةَ فى مُداراة عدوّهم الذى يعلم من أحوالهم ماغاب عنهم ـ دفعه الله بقدرته، ووَقَىٰ نفوسَهم وحريمهم من مَعَرّته ـ وبما رأينا من آنِيَات الأسبابِ التى فيك تُؤمَّل، وعَجْزِ الحِيَلِ التى كانتْ تُعْمَل. ويستدْعِى إنجادَهم بالدعاء، و إخلاصَهُم فيه إلىٰ ربِّ السماء. ويسأل عن سِيرة القُوّاد، ووُلاة الأحكام بالبلاد: فمن نالَتْه مَظْلِمة فليرفعْها إليه، ويقُصَّها عليه: ليبلِّغها إلينا، ويُوفِدَها مقرَّرةَ المُوجَبات علينا. ويختبِرُ ما آفتُرِض صَدقةً لجبل، وما فَضَل عن كريم ذٰلك العمَل: ليعيِّن لبناء الحصن بجبل قارة يَسَّر الله لهم فى إتمامه، وجعل صدَقتَهم تلك مِسْكَ ختامه، وغيْرَه مما آفتُرِض إعانةً للسافرين، و إنجادًا لجهاد الكافرين؛ فيعْلَم مقدارَه، ويتولَّى اختبارَه؛ حتّىٰ لايُجْعَلَ منه شئٌ علىٰ ضعيف، ولا يُعدَلَ به لمشروف عن شريف، ولا تقَعَ فيه مضايقةُ ذى الجاه، ولا مخادعةُ غير المراقِب لله. ومتىٰ تحقّق أن غنيًّا قُصِّر به فيه عن حقه، أو ضعيفا كُلِّف منه فوق طَوْقه، فيُجبِر الفقيرَ من الغنيِّ، ويَجْرِى من العَدْل علىٰ السَّنَن السوِىّ ـ ويُعلِم الناس أن هذه المَعُونةَ و إن كانت بالنسبة إلىٰ محلِّ ضرُورتها يسيره، وأن الله يضاعفها لهم أضعافا كثيره؛ ليست مما يَلزَم، ولا من المَعَاون التى بتكريرها يُجْزَم ـ وينظر فى عهود المتوفين فيصرفُها فى مَصَارفها المتعينه، وطُرقها الواضحة البيِّنه ـ ويتفقَّد المساجد تفقُّدا يكسُو

(١) فى القاموس «أحسبه أرضاه».

عارِيها ، ويُتَمِّم منها المآربَ [تتميما] يُرضى بارِيها – ويندُبُ الناس إلىٰ تعليم القرءان لصبْيانهم ، فذٰلك أصلُ أديانهم . ويحذِّرهم المغيب عن كل شىء من أعشارهم فالزكاةُ أختُ الصلاة وهما من قواعد الإسلام ، وقد آخترنا لهم بأقصىٰ الجدّ والأعتزام ، ورفعْنا عنهم رسمَ التعريف نظراً إليهم بعين الأهتمام ، وقدّمنا الثّقات لهٰذه الأحكام ، وجعلنا الخَرْص شرعياً فى هٰذا العام ، وفيما بعده إن شاء الله من الأعوام .

ومن أهمّ ما أسندناه إليه ، وعوّلْنا فيه عليه ، البحثُ بتلك الأحْواز عن أهل البِدَع والأهواء ، والسائرينَ من السبيل علىٰ غير السَّواء ، ومَنْ يُنبَزُ بفساد العَقْد ، وتحريف القصْد ، والتلبُّس بالصوفيّة وهو فى الباطن من أهل الفساد ، والذاهبينَ إلىٰ الإباحة وتأويل المَعَاد ، والمؤلِّفين بين النساء والرجال ، والمتبِّعين لمذاهب الضَّلال . فمهما عثر علىٰ مُطَوَّق بالتهمه ، منبَّز بشىء من ذٰلك من هذه الأُمَّه ، فليشُدّ وَثاقَه شَدا ، وليسُدّ عليه سبيلَ الخلاص سدا ، ويسترْعِ فى شانه المُوجَبات ، ويستوْعِبِ الشهادات ، حتّىٰ ننظر فى حَسْم دائه ، ونُعالِجَ المرَضَ بدوائه ؛

فليتولَّ ماذكرنا نائبا بأحسن المَناب ، ويقصِدْ وجهَ الله راجيا منه جزيلَ الثواب ، ويعمَلْ عملَ مَنْ لا يخاف فى اللهِ لومة لائم ليجدَ ذٰلك فى مواقف الحساب ؛

وعلىٰ من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحُكّام أن يكونوا معه يدًا واحدة علىٰ ماقررناه فى هذه الفصول : من العمل المقبُول والعدْل المبذول . ومن قصّر عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضًى من مقتضَياته ، فعقابه عقابُ من عصىٰ أمر الله وأمرنا فلا يلومَنّ إلا نفسه التى غرّته ، وإلىٰ مَصْرَع النكير جَرّته ، والله المستعان .

وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ بلغ فيه الاختيار، الذى عضَّده الآختبار،(١) الى أقصى الغايه؛ وجمع له الوِفاقُ، الذى خدَمه البختُ والآتفاق، والأهليَّة التى شهِدت بها الآفاق، بين نُجْح الرأى ونَصْر الرايه؛ وأنتجتْ به مقدماتُ الوَلاء نتيجةَ هـذه الرتبة السامية العَلاء والوِلايه. وآستظهر من المعتمد به، على قصده الكريم فى سبيل الله ومذهبِه، بلَيْث من لُيُوث أوليائه شديدِ الوطْأة على أعدائه والنِّكايه، وفرعٍ من فروع المُلْك الأصيل معروفِ الأُبُوّة والإبايه، لتتضح حجةُ النصر العزيز والفتح المبين ذى القوّة المتين محكمةَ الآيه، وتدل بدايةُ هـذه الدولة الرافعة لمَعَالم الدين، المؤيَّدة فى الأقوال والأفعال بمَدَد الرُّوح الأمين، على شرَفِ النِّهـايه.

أصـدر حكمَه وأبرزَ حُكْمَه، وقرّر حدّه المـاضىَ ورسْمَه، عبـدُ الله، الغنىُّ بالله [محمدُ ابن مولانا أميرِ المسلمين أبى الوليد بن نصر](٢) ـ عَضَّد الله كتائبه وشدّ عَضْده، ويَسَّر فى الظهور على أعداء الله قَصْده ـ لوليِّه المستولِى على ميَادين حُظوته وإيثاره، الفـائزِ بالقِدْح المُعلّى من إجلاله وإكباره، ظهيرِ آستنصاره، وسيفِ جهاده المُعَدّ لِصدق ضريبته ويوم آفتخاره، ويَعْسُوبِ قبائل الغُزاة بأصقاعه الجهاديَّة وأقطاره، الأميرِ أبى عبد الرحمن، آبن الأمير أبى على، آبن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد، ابن أمير المسلمين أبى يوسفَ يعقوبَ بن عبد الحق ـ وصل الله له أسباب سعده، وأنجز للسـلمين بمظاهَرته إيّاه على الكافرين سابِقَ وعده، لمّـا وفد على بابه الكريم

(١) فى ريحانة الكتّاب «بلغ فيه الاختيار النهايه والاختبار الى» الخ.

(٢) الزيادة "من الريحانة".

مؤثرا[١] على ما كان بسبيله عن جِوَاره، ملقيا بَمحَلَّة الجهاد عصَا تَسْياره، مفضِّلا ماعند الله علىٰ رحْب أوطانه وأقطاره؛ شيمةُ من أسرع إلىٰ خير الآخرة بِبِدَاره، قبل آكتمال هلالِه و إبْداره ، وعلىٰ آنبعاثِ أمله وترامى هممه وآستقامة مدَاره - قابل أيده الله وِفَادتَه بالقَبُول الممدوح ، والصَّدْر المشروح ، والعنايةِ العاليـة المَظَاهر والصُّرُوح ؛ وجعل له الشِّرْب المُهَنَّى فى مَنَاهل الصنائع التى صنَعَ اللهُ لمُلْكه والفُتُوح ؛ ولم يَدَّخِر عنه تقريبًا يَقف الأولياءُ دُون مَدَاه ، وترفيعًا تشهد به محافلُ المُلْك ومنتدَاه ؛ إلىٰ أن ظَفِرت بحقيقة الموالاةِ الكريمة يَدَاه ، ثم آستظهر به على أعداء اللهِ وعِدَاه ، فوَفَّى النُّصح لله وأدّاه ، وأضمـره وأبْداه ، وتحلَّى بالبسالة والجـلالة والطَّهارة ، اللائقـةِ بمَنْصِب الإمارة ، فى رَوَاحه ومَغْـداه ؛ حتَّىٰ آتفقت الأهواءُ علىٰ فضلـه وعفَافه ، وكمال أوصافه وظهرتْ عليـه مَخايِلُ أسلافه . ثم رأىٰ الآن - سدّد الله رأيَه ، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه - أن يُوفِد ركائبَ الأعتقاد الجميل علىٰ جَنَابه ، ويُفَسِّح مَيْدانَ الآستظهار بحُسْن مَنَابه ، ويصِلَ أسبابَه بأسبابه ؛ ويُضاعِفَ بولائه الصادقِ آهتمامه ، ويُقيمَه فى قَوْد عساكره لجهاد البَرّ مقامه ؛ فأضـفَىٰ ملابس وُدِّه عليه ، وجعله فاتحَ أبوابِ الجنـة بفضل الله بينَ يدَيْه ؛ وأجراه مُجْرىٰ عضُده الذى تصْدُق عنـه الضربةُ فى المَجَال ، وسيفِه الذى يُفَرَّج به مضايِقَ الأهوال ؛ ونَصَبه للقبائل الجهادية قِبْلةً فى مناصحة اللهِ ومناصحةِ مَشْرُوعه ، ورايةً سـعيدةً فى مظاهرة متبُوعه ؛ وعقد له الولايةَ الجهاديَّة التى لاتُعْدَل بولايه ، ولا تُوازَنُ عنايةُ المعتمَد بها بعِنايه ؛ يشهد بصَراحة نسبها الدين ، وتتحلَّى بحِلَى غُرَّتها المَيَادين . فالجهاد فى سبيل الله نِحْلةُ نبيّ الأُمَّه ، ومَنْ بعده من الأئمه ؛ لاسيَّما فى هـذا القطر المتأكّد فيه ذلك لأُولِى الدِّين والهِمَّه .

(١) لعله "مؤثرا له علىٰ ما كان يشغله عن جواره" تأمل .

فليتولَّ ذٰلك تولّيَ مثله وإن قلّ وجودُ مثله، جاريًا علىٰ سَنَن مَجْدِه وفضله، سائرا من رضا الله علىٰ أوْضَح سُبُلِه، معتمدا عليه فى الأمر كلّه.

ولْيَعْلَم أن الذى يخلق ما يشاء ويختار قد هيَّأ له من أمره رشدًا، وسلك به طريقًا سَدَدا(١)، واستعمله اليومَ فيما يُحْظيه غدا، وجعل حظَّه الذى عوّضه نُورًا وهُدى، وأبعد له فى الصالحات مَدَى ـ ولينظرْ فيما لديه من القبائل الموفُوره، والجموع المؤيَّدة المنصوره، نظرًا يُزِيح العِلل، ويبلِّغ الأمل، ويَرْعىٰ الهَمَل(٢)، ويُحْسِن القول ويُنْجِح العمل، منبِّها علىٰ أهل الغَنَاء والاستحقاق، مستدرًا للعوائد والأرزاق، معرِّفا بالغرباء الواردين من الآفاق، مُطبقًا منهم للطباق، متغمِّدًا للهفوات بحسن الأخلاق، مستجيدًا للأسلحة والكُرَاع(٣)، مبادِرًا هَيْعاتِ الصَّريخ بالإسراع، مسترعيا للشورة التى يقَع الحكمُ فيها عن حصول الإجماع، رفيقا بمن ضَعُف عن طُول الباع، محافظًا علىٰ الإسلام فى مواقف الدِّفاع، مُقْدِما عند اتّجاه الأطماع، صابرًا فى المَضايق علىٰ القِرَاع، متقدِّما للأبطال بالاصطناع، مقابلا نصائحَ أُولى الخِبْرة بحُسْن الاستماع، مستعْمِلا فى الحروب ماأجازه الشرعُ من وُجوه الخِداع، حتّىٰ يكون عملُه وَفْقَ شُهْرته البعيدةِ المَطَار، وسِيرتُه فيما أُسْنِد إليه مَثَلًا فى الأقطار، واستقامةُ التدبير علىٰ يديه ذريعةً إلىٰ إرغام أُنوف الكُفَّار، بقوّة الله وحوله، وعزّته وطَوْله.

وعلىٰ الغُزاة بالحضرة العليه، وسائر البلاد النَّصْريه، من بنى مَرِين، وسائر القبائل المجاهدين، أن يعرِفوا قدْرَه، ويمتثلُوا فى مرضاتنا أمْرَه، ويكونُوا معه رُوحا ويدًا

(١) السدد القصد والاستقامة والسدد أيضا مقصور من السداد. انظر اللسان.

(٢) الهمل اسم جمع لهامل لأن فاعلا لا يكسر على فعل ونظيره رائح وروح. انظر اللسان.

(٣) الكراع كغراب جماعة الخيل. والهيعة الصوت تفزع منه وتخافه من عدو. انظر القاموس.

وجَسَدا، وساعدا وعضُدا؛ فبذلك يشملُه من الله ومن مَقَامنا الرضا والقَبول، والعزُّ الموصـول؛ ويُمْضى فى عدُوّ الله النُّصُول، ويتأتَّى علىٰ خير الدنيا والآخرةِ الحُصُول، إن شاء الله. ومَنْ وقف عليه، فليعرفْ مالديه؛ بحول اللهِ تعالىٰ.

✣

وهذه نسخة ظهير بالتَّقدمة علىٰ الطبقة الأولىٰ من المجاهدين، لولد السلطان، وهى:

هذا ظهيرٌ كريمٌ، فاتَحَ بنشر الألوية والبُنُود، وقَوْد العساكر والجنود، وأجالَ فى مَيْدان الوجود، جِيادَ البأس والجُود، وأضْفىٰ سِتْرَ الحِمَاية والوقاية بالتَّهائم والنُّجود، علىٰ الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود ـ عقَد لمعتَمد به عَقْد التشريف والقـدر المُنِيف زاكِىَ الشُّهود، وأوجب المنافَسةَ بين مجالِس السُّروج ومَضاجع المُهُود، وبَشَّر السـيوف فى الغُمُود، وأنشأ رِيحَ النصر آمنـةً من الخُمُود ـ أمضىٰ أحكامه، وأنهد العزَّ أمامَه، وفَتَح عن زهرِ السُّرور والحبور أكمامه، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ٱبن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ٱبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد فرج بن نصر ـ أيد الله أمره، وخلَّد ذكره ـ لكبير ولده، وسابق أمده، ورَيْحانة خَلَده، وياقوتة الملك علىٰ يده؛ الأميرِ الكبير، الطاهرِ الظاهر، الأعلىٰ، واسطةِ السلك، وهلال سمـاء المُلْك، ومِصْباح الظُّلَمِ الحُلُك، ومَظِنَّةِ العناية الإلٰهيَّة من مدبِّر الفَلَك ومُجْرِى الفُلْك؛ عُنْوانِ سـعده، وحُسامِ نصره وعَضُـده؛ وسمِىِّ جدِّه، وسلالةِ فضله ومجده؛ السعيدِ، المظفَّر، الهُمَام، الأعلىٰ، الأمضىٰ، العالِم، العادل، العامل، الأرضىٰ، المجاهد، المؤمَّل، المعظم، أبى الحجاج يوسف ـ ألبسه الله من رضاه عنـه حُلَلا لاتُخْلِق جِدَّتَهـا الأيام، ولا تبلغُ كُنْهَها الأفهام؛ وبلغه فى خدَمه المبـالغَ التى يُسَرُّ بها الإسلام، وتَسْبَح فى بِحَار صنائعها الأقلام، وحرس

معالِيه الباهرة بعينه التى لاتنام، وكنفه بركنه الذى لايُضام ـ فهو الفرع الذى جرىٰ بخَصْله علىٰ أصْله، وآرتسم نَصْرُه فى نَصْله، واشتمل جِدُّه علىٰ فضله، وشَهِدت ألْسُن خِلاله، برِفعة جَلَاله، وظهرت دلائل سعادته، فى بَدْء كل أمر وإعادته.

ولمَّا صرف وجْهه إلىٰ ترشيحه لاَقتراع هِضَاب المجْد البعيـد المَدىٰ، وتوشيحه بالصَّبر والحِـلْم والبأس والنَّـدىٰ، وأرهف منـه سيفًا من سيوف الله لضَرْب هام العِدَا، وأطلعه فى سمـاء المُلْك بدْر هدىٰ، لمن راح وغدَا، وأخذه بالآداب التى تُقيم من النفوس أَوَدا، وتُبْـذَر فى اليوم فتُجْنَى غدا، ورقَّاه فى رُتَب المَعالى طَوْرا فطَوْرا، ترَقِّىَ النبات ورَقًا ونَوْرا، ليجدَه بحول الله يدًا باطشةً علىٰ أعدائه، ولسانا مجيبا عنـد نِدائه، وطرازًا علىٰ حُلَّة عَلْيائه، وغَمامًا من غمائم آلائه، وكوْكبًا وهَّاجا بسمائه. وعقد له لواءَ الجهاد علىٰ الكتيبة الأَنْدَلُسية من جُنْده، قَبْل أن ينتقل من مَهْـده، وظلَّله بجنَـاح رايتـه، وهو علىٰ كَتَد(١) دابته، واستركَبَ جيشَ الإسلام ترحيبًا بوِفادته، وتنويهًا بمَجادته، وأثبتَ فى غَرَض الإمارة النصرية سَهْم سعادَته ـ رأىٰ أن يزيده من عنـايته ضُروبا واجناسا، ويُتْبِـع أثَره ناسًا فناسا، قد اختلَفُوا لسانا ولبـاسا، وآتفقُوا آبتغاءً لمرضاة الله وآلتمـاسا، ممَّن كَرُم آنتمـاؤه، وآزَّينت بالحَسَب الغر(٢) سَمـاؤُه، وعُرِف غَنَـاؤه، وتأسَّس علىٰ المَجادة بِناؤه، حتَّى لا يدع من العناية فنًّا إلا جلَبَه إليه، ولا مقادَةَ فخـر إلا جعلها فى يدَيْه، ولا حُلَّةَ عز إلا أضفىٰ ملابسها عليه.

وكان جيشُ الإسـلام فى هـذه البلاد الأنْدَلُسية ـ أمَّن الله خِلالَهـا، وسكَّن زِلْزالهـا، وصَدَّق فى رحمة الله التى وسعت كل شىء آمالَهَـا ـ كلَف هِمَّته، ومَرْعىٰ

(١) الكتد بفتح التاء وكسرها أعلى الكتف والدابة الظهر، أنظر اللسان.

(٢) لعله الاغر وفى ريحانة الكتاب «الخالص».

أذِمَّته ، ومَيْـدَان جِيـاده ، ومتعلَّق أمد جِهاده ، ومِعْرَاج إرادته ، إلىٰ تحصـيل سـعادته ، وسبيلَ خِلاله ، إلىٰ بلُوغ كماله ؛ فلم يدَعْ له علّةً إلا أزاحها ، ولا طَلِبـةً إلا أجال قِداحَها ، ولا عزيمة إلا أوْرىٰ آنتداحها ، ولا رَغْبـة إلا فَسَح ساحَها ؛ آخذا مُروءتَه بالتهـذيب ، ومَصافَّه بالترتيب ، وآمالَه بالتقريب ، وتأنِيس المُرِيب ، مستنجزًا له وبه وعدَ النصر العزيز والفتح القريب ؛ ورفع عنه لهـذا العهد نظرَ من حكَّمَ الأغراضَ فى حُماته ، وآستشعر عُروقَ الحَسَائف لشريف كُماته ؛ واشـتغل عن حُسْن الوَسَاطة لهم بمصلحة ذاتِه ، وجَلْب جُبَاته ، وتثمـير ماله وتوفير أقواته ، ذاهبًا أقصىٰ مذاهبِ التعمير بأمَدِ حياته ؛ فآنفرج الضِّيق ، وخَلَص إلىٰ حسن نظره الطريق ، وساغَ الرِّيق ، ورضِى الفريق .

رأى ـ والله الكفيل بنُجح رأيه ، وشُكْرِ سعيه ، وصلة حفظه ورعيه ـ أن يُحمِـد لهم آختيارَه ، ويُحْسن لديهم آثارَه ؛ ويستنيبَ فيما بينه وبينَ سيُوف جهاده ، وأبطال جِلاده ؛ وحُماةِ أحوازِه ، وآلات آعتزازه ، مَنْ يجرى مَجْرىٰ نفسـه النفيسةِ فى كل معنىٰ ، ومن يكون له لفظُ الولاية وله ـ أيده الله ـ المعنىٰ ؛ فقدّمه علىٰ الجماعة الأُولىٰ كُبرىٰ الكتائب ، ومَقادِ الجنائب ؛ وأجَمة الأبطال ، ومُزْنة الوَدْق الهَطَّال ؛ المشتملة من الغُزاة على مَشْـيخة آل يعقوبَ نُسَباء الملوك الكِرام ، وأعلام الإسـلام ؛ وسائر قبـائل بنى مَرِين ، لُيوثِ العَرِين ؛ وغيرِهم من أصناف القبائل ، وأُولى الوسائل ؛ ليَحُوط جمـاعتَهم ، ويرفع بتفقُّده إضاعتَهم ، ويستخلصَ لله ولأبيه ـ أيده الله ـ طاعتَهم ؛ ويُشَرِّف بإمارته مواكِبَهم ، ويزيِّن بهلالِه الناهضِ إلىٰ الإبدار ، على فَلَك سـعادة الأقْدار ، كَوَاكبهم ؛ تقديمـًا أشرق له وجه الدِّين الحنيف وتهلَّل ، وأحسَّ باقتراب ما أمَّل ؛ فللخَيْل آختيالٌ ومِراح ، وللأَسَل السُّمْر آهتزازٌ وآرتياح ، وللصُّدُور انشراح ، وللامل مَغْدًى فى فضل الله ومَراح .

فليتولّ ذلك ـ أسعده الله ـ تولّيَ مثله ممن أسرَّة الملك أسرَّتهُ، وأسْرة النبى صلى الله عليه وسلم أُسْرته، والملكُ الكريم أصلٌ لفرعه، والنسبُ العربىُّ مَفْخر(١) لطيب طبعه، آخذًا أشرافَهم بترفيع المجالس بنسبةِ أقدارِهم، مقرّبا حُسْن اللقاء بإيثارهم، شاكرا غَناءهم، مستديما ثناءَهم، مستدرًّا لأرزاقِهم، موجبا للمزيّة بحسب استحقاقِهم، شافعا لديه فى رَغَباتِهم المؤمَّله، ووسائلهم المتحمَّله، مسهلا الإذنَ لوُفُودهم المتلاحقه، مُنَفِّقا لبضائعهم النافقه، مُؤْنسا لغُربائهم، مستجليًا أحوالَ أهليهم وآبائهم، مميزا بيْنَ أغفالهم ونُبهائهم .

وعلى جماعتهم ـ رعى الله جهادهم، ووَفَّر أعدادهم ـ أن يطيعُوه فى طاعة الله وطاعةِ أبيه، ويكونوا يدًا واحدةً علىٰ دِفَاع أعادى الله وأعاديه، ويَشُدّوا فى المواقف الكريهة أزْرَه، ويمتثلوا نَهْيَهُ وأمره، حتّى يعظُمَ الانتفاع، ويُثْمر الدِّفاع، ويخلُصَ القَصْدُ لله والمُطَاع، فلو وجد ـ أيده الله ـ غايةً فى تشريفهم لبَلَّغها، أو مَوْهِبةً لسوَّغها، لكن مابعدَ ولده العزيز عليه مَذْهَب، ولا وراء مباشرتِهم بنفسه مَرْغَب، والله مُنْجح الأعمال، ومبلِّغ الآمال، والكفيل بسعادة المآل .

فمَن وقَف علىٰ هذا الظَّهير الكريم فليَعلَمْ مقدارَ ما تضمَّنه من أمرٍ مُطاع، ونخرٍ مستنِد إلىٰ إجماع، ووجوبِ اتّبَاع، وليكن خيرَمَرْعىً لخير راع، بحول الله .

وأقطعه ـ أيده الله ـ ليكونَ بعضَ المَدَد لأزواد سَفَره، وسِمَاط قَفْره، فى جملة ما أوْلاه من نعمه، وسوّغه من مَوادّ كرمه ـ جميعَ القرية المنسوبة إلىٰ عَرَب غَسَّان: وهى المحلة الأثيره، والمنزلةُ الشهيره، تنطلق عليها أيدى خُدَّامه ورجاله،

(١) فى الريحانة «منجد لطيب» الخ .

جارية مَجْرىٰ صالح ماله ، محررةٌ من كل وظيف لأستغلاله ، إن شاء الله فهو المستعانُ سبحانه ، وكتب فى كذا .

⁂

وهذه نسخةُ ظَهِير لمشيخة الغُزاة بمدينة مالَقَة ، وهو :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ أطلع الرِّضا والقَبُولَ صَباحا ، وأنشأ للعناية فى جَوّ الوجود ، من بعد الرُّكود ، رِيَاحا ، وأوسع العيونَ قُرّةً [وإبصارا][1] والصُّدورَ آنشراحا ، وهيَّأ للمعتَمد به مَغْدًى فى السعادة ومَرَاحا ، وهزّ منه سيْفا عتيقًا يفوق اختيارا ويروقُ آلتماحا ، وولَّاه رياسةَ الجهاد فى القطر الذى تقدّمتِ الولايةُ فيه لسَلَفه فنال عِزًّا شهيرا وآزداد فخرا صُرَاحا ، وكان [له][1] ذلك إلىٰ أبواب السعادة مِفْتاحا .

أمَرَ به وأمضاه ، وأوجب العملَ بحسَبه ومقتضاه ؛ الأميرُ عبدُالله محمد آبن مولانا أمير المسلمين ، والمجاهد فى سبيل رب العالمين ؛ أبى الحجّاج [يوسف][1] آبن مولانا أمير المسلمين ، أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر ـ أيد الله أمره وأعز نصرَه ، وأسعد زمانه وعصره ـ لوليه فى الله الذى كَسَاه مولاه من جميل آعتقاده حُلَلا ؛ وأورده من عَذْب رضاه مَنْهلا ، وعرَّفه عوارفَ قبوله مفصَّلا خطابُها ومجملا ؛ الشيخ أبى العلا ، إدريس ، آبن الشيخ أبى سعيد عثمان ، بن أبى العلا وصل الله أسباب سعادته ، وحرس عَلَيَّ[2] مَجادته ، وأجراه من ترفيع المكانة لديه علىٰ [أحمد عادة سلَفه][1] وعادته .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

(٢) فى ريحانة الكتّاب «أكناف» .

ولـمّـا كان له القَدْر الجليل، والمجدُ الأثيل، والذكرُ الجميل، والفضائلُ التى كَرُم منها الإجمال والتفصيل، وأحرزَ قَصَبَ السَّبْق بذاته وسلَفه إذا ذُكِر المجدُ العريض الطويل، وكان قد أعملَ الرِّحْلة إليه يَحْدوه إلىٰ خدمته التأميل، ويَهْوى به الحُبُّ الذى وَضَح منه السبيل، وعاق عنه الواقعُ الذى تبيَّن فيه عُذْرُه الجميل، ثم خلَّصه الله من مَلَكة الكفر الخَلاصَ الذى قام به علىٰ عنايته الدليل — قابله بالقَبُول والإقبال، وفَسَّح له مَيدانَ الرضا رَحْبَ المَجال، وصرَف إليه وجهَ الاعتداد بمضائه رائقَ الجمـال، سافرًا عن بلوغ الآمال، وآواه من خدمته إلىٰ رَبْوة متَّسعة الأرجاء وارفة الظِّلال، وقطَع عنه الأطماعَ بمقتضىٰ همته البعيدةِ المَنـال. ثم رأى — والله يُنْجِح رأيه، ويشـكر فى سبيل الله عن الجهاد سعْيَه — أن يَستظهرَ بمَضائه، ويرسل عليه عَوارِفَ آلائه، ويَغْمُر به رُتَبَ آبائه. فقدّمه — أعلى الله قَدَمه، وشـكر [آلاءه][(١)] ونِعَمه — شـيخَ الغُزاة والمجاهدين، وكبيرَ أُولى الدِّفاع عن الدين، بمدينـة (مالَقةَ) حَرَسها الله أختِ حضرة [دار][(١)] ملكه، وثانيةِ الدُّرّة الثمينة من سِلْكه، ودارِ سلَفه وقَرارةِ مَجْده، والأُفقِ الذى تألَّق منه نُور سـعده، راجعًا إليه نظرَ القواعد الغربية رُنْدةَ وركوان (؟) وما إليه رجوعُ الاستغلال والاستيراد، والعزِّ الفسيحِ المَجال البعيدِ الآماد، يقودُ جميعَها إلىٰ الجهـاد، عاملًا علىٰ شاكلة مَجْده فى الإصْـدار والإيراد، حتّىٰ يظهر علىٰ تلك الجهاتِ المباركة آثارُ الحِمَاية والبَسَاله، ويعودَ لهـا عهدُ المَجادَة والجَلاله، وتتزيَّنَ مَلَابسَ الإياله. وهو يعمل فى ذلك الأعمـالَ التى تليق بالمجْـد الكريم، والحَسَب الصـميم، حتّىٰ يَنمُوَ عددُ الحُمـاه، ويَكُفَّ البأسَ أكُفُّ الغُزاة ويعظُمَ أثرُ الأبطال الكُماه، وتظهرَ ثمرةُ الاختيار، ويشـمل الأمنُ جميعَ الأقطار، وتحسِمَ عنه أطماعُ الكفَّار.

(١) الزيادة من "الريحانة".

وعلىٰ من يقف عليه من الفُرْسان ـ وفَّر الله أعدادهم، وأعزَّ جهادهم ـ أن يكونوا ممتثلين فى الجهاد لأمره، عارفين بقَدْره، مُمْضِين فيما ذُكِر لحكمه، واقفين عند حدِّه ورسمه . وعلىٰ مَنْ سواهم من الرعايا والخُدَّام، والوُلَاة والحُكَّام، أن يعرفوا قدرَ هذا الأعتناء الواضح الأحكام، والبرِّ المشرِق القَسَام، فيُعاملوه بمقتضىٰ الإجلال والإكرام، والترفيع والإعظام . علىٰ هذا يُعتمَد، وبحَسَبه يعمل؛ بحول الله وقوّته .

الضرب الثانى

(من ظهائر بلاد المغرب ما يُكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام)

وهذه نسخةُ ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة، وهو :

هذا ظهيرٌ كريم أنتج مطلوبَ الآختيار قياسُه، ودلَّ علىٰ ما يُرضِى الله عز وجل آلتماسُه، وأطلع نورَ العناية يجلو الظلامَ نِبْراسُه، وآعتَمد بمَثابة العَدْل من عُرِف بافتراع هَضْبتها باسُه، وألقىٰ بيد المعتَمد به زِمامَ الآعتقاد الجميل تَرُوق أنواعُه وأجناسُه، وشيَّد مَبْنىٰ العز الرفيع فى قُنَّة الحَسَب المنيع وكيف لا واللهُ بانيه والمجدُ أساسُه .

أمر به، وأمضىٰ العملَ بمقتضاه وحَسَبه؛ أمير المسلمين أبو الحجاج آبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ـ أيد الله أمره، وخلد فخره ـ لقاضى حضرته العليه، وخطيبِ حَمْرائه السنيَّه؛ المخصوص لديه بترفيع المزيَّه، المصروف إليه خطابُ القضاة بإيالته النَّصريه؛ قاضِى الجماعه، ومصرِّف الأحكام الشرعية المُطَاعه؛ الشيخ أبى الحسن آبن الشيخ أبى محمد بن الحسن وصل الله سعادتَه،

وحَرَس مجادتَه ، وسنَّى من فضله إرادتَه . عَصَّب منه جبينَ المجد بتاج الولايه ، وأجال قِداحَ الاختيار حتّى بلغ الغايةَ وتجاوزَ النهايه ، فألقىٰ منه بيمين عَرابةَ الرايه ، وأحلَّه منه محلَّ اللفظ من المعنىٰ والإعجاز من الآيه ، وحَشَر إلىٰ مراعاة ترفيعه وُجوهَ البِرّ وأعيانَ العنايه ، وأنطق بتبجيله ، ألْسُنَ أهل جيله ، بينَ الإفصاح والكِنايه .

ولما كان له الحَسَب الذى شهِدتْ به وَرَقات الدَّواوين ، والأصالةُ التى قامتْ عليها صِحاحُ البراهين ، والآباءُ الذين آعتزَّ بمضاء قُضاتهم الدِّين ، وطَبَّق[1] مَفاصلَ الحكم بسيوفهم الحقُّ المبين ، وآزدان بمجالسة وُزَرائهم السلاطين : فمِن فارسِ حُكْم أو حكيم تدبير ، أو قاضٍ فى الأمور الشرعية ووَزير ، أو جامعٍ بينهما جمعَ سلامةٍ لاجمعَ تكسير ، تَعدَّدَ ذلك وآطَّرد ، ووجد مَشْرَع المجد عَذْبا فَوَرد ، وقصَّرت النظراءُ عن مَدَاه فآنفرد ، وفَرىٰ الفِرى فى يد الشَّرْع فأشبه السيفَ الفِرِنْد ؛ وجاء فى أعقابهم مُحْيِيا لما دَرَس ، بما حقَّق ودَرَس ، جانيًا لما بَذَر السلفُ المباركُ وآغترس ، طاهِرَ النَّشْأة وَقُورَها ، محمودَ السَّجيَّة مَشْكُورَها ؛ متحلِّيا بالسَّكينه ، حالًّا من النَّزاهة بالمكانة المَكينه ، ساحبًا أذيالَ الصَّون ، بعيدًا عن الآتِّصاف بالفساد من لَدُن الكَوْن ، فخطبَتْه الخُطَط العليّه ، وآغتبطَتْ به المَجادةُ الأوّليّه ؛ وآستعملتْه دولتُه التى ترتاد أهلَ الفضائل للرُّتَب ، وتستظهر على المناصب بأبناء التُّقىٰ والحَسَب ، والفضلِ والمجدِ والأدَب ، ممن يجمعُ بين الطارف والتالدِ والإرث والمكتَسَب ؛ فكان معدُودا من عُدُول قُضاتها وصدُور نُبهائها ، وأعيان وُزرائها ، وأولي آرائها .

فلمَّا زان اللهُ خلافته بالتمحيص ، المتجلِّى عن التخصيص ، وخلَص مُلْكه الأصيل كالذهب الإبريز من بعد التخليص ، كان ممن صَحِب ركابَه الطالبَ لحق

(١) يقال طبّق السيف اذا أصاب المَفْصِل فأبان العضو . انظر اللسان .

بسَيْف الحق ، وسلك فى مظاهرته أوْضح الطُّرق ، وجادل مَنْ حادّه بأمضىٰ من الحداد الذُّلق ، وآشتهر خبرُ وَفَائه بالغرب والشَّرْق ، وصلّىٰ به صلاة السفَر والحضَر ، والأَمْن والحـذَر ، وخطب به فى الأماكن التى بَعُـد بذكر الله عهـدُها ، وخاطب عنه — أيده الله — المخاطبَاتِ التى حُمِد قصدُها ، حتّىٰ آستقلَّ مُلْكُه فوق سريره ، وآبتهج منه الإسلام بأميرِه وآبنِ أميره ، ونزل السِّـتر علىٰ العبادِ والبلاد ببركة إيالتِه ويُمْن تدبيره ، وكان الجليسَ المقرَّب المحـل ، والحَظىَّ المشاوَرَ فى العَقْد والحَـل ، والرسولَ المؤتَمَن علىٰ الأسرار ، والأمينَ علىٰ الوظـائف الكِبَار ، مزيّنَ المجلس السلطانىّ بالوَقَار ، ومتحِفَ المَلِك بغريب الأخبار ، وخطيبَ منبرِه العالى فى الجُمُعات ، وقارئَ الحديث لَدَيْه فى المجتمَعَات .

ثم رأىٰ — أيده الله — أن يُشْرِك رعيتَـه فى نَفْعه ، ويَصرِف عواملَ الحُظْوة إلىٰ مزيد رفعه ، ويُجْلسه مجلِسَ الشارع صلواتُ الله وسلامه عليه لإيضاح شِرْعه ، وأصله الوثيقِ وفرعه ، وقدَّمه — أعلىٰ الله قدمه ، وشكرَ آلاءه ونِعَمه — قاضياً فى الأمور الشرعيه ، وفاصـلا فى القضايا الدينيَّه ، بحضرة غَرْناطة [العلية] حرسها الله تقـديمَ الآختيار والآنتقاء ، وأبقىٰ له فخرَ السَّلَف علىٰ الخَلَف والله يمتّعه بطول البقاء .

فليتولَّ ذلك عادلا فى الحُكْم ، مُهتَدِياً بنور العِـلم ، مسوِّياً بين الخصوم حتّىٰ فى لحظه وآلتفاته ، متصفًا من الحلم بأفضل صِفاته ، مهيباً بالدِّين ، رءُوفاً بالمؤمنين ، مسَـجِّلا للحقوق ، غيرَ مُبـالٍ فى رضا الخالق بسُخْطِ المخلوق ، جَزْلا فى الأحكام ، مجتهدا فى الفصْـل بأمضىٰ حُسَام ، مراقبـاً لله عزَّ وجلَّ فى النَّقْض والإبرام ، بارًّا بمَشْيخة أهل التوثيق ، عادلًا إلىٰ سَعَة الأقوال عنـد المَضِـيق ، سائرًا من مشهور المذهب علىٰ أهـدَىٰ طريق — وأوصاه بالمَشُورة التى تقْـدح زِنادَ التوفيق ، والتثبت

حتى ينبلج قياسُ التحقيق؛ وصيةً أصدرها له مَصْدَرَ الذِّكرى التى تنفع، ويُعلِى الله بها الدرجاتِ ويرفع، وإلا فهو عن الوَصاة غنِيّ، وقصدُه قصدٌ سَنِىّ؛ والله عز وجل ولىُّ إعانته، والكفيلُ بحِفْظه من الشُّبُهات وصِيانته .

[وأمره ـ أيده الله ـ أن ينظُر فى الأحباس علىٰ آختلافها، والأوقاف علىٰ شتَّى أصنافها] (١) واليتامىٰ التى آنسدلتْ كَفالةُ القُضاة علىٰ ضِعافها . فيذُودُ عنها طوارقَ الخَلَل، ويُجْرى أمورَها بما يتكفَّل لها بالأَمَل .

ولْيعلَمْ أن الله عز وجل يَراه، وأن فَلَتاتِ الحكم تُعاوِدُه المراجعةَ فى أُخراه، فيدَّرِع جُنَّة تقواه، فسبحان من يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ .

فعلىٰ مَنْ يقِف عليه أن يعرف حقَّ هذا الإجلال، صائنًا منصبَه عن الإخلال، مبادِرًا أمرَه الواجبَ بالآمتثال؛ بحول الله .

وكتب فى الثالث من شهر الله المحرَّم فاتِح عامِ أربعةٍ وستين وسبعمائة، عرَّف الله فيه هذا المَقامَ العلىَّ عوارفَ النصر المبين والفتح القريب، بمَنِّه وكرمه، فهو المستعان لارب غيره .

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضا، وهو :

هذا ظهيرٌ كريمٌ أعلىٰ رتبةَ الآحتفاء [والآحتفال] (١) آختيارا وآختبارا، وأظهرَ معانِىَ الكرامة والتخصيص انتقاءً وآصطفاءً وإيثارا، ورفع لواءَ الجلالة علىٰ مَن آشتمل عليها حقيقةً وآعتبارا، ورقَّىٰ فى درجات العز من طاولَها علاءً بهر أنوارا، ودِيناً كرُم فى الصالحاتِ آثارًا وزَكَا فى الأَصالة نِجارا، وخُلُوصا إلىٰ هــذا المَقام العلىِّ السعيد

(١) الزيادة عن ريحانة الكتّاب، ونفح الطيب ص٧٣ ج ٣ .

راق إظهارًا وإضمارا. أمَرَ به وأمْضاه، وأنفذ العمل بحكمه ومقْتضاه، فلان للشيخ القاضى، العَدْل، الأرْضَى، قاضى الجماعة وخطيبِ الحضرة العليه، المخصوص لدىٰ المقام العلىّ بالحُظْوة السنيَّة والمكانة الحَفِيَّه؛ الفاضلِ، الحافلِ، الكامل، الموَقَّر، المبْرور أبى الحسن ابن الشيخ الفقيه، الوزير، الأجل، الأعزّ، الماجد، الأسنىٰ، المرَفَّع، الأحْفَل، الأصلَح، المبارَك، الأكمل، الموَقَّر، المبرور، المرحوم أبى محمد بن الحسن — وصلَ الله عزَّته، ووالىٰ رفعتَه ومبرَّته، ووهب له من صلة العناية الربَّانية أملَه وبُغْيته — لـمَّا أصبح فى صُدور القُضاة العلماء مُشارا إلىٰ جَلاله، مستَنَدا إلىٰ معارفه المخصوصة بكماله، مطرِّزا علىٰ الإفادة العلمية والأدبيَّة بمحاسنه البديعةِ وخصاله، محفوفًا مقعدُ الحكم النبوىّ ببركة عَدَالته وفضلِ جَلاله؛ وحلَّ فى هذه الحضرة العلية المحلَّ الذى لا يرقاه إلَّا عينُ الأعيان، ولا يتبوّء مهادَه إلا مثلُه من أبناء المَجْد الثابتِ الأركان، ومَوالى العلم الواضح البرهان، والمبرّزين بالمآثر العليَّة فى الحُسْن والإحسان. وتصدَّرَ لقضاء الجماعة فصدَرت عنه الأحكام الراجحةُ الميزان، والأنظارُ الحسنَةُ الأثرِ والعِيَان، والمقاصدُ التى وفَتْ بالغاية التى لا تُستطاعُ فى هذا المَيْدان؛ فكم من قضيَّة جَلَا بمعارفه مشكِلَها، ونازلةٍ مبهَمة فتح بإدراكه مُقْفَلها، ومسألة مُهْملة عرَّف نكِرَتَها وقرّر مهمَلَها؛ حتّى قرّتْ بعدالته وجَزالته العُيون، وصدَقت فيه الآمال الناجحةُ والظُّنون، وكان فى تصديره لهذه الولايةِ العُظْمىٰ من الخَيْر والخِيرة ما عسىٰ أن يكونَ — كان أحقَّ بالتشفيع لولاياته وأَوْلىٰ، وأجدرَ بمضاعفة النِّعم التى لا تزال تترادَفُ علىٰ قَدْره الأعلىٰ.

فلذلك أصدر له — أيده الله — هذا الظهيرَ الكريمَ مشيرًا بالترفيع والتنويه، ومؤكِّدا للاحتفاء الوجيه؛ وقدّمه — أعلىٰ الله قَدَمه، وشكر نعَمه — خطيبًا بالجامع الأعظم

[من حضرته] (١) ـ عَمَرَه الله بذكره ـ من عِلْية الخطباء، وكِبار العلماء، وخِيار الفقهاء الصُّلَحاء؛ فليتولَّ ذلك فى جُمُعَاته، مظهرا فى الخُطْبة أثرَ بركته وحسناته، عاملًا على مايقرِّبُه عند الله من مرضاته، ويُظفِره بجزيل مَثُوباته، بحول الله وقوّته.

الضـــرب الثـالث

(ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية)

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلى المعبَّر عنه فى بلادنا بكتابة السر؛ وهى:

هذا ظهير كريم نصب للمعتَمد به الإنافةَ (٢) الكبرى ببابه فرفَعه، وأفرَدَ له متْلُوَّ العز جمعَه ووترَه وشفعَه، وقربه فى بِساط المُلْك تقريبا [أرْغَمَ به أنف عِداه ووضعه] (٣)، وفتح له بابَ السعادة وشَرَعه، وأعطاه لواءَ القلم الأعلى فوجب على مَنْ دونَ رتبته، من أُولى صنعته، أن يتَّبعه، ورَعَى له وسيلتَه السابقةَ عند آستخلاص المُلْك لمَّا آبتزّه الله من يَدِ الغاصب وآنتزعه، وحَسْبُك من ذِمام لايحتاج إلى شىء معه.

أمر به الأميرُ فلان لفلان ـ وصل اللهُ سعادتَه، وحَرَس مجادَته ـ أطْلع له وجْهَ العناية أبْهى من الصبح الوَسيم، وأقطعه جَنابَ الإنعام الجَميم، وأنْشَقه أرجَ الحُظْوة عاطرَ النسيم، ونَقَله من كُرْسىّ التدريس والتعليم، إلى مَرْقَى التّنويه والتكريم، والرتبة الّتى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظّ عظيم، وجعل أقلامه جِيادًا لإجالة أمره العلىّ، وخطابِه السنىّ، فى مَيادين الأقاليم، ووضع فى يده أمانةَ القلَم الأعْلى، جاريًا من

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

(٢) فى الريحانة «نصب المعتمد به للأمانة» الخ وهو أنسب بالمقام.

(٣) من "ريحانة الكتاب".

الطريقة المُثلىٰ، علىٰ النَّهج القويم، وآختصه بمزيَّة الشُّفوف علىٰ كُتَّاب بابه الكريم .
لَمَّا كان ناهضَ الوَكْر فى طلبة حضرتِهِ من البدايه ، ولم يزل تظهَر عليه لأُولى آلتميز مخايِلُ هذه آلعِنايه : فإن حضَر حلَق العلم جَلَّى فى حَلْبة الحُفَّاظ إلىٰ الغايه ، وإن نَظَم أو نَثَر أتىٰ بالقصائد المصقوله ، والمخاطَبات المنقُوله ؛ فاشتهر فى بلدِه وغيرِ بلدِه ، وصارت أزِمَّة العناية طَوْعَ يده ، بما أوجب له المزِيَّةَ فى يومِه وغَدِه .

وحينَ ردّ اللهُ عليه مُلْكَه الذى جبَر به جَناحَ الإسلام ، وزيَّن وُجُوهَ الليالى والأيَّام ، وأدال الضِّياءَ من الظلام ؛ وكان ممَّن وَسَمه الوفاءُ وشَهَره ، وعَجَم الملكُ عُودَ خُلُوصه وخَبَره ؛ فحمِد أثَرَه ، وشكر ظاهرَه ومضمَرَه ؛ وآستصحب علىٰ رِكابه الذى صحِبَ اليمنُ سَفَره ، وأخلصت الحقيقةُ نَفَره ، وكَفَل الله وِرْدَه وصَدَره ؛ ميمونَ النَّقيبه ، حسَنَ الضَّريبه ؛ خالصًا فى الأحوال المُرِيبه ، ناطقًا عن مقامه بالمخاطَبات العجيبه ؛ واصلًا إلىٰ المَعانى البعيدة بالعبارات القريبه ، مبرِّزًا بالخِدَم الغريبه ، حتَّى آستقام العِماد ، ونطق بصِدْق الطاعة الحىُّ والجَماد ، ودخلتْ فى دين الله أفواجا العِبادُ والبِلاد ، لله الحمدُ علىٰ نِعَمه الثَّرَّة العِهاد ، وآلائِه المتوالية التَّرداد ــ رعىٰ له ــ أيَّده الله ــ هذه الوسائل وهو أحقُّ مَنْ يَرْعاها ، وشكر له الخِدَم المشكورَ مَسْعاها ؛ فقصر عليه الرُّتبة الشَّمَّاء التى خَطَبها بوَفائه ، وألبسه أثوابَ آعتنائِه ، وفَسَّح له مجالَ آلائه ؛ وقدمه ــ أعلىٰ الله قدَمَه ، وشكر نعمَه ، ــ كاتبَ السِّرِّ ، وأميرَ النهى والأمر ؛ تقديمَ الاختبار ، والاغتباط بخدمته الحسنة الآثار ، والتيمُّن باستِخْدامه قبلَ الحُلول بدار المُلْك والاستقرار ، وغيرِ ذٰلك من مُوجِبات الإيثار .

فليتولَّ ذٰلك عارفًا بمقداره ، مقتفِيًا لآثاره ، مستعينًا بالكتْم لأسراره ، والاضْطِلاع بعظام أُموره وكِباره ، متَّصِفا بما يَجْمُل من أمانته وعَفافه ووَقاره ؛ معطياً هذا الرسم

حقَّه من الرِّياسه، عارفًا بأنه أكبرُ أركانِ السِّياسه؛ حتّى يتأكّدَ الاغتباطُ بتقريبه وإدنائه، ولتتوفَّرَ أسبابُ الزِّيادة فى إعلائه؛ وهو ـ إن شاء الله ـ غنىٌّ عن الوَصَاة فَهْمًا ثاقبا، وأدبًا لعيون الكمال مُراقِبا؛ فهو يعمَلُ فى ذلك أقصى العمَل، المتكفِّل ببلوغ الأمَل.

وعلى مَنْ يقِف عليه : من حَمَلة الأقلام، والكُتَّاب الأعلام، وغيرهم من الكافَّة والخُدَّام، أن يعرفُوا قدرَ هذه العناية الواضحةِ الأحكام، والتقديم الراسِخ الأقدام، ويوجبُوا ما أوجب من البِرِّ والإكرام، والإجلال والإعظام؛ بحول الله وقُوَّته، وكتب فى كذا .

الطـــــرف الثـالث

(فى مصطلَح كُتَّاب الديار المصرية فيما قَبْل الخلفاء الفاطميين وفيما بعدهم إلى زماننا)

وفيه أربعُ حالات :

الحـالة الأولى — ماكان عليه أمر نُوّاب الخُلَفاء بهذه المملكة إلى ابتداء الدولة الطُّولونيَّة .

ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المُدّة صَرْف عناية، تقاصُرًا عن التشبُّه بديوان الخلافة، إذ كانت الخلافةُ يومئذ فى غاية العِزِّ ورِفْعة السلطان، ونيابةُ مصرَ بل سائرُ النيابات مضمَحِلّة فى جانبها، والولاياتُ الصادرةُ عن النوّاب فى نياباتهم متصاغرةٌ متضائلةٌ بالنسبة إلى مايصْدُر من أبواب الخلافة من الولايات، فلذلك لم يقَعْ مما كتب منها ماتتوفَّر الدواعى على نقله ولاتنصرف الهِمَم لتدوينه مع تطاوُل الأيام وتوالِى اللَّيالى .

الحالة الثانية — ما كان عليه أمرُ الدولة الطُّولونيَّة من حين قيام دولتهم إلىٰ ٱنقراض الدولة الأخْشِيديَّة .

وقد تقدّم أن أحمدَ بنَ طُولون أوّلُ من أخذ فى ترتيب الملك وإقامة شِعَار السلطنة بالديار المِصْرية . ولما شَمَخ سلطانُه، وٱرتفع بها شانُه، أخذ فى ترتيب دِيوان الإنشاء لما يَحتاج إليه فى المكاتَبات والولايات، فاستكتبَ ٱبنَ عبد كان، فأقامَ مَنار ديوان الإنشاء ورَفَعَ مِقْداره، وكان يفتتِح ما يكتُبه عنه فى الولايات بلفظ « إنَّ أَوْلىٰ كذا » أو « إن أحقّ كذا » وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة عهد كَتَب به ٱبنُ عبدكان عن أحمدَ بنِ طُولون بقضاء بَرْقة تُرشِد إلىٰ ما عداها من ذلك وهى :

إنَّ أحقَّ مَنْ آثَرَ الحقَّ وعمِل به، وراقبَ الله فى سِرِّ أمره وجَهْره، وٱحترس من الزَّيغ والزَّلَل فى قوله وفعله، وعمِل لمَعَاده ورجْعته، إلىٰ دار فاقته وفقْره ومسكنته، مَنْ جُعِل بين المسلمين حاكمًا، وفى أمورهم ناظرا: [فأراق] (١) الدماءَ وحَقَنها، وأحلّ الفروجَ وحَرَّمها، وأعطى الحُقوقَ وأخذَها؛ ومَنْ علم أنَّ الله تبارك وتعالىٰ سائلُه عن مِثْقال الذَّرَّة من عمله، وأنه إنما يتقلَّب فى قَبْضته، أيام مُدَّته، ثم يخرج من دُنياه كخروجه من بطن أُمِّه، إما سعيدًا بعَمَله وإما شقيًّا بسعْيه .

وإنَّا لمَّا وَقَفْنا عليه من سَديد مذْهَبك وقويم طَريقتك، وجميل هَدْيك وحُسْن سِيرتك، ورجَوْناه فيك، وقرّرناه عندك: من سُلوك الطريقة المُثْلىٰ، وٱقتفاء آثار أئمة الهُدىٰ، والعملِ بالحق لا بالهوىٰ — رأينا تقليدَك القضاءَ بينَ أهل ثَغْر بَرْقة، وأمرناك بتقوىٰ الله الذى لا يُعجِزُه من طَلَب، ولا يفوته من هَرَب — وبطاعته التى مَنْ آثرَها

(١) بياض فى الاصل والتصحيح من المقام .

سعد، ومن عمل بها حُمِد، ومن لَزِمها نجا، ومن فارقها هَوىٰ ـ وأن تُواصل الجلوسَ لمن بحضْرتك من الخُصوم : صابرا بنفْسك علىٰ تنازُعهم فى الحقوق، وتدافُعِهم فى الأمور؛ غيرَ برِمٍ بالمراجَعات، ولا ضَجِر بالمحاكمات : فإنّ من حاوَل إصابةَ فصلِ القضاء، وموافقةَ حقيقةِ الحكم بغير مادَّة من حِلْم، ولا معونةٍ من صبرٍ، ولا سُهْمة من كَظْم، لم يكُن خليقًا بالظَّفر بهما، ولا حقيقًا بالدَّرْك لهما ـ وأن تَقْسِم بينَ الخَصْمين إذا تقدّما إليك، وجلَسا بينَ يديْك، فى لَحْظك ولَفْظك، وتُوَفِّىَ كلَّ واحد منهما قِسْمه من إنصافك وعَدْلك؛ حتّىٰ ييْأس القوىُّ من مَيْلك، ويأمَنَ الضعيفُ من حَيْفك : فإنّ فى إقبالك بنَظَرك وإصغائك بسمعك إلىٰ أحد الخصمين دُونَ صاحبِه ما أضلَّ الآخرَ عن حُجَّته، وأدخل الحيرَةَ علىٰ فكره ورَوِيَّته ـ وأن تُحضِر مجلسَ قضائك من يُستظْهَر برأيه، ومَنْ يَرْجع إلىٰ دينٍ وحِجًا وتُقًى : فإن أصبْتَ أيَّدك، وإن نَسيتَ ذَكَّرك ـ وأن تقتدىَ فى كلّ ما تُعمل فيه رَويَّتك، وتُمضى عليه حكْمَك وقضيَّتك، بكتاب الله الذى جعله صراطا مستقيما، ونُورا مستبينا؛ فشرعَ فيه أحكامَه، وبيّن حلالَه وحرامَه، وأوضح به مشكلاتِ الأُمور، فهو شفاءٌ لما فى الصُّدور. وما لم يكن فى كتاب الله جل وعز نصُّه فإنّ فيما يُؤْثَر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حُكْمه؛ وما لم يكن فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱقتفيْتَ فيه سبيلَ السَّلَف الصالح من أئمة الهُدىٰ رضى الله عنهم الذين لم يألُوا الناس ٱختبارا، ولا ٱدَّخَروهم نصيحةً وٱجتهادا؛ عالما أنك أسعدُ بالعدل ممن تَعْدل عليه، وأحظَىٰ بإصابة الحق ممن تُصيبه فيه : لما تتعجَّلُه من جميل أُحدوثته وذِكْره، ويُذْخَر لك من عظيم ثوابه وأجره، ويُصْرَف عنك من حُوب ماتتقلّده ووِزْره ـ وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم [من] أهلِ الثّقة فى أديانهم، والمعروفينَ بالأمانة فى مُعامَلاتهم، والموسُومين بالصدق فى مَقالاتهم، والمشهورين

بالتقدّم فى عَدَالاتهم : فإنك جاعلُهم بينَ الله و بينَك فى [كل] كلامٍ تُصْدِره، وحكمٍ تُبْرِمه؛ وحقيقٌ بأن لا ترضَىٰ لنفسك منهم إلا بمـا يُرضَىٰ منك، وتَعلَمُ أن ذلك هو الصدقُ، وأنك قد أبليتَ عُذرَك فى تَخيُّرهم، فإنه بعلم أن ذلك هو الصِّدقُ من نِيَّتك، والصِّحة من يقينك، تحسُن عليه معونتُك، ويحضُرك التوفيقُ فى جميع أقضيتك ــ وأن يكونَ من تستعينُ به علىٰ المسألة عن أحوال هؤلاء الشهودِ ومذاهبِهــم، وما يُعرَفون به و ينسَبُون إليه فى رحالهم ومَساكِنهم أهلَ الوَرَع والأمانه، والصِّدق والصيانه ــ وأن تجدِّد المسألة عنهم فى كل مرّة، وتفحَص عن خبرهم فى كل قضيه؛ ثم لا يمنعَك وُقوفُك علىٰ سُقُوط عَدالةِ من تقـدَّمتَ بتعديله من آستقبال الواجبِ فى مثله، وآستعمالِ الحقِّ فى أمْره ــ وأن تُشرف علىٰ أعوانك وأصحابك، ومن تجرى أمورُك علىٰ يديه من خلفائك وأسبابك؛ إشرافا يمنعُهم من الظلم للرعيَّــه، ويقبضُ أيديَهم عن المآكل الرَّديّه، ويدعُوهم إلىٰ تقويم أَوَدِهم، وإصلاح فاسدِهم، ويزيدُ فى بصـيرة ذوِى الثِّقة والأمانة منهم؛ فمن وقفتَ منـه علىٰ آمتثالٍ لمذهبك، وقبولٍ لأدبك، وآقتصارٍ فيما يتقلَّده لك، أقررتَه وأحسنْتَ مكافأته ومَثُوبته، ومن شَممت منه حَيْفا فى حكمه، وتعـدِّيا فى سِـيرته، وبَسْطا ليده إلىٰ ما لا يجب له، تقدّمت فى صَرْفه، وألزمته فى ذلك ما يلزَمُه ــ وأن تختار لكتابتك من تَعرِف سَداد مذهَبه، وآستقلاله بمـا يتقلَّده، وإيثارا لدرس (؟)[1] من صحته، ومَنْ تقـدَّر عنده تقديمـا[2] فى نصيحتك فيما يجرى علىٰ يديْه، وتوخِّيا لصدقك فيما يحضُره وتَغيب عن مشاهدته؛ فإنك تأمنُه من أمر حكمك علىٰ ما لا يؤتمن علىٰ مثـله إلا الأمين، وتُفوِّض إليـه من حُجَج الخصوم المرفوعِين إليك ما لا يفوَّض إلا لذى العَفاف والدِّين ــ وأن تتفقد

(١) لعله «و إيثاره للتأكد من صحته» . تأمل .

(٢) لعله « تحريا » تأمل .

مع ذلك أمره، وتتصفّح عمله، وتُشرف على ماتحتَ يديه بما يؤدّيك إلى إحكامه وضبطه، ويؤمّنك من وقوع خلل فيه ـ وأن تختار لحجابتك من لا يتجهّم الخُصُوم، ولا يختَصّ بعضَها دونَ بعض بالوُصول، وتُوعز إليه فى بَسْط الوجه، ولِين الكَنَف، وحُسْن اللفظ، ورفع المئونة، وكفّ الأذى.

فتقلّدْ ماقلّدناك من ذلك عاملا بما يحقّ عليك لله جلّ وعزّ ذكره، ومستعينًا به فى أمرك كلّه: فإنّا قلّدناك جسيما، وحمّلناك عظيما، وتبرّأنا إليك من وِزْره وإصْره، واعتمدْنا عليك فى توخّى الحقّ وإصابته، وبسْط العدلِ وإفاضته؛ واقبِضْ لأرزاقك وأرزاق كُتّابك وأعوانك ومن يحجُبُك ولثمَن قراطيسك وسائر مُؤَنك فى كل شهرٍ أربعين دينارا؛ فقد كتبْنا إلى عامل الخَراج بازاحة ذلك، أوقات استحقاقك إيّاه ووجوبه لك، وإلى عامل المدينة بالشّدّ على يَدك، والتقوية لأمْرك؛ وضَمّ العِدّة التى كانت تُضَم إلى القضاة من الأولياء إليك، وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالى.

الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيُّوب.

وكانوا يسمُّون ما يكتَب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام «تقاليدَ» و«تواقيعَ» و«مراسيمَ» وربّما عبّروا عن بعضها با«لمَنَاشير»

وهى فى الافتتاحات على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى — أن تفتتح الولايةُ بخطبة مبتدأة بالحمدُ لله تعالى ثم يؤتَى بالبعديّة، ويذكَرُ ما سنَح من حال الولاية والمولّى، ويُوصَى المولّى بما يليقُ بولايته، ثم يقال: «وسبيل كلّ واقفٍ عليه من النوّاب العملُ به» أو نحو ذلك.

وهى على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول — أرباب السيوف من هذه المرتبة

وهذه نسخة توقيع بولاية ناحيةٍ وإقطاع بلادِها لمتوليها ، وهى :

الحمدُ لله علىٰ عوائده الجميلة وعَواطفِه ، وفوائدِه الجزيلة وعَوارِفه ؛ ناصبِ الحقّ وناصره ، وقاصمِ الباطلِ وقاصرِه ؛ ومُنيرِ الدين ومُديله ، ومُبيرِ الكُفْرِ ومُذيله ؛ وشادِّ أَزْرِ أوليائه وسادِّ ثغرهم ، وناصرِ مُعِزّهم ومُعِزِّ نصْرِهم ؛ الذى أضفىٰ علينا مَدَارِعَ نِعمه ، وأصفىٰ لدينا مَشارِعَ كَرَمه ؛ وأعلق أيدينا من العدل بأوْكد الأسباب والأمْراس ، وصَرَف بنا صَرْفَ العَسْف وكفَّ بكفايتنا كَفَّ البُؤْس عن الرعيَّة والبَأس ؛ وجَلَب إلىٰ آستجلاب الشكر من الناس هِمَّتنا ، وطَوىٰ علىٰ حُبِّ البِرِّ وإبرار المُحِب طويَّتنا ؛ وحَسَم بما أوْلاناه من أيْدٍ مادّةَ كلِّ يدٍ تمتد إلىٰ محظور ، ويسَّرنا بِبساط العدل المطوىّ لمَا طَوىٰ بعدلنا بِساطَ الظُّلم المنشور ؛ وأبىٰ لنا أن نكفُرَ نِعْمَة أو نَهَبَها لكافر ، أو نَدَعَ شُكْرَ مِنَّة أو نُودِعَها عند غير شاكر .

ولمَّا كان الأمير فلان ممَّن سبقَتْ لجدّه ولأبيه ـ تعاهد اللهُ بالعِهاد مَثْواهما ، وخص بثَرَّارِ الرحمة ثَراهما ـ الحُرَم الأكيده ، والخِدَمُ الطريفةُ والتَّليده ، ولم يزالَا مجتهدَيْن فى تعمير هذا البيتِ وتشييد أُسِّه ، ملازِمَيِ الإدآب فى إنمائه وتَشْديد غرسه ، مُفْضِيَيْن بالموالاة إلىٰ مُوَاليه ، مفْصِحين بالمعاداة لمُعَاديه ، رأينا ـ لا زال الإقبال لآرائنا مقابلا ومُرافقا ، والسعدُ مساعدًا والتوفيقُ موافقا ، ـ أن نُلحِقَه بدرجة أوّلِيه ، ونُورِدَه من كرمنا مَوْرِدَ جدّه وأبيه ؛ ونَثْنِىَ إليه عِنان عِنايتنا ، ونَرْعاه بعين رعايتنا ؛ ونُلحِفَه جَناحَ لُطْفنا ، ونبوِّئه مَقْعَد شرف تحتَ ظِلِّنا ؛ ونحْرُس حَدّه من الفُلول ، وجَدّه من الخُمول ؛ وعُودَه من الخَوَر ، ووِرْدَه من الكَدَر ؛ وأن نقرره

علىٰ ما بوّأنا فيه والِدَه من الهِبات والإنعام والإفْضال والإحسان، وجميع ما دخل تحت آسمه من المَعاقل والبُلْدان، وسيُوضَّح ذلك بقلم الدِّيوان .

فليقابِلْ هذا الإنعامَ من الشكر بمِثْله، ويُوازِ هذا الإفضالَ من حُسْن القَبُول بِعدْله، ولْيرتبِطْ نِعَمَ الله عنده بالشُّكر الوافِى الوافِر، فالسعيدُ مَن آطَّرح خَلَّة الشاكى وآدَّرع حُلَّة الشاكر، ولْيُدْمِنِ التحدّثَ بها فالتحدّثُ بالنِّعَم من الشكر، ويستجذب موادّها بإيضاح سُبُل البِر، ويجعَلِ التقوىٰ شِعاره ودِثارَه، ويُخْلِص الطاعةَ لله إيرادَه وإصدارَه .

وليكُنِ العدلُ رَبِيئتَه ورائدَه، والأمرُ بالمعروف دليلَه وقائدَه، ولْيَقُم فيما نِيط به حقَّ القيام، ويَشَمِّرْ فى حِفْظ ما آسترعَيْناه عن ساقِ الآهتمام، ويعلَمْ أن منزِلته عندنا أسنىٰ المَنَازل وأعلاها، ومرتبَته لدينا أبهجُ المراتِب وأبْهاها، ومحلَّه عندنا السامِى الذى لايُضاهيه سامِى، ومكانَه المكانُ الذى ليس له فى الممكن أن يفْتَرِع عَلَمَه سامى، فسبيلُه علمُ ذلك وتحقيقُه، وتَيَقُّنه وتصديقُه، وسبيل كلِّ واقفٍ علىٰ هذا المثال، [أن] يقابله بالآمتثال، من سائر العُمَّال، وأرباب الوِلايات والأعمال . والآعتمادُ علىٰ العَلَامة الشريفة فى أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — أرباب الوظائف الدينية

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسةٍ والنظرِ عليها، والتحدّثِ علىٰ أوقافها وسائر تعلُّقاتها، وهى :

الحمد لله الظاهرِ إحسانُه، الباهرِ بُرهانُه، القاهرِ سلطانُه، المتظاهِرِ آمتنانُه، نحمدُه علىٰ إنعامه حمدًا يدُوم به من حلب غزارته وحلى نضارته ازديادُه وازْديانُه،

ونسأله أن يصلّي علىٰ سيدنا محمد نبيّه الشارع الشارح بيانُه ، وعلىٰ آله وصحْبه الذين هم أعضاد شَرْعه وأركانُه .

أما بعد ، فإنّا لما نَراه من تشييد بُيُوت ذَوى البُيوتات ، وإمضاء حُكْم المُرُوءة فى أهل المُرُوءات ، وإرعاء مَوَاتِّ ذَوى الحقوق الحقيقة بالمراعاة وإحياء المَوَات ، وموالاةِ النِّعم الشامل عمومُها لأُولى الخُصوص والخُلُوص فى الموالات ، ما نزال نُلحِق درَجاتِ الأخلاف منهم فى الآختصاص بالآستخلاص بالأسلاف ، فنُورِدُهم من مَشارع دولتنا ومَشَارب نعمتِنا فى الآصطفاء والآصطناع أعذبَ النِّطاف ، ونُجنيهم من مَغَارس الرجاء ، ومَجَارى النَّماء ، فى الإدناء والآجتباء ، ثمراتِ النِّعم الدانيةَ القِطاف ، ونُفِيض عليهم من مَدَارع البَهْجة والبَهاء ، وحُلَل الثَّناء والسَّناء ، فى الاكرام، بالآحترام، ما يضفُو علىٰ الأعْطاف .

ولما كان الشيخُ فلان متوحِّدا بالنسب الأثير الأثيل ، والحسب الجَلِيّ الجليل ، والمَحْتِد الأكيد الأصيل ، والفضل المَوْرُوث والمكتسَب ، والزَّكاءِ فى المنتمىٰ والمنتَسَب ، والذَّكاء الذى أنارتْ فى أُفُق التوفيق ذُكاؤه ، والولاءِ الذى بان فى شِرْعة الإخلاص صَفاؤُه ، والدِّينِ الذى علا سَنَاسنُه ، فى مَنَار التحميد ، والخُلوص الذى حَلَا جَنَىٰ جنّتِه ، فى مَذَاق التوحيد ، والرِّياسة التى تَضَوَّع رَيًّا رياضِها المُونِقه ، والسماحةِ التى تَنَوَّح حَيَا حِيَاضها المُغْدِقه ، والأمانةِ التى نهضَتْ بها فضائلُه ، والموالاةِ التى نَجحتْ بها عندنا وسائلُه ــ رأينا إجراءَه علىٰ عادة والدِه فى تَوَلِّى المدرسة المعمُورة التى أنشاها جدُّه للشافعيــة بحَلَب ، وأوقافِها ، وأسبابها ، وتدريسها ، وإعادتها ، وآستنابةِ مَنْ يراه ويختاره فى ذٰلك كله ، والنظرِ فى جميع ما يتعلّق بهــا كُثْرِه وقُلِّه ؛ وترتيب الفقهاءِ فيها ، وتقرير مشاهَراتهم علىٰ ما يراه من تفضيلٍ وتقديم ، وتفصيل

وتقسيم ، وتخصيص وتعميم ، ونقص وتكميل وتتميم ؛ وحفْظ الوقوف بالاحتياط في مَصارفها ، والعملِ فيها ، بشروط مُحَبِّسيها وإطلاقها بقُيود واقفيها ، بالابتداء بالعِمارات ، التي تُؤْذِن بتوفير الارتفاعات ، وتكثير المَغَلّات ، وتنْمية الثمرات ؛ مستشعرا تقوىٰ الله التي هى حِلْيـة الأعمالِ الصالحات ، والعِصمةُ الباقية والجُنَّـة الواقية عند النائبات . وفوّضنا ذٰلك إلىٰ أمانته ، و بعْـده إلىٰ مَن يقوم مَقامَه من إخوته ، تشييدًا لبيتهم الكريم ، وتجديدًا لمَجْدهم القـديم ، ورَفْعا لمكانتهم المكينه ، وحِفْظا لمرتبتهم المَصُونه . وأمرنا بإعفاء جميع أوقافِ المدرسـة وسائرِ أوقافهم ، وأملاكه وأملاكِ إخْوته وحمايتِهم من جميع المَظَالم والمَطَالب ، والنَّوائب والشَّوائب ، والعوارض والعراض واللّوازم والكُلَف ، والمُؤَن والسُّخَر ، والتِّبْن والحطب ، والأطْبـاق والأنْزال ، وسائر التوزيعات والتقسيطات والأنْفال ؛ وإعفـاءِ فَلّاحيها ومُزارعيها من جميع ذٰلك ؛ وإطلاق كلِّ ما يصل من مَغَلّات الأوقاف والأملاك المذكورة إلىٰ مدينـة حَلَب من جميع المُؤَن علىٰ الإطلاق ، وكذٰلك جميعُ مالهم من البِضاعات والبِيَاعات والتِّجارات مُعْفاةٌ مطلقةٌ لا اعتراضَ عليها لأحد ، ولا تُمَدّ إلىٰ شيءٍ منهـا يَدُ ذِى يد . وليتولّ ذٰلك علىٰ عادته المشكُوره ، وأمانته المشهُوره ، بنظرٍ كافٍ شاف ، وكرمٍ وافرٍ واف ، ووَرَعٍ من الشوائب صاف ، وعُزوفٍ عن الدَّنِيّات بالدِّينيّات مُتَجاف ، وسَداد لرُكْن المصـالح شائد ، وتذكيرٍ لترقى موادّ المَنَاجح رائد ، ورأيٍ فى ذِمّة الصواب راجح ، وسَـعْىٍ برتبة الرَّشاد ناجح ، وهِمّةٍ عالية فى نشر العلم بالمدرسة وإعلاء مَناره ، وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحِفْظه وتَكْراره ، ومُرُوءةٍ تامة فى الاشتمـال علىٰ إخْوته ومُخَلَّفى أبيه بمـا يَصل به الرَّحِم ، ويَظْهَر به الكرم ، ويُحيى من مَفاخر آبائه الرِّمَم ، ويُقَوِّى لهم من مَعاقد مكارمه العِصَم . وسبيلُ الوُلاة والنوّاب وكل واقفٍ علىٰ هذا المثـال إمضاءُ ذٰلك كلِّه علىٰ سبيل الاستمرار ،

وتصرم الأعمار، وتصرف الأعصار، وتقلب الأحوال والأدوار؛ وحفظه فيهم وفى أعقابهم على العصور والأحقاب، ووصل أسبابه عند انقطاع الأسباب، من فسخ ينقض مبرم معاقده، أو نسخ يقوض محكم مقاعده، أو تبديل يكدر صافى موارده ومشارعه، أو تحويل يقلص ضافى ملابسه ومدارعه. وليبذل لهم المساعدة فى كل ما يعود له ولجماعته بصلاح الحال، وفراغ البال ونجاح الآمال، وإقامة الجاه فى جميع الأحوال. والعمل بالأمر العالى وبمقتضاه، والاعتماد على التوقيع الأشرف به إن شاء الله تعالى.

الصنف الثالث — أربابُ الوظائف الديوانية

وهذه نسخة توقيع بوزارة، من إنشاء بعض بنى الأثير، وهى :

الحمدُ لله الذى فضَّلنا على كثير من عباده، وأغنانا بمزيد عطائه عن ازدياده، وجعلنا ممن استخلفه فى الأرض فشكر عواقب إصداره ومبادئ إيراده.

نحمدُه ولسان أنعمه أفصحُ مقالًا وأفسح مجالا، وإذا اختلفت خواطرُ الحامدين رويّةً كاثرها ارتجالا؛ ونسأله أن يوفّقنا لتلقّى أوامره ونواهيه بالاتباع، وأن يُصغى بقلوبنا إلى إجابة داعى العدل الذى هو خيرُ داع، ويُنقذنا من تبعات ما استرعاناه يوم يُسأل عن رعيّته كلُّ راع.

أما بعدُ، فإن الله قرن استخارته برشده، وجعلها نورا يُهتدى به فى سُلوك جدده، ويُستمدّ من يُمن صوابه مايُغنى عن الرأى ومدده. ومن شأننا أن نتأدّب بآداب الله فى جليل الأمر ودقيقه، وإذا دلّ التوفيق امرءًا على عمله دلّ عملُنا على توفيقه؛ فمن عُنوان ذلك أنا اصطفينا لوزارتنا مَنْ تحمدُنا الأيام من أجله، وتحسُدُنا الملوكُ على مثله، ويعلمُ من أتى فى عصره أنه فات السابقين من قبله، وهو الوزيرُ الأجل

السيدُ الصدرُ الكبير، جلالُ الدين، شرفُ الإسلام، مجتبىٰ الإمام نخرُ الأنام ؛ وليست هذه النعوت مما تزيد مكانه عُرْفا ، ولا تستوفى من أوصافه وَصْفا ؛ وإن عدّها قومٌ جُلّ ما يدّخرونه من الأحساب ، ومعْظَمَ ما يخلّفونه من التراث للأعقاب ، ولا يَفْخر بذلك إلا مَنْ أعدم من ثَرْوة شرفه ، ورضِىَ من الجوهر بصَدَفه ؛ وأنتَ فغير فاخرٍ به ولا بما وَرِثْتَه من مجْد أبيك الذى أضحتِ الأيّام به شُهودا ، والجُدُود له جُدُودا ، وغَدا وكأنّ عليه من شمس الضُّحى نُورا ومن الصَّباح عمودا ؛ وقد علمتَ أنه كان إليه نَسَبُ المكارم وسيَمِها ، وكان مابلغه منها أعظَمَ ما بلغه من دنياه علىٰ عِظَمِها ؛ لكنّك خلّفت لنفسك مجْدا منك ميلادُه ، وعنك إيجادُه ، وإذا اقترن سعْىُ الفتىٰ بسَعْى أبيه فذٰلك هو الحسَبُ الذى تقابل شَرَفاه ، وتلاقىٰ طَرَفاه ، وغَضّ الزمان عنه طَرْفَه كما فتح بمَدْحه فاه ؛ وإذا استطرفَتْ سادةُ قوم بنيتَ بالسُّؤدَد الطريفِ التَّليد ، ولقد صدَق اللهُ لهجةَ المُثْنِى عليك إذ يقول : إنّك الرجلُ الذى تُضْرَب به الأمثال ، والمهذَّب الذى لا يقال معه : أىُّ الرجال ؛ وإذا وازَرْتَ مملكةً فقد حظِيَتْ منك بشَدّ أزرها ، وسَدّ ثغرها ، وأصبحتْ وأنتَ صدرٌ لقَلْبها وقَلْب لصَدْرها ؛ فهى مزدانةٌ منك بالفضل المُبِين ، معانةٌ بالقوِىّ الأمين ؛ فلا تبِيتُ إلا مستخدمًا ضميرَك فى وَلَائها ، ولا تغدُو إلا مستجديًا كفايَتك فى تمهيدها وإعلائها .

ومن صفاتك أنك الواحدُ فى عَدَم النظير ، والمعدُود بألف فى صواب التدبير ، والمؤازرُ عند ذُكْر الخيْر علىٰ الإعانة وعند نِسيانه علىٰ التذكير ؛ ولم ترقَ إلىٰ هذه الدرجة حتّى نَكَحتَ عَقبات المَعَالى فقضيْتَ أجلَها ، وآنسْتَ من طُور السعادة نارًا فهُدِيتَ لها ؛ ولم تبلغْ من العُمْر أشُدّه ، ولا نزعَ عنك الشبابُ بُرْدَه ؛ بل أنت فى رَيْعان عُمْرك المتجملُ برَيْعان سُؤْدده ، المتقمّصُ من سيما الجلال ما أبرزَ وَقَارَ

المَشيب فى أَسْوده . وهذا المنصبُ الذى أُهِّلت له و إن كان ثانِىَ المُلك مَحلّا ، وتِلْوه عَقْدا وحَلّا ، فقد علَا بك قَدْرُه ، وتأبّل بك أمره ؛ وأصبحَ وشخصُك فى أرجائه مَنَار ، ورأيُك وفضلُك من حوله سُورٌ وسِوَار ؛ وله من قلمك خطيبٌ يجادل عن أحساب الدولة فينفحُها نخرا ، وسيفٌ يُجالِد عن حَوْزتها فيمنحُها نَصْرا ؛ ولقد كان من قَبْلك وقبل أبيك مُكرَها علىٰ إجابة خاطِبه ، والنّزولِ إليه عن مَراتبه ؛ فلمّا جئتماه آستقرّ فى مكانه ، ورضِىَ بعُلُوّ شأنِكما لعلوّ شانه ؛ وقد علم الآنَ بأنكَ نزلته نُزولَ الليث فى أَجَمه ، وآستقلْتَ به آستقلالَ الرُّمح باحدمه (؟) ؛ وما زالتِ المعالى تَسْفِر بينك وبينه وأنت مشتغِل بالسعى للسيادة وآدابها ، عن السعى للسّعادة وطِلَابها . نخُذ ما وصلت إليه بآستحقاق فضلك ومَناقبه ، لا بآتفاق طالعك وكواكِبه .

وآعلم أنّ هذه النعمةَ و إن جاءتْك فى حَفْلها ، وأناخَتْ بك بصاحبها وأهلها ؛ فلا يُؤْنِسها بك إلا الشكرُ الذى يجعل دارَها لك دارا ، ووُدَّها مستمْلكا لك لامُعَارا ؛ وقد قيل : إنّ الشكرَ والنعمةَ توءمان ، و إنه لا يتم إلا بآجتماع سِرّ القلب وحديث اللسان ؛ فاجعلْه معروفَها الذى تُمْسِكها بإحسانه ، وتَقيِّدها بأشْطانه .

وقد أفردْنا لك من بيت المال ما تستعينُ به علىٰ فرائض خِدَمتك[1] ونوافله ، وتُرَدّ فضلَه علىٰ آبتناء مجدِك وفضائله ؛ وذلك شىءٌ عائدٌ علىٰ الدولة طِيبُ سُمْعته ، فلها محمودُ ذِكره ومنك مَوارِدُ شِرْعته ؛ وإذا حُمِدت مَناهل الغُدُر كان الفضل للسحاب الذى أغْدَرها . والمفرَد باسمك من بيت المال كذا وكذا .

وكلُّ ما تضمّنه تقليدُ غيرك من الوصايا التى قُرِعتْ له عصاها ، ونُبِذَتْ له حَصَاها ، فأنت مستغْنٍ عن آستماعِها ، مكتفٍ بآطّلاع فكرك عن آطّلاعها ؛ غير أنا نسألُك كما سأل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم مُعَاذا ، ونسألُ اللهَ أن يجعلَ لك

(١) لعله «منصبك» . تأمل .

من أمرك يُسْرا ومن عَزمك نَفَاذا ؛ وقد أجابنا لسانُ حالك بأنك تأخذ بتقوى الله التى ضَمِنَ لها العاقبه، وجعل شيعتَها الغالبه، وأنك تجعلُها بينك و بينه سببا ممدودا ، و بينك و بين الناس خُلُقا معْهودا ؛ حتّى تُصْبح وقد أمِنْتَ من دهرك عِثَارا ، ومن أبنائه أسماعا وأبصارا — ومن شرائطها أن يكونَ الرجلُ المسلم الذى سلم الناسُ من يَدِه ولسانه ، وفى هذين كفاية عن غيرهما من الشِّيَم، التى تُحفَظ بها سياساتُ الأمم : فإنَّ العدل هو الميزان الذى جعله الله ثانِيَ الكتاب ، والإحسان الذى هو الطينةُ التى شاركَتْها القلوبُ فى جِبِلَّتها مشاركةَ الأحباب .

وأمّا ماسوى ذٰلك من سياسة الملك فى تقرير أُصُوله، وتدبير محصُوله، كالبلاد وآستعمارها ، والأموال وآستثمارها ، وولاةِ الأعمال وآختبارها ، وتجنيدِ الجنودِ وآختيارها ، فكلُّ ذٰلك لا يصدر تدبيرُه إلا عن نَظَرك ، ولا يُمْشَى فيه إلا علىٰ أثرك ، وأنت فيه الفقيهُ آبْنُ الفقيه الذى سرىٰ إليك عِلْمُه نفسا ودَرْسا ، وثمرةً وغرسا، فهذا كتابُ عهدنا إليك : نحذه بقوّةِ الأمانة التى أبتِ السموات والأرض حملَها ، وما أطاقَتْ ثِقَلَها ، والله يسلُك بك سَدَدا ، ويتحرّى بك رَشَدا ، ويلزمك التوفيقَ قلْبا ولسانًا ويَدا ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك نسخةُ توقيع باعادة النظر بثَغْر الإسكندرية لآبن بصَّاصةَ فى شهور سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى أضحكَ الثغور بعد عُبُوسها، وردَّ لها جمَالَها وأنار أُفُقَها بطُلُوع شُموسها ، وأحيا معَالم الخير فيها وقد كادتْ أن تُشْرِف علىٰ دُرُوسها ، وأقامَ لمَصالح الأمة من يُشْرِق وجْهُ الحق ببَيَاض آرائه، وتلتذُّ الأسماعُ بتلاوةِ أوصافه

الجميلة وأنبائه ، حَمْدَ من أُسْبِغتْ عليه النَّعماء ، وتهادَتْ إليه الآلاء ، وخطبَتْه لنفسها العَلْياء .

وبعدُ ، فأحَقُّ مَن ماس فى أندية الرِّياسة عِطْفا ، وآستجْلىٰ وُجوهَ السعادة من حُجُب عِزِّها فأبدَتْ له جَمَالا ولُطْفا ، وآصطفَتْه الدولةُ القاهرة لِمهمَّاتها لمَّا رأته خيرَ كافل ، وتنقَّل فى مراتبها السنية تنَقُّل النَّيِّرات فى المَنَازل(١) .

ولما كان المجلسُ السامى القاضى ، الأجلُّ ، الصدرُ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، الأوحدُ ، الكاملُ ، المجتبىٰ ، المرتضىٰ ، الفاضلُ ، الرشيدُ ، جمالُ الدين ، فخرُ الأنام ، شرفُ الأكابر ، جمالُ الصُّدور ، قدوةُ الأُمَناء ، ذُخْر الدولة ، رضِيّ المُلُوك والسلاطين ، الحسينُ آبن القاضى زكىّ الدين أبى القاسم ـ أدام الله رِفْعته ـ ممن أشارتْ إليه المناقبُ الجليله ، وصارتْ له إلىٰ كل سُؤْل نِعْمَ الوَسِيله ـ رُسِم بالأمر العالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، العادلىّ ، البَدْرِىّ ، ـ ضاعفَ الله عَلاءَه ونَفَاذه ـ أن يُفَوَّض إليه نظرُ ثَغْر الإسكندريَّة المحروس ونظرُ مَتَاجِره ، ونظر زَكَواته ونظرُ صادِره ، ونظرُ قُوّة والمُزَاحمتين ، فيقدّم خِيرةَ الله تعالىٰ ويباشِرُ هذا المنصبَ المبارَك ، بعَزَماته الماضيه ، وهِمَمه العاليه ، برَأْى لايُساهَم فيه ولا يُشارَك ، ليُصبِح هذا الثغرُ بمباشَرته باسِمًا حالِيا ، وتعُودَ بهجتُه له بجميل نظَرِه ثانيا . وينتصِبُ لتدبير أحواله علىٰ عادته ، ويقرّرُ قواعِدَه بعالى هِمّته ، ويجتهدُ فى تحصيل أمواله وتحصينِ ذخائره ، وآستخراج زكاته وتنمية مَتَاجِره ، ومعاملةِ التُّجّار الواردين إليه بالعَدْل الذى كانُوا أَلِفُوه منه ، والرِّفْق الذى نَقلُوا أخبارَه السارَّة عنه ؛ فإنهم هَدَايا البُحُور ، ودَوَالبة

(١) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ وأصله « من اشتهر بمحاسن الخلال ، ومحامد الخصال ، وساس الأمور برأيه الراجح ، ودبرها بسعيه الناجح ، ولما » الخ أو نحو ذلك فتنبه .

الثُّغُور، ومن ألسِنتهم يُطَّلع علىٰ ما تُجِنُّه الصُّدور، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نَشَرُوا له أجنحةَ مراكبِهم وحامُوا عليه كالطُّيور. وليعتَمِدْ معهم ما تضمَّنته المراسِيمُ الكريمةُ المستقِرّة الحكم إلىٰ آخرِ وقت، ولا يسلُكُ بهم حالةً تُوجب لهم القَلَق والتظَلُّم والمَقْت، وليُواصل بالحُمُول إلىٰ بيتِ المال المعمُور، ويَملأ الخزائنَ السلطانيّة من مستعْمَلات الثغر وأمتعتِه وأصنافه بكل ما يُستغنىٰ به عن الواصل فى البُرور والبُحور، وليصرِفْ همَّته العاليةَ إلىٰ تدبير أحوالِ المَتَاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفع رُءُوس أموالها وتَنْمِى، وتجودُ سحائبُ فوائدِها وتَهْمِى، وليُراعِ أحوال المستخْدَمين فى مباشَرَاتهم، ويكْشف عن باطن سَيْرِهم فى جهاتهم، ليتحققُوا أنّه مهَيْمِنٌ عليهم، وناظرٌ بعينِ الرأفة إليهم، فتنكَفَّ يدُ الخائنِ منهم عن الخِيانه، وتَتحلّى أناملُ الأمين بمحاسن الصِّيانه، وليتفق فيما يأتيه ويَذَره، ويقدّمه من المُهمّات ويؤخِّره، مع المجلس السامى، الأميرِ، الأجلِّ، الكبيرِ، المجاهدِ، المقدَّم، الأوحدِ، النصيرِ، شمس الدين، متولِّى الثغر المحروس ـ أدام الله نعمتَه ـ فإنه نِعم المُعين علىٰ تدبير المهمّات، ونعمت الشمسُ المشرقةُ فى ظُلَم المشكلات. وليُطالِعْ بالمتجدِّدات فى الثغر المحروس، ليَرِدَ الجوابُ عليه عنها بما يَشْرَح الصدور ويُطَيِّب النفوس، وليتناولْ من الجامكية والجِراية عن ذٰلك فى غرة كلِّ شهر من آستقبال مباشرته ما يشْهَد به الديوان المعمورُ لمن تقدّمه من النُّظّار بهذه الجهات، وهى نظرُ الثغر وما أضيف إليه علىٰ ما شرح أعلاه.

المرتبـــة الثـانية

(أن تفتتح الولايةُ بلفظ « أما بعـدَ حمد الله » أو « أما بعـدُ فإن كذا »
ويؤتىٰ بمـا يناسب من ذكر الولاية والمُولّٰى، ثم يذكر ما سنح
من الوصايا، ثم يقال «وسبيل كل واقف عليه»)

فمن المكتتب لأرباب السُّيوف من هذه المرتبة ما كان يُكْتب لبعض الوُلاة .

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

أما بعدُ، فإنَّا لمـا منَحنا الله إيّاه من معجِزات النصر المستنطِق الألسنةَ بالتسبيح، وآتاناه من نَظَرٍ حمىٰ ناضرَ عَيش الأمّـة من التَّصْويح ، وألبَسَناه من ثياب العَظَمة المخصوصة بأحسَنِ التوشيع والتوشيح ، ووفَّقَنا له من آصطفاء من نُقْبِل عليه بوجه التأهيـلِ للهمّات والترشيح، وقوّاه من عزائمنا التى تُرَجُّ بها أرضُ الكفر وتُدَوّخ ، ووسَّعه لنا من الفُتُوح التى أنباؤُها خيرُ ما تُصدَّر به السِّيَر وتؤرّخ ـ لا نزال نبالـغ فيما صان الحَوْزة وحاطَها ، ومدّ رُواقَ الأمنة ومَهَّد بِساطَها ، وقرّب نوازِحَ المصـالح وجمعَ أشتاتَها، وأوجبَ آنصرامَ حِبال آختلال الأمُور وآقتضى آنْبِتاتَها .

ولما كانتِ الأعمالُ الشرقيةُ جديرةً بمتابعة الآعتناء ومُوالاته، وإعراقِ كَرَم التعهُّد فيما يحفَظُ نِظامها بمُغالاته ، وأحقَّها بأن تُصرفَ إلىٰ صَوْنهـا وُجوهُ الهِمَم الطَّوامح ، ويُوقَفَ عليها حُسْنُ الآحتفال الجامعِ دواعِىَ تَذْليل الجامح، إذ كانت أجدَرَ الأعمال بِكِلاءَة الفُروع من أوضاعها والأُصُول ، والبـابَ الذى لا يجب أن يدخُلَه إلَّا من أُذِن له فى القـدوم إليها والوُصول ، ويتعـيّنُ التحرُّز علىٰ الطُّرقات التى منهـا إليها الإفضاء ، ويُوكَّل بمـا دونها من المياه عُيونٌ حفظةٌ لا يلزمُها النومُ والإغضاء،

– وكنتَ أيُّها الأميرُ أشدَّ الأمراء باسا، وأوْفاهم لحسن الذكر الجميل لِباسا، وأكثرَهم لمُهَج الأعداء آختلاسا، وأجمَعَهم للمحاسن المختلفة ضُرُوبا وأجناسا؛ وقد تناصرتْ علىٰ قُصُودِك الحسنةِ واضحاتُ الدلائل، وتحلَّت أجيادُ خِلالك من جواهر المَفَاخر بقلائدَ غيرِ قلائل؛ وآستطارَ لك أجملُ سُمْعه، وقَطَمتْ سُيوفُك أبْناءَ الكُفْر عن آرتضاعها من المِلَّة الإسلامية ثَدْىَ طَمْعه؛ ولا آستبهمتْ طُرُق السياسة إلا هُديت إلىٰ مَجَاهلها، ولا حَلأَ التقصيرُ سواك عن شَرائع النِّعم إلا غدَوتَ بِكفايتك وارِدَ مَناهلها؛ وكَمْ شهِدْتَ مَقامَ جِلَاد، ومَوْقِفَ جِهاد؛ فمزَّقْت ثوبَ مارقِه نَسْجا، وأدلت فى ليل قَسْطَله عَوادِىَ صَوارِمك سَرْجا، وقُمْت فيما وُكل إليك من أمور الفاقُوسيَّة وقلعتَىْ صَدرٍ وأيْلَةَ حرسهما الله تعالىٰ قياما أحظاك بالثناء والثواب، وآستنبْت فى كلٍّ منها من أجرىٰ أمورَها علىٰ الصواب – خرجَ أمرُ المِلك الناصِر بكَتْب هذا السجلِّ بتقليدك ولايةَ الأعمال الشرقية المقدَّم ذِكرُها.

فاعتمِدْ مباشرتَها عاملًا بتقوى الله التى مَغْنَمُها خيرُ ما آقتاده مستَشْعِروها لأنفسهم وآستاقُوه. قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ وآبْسُط العدلَ علىٰ أهل هـذه الوِلَايه، وآخصُصْ أهل السَّلامة بما يُسْبِل عليهم سِتْر الحِياطة والحِمَايه، وتطلَّبِ المفسدين أتمَّ تطلُّب، وآحظُرْ عليهم التنقُّلَ فى هذه البلاد والتقلُّب؛ ومَنْ ظَفِرت به منهم فقابِلْه بما يُوجِبه حكم جَرِيرته، ويقتضيه مَوْقِعُ جريمته، ويجعله مُزْدَجَرا لسالِكى طريقته. وشُدَّ من المستخْلَف علىٰ الحكم العزيز شَدّا ينْصُر جانبَ الشرع ويُعِزُّه، ويَكُرّ به علىٰ الباطل تَرويعُ الحق وأَزُّه؛ وأعِنِ المستخْدَمين فى المال علىٰ آستيفائه من وُجُوهه عند وُجُوبه، وبلِّغ كلًّا منهم من الإعانة علىٰ تحصيله أقصىٰ مطْلُوبه؛ وقوِّ أيدِيَهم فى تخضير البِلاد وتعميرها،

وآبعثِ المُزارِعين علىٰ مباشَرة أحوال الزِّراعة وتقرير أمورها ؛ وفيما يُسترْعَوْنه من مَصَالح الأعمال ، و يعُود عليهم فى موجبات الرجاء بمَنَاجِح الآمال . وراعِ أمرَ السُّبُل والطُّرُقات ، وآجعلِ آحتراسك عليها الآنَ مُوفِيا علىٰ المتقدّم من سالف الأوقات ؛ ولا تَنِ فى إنفاذ المتخبِّرين إلىٰ بلاد العدو ، وتحذيهم فى الرَّواح والغُدُو ، بما يمنعهم من الهُدو ، وكَشْفِ أخبارهم ، وتَتَبُّع آثارهم ، وتسْيِير الجواسيس إلىٰ دِيارهم ؛ حتّىٰ لا تخفىٰ عنك من شؤونهم خافيه ، ولا يجِدُوا سبيلَ غِرّةٍ يهتبِلُونها ـ والعياذ بالله ـ بالجُملة الكافيه . وطالع بما يتجدّدُ لك وما يَرِد من الأنباء عليك ، وغيرِ ذٰلك مما يُحتاج إلىٰ علمه من جِهَتك ، وما تجرى عليه أحكام خِدْمتك ، فاعلم هذا وآعملْ به إن شاء الله تعالىٰ .

✤

وهذه نسخة بولاية الغربية من هذه المَرْتَبة ، وهى :

أما بعدُ ، فإنّا لمّا آتانا الله من سَعادةٍ لِطُرق الإرادات فيها تَعْبِيد ، وأسبَغه بنا من نِعَم لا يَعُدّها التحديد ، ولا يَحُدّها التعديد ؛ وأبهجنا به من آكتناف المَطالب بنجاح لا يُعقّبه تعسير ولا يعسّره تعقيد ؛ وأمضاه من عزائمنا التى ما فَتِكت قطُّ بالأعداء فَقِيدَ منهم فَقِيد ؛ ولقّاه الأمة بنظرنا من نَضْرة عيشٍ جَانَبَ الجَفَافُ دَوْحه المُخْضَلّ ، وأهداه بتبصيرنا من أنْوار الهدَى المتقدّمة كلَّ ذى جهل ظَلَّ ممن ضَلّ ـ لا نزال نستوضِحُ أمورَ أمراءِ دولتنا متصفّحين ، ونبلو أخبارَ المؤهّلين منهم لسياسة الرعيّة المرشّحين ، ونكشف شؤونهم غير متجوّزين ولا متسمّحين ؛ ونُظهِر فى أحوالهم آثارَ الإيثار لرفع درجاتهم ، وأمارات الرفع منهم مقابلةً علىٰ حياطة أموالِ مَنْ نكونُ عليه وصون منْحاتهم ، ونبوّئهم مُبوّأ صدق من تصديق آمالهم وتحقيقها ؛ ونزُفّ إليهم

عقائلَ المِنَح المانِعَ شُكرُهم من تسيُّب سَيْبِها وتطرُّق تَطليقِها، ونحمل لكلٍّ منهم مايؤمِّله من آجتهاده ويُؤْثِره، ولا نُلْغِى الآهتمامَ بما يُوطِّئ لهم مِهادَ الطَّوْل الجزيل ويُوثِّره، عملًا بآداب الله سبحانَه فى إجزال حُظُوظ المحسنين من إحسان المجازاه، وإيلائهم المزيدَ الحاكمَ بنقص آعتدادهم عن المُوازَنَة له والمُوازاه، كما قال سبحانه وقوله هدًى ونورٌ وشفاءٌ لما فى الصدور: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُور﴾.

ولما كان الأمير (والنعوت والدعاء) من أنجحِهم فالا، وأرْجحِهم مَصَالا، وأصلَحِهم أعمالا، وأوضَحِهم كمالا، ومازالتْ أغصانُ نُهَاه متتابِعةً فى بُسُوقها، وضرائبُه نافقةً أعلاقُ المحامِد بِسُوقِها، وعزائمُه فى إذلال الفِرَق المبالِغة فى فُسُوقِها، مشمِّرةً عن سُوقِها، ومابَرِح فى شَوْط الفَخْر راكِضا، ولعُقُود مكروهِ الأُمور التى تُزِيغُ الأمانةَ رافضا، وبأعباء القِيام بفرائِض الآلاءِ ناهِضا، وما آنفكَّتْ مناقِبُه تُعْيِي بَيانَ الواصف وبَنَانَ العادّ، ومساعِيه مُدرِكةٌ وهى وادعةٌ مايَعْجِزُ عن أقلِّه جِدُّ الجادّ، ورأيُه [يرتق] كلَّ متفتِّق ومنبثِق من الأمور المهمَّة بِسَداد الراتِق السادّ، وجميلُ ذِكْره يَفُوح بما يفوق المِسْكَ فيثُوب إليه من الثَّواب بالنائِى النادّ، وما فَتِئَ دأْبُ شِيمَته الإعراض، عن المُوبِق من الأغْراض، واختيارَ الرِّفق، والإغراقَ فيما يُديمه إلى فَكِّ أعناقِ أَسرى المسلمين من سرى العتق — خرج أمرُ الملِك الناصر بكَتْب هذا السجلِّ له بتقليده ولايةَ الأعمال الغربية.

فليتقلَّدْ ما قُلِّده معتمِدًا على تقوى الله التى صَرَف عن معتمِدها شِربَ التكدير، ومَنَحه من المكارم عندَه مايُوفى على التقدير، ولْيَجْرِ على عادته فى بَسْط ظل المَعْدَلة ومدِّ رُواقها، وصون مَساحى الرَّعايا عن إملاقها منها وإخفاقها، والمساواة بها بين

الأقوىٰ والأضعف، والأدنىٰ والأشرف، والبادى والحُضّار، والمُناوئين والأنصار، والخاصّ والعام، والأجنبيّ وربّ الحُرْمة والذّمام : ليَنام المستُورون علىٰ مِهاد الأمن، ويسلم جانِبُ سلامة أموالهم وأرواحِهم من الوَهْن . وليُعامل المستخلَف علىٰ الحكم العزيز بما يستوجبه مثلُه من نُصْرة الأحكام « ووكل إليه[1] أمر الأمراء لمن آثرها والإحكام» والإكرام الشامل لقَدْره، والاهتمام الشارح لصَدْره. وليَتوخَّ المستخْدَمين فى الأموال بما يكون لعِلَلِهم مُزيحا، ليصل إليهم ما يرومونه نجيحا . ويُلزِم من جرَتْ عادتُه بلزوم الحدود وآجتناب تعدّيها ، والتوفُّر علىٰ حِفْظ مسالكها والمتردّدين فيها ؛ وليطالع بما يتجدّد قِبَله من الأحوال الطاريه ، وما لم تزل الرُّسومُ بإنهاء مثلِها جارِيه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبــة الثــالثة

(أن تفتتح الولايةُ بلفظ «رُسِم» ثم يذكر أمرُ الولاية والمولّى ويوضع ، ثم يقال «وسبيل كلّ واقف عليه»)

فمن المكتتَب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشدّ ناحيةٍ، وهى :

رُسم ـ أعلىٰ الله المراسيمَ وأدام نَفاذها ـ بالإنعام علىٰ الأمير فلان بما يُفيض عليه مَلابِسَ الاصطفاءِ ويُضْفيها ، ويُسْمى لقدمه فى الثبات مَدارج الارتقاء ويُسْنيها ؛ ويُعْرِب عن آختصاصه بالمنزلة التى يفْضُل بها علىٰ مُباريه ، وآستخلاصه للرتبة التى يفوتُ بها شأوَ مُجاريه؛ ويؤهِّله لثغرِ حارِمِ المحروس وشدّه، وتولّيه أمورَه بكفايته ونَهْضته وحَزامته وجِدّه ؛ وقد أمرْنا بتسليم قلعةِ حارِمٍ وأعمالها وسائرِ مايختص بها ويُضافُ إليها من ضِياعها ومواضِعها إليه، والتعويلِ فى وِلايتها وتعميرِها وتثميرِها

---

(١) كذا فى غير نسخة ولا معنى له وقد تقدّم لهذا المقام أمثال ونظائر يفهم منها المقصود .

عليه، بموجَب ما يُفَصَّل من الديوان على ماكان جاريًا فى الإقطاع المحروس للحال، وسبيلُ أهلِ الديوان ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه، والاعتمادُ على التوقيع الأشرف به، إن شاء الله تعالى.

⁂

ومن ذلك نسخة مرسوم بشَدّ وقف، وهى:

رُسم ـ أعلى الله المراسيمَ وأدام نَفَاذَها ـ بالتعويل على الأمير فلان فى تولية الوقوف بالجامع المعمور بحَلَبَ المحروسة، والبِيمارَسْتَان، والمساجد، والمشاهد بالأماكن والمواضع، وظاهرِها و باطِنها وأعمالها، وتفويضها إليه، والاعتماد فى جميعها عليه، سُكونًا إلى نَهْضته وكِفَايته، ووُثُوقا بخِبْرته ومعرفته وعلما بنزاهته، وسَدَاده وأمانته، وذلك لاستقبال سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

فليتولَّ ذٰلك بكفاية كافيه، ونهضةٍ وافيه، وهِمَّة لأدواء الأحوال شافِيَه، ونظر تام، لشَمْل المصالح ضامّ، وتدبيرٍ جميل فى كل خاصّ من أسباب عمله وعامّ، وتقوَى لله عزّ وجل تَقْوى بها يَدُه، ويَضِحُ بالاستقامة على سَننها جَدَدُه، ناظرا فى الوُقُوف ومصارِفها، وتتبُّع شُروط واقِفِها، بكل مايعود بتعمير أعمالها، وتثمير أموالها، وتدبيرِ أحوالها، مطالِبًا بحساب مَنْ تقدّمه وتحقيق مبالغه تكميلًا و إضافة، واحتسابًا وسياقه، ولْيطلُب شواهده، ولْيَبْنِ على الصحة قواعِدَه، وليلتمس مايَصح من بواقيه من جهاتها، وليكْشِفْ بما يوضِّحه من سبل الأمانة وجوهَ شُبُهاتها، وقد أذِن له فى استخدام من يراه من النُّوّاب والمتصرفين والمشارِفين، والوكلاء والمستخْدَمين، على ماجرتْ به العاده، من غير زياده. وسبيل النوّاب ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه، والاعتمادُ على العلامة الشريفة، إن شاء الله تعالى.

المرتبة الرابعـــة

(أن يفتتح بلفظ : «إن أحق» أو «إن أولى» أو «من كانت صـفته كذا» وما أشـبه ذلك)

فمن ذلك نسخة منشور بنقابة الأشراف، وهى :

مَنْ كانتْ أوصافُه شائعةً بين الأنام ، وصُحُف فضائله منشورةً لدى الخاصّ والعام ، مع شرفِ نَسَبٍ شامخ الأعلام، وتُقًى فَخَر به على الأنام، وعِلْم يُجْلَى به صَدَأُ الأفهام، وعفَّةٍ مرائرُها محكمةُ الإبرام ـ كان جديرا بإفاضة سِجَال النِّعم عليـه ، وقمينا بإرسال سَيْل المَوَاهب إليه .

ولما كان الشيخ فلان متصفًا بهذه الصفات الجميله ، ومتخصِّصا بمزاياها الجليله ، وضارِبًا فيها بالسَّهم المُعَلَّى، ونازلًا منها فى الشَّرَف الأعلى ، ومتقمِّصا ثوبَ الإخلاص والصَّـفاء، ومتَّشحا بوِشَاح العفَّة والوَلاء ـ آختصصناه بزيادة التقـديم والآجتباء، وحَبَوْناه بوُفُور الكرامة والآصطفاء، وأجريْناه على مستمِرّ رَسْمه بالنِّقابة على ذُرِّيَّة أهل العَبـاء، حسَبَ عادتِه المستقرّة إلى آخر عهد مَنْ كانت الإيالةُ إليـه وإلى رحمة الله مضى : لِيَسيرَ فيهم بكتاب الله العظيم وسنَّة رسوله ، ويسلُكَ جَدَدَ الحق الذى يُوصّله من الزُّلْفَى إلى أقصى مُنَاه وسُوله ، ويحُضَّهم على تلاوة القُرءان ، ومعرفةِ مايصْلُح للأديان . وليسوِّ فى الحكم بين الضعيف فيهم والقوِى ، وبعُمّ بالإنصاف الفقيرَ والغنىّ . ولْيُحْسِنْ إلى مُحسِنهم، ولْيَجْرِ على فضْله لمُسيئِهم، بعد أن يقدّم إليه زَجْرا ووَعِيـدا ، ويُوسِعَه إنذارا وتهـديدا ، فإن وَعَى وآرْعَوَى وإلا سلَّط عليه أسبابَ الأذى، وتَولّاه بمـا يستحِقُّه من الجزا ، ويعيـدُه إلى حالة الآستقامة والآستوا، ويكُفُّه عن دواعى الهوى . ومَنْ وجبَ عليه حدّ أقامه فيه، وبادَرَ إلى آعتماده وتوخّيه، حسَبَ مايوجبُه حكم الشرع ويقتضيه .

وليكن رَءُوفًا بهم ما ٱستقاموا، ومنتقمًا منهـم ما ٱعْوَجُّوا ومالوا؛ وإن وجب على أحدهم حَقٌّ لمَلِيّ أو دنِيّ، ٱستخلصه منه ولم يمنعه تعلقُه بنسبٍ شريف علىّ؛ وإن ٱفترى منهم مفـترٍ على أحد من المِلَل، قابله عليه بمـا يزجُره عن قَبيح العمَل: فإنّ النـاسَ فى دار الإسـلام ومَنْ هو تحتَ الذّمام سَواسِيَة وأقربُهم إلى الله تعالى من كانتْ سيرتُه فى الإسلام رضِيَّة، وطويّتُه فى الإيمـان خالصةً نقيّة؛ ومَنْ حكَم عليه حاكمٌ من الحُكّام، بحقٍّ ثبَت عنـده بالبيِّنة العادلةِ أو الإعلام، ٱنتزعه منه أو سجنه عليه، إلى أن يُرْضى خصمَه أو يردَّ أمرَه إلى الحـاكم ويفوِّضه إليه .

ولْيحْرُس أنسابهم بإثبات أُصُولها، وتحقيق فُروعها؛ ومَن رام دُخولا فيه بدَعْوى يُبْطل فيهـا نقَّب عن كَشْف حاله، وإظهار مِحَالِه؛ وجازاه بمـا يستحقُّه أمثالُه، ويرتدِعُ فيما بعدُ مِثالُه : ليخلُصَ هذا النسبُ الكريم، من دَعْوى المجهول، وٱندماجه فى أُسْرة الرسول؛ عليـه أفضلُ الصلاة والتسليم . ويمنَعُ من ٱتصال أَيِّم من الأُسْرة إلى عامّىّ، ولا يُفسِح أن يُعْقَد عليها عقْد إلا لِكُفْء مَلِيّ : ليبرأَ هذا المجدُ الشريفُ من التكدير، ولا تُزيِّفَه شوائبُ التغيير .

ولينظُرْ فى الوقوف على المَشاهد والذُّرِّيّه، نظرا يحمَده عليه مَنْ يعْلَمُه من البرِيّه، ويُحْظيه بالثواب عند مالكِ المَشِيّة . ويبتدئ بعمارة أُصُولها وٱستكمال فُرُوعها، وقسمة مَغَلّها على ماتضمنه شرط الواقفين لهـا . ولْيحتَطْ على النُّذور، وينفقْها على عادتها فى المصالح والجُمْهور؛ عالمـا أنّ الله تعالى سائلهُ عمّـا توخّاه فى جميع الأمور، وأنه لايخفى عليه كلُّ خفِيّ مستور . قال الله سبحانه : ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُون لايَخْفَىٰ عَلَى ٱللهِ مِنْهُم شَىْءٌ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّار﴾ .

وأذنّا له أن يستنيبَ عنه فى حال حَياته، وبعدَ وفاته - فسّح الله له فى المُهَل، وخوّله صالح العَمَل - الأرشدَ من بَنِيه، ومَنْ يختاره لهذا الأمر وله يَرتَضيه . وقد أنعمنا عليه بإجراء ما كان باسمه مستمرًا إلىٰ الآن، وأضفْنا إليه ما يُعينه على النظر فى مصالح الأُسْرة أدام الله له عُلوّ الشان؛ من تمليك وإدْرار وتيسير، وجعلناه له مستمرًا، وعليه مستقرًا؛ ولمن بعده من نَسْله والأعقاب، علىٰ توالى الأزمان والأحقاب؛ وحظَرْنا تغييرَه وفسْخَه، وتبديله ونَسْخه : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو معيَّن من ديوان الاستيفاء المعمور، بهذا المنشور المسْطُور، بالأمر العالى أعلاه الله وأمضاه، عمّا كان قديما، وما أُنعِم عليه به آخرا، وهو القديمُ الذى كان له وشهد به الديوان المعمُور، وهو الإقطاع من ناحيةِ كذا، ويُجرىٰ علىٰ عادته فى إطلاق ما قُرّر له من ناحية كذا بشهادة الديوان الفلانى، والمجدَّد الذى أُنعِم به عليه لاستقبال سنة سبع وسبعين وما بعدها. وسبيلُ كافّة الأُسْرة الطالبيِّين بمدينة كذا الانقيادُ إلىٰ اتّباعه، والامتثال لإشارَتِه، والتوفّر على إجلاله وكرامته؛ فإنه زعيمُهم، ومقدَّمُهم ورئيسُهم؛ ومن خالفه منهم قابلناه، وبأليم العِقاب جازَيْناه، والاعتمادُ فى ذلك أجمعَ علىٰ التوقيع الأشرف العالى أعلاه الله، والعَلائم الديوانيّة فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

✤

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

لمّا كانت الأعمالُ الشرقيّةُ أجدرَ البلادِ بأكيد الاهتمام وأخْلَق، وأوْلاها بإضْفاء سِرْبال الاحتيال الذى لا يُخْلِقُ إذا رثَّ سِواه وأخْلَقْ، وأقمَنَها بحُسن نظرٍ يُرسِل لرسولٍ علىٰ الرسم الأعنّةَ فى إدامة نَضْرة العمارة عليها ويُطْلِق، وأحقَّها بأن يُبرِم لها

سَبَبُ تفقُّد لا يلتصق به رَهْن ولا يَغْلَق ؛ وأَحْراها باعتناء يقضى لأمرها بالاِطّراد ، وأَوْلاها بتعهُّد يحمل مصالح الشُّئُون آلفةً للثَّواء بها والمُقَام عائفةً للنشوز عنها والشِّرَاد ، : لأنها بابُ الشام ، وإليها تردُ القوافلُ المترددةُ منه علىٰ مَرّ الأيّام ؛ ومنها يستكْشِف الأخبار ويستنهض الطوالع والمتخبِّرين ، و بمواصلة التفقُّد تعلَم الأحوالُ الطارئة فى كل وقت وحين ؛ فتجب المبالغةُ فى حفظ طُرُقاتها ومياهها ، وأن تصرف الهممُ إلىٰ ضبط أحوالها ، وعامة أنقابها وآتّجاهها ، ويوضع بناء الحزم فى صون أطرافها علىٰ أثبت قاعدة ويُؤسَّس ، ويبالَغ فى إذكاء العيون علىٰ كل طارق يتخبَّرُ للعدوّ الملعون ويتجسَّس ؛ وكنت أيُّها الأمير من المشهورين بالشجاعة والإقدام ، وذوى الكفاية المُوفِى تراؤُهم فيها [علىٰ] عارض الإعدام ، وما زِلْتَ معدودًا من خاص الأتراك الأعيان تسهم(؟) ، المقصّر مجاروهم إلىٰ غاية البَسالة عن اللَّحَاق بهم والإدراك وقد تقدّمت ولايتُك هذه الأعمالَ فقصَدْتَ منها قصدًا سَديدا ، وألحفْت الرعايا ظِلًّا من الأَمَنة مديدا — خرج الأمر بإيداع هذا المنشور ما أُنعِم به عليك من إعادتك إلىٰ وِلَايتها ، فبالغ فى آستيضاح الأنباء وكشفها ، ورفع الوَنْيَة فى ذلك وصَرْفها ؛ ووكّل به عَزْمة لا تُلِمّ سِنَةٌ بطَرْفها ، وآنتهِ فيه إلىٰ غايةٍ تَضيق سَعةُ القول بوَصْفها ؛ وتابع فى تسيير الطلائع ونَدْبها ، وعوِّل من كلّ قبيلة من العُرْبان المستنهَضين علىٰ شَهْمِها ونَدْبها ؛ وآجتهِد فى حفظ الطُّرُقات والمَناهل ، وآستنهِض للتحرُّز عليها من هو عالمٌ بها غيرُ جاهل ؛ وتحفَّظ من خَلَل يتطرّق — والعياذ بالله — علىٰ البلاد وخَلَل يتخلّلها ، وآنتض لهذه المهمات بصارِم حدٍّ تسْلم مَضارِبُه من عَجْز يفلّلُها ؛ ولا تُبْقِ ممكنًا فى إنفاذ المتخبِّرين ، وإرسال من يُغِير علىٰ بلاد العدُوِّ من الخَبِيرين ، بما [أنّ] هذه سبيلُ المتدرِّبين ، وألزِم أربابَ الحدود من جميع الأقطار حِراسةَ حُدُودهم ، وخُذْهم باستِنفاد وُسْعِهم فى الآحتياط وآستِفْراغ مجهودهم ؛ وطالِع

بما يُورَد قبلك، وأنّه ما يُزِيح بسُرْعة إجابتك عنه فى الخِدْمة عِلّتك؛ فاعلم هذا وآعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

✢

وهذه نسخة بولاية المُرتاحية، وهى :

خرج الأمر بكَتْب هذا المنشور وتضمينه : إن مَنْ أظهر خُلاصة جَوْهره السَّبْك ، وآرتفع فى إشكائه بالإنصاف عن كل شائكِ الشّكّ ، وحصل عنده [من] الخلال الزكيّة نظْمٌ لا يَنْحَلّ وعقْد لا ينْفَكّ ، وأوفىٰ علىٰ التقدير والظنّ فى التدبير المفَرَّج به عن الرعيَّة الضَّنْك ـ آستوجب أن تُسنَد إليه حمايتُهم ، وتجعلَ إليه كِلاءتُهم .

ولمّا كنتَ أيها الأميرُ ممن أحْمِد عند نحْزِ عزْمه ، وتجريب نصلِ حزْمه ، وآعتبارِ فَصْل مَقالته ، وآختبار أصلِ أصالته ، وشُكرِ آستمراره علىٰ الآتصافِ بمَحْض الولاء ، وآستِدْراره أخلافَ غُرَرِ الآلاء ، وآستثماره أصنافَ جَنَى الثّناء ، وآستقراره أكنافَ وهْىِ الأعتناء ، ولم تزلْ فى رِفْعتك وَجِيها ، وما بَرِح جميلُ الرأى يُديم بعثًا لتُحف الإحسان نحوَك وتوجيها ، وما آنفكّتْ مجاهَدتُك مجاهدةً فى مهامِّ إقدام تَنْويها ، وشجاعتُك ماضيةً علىٰ الكفّار كلَّ كِفاح يلقَوْن منه كَلًّا ثقيلا ويومًا كريها ، ـ أُودِع هذا المنشور ما رُسِم من آستخدامك فى ولاية الأعمال المُرتاحيَّة .

فباشِرْها معتمدا علىٰ تقوىٰ الله سبحانَه التى تَقْوىٰ بها أسبابُ توفيقك وتنالُه ، وتسْلَمُ أمورُ مباشرتك من خَلَل يكدِّر آستبشارَك وينكِّد . وآعتمِد العدلَ علىٰ من تشتمل عليه هذه الولايةُ وتَحْويه ، وبالِغْ فيما يزيل عنهم الحَيْفَ ويَزْويه ، وآقصِدْ ما يَقْضى لسِرْبهم بالتأمين ، ويبلِّغهم من تحصينِ أوطانهم غايةَ التأميل . وآجعلْ أيدى المفسدين مكفوفةً عن كافّتهم ، ووجُوهَ المعتدين مصروفةً عن إخافتهم ؛

وتطلّب الأشرار، وتتبّع الدُّعّار؛ ومَنْ ظفرت به منهم فلا تكن عن التنكيل به ناكلا، ولا تُقصِّر فى الحَوْطة عليه والمطالعة به عاجلا. وعامل النائبَ فى الحُكم العزيز بإنهاضه، وصَوْن مَدِيد باعه فى تنفيذ الأحكام عن انقباضه؛ واعْضُدْه فى إنفاذ قضاياه، واختصاصه بإكرام يُقْبِل عليه مُطْلَق مُحيّاه. وشُدّ من الضامن فى استيداء حقوق الديوان واستنطافها على أحسن حال من غير خروج عن الضرائب المستقرّه، وعوائد العدل المستمرّه. وتحرّزْ أن يكون لمناهضة العدوّ طُروقٌ إلى ناحيتك أو انتياب، وشمّر للتحفّظ من مكايدهم تشميرا يزول عن حقيقته عارضُ الارتياب؛ ولا تُبْقِ شيئا يُمكّن لأهل وِلايتك قواعدَ الأمَنة منهم، وتبتّل لوقايتهم أذاهم تبتّلَ من لا ينامُ عنهم. وطالِعْ بما يُحتاجُ إلى علمه من جهتك إن شاء الله تعالى.

✦ ✦ ✦

وهذه نسخة بولاية السَّمَنُّوديّة، وهى :

إنّ أولى مَن وَلِيَ الأعمال، وتعلّقت بكفايته الآمال، وعُدِقت به المُهِمّات، وأُسنِدت إليه الوِلايات، مَنْ نطقت بمَعْدَلته الألسنه، وانتفتْ عن عين خبرته السِّنه؛ وكان حسنَ السياسة لرعيّته، كثيرَ العِمارة مدّة توليته؛ شَهْما فى استخراج الحقوق من جهاتها، صارما فى رَدْع المجرمين عن زلّات النفس وهفواتها؛ حَسَنةً سيرتُه، خالصةً مناصحته وسريرتُه.

ولمّا كنتَ أيها الأمير فلان ـ أدام الله تأييدَك وتسديدَك، وحراستك وتمهيدَك ـ أنتَ المتوشّح بهذه الصّفات الحِسان، المتّصف بما تقدّم من الشّرح والبَيَان، الذى نطقتْ شمائلك بشهامتك، وشهِدت مَخايِلُك بنَباهتك ـ خرج الأمر الفلانى بأن تتولّى مدينةَ سَمَنُّود وضواحيها، وما هو معروفٌ بها ومنسوبٌ إليها؛ بشرط بَسْط

العدْل ونَشْره، و إعباقِ عَرْف الحق ونَشْره؛ وأن تُخَفِّف الوطأة عنهم وتفْعَل ما هو أَوْلىٰ، وتعْلَمَ أنك تُسْأل من الله تعالىٰ فى الأخرىٰ ومنًّا فى الأُولىٰ؛ وأن تَصونَ الرعايا وتجتَلِبَ لنا أدْعِيتهم، وتعامِلَهم بما يُطيِّب نُفوسَهم ويُبلِّغهم بُغْيتَهم؛ حتّى يتساوىٰ فى الحق ضعيفُهم وقَوِيُّهم، ورشيدُهم وغَوِيُّهم، ومَلِيُّهم ودَنِيُّهم؛ وأن لا تُقيم الحدود علىٰ مَنْ وجبتْ عليه إلا بمقتضىٰ الشرع الشريف، والعدْلِ المُنيف؛ وأن تَشُدّ من نُوّاب الحكم العزيز، وتفْعَل فى ذٰلك فِعلَ المهذّب ذى التمييز؛ وأن تحْسُر عن ساعد الاِجتهاد فى الجمع بينَ استخراج جميع الحقوق الديوانية والعِمَاره، وتجعلَ تقوى الله هى البِطانةُ لك والظِّهاره؛ وأن تبذُل النهضة فى استخراج الأموال، وتحصيلِ الغِلال علىٰ التَّمام والكَمال؛ بحيثُ لايتأخّر منها الدِّرْهم الفَرْد ولا القَدح الواحد، وتفْعَلَ فى ذٰلك فعلَ المُشْفِق المشمِّر الجاهد؛ وأن تُديم مباشرتك للأقصاب فى حال بَرْشها وزراعتها وتربيتها وحملها، واعتصارها وطَبْخها، وتزكيةِ أثمارها؛ بحيث لاتكل الأمرَ فى شىء من ذٰلك إلىٰ غير ذى ذِمّة بمُفرده، ولا إلىٰ من ليس بذى خِبْرة لايعلم مُشْقِيَ التصرُّف من مُسْعِده. وقد جعلنا لك النظرَ علىٰ جميع النَّواحى الجارِيَة فى ديواننا بالوجه البحرىّ خاصةً لتنظُر فى أمرها، وتزجُر أهلَ الجناياتِ بها؛ وتفعل فيها كلَّ مايحمَدُ به الأثَر، ويَطيب بسَماعه الخَبَر.

فتقلَّدْ ماقُلِّدت، وقُمْ حقَّ القيام بما إليه نُدبت؛ واعملْ فيه بتقوى الله فى سِرِّك وجَهْرك، وقدِّم الخوفَ من الله علىٰ جميع ما تأتيه أو تَذَره من أمرك؛ وتَسلَّمْه شاكرًا لما أسدَيْناه إليك، متمسِّكًا بما أوجَبْناه عليك؛ فإنّ الشكر يُوجب مزيدك، ويُكثِّر عَديدَك.

وهذه نسخة بولاية النَّستراويَّة، وهى :

من عادتنا فى التدبير وشيمتنا، وسُنَّتنا فى السياسة وسيرتنا، إسباغُ المواهب والنِّعم، وتنقيلُ عبيدنا فى مراتب الخِدَم، استرشادا بأسلافنا المُلُوك واقتداء، واستضاءةً بأنوارهم المشرقة واهتداء .

ولمَّا كنتَ أيها الأمير ممن عُرِفَتْ بسالتُه ، واشتهرت شجاعتُه وصرامتُه ، واستحقَّ أن يُلحظ بعين الرِّعايه، وأن يشرَّف بالارتضاء للتعويل عليه فى وِلَايه، — رأينا — وبالله توفيقُا — استخدامَك فى ولاية الأعمال النَّستراويَّة ، وخرج أمرُنا إلىٰ ديوان الإنشاء بكتب هذا السِّجلّ بتقليدك ذلك، وتضمينه ماتعتمد عليه ، وتنتهى إلىٰ الممثَّل لك فيه .

فتقلَّدْ ماقُلِّدته عاملا بتقوىٰ الله فيما تُسرُّه وتُعلنُــه ، معتمدًا فيها غايةَ مايستطيعُه المكلَّف ونهايةَ ما يمكنُه، فالله تعالىٰ يقول إرشادًا للمؤمنين وتفهيما : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . وساوِ بين القَوِىّ من هذه الولاية والضعيف، وَلَا تجعلْ فى الحقِّ فرقًا بين المشروف والشريف، وامدُدْ علىٰ كافَّتهم رُواق السُّكون والأَمَنه ، وأَجْرِهم فى المَعْدَلة علىٰ العادة الجميلة الحَسَنه ، وافعلْ فى إقامة الحُدود علىٰ من تجب عليه ما يُوجبه كتابُ الله الكريم ، وتقضى به سنَّةُ نبيه محمد عليه أفضلُ الصلاة والتسليم ، وادأَب فى حِفظ السُّبُل والمَسالك، واجتهِدْ فى ذلك الاجتهادَ الذى يجب علىٰ أنظارك وأمثالِك، ومتىٰ ظفِرْت بمن يُؤذى مسافرا، أو يخيف واردًا أو صادرا ، فطالِعْ بحاله يُمثَّل لك فى التمثيل بما تعتمده ، وتُؤمَر فى شأنه بما تنتهى

إليه وتقصده . وراع المستخدَمين على الحكم والدعوة فهما يتولّيان ما بإعزازه يقومُ مَنارُ الإسلام ، وتجرى أمورُ الشريعة على أجمل وَضع وأحسن نِظام . وخُذ المستخدَمين فى الأموال الدّيوانية بالاجتهاد فى العماره ، وحمْلِ المعاملين على ما توجبه المَعْدَلة والحرص على ماوفّر الارتفاع ، وحماه من أسباب التفريط والضَّياع ؛ واستنهِض الرجال المستخدَمين معك فيما ترى تَدْبهم إليه ، واستنهاضَهم فيه ؛ فاعلمْ هذا واعملْ به ، إن شاء الله تعالى .

✣

وهذه نسخة بولاية الإسكندرية ، وهى :

اهتمامُنا بما حاطَ ثغرَ الإسكندرية ــ حماه الله تعالى وحصّنه ، ومنحه أتمّ حظ التفقّد وأكمله وأجمل وضع التعهّد وأحسنه ؛ وقوّى سببَ استقامة شئونه واتّساقِ أموره ومكّنه ، ومدّ ظلّ الدّعة والسكون على كافّة من تدبّره وسكنه ؛ وحفظ عليه نِظام النَّضاره ، وأماط عنه مكروهَ الأحوال الضاره ؛ وأنامَ أهلَه على مَضجع الأمنِ ومِهاده ، وحكم بإحلالهم نُجودَ الاتحاد على المَصالح وإجلالهم عن وِهاده ؛ وحمى سَوامَ أموالهم من مَشروبِ وِرْدٍ أُجاجٍ ومَرعى نبتٍ وخيم ، وحَباهم من رُسوم الإحسان وعوائدِه مالا ينطِقُ لسانٌ على زوائده بترخيم ؛ ومَلا آمالَ الأعداء عن التطرّق إليه إخفاقًا ، وردَّ نُصولَ سِهام مكايدِهم عنه على ما عُهِد من فضل الله سبحانه أفواقا ــ إذ كان من أجلِّ الثغور الإسلامية أوزارًا ، وأسبقها إلى غاية التفضيل ابتدارا ، وأكثرها بمن حَواه من صدور الدّين وأئمة المسلمين افتخارا ، وأفضلها مَحلًّا ولم يزل مَفزَع السُّفّار من كل جهة رُسُلا وتجارا ــ أوجب أن نُسنِد ولايتَه ، ونردَّ كلاءتَه ، إلى مَنْ يجرى فى التدبير على حكم سياسته المعلوم ؛ الحسَنى

الأخذ بيَد المظلوم ، ويقُومُ بحسن التفويض والائتمان ، ويعطى بدَل السّلامة من حقوق انتقامه عُهدةَ الأمان ؛ ويسلكُ فيما يُعدَق به طريقَ السَّـداد ويلزم نَهْجه ، ولا يمكنُ أن يكونَ له علىٰ غير الصـواب مَعاجٌ ولا عَرْجه ؛ ويأخذُ فى كل أحواله بوثائِق الحَزْم ، وتُحِلّ له أعمالُه الصالحةُ من مَثوىٰ المنازل الرفيعة ما هو علىٰ غيره من الحرام الجَزْم .

ولمـا كان الأميرُ المعنىّ بهذا الوصفِ الواضح البيان ، المتكافئةَ فى ذِكرِ مَناقبه شهادةُ السَّماعَ والعِيان ؛ الكالئَ مايُناطُ به بقَلْبٍ ألمعِىّ وطَرْف يَقْظان ، الحـالَّ من الوَرَع فى أسمىٰ مكان وأعلىٰ مَظَان ؛ الجامعَ فى إقامة شرع الإخلاص بينَ الفرائض والسُّنَن ، الموفيةَ عزائمُه علىٰ مَضارِب المُهَنَّدة التى لا تَقِى منها ما نعاتُ الجُنَن ؛ الفائحَ من نبئه ما تُؤثَرُ صِحاحُ الأنباء عن عَليـل نَسيمه ، الجديرَ بمـا يُزَفُّ إليـه من عقائل جزيل الإنعام وجَسيمه ؛ وقد أبان فى وِلايتـهِ بمطابقته بينَ شِـدّته ولِينه ، وإقامةِ مَنَـار الإنصاف المُعرِب عن امتدادِ باعه فى الحَرْب وانقباضِ يَمينه ؛ وإروائه كافّةَ أهلها من نَمير العون علىٰ استتبابِ الأمورِ ومَعِينه ــ خرج أمرُ الملك العادل بتقليده ولايةَ ثغر الإسكندرية حماه الله تعالىٰ والبحيرة .

فلْيتقلّدْ ماقلّده إيّاه ، ويباشِرْه منشرحا صدرُه متهلّلا مُحيّاه ؛ وليْعتمِدْ علىٰ تقوىٰ الله التى هى خيرُ عَتَاد ، وأفضلُ ما اعتُمِد عليه فى الحياة الدُّنيا ويومَ يَقُومُ الأشْهاد ؛ وهى نجاةُ أهل اليقين ، وفوزُ المتقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَاأَيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين ﴾ .

ولْيبالِـغْ فى نَشْر رايةِ العدل ومَدِّ جَناحه ، وتَعْفيَة أذىٰ الجَوْر واجْتياحه ؛ ولْيشْمَلِ الصغيرَ والكبيرَ من أهـل هذه الولايةِ برِدَاء النَّصَفه ، ويعاملْهم بالجميـل المُوفى علىٰ

الصَّفَه، ويُقِم الحدُودَ على مستوجبيها، وينتهِ إلى الغاية فى تجنُّب إضاعتها وتوقِّيها؛ وليدُلَّ على المفسدين عينَ من يتتبَّعُ وُقُوعَهم فى قبضته ويتطلَّب، ويقابِلْ كلًّا منهم بما يرى متعقِّبا بإيماض بَرْق المُعاقبة غيرَ خُلَّب، ولا يبْقِ مُمكِنا فى التنقيب على مرتكبى الآثام، والمرتكبين على سَفْك الدم الحرام؛ ومَنْ ظفر به منهم فليُحَكِّمْ فيه شَبَا ظُفُر الانتقام ونابِه، ويقابِلْه من الرَّدْع بما يُؤَمِّن من معاودة عاداتِ التعدِّى على كل حَقِيرونابِه. وليُجْرِ على عادته فيما يَسيِّر عنه أحسَنَ السُّمْعه، ويشْهَدُ له بالتنزُّه عن خَبِيث الطُّعْمة وقبيح الطَّمْعه. ويشدّ من القاضى متولِّى الحكم فيما يُصْدِره ويُورِده، ويَحُلُّه ويعْقِده، ويمضيه من الأحكام الشرعيه، ويعتمده فى القضايا بما لَدَيْه من الألمعيَّه. ويعاضِد المستخدَمين فى الأموال معاضدة تُثَمِّره، وتنمّى الارتفاعَ وتُوَفِّره، وتَعُودُ على الديوان بالحظِّ الوافى، وتُعْرِب عن كَوْنه بمثل هذه الولاية نِعْمَ الكُفْءُ الكافى. ويعاملِ التُّجّار على تبايُنِ بُلْدانهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، معاملةً يجْمُل أثَرُها ويحْسُن؛ ويتلقَّهم ببِشْر وطلاقةٍ تنْطِق بشُكْر استبشارهم بها الألْسُن؛ ويحفَظْهم فى أنفسهم وبضائعهم، ويستنفِد الوُسْع فى دَفْع مضارّهم وروائعهم. ويعتمدْ بَعْث رجاله على الاستعداد للجهاد، والتأهب لقِراع الأضْداد. وينتهِ إلى الغاية فيما يُزِيل منهم اعتذارًا ويُزِيح اعتلالا، ويوجِبُ لهم الاقتدارَ على مكافَحَة عدُوٍّ إن طرق الثَّغْرَ والعياذُ بالله تعالى.

⁘

وهذه نسخة بولاية بُرْقة، وهى:

مِن حَقِّ الأطراف المتناهية فى بُعْد أقْطارِها، والبلادِ الشاسعةِ عن ثَواء المَمْلكة ومحلِّ استقرارها، التى انتظمَتْ فى سِلك أعمال المملكة الناصريَّة وانخرطَتْ،

وٱستدركت مُبتداتها لمن حوته فرائتَ الفوائد التى سلفت وفرطت ـ أن يُديم أكيدُ الاهتمام لها التحصينَ والتحسين، ولا يُغبَّ أهلَها مايغشاهم من الملاحَظات مصْبِحين ومُمسين ؛ وتُزجِى لهـا سحائبُ كرم التعهُّد عِهادَه غدَقا ، ويُعمِلَ الأولياءُ فى حياطتها من الغُمود ألسِـنةَ ويدَّكِرن دُونها من القَنا حدَقا ، ويفوّض أمورَهم إلىٰ مَنْ تخِفّ علىٰ يده كُلْفتهم، وتجتمعُ بحُسْن سيرته أُلْفتُهم؛ ويشتمل من عنايته عليهم ٱشتمالَ الصدَفة علىٰ القُلوب، وتنيلُهم مهابتُه من كفّ عَدْوىٰ العِدا كلَّ مؤثَر مطلوب .

ولمـا كنتَ أيُّهـا الأمير من أميز سالكى هذه الطرائق ، وأمثلِ فُرسان الحُروب وحُماة الحقائق ؛ وأشجعِ المجاهدين فى الله حقَّ جِهاده ، وأجْسَرِهم علىٰ إصلاء الشِّرك ضِرامَ فتكٍ لايَخْشىٰ إصلادُ زِناده؛ ولك السياسةُ التى تُرتِّب بين الأُسُود والظِّباءِ ٱصطحابا، والمخالَصـةُ التى لاتُناجىٰ إذا وُصفَت بالتغالى فيها ولا تُحابىٰ ـ خرج أمر الملك العادلِ بكَتْب هـذا المنشورِ لك بمـا أنعَم عليك بولايته وإقطاعه : وهو برَقّةُ بجميع أعمالها وحُقُوقها : من العقَبة الصُّغرىٰ وإلىٰ آخرحُدُودها، وبمـا أمَر به كافّةَ العُربان المقيمين بهذه البلاد، وجميعَ أهلها من حاضرٍ وباد : من الإعلان لك بشِعار الطاعه، وصَوْن ما يلزَمُهم أداؤه إليك من فروض النُّصْح عن الإضاعه ؛ وأن يبذُلُوا فى موافقتك غايةَ الاجتهاد، ويعتمدُوا من ٱمتثال مراسيمك أحسَنَ ٱعتماد؛ ويحذَرُوا من العدول عن أمرك، ويجتنبوا مخالفة نَهْيك وزَجْرك .

فاستمسكْ بحبل التقوىٰ الفائز من يعتصمُ به ويتعلّق، وٱستشعِرْ من خيفة الله مايُشرِق لأجله عليـك نُورُ الرِّضـوان ويتألّق، قال الله تعـالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ . وعامِلْ أهلَ هذه الولاية بالإنصاف، وإيّاك ومكروهَ العُـدُول عن مَحجّة العدل والٱنحراف؛ وتوقَّ العَسْف بهم والحَيْف

عليهم ، وآجتنب الترخيصَ لأصحابك فى مدّ يدِ أحدٍ منهم بعُدْوانٍ إليهم ؛ وسِرْ فيهم سَيْرةً ترؤُف بهم وترفُق ، وجانِبْ سبيلَ من تقوم عنده أسواقُ آختلاق المتخرصين وتنفُق ؛ ولا تخرُجْ فى تدبير الأمور عن قانون الشَّريعه ، ولا تجعلْ لك إلىٰ فَوْز الآخرة عن تقديم العمَل الصالح من ذَريعه . وغُلَّ عنهم أيدىَ حاضرى المفسدين وباديهم ، وأبنِهم بالمهابةِ عن إصرارهم علىٰ المنكرات وتماديهم ؛ وكلْ بهم عَزْما رادعاً لهم وازِعا ، ونكِّل بمن ظَفِرت به منهم تنكيلا يَزْجُرُ مَنْ يظَلُّ بحر الضَّلال نازِعا . وشُدَّ من خُلَفاء الحكم العزيز فى تنفيذ قضاياه ، وخُصَّهم من الكرامة بما تقتضيه إقامةُ مَناره وإنارةُ مَزَاياه . وآعتمِدْ مابُعِيد الحقائقَ بوجُوه ناضره ، ويردّ الأباطيلَ بصَفْقةٍ خاسره . وراعِ أمورَ التُّجّار والحُجّاج مراعاةً تشمَلُهم فى السفَر والإقامه ، وتحميهم من تطرُّقِ آستهانةٍ إلىٰ أحد منهم وآستِضامَه ؛ وطالِع بما يتجدّدُ من أحوال خدمتك ، وما يُحتاج إلىٰ علمه من جهَتك ؛ إن شاء الله عز وجلّ .

⁂

وهذه نسخة بولاية الْفَرَما ، وهى :

نحنُ لمَا ضاعفَهُ الله لدَيْنا من إحسانه وأجْزَلَه ، وعدّقه بنا من تدبير أمور الخلق وأسنده إلينا ووكَلَه ، نعتمد عبيدَنا بتوفير الرِّعاية لهم والإكرام ، ونُحافظ علىٰ مايغمُرهم من شامل الإفضال وسابغ الإنعام ؛ فنقدِّم للخِدَم من خَطَبها بخلوص طاعتِه ، ونؤهِّل للرُّتَب من أبانت شِيَمُه عن خبرته ومناصَحتِه .

ولمَّا كنتَ أيُّها الأمير ممن ظهرتْ مشايعتُه ومُوالاته ، وحسُنت فى مكافَحة الأعداء مشاهِدُه ومقَاماتُه ، ووضحتْ فى أفعاله دلائلُ النُّصح وبانتْ عليه سِماتُه ؛ ولك مَساعٍ مشكوره ، ومواقفُ مشهوره ، ومقاصِدُ هى من مآثرك معدودةٌ

وفى فضائلك مذكوره، رأينا ـ وبالله توفيقنا ـ آستخدامك فى ولاية الفَرَمَا والجِفَار[1] : سكونًا إلىٰ رضا مذهبك ، وثقةً بانتظام الحال فيما يُردُّ إليك ويُناطُ بك ؛ وخرج أمرُنا إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجلّ بتقليدك الولايةَ المذكورة وتضمينه ماناْمرُ به ونرسُمُه ، مما يَهديك إلىٰ الصواب فتَمسَّك به وتعكُف عليه وتلزَمُه .

فتقلَّدْ ما قُلِّدْته شاكرا علىٰ هذه النُّعمىٰ ، عاملا بطاعة الله تعالىٰ ومراقبته فى السر والنجوىٰ ، وآعتدَّها زادا إلىٰ الآخرة تطمئن به القلوبُ وتَقْوىٰ ، قال الله عز من قائل فى كتابه : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ . وآعتمِدْ فى أهل هذه الولاية نَصَفَةً تَعُمُّهم ومَعْدِله ، وسُنَنهم سياسةً تكون لسنّة الخير مؤكِّدةْ ولسُنّة الجوْر مبدِّله . وماثِلْ فى الحق بين قويِّهم وضعيفهم ، ولا تجعل مزيّةً فى الواجب لشريفهم علىٰ مشروفهم ؛ وآنتصِفْ للظلوم من المتعدّى الظالم ، وآعمَلْ بالكتاب والسنّة فى الحدود التى تُقيمها علىٰ ذَوِى الجرائر والجرائم ؛ وآنتصِبْ لحفظ الطُّرُقات ، وصَوْن الصادرين والوارِدين فى جميع الأوقات ؛ ونكِّل بمن تظفَرُ به من المفسدين ، وآجعله عِظَةً لأمثاله من الظالمين والمعتدين ؛ وعاضِد النائبَ فى الحكم العزيز معاضدةً تقضى بإعزاز الجانب ، وساعِده مساعدةً تنفُذ بها أحكامُه علىٰ قضيّة الواجب ؛ وكذٰلك مُتولِّى الدّعوة الهاديّة فهى مِصْباح الزمان ، وبإشادة ذِكره تَقْوىٰ دعائمُ الإيمان ؛ فاجتهِدْ فى تمييز متولّيها وإكرامه ، وبلّغه فى ذٰلك غايةَ مطلوبه ومَرامه . وتوفَّر علىٰ الشدّ من المستخدَمين فى الأموال ، وراعِ [ما يحسن] لدينا فيما تنظُر فيه من الأعمال ؛ وآحرِصْ علىٰ ماعاد بُوفُور آرتفاعها ، وأجْرِ أحوالَها علىٰ أفضل رُسُومها وأوضاعها ؛ بحيثُ يكونُ العدلُ منبسطا منبثّا ، والحَيْفُ منحسِما مستأْصَلا مجتثّا ، وأجْمِل صحبةَ الرجال المستخدَمين معك ، وأحسِنْ معاشرتَهم مع مطالبتهم بملازمة

(١) كانت عدّة قرى ومن مدنها العريش والوَرّادة ورَفَحُ وقطية وقس والزعقا . انظر معجم البلدان .

الخِدْمة، وآستنهاضِهم فى الأمور الشاقَّة المهِمَّة ؛ فاعلَمْ هذا وآعمل به، وطالِع بما تحتاج إلىٰ المطالعة به؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخة بولاية عَسْقلان، وهى :

من شِيَمِنا التى غدَتْ للصالح ضَوامن ، وعلَتْ فكُلُّ متطاوِل عندها مُتطامِن ؛ وهِمَمِنا الكافلة [للرعيَّة] بما يُقِرُّ عُيونَها، والقاضية لخاصَّة والعامَّة بما يوجب طُمَأْنينتَها وسكُونَها، أنعَمْنا النظرَ فيما نَرْعاها به ونَسُوسُها، وأعملنا الفِكْرَ فيما يستقيم به أمرُها ويزولُ معه بُوسُها؛ فيقِف [بنا] الآجتهادُ فى ذٰلك علىٰ مَحَجَّة الصواب التى لا ضَلالَ فى سُلُوكها، ويُفْضى منا الحرصُ إلىٰ غايةٍ لم يبلُغْها أحدٌ من مدَبِّرى الدول ومُلُوكها؛ فننتخب لخطير الخِدَم من كان قَئُوما بها مستقِلًّا بآصارها، ونَنْتجب لجليل الرُّتَب الأعيانَ من أمراء دولتنا وأنصارها؛ حِفْظا لما آستُحفِظْناه من أمور العِباد والبِلاد، ورَفْعا لعِماد الصَّلاح وحَسْما لموادِّ الفَساد .

ولَمَّا كنتَ أيها الأميرُ من الأولياء الذين صفَتْ فى المخالصة ضمائرُهم ، وحسُنَتْ فى الطاعة عقائدُهم وسرائرُهم؛ ونالُوا من نَبِيه الحَظّ ماأطنبَ الواصفُ فيما يذكره منه ويَرْويه ، وأحمَدُوا المناصحةَ فيما رَقَوْا فيه من دَرَج التنويه؛ وقد آستُكْفِيت مهمَّاتٍ من الخِدَم فكَفَيْت هَمَّها وخفَّفت ثِقْلَها ، وأُهِّلت لولايات سنِيَّة فحمَلْت كَلَّها ، وكنت مستحِقًّا لها وأهلَها؛ فلك مَواتُّ حميدةٌ من حَسَن المقاصد ومشكور المَساعى، وحُرُمات أكيدةٌ ظلَّتْ علىٰ آصطفائك من أوْفَى البواعث وأقوىٰ الدَّواعى ؛ وكانت مدينـةُ عَسْقلانَ – حماها الله تعالىٰ – ثغرَ الإسلام الذى لا ثَغْرَ له فى الشام سواه ، والرِّباطَ الذى مَنْ كان به فقـد نال الثوابَ الجزيلَ وأحرَزه وحَواه؛ وهو فى عيون الكفار – خذَلهم الله – نُكْته ، وأسبابُ طَمَعهم فيه منقطعةٌ بحاماته منبَتَّة ؛ ونحن

نُوَفِّرُ اهتمامَنا عليه رعايةً لمكانه المكين ، وننتضى الكُفاةَ(١) لتوليه توصُّلا إلى النكاية فى المشركين ؛ وهو معقِلٌ للسلمين المجاهدين ورِدْءٌ ، ومُجاوِروه قوم لُدٌّ ، وأمرُهم أمرٌ إِدٌّ ، فيجب أن يُرتادَ لضبطه النَّدْبُ الذى لا تُهتَبَلُ غِرّتُه ، ويُسامَ لحفظه العَضْبُ الذى لا تُتَّقَى ضَرْبَتُه ، ويُختارَ لصونه الشهمُ الذى تقف على المصالح هِمّته ، وتنفُذ فيها عَزْمَتُه ؛

وحين كانتْ هذه الصفاتُ فيك موجوده ، وظلَّت محسوبةً من خلالك معدوده ؛ رأينا — وبالله توفيقُنا — ماخرج به أمرُنا إلى ديوان الانشاء من كَتْب هذا السجلّ بتقليدك ولايةَ هذا الثغر وضواحيه ، وعمله ونواحيه ؛ ثقةً بمشهور مَضَائك ، وعلمًا بإبرارك على نُظَرائك .

فتقلَّد هذه الخدمةَ عارفًا قدْرَ ماخُوِّلت منها ، وعاملا بتقوى الله وخِيفته فى جميع ماتأمُر به وتَنْهى ؛ فإن تقواه الجُنّة الراقيه ، وإن خِيفته الذخيرةُ الباقيه ؛ وقد وعد اللهُ المتقين بتيسير الأمور ، وتكفيرِ السيآت وإعظام الأُجور ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ . واستعمِل العدلَ فى جميع من يشتملُ عليه عمَلُك ، ويجرى عليه توليك ونظرُك ؛ وساوِ فى الحق بين الضعيف والقوىّ ، وماثِل فى الحكم بين القريب والقصىّ ؛ وإذا ثبت على شريف حقٌّ فلا تُحابِه لرُتبته ، وإذا ثبت لوضيع فخذه ممّن لزِمه واستقِرّ فى جهته .

واعتمد من الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر ما يَستنطق بالثناء عليك ألسنة المادحين ، وينظمُك فيمن عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

(١) فى القاموس وغيره «انتصبت» أى بالصاد المهملة «الرجل اخترته» فتنبه .

ويَأمُرُون بالمَعْرُوف وينْهَوْنَ عن المُنْكَرِ ويُسَارِعُونَ فى الخَيْرات وأولئك من الصَّالِحِين ﴾ .

وأقِم الحُدود علىٰ مَنْ لزِمتْـه بمـا أمر اللهُ به إقامةً [تجرى بها] مَجْراها ، وتوَقَّ الزيادة فيهـا والنقص توقِّىَ من يتمثَّـلُ المجازاةَ كأنه يَراها . وهـذا الثغر لمحلّه وسُموّ مقْداره ، وقُرْب العَـدُوّ منه ودُنُوّ داره ، لا يُقنَع له بمركزيَّته ، ولا يُكتفىٰ فى حقه بمرابِطيَّته وقراريَّته ، فنحن نُسَيِّر إليه العساكر المظَفَّرة دَفْعتين فى كل سنة علىٰ حُكْم البَدَل : فيرِدُه عسكر جديدٌ مُزاحُ العلة ، كثيف العُدّه ، وافر العِدّه ، يؤثر أن يَظْهر أثرُه ، ويحافظ علىٰ ما يطيب به ذكره وخَبَرُه ، فبُثَّ السرايا وشُنَّ الغارات ، وضيِّق علىٰ العدو فسيحَ النَّواحى والجهات ، وجهِّزْ إليـه من يُخيفه فى مَأمنه ، وٱبعث عليه من يَطْرُقه فى أحرز أماكنه ، واندُبْ من يطالِعُك بخفىّ أخباره ، ويظهرُ لك باطنَ أموره ومستورَ أسراره : لتنتهزَ فيه الفُرصـةَ إذا لا حَتْ مخايِلُها ، وتبادرَ الغفلةَ منه إذا ظهرتْ دلائلُها . وٱجعـل للمتطوّعين من الكِنَانيِّين نصيبا من ثواب الجهـاد ، وٱحملْهم علىٰ ٱسـتفراغ الوُسْع بغـاية الحِـرْص والاجتهاد ، وٱفعَلْ فى هـذا الباب ما تتضاعفُ به مَوادُّ الأجر ، وتنتسِخ به الأوزارُ كما ينتسِـخُ الظلامُ بضياء الفَجْر ، وٱعضُدْ متولِّى الحـكم العزيزِ عَضْدا يُعْلِى أمرَه ، ويشُـدّ أزْرَه ، ويحرُس نظامَه ، وينفِّذ قضاياه وأحكامَه ، وكذٰلك متولِّى الدعوة الهادية ـ ثبتها الله تعالىٰ ـ فاعتمِدْه بمـا يشرح صدرَه فيما يوضِّحه للؤمنين ، ويهدى به المستجيبين والمتديِّنين ، ووفِّر موفَّر ٱهتمامك علىٰ مرافدة من يتولىٰ أمرَ المـال وما يجرى فى الخـاصِّ لتَـدِرَّ أخلافُه ، ويزكو ٱرتفاعُه ، وتغزُرَ مادّته ، ويتوفَّر مستخْرَجه ، ويحتَمىَ من خيانةٍ وتحيُّف ، ويسْلَم ٱستيداؤُه من تريُّث وتوقُّف . وٱستنْهِض الرجالَ المستخدَمين فى الأمور السَّـوانح ، وصَرِّفهم فيما ترىٰ تصريفَهم عليه من أسباب المنافع والمصالح ، وٱستمطِرِ

الإحسانَ لمن أحمدْتَ طريقتَه ، وقوِّم بالتأديب من ذَممت فعله وكرِهت سيْرتَه ؛ فاعلم هذا وٱعملْ به ، وطالع بما يُحتاج إلى المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله عز وجل .

✣

ومن المكتتَب بالوظائف الديوانية من هذه المَرْتبة نسخةُ توقيع بنظر الدَّواوين ، وهى :

أحقُّ الأعمال بأن يُنْعَم فيها النظرُ الشافى ، ويُنْدَبَ لحمل عِبْئها الأمينُ الكافى ، ويُجَالَ النظرُ فى تقليدها للقيِّم بأمرها ، ويُعمَلَ الرأىُ لٱرتيادِ القوِىِّ على ضبطها وحَصْرِها ، ما كان منها جامعًا لمَصَالح الدولة ، حائزًا لمَهامّ المملكة : وهى أعمال الدِّيوان ، والنظرُ فى حفظ وُجُوه الأموال وما يُعين على ٱستِنْمائها ، ويعودُ بالزيادة فى أصول أبوابها ؛ إذ كان ذٰلكَ مِلاكَ الأمور ، وزِمامَ التدبير فى حِفْظ الجُمْهور ، والمَعُونةَ العُظمىٰ علىٰ الٱستكثار من الرجال الذين بهم يَتِمُّ حفظُ البلاد وحمايةُ الثُّغُور .

ولمَّا سَلَّطْنا البحثَ علىٰ ٱستصلاح من نؤهِّله لهذه المنزلة ، وٱستخلاص من نُحِلُّه بهذه المرتبة ، أدّانا الٱختبارُ والٱنتقاد ، وٱنتهىٰ بنا الٱعتِيامُ والٱرتياد ، إلىٰ ٱختيار الشيخ فلان : حينَ سَفَرتْ له النَّباهةُ فى الكِفايَه ، والوَجَاهةُ فى الخِبْرة والدِّرايه ؛ وجب ... ... (١) علىٰ ٱختصاصه بالفَضْل الذى تحلَّىٰ بأدَبه ، والعَفَاف الذى ٱشتهر من مذهبه ؛ من الخصال الحميده ، والخِلال الرَّشيده ؛ والفضائِل الموروُثة والمكتَسَبه ، والخلائقِ المُنْتقاة المهذَّبه ؛ ورأيناه أهلا لإحْلال هذه المَكانه ، وعَدْلا قَيِّما باحتمال هذه الأمانَه ؛ وعلِمنا أن الصنيعةَ عنده زاكيةُ المَغَارس ، والنعمةَ المُفاضةَ عليه ضافيةُ المَلابس ؛ فقلَّدناه أمر الديوان بحلَب وما معها من البلاد المضافةِ إليها

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

والداخلةِ فى حكمها : قاصى ذٰلك ودانيه، وأَواسطه وحَواشيه ؛ مقدِّمين الاستخارة فيما نُبْديه من قول ، ونعزِم عليه من فعل .

وأمرناه أن يَستشعِر تقوىٰ الله سبحانه فإنَّها الجُنَّة الواقيه ، والذخيرة النافعةُ الباقيه ؛ ويعتلق أسبابَها فإنها المُنجِّية من المهالك، الهادِيَةُ إلىٰ السُّبُل الواضحة إذا اشتبَهت المَسالك ؛ محققًا ماتوسَّمناه فيه من مَخايِل الأصاله، ودلائل الجزاله ؛ مصدِّقًا مااستلْمحناه من كِفايَته وغَنائه ، واستوضحْناه من استِقْلاله واستِقصائه . وأن يبدأ فيرتِّبَ فى كل مُعاملة أمينًا من الثِّقات الكُفاه، مشهودًا له بالنَّهْضة والأمانة المستَوْفاه . وأن يَزُمَّ الأعمالَ القاصيةَ والدانيه ، والبلاد القريبةَ والنائيه، بالضبط المستقْصى ، والحفظ المستوفِى ؛ وبمن يرتِّبه عليها من الكُتَّاب الأُمَناء، ويستصلحُه لها من الحَفَظة النُّصحاء . ويتتبَّع حال مَنْ بها من النُّوّاب : فمن شهدت له التجربةُ بالكفاية ، ودلَّ الاختبارُ منه علىٰ العِفَّة والأمانة ، استدامه فى خِدمه المَنُوطة به، وطالَعَ من حاله بما يَقْضِى له حُسْنُ النظر بحسبه؛ ومَنْ ألفاه متنكِّبًا سبيلَ الأمانه، مقارِفًا طريقَ العَجْز والخيانه، بادرَ إلىٰ الاستبدال به، وعجَّل قطْعَ ماينه من الخدمة وبين سببه . وأن يسترْفِعَ البواقىَ من الأموال، فى سائر الجهات والأعمال، إلىٰ آخر التاريخ الذى تليه مباشَرتُه، ويتصلُ بآخره مبدأُ نظره وفاتحتُه ؛ موشَّحةً أوراقُ ذٰلك بخطوط الأمناء، مفصلةً جهاتُه بأسماء المعامَلين والضُّمَناء ؛ حتّىٰ إذا حُمِلت إليه، وصارتْ حُجَّة علىٰ رافعها فى يديْه ؛ طالبه بموافقة مَنْ هو فى ذِمتّه ، وتقدّم بعدَ تصديقه علىٰ ذٰلك بمضايَقته بعد المطالعة بجلىّ الحال وحقيقته . ثم يَسْترفِع من مستوفِى الديوان وعُمّاله شروطَ الضُّمّان ورسومَهُم، وقواعِدَهم فى الضمان وعوائدَهم: ليكون علمُ ذٰلك عنده مبيَّنًا ، ووقْتَ مَسَاس(١) الحاجة إليه حاضرا . ويطالب بجرائد الضِّياع خاصِّها ومُقْطَعِها المشتملة علىٰ ذكر رُسُومها وحُقُوقها ؛ وعدَد فُدُنها

(١) الأولى بل الصواب مسيس الحاجة .

ومَقَاسِها . وجرائدِ الخَراج اللازم لأرباب الأملاك علىٰ أملاكهم، وتحقيق المصفُوح عنه والمسامَح به والباقى علىٰ الأداء فى جهته . وجرائدِ الجزية مفصَّلةً فى نواحيها، وأسماء أربابها إلىٰ حينِ رفْعها ـ وأن يطالب نوّابَ الجزية فى كل شهر بختمة تتضمَّن ذكرَ مَصَارف مايُحوّل إليهم، وإقامة وُجوه المال الذى جُمع عليهم؛ مفصَّلة مميِّزة الابتياعات عن الإطلاقات، والضِّيافاتِ عن السُّفرات والإصطبلات؛ وكذٰلك نوّابُ الأهراء يسترفع منهم مايدُلُّ علىٰ مثل ذٰلك، وسائرُ المتولين فى سائر الخِدَم يطالبهم بهذه المطالبه، ويضيِّق عليهم فى مثل ذٰلك سبيل المغالطة والموارَبَه؛ ويجعل مؤاخذَتهم بذٰلك من الأمور الراتبَه، والوظائفِ اللازمةِ الواجبه؛ حتّى يتبيَّن له الكافى من العاجز، والأمين من الخائن .

ولْيتأمّل وجوهَ الإخراجات، ومبلغَ الإطلاقات والإدْرارات؛ ويسترفعه من مظانِّه مفصَّلا بجهاته، منسوبًا إلىٰ أربابه؛ ويتقدّم بكتْب مؤامرةٍ جامعة لذٰلك التفصيل، دالة على المقدار المطلق فى كل سنة محكَم النظر الدقيق دونَ الجليل؛ وليعتمِدْ فى إطلاق مايُطْلَق منها علىٰ سبيل ما يوقع به عند ذٰلك، وليكن هذا من الأمور الجارية علىٰ العادة والرسم، ويلزمه كلٌّ من نُوّاب الديوان .

⁂

ومن المكتتَب منها بالوظائف الدينية نسخةُ تقليدٍ بولاية الحِسْبة، من إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير، وهى :

﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

هذا أمرٌ يشتمِلُ على معنى الخُصوص دونَ العُموم ، ولا يختصُّ به إلا ذَوُو الأوامر المُطاعة أو ذوُو العُلوم ؛ وقد منَحنا اللهُ هذين الوصفين كِليهما ، وجعلَنا من المستخْلَفِين عليهما .

فلْنبدأْ أوّلا بحمده الذى هو سبب للمَزيد ، ثم لنأخُذْ فى القيام بأمره الذى هو على كلِّ نفس منه رقيبٌ عَتيد ؛ ولا ريب أن إصلاحَ العِباد يسْرِى إلى الأرض حتّى تزكُوَ بطُونُها ، وتنْمُوَ عُيونُها ، ويشترِكَ فى بركات السماء ساكِنُها ومسكونُها ؛ والأمرُ بذلك حِمْل إن لم تتوزّعْه الأكُفُّ ثقُل على الرقاب ، وإذا آنتشرتْ أطرافُ البلاد فإنها تفتقِرُ إلى مساعدةٍ من مستنيب ومستَنَاب ؛ وقد آخترنا لمدينة كذا رجلا لم نأل فى آختياره جُهْدا ، وقدّمنا فيه خِيرةَ الله التى إذا صدقتْ نِيّتُها صادفَتْ رُشْدا ؛ وهو أنت أيها الشيخ فلان .

فابسُطْ يدَكَ [بقوّة](١) إلى أخذِ هذا الكتاب ، وكُنْ حسنةً من حسَناتنا التى ثمَّ يرجَح بها ميزانُ الثواب ، وحَقّق نظرَنا فيك فإنه من نُور الله الذى ليس دُونَه من حجاب .

وآعلَمْ أنَّ أمر الشريعة مبنيٌّ على التيسير لا على التعسير ، ولا يضَعُ اللسانَ موضعَ السوط إلا من أُوتِى زيادةً فى التفسير ؛ وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم منْدُوحةٌ لمن لزِمها ، وهى هدًى لمن عمِل بها ونورٌ لمن علِمها ؛ ويكفى من ذلك قصةُ الأعرابىّ الذى أتَى حاجتَه فى المسجد فسارع الناسُ إليه ، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنّما بُعِثْتُمْ ميسِّرين ولم تُبعثُوا معسِّرين ، ثم دعا بذَنُوب من ماءٍ فصبَّه عليه وقال : ياأخَا العَرَب إنَّ المساجدَ لم تُوضَعْ لشىْءٍ من هذا وإنما وُضِعتْ للصّلاة وقِراءةِ القُرْءان » .

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ٤١٦ .

فانظرْ إلىٰ هذا الرِّفق النبوىّ الذى شَفىٰ وكَفىٰ، وعَفّىٰ علىٰ أثر المعصية لمّـا عفا، ولو عاد ذٰلك الأعرابىّ لمثلها لنُقِل عن لين التهذيب ، إلىٰ شدّة التأديب ، وكذٰلك فكن أنت فى الرفق الذى حُدِّثْتَ عنه ، ومَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ منه .

ونحن نأمُرك أن تحتسب أوّلا بلين القول لا بالأَنَف [و] النـكير، وأن تترفَّق فى الموعظة التى هى طريق إلىٰ الخشية والتذْ كير، وأن لا تكون باحْتِسابك مُدِلًّا بأنّك علىٰ الصراط المسـتقيم، وأن النـاس بيْنَ يديك علىٰ سَنَن التثقيف والتقويم؛ فإن من أكبر الذنوب ذنبَ الإعجـاب ، والأَوْلىٰ لك حينئـذٍ أن تعودَ علىٰ نفسك بالاحتِساب (١) ، ومن أدَبك وأدَب أمثـالك أن يقف فى أمْرِه بالمعروف مع التقوىٰ لامع هَوَاه ، وأن لا يُفَرِّق فى إزالة المعصـية أن تكون بيـده أو بيـدِ أحدٍ سواه ، وإذا كنت كذٰلك قَرَنك الله بمَنْ أنزل السكينةَ علىٰ لسانه ويده ، وقوّم له أَوَدَ الناس لتقويم أَوَدِه ، والله ينظُر إلىٰ قَلْب آبنِ آدم لا إلىٰ عمَـله ولا إلىٰ جَسَـده . وعليكَ بالمجاهدين الذين سُلِب عنهم ثوبُ العافيه ، ومَن آختفىٰ منك بالآستِتار فلا تكْشِفْ عن حاله الخافِيَه . وأما ذَوُو الهيئات فإنَّ عثَراتِهم تُقال ، وأعراضَهم لاتُذال ، ولَرُبّمـا كان التجاوُزُ عنهم داعيا إلىٰ الآنتقال ، وفى قصة أبى مِحْجَنٍ وسعْد ماينبِّئك أنَّ الحياء أغنىٰ فى الآزْدِجار ، وفى الناس أذنابٌ لا قَدْر لها تَذُبُّ عنه ورُءوسٌ تُذَبُّ عمّا لهـا من الأقدار . وهاهنا من ضَرورِيّات الوصايا مايُؤْتَىٰ فى مثله بتوكيد الأقوال ، وأكثَرُ ذٰلك يدُور فى المعاملات التى أَلِفَها قومٌ دون قوم ، وآستمرُّوا عليهـا يومًا دُونَ يوم ؛ وقد أتىٰ منها ما آتّفق علىٰ العمل به كلُّ فريق ، وأيسرُ ذلك إزالةُ النُّخامة من المسجد وإماطةُ الأذىٰ عن الطريق .

---

(١) فى القاموس آحتسب عليه أنكر ومنه المحتسب .

وهذه الوصايا كلُّها لا تفتقر فيها إلىٰ التوقيف ، وأنت عالمٌ بوضع كلِّها فى مواضعه وغيرُك الذى يتعدَّى إلىٰ التحريف ؛ فامض علىٰ السَّنَن ، وأْتِ بالحسن ؛ وسوِّ بين حالتَيْك فى السِّرِّ والعلَن ، وكنْ من خوف الله ورجائه بين رِحْلةِ سفَر وقَرارةِ وطَن . وهذا عهدُنا إليك تتقمَّص اليومَ منه رِداء جميلا ، وستَحْمِل غدًا منه عِبْئًا ثقيلا ؛ وقد فرَضْنا لك عن حقِّ سعيك فريضةً تجدُ بها كَفَافا ، وتمنعُك أن تمدّ عينيْك إلىٰ غيرها آستِشْرافا ، فإنَّ العملَ الذى تولَّيته يستغرق أوقاتَكَ أن تكون للدنيا كاسبَه ، وتشغَل نفْسَك بالعمل والنَّصَب لا أن تكون عاملةً ناصِبه . وإذا نظرت إلىٰ ما نِيطَ بك وجدْتَه قد آستحصىٰ الزَّمن أو كاد ، وأنت فيه بمنزلة البانى وقواعده : « وكلُّ بِناء علىٰ قدْر بانيه وما شاد » . ونحن نأمر وُلاتنا علىٰ آختلاف مراتبهم أن يرفعوا من قَدْرك ، ويسدِّدُوا من أمرك ، وإذا آستَوْعَرَ عليك أمرٌ من الجوانب سَهَّلوا من وَعْرك ؛ والله قد أمر أهلَ طاعته بأن يكون بعضُهم لبعض من الأعوان ، فقال جل وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ﴾ .

الحالة الرابعة

(مما يُكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ماعليه مصطَلح كُتَّاب الزمان
بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يُكتَب عن السلطان لأرباب السيوف
والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتَّفاوِيض والتواقِيع ،
على ما سيأتى بيانه، وفيه [ثلاثة][1] مقاصد)

المقصد الأول

(فى مقدمات هذه الولايات، وفيه مَهْيَعان)

المهيع الأول

(فى بيان رجوع هذه الوِلَايات إلى الطريق الشرعى)

قد تقدّم فى أوّل الكلام على العُهود أن السلطنة فى زماننا دائرةٌ بينَ إمارة الاِستيلاء : وهى أن يقلّده الخليفةُ الإمارةَ على بلاد ويُفوّض إليه تدبيرَها فيستَوْلى عليها بالقوّة ، وبينَ وِزَارة التفويض : وهى أن يستوزِر الخليفةُ من يُفَوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وفصْلَها على اجتهاده ، وأنها بإمارة الاستيلاء أشبه ، على ماتقدّم بيانُه هناك . وقد صرح الماوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" أنه إذا كَمَل فى المستولِى على الأمر بالقوّة بعد تولية الخليفة له مع اشتماله على الصفات المعتَبَرة فى المولّى فى الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة الإسلامُ ، والحرّيّة ، والأمانةُ ، وصِدْق اللّهجة ، وقِلّة الطمع ، والسلامةُ من الميل مع الهوى ، والبراءةُ من الشّحْناء ، والذّكاءُ ، والفِطْنة ـ جاز له ما يجوز للخليفة من تولية وزارة التفويض وغيرها من سائر النّيابات ، وجرى على من استوزره أو استنابه أحكامُ من استوزره الخليفةُ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الآتى .

أو آستنابه، وان لم يستكمل الصِّفَاتِ المعتبرةَ فى الولاية الصادرةِ عن آختيار الخليفة، آستنابَ له الخليفةُ لكل وِلاية من تتكامَلُ فيه شروطُها .

قلت : وقد كانت ملوكُ بنى بُوَيْه و بنى سَلْجُوق مع غَلَبتهم علىٰ أمر الخلفاء ببغـدادَ وآستيلائِهم يقتصرون فى تصرُّفهم علىٰ متعلِّقات المُلْك فى الجهاد والتصرّف فى الأموال ، و يكون أمر الولايات إلىٰ الخليفة يُباشِرها بنفسه، وتكتَبُ عنه العهودُ والتقاليدُ علىٰ ما تشهد به نُسَخُها الموجودةُ من إنشاء الصابى وغيره ـ وكذٰلك الخلفاء الفاطميُّون بمصر عند غَلَبة وُزَرائهم علىٰ الأمر من لَدُنْ خلافة المستنصِر وإلىٰ آنقراض خلافتهم من الديار المصرية، كالصالح طَلَائِع بنِ رُزِّيك(١) فى وزارته للفائز والعاضد ، ونحو ذٰلك : فإنَّ الخليفة هو الذى كانت الولاياتُ تَصْدُر عنه تارةً بإشارة الوزير، وتارةً بغير إشارته ، علىٰ ما تشهد به نسخُ السِّجلّات المكتتبة فى دَوْلتهم ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفصل الأوّل من هذا الباب . علىٰ أنَّ أصحابنا الشافعيةَ وغيْرَهم من أئمة الفقهاء ـ رحمهم الله ـ قد صَحَّحوا الإمامةَ بغلبة الشوكة والآستيلاءِ علىٰ الأمْرِ بالقهر دُونَ آستكمال شروط الإمامة ، تصحيحًا للأحكام الشرعية الصادرة عن المستوْلِى بالشوكة : من العُقُود والفُسوخ وإقامة الحُدود وغيرها، علىٰ ماهو مذكور فى باب الإمامة . وحينئذ فتكون جميعُ الولايات الصادرة عن السلطان صحيحةً شرعا وإن لم يستَنِبْه عنه الخليفةُ ، وكذٰلك ما يترتَّب عليها ، علىٰ ما الأمر جارٍ عليه الآنَ .

---

(١) ضبطه المجد فى قاموسه فقال «كقبيط» . ونُقِل عن الحافظ آبن حجر ضبطه بكسر الزاى وصوبه شارح القاموس و به ضبطه آبن خلكان فى تاريخه .

المَهْيَــــع الثــانى

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات)

وآعلم أنه يجب على الكاتب فى ذلك مراعاةُ أمور .

الأمر الأول — براعةُ الآستهلال بذكر آسم المولّى أونعتِه أو لَقَبه أو الوظيفة، أوحالِ الولاية ، مع آستِصْحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخُطْبة ونحوها من الافتتاحات، كما أشار إليه الشيخ شهابُ الدين محمودٌ الحلبىُّ رحمه الله فى كتابه "حُسْن التوسل" كما تقدّم ذكره فى الكلام على البَيْعات والعُهود .

الأمر الثانى — مراعاة قَطْع الورق فى الجملة لكلّ مايُكتَب من ديوان الإنشاء من المكاتباتِ والولايات وغيرِها . والذى يختص بهذا المكان ذكْرُ مقاديرِ قَطْع الورق فيما يتعلّق بهذه الولايات خاصّة، وهى خمسة مَقادير: — أحدُها قَطْع الثلثين، ويختصُّ فى الولايات بكِبَار التقاليد دُونَ غيرها — وثانيها قَطْع النِّصف، وفيه تُكتَب صغارُ التقاليد، والمَراسيمُ المُكبَّرة، والتفاويضُ ، وكِبارُ التواقيع — وثالثها قَطْع الثلث، وفيه تُكْتَب صغارُ المراسيم المكبَّرة، والتواقيعُ المتوسطةُ — ورابعها قَطْع العادة المنصوريّ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى لأصحابها بعضُ مِيزة لاتنتهى بهم إلى رُتْبة قَطع الثُّلُث — وخامسها قَطْع العادة الصغيرُ ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى هى فى الرتبة الأخيرة .

الأمر الثالث — معرفةُ ما يناسِب كلَّ قطع من هذه المقادير من الأقلام . وقد تقدّم فى المقالة الثالثة نقلا عن "التعريف" مالكلِّ مِقْدار من الأقلام. والمتعلّق بهذا الموضع من ذلك أنَّ لِقطع الثلُثين قَلَمَ الثلث الثقيل، ولقطع النصف قَلَمَ الثلث الخفيف، ولقَطْع الثلث قَلَمَ التوقيعات، ولقطع العادة مُطْلَقا قَلَمَ الرِّقاع .

الأمر الرابع — معرفةُ اللّقب المطابقِ لرتبة كلّ ولايةٍ وصاحبِها من الألقاب الأصولِ المتقدّمِ ذكرُها فى الكلام على الألقاب من المقالة الثالثة . وهى المَقرّ، والجَناب، والمجلسُ، ومجلسُ كذا على الإضافة؛ وما يُناسب كلَّ لقب من هذه الألقاب من الفروع المرتّبة عليها، كوصف المَقرّ بالكريم العالى، ووصفِ الجناب تارةً بالكريم العالى، وتارة بالعالى مجرّدا عن الكريم، ووصفِ المجلس تارةً بالعالى، وتارة بالسامى، وإضافة مجلس فى حق أرباب السيوف إلى الأمير فيقال : مجلس الأمير، وفى حقّ أرباب الأقلام من العُلَماء وأصحاب الدواوين إلى القاضى فيقال : مجلِس القاضى ، وفى حقّ الصُّلَحاء إلى الشيخ فيقال مجلِسُ الشيخ؛ وانّ لِمَنْ دُونَ هؤلاء الصَّدْر ويُوصَف بالأجل فيقال الصَّدْر الأجلّ ؛ وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعا شتّى تترتّب عليه . وتقدّم أيضا فى المقالة الرابعة فى الكلام على المكاتباتِ الصادرةِ عن الأبواب السلطانية بالدّيار المصرية فى زماننا إلى أهل المملكة مكاتبةُ كل واحدٍ ممّن جرتِ العادةُ بالمكاتبة إليه، وما يختصّ به من الألقاب الأصُولِ والفُروع .

وٱعلم أنّ الولاياتِ أعمّ من المكاتَبات : فقد يكون للشخص ولايةٌ من الأبواب السلطانية وليس له مُكاتَبة، إذ المكاتَبات إنما تكون لقومٍ مخصوصين من أرباب الوِلايات . إذا عُلِم ذلك فكلُّ من له مكاتَبة عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام ممن تقدّم ذكره فى الكلام على المكاتَبات إذا كُتبتْ له ولايةٌ نُعت بألقابه ونُعُوته التى بها يُكاتَب عن الأبواب السلطانية، إلا أنّ الدعاء المصدّر به المكاتبةُ يجعل فى الآخر دُونَ الأول : فاذا كانت المكاتبةُ إلى أحدٍ «أعزّ الله تعالى أنصارَ المَقرّ الكريم» قيل فى ألقابه فى الولاية « المَقرّ الكريم » إلى آخر ما يقتضيه الحال، ثم يقال : فلان أعز الله تعالى أنصاره؛ وكذلك فى البواقى . أمّا من لم تجر

العادة بمكاتبة إليه عن الأبواب السلطانية ممن يُولّى عنها فإن لكل طبقة ألقاباً تخصهم . ونحن نذكر الألقابَ الأصولَ وما يتفرّع عليها لكلّ طبقة من كل طائفة على الوضع الذى تقتضيه الوِلاياتُ دُونَ المكاتبات، ليُجْرَى كلٌّ من أرباب الولايات على ما يُناسبه من الألقاب .

وقد علمتَ فيما تقدّم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أن الألقاب على خمسة(١) أنواع :

النوع الأوّل — ألقاب أرباب السيوف

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تِسعُ مراتِبَ :

المرتبة الأولى — المقرُّ الكريمُ مع الدعاء بِعزِّ الأنصار، وهى : المَقَرُّ الكريمُ، العالى، الأميرىُّ ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العادلىّ ، المؤيّدىّ، الزعيمىّ ، العَوْنىّ، الغِياثىّ ، المُثاغِرىّ، المُرابِطىّ ، المهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظّهيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأتابكىّ ، الكفيلىّ ، الفلانىّ، معزُّ الإسلام والمسلمين ، سيّدُ أمراء العالَمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحّدين ، ممهّد الدُّوَل ، مشيّد المَمالك، عمَاد المِلّة ، عونُ الأمة ، ظهيرُ المُلوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعزّ الله تعالى أنصارَه .

المرتبة الثانية — الجنابُ الكريمُ مع الدعاء بعزِّ النُّصْرة، وهى : الجنابُ الكريم، العالى، الأميرىُّ الكبيرىّ العالِمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ ، الزعيمىّ، العَونىّ، الغِياثىّ، المُثاغرىّ، المُرابِطىّ، المُمهّدىّ، المشيّدىّ، الظّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ، عزُّ الإسلام والمسلمين، سيّد الأمراء فى العالَمين، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جُيوش

(١) المعدود ستة فتنبه .

الموحِّدين ، مقدَّم العساكر ، ممهِّد الدُّول ، مشيِّدُ الممالك ، عمادُ المِلَّة ، عونُ الأمة ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلىٰ لَقَب السلطان) أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرتَه .

المرتبة الثالثة — الجنابُ العالى مع الدعاء بمُضاعفة النِّعمة ، وهى : الجنابُ العالِى ، الأميرِىُّ ، الكبيرِىُّ ، العالمِىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ ، العوَنِىّ ، الزعِيمِىّ ، الممهِّدىّ ، المشَيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، الكافِلىّ ، الفلانىّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، عمادُ المِلَّة ، عون الأُمَّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلىٰ السلطان) ضاعَفَ الله تعالىٰ نِعمتَه .

المرتبة الرابعة — الجنابُ العالى مع الدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : الجنابُ العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىُّ ، المؤيِّدىّ ، الأوْحَدىّ ، النَّصيرىُّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانى ، عِزّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلَّة ، ذُخْر الدَّوْلة ، عِمَادُ المملكة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالىٰ نِعمتَه .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى والدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : المجلس العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالِىّ ، المجاهِدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ، الأَوْحدىّ ، النَّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، نُصْرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كهفُ المِلَّة ، ذُخْرُ الدولة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسَام امير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه .

المرتبة السادسةُ — المجلس الساميُّ بالياء، والدعاءُ بدوام التأييد ونحوه، وهى : المجلس الساميُّ ، الأميريّ ، الكبيريّ ، الذُّخريّ ، النَّصيريّ ، الأوحديّ ، المؤيَّديّ ، الفلانيّ ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، شرفُ الأمراء ، ذُخرُ المجاهدين ، عضُدُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى ، أدام الله تأييدَه .

المرتبة السابعة — السامى بغير ياء ، والدعاءُ أدام اللهُ رفعته ونحو ذلك ، وهى : المجلس السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيَّد ، الأوحدُ ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، فخرُ الأمراء ، زينُ المجاهدين ، عمدةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله رفعتَه .

المرتبة الثامنة — مجلسُ الأمير ، والدعاءُ أدام الله سعدَه ونحوه ، وهى : مجلس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيَّد ، الأوحد ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الأمراء ، زينُ المجاهدين ، عُدّةُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى ، أدام الله سعْدَه .

المرتبة التاسعة — الأمير مجردا عن المضاف إليه ، وهى : الأميرُ ، الأجلُّ ، وربَّما زيد فيه فقيل الكبير ، المحترَم ، ونحو ذلك .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ أرباب الوظائف الديوانية ، وهى علىٰ ستِّ مراتِبَ)

المرتبة الأولىٰ — الجناب العالى مع الدعاء بمضاعَفَة النِّعمة . وفيها أسلوبان :

الأُسلوب الأوّل — ألقاب الوزير وهى : الجناب العالى ، الصاحبيُّ ، الكبيريُّ ، العالِميّ ، العادليّ ، الأوْحديّ ، الأكمليّ ، القواميّ ، النِّظاميّ ، الأَميريّ ،

البَليغى ، المنفِّذى ، المسدِّدى ، المتصرِّفى ، الممهِّدى ، العونِى ، المُدبِّرى ، المُشيرى ، الوزيرى ، الفلانى ، صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الوزراء فى العالَمين ، رئيسُ الكبراء ، كبيرُ الرؤساء ، أوحدُ الأصحاب ، مَلاذُ الكُتّاب ، قِوام الدُّول ، نظامُ المُلْك ، مُفيد المَناجح ، معتَمَد المصالح ، مُرتِّب الجيوش ، عِمادُ المِلة ، عونُ الأمّة ، مُشير المُلوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه .

الأسلوب الثانى — ألقاب كاتب السرّ ، عند ما ٱستقرّ ما يكتب له تقليدا فى قَطْع الثلثين ، وهى : الجنابُ العالى ، القاضَوِى ، الكبيرىُّ ، العالمى ، العادلى ، العَلّامى ، الأفضَلِى ، الأكملى ، البليغى ، المسدِّدى ، المنفِّذى ، المشيِّدى ، العونِى ، المُشيرى ، اليَمينى ، السَّفيرى ، الأَصيلى ، العَريقى ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالَمين ، قدوةُ العلماء العاملين ، جمالُ البُلَغاء ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْف الكُتّاب ، يمينُ المملكة ، لسانُ السَّلْطنة ، سفيرُ الأُمّة ، سَليلُ الأكابر ، مُشير الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، ضاعف الله تعالىٰ نِعمته .

قلت : وقد كان رتبتُه : المجلس العالى عند ما كان يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النِّصف .

المرتبة الثانية — المجلس العالى مع الدُّعاء بدَوام النعمة ، وفيها أربعة أساليبَ .

الأسلوب الأول — ألقابُ كاتب السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى كتابة توقيع فى قَطْع النصف ، ويُدْعىٰ له : أدام الله نعمتَه ، وهى : المجلسُ ، العالى ، بالألقاب المتقدّمة له مع الجناب العالى ، علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحالُ .

الأسلوب الثانى — ألقاب ناظر الخاص، وهى: المجلس العالى القاضوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأوحدىّ، الأكملى، الرئيسىّ، البليغىّ، البارعى، القوامىّ، النظامىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المنفّذىّ، المسدّدىّ، المتصرفى، الفلانىّ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قِوامُ المصالح، نِظام المَناجح، جَلال الأكابر، قُدوةُ الكُتّاب، رئيسُ الأصحاب، عِمادُ الملة، صَفْوة الدولة، خالصةُ الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالى نعمتــه .

الأسلوب الثالث — ألقاب وزير دِمَشْق إذا صُرِّح له بالوزارة، وهى : المجلس العالى، الصاحبىُّ، الوزيرىّ، الأجَلّىّ، الكبيرىُّ، العالِمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، الأوحدىّ، القِوامىّ، النّظامىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المُشيرىّ، الفلانىّ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الوزراء فى العالمين؛ رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء؛ بقية الأصحاب، مَلاذُ الكُتّاب، عِمادُ المِلة، خالِصة الدولة؛ مشير الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين؛ فلان الفلانى، أدام الله تعالى نعمتَه .

الأسلوب الرابع — ألقاب ناظر النُّظّار بالشام، إذا لم يكن وزيرا، وهى : المجلس العالى، القَضائىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، الأوحدىّ، الرئيسىّ، الأثيرىّ، القِوامىّ، النّظامىّ، المنفّذىّ، المتصرّفىّ، الفلانىّ : مجدُ الإسلام والمسلمين، شَرَفُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفُضلاء، جلالُ الكُبَراء، حُجّة الكُتّاب، صَفْوة الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالى نِعمتَه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامىّ بالياء مع الدعاء بدوام الرفعة وما فى معناها ، وهى : المجلس السامىُّ ، القضائىّ ، الأَجَلّىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، الفاضِلىّ ، الكاملىّ ، الرئيسىّ ، الأَوْحدىّ ، الأَصِيلىّ ، الأَثيرىّ ، البَليغىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام ، شرفُ الرؤساء فى الأَنام ؛ زَيْن البلغاء ، جمالُ الفُضَلاء ؛ أوحدُ الكُتّاب ، فخر الحُسّاب ؛ صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

فإن كان من كتّاب الإنشاء ، أسقط منه « فخرُ الحُسّاب » .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء ، مع الدعاء بدَوام الرِّفعة ونحوه أيضا ، وهى : المجلس السامى ، القاضِى ، الأجَلُّ ، الكبيرُ ، الصَّدْر ، الرئيسُ ، الأَوْحَد ، البارعُ ، الكاملُ ، الأصِيلُ ، الفاضِلُ ، فلان الدين ؛ جمالُ الإسلام ، بهاءُ الأَنَام ؛ شرفُ الأكابر ، زَيْن الرؤساء ، أوحدُ الفُضلاء ؛ زَيْنُ الكُتّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مجلِسُ القاضى ، وهى : مجلس القاضى ، الأجَلّ ، الكبير ، الفاضِل ، الأَوْحد ، الأثير ، الرَّئيس ، البليغ ، العرِيق ، الأصِيل ، فلان الدين ؛ مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الرؤساء ، زَيْن الكتّاب ، مُرْتضَى الملوك والسلاطين ، أدام الله رِفعتَه .

المرتبة السادسة — القاضى ، وهى : القاضِى الأجَلُّ . ورُبّما زيد فى التعظيم الصَّدْر ، الرئيسُ ، الكبيرُ ، ونحوُ ذٰلك .

النـــــوع الثـالث

(ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية ـ وهى أيضا على ستّ مراتبَ)

المرتبة الأولى — الجنابُ العالى ـ وهى لمَن آستقرّ له كتابةُ تقليـدٍ فى قَطْع الثلثين من قُضاة القُضاة بالدِّيار المِصْرية وهو الشـافعىّ؛ وهى : الجنابُ العـالى ، القاضَوِىّ ، الشَّيْخِىّ ، الكبِيرِىّ ، العالِمىّ ، العامِلىّ ، الأفضَلِىّ ، الأكملىّ ، الأَوْحدىّ ، البَلِيغىّ ، الفَرِيدىّ ، المُفِيدىّ ، النَّجِيدىّ ، القُـدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المحقِّقىّ ، الوَرَعىّ ، الخاشعىّ ، الناسِكِىّ ، الإمامِىّ ، العَلَّامىّ ، الأصِيلىّ ، العَرِيقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ العلمـاء العاملين ، أوحَدُ الفضلاء المُفِيدين ، قُدْوة البلغاء ، حُجّة الأمَّة ، عمدةُ المحقّقين ، فخرُ المدرّسين ، مفتى المسلمين ، جلالُ الحُكّام بركةُ الدولة ، صَدْر مِصرَ والشام ، مُعِزُّ السنّة ، مؤيِّد الملة ، شمسُ الشريعـة ، رئيسُ الأصحاب ، لسانُ المتكلمين ، حَكَمُ الملوكِ والسـلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنـين ، فلان (بنسبه) أعزّ الله تعالى أحكامَه .

وكذلك قاضى القُضاة الحنفىُّ بالديار المصرية عند ما آستقرّ المكتوبُ له تقليدًا .

المرتبة الثـانية — المجلس العالى ، وبهـا كان يُكتب لقاضى القُضاة الشافعىّ قبل أن يستقرّ ما يكتَبُ له تقليدا ، بالألقاب والنُّعوت السابقةِ له مع الجناب ، وكذلك الثلاثةُ الباقون باختصارٍ فى الألقـاب والنُّعوت ؛ وهى : المجلس العـالى ، القاضَوِىّ ، الكبِيرِىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضَلِىّ ، الأكملىّ ، الأَوْحدى ، البليغىّ ، الفَرِيدىّ ، المُفِيدىّ ، النَّجِيدى ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المحقِّق ، الإمامىّ ، الأَصِيلىّ ، العَرِيقىّ ، الحـاكمىّ ، الفلانىّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، سـيّدُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفيدين ، قُدْوة البُلَغاء ، حجةُ الأمَّة ، عمدَةُ المحدِّثين ، فخرُ المدرِّسين ،

مفتي المسلمين، جلالُ الحُكّام، حَكَمُ الملوك والسلاطين، فلان الفلانى (بنَسَبه) أعزّ الله تعالىٰ أحكامه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامىّ بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، القضائىّ، الكبيرىُّ، العالمىُّ، الفاضلىُّ، الأَوْحدىّ، الرئيسىّ، المُفيدىّ، البَليغىّ، القُدْوىّ، الأثيرىّ، مجدُ الإسلام والمسلمين، جمالُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء، صَدْر المدرّسين، عُمْدةُ المفتين، خالصةُ الملوك والسلاطين، فلان الفلانىّ : أدام الله تعالىٰ تأييدَه .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء، وهى : المجلسُ السامى، القاضى، الأجَلُّ، الكبيرُ، الصَّدْرُ، الرئيسُ، العالم، الفاضلُ، الكاملُ، فلان الدين، مجدُ الصُّدور، زَيْنُ الأعيان، مرتضىٰ المُلوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه .

المرتبة الخامسة — مرتبةُ مجلس القاضى، وهى : مجلس القاضى، الأجلّ، الكبيرِ، العالِمِ، الفاضلِ، الأوحدِ، الصدر، الرئيس، مجدِ الإسلام، بهاء الأنام، زينِ الأعيان، فخرِ الصُّدور، مرتضىٰ الملوك والسلاطين، فلان : أعزّه الله تعالىٰ .

المرتبة السادسة — مرتبة القاضى، وهى : القاضى، الأجَلُّ . وربما زيد فى التعظيم نحو الكبير، الصدر، الرئيس، ونحو ذلك .

النـــــوع الرابع

(ألقابُ مشايخ الصُّوفية — وهى علىٰ خَمس مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — المجلسُ العالى . وبها يُكتَب لشيخ الشُّيوخ بالديار المِصْرية، وهى : المَجلس العالى، الشيخىُّ، الكبيرىُّ العالِمىّ، العامِلىّ، السالِكىّ، الأوحَدىّ،

الزاهدىّ، العابدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُفيدىّ، القُدْوىّ، الإمامىّ، النّظامىّ، المَلاذىّ، جلالُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الصُّلَحاء فى العالَمين، شيخُ شيوخ الإسلام، أوحدُ العلماء فى الأنام، قدوةُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين، فلان، أعاد الله تعالىٰ من بَرَكاته .

المرتبة الثانية — المجلس السامىّ بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، الشيخىّ، الكبيرىُّ، الأوْحَدىّ، الأكمَلىّ، العابِدىّ، الخاشِعىّ، الناسِكىّ، جمالُ الإسلام، زينُ الأنام، صَفْوةُ الصُّلَحاء، فخرُ العُبَّاد، بركةُ الملوك والسلاطين : أعاد الله تعالىٰ من بركتِه .

المرتبة الثالثة — المجلسُ السامى بغير ياء، وهى : المجلس السامِى، الشيخُ، الصالحُ، الزاهـدُ، العابدُ، الوَرِع، الخاشِعُ، الناسكُ، السالكُ، فلان الدِّين؛ مجدُ الصلحاء، زينُ المشايخ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين : نَفَع الله تعالىٰ ببركتِه .

المرتبة الرابعة — مجلسُ الشَّيخ، وهى : مجلسُ الشيخ، الصالح، الزاهِد، العابِد، الناسِك، السالِك، فلان الدين، مجد الصُّلحاء، زين المشايخ، بركةِ الملوك والسلاطين : أدام الله تعالىٰ بركتَه .

المرتبة الخامسة — مرتبة الشيخ، وهى : الشيخُ، الصالحُ، الوَرِع، الزاهد، ونحو ذلك : نفع الله تعالىٰ به .

النـــوع الخـامس

(ألقابُ مَنْ قد يُكتب له بولاية من رؤساء العامّة من التُّجّار وغيرهم)

وفيها أربع مراتب :

المرتبة الأولى — المجلس الساميُّ بالياء ، وهى : المجلس الساميّ ، الصدريُّ ، الأجَلِّيُّ ، الكبيريُّ ، الرئيسيّ ، الفلانيّ .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بغير ياء ، وهى : المجلس السامِى ، الصـدْرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحترَم .

المرتبـة الثالثة — مجلسُ الصَّدْر ، وهى : مجلسُ الصـدر ، الأجلّ ، الكبيرِ ، المحترَم ، المؤتَمَن ، فلان الدين . ويقال فى ألقاب المِهتارِيَّة ونحوِهم : الحاجُّ فلان .

المرتبة الرابعة — مرتبة الصَّدْر ، وهى : الصَّدْر ، الأجلُّ . فإنْ زِيد فى تكريمه قيل بعد ذلك : الكبير ، المحترَم .

النـــوع السادس

(ألقابُ زعمـاء أهل الذِّمَّة ، وهم ثلاثة)

الأوّل ـ بَطْرَك النصارىٰ اليَعَاقِبة ، وهى : الحضرةُ الساميَـة ، الشيخُ ، الرئيسُ ، المبجَّل ، المكرَّم ، الكافِى ، المعَزَّز ، المُفَخَّر ، القِدِّيس ، شمس الرياسـة ، عمـاد بَنِى المَعمودِية ، كنزُ الطائفة الصلِيبِيَّة .

الثـانى ـ بَطْرَك المَلِكانيّة ، وتُختصَر ألقابُه عمّا يُكتب به لبَطْرَك اليَعَاقِبَة بعضَ الاختصـار .

الثالث ـ رئيسُ اليهود، وهى : الرئيسُ الأوحدُ، الأجَلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكبيرُ، شرفُ الداوُديِّين، فلان أبو فلان : سدّده الله فى أقواله، وثبّته فى أفعاله .

قلت : ومما يجبُ التنبُّه له أن ما تقدّم من الألقاب والنُّعوت المفرَّعة على الألقاب الأُصول ليستْ مما يُوقَف عند حدّ، بل محتملةٌ للزيادة والنقص بحسب ما تقتضيه الحال، ويحتمِله المَقَال . بل ربَّما وُلّى بعضَ المناصب مَنْ فيه صِفاتٌ تستحق ألقابا ونعوتا خاصّةً، فيكتَبُ له بذلك مراعاةً لما يَقتضيه حالهُ، ويستوجبُه مَقَامه، ثم يلى ذلك المنصبَ بعده مَنْ لايستحق الوصفَ بالألقاب والنُّعوت التى تَخُصُّ المتقدّم، فيؤتىٰ بها للثانى : كما آتّفق فيما كُتِب به فى نيَابة الشام حينَ وَلِيها الأمير بيدَمُر الخُوَارَزْمىّ رحمه الله، وكان من الدِّيانة علىٰ ما لا يُوجَد فى غيره . فكتب فى ألقابه حينئذ : العابِدىّ، الناسكىُّ، الخاشِعىّ . فلزِمتْ فيمن بعْدَه وصارت مما يكتَبُ به إلىٰ الآنَ، سواء آتصف نائبُها بدينٍ أم لا ـ وكما آتفق فى الصاحب عَلَم الدِّين بن زُنْبور حين آجتمع له الوِزارةُ ونظرُ الخاصّ والجيش، فكُتِب له بألقابٍ ونُعوتٍ جامعةٍ لألقاب تلك الوظائف ونُعوتِها، فاستمرّ ذلك فيما يُكتَب به لكلِّ مَنْ وَلِىَ الوزارة بعدَه إلىٰ الآنَ ؛ حتّى إنه يكتب فى ألقاب الوزير الآن « مرتِّب الجيوش » وهو من الألقاب الخاصّة بناظر الجيش آستطرادًا لما كُتِب به لابن زُنْبور : لانضمام نظر الجيش إليه علىٰ ماتقدم ـ وكما آتّفق فيما كُتِب به للشيخ تقىّ الدين السُّبكى من الألقاب الجليلة المقدار، الرفيعةِ المكانة، فى قضاء الشام لرِفْعة مقامه، وآتِّساع باعِه فى العلم، وعُلُوّمكانته فى الخاصّة والعامّة فلزِم كتابة ذلك لقاضى قُضاة الشافعيةِ بالديار المِصْرية، من حيثُ إنه لا يليق بالحال

أن يكون قاضى الشام أعلىٰ رتبةً من قاضى الدِّيار المصرية . ثم سَرىٰ ذٰلك فى كل مَن وَلِى المنصِبَ بعد ذٰلك ، وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

ومما يلتحق بذٰلك أنه قد جرت العادةُ فى الزمن المتقدّم وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا أنه كان يكتب فى الطرَّة لأرباب السيوف بعد الأميرى « الكبيرىّ الفلانى » بلقب الإضافة إلىٰ لقب السلطان كالناصرىّ ونحوه ، بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تجرِ العادةُ بأن يكتب لهم ذٰلك فى شىء من طرَّة تقاليدهم ولا تَواقيعهم، إلىٰ أن لبِس القاضى سعدُ الدين بنُ غُرابِ الكَلُّوتة ، وآستقر إستادارا فى الدولة الناصرية فرج آبن برقوق، ثم آستقرَّ مشيرا وكتب له تقليدٌ بالإشارة كتب له فى طرَّة تقليده بعد الكبيرى « الناصرى » لجمعه بين السيف والقلَم . ثم جرىٰ بعض الكُتَّاب علىٰ مثل ذٰلك فى غيره من أرباب الأقلام الأكابر : كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاصّ، وناظر الجَيْش، ومن فى معناهم من أرباب الوَظائف الديوانية . والحجةُ فيه ظاهرةٌ من حيثُ إن كلًّا من المذكورين إذا كُتِب عنه كتاب ، كُتِب فى أعلاه تحت البسملة « المَلَكىّ الناصرىّ » وإذا كتب عنه قِصَّة ، كتب فيها تحت البسملة « المَلَكىّ الفلانىّ » . ومقتضىٰ ذٰلك أن يكتب لقب الإضافة إلىٰ لقب السلطنة فى تقليده أو توقيعه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه من فعل بعض الكُتَّاب .

الأمر الخامس — مما يجب علىٰ الكاتب مراعاته معرفةُ الوصف اللائق بصاحب الوظيفة .

فيجب عليه مراعاةُ مايناسبه من الأوصاف التى يَقَع بها تقريظه ومَدْحُه :

فإن كان نائبَ سلطنة وصَفَه بالشجاعة، والنَّجْدة، وقُوّة العَزْم، والشَّهامة، وشِدّة الشَّكيمة، ونُصْرة الدِّين، وكَفِّ [الأيدى] العادِيَة، وإرهاب العدوّ، وقمْع المفسِدين، وإرغام أهل العُدْوان، وحِماية الثُّغور - إن كان فى ثغر - ووُفُور الهَيْبة، وبُعْد الصِّيت، وطَيران السُّمْعة، مع بَسْط المَعْدِلة والرِّفق بالرعيَّة، والرأفة بخلق الله تعالى، والشَّفقة عليهم، والإحسان إلى الكافَّة، والأخْذ بقلوبهم، والوقوف مع أحكام الشريعة، وبَذْل الطاعة، والمناصَحة، والمخالَصة، وقِدَم هجرته فى الدولة - إن كان قديم هجرة - ومُرور الدُّوَل عليه - إن كان قد مَرَّت عليه دول -، وأنه نَشْءُ الدولة - إن كان ابتداء أمره فيها -، ونحو ذلك .

وإن كان نائبَ قلعة وصفه بالحِذْق، واليَقَظة، وقوّة الحَزْم، وشِدّة التحرُّز، والمعرفة بأحوال الحِصَار وضُروب القِتال وطُرُق التحصين والمُدافعة، ونحو ذلك .

وإن كان وزيرا وصفه بحُسْن التدبير، وجَزَالة الرأى، والاحتياط فى الأمور، والقِيام بمَصَالح الإسلام، وعِمارة البِلاد، والنُّهوض فى المهمَّات، وكَفِّ الأيدى العادِيَة، والأخْذ على يد المتعَدِّى، وتَنْمِيَة الأموال وتَثْميرها، وتسهيل مايجرى من الأرزاق على يَده، وبَذْل المجهُود فى معاضَدة الشريعة، وشِبْه ذلك مما يجرى هذا المَجْرَى .

وإن كان كاتبَ سِرٍّ وصَفَه بالفَصاحة والبَلاغة، وقيامِ أقلامه فى التأثير فى العدُوّ مَقامَ السُّيوف والرِّماح، وكُتبِه فى تفريق الكتائب مَقامَ الجيوش والعساكر، وسَدادِ الرأى، وكَتْم الأسرار، وحمايةِ الممالك بنتائج أفكاره، وما شاكل ذلك .

وإن كان ناظرَ جيش وصفه بالمعْرِفة بأمور الجيوش وترتيبها، وأصناف الأمراء، والجُنْد، والمستخْدَمين، وترتيب مَقاماتهم، وما ينخرِط فى هذا السِّلْك .

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأمور الحِساب، والنهضةِ فى المهِمَّات، والمعرفة بأحوال دِيوان الخاصّ وجِهَاته، والقُدرة علىٰ تحصيل الأموال وزيادتها، ومعرفة ما يُحتاجُ إليه من أصناف الأقْمِشة والطُّرُز وغيرها، مع الأمانة والعِفَّة، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وإن كان مستوفِىَ الصُّحْبة وصفه بالمعرفة بفُنُون الكِتابة، ونَظْم الحُسْبانات، والاحتياط فى آستيْفاعها، مع الضبط والاحترازِ والأمانة والعِفَّة وما هو من هذا القَبِيل .

وإن كان ناظرَ خِزانة الخاصّ وصفه بالأمانة، والعِفَّة، والمعرفةِ بأصناف الخِزانة: من الأقمشةِ، والتَّشارِيف، والطُّرُز، ومعرفة مراتبِ أربابها، وما يُناسب كلَّ واحدٍ منهم من أنواع التشاريف من عالِيها وهابِطها، وما يطابِق ذٰلك .

وإن كان قاضيا وصفه بغَزَارة العِلم، وسَعَة الفضل، ونُصْرة السُّنَّة، وقَمْع البِدْعَة، والعَدْل فى الأحكام، وإنصافِ المظلومِ من الظالم، والأخْذ للضعيف من القوىّ، والنزاهةِ عن المَطَاعم الوَخِيمة، والمطامع الردِيَّة، والبُعْدِ عن الأهواءِ فى الحكم، وما ينخَرِط فى هذا السِّلك .

وإن كان محتَسِبا وصفه بعد وصْفه بالفضل بالعِفَّة، والأمانة، وعُلُوّ الهِمَّة، وقُوَّة العزم، والصَّرامة، ووُفُور الهيبة، والنُّهوض بالأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكَر، والنظَرِ فى مصالح المسلمين، وعدمِ مُحاباة أهلِ الدُّنيا وأربابِ الجاه، وأنه لا يفَرِّق فى الحق بين الجليل والحقير، وما فى معنىٰ ذٰلك .

وإن كان وكيل بيت المال وصفه بعد العلم والديانة بالوقوف مع الحق ، والتثبّت فيه ، ومراعاته المصلحة العامّة فى كل مايتعلّق به ، والمعرفة بشروط الاعذار ومواقع ابداء الدافع ونفيه ، وأنه يقدم مصالح المسلمين على مصالح نفسه ، وما يقارب ذلك .

وإن كان مدرّسا وصفه بسعة العلم ، والتضلّع بالفنون ، والأخذ من كلّ منها بحظّ وافر ، وطول الباع فى البحث والمناظرة ، والوقوف مع الحقّ فيها ، وعدم الجدال فى الباطل ، وتربية الطلبة ، وتأديبهم ، والتقريب على من عسُر على فهمه شىء من المسائل ، وعدم الترفّع عليهم ، وتنزيلهم منازلهم فى الفضل ، وتقديم مَنْ برع منهم .

وإن كان خطيبا وصفه بالفصاحة ، والبلاغة ، وقوّة اللّسن ، وشدّة الشكيمة فى الكلام ، وتأثير وعظه فى القلوب ، وانسكاب الدموع من وقع عظاته ، وما أشبه ذلك .

وإن كان شيخ خانقاه وصفه بالورع ، والزهد ، والنّسك ، وقطع العلائق من الدنيا ، وتربية المريدين وتسليكهم ، والوقوف مع طريق السّلف الصالح .

وإن كان رئيس الأطبّاء وصفه بالحذق فى الطّبّ ، والمهارة فيه ، وتقدّمه على غيره فى الفنّ ، والمعرفة بالعقاقير وما فيها من نفع وضُرّ ، والمعرفة بالأمراض والعلل وطرق العلاج ، وما يجرى مجرى ذلك .

وإن كان رئيس الكحّالين وصفه بالمعرفة فى صنعة الكحل ، والتقدّم على أبناء صنعته فيه ، والمعرفة بحال العين وأمراضها ، وأصناف الأكحال ، وما يوافق كلّ علّة من ذلك ، وما ينخرط فى هذا السّلك .

وإن كان رئيسَ اليهود او بَطْركا من بَطَارِكَة النصارىٰ، وصفه بالمعرفة بأمور مِلّته، والوقوفِ مع قوانينِ شِرْعتِه، ومعاطاةِ العدل فى جماعتِه، والتزام شُروط الذمة، والوقوف عند حدّها، والدخولِ تحت الطاعة، والوقوفِ عند ما حُدّ له، ونحو ذلك .

الأمر السادس — مما يجب علىٰ الكاتب مراعاته وصيةُ ربِّ كل ولاية من الولايات المعتبَرة بما يناسِبُها .

وآعلم أن كل ما حَسُن وصيةُ المولّىٰ به، حَسُن وصفُه به . والوَصَايا مختلفة باختلاف موضُوعاتها، إلا أنّ الجميع يشترك فى الوصيَّة بتقوى الله، فهى الأُسّ الذى ينبىٰ عليه، والركنُ الذى يُستَنَد إليه . وهذا البابُ هو الذى يطولُ فيه سَبْح الكاتب، ويحتاج فيه إلىٰ سَعَة الباع؛ فإنه ما لم يكن الكاتبُ حاذقًا بما يلزم ربَّ كل ولاية ليُوَفّيها فى الوصية حقَّها، وإلا ضلَّ عن الطريق، وحادَ عن جادّة الصَّنْعة . ولذلك يقال للكاتب: «القلَم الأكبر»: لأنه بصَدَد أن يُعلِّم كلَّ واحد من أرباب الولايات ما يلزمُه فى وِلَايته .

وحينئذ فإن كان المتولِّى «نائبَ سلطنة» وُصِّى بتفقُّد العساكر، وعَرْض الجيوش، وإنهاضِها للخدمة ... ...(1) للوظائف مَنْ يليق بها، وتنفيذِ الأحكام الشرعيَّة، ومعاضَدة حُكّام الشرع الشريف، وإجراء الأوقاف علىٰ شُروط واقِفيها، وملاحظةِ البلاد وعمَارتها، وإطابةِ قلوب أهلِها، والشّدّ من مباشِرى الأموال، وتقويةِ أيديهم، ومُلازمةِ العَدْل، وعدمِ الانفكاك عنه، وتحصينِ ما لديه من القِلاع، وآستطلاعِ الأخبار والمطالعةِ بها، والعملِ بما يردُ عليه من المراسيم

(1) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله «وآنتقائه» للوظائف الخ .

السلطانية، وأنّ ما أشكل عليه يستضىءُ فيه بالآراء الشريفة، والإحسان إلى الجند، وتعيين إقطاع مَنْ مات منهم لولده إن كان صالحا، ونحو ذلك .

وإن كان « نائب قلعة » وُصِّى بحفظ تلك القلعة، وعمارة ما دعَتِ الحاجةُ إلى عمارته منها، والأخذ بقلوب من فيها، وجمعِهم على الطاعة، وأخذِ قلوبهم بالإحسانِ إليهم، وتحصينِها بآلات الحِصار، وادّخار آلاتِ الحرب : من المجانيق والقِسىّ وسائر الآلات : من السّهام، والّلبُوس، والسّتائر، وغير ذلك . وكذلك آلاتُ أرباب الصنائع، كآلات الحدّادين، وصُنّاع القِسىّ ومَنْ فى معناهم ممّا يُحتاج إلى عمله فى آلات القلعة، والاعتناء بغَلْق(١) أبواب القلعة وفتحها، وتفقُّد متجدّدات أحوالها فى كل مَساء وصَباح، وإقامةِ الحَرَس، وإدامة العَسَس، وتعرُّف أخبار المجاورين لها من الأعداء، وإقامةِ نُوَب الحَمَام بها، والمطالعةِ بكل ما يتجدّد لدَيْه من الأخبار .

وإن كان «وزيرا» وُصِّى بالعدل وزيادةِ الأموال وتثميرها، والإقبال على تحصيلها من جهات الحِلّ، واختيار الكُفَاة الأمناء، وتجنُّب الخَوَنة، وتطهير بابه، وتسهيل حجابه، والنظر فى المصالح، وأنه لا يستبدل إلا بمَنْ ظهر لديه عجزُه أو خيانتُه، والنظرِ فى أمر الرواتب وإجرائها على أربابها .

وإن كان «كاتبَ سِرّ» وُصِّى بالاهتمام بتلقى أخبارِ الممالك وعَرْضِها على المواقف الشريفة، والإجابةِ عنها بما تبرُزُ به المراسيمُ الشريفةُ، وتعريف النوّاب فى الوَصَايا التى تُكتَب فى تقاليدهم عن المَواقِف الشريفة ماأُبْهِمَ عليهم، ويبيِّنُ لهم ما يقفُون

(١) جرى على اللغة القليلة والكثير الشائع إغلاق فتنبه .

عند حدِّه ، والنظرِ فى تجهيز البَريد والنَّجّابة[(١)] ، وما يُبعَث فيه من المصالح ويُنفَّذ فيه من المهمّات والقُصّاد، ومعرفةِ حقُوق ذَوِى الخدمة والنَّصيحة، و إجرائهم فى رُسُوم الرواتب وعوائد البر والإحسان علىٰ أتمِّ العوائد ، وتأليف قلوبهم ، والأخذِ بخواطرِهم ؛ والنظرِ فى أمر الكَشّافة والدَّيادب والنظّارة والمَناور والمُحرِقات وأبراج الحَمام ؛ وصرف نظره إلىٰ رسل المُلُوك الواردة ، ومعاملتهم بالإكرام ، والأخذ فى صَوْن سرّ المَلك وكتمانه حتّٰى عن نَفْسه ، وضبطِ ألواح البريد ، والاحترازِ فيما تؤخَذ عليه العلامةُ الشريفة ، ومراعاةِ كُتّاب ديوان الإنشاء، والإحسانِ إليهم، وأن لا يَستكتبَ فى ديوانه إلا مَنْ علم صلاحه لذلك وكفايته، ووثِق منه بكِتْمان السرّ كما يَثِق به من نَفْسه .

و إن كان « ناظر جيش » وُصِّى بالاحتياط فى أمر ديوانه ، والوقوفِ علىٰ معالم هذه المباشرة ، وجرائدِ الجند ، والإقطاعات ، وتحرير الكُشُوف والمحاسَبات ، واستيضاح أمر من يموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقدَّمين والنُّقَباء، والاحتراز فى أمر المربَّعات وجهاتِ الإقطاعات وما يترتَّب عليها من المناشير، والنظرِ فى أمر المقْطَعين : من الجُنْد، والعَرَب، والتُّركُمان، والأكراد، ومن عليه تقْدِمةٌ أو دَرَك بلاد أو غير ذلك .

و إن كان «ناظر خاص» وُصِّى بالاحتياط لديوانه، والأخذ فى تحصيل أموال جِهاتِه وتَنْميتها وتثميرها، و زيادتها وتوفيرها ؛ والتحرُّز فيما يُرْفَع من حُسْباناتها ، والاهتمامِ بأمر التَّشارِيف والخِلَع ، وما يختصُّ بكل وِلاية وغيرها من التَّشاريف ،

(١) جارى العامة فى هذا الاستعمال .

وما جرتْ به العـادةُ من الهـدايا المُحضَّرة إلىٰ ملُوك الأقطار، والأخذ فى ذلك كلّه بالحظّ الأوفىٰ للديوان السلطانىّ، وما يجرى مَجرىٰ ذلك .

وإن كان «مستوفىَ صُحْبة» وُصِّى بإلزام الكُتّاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها، وعمل المكلَّفات وتقدير المِساحات، وتمييز ما بين تسجيل الفُدُن فى كل بلدٍ بحسَب ما يصلُح لها من الزِّراعة، وتمييزِ قِيَم بعضها علىٰ بعضٍ، ومستجدِّ الجرائد، وما يقابَل عليه من ديوان الإقطاعات والأحْباس وغير ذٰلك .

وإن كان «ناظرًا لخزانة الخاص» وُصِّى بتحصيل مايُحتاج إليه لتفصيل الخاصّ وتَشاريف أربابِ السيوف والأقلام : العَرَبِ، والتُّرْكُمَان، والأكرادِ، وغيرهم؛ وهَدايا المُـلوك وما يجرى مَجْرىٰ ذلك : مِن العتَّابىّ والأطْلَس، والمُشَرْبَش، والمُقَنْدَس والمتمَّر، والطِّرازات علىٰ اختلافها : من الزَّرْكش، والباهى، وأنواع المستعملات، وما يحمَل من دارِ الطِّراز، وما يُبتاع للخزانة العاليـة، وما هو مُرْصَد لهـا من الجهات التى يحمـل إليها متحصَّلُها : لِيُنفَق فى أثمـان المَبيعات ومصروفِ المستعْمَلات، والاحترازِ فيما يُنفق من الأثمـان وقِيمة المُبْتاع، وشهاداتِ الرسائل المكتتبة إليه بالحمول وما يكتب بها من الرَّجَعات، وأن يحصِّل كلَّ شىء هو بصَدَد الحاجة إليه قبلَ الاحتياج .

وإن كان « قاضيا » وُصِّى بالتروِّى فى أحكامه قبل إمضائها، وأن يراجعَ الأمرَ مرَّةً بعد أخرىٰ، واستشارةِ أهل العلم، والرُّجوع إليهم فيما أشكل عليه، واستخارةِ الله تعالىٰ قبل الإقدام علىٰ الحكْم، والقضاءِ بحقِّ الخصم بعـد وُضُوحه، والتسجيل له به، والإشهادِ علىٰ نَفْسه بذلك، والتسويةِ بين الخُصوم حتَّى فى تقسيم النظر إلىٰ الخصمين، والتحرِّى فى استيداء الشهادات، وأن لايقبل من الشهود الا من عُرِف

بالعَدَالة : من رَبِّ قلم أو سيفٍ ، والتنقيب عما يصدر من العُقُود ، ولا يعوّل من شهود القيمة إلا علىٰ كل عارف بالقِيَم خبيرٍ بها ، والنظرِ فى أمر الرُّسُل والوُكَلاء ، والنظرِ فى أمور أهل مَذْهَبه ، والاعتناء بشأنهم .

ويزاد «الشافعى» التوصيةَ بالنظر فى دعاوىٰ بيتِ المال ومُحاكماته ، والاحتراز فى قضاياها ولا يُقبلُ فيها بينةٌ لوكيل بيت المال فيها مَدْفَع ، ولا يُعمَل فيها بمسألة ضعيفةٍ ، والنظرِ فى أمر أموال الأيتام وأمر المتحدِّثين فيها بالإحسانِ إليهم ، وكذلك أموالُ الصدَقات الجارية تحتَ نظرِه ، والتيقُّظ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه استحقاقها ، وأن لايَعمل فى مسألة تفرَّد بها مذهَبُه إلا بما نَصَّ عليه إمامُه أو كان عليه أكثرُ أصحابه ، ولا يَعْتَمِد فى ذلك مرجُوحا ولا ما تَفرّد به قائلُه ، وأن لايولى فى البَرَّانيا الا مَنْ عُرِف استحقاقه وأهليته لما يتولّاه .

ويُزاد «الحنفىّ» الوصيةَ بالعمل بما اقتضاه مذهَبُه من الأمور التى فيها صَلَاحٌ لكثيرٍ من الناس : كتَزْويج المُعْصِرات ، وشُفْعة الجِوار ، ونَفَقة المعتدَّة البائن ، وعدم سَماع بيِّنة الإعسار الَّا بعد مُضِىّ المدّة المعتبرة فى مَذْهَبه ، والإحسانِ إلىٰ مَنْ ضَمّه نِطاق ولايته ممن نَزَح إليه من أهل الشَّرْق وأقاصى الشَّمال .

ويُزاد «المالكىّ» الوصيةَ بالتحرّى فى بيِّنات الدِّماء ، والإعذار إلىٰ الخَصْم لِيُبدِىَ مالدَيْه من دافعٍ ، والعملِ بما تفرّد به مذْهَبُه مما فيه فُسْحة للناس : كالثُّبوت بالشهادة علىٰ الخط ، وولايةِ الأوصياء ، وإسقاط الرَّيْع فى الوقف المستَرَدّ بعد البيع ، والإحسانِ إلىٰ مَنْ لديْه من غُرَباء أهل مَذْهَبه ، لاسيَّما مَنْ أتاه من بلاد المغرب .

ويزاد «الحنبلىّ» الوصيةَ بالاحتياط فى بيع مادَثَر من الأوقاف والاستبدال بها ، ورعايةِ المصلحة فى ذلك لأهل الوقف بما أمكن ، والفَسْخ علىٰ من غاب عن زوجته

الغَيْبة المستوجبة للفسخ عندهم ، ووقْف الإنسان علىٰ نفسه ، وأمرِ الجوائح التى يحصل بها التخفيف عن ضُعفاء الناس ، والمُعامَل علىٰ الزرع بالحرث ونحوه ، وغير ذلك مما يجرى هـذا المَجْرىٰ ، والوصية بأهل مذهبه الذين هم أقلّ المذاهب عِدّةً وأنزرُهم وظائفَ وأوقافا ، ومعاملتِهم بالإحسان .

وإن كان « قاضىَ عسكر » وُصّى بنحو ما يوصَّى به [القاضى] وأن يتخذ معه كاتبًا يكتب للناس ، وأن يقبل من الجُنْد من كان ظاهرُه العدالةَ ، فإنّ الشُّهود المُعَدّين لتحمُّل الشهادة يعزُّ وجودُهم فى العسكر ، وأن يكون له منزلٌ معروف يُقْصَد فيه إذا نُصبت الخيام ، وأحسن ما يكون ذلك عن يمين الأَعْلَام السلطانية ، وأن يكون مستَعِدًا للأحكام التى يكْثُر فصْلُها فى العسكر : كالغنائم ، والشَّرِكة ، والقِسْمة ، والمَبيعات ، والرّد بالعَيْب ، وأن يُسْرِع فى فصل القضاء بين الخُصوم : لئلا يكون فى ذلك تشاغُل عن مَواقع الحرب ومقدّماته ، وغير ذلك مما يجرى هـذا المجرىٰ .

وإن كان « محتَسِبا » وُصّى بالنظر فى أمر المَكاييل والمَوازين وسائر المَقادير ، والتحذيرِ من الغِش فى الطعام والشَّراب ، وأن يتعرّف الأسعار ، ويستعلم الأخبار فى كل سُوق من غير علم أهله ، وأن يقيم على الأسواق وأرباب المَعايش من ينُوب عنه فى النظر فى أمورهم من الأُمناء المأمونين ، وان لا يمكن أحدًا من العَطّارين من بيع غرائب العَقاقير إلا ممّن لا يُستَراب به بخط متطبب لمريض ، وأن يمنع المتحيلين علىٰ أكل أموال الناس بالباطل : من الطُّرُقيّة(١) وأهل النِّجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلىٰ بنى ساسانَ من تعاطى ما يتعاطَوْنه من ذلك ، ويقمَعهم ويحْسِمَ مادّتهم ، والتصدّى للأمر بالمعْروف والنهى عن المنكر ، والمنع من الغِش

(١) أى المنجمين الذين يدعون معرفة المغيبات بمقتضى النظر فى النجوم .

وإخبار المشترِى بأزيدَ مما آشترىٰ به ، والنظر فى أمر فُقَهاء المكاتب والعالمات من النساء، ولا يمكن منهم أحدا [أن] يتعاطى ذلك إلا من عُرِفت أمانتُه، وأُثِرت صيانتُـه ، وأن لا يستنيبَ إلا أهـلَ العِفَّة والأمانة والنَّزاهة ممن بعُد عن الطمَع، ونأىٰ عن مَطاعِم السُّوء .

وإن كان «وكيلَ بيتِ المال» وُصِّى بالعمل بالشرع الشريف فى جميع أحكامه، وأنَّ مَن مات وله ورثة تَستوعبُ ميراثَه لا يكلِّفُهم ثُبُوتا فيه تعنتٌ ومدافَعةٌ عن حقهم، والتَّشديدِ فى أمر من كانت قِصَّته منكَرة، والتحرُّزِ من شهود الزُّور فى مثل ذلك، وأن يرجِعَ فى كل ما يُبَـاع ويؤَجَّر إلى العوائد ، وأن يتحرّز فى شهادة شُهود القِيمة، ولا يَرجِعَ فيها إلا لمن يُوثَق به ممن يكون عنده معرفةٌ بقِيَم الأشياء، وينَبَّه علىٰ أنَّ له أن يدَّعىَ بحق المسلمين حيث شاءَ عند من يشاء من أصحاب المَذاهب ، وأنَّ الدعوىٰ عليـه لا تكون إلا فى مجلس الحكم العزيز الشـافِعِىّ، علىٰ ما جرتْ به العادةُ القـديمة ، والآحتياطِ فى حقِّ بيت المـال، وليَختَرْ للآستنابة فى الأعمـال من يصلُح لذلك .

وإن كان «مدرِّسا» وُصِّىَ بأن يُقبِل علىٰ جماعة درسه بطَلَاقة وجْه، وأن يستميلَهم إليه جُهْدَ آستطاعته، ويُربِّيَهم كما يربِّى الوالدُ ولدَه، ويستحسنَ نتائج أفكارهم التى يأتونَ بها فى درسه، ويقدّمَ منهم من يجب تقديمُه، ويُنزِل كلَّ واحد منهم منزلَتَه، ليَهُزَّهم ذلك إلىٰ الإكباب علىٰ الآشتغال والآزدياد فى التحصيل . ثم يأتى [فى] كل مدرّس بمـا يناسبه من أمور العلم الذى يدرّس فيه إن كان يدرّس فى علم خاصّ .

وإن كان « خطيبا » وُصِّىَ برعاية حقِّ رُتبـة الخَطَابة والقيـام بحق ازدواجها ، وأن يأتى من المواعظ بمـا يَقرَع الأسماع بالوعد والوعيد ، ويُلِينُ القلوبَ القاسية ،

وأن يُعِدّ لكل مَقامٍ يقومه مقالاً يقوله، وأن يخفِّف الخُطبة، ويأتىَ بها بليغةً مفهومة، إلىٰ غير ذٰلك من متعلِّقات الخَطابة .

وإن كان «شيخَ خانقاه» وُصِّى بالاجتهاد فى العبادة، والمشيِ علىٰ طريق السَّلَف: من الزُّهد، والورَع، والعَفَاف ؛ وأن يأخذ جماعتَه بمآخذه فى الأمور؛ وأن يعرفَ لجماعة مكانه حقُوقَهم الواجبةَ لهم ويُنزِلهم منازِلَهم خصوصًا أُولى السابقةِ منهم، ويأخُذَ فى الرفق بهم ومُداراتهم، مع ترتيب من ٱستَجَدّ منهم، وإجرائهم علىٰ طرائِق الصُّوفيَّة ، وتعريفِهم الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ، وتدريج المُريدين علىٰ قَدْر ما تحتمله أفهامُهم، دونَ أن يهْجُم عليهم من أحوال الطريق بما لاتحتمله عُقُولهم . و [اتباع] سبيل الكتاب والسُّنَّة اللّذين من حاد عنهما ضَلَّ، ومن خرج عن جادّتهما زَلّ ، وكَفِّهم عن ٱرتكاب البِدَع والجَرْى علىٰ مِنهاجها ؛ ومن أتىٰ ذنبا تَخُذه بالتوبة والاستغفار ؛ والإنكار علىٰ من أخَذ فى الشَّطَحات ، والخروج عن قانون ظاهر الشريعة ، ومَنْع من نحا هذا النحوَ أو جرىٰ علىٰ هذه الجادّة ، والإحسان إلىٰ من يَقْدَم عليه من الآفاق ، وحُسْن التلقِّى له ، وإكرام نُزُله بعد أن يعجِّل له بالإذن ، والأمر بأخذ عُكّازة، وفَرْش سَجّادة، وما ينخرِط فى سِلك ذٰلك .

وإن كان « رئيسَ الأطباء » وُصِّى بالنظر فى أمر طائفتِه، ومعرفةِ أحوالهم، ويأمُر المعالج أن يعرف أوّلا حقيقةَ المرض وأسبابَه وعلاماته ، ثم ينظر إلىٰ السِّن والفَصْل والبلد، وحينئذ يشْرَع فى تخفيف الحاصل ، وقَطْع الواصل ، مع حِفْظ القوة؛ وأن لايُهاجِم الداء، ولايستغرب الدواء، ولا يُقْدِم علىٰ الأبدان إلا مايُلائمها، ولا يخرُج عن عادة الأطباء ولو غلب علىٰ ظنّه الإصابةُ حتّى يتبصَّر فيه برأى أمثاله ؛ ويتجنبُ الدَّواء، ما أمكنته المعالجة بالغذاء، والمركَّبَ ما أمكنته المعالجةُ بالمفرد ؛

ويتجنب القياس إلا ماصَحَّ بتجريب غيره فى مثل من أخذ فى علاجه، وما عرض له، وسِنّه، وفصله، وبلده، ودَرجة الدواء، وأن يحذر التجربةَ فإنها خَطَر، مع الاحتراز فى المقادير والكيفيات، وفى الاستعمال والأوقات، وما يتقدم ذٰلك الدواء أو يتأخر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء ولا مايُستغرب من غذاء حتّىٰ يحقق حقيقته، ويعرف جديدَه من عتيقه، ليَعرف مقدار قُوّته فى الفعل .

وإن كان «رئيس الكحّالين» وُصّى بالنظر فى حال جماعته أيضا، ومعرفةِ أحوالهم، وأن لايُصَرَّف منهم إلا من عُرِف بحُسْن المُداراة والملازمةِ فى العِلاج، ويأمر كُلًّا منهم أن لا يُقْدِم علىٰ مداواة عينٍ حتّىٰ يعرِف حقيقةَ المرض، وأن يُلاطفَها بما يناسِبُها من الغِذاء، وأن يتخيَّر من الكُحْل ما فيه شفاءُ العين وجِلاءُ البصر، وأن يستشيرَ الأطباءَ الطبائعيّة فيما أهمَّ، مما لايُستغنىٰ عن رأى مثلهم فيه، من تخفيف المادّة بالاستفراغ أو نَقص دمٍ أو غير ذٰلك .

وإن كان «رئيس اليهود» وُصّى بضَمّ جماعته، ولَمّ شَمْلهم، والحكمِ فيهم بقواعِد مِلّته، والنظرِ فى أمور الأنكحة عندهم، وما يعتبَر عندهم فيها علىٰ الإطلاق، وما يَفْتقر إلىٰ الرضا من الجانبين فى العَقْد والطَّلاق، والنظر فيمن أوجبَ حكمُ دِينه عليه التحريم، والتوجُّه فى صلاتهم تِلقاءَ بيت المَقْدس إلىٰ جهةِ قِبْلتهم، وإقامةِ حدود التوراة علىٰ ما أنزل اللهُ تعالىٰ من غير تحريف ولا تبديلٍ للكلمة بتأويلٍ ولا غيره، واتباع ماأعطَوْا عليه العهدَ مع إلزامه لهم [ما التزموه] من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أُقِرّوا فى دار الإسلام علىٰ الصَّغَار والإذعان لأهل الإسلام، وعدمِ مضايقتهم للمسلمين فى الطُّرُق، وتميزِهم بشِعارهم فى الحَمّام، كى لايحصُل اللَّبْس بالمسلمين، وحمل شِعار الذمة علىٰ رُءُوسهم: وهى العمائم الصُّفْر، ويأخذهم بتجديد صَبْغه فى كل حين، وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة: من ذكر الله تعالىٰ أو رسوله صلى الله عليه وسلم

بسُوء، أو إظهار الخمر أو معتقدهم فى العُزَيْر عليه السلام . وله أن يرتِّب طبقاتِهم علىٰ ماتقتضيه مراتبُهم عنـده، وكذلك له التحدُّث فى كنائس اليهود المستمرَّة إلىٰ الآنَ بأيديهم، من حينِ عَقْـد الذمَّة، من غير تجديد متخرِّب، ولا فعل مالم تُعقَد عليـه الذمَّة ويقرّهم عليه السلَفُ الأوّل .

وإن كان « بَطْرَك النصارىٰ المَلِكانيَّة » وُصِّى بمـا عليه بناءُ شرْعته من المسامحة والاحتمالِ والصَّبْر علىٰ الأذىٰ، وعدمِ الاكتراث به ، وأخْذ نفسه بهـذه الآداب ، وأنه يُقَدِّم المصالحةَ بين المتحاكمين إليه قبل فَصْلها على البَتِّ فإنه قاعدةُ دينـه المَسيحىِّ، ولم تُخالف فيه الملةُ الإسـلاميَّة ، وأنه ينَقِّ صـدُورَ إخوانه من الغلِّ، ويتخلَّقُ بكل خُلُق جميل،ولا يستكثِرُ من الدنيا،ويتنزَّه عن أموال جماعتِه والتوسُّلِ إلىٰ أخذها، وأنَّ إليه أمرَ الكنائس والبِيَع، وعليه أن يتفقَّدها فى كلِّ وقت، ويرفع مافيها من الشُّبُهات، ويحذِّر رُهْبان الدِّيارات من جعلها مَصْيدةً للمال، وأن يتجنَّبوا فيها الخَلْوَة بالنساء، ولا يُؤوِى إليه أحدا من الغُرَباء القادمين عليه يكون فيه ريبةٌ، ولا يكْتُم ما آطلع عليه من ذلك عن المسامع الشريفة السلطانية، ولا يُخْفى كتابا يَرِد عليه من أحدٍ من الملوك، أو يكتُب له جوابا، ويتجنَّبُ البحر وما يَرِد منه من مَظانِّ الرِّيَب .

وإن كان «بَطْرَك اليَعاقِبة» قيل فى وصيته نحوماتقدّم فى وصيَّة بطرك المَلكانيِّين، إلا أنه لا يقال : وآعلَمْ أنَّك فى المَدْخل إلىٰ شريعتـك طريقُ الباب ، بل يقال : وآعلم أنك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتك قَسِيمُ الباب، ومساوِله فى الأمر والنهى والتحليل والتحريم . ويقـال بدل قوله « وليتجنَّب البحر » : « وليتوقَّ ما يأتيه سرًّا من تلْقاء الحبَشة» .

قلت : وهذه الوصايا مَدْخَل إلىٰ ما يرضىٰ به أصحابُ الولايات ممَّن تقدّم ذكره والأمر فى الزيادة والنقص فى ذلك بحسَب المناسبة راجعٌ إلىٰ نظر الكاتب . علىٰ أن المقرّ الشهابىّ آبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" عدّة وصايا ليست مما يُكتَب الآنَ، فأضربنا عن ذكرِ مقاصدها هنا : لتُوردَ برُمّتها فى الكلام علىٰ ما يكتب فى متن التقاليد والتواقيع ونحوها، مع النسخ التى تُورَد هناك علىٰ صورة ما أوردها، ليُنْسَج علىٰ منوالها إن أُمِر بكتابة شىء منها .

المقصد الثانى

(فى بيان مَقاصِد ما يُكتب فى الوِلايات، وفيه جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى بيان الرُّسوم فى ذلك، ومقادير قَطْع الورَق لكلِّ صِنْف منها علىٰ سبيل الإجمال)

وهى علىٰ أربعة أنواع :

النوع الأوّل

(التّقاليد)

جمع تَقْليد . يقال : قلّدته أمرَ كذا إذا ولّيته إيّاه . قال الجوهرى : وهو مأخُوذ من القلادة فى العُنُق ، يقال قلّدتُ المرأة فتقلدت ، قال : ومنه التقْليد فى الدِّين أيضا .

ثم التقاليد تشتمل علىٰ طُرّة ومتْن ، فأما الطرّة فقد أشار اليها فى "التعريف" بقوله : وعُنْوانُها «تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» . وأوضح ذٰلك فى "التثقيف" فقال :

وصورتُه : ان يكتَب : تقليد شريفٌ بأن يفوِّض إلىٰ المَقَرّ الكريم، أو إلىٰ الجناب الكريم ، أو إلىٰ الجنـاب العالى الأميرىّ الكبيرىّ، الكافلىّ، الفـلانىّ، أعزَّ الله تعـالىٰ أنصاره ، أو نُصرتَه ، أو ضاعفَ الله تعـالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أو بحلَبَ المحروسة، أو بطرابُلُس المحروسة، أو نحوها، علىٰ أجمل العوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد علىٰ ما شُرِح فيه .

قلت : وتفصيل هذا الإجمال : إن كان المكتوبُ له التقليدُ هو النائبَ الكافلَ، كُتِب فى طرّة تقليده : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوِّض إلىٰ المَقَرّ الكريم العالى، الأميرىّ ، الكبيرىّ، الكَفيلىّ، الفلانىّ، فلان الفلانىّ، بلقب الإضافة إلىٰ لَقَب السلطان، كالناصرىّ مثلا ، كفالةُ السـلطنة الشريفة بالممالك الإسلاميَّة ، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ أجمَل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليدُ بكفالة السَّلْطنة بالشام ، كُتِب : تقليـدٌ شريفٌ بأن يفوِّض إلىٰ المَقَرّ الكريم العـالى ، الأمـيرىّ، الكبيرىّ ، الكَفيلىّ ، فلانِ النـاصرىّ ، مثلا كَفَالةُ السـلطنة بالشام المحروس علىٰ أتمّ العوائد فى ذٰلك وأجمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيـــه .

وإن كان التقليد بنِيابة السـلطنة بحَلَب، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجَناب الكريم العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الكافلىّ، الفلانىّ ، فلانِ الناصرىّ، أعز الله تعالىٰ نُصْرتَه، نِيابَةُ السلطنة الشريفـة بحلَبَ المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بنِيابة طَرَابُلس، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرىّ ، الكبيرى ، الكافلىّ، الفـلانىّ، فلانِ الناصرىّ : ضاعفَ الله

تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بطرَابُلُس المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بنِيابة السلطنة بحَمَاة، أُبْدل لفظ طَرَابُلُس بحماة .

وإن كان بنيابة السلطنة بصَفَد ، أُبْدل لفظ طَرابُلُس وحَماة بصَفَد، والباقى علىٰ ما ذُكر فى طرابلس .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بغَزّة ـ حيثُ جُعلت نيابةً ـ كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرِىّ، الكبيرِى، الكافلِى، الفلانىّ، فلانِ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمَتَه، نيابَةُ السلطنة الشريفة بغَزّة المحروسةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ماشُرح فيه .

فإن كان مُقدّم العَسْكر كما هو الآنَ ، أبدل لفظُ نِيابة السلطنة الشريفةِ بلفظ « تَقْدِمة العسكر المنصُور » والباقى علىٰ ما ذُكر .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك ، كُتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ ، فلانِ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالكَرَك المحروس، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بالوِزَارة، كتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى الصاحبِىّ، الفلانىّ، فلانِ الناصرىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه، الوزارةُ الشريفةُ بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمورُ ، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بكتابة السرّ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، القاضوِىّ، الكبيرى، اليمينىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريفة بالممالك الإسلامية، أعلاها الله تعالىٰ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، بالمعلوم الشاهد به الدِّيوانُ المعمور، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الشافعيّة بالديار المصريّة، كُتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، القاضوِىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه، قضاءُ قُضاة الشافعيـة بالديار المصرية، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمور، على ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الحنفيّة، كتب كذٰلك، إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بلفظ الحنفيّة .

وإن كان التقليد لأمير مكّة، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الشريفىّ، فلانٍ الفلانىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه إمْرةُ مكّة المشرّفة، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، على ما شُرِح فيه .

وإن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، كتب كذٰلك إلا أنه يُبْدَل لفظُ مكّة المشرّفة بلفظ المدينة الشّريفة .

وإن كان بإمرة آل فَضْل، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ : أدام الله تعالى نعمتَه إمرةُ آل فَضْل، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، على ما شُرح فيه .

هـذه جملة ما عُهِدتْ كتابتُـه من التقاليد المكتتَبة من ديوان الانشاء بالأبواب الشريفـة ، فإن حَدَث كتابةُ ما يستحقّ أن يكْتَب له تقليـدٌ، كالأتابكِيَّة ونحوها، كتب بالألقاب اللائقة بصاحبِه .

ثم وراءَ ذٰلك أمران : أحدهما ـ أنه قد تقدّم نقلا عن "التعريف" أنه يكتب فى العُنوان الذى هو الطرّة : « تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» فإن كتب تقليدٌ بكَفَالة السلطنة مثلا ، كتب : «تقليدٌ شريفٌ للمقرّ الكريم، العالى ، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، بكَفَالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القَواعد ، على ما شُرِح فيه» .

الثانى ـ أنه اقتَصَر فى "التثقيف" علىٰ قوله فى آخر الطرَّة ، علىٰ أجمل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد ، وليس الأمر منحصِرًا فى ذٰلك ، بل لو عُكِس بأن قيـل : تقليـد شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ فلان كذا ، أو تقليدٌ شريف لفلان بكذا علىٰ أكمل القواعد وأجمل العوائد على ماشُرح فيه ، لكان سائغًا .

فإن كان صاحبُ التقليـد علِيَّ الرتبة : كالنائب الكافل ، ونائِب الشام ، ونائب حلَب ، والوزير ، وكاتب السرّ ، ونحوهم ، كُتِب علىٰ أجمـل العوائد وأتمّها ، وأكمل القَواعد وأعمّها ، أو بالعكس : بأن يكتب علىٰ أجمل العوائدِ وأعمّها ، وأكمل القَواعد وأتمّها ، على ما شُرِح فيه .

وأما متْن التقليد ، فقد قال فى "التعريف" إن التَّقاليدَ كلَّها لا تُفتتح إلا بالحمدُ لله وليس إلا ، ثم يقال بعدها : أما بعْدُ ، ثم يذكر ماسَنَح من حال الولاية وحال المُولّىٰ ، وحُسْن الفكر فيمن يصْلُح ، وأنه لم يرَ أحقَّ من ذٰلك المولّىٰ ويسمَّى ، ثم يُقال مايُفْهم أنه

هو المقدّم الوصف أو المتقدّم إليه بالإشارة، ثم يقال: رُسم بالأمر الشريف العالى، المَوْلوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ (ويدعى له) أن يقلَّد كذا، أو أن يفوّض إليه كذا، والأوّل أجلّ؛ ثم يُوصىٰ بما يناسب تلك الولاية مما لا بدّ منه تارةً جُمْليًا وتارة تفصيليًا، ويُنَبَّه فيه علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ؛ ثم يختَمُ بالدعاء للولّى، ثم يقال: وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ به بعد الخطّ الشريفِ أعلاه.

قال: ولفُضلاء الكُتّاب فى هذا أساليب، وتفنّن كثيرُ الأعاجيب، وكلُّ مألوف غريب، ومَن طالع كلامهم فى هذا وجد ما قُلْناه، وتجلّى له ما أبهمْناه.

وذكره فى "التثقيف" بأوْضَح معنًى وأبْيَن، فقال: ويُكتَب بعد الصَّدْر بخُطْبة مناسبة أوّلها الحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم أما بعْدُ، ويَذْكُر ما يرىٰ ذِكرَه من حال الولاية والمولّى، ويذكر آسمه، وهو أن يقال: ولما كان المَقرّ، أو الجنابُ، وألقابه ونعوته إلىٰ آخرها، ويُدْعىٰ له: أعزّ الله أنصارَه أو نُصرتَه، أو نحوه، علىٰ ما جرتْ به عادتُه، ولا يُزاد علىٰ دَعْوةٍ واحدة؛ ثم يقال ما يُفْهِم أنه المرادُ بهذه الأوصاف، أو المعنىّ بهذه الإشارة أو نحو ذلك؛ ثم يقال: آقتضىٰ حُسْن رأينا الشريفِ، ويذكر ما يقتضى تكريمَه وتعظيمَه؛ ثم يقال: فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوىّ، السلطانى، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانى (ويُدْعىٰ له بما يناسب الحال ثلاثَ دَعوات أو أربعا) أن يُفوّضَ إلىٰ المشار إليه كذا؛ ثم يقال: فليتقلّدْ ذلك، أو فليتَلَقّ هذا التفويض، أو نحو هذا؛ ثم يُوصّى بما يناسب تلك الولاية مما لا بدّ منه، ويحرص أن يَنَبّه فيه علىٰ العمل بالتقوىٰ؛ ثم يُختم بالدعاء للولّى بالإعانة والتأييد ونحو ذلك ثلاثَ دعوات، وأكثرها اربع، وأقلُّها آثنتان؛ ثم يقال: بعد الخط الشريف شرفه الله تعالىٰ وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالىٰ؛ ثم التاريخ

والمستَنَد، والحمدلَةُ، والحَسْبَلةُ علىٰ العادة . ولم يَقُل فيه : وسبيلُ كل واقف عليه، كما قال فى "التعريف" .

وٱعلم أنَّ التقاليد علىٰ اختلافها لاتخْرُج فى مقادير قَطْع الورَق عن مِقدارَيْن :

الأوَّل — قطعُ الثلثين بقَلم الثُّلُث الثقيل . وفيه يُكتَب لنُوّاب السلطنة بمصر والشام مطلقا، وكذلك الوزير، والمشير، وكاتبُ السر، وقاضى قُضاة الشافعية والحنفيَّة بالديار المصرية .

الثانى — قَطْع النصف بقلم الثُّلث الخفيف . وفيه يُكتَب لذَوى التقاليد من أُمَراء العرب : وهم أميرُ مكةَ المشرَّفة، وأميرُ المدينة الشريفة، وأمير آل فَضْل من عَرَب الشام علىٰ ما تقدّم ذكره . ولا يُكتَب من التقاليد شىءٌ فيما دُونَ هذا المِقدار من قَطع الوَرق بحال . وسيأتى الكلام علىٰ نُسَخ التقاليد فيما بعدُ، إن شاء اللهُ تعالىٰ .

النوع الثانى

(مما يُكتَب فى الولايات السلطانية المراسيمُ)

جمع مَرْسوم، أخذًا من قولهم : رَسَمْت له كذا فارتَسمه إذا آمتثله، أو من قولهم : رسم علىَّ كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعا .

وهى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(المراسيم المكبَّرة)

ولم يتعرّض لها المَقَرّ الشِّهابى ٱبن فضل الله فى "التعريف" لأنها لم تكن مستعملة فى زمنه وإنما حَدَثَت بعده .

قال فى " التثقيف " : وهى على نمط التقاليد ليس بينهما اختلافٌ إلا فى أمرين : أحدهما — أنه لا يكتب شئٌ من المراسيم فى قَطْع الثلثين بل فى قَطْع النصف أو الثلث . الثانى — أنه لا يقال فيها « تقليدٌ شريفٌ » بل «مرسومٌ شريف» .

قلت : ويفترقان من أربعة وجوه . أحدها — أنه يقتصر فى طُرّة المرسوم على «الأميرى» دُونَ «الكبيرى» بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها «الأميرىّ الكبيرىّ» . الثانى — أنه يقال فى المرسوم : «أن يستقِرّ» ولا يقال : «أن يفوَّض» ولا : «أن يُقلَّد» . الثالث — أنه لا يقال : «على أجمل العَوائد وأتمّ القَواعد» بل يقال : «على عادة مَنْ تَقدّمه وقاعدته» . الرابع — أنه لا يقال فى الصَّدْر : « أما بعد » بل « وبَعْدُ » .

قال : وهى تختص بنُوّاب القِلاع المنصورة بالممالك الإسلامية، وأمراء العُرْبان أو مَنْ(١) بالشام وحلَبَ، وشاذّى مراكز البريد وغيرهم .

ثم هى على طبقتين :

الطبقة الأُولى — ما يُكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيف الثلث . وذلك للنوّاب بالقلاع : من مقدَّمى الألوف والطَّبْلَخانات : كنائب حِمْصَ، والرَّحْبَة، والبِيرة، وقلعة المسلمين، ومَلَطْية، وطَرَسُوس، وأَذَنَة، وبَهَسْنَى، والفُتوحات الجاهانيّة وغيرها ممن يكتَب له المجلسُ العالى والسامىّ بالياء أو بغير ياء على ما تقدّم بيانُه فى المكاتَبات إليهم . وكذلك بعضُ أمراء العُرْبان وهم أميرُ آل عَلِىّ، وأمير آل مِرا، وأمير بنى عُقْبَة . قال فى " التثقيف " : وصورة ما يكتَب فى الطرّة أن يكتب :

(١) لعله ممن بالشام الخ . تأمل .

« مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى أو السامىّ الأميرىّ ، الفلانىّ ، فلان (ويدعَىٰ له بما يناسبه) فى النيابة فى الجهة الفلانية علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته علىٰ ما شُرِح فيه » .

فإن كانت النيابة تقْدِمةَ ألف : كنيابة الرَّحْبة ونحوها ، كُتِب فى طرّة مرسومِ نائبها : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى الأميرىُّ الفلانىّ فلان ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه ، فى المكان الفلانىّ علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كانت النيابة طَبْلخاناه كتب : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكان كذا ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » ، أو كتب : « مرسوم شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان الدين فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكانِ كذا ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كانت نيابةَ قلعة دِمَشْق ، كتب : « مرسومٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ العالى ، الأميرىُّ ، فلانٌ ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه فى النيابة بالقلعة المنصورةِ بدِمشْق المحروسة ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته ، علىٰ ما شُرِح فيه » . وكذٰلك كلُّ قلعة بحسب ألقاب نائبها التى يُكاتَب بها .

ثم يُكتَب فى الصَّدْر بعد البسملة خُطبةٌ مفتتحة بالحمدُ لله ، ثم يقول : وبعدُ ، ويأتى بنحو ما تقدّم ذكره فى التقاليد ، ثم يقال : ولما كان المجلسُ العالى أو السامىّ إلىٰ آخر ألقابه ، ثم يقال : فلان ، ويدعَىٰ له بما جرتْ به عادتُه ، ويقال ما يُفْهَم منه أنه المقصودُ بما تقدّم ذكره من المدح والأوصاف السابقة ، ثم يقال : فلذٰلك رُسم

بالأمر الشريف إلىٰ آخره أن يَستقرّ المشارُ إليه فى كذا علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته ، فليَتلَقَّ ذٰلك ونحوه . ثم يُوصىٰ بما يناسب وظيفتـه التى تولّاها ، ويختم بنظير ماتقدّم ذكره فى ختم التقاليد .

الطبقة الثانية — من المراسيم المكبَّرة مايُكتب فى قطع الثلث بقلم التوقيعات . قال فى " التثقيف " : وصورتُه فى الطرّة والصـدْر علىٰ ما تقدّم فى الطبقة الأُولىٰ، إلا أن خُطبته تفتتح بأمّا بعدَ حمد الله، وتختَم بما تقدّم ذكره . قال : وقد تكتب لنوّاب القِلاع من أمراء العَشَرات : مثل نائب بَغْراس، ونائب الدَّرْبَسَاك، ونائب كَرْكَر، ونائب الكَخْتا، ونحوها . قال : وكذٰلك أربابُ الوظائف غير النّيـابات، مثل شادّ الدَّواوين بالشام وحَلَب، وشادّ مراكز البَرِيد بهما، ونحو ذٰلك، وبعض أمراء العرب : كأمير بنى مَهْدِىّ، ومقدّم عَرَب جَرْم، ومقـدّم عَرَب زَبِيد علىٰ نُدْرة فيه . فإن كان المرسوم بنيابة من النيابات المذكورة وغيرها، كتب : «مرسومٌ كريمٌ بأن يسـتقرّ المجلس السامى، الأمـير فلان الدين أعزه الله تعـالىٰ، فى النيابة ببَغْراس، أو بالدَّرْبَسَاك، أو بكَرْكَر، وما أشبه ذٰلك علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بشَدّ بالشام أو بحلَبَ، كتب : «مرسومٌ كريمٌ أن يستقرّ المجلس السامى، الأمير، فلان الدين : أعزه الله تعالىٰ فى شَدّ الدواوين بالمكان الفلانى، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته علىٰ ماشُرِح فيه» . وإن كان بشَدّ مراكز البَرِيد، أُبْدل لفظ «شَدّ الدواوين» بلفظ «شَدّ مراكز البَرِيد بالمكان الفلانى» . وإن كان بإمرة بنى مَهْدِى، كتب : «فى إمرة بَنِى مهدىٍّ، علىٰ عادة مَنْ تقـدّمه وقاعدته» . وإن كان بتَقْدمة عرب جَرْم، كتب: «فى تقدمة عرب جَرْم، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب زَبِيد، أبدل لفظ جَرْم بزَبِيد، وعلىٰ ذٰلك .

الضـــرب الثـانى

(من المَراسيم التى تكتب بالولايات المَراسيم المصغَّرة)

وهى ما يُكتب فى قَطْع العادة، وبها يُكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظرِ الأوقاف ونحوِه . وهى صنفان :

الصنف الأوّل — ما يُترك فيـه أوصالُ بيـاضٍ بين الطُّرَّة والبسملة، وهى أعلاها، ويُكتَب بالسامى بغير ياء أو مجلس الأمير :

وصـورتها أن يكتب فى الطرّة : « مرسومٌ شريفٌ أن يَسـتقرّ المجلسُ السامى الأمير فلان الدين ، أو مجلس الأمير فلان فى كذا وكذا بمـا لذلك من المعـلوم الشاهدِ به ديوانُ الوقف، أو نحو ذلك، على ماشُرِح فيه» ثم يكتب فى الصَّدْر بعد البسملة ماصورته : «رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ» (باللقب الخاصّ ولقبِ السلطنة) ويُدْعى له بمـا فيه براعةُ الاسـتهلال بذكر الوظيفـة أو اسمِ صاحبها أو لَقَبـه ونحو ذلك ، وأقلُّها ثلاثُ فِقَرات فما زاد «أن يستقرّ المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجل» (إلى آخر ألقابه)، أو أن يستقرّ مجلِسُ الأميرِ، الأجلّ (إلى آخر الألقاب) لما له من كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بما يُناسب المقام) ثم يقـال : فليُباشِرْ ذلك، أو فليَتَلَقَّ ذلك، أو فليُقابل صدَقاتنا الشريفةَ بكذا ونحو ذلك . ثم يُوصَّى بما يليق به ، ويدْعى له بدعوتين فقط ؛ ثم يقال : بعد الخط الشريف العالى أعْلاه الله تعالى» .

قلت : وهـذا الصِّنف إن رُوعِى صاحبُـه، كتب فى قَطْع العادة المنصورىّ، وإلا ففى قطع العادة الصغيرِ . قال فى "التثقيف" : ومما ينَبَّـه عليه أنه لا يُكتَب

مرسومٌ شريفٌ فى قطع العادة إلا بمثل نيابة الشَّقِيف بصَفَد[١] وصَرْخد وعَجْلُون والصُّبَيْبة ، فإنه لا يُولَّى فيها إلا مقدَّمُ حَلْقة او جندىٌّ ، ومثل هذا لا يكتب عن المواقف الشريفة إلا نادرا، فإنّ كُفَّال الممالك يستبِدّون بالتولية فى ذلك .

الصنف الثانى — ما يُكتب فى هيئة ورقة الطريق ، ويكونُ فى ثلاثة أوصال ؛ وصورته أن يكتب فى الطرّة ماصورتُه : «مرسومٌ شريف أن يستقِرّ فلان، أو أن يرتَّب فلان فى كذا وكذا، علىٰ ماشُرِح فيه» ويكون ذلك فى سطرين، ولا يكتب فى أعلاه الاسمُ الشريفُ كما يُكتب فى غيره : لأن من المعلوم أنه لا يُكتب فى هذا إلا الاسم الشريف فيستغنىٰ عن ذكره ؛ ثم يكتب فى آخر ذلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف» علىٰ نحو ماتقدّم، إلا أنه لا يُحتاج فى الدعاء إلىٰ مايكون فيه براعةُ استهلال، بل يكْفِى «أعلاه الله وشرفه،وأنفَذَه فى الآفاق وصرّفه» ونحو ذلك «أن يَستقرّ فلان فى كذا أو يرتَّب فى كذا، فليَعْتَمَدْ ذلك ويعمَلْ بحسَبه ومقتضاه، بعد الخط الشريف أعْلاه الله تعالىٰ أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ» .

النــــوع الثــالث
(مما يُكتب فى الولايات السلطانية التفاويضُ)

جمع تَفْويض ؛ وهو مصدر فوّض الأمرَ إلىٰ زيد إذا ردّه إليه، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أَرُدُّه إليه . قال فى "التعريف" : وبه يُكتب لعامَّة القُضاة ، يعنى ممن دُون أرباب التقاليد، وهى من نَمَط التقاليد، غيرَ أنها يقال فى تعريفها «تفويضٌ شريفٌ لفلان بكذا» . ومقتضىٰ ماذكره أنه إذا

---

(١) لعله وصفد بواو العطف . تأمل .

كتب « تفويضٌ شريفٌ بقضاء قُضاة الديار المصرية مثلا » يكتب فى الطُّرّة : « تفويضٌ شريفٌ للمجلس العالى ، القاضَوىّ ، الكبيرىّ ، بقضاء قُضاة المالكيّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلومِ الشاهدِ به الديوانُ المعمور علىٰ ما شُرح فيه » ثم يأتى بنحو ما تقدّم ترتيبُه فى التقاليد ، إلا أنه يكون أخصرَ .

قلت : ولم أقِف علىٰ نسخةِ تفويض غيرَ نسخةٍ واحدةٍ من إنشاء المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله لبعض قُضاة دِمَشْقَ . وقد أنشأتُ أنا تفويضا بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية لقاضى القُضاة جمالِ الدين يُوسف البِساطىّ ، حين وُلّىَ علىٰ أثَر ولاية قاضى القُضاة جلالِ الدين البُلْقِينىّ (١) قضاءَ قُضاة الشافعيّة ، ٱفتتحتُه بلفظ : « الحمدُ لله الذى شَفَع جَلال الإسلام بجَماله » وكتبت له به ، وكتبت فى طرّته : « تفويضٌ شريف للمجلس العالى ، القاضَوىّ ، الجَمالىّ ، يوسُفَ البِساطىّ المالكىّ ، أعز الله تعالىٰ أحكامَه بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القَواعد ، علىٰ ما شُرِح فيه » . وقرأته بالمجلس العامّ بالمدرسة المنصورية . وسيأتى ذكر نسختِه فى الكلام علىٰ النُّسَخ فى المَقْصِد الثانى من هذا الطَّرَف ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) بُلْقِينة بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف كما فى المعجم والقاموس .

النـــوع الرابع

(التواقيــعُ ، جمعُ توقيــع)

قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب عن ابن حاجب النُّعمان فى ذخيرة الكُتّاب : أنّ التوقيع معناه فى اللغة التأثيرُ الخفيف ، ومنه قولهم : ناقةٌ موقَّعــةُ الجَنَبة (١) اذا أثّر فيها الرَّحْلُ تأثيراً خفيفًا ، وأنه يحتملُ غيرَ ذلك . وفى اصطلاح الأقدمين من الكُتّاب أنه اسم لمــا يُكتَب فى حواشى القِصَص بخطّ الخليفة أو الوزير فى الزمن المتقدّم ، وخط كاتبِ السِّرّ الآنَ ، ثم غَلَب حتّى صار علَمًا علىٰ نوعٍ خاصّ ممــا يُكتَب فى الولايات وغيرها . قال فى "التعريف" : وهى علىٰ أُنْموذَج التفاويض . قال : وقد يقال : أن يرتَّب ، وأن يقَــدّم ، ثم قال : وعُنوانها « توقيعٌ شريفٌ لفلان بكذا » ولا يقال فيها علىٰ اختلافها : «وسبيلُ كلّ واقفٍ عليه» كما فى التقاليد ، بل يقال : «فلْيُعتَمَدْ ما رُسِم به فيه بعد الخطّ الشريفِ أعلاه» . وقد ذكر فى "التعريف" أنها تكون لعامّــة أرباب الوظائف جليلِها وحقــيرِها ، وكبيرِها وصغيرِها ، حتّى الطبلخانات اللاحقين بشأو الكِبار فمَن دُونَهم . وقال فى "التثقيف" : إنها مختصّــة بالمتعمِّمين من أرباب الوظائف الدينيّة والدِّيوانيــة ، ولا يُكتَب لأرباب السيوف منها إلا القليل : مثل نظر البِيمارَسْتان ، ونظر الجامع الجديد ، ونظر الحرَمين الشريفين ، يعنى حرَم القُدُس وحرَم الخليل عليه السلام .

قلت : والجامع بينَ كلامَيْهما أنه فى زمن صاحب "التعريف" كانتِ التواقيعُ تُكتَب بالوظائف لأرباب السُّــيُوف من النِّيابات وغيرها قبــل أن تُحدَثَ المراسيمُ المكبَّرة المقدّمة الذكر ، ثم خُصَّت التواقيعُ بعــد ذلك بالمتعمِّمين دُونَ أرباب

(١) الجنب والجانب والجنبة محركة شق الانسان . قاموس .

السيوف . ومضى الأمرُ على ذلك فى زمن صاحب "التثقيف" يجرى على حكمه ولم يبق ممن يكتب له توقيعٌ من أرباب السيوف سوى نُظّار الجهات الثلاث المتقدمة الذِّكر : من البيمارَسْتان المنصورى ، والجامع الجديد الناصرىّ بمصر ، ونظر الحرَمَيْن : حرمِ القُدُس الشريف ، وحَرَمِ الخليل عليه السلام . والحكمُ باق على ذلك إلى الآنَ .

ثم التواقيع على آختلافها لا تخرُج عن أربع طبقات :

الطبقــة الأولى

(ما يفتتح بخُطْبة مفتتَحة بالحمد لله ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى — ما يكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيفِ الثُّلُث . قال فى "التثقيف" : وصورتُه يعنى مايكتَبُ به لأرباب الأقلام أن يكتَب فى الطرّة : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوِّضَ إلى المجلس العالى ، القاضَوِى ، الكبيرى ، الفلانى (ويُدْعى له دعوةً واحدة) بما (١) جرت به عادتُه ، على أجمل العوائد ، وأكملِ القواعِد ، بالمعلوم الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلى آخروقتٍ على ماشُرِح فيه » .

قال : فإن كان حاكمًا ، كُتب له بعد الكبيرىّ ، الحاكمىّ . وإن كان كاتب السرّ ، كتب له بعد الكبيرى ، اليَمينى ، لاغير . ثم يكتب فى الصدر خُطْبة مفتتَحة بالحمد لله ثم يقال : أما بعدُ ، والتتمة على نظير ما ذُكر فى التقاليد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولىّ لها مما يناسبُ الحال . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتب بذلك للقُضاة الأربعة بالديار المصرية ، والقُضاة الأربعة بالشام ، وكاتبِ السرّ بمصر

(١) لم يذكر المفوّض به إليه للعلم به من نظارته والأصل أن يفوض الى المجلس ... ... نظر الجامع الجديد الناصرى مثلا بما جرت به الخ فتنبه .

والشـام ، وناظرِ الجيش بهـما ، وناظر الدواوين المعمورةِ والصُّحْبة الشريفـة ، وهو ناظرُ الدولة .

وحينئذ فإن كتب بذٰلك لقاضى القُضاة الشافعيَّة بالديار المصرية علىٰ ما كان الأمرُ عليـه أوّلا ، كتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرَّ المجلس العالى، القاضوىُّ، الكبيرىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه ، فى قضاء قُضاة الشافعيَّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العوائد وأتمِّها ، وأكمل القواعد وأعمِّها ، بما لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور ، علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لقاضى القُضاة الحنفيَّة ، علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا أيضا ، كتب له نظير قاضى القُضاة الشافعية إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بـ«الحَنفيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة المـالكية ، علىٰ ما الأمر مستقرٌّ عليه الآنَ ، كتب له كذٰلك ، وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بـ«المـالكيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة الحنابلة فكذٰلك ، ويقال فيه «الحَنابلة» .

وإن كتب به لأحدٍ من القُضاة الأربعـة بالشام ، فكذٰلك ، إلا أنه يقال قضاء قُضاة الشافعيَّة أو الحنفية أو المـالكية أو الحنابلة بالشّام المحروس .

وإن كتب به لكاتب السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا ، كتب : « توقيع شريفٌ بأن يُفَوّض إلىٰ المجلس العـالى ، القاضَوىّ ، الكبيرى ، اليمينىّ فلان ، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَـه ، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريف بالممـالك الإسـلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العوائدِ ، وأكمل القواعِد ، بالمعلوم الشاهـد به الديوانُ المعمورُ ، علىٰ ماشُرح فيه » .

وإن كُتب به لكاتبِ السرّ بالشام، أُبْدِل لفظُ الممالكِ الإسلامية بـ«الشأم المحروسِ» .

وإن كتب به لناظر الجيش بالديار المِصريّة، كتب : «توقيعٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المجلس العالى، القاضَوِى، الكبيرى، الفلانى : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه، نظَرُ الجيوش المنصورةِ بالممالك الإسلاميَّة، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ ما شُرِح فيه» .

وإن كتب به لناظرِ الجيش بالشام، أبدِل لفظُ الممالك الإسلامية بـ«الشام المحروسِ» .

وإن كتب به لناظر الدولة، كُتِب : «توقيعٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المجلس العالى، القاضَوِى، الكبيرى، الفلانى، فلان، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه، نظَرُ الدواوين المعمورةِ والصُّحبةُ الشريفةُ، علىٰ أجمل العوائد، وأكمل القَواعد، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ علىٰ ماشُرِح فيه» .

وإن كتب به لناظر البيمارَسْتان لصاحب سيف[1]، كتب : «توقيعٌ شريفٌ أن يفوَّض إلىٰ المقرّ الكريم، أو الجنابِ الكريم، أو العالى (علىٰ قدر رُتبته) الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، فلان الناصرىّ مثلا : أعزَّ الله أنصاره، أو نُصرتَه ؛ أو ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه (بحسَب ما يلِيق به) نظرُ البيمارَسْتان المعمور المنصورى، علىٰ أجمل العوائد، وأكملِ القواعد، بما لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور علىٰ ما شُرِح فيه» . وكذلك نظرُ الجامع الجديدِ ونظرُ الحرمين الشريفين كلٌّ بما يناسب الألقاب . وعلىٰ ذٰلك .

(١) لعله «أن صاحب سيف» .

المرتبة الثانية من التواقيع — ما يكتب فى قَطْع الثلث بقلم التوقيعات، وهو لمن مرتبتُه السامىّ بالياء . قال فى "التثقيف" : وصورتُه فى الطُّرَّة والصدْر على ما تقدم شرحه لكن بأخْصَر مما تقدّم . قال : وبذلك يُكتب لنقيب الأشراف ولقُضاة القُضاة بحلب وطرابُلُس وحماةَ وصَفَد والكَرَك ، وكذلك لقضاةِ العسكر بالممالك المذكورة والمُفْتين بدار العَدْل بها، ووكلاءِ بيت المال بها، والمحتَسِبين، ونُظّار الجيش بها ، وكُتّاب الدَّسْت بمصر والشام ، وناظِر البيوتِ بالديار المصرية . وكذلك ناظرُ خزائن السِّلاح ، ومستوفى الصُّحْبة ، وناظرُ بيت المال ، وناظرُ الخزانة الكبرى وخزانةِ الخاصّ ، وناظرِ الأحباس ، ومشايخُ الخَوَانق الكِبَار : كسَعِيد السعداء ، وبِيبَرْس بالقاهرة ، والشُّمَيْصاتيّة بدِمَشْق . وكذلك تقدمةُ التُّرْكُمان بالشام ، وتقدمةُ الأكراد به ، ومشيخةُ العائد .

فإن كُتِب بذلك لنقيب الأشراف، كتب «توقيعٌ شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىُّ، الأميرىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالى عُلُوّه، فى نِقابة الأشراف بالديار المصرية، على عادة من تقدمه وقاعدتِه، على ما شُرِح فيه» .

وإن كتب لقاضى قُضاة الشافعية بحَلَب ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أيَّد الله تعالى أحكامه، فى قضاء قُضاة الشافعية بحَلَب المحروسة، على عادةِ من تقدّمه فى ذلك وقاعدته على ما شُرِح فيه .

وإن كتب للحنفىّ بها كُتب كذلك ، وأبدل لفظُ الشافعية بـ«الحنفيَّة» وكذا فى المالكية والحنابلة .

وإن كتب لأحدِ قُضاة القضاة بغيرها : كطرابُلُس ، وحماةَ، وصَفَد، والكَرَك، أبدل لفظُ حلَبَ بلفظ تلك المدينة، والباقى على حُكمه .

وإن كتب لأحدٍ من قُضاة العسكر بالممالك المذكورة، كُتب « توقيعٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، فلان الشافعىّ، مثلا أو نحو ذٰلك: أيّد الله تعالىٰ أحكامه، فى قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلانىّ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته».

وإن كتب بإفتاء دار العَدْل بشىءٍ من هذه الممالك، أبدل لفظ «قضاء العسكر» بلفظ «إفْتاء دارِ العدل» والباقى علىٰ حُكمه.

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها، كتب « توقيع شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ، فلانٌ: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى وَكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانىّ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته».

وإن كتب لأحدٍ من المحتسِبين بهذه الممالك، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى نظر الحِسْبة الشريفة بالمكان الفلانى علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه».

وإن كُتب لأحد من وُكلاء بيتِ المال بها، كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى وكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانى، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه».

وإن كتب لأحدٍ من نُظّار الجيش بها، كتب « توقيع شريف بأن يَستقِرّ المجلس السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى نظَر الجُيوش المنصورة بالمملكة الفلانية، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه».

وإن كتب لأحدٍ من كُتّاب الدَّسْت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه، فى كِتابة الدَّسْت الشريف بالأبواب الشريفة» . ثم إن كان عن وفاةٍ عَيَّنه أو بنزُول عَيَّنه .

وإن كان بالشام، أُبْدل لفظ «بالأبواب الشريفة» بلفظ «بالشام المحروس» .

وإن كتب بذٰلك فى نظر البيوت بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر البيوت المعمورة » .

وإن كُتِب لأحدٍ بنظر خزائِن السِّلاح بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه، فى خزائن السِّلاح المنصورة، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب باستيفاء الصُّحْبة، كتب «توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى آستيفاء الصُّحْبة الشريفة ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بنظر بيت المال ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىُّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر بيت المال المعمور ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر الخِزانة الكُبْرىٰ ، كتب « توقيعٌ شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر الخِزانة العالية الكُبْرىٰ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه» .

وإن كتب بنظر خزانة الخاص ، أُبدل لفظ الخزانة العالية الكبرىٰ بلفظ خزانة الخاصّ الشريف ، والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كُتِب بنظر الأحباس ، كُتِب « توقيعٌ شريفٌ ان يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ رفعتَــه ، فى نظر الأحباس المبرورة ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدتِه » .

وإن كتب بمَشْيَخة الخانقاه الصَّلَاحية (سعيد السعداء) كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، الشَّيخىّ ، الفلانىّ : أعاد الله تعالىٰ من بركاته ، فى مَشْيخة الخانقَاه الصَّلَاحيَّة ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته » .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه بيبَرْس ، أبدل لفظ « الخانقاه الصَّلَاحيَّة » بلفظ « الخانقاه الرُّكْنيَّة بيبرس » والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كتب بمشيخة الشُّمَيصاتية بدمشق ، أبدل ذٰلك بلفظ « الخانقاه الشُّمَيصاتيَّة بالشام المحروسِ » .

وإن كتب بتَقْدِمة التُّرْكمان بالشام ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىّ ، الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ ، فى تَقْدِمة التُّرْكمان بالشام المحروس ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه » .

وإن كتب بتَقْدِمة الأكراد ، أبدل لفظ « التُّرْكمان » بلفظ « الأكراد » .

وإن كتب بمشيخة العائد ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىّ الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ ، فى مَشْيخة العائد ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه » . وعلىٰ ذلك .

الطبقـــة الثـانية

(من التواقيع ما يُفْتتح بلفظ « أما بعـدَ حمد الله » وهو لمن رُتْبته
السامى بغـــير ياء ، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث ، وهو الاصلُ فيما يُكتب فى الثلث ثم تُرُقِّىَ عنـه إلى رُتْبـة الآفتتاح بالحمد . ألا ترى أن المَنَاشِـيرَ التى تُكتَب فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات تُفْتَتح كلُّها بلفظ « أما بعـدُ » على ما سـيأتى بيانُه فى المقالة السادسة ، فى الكلام على المَنَاشير ، إن شاء الله تعالى .

وصورته أن يكتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السـامى ، القَضائِىّ ، فلانُ الدين أو الشيخُ فلان الدين فى كذا ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدتِه ، على ماشُرِح فيه » ثم يَكتب فى الصدر « أما بعدَ حمدِ الله » ويصلِّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ثم يقول : « فإنَّ أَوْلَى الأمور بكذا مَنْ هو بصفة كذا » أو «إنَّ أَوْلَى الناس بالتقديم من هو متَّصِف بكذا» ونحو ذلك ؛ ثم يقال : « ولـمَّا كان المجلس» ويؤتَى بنحو ماتقدّم فى المفْتتح بالحمدُ لله .

قلت : وقد قَلَّ آستعمال هذا الضَّربِ بديوان الإنشاء الشريف وإن كان هو الأصلَ فيما يكتب فى هذا القَطْع ، حتّى لايكاد يُكتَب به إلا فى النـادر ، تَغَاليـا فى رِفْعة المكتوب لهم ، مع المسامحة لهم فى مثل ذلك .

المرتبة الثـانية — ما يُكتَب فى قَطْع العادة المنصورىّ .

والأمرُ فيه على ماتقـدّم فيما يُكتب من هذه الطبقـة فى قطع الثلث . قال فى " التثقيف " : وهو قليـلٌ جدّا لا يكون إلا فى تدريس كبـير ، أو نظرِ وقف

كبير، أو مشيخة الحرم الشريف بالقُدُس الشريف، إن لم يكن فى قطع الثلث؛ أو لرجلٍ كبيرٍ قديم الهجرة فى الخدمة الشريفة، إلا أنّ الوظيفة صغيرةٌ لاتقتضى أن تكون فى قطع الثلث .

الطبقـــة الثـالثة

(من التواقيع مايفتتح بلفظ «رُسِم بالأمر الشريف» وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ — مايُكتب فى قَطْع العادة المنصورى بقَلَم الرِّقاع ، وهو لمن رُتبته السامى بغير ياء ممن لم تبلغ رتبتُه قطعَ الثلث . قال فى "التثقيف": وصورته أن يكتب فى الطرّة «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى القاضى فلان الدين: أعزه الله تعالىٰ فى كذا ، أو أن يُرتَّب ، أو أن يُقَدَّم» ويذكر ما تضمَّنه الشاهدُ من قصةٍ أو قائمةٍ من ديوان الوِزارة أو الخاصّ أو غير ذٰلك «علىٰ ماشُرِح فيه» . قال: ثم يكتب فى الصدر بعد البسملة « رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، الفلانىّ ، باللقب الخاص ، ولقب السلطنة » : مثل الناصرىّ ، الزَّينىّ ، ونحو ذٰلك (ويُدْعىٰ للسلطان بأدعية تُناسب الوظيفةَ والمتولِّىَ لها ، وأقلُّها ثلاث فِقَرات فما زاد) «أن يستقرّ المجلسُ السامى ، القاضى ، فلانُ الدين فلان ، أو مجلسُ القاضى فلان الدين فلان : أعزَّه الله تعالىٰ فى كذا ، لما له من صِفاتٍ هى كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدح بما يُناسب المَقام) ثم يقال : فليُباشِر ذٰلك ، أو فليتَلَقَّ هذا الإحسان ، أو فليقابِلْ صدَقاتنا الشريفةَ» ونحو ذٰلك ؛ ثم يُوصَىٰ بما يليق بتلك الرتبة ، ويدعىٰ له بسجعتَين فقط . ثم يقال : «بعدَ الخطّ الشريف أعلاه» . ثم قال: وبذٰلك يكتب لكُتّاب الدَّرْج ، ومستَوفى

الدولة ، وناظرِ الأهْراء ، وناظر المَطَابخ ، ومشايِخ الخوانِق الصِّغار، والتَّدارِيس الصِّغار ، وأنظارِ الأوقافِ الصِّغار ، ونحو ذٰلك مما لا يأخُذه حَصْر .

وحينئذ فإن كُتِب بذٰلك لكاتب دَرْج ، كتب فى الطرّة « توقيع شريفٌ أن يستقرّ مجلسُ القاضى فلانِ الدين فلان : أعزّه الله تعالىٰ فى كتابة الدَّرْج الشريف » .

وإن كتب به لمستوفٍ من مستوفِى الدولة ، كُتب «أن يستقرَّ المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله نعمتَه ، فى ٱستيفاء الدولة الشريفةِ علىٰ عادة من تقدّمه » .

وإن كُتب لناظر الأهراء ، كُتب « أن يستقر المجلسُ السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله رفعتَه، فى نظر الأهراء السعيدةِ » .

وإن كتب بنظر مَطَابخ السُّكَّر ، كتب « أن يستقرَّ المجلس السامى ، القاضى، فلان الدين فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى نظَر المَطَابخ السعيدة» .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه صغيرة، كتب «أن يستقر المجلس السامى، الشَّيْخىّ، فلان الدين فلان، أو مجلسُ الشيخ فلان الدين فلان: نفَع الله تعالىٰ ببركته، فى مَشْيخة الخانقاه الفلانية، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه» .

وإن كُتِب بتدْريسٍ صغير، كتب «أن يستقرّ فى تدْريس المدرسة الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدتِه» .

وإن كتب بنظَر وقْف ، كتب « أن يستقرّ فى نظر الوقْف الفلانىّ » ونحو ذٰلك .

ثم إن كان لشيء من ذٰلك معلوم يشهد به الديوانُ السلطانىُّ ككتابة الدَّرْج وآستيفاءِ الدولة ، كُتِب بعد قوله وقاعدتِه : « بما لذٰلك من المعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمور » .

وإن كان الشاهدُ بالمعلوم كتّابَ وقف، كتب «بما لذٰلك من المعلومِ الشاهدِ به كتّابُ الوقف المبْرور» . ويقول فى آخر طُرّة كل ولاية من التقاليد، والتفاويض، والمَرَاسِيم، والتواقيع علىٰ آختلافها : «علىٰ ما شُرِح فيه» .

الطبقة الرابعة

(التواقيع الصِّغار، وهى لأصغر ما يكونُ من الولايات:
من نَظَر وقْفٍ صغيرٍ ونحو ذٰلك ، وتكون فى ثلاثة أوصال ونحوها)

وهى علىٰ ضربين

الضرب الأوّل — ما يُكتب علىٰ مِثال أوراق الطَّرِيق .

وصورتُها أن يُكتب فى أعلىٰ الدَّرْج : «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقر فلان فى كذا، علىٰ ما شُرِح فيه» . ويكونُ ذٰلك فى سطرين؛ ثم يُكتب فى آخر ذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ السلطانىّ» إلىٰ آخر ماتقدم فى الطبقة الثالثة . ويقال فى الدعاء : « أعلاه اللهُ وشرَّفه ، وأنفذه وصرّفه » ونحو ذٰلك . ثم يقال : «أن يستقر فلانٌ فى كذا» ويشرح ماتضمَّنه الجواب فى هامش القِصّة . ثم يقال : «فلْيعتمِدْ هـذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقفٍ عليه ، ويعمَلْ بحسَبه ومقتضاه، من غير عُدُول عنه ولا خروج عن مَعْناه، بعْدَ الخط الشريفِ أعلاه» .

الضرب الثانى — ما يُكتب على ظُهور القِصَص .

وكيفيَّته أن تُلصق القِصَّة التى شَمِلها جوابُ كاتب السرّ أو غيرِه على وَصْلَيْنِ من ورَق العادة الصغير . قال فى "التثقيف" : وصورتُها أن يُكتب فى ظاهر القصَّة بغير بَسْمَلة قبل الوصل الذى وصله بنحو أربعة أصابع ما صورته : « رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ السلطانىّ » على نحو ما تقدّم . ويُدْعىٰ له : « أعلاه الله وشرّفه ، وأنفذه وصرّفه » على ما تقدّم فى الضرب الأوّل . ثم يقال : «أن يُتأمَّل ما أنهاه رافعُها باطنا ، وليُتقدّم بكذا وكذا » ويشرح ماتضمَّنه الجوابُ فى هامش القِصَّة . ثم يقال : « فليعتَمِد هذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه ومقتضاه، بعد الخطّ الشريف أعلاه» . قال : وإن كان رافعُ القصَّة ممن هو متميِّز بعضَ التميُّز قيل : «مترجِمُها» بدل «رافِعُها» . فإن زِيدَ فى قدره ، قيل : « ما ذكره مجلسُ القاضى أو المجلسُ السامى القاضى » إن كان من هذه الرتبة ، وتُذكر بعضُ ألقابه . ثم يقال : « أدام الله عُلوَّه » أو « أعزه الله ، فليتقدّم » ويكمَلُ إلى آخره .

وآعلم أنّ المقرّ الشّهابىّ آبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" آفتتاحاتٍ أخرىٰ للتواقيع بين رُتْبة «أما بعد حمد الله» ورتبة «رُسِم بالأمر الشريف» فقال : بعد الآفتتاح بأما بعدَ حمد الله : وقد تستفتح بقول : «أما بعدُ فإنَّ أوْلىٰ ما كان كذا» أو ما هذا معناه، وقد تستفتَح بقول : « من حسُنَت طرائقُه ، وحُمِدت خلائقُه» أو ما هذا معناه ، وجعلها رُتبةً بعد رتبةٍ .

قلت : وهذه الآفتتاحات كانتْ مستعملةً فى الدولة العباسية ببغدادَ، وفى الدولة الفاطميَّة بالديار المصريَّة والبلاد الشاميَّة، ثم فى الدولة التُّركيَّة إلى زمن المَقرّ الشّهابىّ

المشار إليه فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ثم رُفضت بعد ذلك، وتُرِك آستعمالها بالديار المصرية البتَّة، فلم يكن أحدٌ من كُتّاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئاً منها .

المقصد الثالث

(فى بيان كيفيةّ وضع ما يُكتب فى هذه الولايات فى الورق ، ويتعلّق به عشرةُ أمور)

الأمر الأوّل — الطُّرّة، وهى فى آصطلاحهم عبارةٌ عن طَرَف الدَّرْج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يُكتَب فى رأس الدَّرْج مجازا، تسميةً للشىء باسم مَحَلّه .

قلت : وليس صحيحًا من حيثُ اللغة، فإنّه فى الأصل مأخوذٌ من طُرّة الثوب. وقد ذكر الجوهرىّ وغيره أن طُرّة الثوب هى طَرَفُه الذى لاهُدْب فيه، والذى لاهُدْبَ فيه من الثوب هو حاشيتاه، بخلاف أعلاه وأسفلِه . نعم يجوز أن تكون مأخوذةً من الطَّرّ بمعنى القَطْع ، لأن الطُّرّة مقتطَعةٌ عن كتابة المتْن، يفصِل بينهما بياضٌ ، ومنه سمّى الشَّعْر المرسَل على الصُّدغ طُرّة . وقد جرتِ العادةُ فى كل ما يكتَبُ له طرّةٌ أن يكتب فى أعلىٰ الدَّرْج فى الوَسَط بقلَم الرِّقاع بكل حالٍ ما صورتُه « الاسم الشريف » ثم تكتَبُ الطرّة تِلْوَ ذلك من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره ، دون هامشٍ عن يمينٍ ولا شِمال : بحيث تكون أطرافُ المنتصبات من أوّل السطر الأوّل ملاصقةً لأسفل ما كُتِب فى أعلىٰ الدَّرْج مما تقدّم ذكره . ويأتى بالطرّة المناسبة : من تقليدٍ ، أو مرسومٍ، أو تفويضٍ، او توقيعٍ، بالقلم المناسِب لمقدار قَطْع ذلك الورق علىٰ ما تقدّم بيانُه، ويأتى علىٰ ما يُكتب فى الطرّة علىٰ ما تقتضيه

الحال، علىٰ ماسبق ذكره إلىٰ أن ينتهىَ إلىٰ آخره . فإن آنتهىٰ فى أثناء سطرٍ، ترك باقِيَه بياضا، وكتب فى آخره «علىٰ ماشُرِح فيه» بحيث يُوافِق آخرُ ذٰلك آخِرَ السطر . وإن آنتهى ما يُكتَب فى الطرّة فى آخر السطر ، كتب تحتَ ذٰلك السطر علىٰ حيال آخره «علىٰ ما شُرِح فيه» كما تقدّم ، لايختلف الحالُ فى ذٰلك فى مكتوب ولاية، إلا فيما يُكتَب علىٰ ظهور القِصَص : فإنّ العادة جرتْ فيه أن لايكون له طُرّة، ولا يُكتب فى أعلاه الآسمُ الشريف : لأنه قد علم أنه لا يُكتب فيه إلا الآسمُ الشريف، فلم يحتج إلىٰ تنبيهٍ علىٰ ذٰلك .

الأمر الثانى — البسملةُ الشريفة . ومن شأنها أن تُكتب فى أوّل كلّ وِلاية لها شأنٌ ، عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدَأ فيه بحَمْدِ اللهِ فهُوَ أجْذَمُ» يعنى ناقصَ البركة . ومحلُّها من كُتُب الولايات فى أوّل الوصل الرابع بعد أوصال البَيَاض . أما مالا بالَ له من كُتُب الولايات : كالتواقيع التى علىٰ ظُهُور القِصَص وما هو منها علىٰ صورةِ أوراق الطريق ، فقد جرىٰ الآصطلاحُ علىٰ أنه لا يُكتَب فى أوّلها بسملةٌ أصلا، بل تفتتح بـ«رُسِم بالأمر الشريف» .

قلت : وقد كان القاضى علاءُ الدين علىٌّ الكَرَكىّ حينَ وُلّى كتابة السرّ الشريف بالديار المِصرية فى أوّل سلطنة الظاهر برقوق الثانية أمر أن تُكتب فى أوّل هذه التواقيع بسملةٌ لطيفةُ المقدار، طلبًا للتبرك، ثم تُرِك ذٰلك بعد موته وآنتقالِ الوظيفة إلىٰ غيره . ولايخفىٰ أنّ ماعليه الآصطلاحُ هو الوجه : فإنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قد قيّد مايُبْدَأ بالبسملة بما يكون له بالٌ من الأمور، ومقتضاه أنّ مالا بالَ له لايُبْدَأ فيه ببسملة . علىٰ أنه قد كان أمر أن تُجعل البسملةُ قبل قوله «رُسِم بالأمر

الشريف» ومقتضىٰ ذٰلك أن تقع العلامةُ فوقَ البسملة، وفيه مالا يخفىٰ . بخلاف غيره من الولايات الكِبار فإنَّ العلامة تكونُ فيها تحتَ السطر الثانى من البسملة، علىٰ ما سيأتى بيانُه .

الأمر الثالث — الآفتتاحُ الذى يلى البسملةَ . وقد علمتَ مما تقدّم أنَّ الذى آستقرّ عليه آفتتاحُ كُتُب الولايات على آختلافها من أعلىٰ وأدْنىٰ لا يخرُج عن ثلاثة أصناف :

أحدها — الآفتتاحُ بالحمدُ لله، وهو أعلاها . ثم تختلف رتبتُه بعد ذٰلك باختلاف ما يُكتب فيه من مقادير قَطْع الورق : إذ هو تارةً تُفتتح به التقاليدُ، وتارة تفتتَح به المراسيمُ المكبَّرة، وتارة تفتتَح به التفاويضُ، وتارة تفتتَح به كبارُ التواقيع .

الثانى — الآفتتاحُ بأما بعدَ حمدِ الله . وهو المرتبةُ الثانيةُ من المراسيم المكبَّرة، والتواقيع الكِبار . وتكون فى قَطْع الثلث تارةً، وفى قطع العادة المنصورىّ أخرىٰ .

الثالث — الآفتتاحُ برُسِم بالأمر الشريف . وهو المرتبة الثالثةُ من المراسيم والتواقيع، وهى أدنىٰ رُتَبها . وتكون فى قطع العادة الصغيرِ، وربما كُتب بها فى قطع العادة المنصورىّ .

الأمر الرابع — البعديةُ فيما يفتتح فيه بالحمدُ لله، وهو علىٰ ضربين .

الأوّل — أن يقال بعد التحميد والتشهُّد والصلاةِ على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أما بعدُ، وهو الأعلىٰ . وتكون فى التقاليد خاصَّةً .

الثانى — وبعدُ، وهى دُونَ اما بعد . وتكون فى التفاويض وكِبار المراسيم والتواقيع . وقد مرّ القولُ على ذٰلك مستوفًى فى الكلام علىٰ الفَواتح فى المقالة الثالثة .

الأمر الخامس — وصفُ المتولِّى بما يُناسب مَقامه ومَقامَ الولاية من المَدْح والتقريظ . وقد مرّ القولُ علىٰ ذٰلك فى المَقْصِد الأوّل من هذا الطَّرَف، فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السادس — الألقابُ المختصّة بصاحب الولاية . قد تقدّم أنه يذكر فى الطُّرّة بعضُ الألقاب التابعةِ للّقب الأصلىّ : من المقرّ والجناب وغيرهما، مع التصريح باسم المولَّى والدعاء له بما يُنَاسبه، على ماتقدّم بيانُه هناك . أما فى أثناء الولاية، فإنه يُستوعب جميعُ ألقابه ويعاد ذكْرُ الأسم والدعاء المذكور فى الطُّرّة . وقد تقدّم ذكْرُ الألقاب مستوفىً فى المَقْصِد الأوّل من هذا الفصل فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السابع — وصيّة صاحبِ الولاية بما يُناسب ولايتَه . وقد تقدّم التنبيهُ علىٰ ذٰلك فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات أيضا .

الأمر الثامن — الدعاءُ لصاحب الولاية بما يناسبُه إذا كان مستحقًّا لذٰلك . وقد ذكر فى "التعريف" أن من آستُصْغِر من المُوَلَّيْن لايُدعىٰ له فى أوّل ولاية ولا آخِرِها، وربما قيل بدَل الدعاء أو بعده : « والخيرُ يكون » .

الأمر التاسع — الخواتِم : من كتابة « إن شاء اللهُ تعالىٰ » والتاريخ، والمستَنَد، والحمدلة، والتصلِية، علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتَبات .

فأما المشيئة، فإنه يكتب فى آخرِ مكتوبِ كلِّ ولاية : « إن شاء الله تعالىٰ » فى سطرٍ منفردٍ .

وأما التاريخ، فإنه يُكتَب فى سطرين كما تقدّم فى المكاتبات، فيكتب « كُتِب فى يوم كذا من شهر كذا» فى سطر، ويكتَب «سنة كذا وكذا» فى سطر تحته .

وأما المستَنَد، فإنّه يكتب تحتَ التاريخ، كما تقدّم فى المكاتَبات . فإن كان بتلَقّى كاتبِ السرّ ، كُتِب فى سطرٍ واحد « حسَبَ المرسومِ الشريف » . وإن كان برسالة الدَّوَادار ، كتب « حسَبَ المرسوم الشريف » فى سطر ، ثم كتب فى سطر تحته « برسالةِ الجناب العالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ الدَّوَادار ، الناصرىّ » مثلا . وإن كان بخط السلطان، كتب «حسَبَ الخَطِّ الشريف» . وإن كان بإشارة النائب الكافل، كتب «بالإشارة العاليةِ الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب «كافلِ الممالك الشريفةِ الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ» فى سطر تحته . وإن كان بإشارة الوزير، كتب «بالإشارة العاليةِ الصاحبيَّة الوزيريَّة الفلانية » فى سطر ، ثم كتب فى السطر الثانى « مدبِّرِ الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» . وإن كان الوزيرُ صاحبَ سيف، أسقط منها «الصاحبيَّة» . أللهم إلا أن يكون مرسومًا صغيرا أو توقيعًا صغيرا مما كُتِب فى هيئة ورقة الطريق أو علىٰ ظهر القِصَّة ، فإنه إن كان بتلقِّى كاتب السرّ، كُتِب المستَنَد علىٰ حاشية التوقيع علىٰ سَمْت ما بين السطر الأوّل والثانى . وإن كان بإشارة النائب الكافل كُتِب هناك «بالإشارة العالية» سطرين، علىٰ نحو ماتقدّم فيما يُكتَب تحت التاريخ . وإن كان بإشارة الوزير، فالأمر كذٰلك . وإن كان برسالة الدَّوَادار، كتب علىٰ الحاشية هناك « حسَبَ المرسوم الشريف » ، ثم كُتِب تحتَ التاريخ « برسالة الجناب العالى » إلىٰ آخر المستَنَد .

وأما الحَمْدَلةُ والصلاة على النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم ، ففى سطر تحت المستَنَد ، كما فى المكاتبات، يكتب فيها «الحمد لله وحده» ثم يخلِّى بياضا، ثم يكتب «وصلَواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامُه» .

وأما الحَسْبلةُ ، ففى سطر تحتَ ذٰلك يكتب فيه « حَسْبُنا الله ونعم الوكيلُ » علىٰ ما تقدّم فى المكاتبَات .

الأمر العاشر — البياض الواقعُ فى كُتُب الولايات، وله سِتَّةُ مواضع :

الأوّل — فيما بين الطُّرّة والبسملة ، وهى ثلاثةُ أوصال بالوصل الذى فيه الطرّة، لا يتجاوزُ ذٰلك فى مقدار قطع كبيرولا صغير . إلا أنه ربما ٱقتُصِر علىٰ وصلين فيما ٱستُصغر شأنُه من الرتبة الثالثة من التواقيع .

الثانى — الحاشيةُ فيما علىٰ يمين البسملة وما بعدها . وأهلُ زماننا يعبِّرون عن ذٰلك بالهامش، ولم أجدْ له أصلا فى اللغة . وقد تقدّم القولُ عليها فى المقالة الثالثة، فى الكلام علىٰ متعلِّقات قَطْع الورق وما ينخرط فى سِلْكه . أما آخر الأسطر فإنه لا بياضَ فيه ؛ علىٰ أنَّ مُلوك الروم يجعلون لكُتُبهم حاشيةً من أوّل الأسطار وحاشيةً من آخرها ، علىٰ ما تقدّم القولُ عليها فى الكُتُب الواردة عن صاحب القُسْطنطِينيَّة .

الثالث — بيتُ العلامة، وهو فيما بينَ السطر الأوّل : وهو الذى يلى البسملةَ، وبين السطر الثانى : وهو الذى يكونُ فى آخر وصل البسملة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقاديرِ الورق فى المقالة الثالثة أن مقدارَه فى الزمن القديم كان قَدْرَ شِبر، وقد شاهدْناه دونَ ذٰلك بقليل فيما كُتِب به فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" علىٰ مايشهَد به الموجودُ من تواقيعِهم، ثم تَناقَص قليلا . فلمَّا غَلَا الورقُ وقُصِّرت الأوصالُ نقص مقدارُه حتّى صار نحوَ شِبر[1]، وهو علىٰ ذٰلك إلىٰ الآن . ويزيد ذٰلك وينقصُ بٱعتبار قَطْع الورق فإنه فى القَطْع الكبير يكون الوصلُ أطولَ منه فى القطع الصغير .

(١) لعله نحو "نصف شبر" كما لايخفى .

الرابع — ما بين الأسطر فى مَتْن الولاية . وهو علىٰ مقدار النِّصف من بيت العلامةِ فى القطع الكبير والقطع الصغير ، لا يكاد ذٰلك يختلف إلا فى التَّواقيع والمَرَاسيم التى هى علىٰ هيئة أوراق الطريق ، والتى علىٰ ظُهور القِصَص فإنَّ ما بين السطرين منها يكون متضايقًا حتّٰى يكونَ بقدر ثلاثةِ أصابعَ مطبوقةٍ .

الخامس — مابين أسطُر اللَّواحِق فيما بعدَ «إن شاء الله تعالىٰ» فإنه يكون مابين كلِّ سطرين من ذٰلك قدرُ نصف مابين السطرين فى مَتْن الولاية ، إلا فى المستَنَد إذا كان سطرين ، مثل أن يكون برسالة الدَّوادار ونحوها ، فإنَّ السطرين يكونان متلاصقين .

السادس — ما بعدَ اللَّواحق فى آخر الكتاب ، وهو قدرٌ يسيرٌ يكون قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثةِ أصابعَ مطبوقاتٍ وما قارَبَ ذٰلك .

المَهْيَع الثانى

(فى ذكر نُسَخ مما يُكتب فى مَتْن الولايات من التقاليد والمَراسيم المكَبَّرة والتفاوِيض والتَّواقِيع)

قلت : وقد كنتُ هَمَمْت أن أجعلَ ٱبتدا آتِ التقاليد ، والتفاويِض ، والمَراسيم ، والتواقيع : من الافتتاح بـ«الحمدُ لله» أو بـ«أما بعد حمد الله» أو بـ« رُسِم بالأمر الشريف» فى فصلٍ مستقِلٍّ ، ومقاصدَها المتعلقةَ بالوظيفة ...(١) ... ... الكاتب الذى لا يحسن الانشاء ما أحب من الابتدا آت المناسبةِ للاسم أو اللَّقب ونحوهما ثم يبيِّن القصدَ المتعلق بالوصف . ثم أضربت عن ذٰلك وأتيت بالنسخ علىٰ صُورتها لأمور : منها — أن فى تضييع النسخة إفسادًا لصُورتها وضَياعَ فضيلة المنشئين

(١) بياض بالأصل فى غير نسخة ولعله «فى فصل علىٰ حدة ليختار الكاتب الذى لا يحسن الإنشاء ما أحب الخ» .

وإشاعة ذكرهم . ومنها ـ أن يعرف أنّ الصورة التى تُورَد مما كُتِب به فى الزمن السابق ، وأنها مصطَلَح قد آصطَلَح عليه أهلُ ذٰلك الزمان . ومنها ـ أن يَعرِف المنشئ ترتيبَ من تقدّمَ لينسُجَ علىٰ مِنْواله . وإذا أراد من لادُرْبَةَ له بالإنشاء أخذَ تحميدة من تقليدٍ أو توقيع وغيرهما ونقلها إلىٰ مَقصِد من مقاصد الولاية لم يُعْجِزه ذٰلك .

ثم قسمته علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(ولاياتُ وظائف الديار المِصرية ، وهى علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(الولاياتُ بالحضرة ، وهى علىٰ ستة أضرب)

الضرب الأوّل

(ولايات ارباب السيوف ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(ذواتُ التقاليد ، وهى ثلاثُ وظائفَ)

الوظيفة الأولىٰ

(الكَفَالة ، وهى نِيَابة السلطنة بالحضرة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائفِ المملكة فى المقالة الثانيةِ أن الكَفَالة هى أعلىٰ رُتَب نيابة السلطنة ، وأنّ النائبَ الكافلَ يحكُم فى كل مايحْكُم فيه السلطانُ ، ويُعَلِّمَ فى التقاليد والتواقيع والمَنَاشير وغير ذٰلك ، بخلاف غيره من النوّاب فإنّ كل نائب لا يعَلِّمَ إلا علىٰ ما يختصّ بخاصّةِ نيابتِه . وقد تقدّم فى مقدّمة الولايات أنّ لقبه «المَقَرّ الكريم» علىٰ ما آستقرّ عليه الحال .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفالة السلطنة، كُتِب بها من إنشاء الشّهاب محمود الحلَبيّ رحمه الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل رُكْنَ الدولة فى دولتنا القاهرة ثابتَ القواعد، علىٰ فَرْقَد الفَرَاقد، راقيًا فى رُتَب العُلوّ الآخذة من أُفُق التأييد بالمَطَالع ومن نُطُق العزّ بالمَعَاقد، حاليًا بعُقُود المَهابة التى لا تزالُ لرُعْبِها على الأعداء طلائعُ خيلٍ فى المَرَاقب وروائعُ خَيَال فى المَرَاقد، حاويًا من أنواع المفاخر ما لو كاثرتْه الدَّرارىُّ غدتْ وهى لمجموعه فَرَاقِد، أو فاخرتْه الدُّرَر ثقَّبتها الأفكارُ النواقد، مقلَّدا من سُيوف الظَّفَر مالا تَنْبُو فى نُصْرة الإسلام مَضَاربُه وكيف تَنْبُو وأوامرُنا لعقود حمائلها على عَوَاتق مَجْده عَوَاقد .

نحمده على نِعَمه التى عدقتْ أمورَ دولتنا بمن يرفع بأسُه منارَها، وعقدتْ قواعدَ مملكتنا بمن يُوالى فضلُه أنوارَها، وعضَدتْ هِمَمَ أوليائنا بمن إذا تخيَّلتْ أعداءُ الدين مواقعَ صَوارِمه كان أمنعُ صونِها إسارَها وأنفعُ سِلاحها فِرارَها .

ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُشْرِق الهِمَمُ بلوامعها، وتَشْرُفُ الكَلِمُ بجوامعها، وتزكو الأُمَم بما تنقُل الألسنةُ منها عن القلوب إلى مَسَامعها؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أقامنا اللهُ لنَصْر دينه، وألهمَنا تفويضَ مصالح أمّتِه الى كلّ ولىّ ما رُفِعتْ رايةُ نَصْر إلا تلقَّاها عَرَابةُ مجده بيمينه؛ وعضَدنا فى جهاد أعدائه بأعزِّ صفىّ ينُوب بأسُه للجيش عن طليعته ويقوم رأيه فى الحرب مَقَامَ كَمِينه؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آختارهم لصُحْبته وآرْتضاهم، وأرْهفَهُم لإقامة ملَّته وآنتضاهم، فمنهم من فاز بمزيَّتَىْ سَبْقِه وتصديقِه، ومنهم من كان الشيطانُ يُنكِّب عن طريقه، ومنهم من آختار الشهادةَ علىٰ الآنتصار بفَرِيقه

ورَفيقه، ومنهم مَنْ أقامه بشَرف الأُخُوَّة معـه مُقامَ شَقيقه، صلاةً يبلّغه إخلاصُ مُقيمها، ويُعرَضُ عليه إيمانُ مُديمها، وسلم .

أما بعـدُ، فإنا من حينَ أورَثنا الله مُلْكَ الإسلام لاعن كَلَاله، وألبَسنا فى مَواقف الذَّبِّ عن دينه حُلَلَ العزِّ المُعْلَمَةَ بالجَلَالة ، ومكَّن لنـا فى أرضه، وأنهضَنا بمسْنُون الجهاد وفَرْضه ، ونَشَر دعوةَ مُلْكنا فى طُول الوجُود وعَرْضه ــ لم نَزَلْ نرتادُ لكَفَالة المَمالك الإسلاميَّة من تأْوِى منه إلىٰ رُكْنٍ شديد، ورأيٍ سديد، وحَزْمٍ يقَرِّب من مَواهب النصر كلَّ بعيد، وعَزْمٍ إذا أرهفَ صوارِمَه من أدْنىٰ الصَعيد، وجفَ لهَوْل مواقِعِها بابُ الحديد، فهو المطوِىّ فى أثناء ضمائرِنا و إن تقلدنا قبْلَه سِواه ، والمنْوِىّ فى أحناء سرائرِنا و إنَّمـا لأمرئٍ مانَواه، قد حلَبَ قِدمُ هِجْرته، الدَّهرَ أشْطُرَه، وكتب حُسْنُ خِبْرته، من عُنْوان السِّـيَر أسطُرَه، وتمثَّلتْ مرْآة الزمان لفِكْرِه فاجتلىٰ صُوَر الوقائع فى صَـفَائها، وتردّدَتْ تجارِبُ الأمم علىٰ سَمْعه فعـلِم ما يأتى وما يَذَر فى تَرْكها وآقتِفائها، وآستقبل دولَةَ أسلافنا الشريفةَ من فواتحِها : فكان لسانَ مَحاسنها، وبَنَان مَيامِنها، وخِزانةَ سرِّها، وكِنانةَ نَهْيِها وأمرِها ، وطليعةَ تأييدها، وذَريعةَ أوليائها إلىٰ عوارفها وجُودِها، وعُنْوانَ أخبارِها، وعِنَان سَوابقِها التى لا تُدْرِك مآثِرَ من سـلَف شَقَّ غُبارها، ويمينَ قَبْضَـتِها المصرَّفة بين البأس والنَّـدىٰ، وأمينَ آرائها المؤيَّدة بالتوفيق اللَّدُنِىِّ علىٰ العِـدا ، ورُكْنَها المُشَـيَّد بالأَسَل وهو ما تُبْنىٰ عليه المَمالك، وحصْنَها المصفَّح بالصِّفاح فلا تستطيعُ الأهواءُ أن تتوقَّل إليه تلكَ المَسالك، وزعيمَ جيوشِها التى آجتنَتْ من قَصَب قَواضِبه ثمر النَّصْر غيرَ مَرّه، ومقدَّمَ عساكرها التى آجتلَتْ به وجُوهَ الظَّفَر الحلوةَ فى أيَّام الكريهة المُرّة .

ولما كان المقرّ الكريم (الفلانى) هو معنى هذه الصفات المُبْهَمه، ومَبْنى هذه القواعد المحكَمه، وطِرازَ حُلَل هذه الأحوال المُعْلَمه، وسرَّ المقاصد الظاهره، وسِلْك هذه [النجوم] الزاهية بل فَلَك هذه الدَّرارِىّ الزاهره، تُحلِّق صَوادِحُ البراعة، فتقع دُونَ أوصافه بمراحل، وتغوص سوابحُ اليَرَاعة، فيُلقيها العجْزُ عن آستخراج دُرَرِ نُعُوته بالسَّواحل، فأوصافُه تُذْكَر على وجْه الإجمال لضيق نِطَاق الفَصاحة عن تفصيلها، ومناقبُه تُشْكَر بلسان الإجماع لعجز ألْسِنة الأقلامِ عن بُلُوغها إلى غايتها ووُصُولها؛ فلذلك آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُفْسِح مجالَ الهدى، بتفويض إيالة الممالكِ إليه، وأن نَقْطَع آمال العِدا، بالآعتماد فى زَعامة الجيوش الإسلاميَّة عليه، وأن نُقِرّ عيونَ الرَّعايا بإلقاء مَقاليدِ العَدْل والإحسان إلى يدَيْه، وأن نصُونَ عقائلَ الممالك من مَهَابته بمـا يغدو سُورا لعَوَاصمها، وسِوارًا لمَعاصِمها، وشَنَبًا تفترّ ثغُورُها عن بُرُوقه، أو لَهَبا يقْطَع طَريق أملِ العِدَا عن تخيُّل خَيالها فى طُروقه، : ليعتضِدَ الدِّين منه برُكْنه، ويتغلَّب [على] الشِّرْك فى حالتَىْ حَرْبه ووَهْنه، ويتقلَّب كلٌّ من رعايانا بينَ وِهَادِ يُمْنِه ومِهادِ أمْنِه - رُسِم بالأمر الشريف - لا زال مُلْكه علَى الأركان، راقيًا من أُفُق النصر إلى أعلى مَكانةٍ وأرفع مكان - أن تُفوَّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالديار المصريه، والممالك الإسلاميه، على أكملِ العَوائد، وأجمل القَواعد، تفويضًا تَمضِى أحكامُه فى الممالك الإسلامية شرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُربا، فلا يخرج منها شىءٌ عن أوامره وأحكامِه، ولا يُعْدَل فى سِلْمها وحَرْبها عن حُكْمَىْ سُيوفه وأقلامِه .

فليَستقِرّ فى هذه الرُّتْبة العالية آستقرارَ الأركان الرَّوَاكِد، والأَطْوادِ اللَّوابث، والأُصُول النَّوابت، والنجوم الثوابت، مؤثِّلا قواعدَها برأيه السديد ورايته، معوِّذًا كمالَها بسيف النصر وآيتِه، مبتدئًا فى إعلاء منارِها من العدل بأقصاه

ومن الإحسان بغايته ، مكثرا أعدادَ الجيوش الإسلامية برأيه السعيد ، مقرّبا من مَطامح النَّصر النائية كلَّ بعيد ، مُوكّلا بحركات العدوّ وسكناته جفنًا لا يألف الغرار (١) ، وسيفًا لا يعرف القرار ، وعزمًا لا يرضى من عدوه دون اصطلامه الفرار ، فلا تزال جيوش الإسلام بجميل تعاهده مُزاحة العوائق ، مُزالة العلائق ، لامانعَ لها عن الركوب ، ولا قاطعَ عن الوُثوب ، قد أعدّتها عزائمُه ، فكلُّ زمانها بالتأهّب للّقاء وقتُ إمكانه ، وأمدّتْ بأسها صوارمُه ، فهى لاتسأل عن عَدد عدوّها بل عن مكانه ، مقيمًا منارَ العدل الذى هو أساسُ المُلك ودِعامتُه ، ورأسُ الحكم بأمر الله فى خَلْقه وهامتُه ، ونَوْرُ الخِصب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامّته (٢) ، ناشرًا له [فى] أقطار الممالك ، ماحيًا بنُور إقامته آيةَ ليل الظُّلم الحالك ، معاضدًا أحكامَ الشريعة المطهّرة بالانقياد إليها ، والاعتمادِ فى الحَلّ والعَقْد عليها ، والاحتفالِ برَفْع منارها : فإنّ ذلك من أفضل ما قدّمته الدولُ الصالحةُ بين يدَيْها ، مقدّمًا عمارةَ البلاد على كلّ مهمٍّ : فإنها الأصل الذى تتفرّعُ عنه المصالح على افتراقها ، والمادّةُ التى تستطيل الجيوش الإسلاميّة على العدا بتوسعها فى إنفاقها وإنفاقها ، والأسبابُ التى تُعين الغيوثَ على نماء ما بَسط الله لعباده من أرزاقها ، وآكدُ مصالحها الرِّفق الذى ما كان فى شىء إلا زانَه ، والعدل الذى ما اتّصف به مُلكٌ إلا حفظه وصانَه ، فقد جعلْنا أمره فى ذلك جميعه من أمرنا المُطاع ، واقتصرْنا عن ذكرِ الوصايا بما فى خصائصه الكريمة من حُسْن الاطّلاع وجبل الاطّلاع ، واكتفينا بما فى خلائقه الجميلة من محاسنَ لو تخيَّر نفسَه لم يزدْها على ما فيه من كَرَم الطِّباع ، والله تعالى يؤيّده وقد فَعل ، ويجعل رُكنه من أثبتِ قواعد الدِّين وقد جعلْ ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) الغِرار النوم القليل أو القليل من كل شىء . انظر اللسان ج ٦ .

(٢) العامة قُبَض الحَصَد إذا اجتمعت بعد حصدها وجمعها عام . كذا يؤخذ من اللسان .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى زانَ دولتَنا القاهرةَ من حُسامِها بتقليـده، وصانَ حِمىٰ ممـالِكنا الشريفةِ من أوليائنا بمن تَغْدُو مواقعُ سيوفه من كل عدُوّ قلائدَ جِيده، وزاد جَلالةَ الملك بمَنْ إذا ركِب فى مَواكِب نِيابَتِه أوردَ جِيـادَ رُعْبه من كل مُتَوّج من ملوك العدا مَنـاهلَ وَريده، وفوّضَ تقدمة جُيوشنا المنصورةِ إلىٰ مَن تُضاعِف مهابَتُـه فى عُيون العِـدا عدَدَ جنُوده، وتغزُوه سرايا خَيْله فى يَقظته وتطْلُع عليه طلائعُ خَيَاله فى هُجُوده، وإذا صَلَّتْ سيوفُه فى مَوْقِف وغًى أغرتْ رأسَ كلِّ مستكبِرٍ لم يعْرِف الله قبلَ رُكوعه بسُجُوده؛ مُشَرِّف أقدار أوليائنا من المَراتب بما تَشْرُف به أقدارُ المراتب فى نفسِها، ومفَضِّـل ايام دَوْلتنا علىٰ الدُّوَل بمـا ألِفتْه من جلالة مُلْكنا فى أمْسِها، ومُجَمِّلِ سـيْرِ أصفيائنا من المَعْدَلة بمـا إذا غرسَتْه فى قلوب الرعايا كان الدعاءُ الصالحُ ثمرةَ غَرْسِها، ومقَلِّد خواصِّنا من إيالة المُلْك ما إذا خطَبتْ به الأقلامُ علىٰ منابِر الأنامِل نَقلت البلاغةَ فى تلك الأوصاف عن قُسِّها، ومُفيض حُلَل الأنباء المرقومةَ بأسْنىٰ الرُّتَب علىٰ منْ إذا زانَتْ حِبَرُها اللابسَ زانَهـا بلُبْسِها، وإذا أشرقتْ به هالةُ المواكبِ لوغًى سقطَتْ فوارسُ ملُوك العِدا عن مَراكبِها واضطربَت الأسِرَّةُ بملوك فُرْسِها، وإذا كتمتْه الأعداءُ أنباءَها نطقَت ألسنةُ رِياحه بأسرار أهل الشرك ولا يُرىٰ أسْمَعُ من صُمِّها ولا أفصحُ من خُرْسِها، وإذا تطاولتْ أبطالُ الوقائع لِلقـائه اقترَنَتْ ثغورُ سُيوفه عن شَنَب النصر لإلْفِها بمعانَقة الأعناقِ وأُنْسِها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى أعادتْ شرفَ أسمائنا إلىٰ أسمـاع المنابر، وأنطقت بمضاعفة الأنباء لأوليائنا ألسِـنةَ الأقلام فى أفواه المحابر، وأعادتْ بسيف النصر حقوقَ مُلْكنا الذى تلقَّيناه مع الأوّلية والأولوية من أسلافنا الكرام كابرًا عن كابر .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً لا تزال سيوفُنا بإعلاء منارها ناهضَه، وجيادُ جهادنا لنَشْر دَعْوتها فى الآفاق راكضه، ومواد نِعَمنا ونِقَمِنا لآمال حامليها باسطةً ولأرواح جاحديها قابضه، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أيده الله تعالىٰ بنَصْره، وآتاه من معْجزاته مايَحُولُ البصر دُونَ حَصْره، وجعله أمامَ الأنبياء وإمامَهم مع تأخُّر عَصْره، ونَصَره بالرُّعب الذى زحْزَح كلَّ مَلِكٍ عن سريره وأنزل كلَّ متوَّج من قَصْره، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين هجَروا فى نصرته مألُوفَ الأوطان والأوطار، وركِبُوا فى إقامة مِلَّته، مَخُوفَ الأهوال والأخطار، وفتَحُوا بيُمْن دَعْوته، ما اشتملتْ عليه المَشارقُ والمغارِبُ من الأرجاء الممتدَّة والأقطار، صلاةً لا يزال سيفُ جِهادِنا لدوامِها مُقيما، وحكْمُ جِلادِنا لإقامتها مُديما، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من سَمَتِ التقاليدُ بأوصافه، وصُرِّفتْ أمورُ الممالك بين بأسه وإنصافِه، وحُلِّيت مواقفُ الخدمة الشريفةِ من جواهر مَهابته، بما هو جديرٌ بحِلَى السيف، وزُيِّنت مجالسُ العدل من إبانته، بما هو مبرَّأٌ من المَيْل والهوىٰ منزَّه عن الظلم والحَيْف، ومُلِئت القلوبُ من مَخَافته، بما يمنع ذا القُوّة فى الباطل من توهُّم البطش وذا الصَّبْوة فى الهوىٰ من استزاره (؟) ويُحَسِّن لها الفِرار، ويهوّنُ عليها فى جَنْب ما تتوقَّعُه من مواقع سُيوفه السَّبْىَ والإسار، وعُدِق به من مصالح الأقاليم ما يصرِّفه بيمينٍ دأْبها اليُمْنُ ويَسار شأنُها اليَسار، وفُوِّضتْ زعامةُ الجيوش منه إلىٰ هُمَام يقوم بأمرها علىٰ ما يجب، ولَيْث لو لم ينهَضْ بأُلوفها المؤلَّفة فى الوقائع لكان من نَفْسه وحْدَها فى جَحْفل لَجِب، ومِقْدام آلافُ العِدا فى شجاعته آحاد، وضِرْغامٍ قَسْور أهلِ الكفْر بين يدَىْ وَثَباته وثَباته وأُسُودُهم تُقاد، من لم نَزَل نعُدُّه فى أركان البيت الشريف المنصورىّ بالخناصر، ونُعِدُّه للمواقف التى ليس للدين فيها غير تأييد

اللهِ وحدَّ السيفِ ناصر، ونَدّخرُه من معَادن أوليائنا الذين تمسّكُوا من الانتماء إلينا بأمْكَن الأسباب وأقوىٰ الأوَاصِر، ونقلِّد أعطافَ الأواصر منه سيفًا يُرمىٰ منه بيْتُ العِدا ومعاقلُهم بأفتك حاصِدٍ وأفَلّ حاصِر، فكَمْ من مواقفَ شَفَع فيها الشجاعةَ بالخُضوع لربِّه، ومواطنَ لِبس فيها قلْبَه علىٰ الدِّرع إذا لَبِس غيرُه الدِّرعَ علىٰ قلْبه؛ ومسالكَ سلكها فى طاعة الله وطاعتِنا والسيُوفُ تنفِر من قُرُبها، ومشاهدَ شهِدها فى طاعة الله وطاعتنا والقلوب تفِرّ من حُجُبها، وليَالٍ قطعها فى خدمتِنا لم يصْحَبْ غيرَ ألسنة أسنَّته وأعيُنِ شُهُبها؛ ومقاصد للدّين بلَغها والسِّهامُ لاتحمِلُها من الفَرَق قوادِمُ النُّسُور، وسَرايَا وقف بينها و بين العِدا فضُرِبَ بينهم من شجاعته بِسُور، وبِحارِ حْربٍ لم تتجاسَر السوابحُ علىٰ قطْعها حتّىٰ مدّ عليها من مُعْوَجَّات سيوفه قناطرَ ومن مُقَوَّمات ذَوابِلِه جُسُور، وكم أنامَ الرعايا فى مِهادِ عَدْله فلم يطْرُقْهم طَيْفُ ظالم فى الكَرا، ولا رَوَّع سِرْبَهم خيالُ مُغير أوهَمّهم السُّرىٰ؛ بل كانوا محفوظين بمهابته محفُوفين بمواهبه، وادِعين فى ظلّه الذى مادَجا عليهم ليلُ خَطْب إلا أطلع لهم بُدورَ الأمن فى غَياهِبِه.

ولما كان (فلان) هو الذى سار بذِكْر مهَابته المَثَل، وصار له فى قلُوب الأعداء من الرُّعب ماتَشابه فيه القاتِلانِ الوَجَل والخَجَل، وجمع محاسنَ الصفات فما أخذ عنه أو نُطِق به أو نُظِر إليه إلا وُجِد (مِلْءَ المَسامع والأفْواه والمُقَل)؛ ولا جَرَّد علىٰ العِدا سيفا إلا ودّعتْ أرواحُهم الأجساد، ولا أرْهَفَ فى مجالس العَدْل والإحسان قلَما إلا وضمِنتْ له الآجامُ التى نشأَ بها(كَرَم السُّيُول وسَطْوةَ الآساد)؛ ولا طلَع فى أُفُق مواكِبَ إلا وهالتِ العِدا هالةُ بَدْره، ودلَّت علىٰ عِظَم سلطاننا رِفعةُ قَدْره، وشهِدت له بحُسن طاعتنا طاعةُ أُمرائنا لأمره؛ وأسلَف من خدْمة والدنا السلطان الشهيد ما لم تزَلْ له به عندنا حقوقٌ مرعيّه، وسوابقُ مرضيّه،

ورتبةُ تقديم سنِيّه، ومزيةُ تقريبٍ جعلته مُشاهَدا بالعِيان مقدّما فى النيّه — آقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُروِّع العِـدا بسيفه، ونُريهم من تقدمتِـه على الجيوش يقظةَ ما كانوا يرَوْنه حُلُمـا من طَيْفه؛ وليعلَمَ الأعداء معاجلةَ أخذهم بالعُنُف والحَيْف، وأننا لا تأخُذُنا فى الله لومةُ لائم فليس بيننا وبين أعداء الله ورسُوله (صلى الله عليه وسلم) إلا السَّيْف .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف — لا زالتْ ممـالكُ الإسلام به مُفْترّةَ المَبَاسم، عالية مدى المَهَابة إذا طَرَقتها عواصفُ رِياح العِـدا وقفتْ دُونَ بُلُوغها دامِيـةَ المَنَاسم — أن تُفوَّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية على العادةِ فى ذلك والقـاعدة تفويضًا يُفيض على الممـالك حُلَل المَهَابه، ويَسْلُب أعداءَ الدين رداءَ الأمن فلا ينفَعُهم الخضُوعُ ولا الإنابه، ويُضاعِفُ لنا أدعيةَ الرعايا الصالحةَ بإجرائهم على ما ألِفُوه من العدل والإحسان فمنهم الدعاءُ الصالحُ ومن كَرَم الله الإجابَةْ .

فليتقلّد هذه الرُّتبة الدالّةَ على آرتفاع قدره لدينا، الشاهدةَ له باحتفالنا بمـا أوجبه إخلاصُه من حقوق الطاعة والولاء علينا؛ المنبِّهةَ على أنه سيفُنا الذى تَصونُ الممالك بحـدِّه، وتَصُولُ على العِـدا بمَضَائه الذى تَهلَّلُ وُجوهُ النصر كلّمـا أسفَرَ من غِمْده؛ وليسـتقرَّ فى ذلك نافذًا فى المصالح الإسـلامية أمْرُه، مُغـيرا على جُيوش الأعداء ذِكْرُه، معمِلةً فى حمـاية الدِّين بِيضُه المُرْهَفَة وسُمْره، مجمِّلةً بإشراق طلعته مطالِـعُ المَوَا كب، مسـيِّرةً نجوم أسِنّته إلى قلوب أعداء الدِّين مَسِـيرَ الكوا كب، مُخفِقةً بخُفُوق رايته مَساعِى الكفر الصادرةِ عن آمالهم الكَوَاذِب، : ليعْلَمَ عدوّ الله أنه أشدُّ طَلَبًا له من أجَله، وألزمُ لعنُقه من عَمَله، وأسبقُ إليه من رَجْع صوتِه، وأنزل عليه من مُفَاجأة مَوْته. وليُجمِل النظرَ فى مصالح الجيوش الإسلامية بما يُضاعِفُ عِدّتها،

ويُبْقى على توالى الأحقاب حِدّتها وجِدّتها، ويأخُذهم بإدامة التمرّن فى الحُروب، وإطالة عِنان التأهّب للرُّكوب، ويُعين كُلًّا منهم بملاحظة حاله على آستدامه قُوّته وإمكانه، ويجعلهم بالاقتباس من شجاعته من القوم الذين لايَسْألون عن عدد عدُوّهم بل عن مكانه. وليُكُنْ لكلمة الشريعة الشريفة رافعا، ولشُبَه من يمتنع عن الانقياد إلى الأحكام دافعا، وعلى يد من يتطرّق إلى الخُروج عن أحكامه آخذا، ولمن لم يسْلُك الأدبَ بين يدَىْ حُكّامه بما يقتضيه تعظيمُ الحكمِ العزيز مؤاخذا. وليأمرِ النوّاب بإقامة منَار العـدل الذى يومٌ منه خيرٌ للأرض من أن تُمْطَر أربعين يوما، ويَصْرِف إلى مَصالح الثُّغور الإسلامية وحمايتها فِكْرا لم يختَرْ دعةً ونظرًا يأنَفُ أن يألَف نَوْما، ومِلاكُ الوصايا تقوى الله وهى من خَصائص نفْسـه الكريمه، وراحةُ رُوحه التى هى للفِكر فى مصالح الإسلام مُديمه؛ فلْيجتهِدْ فى المحافظة عليها ما آستطاع، ويُمْضِ بها فى مصالح الإسلام أمْرَه الذى جعلْناه من أمرنا مُطاع.

✤ ✤ ✤

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، كُتِب به عن السلطان الملك أبى بكرِ آبن الناصر محمد بن قلاوون للأمير طُقُزْدُمُر أمير مجلس، فى سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة، بعد أن بطلَتِ النيابةُ فى دولة أبيه الملك الناصر عِدّةَ سِنين، وهى :

الحمـدُ لله الذى آصطفى لسلطاننا المنصور مَنْ ينُوب عنّا فى رعاية الجمهور أحسَنَ منَاب، وأضفى على مُلْكنا المعمور من رياسته أسرَّ سربال ومن حراسته أجَلَّ جِلْباب، وكفى دولتَنا الشريفة بسياسته مُهِمّاتِ الأمور فلتأْييدها بقيامه دوَام ولتشييدها باهتمامه آستِصْحاب، وشفَى الصُّدور بصُـدُور إشارته المباركة التى لهـا بأوامرنا العالية آقترانٌ ومن ضمـائرنا الصافية آقْتِراب، وأوفى له من برّنا العميم بحقه

الذى [له] بعهْده آستحقاقٌ للتقـديم وإيجاب ، وسبْقِه القديم الذى له من سَعيد المصاهرة أكرمُ آتّشاج ومن حميد المُظاهرة ألزمُ آنتساب .

نحمدُه على أن بصَّر آراءَنا بطُرُق الوِفاق وسُبُل الصواب ، ونشكره علىٰ أن نَضَّر راياتنا فى الآفاق : فلقُلوبِ العِـدا من خَوْفها إرهاق وإرهاب .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً منزَّهة عن الشّكّ والأرتياب، موجَّهةً إلىٰ قِبْلتها التى ترضاها الألباب؛ ونشهَد أنّ سـيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظفر عَزْمَه بالثّبات وقَهر خصمَه بالتّباب، ووَفَّر قِسْـمه من الإنجاد ويَسَّر حِزْبه للإنجاب ، وأظهر آسْمَه بعد آسْمِه فخلا فى الأفواه ذِكْرُه وطاب . صلى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين سلكُوا من بعده فى رعاية عهده أحسَنَ الآداب ، صلاةً متصلةَ الأسـباب، موصِّلةً إلىٰ خيرِ مآلٍ متكفِّلةً بنِعَم باب (؟) لا يزال لسُحُب جُودها فى الوُجُود آنصباب ، ولمقْتَرِب وُفُودها وُرُود إلىٰ مَظانّ الرِّضوان من غير إغْباب ، ما جَرَّد آنتقامُنا علىٰ الأعداء سـيفَ سطًا يقُدّ الرِّقاب، وأوردَ إنعامُنا الأوليـاءَ بحرَ نَدًى زاخرَ العُباب ، وجدّد قيـامُنا بعلم هُـدًى مرّتْ عليـه الأعوامُ وما لُمِح له أثَرٌ ولا فُتِح له باب، وآعتمَد مَقامُنا الشريفُ، فى الجمع للقـلوب والتأليف، علىٰ أعلىٰ ولىّ وأعلىٰ جَنَاب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ، فإنّ أولىٰ من آعتمَدْنا فى الإنجاب والإنجاح علىٰ ديانته ، وآنتجدنا فيما أردْنا من الأستصحاب للصَّلاح بإعانته ، وآعتضَدْنا فى تقطين الممالك وتأمينِ المسالك بصِيالَته وصيانَته، ورعينا عنـدَ والدنا الشهيد ـ سـقَى اللهُ عَهْده صوبَ الرِّضوان ـ علىٰ عُلُوّ مكانه ودُنُوّ مَكانَتـه ، فاكتفيْنا فى كَفَالة الأُمّة وإنالة النِّعمـة بخشيتِه من ربِّه واستكانَتِه ـ من حُمِدت سَجَاياه، وتعدّدتْ مَزَاياه ، واستَنَدت

إلىٰ ما أمر اللهُ تعالىٰ به من العدْل والإحسان فى الأحكام قَضَاياه ، ووجَدَتْ منه الزُّهدَ والرِّفق رُعاةُ الإسلام ورَعاياه ؛ فهو الممدوحُ فعلُه ، من جميع الألسنه ، الممنوحُ فضلُه ، فى سائر الأزمنه ، الملموحُ عليه آثارُ القَبُول الظاهرِ من عناية الله لما نَواه من الخير لخلق الله وأبطَنه ؛ فهو عاضدُ السلطنة الذى حَلّ من العَلْياء مَوْطنه ، وكافلُ المملكه ، الذى سَبَق إلىٰ كلّ مجد فأدْركه ؛ وسيفُ الدوله ، الحامى الحَوْزة البادى الصَّوْله ؛ ومَنْ له آشتمالٌ علىٰ العَلْيا ، ومن يقارِنُ التحقيقُ له رأيا ، ولا يباين التوفيقُ له سَعْيا ، ويُعاون الهدىٰ والنهىٰ علىٰ طُول المَدىٰ له أمرا ونَهْيا ، ويُعاين الورىٰ لسلطاننا المنصور منه مَهْدِيًّا يُجْمِل لدولتنا حِفْظا ويُحسن لمُلْكنا رَعْيا .

وكان فلان هو الذى لم يزَلْ متعيِّن المَحاسن ، متبيِّن المَيَامن ، متمكِّن الرِّياسة فى كل الأماكِن ؛ فحِلْمُه إذا اضطَربت الجبالُ الرَّواسى ثابتٌ ساكن ، وعِلْمه الزائدُ بأوضاع السِّياسة وأنواعِ النَّفاسة للوُجود من بَهْجته زائنٌ ، ورأيُه الصائبُ للبلاد والعِباد صائِن ، ورَعْيُه لخلق بالحق : القويُّ منه خائفٌ والضعيفُ إليه راكن ، وبِشْره هادٍ للرائى وبادٍ للعاين ، وذكْرُه الجميلُ سائرٌ فى الآفاق والأقطار والمَدائن ؛ حتّىٰ أظهر الله تعالىٰ بإمداد نَيِّرنا الأعظمِ من إشراق بَدْره الكامل ما هو فى سرِّ الغيب كامِن ، وشَهر سيفَه الذى يغدو الإيمانُ من مَهابته فى كَنَف منيعٍ وحَرَمٍ آمِن .

ولما مضَتْ علىٰ مَنْصب النيابة الشريفةِ فى أيَّام والدنا الشهيدِ بِضْعُ سِنين ، وآنقضَت الأيامُ والليالى والدهرُ بمَوْهبَتها ضَنِين ؛ ولا وُطِيتْ لها رَبْوه ، ولا آمتُطيت لها صَهْوه ، وكانتْ فى سِلْك مُلْكه مندرجه ، وبصَفْو سلطَته ممتزجه ؛ إلىٰ أنْ قضىٰ عليه الرِّضْوانُ النَّحْب ، وأفضىٰ من الجَنان إلىٰ المَحَلّ الرَّحْب ، رأينا بعدَه بمَنْ كان يَحقَّق وُدّه أنْ نَستأنِس ، وأمضينا وصيَّته المباركة فى آختيار ثمرةِ الإخلاص بمن

كان له الاختصاص يَغرس ، وأفضينا إليه بالمَناب عنّا لما كان من أنوار والدنا الشهيد فى كل تسديد يقتبس ، ومن الاستئثار بمجالسته يفوز فيحوز حكم الحَكَم لأنه كان أميرَ ذلك المجلس ، وقضيْنا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف : لأنه الخبير الذى لا يَنْبهم عليه شىءٌ من خَفَايا القضايا ولا يَلْتَبِس — اقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف إلقاءَ ما فى أيْدينا من مقاليد الممالك إلىٰ يَدِه ، وإبقاءَ وديعةِ هذا الأمرِ العظيم إلىٰ صَوْنه وعَونه وتشَدُّده ، وإيفاء جَنابه إلىٰ حميد هذه الغايةِ التى هى للمناسبة مناسبةٌ لسُؤدَدِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف — لازال يجمعُ شَمْلَ الإسلام بتعيُّنه وتفرّده ، ويرجعُ أمرُ الأنام منه إلىٰ مأمون الرأى رشيدِه سَفَّاح السَّيف مهنَّده ، منصورِ العزم مؤيَّده ، ويُوسِع الخليقةَ إذا وليهم بالرأفة والرحمة ومَنْ أولىٰ من أبى بكر بأن يَخُصَّ أصحابَ محمد عند الخلافة بإعذابِ مَنْهَل الجُود ومَوْردِه — أنْ تفوَّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية — أعلاها الله تعالىٰ — نيابةٌ شاملةٌ مُحيطه ، كاملةٌ بَسيطه ، تعنى كلَّ أمير ومأمور ، وتُدْنِى أمرَها الذى يعامَل بالإجلال ويقابَل بالسُّرور ، برًّا وبَحرا ، وسَهْلا ووعْرا ، غَوْرًا ونَجْدا ، بُعْدا وقُرْبا ، شرقا وغربا ، وما منحه الله تعالىٰ لوالدِنا الناصرِ من الممالك ويُدَّخر لسلطاننا المنصورِ ويُخْبَىٰ : تستوعبُ أمرَ ما نأىٰ من هذه الأقاليم ودَنَا ، وتجب طاعتُه فيها علىٰ كلِّ من كان مؤمنًا ، ويمتثل فى ذٰلك كلِّه أمرُه ، وتعمَل فيه الرويَّة فيجْمُل فكرُه ، ويُؤمَّل فيه فتحُه ونصرُه ، وينقل به مدْحُه وشُكرُه ، ولا ينفصل منحُه وبِرُّه ؛ ناظرا فى هذه النيابة الشريفة بفكره التام ، سائرا فيها السيرَ الجميلَ من الدُّرْبة والإلهام ، ناشرًا ظلالَ المَعْدَلة علىٰ مَنْ سار أو أقام ، مظاهرًا بجنابه منا أجلَّ مَقام . ونحن وإن كنا نتحقق من خلاله الحُسْنىٰ ، كلَّ وَصْف يُسْنىٰ ، ونثق منه بذى الصدر السليم الذى هو علىٰ

المقاصد يُعَان وبالمحامد يُعْنىٰ ، فلسنا نُخِلُّ بالوصية التى نَعْلم أنَّ له عنها ٱستِغْنا ؛ ولكننا لا نَتْرك بها التبرُّكَ ولا نَدَع ماسنّ الله تعالىٰ منها وشرع ، ولا نُغْفِل ، مايجب به أن يحتَفَل ؛ فقد وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمضىٰ أمره المسموعَ كلَّ ذى رجُوع إلىٰ الله تعالىٰ منهم وإنابَهْ ؛ فقد أولاه الله تعالىٰ كلَّ جميل قبل أن ولَّاه ، وحلَّاه بالسِّمات والمَكْرُمات قبل أن رَفَع عُلاه ؛ واعطاه ما أرْهَب العِدا من سَطَاه ، وهداه إلىٰ كلِّ رُشْد تأتمّ به الهُداه .

فأهَمُّ ذٰلك تقوىٰ الله تعالىٰ وهو عليها مجبُول ، وأمرُها عنده متلَقّىً بالقبُول . والعدْل فهو منه مأمُول ، والاتصافُ بالإنصاف فهو دأبُه فيما يفْعَل ويقُول ؛ والجهادُ : فعزائمه فى مَيْدانه تجُول ، وصوارِمُه بها من قِرَاع فُرْسانه فُلُول . والزُّعماءُ والأكابر فلهم من محافظته اعتناءٌ وبملاحظته شُمُول . والعساكرُ الإسلاميَّة فبتأييده تَبْطِش أيديهم بالعِدا وتصُول . وزعماءُ البلادِ فلهم إلىٰ ظِلِّ رحمته إيواءٌ وبكَنَف نعمته ظُلُول . وممالكُ الإسلام فما منها إلامعمورٌ بما أوَتْه كَفالتُه ماهول ؛ وثُغُوره فكلُّها بَسَّام بفتكاته التى ألقىٰ رُعْبَها فى البحر فهو بيْن كلِّ فاجر وبينَ البحر يَحُول ، وماهو بذٰلك من حَميد المسالك موصُول ، ومحلُّه المقدّم لأنه أهَمُّ الأصول : من إكرام الحُكّام ، وإبرامِ الأحكام ، وٱستيفاءِ الحُدُود ، وٱقتفاء السَّنَن المعهُود : من إنجاز الوُعُود ، وإحراز السُّعود ، والإجهاز علىٰ كلِّ كَفُور وجَحُود ، والاحترازِ من فَظاظة الناس بإفاضةِ الجُود ؛ فكلُّ ذلك علىٰ خاطره مسْرُود ، ولما آثره مَوْرُود ، وفى ذخائره موجُود ، ومن خِبْرته معلومٌ معهود ، وعن فكرته مشهورٌ ومن فِطرته مَشْهود ، فلْيَسَعْ أمرُنا هذا جميعَ الأمراء والجنُود ، وليَرجعْ إليه كلُّ من هو من جملة المِلّة معدود ؛ وليُقابِلْ مرسُومَنا بالسمع والطاعة ، أهلُ السنة والجماعة ، ساعةَ الوقوف عليه وحالةَ الوُرُود ، والله تعالىٰ يُصْلِح ببقائه الوُجُود ، ويَمْنح باهتمامه المقصُود ، ويفتح المعاقلَ

باعتزامه الذى ليس بمردود عن مراده ولا مصدود ، بل يصبح الكفر من خوفه محصورا ويمسى وهو بسيفه محصود ؛ والعلامة الشريفة أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .

***

وهذه وصية لنائب سلطنة ، أوردها فى "التعريف" قال :

يوصى بتقوى الله تعالى وتنفيذ الأحكام الشرعية ، ومعاضدة حكامها ، واستخدام السيوف لمساعدة أقلامها ؛ وتفقد العساكر المنصورة وعرضها ، وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها ؛ والتخير للوظائف ، وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف ؛ والملاحظة الحسنى للبلاد وعمارة أوطانها ، وإطابة قلوب سكانها ، ومعاضدة مباشرى الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها ؛ وتحصين مالديه ، وتحسين كل ما أمره إليه ؛ واستطلاع الأخبار والمطالعة بها ، والعمل بما يرد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسببها ؛ وأنه مهما أشكل عليه يستضىء فيه ، بنور آرائنا العالية فهو يكفيه ، ومن قتل من الجند أو مات وخلف ولدا يصلح لإقطاعه يعين له ليقوم بمخلفيه ، ويقال من هذا مايقوم بتمام الغرض ويوفيه .

الوظيفة الثانيــــة

(الوزارة لصاحب سيف)

واعلم أن أول من أطلق عليه لقب الوزارة فى الإسلام "أبو حفص الخلال" وزير أبى العباس السفاح أول خلفائهم (١) كما ذكره القضاعى فى "عيون المعارف فى أخبار الخلائف" ثم صارت الوزارة بعد ذلك للخلفاء والملوك دائرة بين أرباب السيوف

---

(١) أى خلفاء العباسين .

والأقلام ، تارةً يليها صاحبُ سيف وتارةً يليها صاحبُ قلم ، إلا أنها فى أرباب الأقلام أكثر. وعلىٰ ذلك جرىٰ عُرْف الديار المصرية من ابتداء الأمر وإلى الآن.

ومما يَنَبَّه عليه أنَّ الوزير اذا كان صاحبَ سَيْف ، كان فى مجلس السلطان قائمًا فى جملة الأمراء القائمين . و إذا كان صاحبَ قلم ، كان جالسًا كما يجلس أرباب الأقلام : من كاتب السرّ وغيره .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كتب به للأمير سَيْف الدين بُكْتُمر . وهى :

الحمد لله الذى شدّ أَزْرَ دولتِنا القاهرة ، من أوليائنا بأمضىٰ سيف ، وعضَّد أيامنا الزاهرةَ ، من أصفيائنا بأعدل وَلِيٍّ لا يوجَدُ فى حكمه حَيْف ، وعَدَق تدبيرَ أمورِ ممالكنا الشريفة بمن تَحْجُبُ مهابتُه ذوى الأطماع الطامحةِ عمّا لا يُحب فلا يُلِم بهم فيها خاطر [ولا] يطرُقُهم بها طَيْف ، جاعلِ التأييد لآرائنا مصاحبا ، والتوفيقِ موافقا لأوامرنا التى لا تُهمِل من مصالح الإسلام مندوبا ولا تدعُ من مهمّات المُلْك واجبا ، والإقبالِ تاليًا لمراسيمنا فى ارتياد من يغْدو قلبُ المُحِقّ من حَيفه ساكنًا وقلب المبطل من خَوْفه واجبا ، واليُمْنِ تابعا لاستخارتِنا فى انتخاب من لم يزَلْ فى خدمتنا الشريفة للأدعية الصالحة جالبا ، ولمنافع الإسلامِ والمُلْك طالبا ، ولمضارّهما حاجبا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى عضَّدت أيامَنا بمن جمعَتْ أدواتُه ، رتبَتِى السيف والقلَم ، وعَدَقَت تدبير ممالكنا بمن أحرزت [صفاته] ، مزيّتَىِ العِلْمِ والعَلَم ، وشدّ أَزْرَ دولتنا بمن يُبَيِّضُ بمَعْدلَته من صحائف أيّامِنا ما هو أحبُّ إليها من حُمْر النَّعَم .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نُعِدّها للقائه ، ونتيمّن بها فى افتقاد من نعتضِدُ به فى مصالح أهلها وانتقائه ، ونقدّمُها أمامَ كل أمر ندّخره لاعتلاء ولِيِّنا بالتقىٰ وارتقائه ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أرسله إلىٰ الأُمَم

طُرّا، وخصَّه بالأئمة التى جعَل أمارةَ سبقها إلىٰ الخيرات أنْ غدَتْ محجَّلةً غُرّا، وأيَّده بنصره وبالمؤمنين الذين ما منهم إلا مَنْ أعرَضَ عن زُخْرُف الدنيا وإن كان حُلْوا وقال الحَقَّ وإن كان مُرّا، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين وَلُوا أمته فعدَلُوا، والذين تمسَّكوا بسَنَن سُنَّته فما حادُوا عنها ولا عدَلُوا، صلاةً لا تزالُ الألسُن لإقامتها مُدِيمه، والقلوبُ لإدامتِها مُقِيمه، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإن أوْلىٰ من أبرزت الضمائرُ، فى الآعتضاد به مكنُونَ طَويّتها، وآعتمدت الخواطر، فى تصريح عَلَانِيَتِها بأولويّته لمصالح الإسلام علىٰ نِيَّتها، وتشَوّفت البلاغةُ لرَقْم مَفَاخره، وتنافست المعانى فى تخليد مآثِره، وهَنَّأت المَعْدَلة نفسَها، برافع لوائِها، وأبدت الدولةُ أُنْسَها، بناشِرِ بِرِّها فى الأقطار وآلائِها، وآفترّت ثغورُ الاقاليم المحروسةِ بمن تَلْهَج بمصالحها ألسِنةُ أقلامِه، وآخضَرّت رُبَىٰ آمال الأولياء بمـا يُسْفِر عنه من تهلُّل بهاء غُرَرِ أيامِه، مَنْ هززْنا منه لمصالح الإسلام سيْفا يصِلُ ما أمر اللهُ به أن يُوصَل، ويَفْصِل من مهمّات الممالك مايقتضى الحقُّ أن يُفْصَل، ويُبرِز من معادن العَدْل والإحسان ماهو فى سِرّ خلائقه كامِن، ويُنْزِل من آستقامت سيرتُه فى الحِمىٰ المُخْصِب والحَرِم الآمن، ويصُون الأموالَ بمَهَابته فلا تمتدّ إليها هَوَاجِسُ الأطماع، ولا تجاسَرُ أبصارُ غير الأمناءِ أن تقُصّ نبأَ رُؤْيتها علىٰ الأسماع، ويُضاعفُها بخِبْرته التى تَهْديها الأمانةُ إلىٰ مَعادنها، وتدُلُّـا النزاهةُ علىٰ مواطنها، وتُبْدِى لهـا ظواهرُ الأعمال أسرارَ بواطِنها، ويُعمّر بيوتَ الأموال بعِمارة البلاد، ويُثَمِّر فروعَ الطَّوارف من مصالحها بحِفْظ أصولِ التِّلاد، ويكُفُّ أكُفَّ الظلم عن الرعايا فلا يَخْشىٰ مُحِقٌّ علىٰ حقـه، ولا يخاف مستقيمٌ علىٰ ما قُسِم له من رزْقه، ولا يطمح قوىٌّ إلىٰ من يستضْعف جانبَه، ولا يطمَعُ باغ فى الحيف علىٰ أحدٍ مخالِطَه فى نَسَب كان أو مُجانبَه .

ولما كان الجناب العالى (الفلانى) هو الذى أشير إلىٰ مناقبه ، وٱعتُضد منه بمطيع لله فى السرّ والعلن ومراقبه ؛ وفُوّض تدبيرُ الممالك منه إلىٰ مَنْ لا تأخذه فى الحق لومةُ لائم ، وٱعتمدتْ أيامُنا الزاهرةُ منه علىٰ مَنْ طالما سَرىٰ فى مصالحها علىٰ جِياد العزائم ؛ وشدّ أزْرَ الملك من موازرته بمن يكسو دَسْتَ الوزارة أُبهةً وجلالا ، ويُلبِس منصبها سنًا لو ملكته الشمسُ مارامتْ عن بُروج شَرَفها ٱنتقالا ؛ ويَمُدّ علىٰ الرعايا لواءَ عدل لا يُقلّص له هجيرُ الظلم كما تتقلّص الظلالُ ظلالا ، وتطلع به شموسُ الأرزاق علىٰ أولياءِ دولتنا لكن لا تَرْهَب كالشموس غروبا ولا زوالا ؛ مع مَهابة تُخيف الأُسْد فى أجماتها ، ومعدَلة تُعين الغيوث علىٰ رَفْع مُحُول البلاد ودَفْع أزَماتها ؛ وديانةٍ زانها التُقىٰ ، وخبرةٍ صانها الورَعُ وهما أفضل مابه يُرْتقىٰ .

وكانت الوزارةُ الشريفةُ نظامَ المملكة وقوامَها ، وذِرْوةَ الدولة وسَنامَها ؛ وتاجَ المراتِب وإكليلَها ، وعَتادَ الخزائن الجامعَ دَقيقَ المصالح الإسلامية وجليلَها ـ ٱقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أن تُزيِّن هذه الرتبةُ بجوهر فِرنده ، وأن يصْدُر منصبُها عن مناقبَ لا تصدر إلا عن جهته ومفاخرَ لاتَرِد إلا من عنده ؛ وأن يطلقَ فى مصالحها قلَمه ، ويمضىَ فى قواعدِها إشاراتِه وكلِمَه ؛ ويُطلِعَ فى أُفُقها شمسَ تدبيره ، ويُعْدَقَ به ما يراه فى أمورها من صغير الأمر وكبيره ؛ وأن نجعل مسامعَ الأقاليم علىٰ سَعَتها إلىٰ أوامره ونواهيه مُصْغِيه ، وأن نَصُدّ بسُمْعته عمن بَعُد عوارضَ الإمهال الملهيةِ ومواقعَ الإهمال المُطْغِيه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لازالت سحائبُ برّه مستهِلَّه ، وركائبُ المحامد إلىٰ حرم نِعَمه مُهِلَّه ـ أن تفوّض إليه الوزارةُ الشريفةُ بالممالك الإسلامية علىٰ أكمل القواعد ، وأجمل العوائد ؛ تفويضًا يُعْلى مَرامه ، ويُمْضى مضاءَ ألسنة الأسنة أقلامَه ،

ويبسُط فى مصالح الأقاليم المحروسة يَدَه ولسانَه ، ويلق إليه من مهمّات كلّ قُطْر أزمَّته ليصرِّف علىٰ مايَراه من المصالح عنانَه .

فليستقرّ فى هذه الرُّتْبة السنية ٱستقرارَ الدُّرر فى أسلاكها ، والدَّرارِىّ فى أفلاكها ، نافذَ الأمر فى مصالح شَرْقِها وغربِها ، مُطاعَ القول فى بُعْد أماكنها منه وقُرْبِها ، ناشرًا كلمةَ العدل فى أرجائها ، محققا بالإحسان آمالَ أُمم قَصرت علىٰ كَرَمنا ممدُودَ رَجائها ، مُعْليا منارَ الشرع الشريف بمعاضدة حُكّامه ، والوقوف عند أوامره المُطاعة وأحكامه ، حافظًا أقدارَ الرُّتَب بأكْفائها ، معتمِدًا علىٰ ذَوِى البُيوت المحافظين على ٱتّباع سِيَرِ أسلافهم وٱقتفائها ، معوّلا علىٰ ذَوِى الخِبْرة التامة مع الدِّيانه ، مُراعِيًا مع ظُهور المعرفة جانبَ العِفّة والنَّزاهة والصِّيانه ، مُوكِّلا بمصالح بُيوت الأموال والخزائنِ المعمورةِ موادَّ الأموال ومَعِينِها ، صارفًا إلىٰ عِمارة البلاد جميلَ تدبيرٍ تعتضد البحارُ والسُّحُب منه بمُساعدِها علىٰ رِىّ الأرض ومُعِينِها ، ميسِّرا موادَّ أرزاق خَدَم دولتنا القاهرة وأوليائها بجميل بِشْره وحُسْن رُوائه ، مسهِّلا مطالبَ أرباب الرواتب والصَّدَقات بطَلَاقة وَجْهٍ لو تأمله ٱمْرُؤ صادِى الجوانح لٱرتَوىٰ من مائه ، ليتوفّر أهلُ الوظائف علىٰ خِدَمهم بقلوب منبَسطةِ الآمال ، ويُنَاضِلَ عنها الفقراءُ بسهام[1] الليل التى لا تَطِيش إذا طاشَتِ النِّبال ؛ فقد جعلنا أمْرَه فى ذٰلك جميعه من أمرنا فلْيكْتُبْ يمتَثِلْ ، وليقُلْ فى مصالحنا بما يراه يَسْرِ كلامُه سُرىٰ الرياح ويَسِرْ قولُه سَيْرَ المَثَل ؛ ولا يُمْضَ عقدٌ ولا حَلّ ، ولا ولايةٌ ولا عزل ، ولا رَفْع ولا خَفْض ، ولا إبرام ولا نَقْض ، إلا عن رأيه وإشارته ، وبنَصّ خَطّه وعبارته .

وفى سِيرته السَّرِيّه ، وديانته التى هى من أسباب الهوىٰ عَرِيّه ، مايُغْنِى عن وصايا تُمْلىٰ علىٰ فِكره ، وقواعد تُجْلىٰ علىٰ ذِكْره ، ومِلاكُها تقوىٰ الله : وهى من أخَصّ

(١) المراد دعوات السَّحَر كما لايخفىٰ .

أوصافه ، ونشْرُ العـدل والإحسان وهُما من نتائج إنصاته لأمور الرعايا و إنصافه ؛ لكن علىٰ سبيل الذِّكْرىٰ التى تنفع المؤمنين ، وترفَع درجاتِ المتقين ؛ فليجعَلْها نجيَّ خاطِره، وقِبْلَة ناظِره ؛ والله تعالىٰ يُعْلِي قدره وقد فَعَل، ويجعله من عباده المتقين وقد جَعَل؛ بمَنّه وكرمه . والاعتماد [علىٰ الخط الشريف أعلاه] إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفـــة الثـالثة

(الإشارةُ، وهى وظيفة قد حدَثت كتابتُها ولم يُعْهَد بها كتابةٌ فى الزمن القديم)

وهــذه نسخةُ تقليد أنشأته بالإشارة للأمير جمالِ الدين يوسف البشاسى إستادار فى الدولة الناصرية فرج ، حين فُوّضت إليه الإشارة مضافةً إلىٰ الإستَدَاريَّة ، وكَتَب له به المقرُّ الشمسىّ العُمَرىّ كاتبُ الدَّسْتِ الشريف ، فى شعبان سنة تسع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جدّد للديار المِصريّة بالمحاسن اليُوسُفيَّة رَوْنَق جَمَالها، وأعزَّ جانِبَها بأجلِّ عزيزٍ ملأتْ هيبَتُه الوافرةُ فَسِيحَ مجَالِها، وأسعدَ جَدَّها بأسعدِ مُشيرٍ أدارتْ آراؤُه الصائبــةُ مُتقاعِسَ الأمور مابين يمينِها وشِمالِهــا، وأكرَمَ مآبَها بأمثل كافٍ عاد حسنُ تدبيره بضُروبٍ من المصالح أنامَ الخلقَ فى ظِلالهــا ، وأجاب سُؤْلَهـا بأ كْلَ لم تَعْدل عن خِطْبتها له و إن أطال فى مِطَالهــا .

نحمـدُه علىٰ أنْ أغاثَ الدولةَ القاهرةَ بمن أَخْصَب به بعد الإمحال رَبْعُها، وطال بطَوْله بعد القُصور فَرْعُها ، وحَسُن فى المَنَاظر بحُسن تأتّيه لذى التأمُّل يَنْعُها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له الذى شَرَع المَشُورة وحثَّ عليها ، وعدَق أمورَ السيف والقلَم بها فردّهما عندَ اختلافِ الرأى إليها،شهادةً ترفع قائلَها إلىٰ أسنىٰ المراتب وتُعْليه، وتقرِّب المخلِصَ فى انتحالهـا من مَقام الاستخلاص وتُدْنيه .

ونشهـد أنّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى ورَد واردُ الأمة من مَنْهَـل شِرْعته المطهَّرة ماعَذُب مَشْرَعُه وِرْدا وصَـدَرا ، وٱلتقطت السَّيَّارةُ أحاديثَ فضـله فَصَيَّرتْها للرِّفاق سَمَرا ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تَقَيَّلوا مَساحِبَ أذياله فى العدل فعدَلُوا ، ولَزِموا مَنْهج سُنَنه الواضحَ فما حادُوا عن سَواءِ السبيل ولا عدَلُوا ؛ صلاةً تفوق العَدّ حَصْرا ، وترفَع بركاتُها عن الأمة حَصْرا وتبدِّل العُسْرَ يُسْرا ، فتُعيـد عِجَاف الزمان سِمَـانا وسُنْبلاتِ الوقت بعد اليُبْس خُضْرا ، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنّ للملكة قواعدَ تُبنىٰ عليها ، وأركانا تستَنِد إليها ، ودعائمَ يُشَـدّ بالٱعتضاد بها بُنيانُها ، وعَمَدا يعتمِد عليها فى المهمَّات سلطانُها ؛ وهـذه المَبَانى وإن ٱتَّسع نطاقُها ، وٱمتدّ بامتدادِ المملكة رُواقُها ، فإنّ بالسيف والقلم قِوامَها ، وبالتعلّق بحبالهـا بقاءَها ودوامَها ؛ إذ كانا قُطبين عليهما مَدار فَلَكِها ، ونقطتين عنهـما ينشأ الخطُّ المستقيمُ فى تدبير مُلكها ؛ وزعيمين يُترافَعُ إليهما عند التخاصُم ، وحكَمَين يُرْجَع إلىٰ حُكْمهما عند التَّحاكم ؛ إلا أنهما لايستقلّان بأنفسهما عند التحالُف ، ولا يقوم أحدُهما برأسه لدىٰ التَّخالف ؛ بل لهما إمامٌ يَرْجِعان إليه ، ويعوّلانِ عند ٱضطراب الأمورِ عليه ؛ وهو الرأى الذى لا يُقْطَع أمرٌ دون حكمه ، ولا يهتدى سارٍ فى مَهَامِه المهـمَّات إلا بنَجْمه ؛ إذْ كان علىٰ الشجاعة مُقَدَّما ، ودليـلُه من المعقُول والمنقُول مسلَّما ، والمُتَّسم به لايزال عند الملوك مبجَّلا معظَّما ، لايقدِّمون عليه ولدا ولا والدا ، ولا يُؤْثِرون علىٰ مُعاضَدته عضُدا ولا ساعِدا ؛ إن أشار برأى تمسك الملكُ منه بالحبل المَتِين ، أو مَحَضَه كلامَ نصح قال : ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

ولمـا كان الجناب العالى ، الاميرىّ ، الكبيرىّ (إلىٰ آخر ألقابه) يُوسُف الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه ، هو الذى حنَّكته التَّجارب و«حَلَبَ الدَّهْرَ

أشْطُرَه» ، وَعرف بتقليب الأمور علىٰ ممرّ الزمان مَخْبَره ، مع ما آشتمل عليه من الرأى الصائب ، والفِكر الذى اذا أبدتْ قريحتُه فى الارتياء عَجَباً أتتْ فطرتُه السليمةُ بالعجائب .

هذا وقد علَا فى الدولة القاهرة مَقامُه ، ورشَقَتْ أغراضَ مقاصدها بانقضاء الآجال فى الوقائع سِهامُه ، وساس العساكرَ فأحسن فى سياستها التدبير ، وبذَل فى نَفَقاتها الأموالَ فمال فيها إلىٰ الإسراف دُون التقتير ، وآستجلب الخواطرَ فأخذ منها بمجامع القُلوب ، وآقتاد النفُوسَ الأبِيَّة قهرا فأطاعه مَنْ بينَ الشَّمال والجَنُوب ، وقام من المهِمَّات الشريفة بما لم يَسبِقْه إليه سابق ، وأتىٰ من خَوارِق العادات فى التنفيذ بما لم يَلْحَقْه فيه لاحِق ، وبادر إلى ترتيب المصالح فرتّبها ولم يَعُقْه فى آنتهاز الفُرْصة عن دَفع المفاسد عائق ، وأخذ فى حَطِّ الأسعار فورد مَنْهَلا من المعروف صافِيا ، وأمر بإبطال المُعامَلِين فكان له عَمَلا علىٰ تَوالِى الأزمان باقيا ، ولازمَ بعدَ رضا الله تعالىٰ رِضَا مَلِكه ففاز بأشرف المآثر فى الحديث والقديم ، وتأسَّىٰ فى تعريفه بنَفْسِه بيوسف عليه السلام فقال : ﴿آجْعَلْنِى علىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عليم﴾ ـ آقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف تنويهًا بذِكره ، وتقديمَه علىٰ غيره ممن رام هذه الرتبة فحُجِب دُونَها ﴿واللهُ غالبٌ علىٰ أمرِه﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزينى ـ لا زال يجمع لأوليائه شَمْلَ المَعالى ، ويُرَقِّى أصفياءَه فى درجات العِز علىٰ ممرّ الأيّام والليالى ـ أن تُفوّض إلىٰ المشار إليه الإشارةُ الشريفة التى هى أسنىٰ المقامات وأعلاها ، وأقصىٰ المرامات لدَيْنا وأغْياها ، مع ما آنضمّ إلىٰ ذلك من النظر فى الوزارة الشريفة التى جلَّ قدرُها ، وعلا فى المناصب ذِكرُها ، والخاصِّ الذى آختص بمهمّاتنا

الشريفة ، والديوان المفْرَد الذى عُمِّر من ممالكنا السعيدة ذا الوظيفة وغيرَ ذى الوظيفه ؛ وتعلقات المملكة شرْقًا وغربا ، ولوازمها المفترقة بُعْدا وقُرْبا .

فليتلَقَّ مافُوِّض إليه بيمينه التى طالما رَبحت فى الطاعة صَفْقتُها ، ويقابِلْه بالقبول الذى محَلُّه من القلوب مُهجَتُها ، مقدِّمًا تقوى الله تعالى فيما خَفِىَ من مقاصده وظَهَر ، مُؤْثِرا رضاه فى كل ما يأتى ويذَر ، معتمِدا فى المصالح آعتمادَ ذى اليَقَظة الساهر ، آتيا من غرائب الرَّغائب بما يحقِّق قول القائل : «كَمْ تَرَك الأوَّلُ للآخِر» .

والوصايا كثيرة ومن بَحْره تُستخرَج دُرَرها ، ومن سوابق آرائه تُستَوْضَح أوضاحُها وغُرَرُها ، والله تعالى يُديم عليه نِعَمَ إقبالنا الباطنةَ والظاهره ، ويتولَّاه من العناية بما يحقِّق له دائم قوله : ﴿أَنْتَ وَلِيِّى فى الدُّنْيا والآخِرَه﴾ . والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانيـــة

(ممن يكتب له من أرباب السيوف ذواتُ التواقيع ، وفيها وظائفُ)

الوظيفـــة الأولى

(نظر البيمارستان لصاحب سيف) (١)

الحمد لله رافِع قَدْرِ من كان فى خِدمتِنا الشريفة كريمَ الخِلال ، ومُعْلِى درجةِ من أضفَى عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العلية مَديدَ الظِّلال ، ومجدِّدِ نِعَم من لم يخُصَّه اعتناؤُنا بغاية إلا رقَّتْه همَمُه فيها إلى أسنَى رُتَب الكمال ، ومفوِّض النظرِ فى قُرَب

(١) فى بعض نسخ الأصل بياض ولعله كان متروكا لنسبة القول الى منشئه كما يأتى فى نظيره بعد .

الملوك السالفة إلى مَنْ لم يلاحظ من خواصّنا أمرا إلا سَرَّنا ما نُشاهِد فيه من الأحوال الحوّال .

نحمده على نِعَمه التى لا تزال تَسْرِى إلى الأولياء عَوارِفُها ، ومناهله التى لا تبرح تشتمل على الأصفياء عواطفُها ، وآلائه التى تُسدِّد آراءنا فى تفويض القُرَب إلى مَنْ إذا باشرها سُرَّ بسيرته السرِيَّة مستحِقُّها وواقفُها .

ونشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفَع الإخلاصُ لِواءَها ، وأفاض الإيمانُ على وُجوه حَمَلتها إشراقَها وضِياءَها ، ووالى الإيقانُ إعادةَ أدائها بمواقف الحق وإبداءَها .

ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظمى ، المَقْصُوص فى السُّنَّة ذِكْرُ حوضه الذى من شَرِب منه شَرْبةً فإنّه بعْدَها لا يَظْمَا ، المنصوصُ على نُبوّته فى الصُّحُف المنزَّلة وبشَّرت به الهواتِفُ نَثْرا ونَظْما ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته ، بالرُّتب الفاخره ، وحازُوا بالإخلاصِ فى محبته ، سعادةَ الدنيا والآخره ، وأقبلُوا على حظُوظهم من رضا الله ورِضاه فلم يُلْوُوا على خِدَع الدنيا الساحِره ، صلاةً دائمةَ الاتِّصال ، آمنةً شمسُ دولتها من الغُروب والزَّوال ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولى الأمور بالنظر فى مَصالحها ، وأحقَّها بتوفير الفكْر على اعتبادِ مَناهجها واعتماد مناجِحها ، أمرُ جِهات البِرّ التى تقرَّب بها السلطانُ الشهيد الملكُ المنصور (قدّس الله رُوحَه) إلى من أفاض نِعمَه عليه ، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسنَ اللهُ إليه ، ورَغِبَ بها فيما عِندَ الله : لعلمه أنَّ ذلك من أنفَس الذخائر التى أعدّها بيْنَ يدَيْه ، وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقَله الله بها عن سريره إلى مَقْعَد صدْق عند ربِّه ،

وعَمَر بها مواطنَ العبادة فى يوم سِلْمه بعد أن عَفَّى بها مَعاقِلَ الكفر فى يومِ حَرْبه ؛ وأقام بها مَنارَ العلوم فَعَلا مَنالُها ، وأعدّ للضُّعَفاء بها من موادِّ البِرّ والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُلِ إليه أموالُها ؛ وأن نرتادَ لها مَنْ اذا فوّضْنا إليه أمرا تحقّقْنا صَلَاحَه ، وتيقّنّا نجاحه ، وآعتقدْنا تنمية أمواله ، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفاعه وآنتفاعه على أقوالِه وأفعاله ، وعلِمنا من ذٰلك ما لا نحتاجُ فيه إلى آختبار ولا آعتبار ، ولا يُحتاج فى بيان الخيرَة فيه إلى دليلٍ إلا إذا آحتاجَ إليه النَّهار ، لتكونَ فى ذٰلك بمَثابة من ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابها ، أو جدّد لها وقْفًا : لكونه أتى بيوتَ الإحسان فى آرتياد أكفاء النَّظَر لها من أبوابها .

ولما كان فلان هو الذى نبهتْ أوصافُه على أنه ماوَلِىَ أمرا إلا وكان فوقَ ذٰلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُبَ به صَدْرا ، ولا طلع فى أفُقِ رُتْبة هلالا إلا وتأمّلَتْه العيون لأجلِّ رُتَب الكمال بَدْرا ؛ يدرك ماناَى من مصالح ما يليه بأدْنىٰ نظَر ، ويسبِقُ فى سَدَاد ما يباشره على ما يجبُ سَدادَ الآراء ومواقعَ الفِكَر . ونحن نزدادُ غِبطةً بتدبيره ، ونتحقّق أنّ كل ما عدَقْنا به إليه من أمرٍ جليل فقد أسندناه إلى عارفِه وفوّضناه إلى خبيرِه ــ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نَعدِق بجميل نظره هذا المُهِمَّ المقدّم لديْنا ، وأن نُفوِّضَ إليه نظرَ هذه الأوقافِ التى النظَرُ فى مصالحها من آكد الأُمور المتعيِّنة علينا .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال فضلُه عميماً ، وبِرُّه يقدِّم فى الرُّتَب من كان من خواصّ الأولياء كريما ــ أن يُفوَّض إليه كَيْتَ وكَيْتَ .

فلْيلِ هذه الرتبةَ التى أُرِيد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهمّ ، وقُصِد بها النفعُ المتعدّى إلى العُلَماء والفُقَراء والضُّعفاء ومراعاةُ ذٰلك من أخصّ المصالح وأعمّ .

ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخُصُوصها نظرًا يَسُدُّ خَلَلَها ، ويُزِيح عِلَلَها ، ويعَمِّر أصولَها ، ويثمِّر محصولَها ، ويحفَظ فى أماكنها أموالَها ، ويقيم بها معالِمَ العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألسنة قُرّائها ، ويستعيدُ صحةَ مَن بها من الضعفاء بإعداد الذَّخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها ، ويحافظ علىٰ شُروط الواقف فى إقامة وظائفها ، واعتبار مَصارفها ، وتقديم ما قدّمه مع مَلاءة تدبيره باستكمال ذلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلها بما يستدْعى إليها من الأصناف التى يعزُّ وجودها ويجتلَب ، وضَبْط تلك الحواصل التى لا خزائنَ لها أوثقُ من أيدى أمنائه وثِقاته ، ولا مُودَعَ لها أوفق ، من أمانة من يتّقِى الله حَقَّ تُقَاته ؛ فلذلك وَكَلْناه فى الوَصَايا إلىٰ حُسْن معرفته واطّلاعه ، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا واضطلاعه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثانية

(نظر الجامع الطولونى)

من إنشاء المَقَرّ البَدْرى ابن المَقَرّ العَلائى بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، فى الدولة الظاهرية برْقُوق ، كتب به المَقَرّ الشمسى العمرى كاتب الدَّسْت الشريف لأبى يزيد الدَّوَادار ، وهى :

الحمدُ لله الذى أقامَ من أوليائنا خيْرَ ناظر ، يقَرّ به كل ناظر ، وأدام بنا بِناءَ المعروف الزاهر وحُسْنه الباهر ، وأنام الأنامَ فى مِهاد الأمن بانتقاء وَلِيٍّ لسانُ الكون حامدٌ له ومادحٌ وشاكر ، وفتح أبوابَ السعادة باصطفاء صَفِيٍّ طاب بسفارته كلُّ خاطر من مُقيم وخاطر ، ومنحَ أسباب السيادة بأوفىٰ وَفِيٍّ عَمَر بوجوده

الوجودَ وغَمَر بجُوده كلّ باد وحاضر، وأبْصَر بالدين المتينِ والفضـل المبينِ فأقمناه للنظر على بُيوت الله تعالىٰ لأوْلويّته بذلك : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ ﴾ .

نحمدُه على نِعَمه التى ظهرتْ[1] بالمَزِيد فسَرّتِ السرائر، وظهرتْ بنُور الرُّشـد المَديد فأشرقَ بهـا الباطنُ والظاهر . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له العزيزُ القادر، شهادةً صـدَقتْ فى الإخلاص بها الألْسِنةُ والضمائر . ونشهدُ أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه مَعْدِنُ الأسرار، وبحرُ الجُود الزاخر، ومنبعُ الأنوار، صاحبُ الآياتِ الظاهرةِ والمُعجزات الباهرةِ والمَفاخر، الذى يَبْعثُه الله مَقاما محمودًا يحمَـدُه الأوائلُ والأواخر، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه النُّجومِ الزَّواهر، الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جهاده فكان كلٌّ منهم للدِّين الحنيفِ أعظمَ مجتهِد ومؤيِّد وناصر، وسَـلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من أُلْقِيتْ إليه مقاليدُ الأمور، وصرَّفناه فى جميـع مَصالح الجُمْهور، وفوّضْنا إليه النظرَ فى بُيوتِ الله تعالىٰ ليعْمُرَها بنظره السعيد وتُضاعَفَ له الأُجور، ومكَّنّا له فى دولتنا الشريفةِ حتّى صار قُطْبَ فَلكها عليه تدور، وبسَطْنا يدَه ولسـانَه فهو يَنْطق عنّا ويأمر بالقضاء والقَـدَر فى الوُرُود والصُّـدُور، وقيَّدنا الأرزاقَ بقَلَمه، والمهمّاتِ بكَلِمه، فلا فضْـلَ إلا من فَيْضـه المنشور ـ مِن آمتاز علىٰ غيره بفضيلتَى السَّـيفِ والقلَم، وتقدّم فى الطاعة الشريفةِ بأثْبتِ قَدَم، كان بها من السابقين الأوّلينَ من القِدَم، وآتَّصف بالشَّجاعة والشَّهامة والمَعْرفة التامّة والحِلْم والعَـدْل والحِكَم، فهو التَّرْجمان عنّا الناطقُ بفَصْل الخطاب فى السِّرّ للتُّرْك والعَرب والعَجَم، وعُرِف بالرأْى السديد، والنظَر السعيد، والتدبير الحَميد، والقول المُفيد،

(١) ظهرت بالمزيد قويت به وظهرت بنور الرشد وضحت وبانت .

والجُود والكَرَم ، وطُبِع علىٰ الخير الجَزِيل ، والدِّين الجَميل ، عُمْره فى الحق قائم ، لا تأخُذه فى الحقِّ لومةُ لائم ، طالَمَا أحيا بحُسْن السِّفارة من العَدَم .

هو واحدٌ فى الفَضْل والنظرِ السعيد ... لأبى سعيد .

فمن الذى يَحْكِيه فى الشَّرَف العَتِيد ... بطَل الوَغىٰ أبو يزيد .

قد تفرّد فى العِفَّة والدِّيانه ، والثِّقة والأمانه ، واْتحف بالصَّفا ، وتردّىٰ بالوفا ، وشفىٰ بالخير والجبر مَنْ كان بالفقر علىٰ شَفَا فحَصَل له الشِّفا ، ووفىٰ بالعهود والمواثيق وذلك أمر ماخَفِىٰ [1] ، ولحق فى الجُود والدِّين بسَمِيِّه أبى يَزِيد البِسْطامىّ الولىّ :

قالوا : الولىُّ أبو يَزِيد قد مَضىٰ * وهو الفَرِيدُ بفَضْله والصادقُ !

قلتُ : الأميرُ أبو يزيد مِثْلُه * هذاك سابِقُه وهذا اللّاحِقُ !

ولما كان فلان هو المشار إليه بهذه الصِّفات الحَسَنه ، والمناقِب التى تنوّعَتْ فى مدائحها الألسِنَه ، وعُرِف بالجُود فمَلَك حُبُّه الأفئدةَ فارتفعتِ الأصواتُ بالدعاء له مُعْلِنه ، طالَمَا أنالَ النِّعم ، وأزال النِّقَم ، وجَبَرَ القُلوب ، وكَشَفَ الكُرُوب ، وجَلَا ظَلام الخُطُوب ، ونَشَر المعروف ، وأغاثَ الملْهُوف ، وأنقَذَ من المَهالك ، وعَمَر بتدبيره المَمالك ، ووصَل الأرزاق ، وأجرىٰ الأطلاقَ علىٰ الإطلاق ـ اقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نعتَمِد فى جميع الأشياءِ عليه ، ونُلقِىَ مقاليدَ الأمور إليه ، ونَنُوط به المهِمَّاتِ وغيرَها : ليكونَ العِلمُ بالكُلِّيات والجزئيَّات لدَيْه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يتحف بالمَزِيد من كَرَمه ، ويُسْبغ جلابِيبَ نِعَمه ، ويجرى بحر فضله الواسع ، ويعُمُّ بنظره المقرّبين من أوليائه كلَّ جامع لخير جامع ، أن يستقر [2] ... ...

(١) جرى على لغة طيء. نظر السجع فتنبه .

(٢) بياض بالأصل والمراد "فى نظر الجامع الطولونى" الخ وكثيرا ما يفعل ذلك فى مثل هذه المواضع .

فلْيتلقَّ هذا التفويضَ الجليلَ بقبُوله ، ويبلِّغ الجامعَ المذكورَ ما يرتقِبُه من عِمارته التى هى غايةُ مأموله . ومنه تؤخَذ الوصايا لأنه لسانُنا الناطق ، وسفيرُ مملكتِنا العالِمُ بالحقائق والدّقائق ، فلا يحتاج أنْ يُوصىٰ ولا أن نفتَح معه فى الوصية بابًا ، ومايصْلُح ان يقال لغيره لا يجوز أن يكونَ له خِطابا :

ومِثْلُك لايُدَلُّ علىٰ صَـوابٍ * وأنْتَ تُعَـلِّمُ النـاسَ الصَّوابا!

والله تعالىٰ يؤيده فى القول والعَمَل ، ويعُمّ بوجُوده وَجُوده الوُجود وقد فعَـل ؛ ويُبْقيـه مَدىٰ الدهر ، ويستخْدِم لسُعُوده الساعةَ واليومَ والجمعةَ والشَّهر ؛ ويجعلُ بابه الطاهِرَ مفتوحا للقاصدين علىٰ الدَّوام ، ويُقيمُه واسطةَ عِقْـد المُلْك فإنه مُبارَك أينما كان ورحمةٌ للأنَام ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطّ الشريف أعلاه حجـةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة الثـالثـــــة

(نِقَـابةُ الأشراف)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائفِ الدِّيار المِصرية فى المقالة الثانية أنّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ الأشراف ، وهم أولادُ أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب رضى الله عنه ، من فاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وقد جرتِ العادةُ أنّ الذى يتولىّٰ هـذه الوظيفةَ يكون من رُءُوس الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام ، وإنمـا أوردتُه مع أرباب السّـيوف لأن المقرَّ الشّهابىَّ بنَ فضـل الله قد ذكر فى بعض دَسَـاتيره الشاميَّـة أنه يُكْتَب لنَقيب الأشراف « الأميرى » ولا يكتَب له « القضائى » ولو كان صاحبَ قلم .

وقد رأيتُ له عدّةَ تواقيعَ علىٰ ذلك مكتتبةً من الأبواب السلطانية وعن نائبَى الشام وحلب وغيرهما، معبرًا عنه فيها بـ«الأميرى» وتوقيعُه فى قطع الثُّلث مفتتحٌ بخُطْبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله».

وهذه نسخةُ [توقيع](١) بنقابة الأشراف، وهى :

الحمدُ لله مشرِّف الأنساب، ومُوفِي الأحساب، حقوقَ ملاحظتِهم بغير حساب، وجاعلِ أيَّامنا الشريفةِ تحمَد الاكتساب.

نحمده بمحامدَ حسنةِ الإيجاد والإيجاب. ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا شكَّ فى مَقالها ولا ارْتِياب. ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أنْزَل عليه الكِتاب، وشرَّف به الذَّرارىَّ من شجرته المباركةِ الأعْقاب، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا تتوارَىٰ شمسُها بحِجاب.

وبعدُ، فإنَّ خير ما صُرِفت الهِممُ إلىٰ تشييد مبَانيه، وتقييد مُهْمَل رواعيه وملاحظةِ قاصيه ودانيه، المحافظةُ علىٰ كلِّ ما يرفَع قدرَ الآل ويُعْليه، ويرُدُّ إليهم عِنانَ الاعتناء ويَثْنِيه.

ولمَّا كانتِ العترةُ الطاهرةُ النبويةُ وُرّاثَ الوحى الذين آلَ إليهم ميرَاثُه، وأهلَ البيت الذين حصَل لهم من السُّؤدَد آياتُه، وقد سأل اللهُ وهو المسئُول لهم القُربىٰ، وخصَّهم بمزايَا حقيقٌ بمثلِ متصرِّفهم أنه بها يُحبىٰ وأنها لهم تُجبىٰ : لما فى ذلك من بركاتٍ تُرْضِى سيدَ المرسلين وتُعجِبه، ويُسَطِّر الله [الأجر] لفاعله ويكْتُبه، وكان لابدَّ لهم من رئيس يُنَضِّد سِلْكَهم ويَنْظِمه، ويعظِّم فخرهم ويفَخِّمه، ويحفظ أنسابَهم،

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام.

ويصْقُل بمكارمه أحسابَهم ، ويَنْمى بتدبيره رَيْعَهم ، ويُتابع تحتَ ظِلِّ هذه الشجرةِ الزكيَّةِ ما زكَّى يَنْعَهم ، ويحفَظُهم فى ودائع النَّسْل ، ويَصُدّ عن شرف أَرُومتِهم من الأدْعياء المدّعين بكل بَسْل(١) ، ويَحْرُس نِظامهم ، ويُوالى إكرامَهم ، ويأخُذهم بمكارم الأخلاق ، ويمُدُّهم بأنواع الإرْفاد والإرفاق ، ويتولَّى رَدْع جانيهم إذا لم يَسْمَع ، ويتدبَّرُ فيه قولَه : « أنْفُك مِنكَ وإنْ كانَ أجْدَع » .

ولمَّا كان فلان هو المشارُ إليه من بنى هـذه السُّلالة ، وله من بينهم مِيزةٌ باطنةٌ وظاهرةٌ وإن كانُوا كُلُّهـم شيئًا واحدا فى الإجلال والإعظام ، فقد تميَّزتْ من بين الأنامل السَّبَّابةُ علىٰ الخِنصر والبِنصر والوُسْطىٰ والإبهام ، وكَمْ ثَمرٍ جَنِيٍّ فُضِّل بعضُه علىٰ بعض فى الأُكُل وهو يُسْقىٰ بمـاءٍ واحد ، وقد آمتاز علىٰ بنى هاشمٍ سيدُ المرسلين عليـه أفضل الصلاة والسلام ـ آقتضىٰ حُسْنُ الرأى المُنيف ، أنْ رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا برِح يختارُ وينتقى ، ويجتَبى من يخشىٰ اللهَ ويتّقى ـ أن تُفوَّضَ إليه نِقابةُ الأشراف الطالبيِّين علىٰ عادةِ من تقدّمَه من النُّقباء السادة .

فليجمَعْ لهم من الخـير مايُبْهِج الزهراءَ البَتُول فعـلُه ، وليفعَلْ مع أهله وقرابته منهـم ماهو أهـلُه ، وليحفَظْ مواليدَهم ، ويُحرِّرْ أسانيدَهم ، وليَضْـبِطْ أوقافَهم ، ويعتَمِدْ إنصافَهم ، ويُثمِّرْ متحصَّلاتِهم ، ويكَثِّرْ بالتدبير غَلَّاتِهـم ، ويأخُذ نَفْسَـه بمُساواتِهم ، فى جميع حالاتِهم ، وليأخُذْهم بالتجمُّع عن كل مايَشِين ، والعملِ بمـا يَزِين ، حتّى يُضيفوا إلىٰ السُّؤدَد حُسْنَ الشِّيَم ، وإلىٰ المَفاخر فاخِرَ القِيَم ، وكلُّ مايفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ، ومِنْه وإليـه ، والله يحفظُه من خَلْفه ومن بين يدَيْه ، بمنّه وكرمه ! .

---

(١) البسل الشدّة كما فى اللسان . ووقع فى الأصل «نسك» بالنون والكاف وهو تصحيف .

***

وهذه نسخة وصية لنقيب الأشراف أوردها فى "التعريف" فقال :

ونحن نُجِلُّك عن الوَصَايا إلا ما نتبرَّك بذكره ، ويُسُرُّك إذا اشتملت علىٰ سِرِّه ؛ فأهْلَك [أهْلَك ، راقب](١) اللهَ ورسولَه جدَّك صلّى الله عليه وسلم فيما أنت عنه من أمورهم مسئُول ، وارفُق بهم فهم أولادُ أمِّك وأبيك حَيْدَرَة والبَتُول ؛ وكُفَّ يدَ من علمتَ أنه [قد](١) استطال بشَرَفه فمدّ إلىٰ العناد يدًا ، واعلم أنَّ الشريفَ والمشروفَ سواءٌ فى الإسلام إلا من اعتدىٰ ، وأنَّ الأعمال محفوظةٌ ثم معروضةٌ بين يدَي الله فقدِّمْ فى اليوم ما تفرَح به غدًا ؛ وأزِل البِدَع التى يُنْسَب إليها أهلُ الغُلُوّ فى وَلَائهم ، والعُلُوّ فيما يُوجِب الطعنَ علىٰ آبائهم ؛ : لأنه يُعلم أنَّ السلفَ الصالح رضى الله عنهم كانوا متنزّهين عمّا يَدَّعيه خَلْفُ السَّوْء من افتراق ذات بيْنِهم ، ويتعرَّضُ منهم أقوام إلىٰ ما يجُرّهم إلىٰ مَصَارِع حَيْنِهم ؛ فللشِّيعة عثَرَاتٌ لا تُقال ، من أقوال ثِقال ؛ فسُدّ هذا البابَ سَدّ لَبيب ، واعمَلْ فى حَسْم موادِّهم عَمَلَ أريب ؛ وقُمْ فى نَهْيهم والسيفُ فى يدِك قيامَ خَطيب ، وخوِّفْهم من قَوَارِعك [مَوَاقع](١) كلِّ سَهْم مُصيب ؛ فما دُعى « بحىّ علىٰ خيرِ العَمَل » إلىٰ خَيرٍ من الكتاب والسنّة والإجماع [فانْظُر فى نادى قومك عليها عقودَ الاجتماع](١) . ومَن اعتَزىٰ إلىٰ اعتزال ، أو مالَ إلىٰ الزَّيْديَّة فى زيادة مَقَال ، أو ادَّعىٰ فى الأئمة الماضين ما لم يدَّعُوه ، أو اقتفىٰ فى طُرُق الإماميَّة بعضَ ما ابتدَعُوه ، أو كَذَب فى قول على صادقِهم ، أو تكلَّمَ بما أرادَ علىٰ لسان ناطقهم ؛ أو قال : إنه تلقَّ عنهم سِرًّا ضَنُّوا علىٰ الأمّة ببلاغه ، وذَادُوهم عن لَذَّة [مَسَاغه](١) ، أو رَوىٰ عن يوم السَّقيفة والجَمَل غيرَ ما وردَ أخبارا ، [أو تمثَّل بقول من يقول : عبد شمسٍ قد أوْقدتْ لبنى هاشم نارا](١) أو تمسَّك من عقائد الباطن بظاهر ، أو قال

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٠ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

إنَّ الذاتَ القائمةَ بالمعنىٰ تختلف فى مَظَاهِر؛ أو تعلَّق له بأئمة السِّتْر رجاء، أو آنتظر مُقِيما بِرَضْوىٰ عنده عَسَلٌ وماء، أو ربَط علىٰ السِّرْداب فرَسَه لمن يَقُودُ الخيل يَقْدُمُها اللِّواء؛ أو تلفَّتَ بوجهه يظُنّ عليًّا كرَّم الله وجهه فى الغَمَام، أو تفلَّتَ من عِقَال العقلِ فى آشْتِراط العِصمة فى الإمام . فعرِّفْهم أجمعين أنَّ هذا من فساد أذهانِهم، وسُوء عقائِد أدْيانِهم؛ فإنَّهم عدَلُوا فى التقرّب بأهْلِ هذا البيت الشريف عن مَطْلُوبهم، وإن قال قائل إنهم طَلَبوا فقل له : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ .

وآنظُرْ فى أمور أنسابِهم نظَرا لا يَدَع مجالًا للرِّيَب، ولا يستطيعُ معه أحدٌ أن يدخُل فيهم بغير نَسَب، ولا يخْرُج منهم بغير سَبَب، وسَاوِق المتصرِّفين فى أموالهم فى كلِّ حِساب وآحفَظْ لهم كلَّ حَسَب . وأنتَ أوْلىٰ من أحسَن لمن طَعَن فى أسانيد هذا الحديث الشريف أو تأوَّل فيه علىٰ غير مُرادِ قائلِه صلى الله عليه وسلم تأديبًا، وأراهُم مما يوَصِّلهم إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رسوله طريقًا قريبا . ونكِّل بمن علمتَ أنه قد مالأَ على الحق أو مالَ إلىٰ فريق الباطل فَرَقا، وطوىٰ صَدْرَه علىٰ الغِلِّ وغَلَب من أجله علىٰ ما سبَق فى علم الله تعالىٰ من تقديم مَنْ تَقَدَّم حَنَقا؛ [وجارَ وقد[1]] أوضَحْتَ لهم الطريقةَ المُثْلىٰ طُرُقا، وآردَعْهم إن تعرّضوا فى القَدْح إلىٰ نضال نصال، وآمنَعْهم فإن رِقهم كلّها وإن كَثُرت خابطةٌ فى ظلام ضَلال؛ وقدِّمْ تقوى الله فى كل عَقْد وحَلّ، وآعملْ بالشريعة الشريفة فإنها النَّسَب الموصُول الحَبْل .

وآعلم أنَّ المقرَّ الشهابىّ بنَ فضل الله قد ذكَر فى "التعريف" عِدّةَ وصايا لجماعة من أرباب السُّيوف، لم يُكْتَب لأحد منهم فى زماننا، بل رُفِض آستعمالُها وأُهمِل . ونحن نذْكُرها حِفْظا لذِكْرها، وآحتياطًا أن يقتضِيَ الحالُ فى زمنٍ كتابةَ شىءٍ منها .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف ص ١٣٢ .

إحداها — وصية أتابك المجاهدين

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الدّيار المصرية أنّ أصله أطابَك[(١)] بالطاء المهملة ومعناه الأبُ الأمير ، وأنّ أول من لُقّب بذٰلك زَنكي أطابَك صاحب المَوْصل ، ثم غَلَبت فيه التاءُ المثناةُ بدَلَ الطاء ، وهى :

وأنت آبنُ ذٰلك الأبِ حقيقه ، وولَدُ ذٰلك الوالدِ الذى لم تُعْمَل له إلا من دِماء الأعداء عَقِيقه ، وقد عُرِفَتْ مثلَه بثَبَات الجنَان ، وصُلْتَ بيَدِك ووَصَلْت إلىٰ مالم يَصِلْ إليه رُمْح ولا قدر عليه سِنَان ، ولم يُزاحِمْك عدُوّ إلا قال له : أيُّها البادى المُقاتِل كيفَ تُزاحِم الحديد ، ولاسُمّى آسمُك لجبّار إلا قال له : ﴿وجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . وأنتَ أَوْلىٰ من قام بهذه الوظيفه ، وألِفَ قلوبَ هذه الطائفة التى ما حَلَم بها حالمٌ إلا و باتَ يُرْعَدُ خيفَه ، فلْيأخُذْ هذا الأمرَ بزِمامه ، وليعمَلْ لله ولإمامه ، وليَرِمْ فى حُبّ البَقاء الدائم بنَفْسه علىٰ المنيَّه ، وليُنادِمْ علىٰ مُعاقَرة الدِّماء زُهو رَسَكاكِينه الحَنِيَّه ، وآطبَعْ منهم زُبَرا تُطاوِل السيوفَ بسَكاكينها ، وتأخُذ بها الأُسُودَ فى عَرِينها ، وتمتدّ كأنّها آمالٌ ، لما تُرِيد ، وتُرْسَل كأنّها آجالٌ ، ولهذا هى إلىٰ كلّ عدوّ أقربُ مِن حَبْل الوَرِيد ، وأذْكِ منهم شُعَلا إذا دعِيتْ بأحسابها لا تجد إلّا متحاميا ، وآرم منهم سهاما إذا دعِيَتْ (؟) بأنسابها الاسماعيلية فقد جاء أن إسماعيل كان راميا ، وفرّج بهم عن الإسلام كلّ مَضِيق ، وآقلَعْ عن المسلمين من العَوانِية كلّ حجَر فى الطريق ، وصَرِّف رجالَك المَيامين ، وتصيَّدْ بهم فإنّهم صُقُور ومَناسِرُهم السَّكاكين ، وآخطَفْ بهم الأبصارَ فبأيْمانهم كلُّ سِكّينة كأنّها البرقُ الخاطف ، وآقْطِفِ الرءُوسَ فإنها ثمراتٌ أينعَتْ لِقاطف ، وآعرِفْ لهم حقَّهم وضاعِفْ لهم

(١) هو بفتح الباء الموحدة كما ضبطه ابن بطوطة فى رحلته ص ٢٥٨ ج ٢ .

تكريما، وأدِمْ لهم بِنا بِرًّا عميما، وقدِّم أهلَ النفع منهم فقد قدَّمهم الله ﴿وفَضَّلَ اللهُ المُجاهِدِينَ عَلَى القاعِدِينَ أجْرًا عَظِيمًا﴾ .

واعلَمْ أنهم مثلُ الوُحوش فزِدْ فى تأنِيسِهم ، واشكُرْ إقدامَهم فطالَما اقتحَمُوا علَى الملوك وما هابُوا يقظَةَ حرسِهم، وارفَعْ بعضَهم علَى بعضٍ درجاتٍ فى نفَقات تَسافِيرهم وقُعود مَجالِسهم ، ولا تُسَوِّ بينَهم فما هُم سَواءٌ و﴿لَا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ﴾ . وأصلُ هذه الدعوةِ ما زالَتْ تَنتقل بالمَواريث حتَّى انتهتْ إلينا حقُوقُها ، وأومَضتْ بنا حيثُ خلعَتْ هَيَا كِلَها بجَرْعاء الحِمَى بُرُوقُها، والله تعالَى يوفِّقه ويُرْشده، ويُطوِّل باعَه لما قصُرت عنه سَواعدُ الرِّماح ووصَلَت إليه يدُه .

الثانية — وصيَّة أستاد الدار .

ولْيتفقَّدْ أحوالَ الحاشيَةِ علَى اختلافِ طَوائفها ، وأنواعِ وظائفها، ولْيرتِّبْها فى الخِدْمة علَى مايَجب ، وينظُر فى أمورهم نظَرًا لايَخفَى معه شىءٌ مماهم عليه ولا يحتَجِب، ولْيَبدأْ بمُهمِّ السِّماط المقدَّمِ الذى يُقدَّم، وما يتنوَّعُ فيه من كل مَطْعَم، وما يُمَدّ منه فى كل يوم بُكْرةً والعَصْر، وما يُستدعَى معه من الطَّوارئ التى لايحُدُّها الحدّ ولا يحصُرها الحصر، وأحوالِ المَطْبَخ الكريم الذى منه ظهور تِلك المَخافى، ووفاءُ ذلك الكرمِ الوافى، والتقدُّمِ إلَى الأمناء والمشرِفين فيه بأمانة الإنفاق، وصيانةِ المآكل مما يُعاب علَى الإطلاق. ثم أمرِ المشروب وما تُغلَق عليه أبواب الشراب خاناه السعيدة من لطائف مأكولٍ ومشروب ، وشىءٍ عزيزٍ لا يوجد إلا فيها إذا

عزّ المطلوب ، ومراجعةِ الأطباء فيما تجرى عليه قوانينها ، وتُنْسَبُ لطبخه من حُمْر اليواقيتِ كوانينها ، و إفرازِ ماهو للخاص الشريف منها وما هو للتفرقه ، وما لا يصرف إلا بخط الطبيب ولا يسلَّم إلا إلىٰ ثقه . ثم الطشت خاناه السعيدة التى هى خِزانة اللّباس ، وموضعُ ماتُبْرَزُ به من الزّينة للناس ، وما يُحتاجُ إليه من آلاتِ التطبيب ، وما يُعَيَّن لها من الصابُون وماءِ الوَرْد والطِّيب ، وغير ذٰلك من بقيّة ما هى مستقرّه ، ويُؤخَذ منها مُسْتَدَرُّه ، ومن يُسْتخْدَم بها ممن برِئَ من الرِّيَب ، وعُرِف بالعَفَاف والأدب ، وعُلِم أنه من أهل الصِّيانه ، وعلىٰ ماسُلِّم إليه ومَنْ خالطهُ الأمانه . ثم الفِراش خاناه وما يُنْصَبُ فيها من الخِيام ، وما يكونُ فيها من فَرْش سَفَر ومُقَام ، وشَمْع يُفَضِّض كافُورُ كافوريّته آبَنُوسَ الظَّلام . ثم غِلْمان الإصْطَبْل السعيد والنَّجّابة وإن كان إلىٰ سواه استخدامُهُم ، ولدىٰ غيرِه مستقرّهم ومُقامُهم ، لكنّهم ماخَرَجُوا من عَديده ، ولا يَرُوقُهم ويَرُوعُهم إلا حَسَنُ وعْده وخَشِنُ وَعِيده . ثم المُنَاخَات السُّلطانيةُ وما بها من جِمَال ، وما يَسْرَح فيها من مالٍ وجَمال ، ومن يُستخدَم فيها من سيروان ومِهْمَرْد ، وما فيها من قِطَار مُزْدَوج وفَرْد ، فيوفّرُ لهٰذه الجهة نصيباً من النظر يشاهد أُمورَها وقد غابتْ فى الأقطار ، وتفرّقتْ كالسُّحُبِ يلزمُها القِطَار القَطَّار ، وليكُونوا علىٰ بالِه فإنهم يسْرِقُون الذَّرّة(١) من العيْن ومعهم الذّهَب العيْنُ محمَّلا بالقِنْطار ، فليُحْسِن منهم الارْتِياد ، وليتخيَّر أرقّهم أفئدةً فإنّهم بكَثْرة ملازمتِهم للإبل مثلُها حتّى فى غِلَظ الأكْباد . وطَوائف المُعامَلين ، والأبقار ومَنْ عليها من العامِلين ، وزرائبِ الغنم وخَوَلها ورِعائها ، وأصناف البيوت الكريمة وما تطلُبه فى استدعائها ؛ ونفقاتِ الأمراء المماليك السلطانيّة فى إهلالِ كلِّ هِلال ، وما يُصْرف فى كُساهم

(١) فى "التعريف" « ذرّة الكحل » .

علىٰ جارى عادتهم أو إذا دعت إليه ضرورةُ الحال ؛ وما يؤخذ عليه خطُّه من وصولات تُكتب، وآستدعاآت تُحسب من لوازمه وهى للكثرة لا تُحسب ؛ فليكن لهذا كلّه مراعيا، ولأموره واعيا، ولما يجب فيه دُونَ ما لا يجب مستدعيا وإليه داعيا ؛ وهو كبيرُ البيتِ وإليه يرجع أمر كلّ مملوك ومستخدَم ، وبأمره يؤخَّر من يؤخَّر ويقدَّم من يُقدَّم ، ومثلُه يُتعلَّم منه ولا يُعلَّم ؛ وعَصاه على الكلّ محمولة على الرِّقاب ، مبسوطةٌ فى العفو والعِقاب، ومكانُه بين يدَيْنا حيثُ نراه ويرانا ولدَيْنا قابَ قوسَيْن أو أدْنىٰ من قاب .

وعليه بتقوىٰ الله فبها تمامُ الوصايا وكمالُ الشرُوط ، والأمرِ بها فعصاه محكمة وأمره مبْسوط، وكلُّ مايُناط بنا : من خاصّة أمورنا فى بيتنا ـ عمّره الله ببقائنا وزاد تعْميرَه ـ بتدبيره منُوط .

الثالثــة — وصيّة أمير اخور .

وقد تقـدّم فى الكلام على الألقابِ فى المَقالة الثـالثةِ أنّه مركّبٌ من لفظين : عربىّ وهو أمير ومعناه معْروف، وأخُور فارسىّ ومعناه العَلَف، والمعنىٰ أميرُالعلَف . وكأنه فى الأصل كان هو المتولّى لعلُوفة الخيل، ثم آرتفعتْ وظيفتهُ حتّىٰ صار صاحبُها من أكابر الأُمَراء المقـدَّمين ، وهو يتحـدّثُ فى الإصْطَبْلات السلطانـيّة وما حوَتْه من خَيْل وبِغال ودَوابّ وجِمالٍ وأثاثٍ ، وغير ذلك .

وهذه نسخة وصيته :

ولْيكُنْ علىٰ أكمل مايكونُ من إزاحةِ الأعْذار، والتأهُّب لحركاتنا الشريفة فى لَيْل كانَ أونَهار، مقدِّمًا الأهمّ فالأهمّ من الأمور، والأبْدأَ فالأبْدأَ من [تقديم](١) مراكبنا

(١) الزيادة عن "التعريف" وهى لا زمة كما لا يخفى .

السعيدة وتهيئة مَوْكبنا المنصُور، وترتيب ذٰلك كلّه علىٰ ماجرتْ به العوائد، وتحصيل ماتدْعُو الحاجةُ إليه علىٰ قَدْرِ الكِفَاية والزَّوائد، والنَّظرِ فى جميع إصْطَبْلاتنا الشريفة، والجشارات السعيدة، وخيْلِ البَرِيد، والرَّكائب المُعَدّة لقَطْع كلّ مدًى بعيد، وما يجتَمع فى ذٰلك وينقسِم، وما يُركَب منها ويُجْنَب ممّا يَسِم الأرضَ بالبُدُور والأهِلّة من كلّ حافرٍ ومَنْسِمٍ، وما هو برَسْم الإطلاق، وما يُعَدُّ لمماليك الطّباق، وخَيْل التّلاد، وما يُجْلَب من قَوْد(١) كلّ قبيلة من القبائل ويجىء من كلّ بلدٍ من البلاد، والمشترىٰ ممّا يُباع من المواريث ويُستعْرَضُ من الأسواق، وما يُعَدُّ للمواكب وللسِّباق، وليُجِلْ رأيَه فى ترتيب ذٰلك كلّه فى مراتبه علىٰ ما تقتضيه المُهِمّات، والاحتراز فى التّلاد ممّا لعلّه يُبدَّل ويقال هو هذا أو يؤخَذُ بحجة أنه مات، وليَجتهِد فى تحقيق ما نَفَق، [وليُحرِّره علىٰ حُكْم ما يحقّق عنده لا علىٰ ما اتّفق(٢)،] وكذٰلك فليكُنْ فحصُه عمّن يستخدِمُ عنده من الغِلْمان، ولا يهمِلُ أمورَهم مع معاملتِهم بالإحسان، ولا يستخدِم إلا من تُشكر سيرَته فى أحْواله، وتُعرَف خِبرتُه فيما يُراد من أمثاله، وكذٰلك الرَّكّابة الذين تملك أيديهم أعِنّةَ هذه الكرائم، والتحرُّزُ فى أمرهم ممن لعلّه يأوى إليهم من أرباب الجَرائم، والأوشاقيّةُ الذين هم مثلُ مماليكه وهم فى الحقيقة إخوانُه، وجماعةُ المباشرين الذين هم فى مباشرة الإصْطبلات السعيدة ديوانُه، وكلّ هؤلاء يُلزِمهم بما يلزم أمثالَهم من السُّلوك، ويُعلِّمهم بما يجب عليهم أن يتعلّموه من خِدْمة الملوك، ولا يَسْمَح لأحدٍ منهم فى أمرٍ يُفْضِى إلىٰ إخلال، ولا يقتضى فَرْطَ إدْلال، وليُقِمْ أوَدَهم بالأدَب فإن الأدَب مافيه إذْلال، وكلّ هؤلاء الطوائف ممن يتجنّب العامةُ مخالطتَهم لما طارَ فى أيّام من تقدّم عن أمثالهم من سُوء السُّمْعة،

(١) فى اللسان من معانى "القود الخيل" وهو المناسب هنا .

(٢) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٠٠) وهى لازمة كما لا يخفى .

ويُتخوّف منهم السُّرعه ؛ فليكُنْ لهم منك أعظمُ زاجر ، ومَن شُكِىَ إليك منهم فسارعْ إلىٰ التنكيل به وبادِرْ ؛ واشْهَر من فعلك بهم ما يُوجِب منهم الطُّمأنينه ، ولا يعود أحدٌ بعده يُكذّب يقينَه ؛ وأمراء أخوريه الذين هم أتباعُك ، وبهم يمتد باعُك ، هم بحَسَب ما تجعلهم بصَدَده ، وما منهم إلا من يقْدِر [أن] يتعدّىٰ حدّه فى مقام قَدَمه وبَسْط يده ؛ فاجعلْ لكلٍّ منهم مَقاما معلوما ، وشيئًا تجعل له فيه تحكيما .

وثمين الخيول المشتراة والتَّقادِم قوِّمها بأهل الخِبْرة تقويمَ عَدْل ، وقُلِ الحقّ ولا يأخُذْك فيه لومٌ ولا عَذْل ؛ وما يُصْرَف من العليق برَسْم الخيول السلطانية ومَنْ له من صدَقاتنا الشريفةِ عَليق ، مُرْ بصرفه عند الاستحقاق واضْبِطه بالتعليق ؛ وتصرّفْ فى ذٰلك كلِّه ولا تتصرَّفْ إلا تصرُّف شَفِيق ، وصُنْه بأقلام جماعةِ الدِّيوان ولا تقنع فى غير أوقات الضرورة برفيقٍ عن رفيق ؛ وكذٰلك البراسيمُ السلطانية أصْلا وزياده ، ولا تَصْرِفْ إلا ما نأمُر به وإلا فلا تخرُجْ فيه عن العاده ؛ ونُزلاؤك من أمراء العُرْبان عامِلْهم بالجميل ، وزِدْ فى أخذِ خواطرهم ولو ببَسْط بِساط الأُنْس لهم فما هو قليل ، : لتتضاعفَ رغْبَتهم فى كلِّ عام ، وليستدِلُّوا ببَشاشةِ وجهك لهم علىٰ مابعدَه من الإنعام ؛ ويِغالَ الكئوسات السعيدةِ والأعلامِ المنصوره ، وأثقال الخزانة العالية المعموره ؛ اجعلها من المهمّات المقدّمه ، والمقدَّمات لنتائج أيام النصر المُعْلَمه ؛ ورتِّبها فى مَواقِفِها ، وأتمّها أتمَّ ما يكون من وظائفِها ؛ فبها تثبتُ مواقفُ العسكر المنصور ، وإليها يأوِى كلُّ مستظِلٍّ ورَحىٰ الحرب تدُور ؛ وغير ذٰلك من قُماش الإصْطَبْلات السعيدة من الذّهب والفِضّة والحرير ، وكلّ قليل وكثير ؛ باشِرْه مباشرةَ من لا يتخلّى ، وأحصِه خَرجا ودَخْلا ؛ وإيَّاك والأخذَ بالرُّخَص ، او إهمالَ الفُرَص ، أو طلبَ فائتٍ جُرْم أهملته حتّى نكَص .

الرابعة — وصية مُقدَّم المماليك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف أنه يتحدّث فى أمر المماليك السُّلطانية والحُكم بينهم، ويركَبُ خلفَهم إذا ركب السلطانُ كأنّه يحفظهم . والوصية هى :

وليُحْسِن إليهم، وليُعْلَم أنّه واحد منهم ولكنه مقدَّمٌ عليهم ، وليأخُذْ بقُلوبهم مع إقامة المَهَابة التى يُخيِّل إليهم بها أنه مَعَهم وخَلْفَهم وبين يدَيْهم، وليُلْزِم مقدَّم كلِّ طَبَقة بما يلزمه عند تَقسيم صَدَقاتنا الجارية عليهم : من ترتيب الطِّبَاق، وإجراء ساقيةٍ جارية من إحساننا إليهم ولا يَنْسَ السُّوّاق؛ وليكُنْ لأحوالهم متعهِّدا، ولأمورهم متفقّدا؛ وليستعلِمْ أخبارَهم حتّى لا يزالَ منها علىٰ بَصيره،وليُعرِفْ ماهم عليه مما لا يخفىٰ عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلًا فإنهم جيرَه ؛ وليأمُرْ كلًّا منهم ومن مقدّميهم والسُّوّاقين لهم بما يلزَمُهم من الخدْمه ، وليُرتِّبْهم علىٰ حُكم مكانَتِهم منّا فإن تساوَوْا فليقدّم من له قُدْمه، وليُعدِل فى كل تَفرِقه، وليُحسنْ فى كل عَرْض ونَفَقه، وليفرِّق فيهم مالهم من الكَساوى ويُسْبِل عليهم رِداءَ الشَّفَقه ؛ وليُعِدّ منهم لغابنا المَحْمىّ سِبَاعا تفترس العاديَه ، وليُجْمِل النظرَ فى أمر الصِّغار منهم والكِبار أصحاب الطِّبَقات العاليه؛ وليأخُذهم بالرُّكوب فى الأيّام المعتاده، والدُّخول إلىٰ مَكان الخدْمة الشريفة والخروج علىٰ العاده ، وليُدِرْهم فى أوقات البيا كير والأسفار نِطاقًا دائرَ الدِّهْليز المنصور، وليأمُرْهم أمرا عامًّا بأن لا يركَبَ أحدٌ منهم إلا بدُسْتُور ولا ينزِلَ إلا بدُسْتُور ؛ وليحترِزْ عليهم من طوائف الغِلْمان ، ولا يستخدِم منهم إلا معروفا بالخير ويُقيِمُ عليهم الضُّمّان ؛ وليُحرِّر علىٰ مَنْ دخَل عليهم ونَحرَج ، ولا يفتَحْ لأحدٍ منهم إلا من عُلِم أنه ليس فى مثله حَرَج ؛ ولا يَدَع للرِّيبة بينهم مَجالا للاضْطراب، وليُوصِ مقدّميهم بتفقُّد مايُدْخَل إليهم فإن الغشَّ أكثرُه من الطّعام والشّراب ؛ وليُدِمْ مراجعَتَنا فى أمرهم فإنَّ بها يَعرِفُ الصواب، وليعمَلْ بما نأمره به ولا يجدْ جَوًى فى جواب .

الضـــرب الثانى

(ممّن يُكتب له بالوِلايات بالديار المِصرية أربابُ الوظائف الدينية، وهو على طبقتين)

الطبقـــة الأولى

(أصحابُ التقاليد ممّن يُكتَب له بالجناب العالى)

وتشتمل على عدّة وظائف

الوظيفـــةُ الأولى

(القضـاء)

قد تقـدّمَ فى المقالة الثانيـةِ فى الكلام على ترتيبِ الوظائف أنّ الديارَ المصرية كان يليها قاضٍ واحدٌ ، إلى أن كانت الدولةُ الظاهريةُ «بِيبَرس» فى أوائل الدّولة التّركيـة ، وقاضِى القضاة يومئذ القاضى تاجُ الدين عبـدُ الوهاب ابن بنتِ الأعزّ الشافعىّ ، فاضطَرب الأمرُ لاختلاف المذاهب ، فاقتضى رأىُ السلطان تقريرَ أربعة قُضاة من كل مَذْهب قاض ، وقُرِّر القـاضِى تاجُ الدين ابن بنت الأعزّ فى قضاء قُضاة الشافعية على حاله ، وكُتِب لكلٍّ منهم تقليـدٌ بذلك ، ثم خُصَّ قاضى القضاة الشافعيـة بالتولِيَة فى بلاد الريف دُونَ غيره من القُضـاة الثلاثة ، واستمرّ الأمرُ على ذلك إلى الآنَ . إلا أنه لـما حدثَ بديوان الإنشاء تنويعُ مايُكتب لأرباب الأقلامِ إلى تقاليد، فى قطع الثلثين ، وتَفاوِيضَ ، وتَواقِيعَ ، فى قطع النصف ، تقرّرَ الحالُ على أن يُكتَب للقُضاة الأربعة تواقيعُ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العـالى» ، ولم يزَلِ الأمرُ على ذلك إلى أن وَلِىَ القاضى عمادُ الدين احمدُ الكَرَكىّ الأزرقىّ قضاء قُضاة

الشافعية فى أوّل سلطنة الظاهر « برقوق » الثانية ، وأخوه القاضى علاءُ الدين علىّ كاتبُ السرّ ، فعُنِى بأخيه عمادِ الدين المذكور ، فكَتَب له تقليدا فى قطع الثلثين بـ«الجناب العالى» . وبَقِى الثلاثةُ علىٰ ماكانوا عليه من كِتابة التواقيع إلىٰ أن وَلِىَ القاضى جمالُ الدّين محمودًا للبىّ القَيْسَرىّ المعروفُ بالعَجَمىّ رحمه الله قضاء قُضاة الحنفيّة فى الدولة الظاهريّة أيضا، مضافًا إلىٰ نَظَر الجيش، فكُتِب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بالجناب العالى أيضا؛ وبقى المالكىُّ والحنبلىُّ علىٰ ماكانا عليه من كتابة التواقيع فى قَطْع النِّصف . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن وَلِىَ قاضى القُضاة جمالُ الدين يوسفُ البِساطىّ قَضاءَ قُضاة المالكية فى الدولة الناصرية «فرَج بن الظاهر برقوق» فأنشأتُ له تفويضًا وكتبت له به ، ولم يكُن أحدٌ ممن عاصَرْناه كُتِب له تفويض غَيْرِه . ثم لما وَلِى الشيخُ جمال الدين عبدُالله الأقْفَهسىّ قضاءَ المالكية، كتب له توقيعٌ فى قطع النصف ، إلا أنه كُتِب له بـ«الجناب العالى» كما يُكتَب لأصحاب التقاليد ، وجرىٰ الأمرُ فيمَن بعدَه علىٰ ذٰلك . ولم يبقَ من هو علىٰ النَّمَط الأول سِوىٰ قاضى القُضاة الحنابلة، ويُوشِك أن يُكتَب لكلٍّ من المالكىّ والحنبلِىّ أيضا تقليدٌ: لمساواتهم بغيرهم من الأربعة . وقد ذكرتُ ما يكتَب لهم من تقاليد وتواقيع هنا جمعا للمُفْتَرِق وتقريبًا للمأخذ .

وهـٰأنا أذكر ما يكتب للأربعة علىٰ الترتيب .

الأوّل (قضاء القُضاة الشافعية)

وهذه نسخةُ تقليدٍ بقضاء القُضاة الشافعية، كُتِب به لقاضى القُضاة تاج الدين ابن بنتِ الأعزّ رحمه الله، حينَ آستقرّ أحدَ القُضاة الأربعة بعد انفراده بالوظيفة علىٰ ما تقدّم، وهى من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر رحمه الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله مجرِّد سيف الحقِّ على من آعتدىٰ، ومُوسِّع مجَالِه لمن راحَ إليه وآغتدىٰ، ومُوضِّح طريقه لمن آقتادَ وآقتدىٰ، ومزيِّن سمائه بنُجوم تستمدُّ الأنوارَ من شمس الهُدىٰ ؛ الذى أعْذَب لِشرْعة الشريعة المحمَّدية يَنْبُوعا ، وأقامَها أصْلًا مَدَّ بثمار الرُّشْد فُروعا .

نحمده على نِعَمه التى ألزمَتْنا لتشييد مَبانيها شرُوعا، ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَعْمُر بها من القلوب والأفْواه رُبُوعا . ونصَلِّى على سيدنا محمد الذى أرسله الله إلىٰ الخلائق جميعا، وقام بعبْء الأمر يصنَعُ حَسَنا ويُحْسِن صَنِيعا ، صلى الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لا يبْرح برقُها ملمُوعا، ولا ينفكُّ وِتْرُها بالتسليم مشْفُوعا .

وبعدُ، فإنَّ أحقَّ من جُدِّد له شرَفُ التقريض، وخُلِّد له إرضاءُ الأحكام وإمضاءُ التفويض ، وريِّش جناحُه وإن لم يَكُن المَهِيض ، وفُسِّح مجالُه وإن كان الطويلَ العَريض ؛ ورُفِع قدْرُه علىٰ الأقدار ، وتقسَّمتْ من سَحائبه الأنواءُ ومن أشِعَّته الأنوار، من غزُر مدُّه فجرَتْ منه فى رِياض الحقِّ الأنهار، وغدا تخشَع لتقْواه القلُوبُ وتُنصِت لقوله الأسماع وترْنُو لمُحَيَّاه الأبصار؛ قد أوقَد من إرشاده للأمة لُطْفًا فلُطْفا، وأوقَد من علمه جذْوةً لاتخبُو وقَبَسا بالهوىٰ لايُطْفىٰ، وفاتَ النُّظَراء والنُّظَّار فلا يُرْسل أحدٌ معه طِرْفا ولا يَمُدّ إليه من حَيائه طَرْفا ، وآحتَوىٰ من عُلُوم الشريعة علىٰ ماتفرّق فى غيْره ، وغدا خيرَ دليلٍ إلىٰ الحقِّ فلا يُقتَدىٰ فى المُشْكلات إلا برأْىِ آجتهادِه ولا يُهتَدىٰ فى المذاهب إلا بِسَيْره؛ وكان لفَلَك الشريعة المحمَّدية قُطْبا، ولجُثْمانِها قَلْبا ولِسوارها قُلْبا ، ولدليلها بُرهانا ، ولإنسانها عينا ولعينها إنْسانا؛ فكم أرضىٰ بَنِى الأنام عن الأيَّام، وكم أغضىٰ حياءً مع قدرته علىٰ الآنتقام ؛ وكم أمضَىٰ لله حُكْما لا آنفصالَ لعرْوته ولا آنفِصام ، وكم قضَىٰ بالجَوْر فى ماله وبالعَدْل فى الأيتام؛

فلو ٱستعداهُ الليلُ علىٰ النهار لأنصفَه من تعدّيه، ولم يُداجه لما ستَرَه عليه من تعدِّيه فى دَيَاجيه؛ فهو الصادِعُ بما أمر اللهُ به ولو علىٰ نفْسه، والمستردُّ الحقوقَ الذاهبة من غير محاباةٍ حتّى لندِه من يومِه وليومه من أمْسِه.

ولما كان قاضى القُضاة تاجُ الدين عبدُ الوهّاب ممن هو فى أحْسَن هذه السِّمات قد تَصوَّر، وكادَتْ نجومُ السماء بأنواره تتكثَّر، وتجَوْهَر بالعلوم فأصبح حقيقةً هو التاجَ المُجوْهَر؛ وله مزايا السُّؤدد التى لايُشَك فيها ولا يُرْتاب؛ وسجايا الفضلِ التى إذا دخل [اليه] غيرُه من باب واحد دخل هو إليه من عِدّة أبْواب؛ وهو شجرةُ الأحكام، ومَصْعَدُ كَلِم الحُكّام، ومَطْلَع أنجُم شرائع الإسلام، ومَهْبِط وَحْى المُقَلَّدات والإرْتسام، ومجتَمَع رِقاق القضايا فى الحلال والحَرَام - خرج الأمرُ الشريفُ بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القُضاة بالديار المصرية: فليستصْحِبْ من الحق ما هو مَلِىٌّ باستصحابه، وليستمِرَّ علىٰ إقامة مَنَار الحق الذى هو مُوثِّق عُراه ومؤكِّدُ أسبابه، وليحتَلِبْ من أخْلاف الإنْصاف ما حفَّله ٱجتهادُه ليد احتلابه؛ عالمًا بأنّ كل إضاءة إنارتُها من قَبَسه، وإنِ ٱستضاء بها فى دَيَاجى المُنىٰ؛ وكلَّ ثمرةٍ من مغترَسه، وإن مَدّ إليها يدَ الاجتنا؛ وكلَّ جدْوٍ هو من بحْره وإن بَسَط إليه راحةَ الإغتراف؛ وكلَّ مَنْهَج هو من جادّتِه وإن ثنىٰ إلىٰ سُلوكه عِنَان الإنصراف لا الإنحراف؛ وهو بحمد الله المجتهدُ المُصيب، والمادّةُ للعناصر وإن كان نصيبُه منها أوفرَ نصيب؛ وسجاياهُ يتَعلَّم منها، كيْف يُوصَّى ويُعلَّم؛ ومزاياه تُقوِّم الأوَد، كيف يُقوَّم؛ والله الموفّق بمنّه وكرمه!.

الثانى - قاضى قُضاة الحنفيّة علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحالُ من لَدُن القاضى جمالِ الدين محمودِ القَيْصَرى وإلىٰ آخر وقت. وموضوعُها النظرُ فى الأحكام

الشرعيَّـة على مـذهب الإمام أبى حنيفـة رضى الله عنـه ، ويختصُّ نظره بمصر والقاهرة خاصَّةً .

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية كُتِب به لمن لَقَبه شمسُ الدين ، وهى :

الحمدُ لله الذى أطْلَع فى أفُق الدِّين الحنيف شمسا مُنِيرَهْ ، ورفَع درجةَ من جعله من العلم على شريعةٍ ومن الحكم على بصيرَهْ ؛ وقلَّد أمورَ الأمة لمن يَعْلم أنَّ بين يديه كتابًا لا يُغادر صغيرةً ولا كبيره ، ووَفَّق لفصل القضاء مَنْ مشَى على قَدَمِ أقْدم الأئمة فسار فى مَذْهبه المُذْهَبِ أحسنَ سِيره ، الذى ادَّخر للحكم فى أيَّامنا الشريفة من نفائس العلمـاء أفضلَ ذخيره ، وقضَى بإرجاء أمْرِه لنختارَله من تحلَّى به بعد العَطَل وكُلُّ قضاءٍ خيره ، وأيقظ عنايَتنا لمن رقَد الدهرُ عن فضله فباتَتْ عينُ الآستحقاق بآستقرار رتبته قَرِيره .

نحمـدُه حمدَ مَنْ توافَتْ إليه النِّعم الغَزِيره ، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرةُ فى المُدَد اليسيره ، وأخصبَت فى أيامه رياضُ الفضائل فهى بكلِّ عالم عدِمَ النظير نَضِيره ؛ وآفتتح دولتَه برَفْع منَار العدل فآمالُ أهل الظلم عن تعَاطيه قاصرةٌ وأيْدى أهل الباطل عن الآمتداد إليه قَصِيره ، وخصَّ المناصبَ فى ممـالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّسَتْ بهـا هِممُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو آمتدتْ إليها أبصارُ مَن دُونَهم رجعتْ حَسِيره .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُضَاحِ العَلَنَ والسريره ، وتُصْبِح بها القلوبُ موقنةً والألسُنُ ناطقةً والأصابعُ مُشِيره ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبـده ورسـوله الذى بعثَ الله به الرسُـل مُخْبِرةً وأنزل الكُتُب بمبعثه بَشِـيره ؛ وآجتباه فى خير أُمَّة من أكرمِ أَرُومة وأشرف عَشِيره ، وأظهر أنوارَ مِلَّتـه إلا لمن أعمى الغىُّ بصيرتَه وهل ينفع العُمْىَ شمسُ الظَّهِيره ، وخصَّه بالأئمة الذين وفَّقهم للاستعانة بالصبر

والصلاة وإنها لكبيره، وجعل علماءهم ورثة الأنبياء فلو ادعيت لأحكامهم العصمة لكانت بذلك جديره؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة نتقرب بدوامها إلى الله فيضاعفها لنا أضعافا كثيره، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى الأمور بأن تشاد قواعده، وتتعهد معاهده؛ ويعلى مناره، وتفاض بطلوع شمسه أنواره؛ ويحلى به بعد العطل جيده، وينظم في سلك عقود الأمة فريده؛ وتكمل به قوى الدين تكملة الأجساد بقوى الطبائع الأربع، وتعمر به ربوع الملة التى ليس بعدها من مصيف لملة ولا مربع، وتثبت به قوائم الشرع التى ما للباطل فى إمالة بعضها من مطمع؛ وتجلى به عمن ضاق عليه المجال فى بعض المذاهب الغمه، ويستقر به عدد الحكام على عدد الأئمة المستقر على عدد الخلفاء الراشدين من خلفاء الأمه؛ ويمد به على الخلق جناح الرحمة وافر القوادم وارف الظلال، ويجمع به عليهم ماجمع الله فى أقوال أئمتهم من الحق وما ذا بعد الحق إلا الضلال، ـ أمر القضاء على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه الذى اشتق الله له من الملة الحنيفية نسبة سرت فى الآفاق، وأفاض عليه من مواد القياس الجلى كنوزا نمت على الإنفاق، وعضد أيامه بوليي عهد قولهما حجة فيما تفردا به من الخلاف أو اجتمعا عليه من الوفاق؛ وعد من التابعين لقدم عهده، وسمى «سراج الأمة» لإضاءة نوره بهما من بعده .

ولما خلا بانتقال مباشره إلى الله تعالى، توقف مدة على ارتياد الأكفاء، وارتياء من هو أهل الاصطفاء، واختيار من تكمل به رفعة قدره، ويعيد لدسته بتصدره على بساط سليمانه بهجة صدره؛ ويغدو لسر إمامه بعد إماتة هذه الفترة باعثا، ويصبح وإن كان واحد عصره لأبى يوسف ثانيا ولمحمد بن الحسن ثالثا؛

ويُشَبَّه به البَلْخىُّ زُهْدا وعِلْما ، والطَّحاوِيُّ تمسُّكا بالسُّنَّة وفَهْما ، ويغترِفُ القُدُورىُّ من بحره ، ويعترف الحُصَرِىّ بالحَصَر عن إحْصاء فضله وحَصْره ، ويقف من مذهبِ ابن ثابت ، على أثبتِ قَدَم وينتمى من فِقْـه النُّعمان إلى فَرْع زاكٍ وأصـل ثابت ، وينشُر من أحكامه ما إنْ وافق الأئمّةَ فهو حُجَّـة قاطعة ومَحجَّة ساطعـه ، أو خالفهم بمَذْهبه فهو رحمةٌ واسعه ، ونعمةٌ [و] إن كانت بين الطُّرق فارقةً فإنَّها على الحق جامعَه .

ولمـا كان فلانٌ هو المنتظَر لهذه الرتبة آنتظارَ الشمس بعـد الغَسَق ، والمرتقَب لبلُوغ هذه المنزلةِ التى تقدّمتْ إليها بوادِرُ آستحقاقه فى السَّبق ، والمعطوفَ على من وُصِف من الأئمة وإن تأخّر عن زمانه عطفَ النَّسَق ، وهو الذى مادامَ يعـدِلُ دمَ الشهداء مدادُ أقلامِه ، وتضع الملائكةُ أجنحتَها رضًا بمـا يصنَع من نقل خَطَواته فى طلب العلم وسَعْىِ أقدامِه ، ودخلَ من خشيةِ الله تعالى فى زُمْرة من حُصِر بإنّما(١) ، وهجَر المضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدّت هجَعاته لقَلَّـا ، وهجّر فى إحراز الفضائل فقيَّـد أوابِدَها ، وأحرَزَ شَـوارِدَها ، ولَجَّج فى بِحار المَعَـانى فغاصَ على جواهرِها ، ونظر نظرَةً فى نُجوم العُـلوم فاحتوى على زُهْرِها ورادَ خمائِلَ الفضائل فاستولى على أزاهِرِها ، وآنتهى إليه علمُ مذهبِه فبرَّز على من سَلَف ، وجارى علمـاء عصره فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤية غُبَـاره وما وقَف ، ونَحَا نحوَ إمامه فلو قابله يعقوبُ مع معرفتِه فى بحثٍ لآنصرَف ، وتعيّن عليـه القضاءُ وإن كان فرضَ كفاية لا فرضَ عَيْن ، وقدّمـه الترجيحُ الذى جعل رُتبتَه همزةَ آستفهامٍ ورتبـةَ غيرِه بَيْنَ بَيْن ـ آقتضى رأيُنا الشريفُ آختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ على فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز .

(١) يريد الاشارة الى قوله تعالى : « إنمـا يخشى الله من عباده العلماء » .

فلذلك رُسِم أن يفوّض إليه كيت وكيت . فليتولّ هذه الرتبة التى أصبح فيها عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نائبا وبشَرْعِه قائما، ويتقلّدْها تقلُّدَ من يعلَم أنه قد أصبح علىٰ حكم الله مُقْـدِما وعلىٰ الله قادِما، ويتثبّتْ تثبُّتَ من يعتصِمُ بالله فى حُكْمه فإنّ أحدَ الخَصْمين قد يكونُ ألْحَنَ بحجّته وإن كان ظالمًا، ويلْبَس لهذا المَنْصب حُلّةً تمنع المُبْطل من الإقدامِ عليه، وتدفعُ الظالم عن التطاوُل إلىٰ أمرٍ نزَعه الشرعُ من يدَيْه، وتُؤَمّن الحقّ من آمتدادِ يدَىِ الجَوْر والحَيْف إليه؛ وليُسوِّ بين الخصمين فى مجْلسه ولحْظه، ويَعْـدِلْ بينهما فى إنصاتِه ولفظِه، : ليعلَمَ ذُو الجاه أنه مساوٍ فى الحق لخَصْمه، مكفوفٌ باستماعِ حجّته عن الطمَع فى ظُلْمِه؛ ولا ينقُض حكما لم يخالِفْ نَصّا ولا سُنّةً ولا إجماعا، وليُشارِكْ فيما لايجهله من القضايا غيْرَه من العلماء ليتزيّد بذلك مع آطّلاعه آطلاعا، وليغتنِم فى ذلك الآستعانةَ بآرائهم فإنّ الله تعالىٰ لاينتزِع هذا العلم انتزاعا؛ وليسُدّ مَسالكَ الهوىٰ عن فِكرِه، وتَصْرِفْ دواعىَ الغضَب لغيرِ الله عن المُرورِ بذُكْرِه[1]؛ وليجعلِ العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحْكُمْ بما أراه الله ﴿والله يحكُم لا مُعقِّبَ لحكْمه﴾، إن شاء الله تعالىٰ .

الثالث — قاضى قضاة المالكية :

وهـذه نسخة تقليد بقضاء قُضاة المـالكيـة ، لقاضى القُضاة جمـالِ الدين يوسُـفَ البِساطِىِّ المُقَـدّم ذكرُه ، فى العَشْر الأخير من رَجَب الفَرْد سـنةَ أربع وثمـانمائة، وهو :

الحمـدُ لله الذى شَفع جَلالَ الإسـلام بجَماله ، وناط أحكامَه الشرعيّة بمن آقترن بحميـد مَقاله جميـلُ فِعاله ، وخصّ مذهبَ عالِمِ المدينةِ بخيْرِ حاكمٍ ما جرىٰ حديثُه

(١) الذكر والذكر أى بالضم والكسر الذكر .

الحسنُ يومًا إلا وكان معْدودا من رجاله ، وعدق النظر فى أحكامه بأجلّ عالم لو طُلب له فى الفضل مِثْلٌ لعجز الزمانُ أن يأتى بمثاله .

نحمده على أن أخلف من النَّبْعة الزكيّة صِنْوًا زاكيا ، وأدال من الأخ الصالح أخًا للعُلوم شافيا ، ولمَنْصبه العليّ ولله الحمدُ وافِيا . ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحده لا شريكَ له مجرّدُ سيف الحق على كلّ مبطل معانِد ، ومرهِفُ حدّه القاضِبِ لكل مُلْحِدٍ عن سَوَاء السبيل حائد ؛ وأنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيّ فاق الأنامَ بفضله وعَمّ البريّةَ بعَدْله ، وسُدّ بابُ التوبة على متنقّصه فلم تكن لتُقبَلَ توبةُ مثله ، وكان إلىٰ مالكٍ مصيرُه فلا جرم قَضَىٰ بإهدار دَمه وتحتُّم قتلِه ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ذَبُّوا عن حمىٰ الدين وذادُوا ، وسلكوا سبيلَ المَعْدَلة إذ حكَمُوا فما ضَلُّوا عن سَنَن الطريق ولا حادُوا ؛ صلاةً تبقىٰ ببقاء الدُّهور ، ولا تزولُ بهجةُ جمالها بتوالى الأعوامِ والشُّهور ، وسلّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنّ أَوْلىٰ ماقُصِر عليه النظَر ، وآستغرقتْ فيه الفِكرُ وعَرَا العيونَ فيه السهَر ، وصُرِفت إليه الهِمَم ، ورَغِبت فى البراءة من تخلّفه الذِّمم - النظرُ فى أمر منْصب الشرع الشريف الذى يأْوِى الملهوفُ إلىٰ ظلّه ، ويلجأ المستجيرُ إلىٰ عَدْله ، ويتعلّق العُفَاة بوثيق عُرْوته ومَتِين حَبْله ؛ وبرَهْبته يكُفّ الظالم عن ظُلْمه ، وينتصفُ الخصمُ من خَصْمه ، ويُذْعِن العاصى إلىٰ طاعته وينقادُ الأَبِىّ إلىٰ حُكْمه ، ويأْتمُّ به الحائرُ فى دُجىٰ الجهل فيستضىءُ بنُوره ويهتدى بنَجْمه ؛ لاسيما مذهَبُ مالكٍ الذى لم يزَلْ للدِّين من أهل الإلحاد مُثْئِرا ، وللقصاص من أهل العِناد مبتَدِرا ، وبسَلّ سَيف الحقِّ علىٰ الطُّغاة المتمردين مشتَهِرا ؛ ففاز من سَطَوات الإرْهاب بأرْفع المراتِب ، وعلا رقابَ المُلْحدين بأرْهفِ القواضِب ، وخُصّ من

سَفْك دِماء المُبْطِلين على البَتّ بما لم يشارِكْه فيه غيرُه من المذاهب ؛ فوجب أن يُختارَ له من ينُصّ الأخبار على انه أهل للاختيار ، ويقطع المنافسُ أنه الراجحُ وَزْنا عند الاعتبار ، وتأخذ مناقبُه البسيطةُ فى البَسْط فلا تنفَدُ إذا نفِدت مناقِبُ غيره المركّبةُ عند الاختصار ؛ ويشهَدُ له ضِدُّه بالتقدّم فى الفضل وإن لم تتقدّمْ منه دَعْوى ، ويعترفُ له بالاستحقاق خصمُه فيتمسّك من عدم الدافع فيه بالسّبب الأقوى ، ويحكُمُ له بعلوّ الرُّتبة مُناوِئُه فيرتفع الخلافُ وتنقطع النَّجْوى ، ويسجّل له حاسدُه بثبوت المفاخر المحكوم بصحّتها فلا ينقضُها حاكم وإن بلغ من تدقيق النظرِ الغايةَ القُصْوى ؛ وتنفذ أحكامُه فى البريّة فلا يُوجَد لها مخالف ، وتحذَر شيعةُ الباطل سَطْوتَه فلا يرى لباطل مُحالف ، ويشْتَهِر عنه من نُصْرة الحق ما يأْمَن معه المستضْعَف الخائف ، ويتحقّق فيه من قيام العَدْل ما يرتدع به الظالم الحائف ؛ ويَستوِى عنده فى لزوم الحق القوىُّ والضعيف ، ولا يُفرِّق فى لازمه بين المشْرُوف والشريف ، ولا يميِّز فى حَمْل الأعباءِ الشرعيّة بين الشّاق وغيره ولا بين الثقيلِ والخفيف ؛ ولا يُحابِى قريبًا لقرابته ، ولا جليلا لجلالته ، ولا ظالمًا خوفَ ظلمه ولاذا استطالةٍ لاستطالته ، ولا يستزِلُّه ذُولَسَن لِلَسَنه ولا بليغٌ لبلاغته ، ولا يُخالِف بين الصديق الملاطِف وغيرِه إلا فى منْع قَبُول شهادته .

ولما كان المجلس العالى القاضَوِىّ ، الكبيرِىّ ، الإمامِىّ ، العالمِىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرئيسِىّ ، الأوحدِىّ ، العلّامِىّ ، الكامِلِىّ ، الفاضِلِىّ ، المُفِيدِىّ ، القَرِيدِىّ ، المُجِّىّ ، القُدْوِىّ ، الخاشِعِىّ الناسِكِىّ ، الحاكِمِىّ ، الجَمالِىّ ؛ جمالُ الإسلام ، شرفُ الأنام ، حاكمُ الحُكّام ؛ أوحدُ الأئمه ، مُفيد الأمّه ؛ مؤيّدُ الملّه ، مُعِزُّ السنّه ؛ شمسُ الشريعه ، سيفُ المناظرين ، لسانُ المتكلمين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين ،

أبو المحاسن «يوسفُ البِساطيُّ» المالكى ـ أدام الله تعالى نعمته ـ هو المرادُ من هذه الصِّفات، التى وقعَتْ من محلِّه الكريم موقِعَها، والمقصودُ من هـذه السِّمات، التى أَلِفتْ من سِيرته الفاضلةِ موضِعَها، وقارعُ صَفاة هذه الذِّرْوة التى ما كان ينبغى لغيره أن يَقْرَعها ؛ وشمسُ الفضل الحقيقُ بمثلها أن لا يتوارىٰ جمالُها بحجاب الغُروب ، وفاصِـلُ مشْكِلات القضايا إذا آشتدّ إشكالُهـا وعظُمت فى فَصْلها الخُطُوب ، ومتعَيِّن الوِلاية التى إذا كانتْ فى حقّ غيره علىٰ الإباحة كانتْ فى حَقّه علىٰ الوُجُوب؛ وقد دَرَّب الأحكامَ وخَبَرها، وعَرَف علىٰ التحقيق حالَها وخَبَرها، ووردَ من مَشارِبها الرائقة أصفىٰ المنـاهِل فأحسَن وِرْدَها وصَدَرها ؛ ونَفُست جواهِر فوائدِه ففاقَت جواهرَ المعادِن ، وغطَّت محاسنُ فضله فضائلَ غيره ولا تُنْكَر المحاسنُ لـ«يوسُفَ» وهو «أبو المَحاسن» ، فعلُومه المدَوَّنة بالبيان والتحصيل كافِله ، ومُقَـدِّمات تنبيهاته بنتائج النَّوادر الحسنةِ متواصِـلَه ؛ وتهذيبُ ألفاظه المنقَّحة تُؤْذِن بالتحرير، وعيونُ مسائله المتواردةِ لا تدخُل تحت حَصْر ولا تقْدير؛ فلو رآه «مالك» لقال : ما أعظَمَ هـذه الهِمَّه، أو أدركه « آبنُ القاسم » لوَفَّر من الثناء عليه قِسْمَه، أو عاصره «آبنُ عبدالحَكَم» لحَكَم له بأنَّ سهْمه قد أصاب الغَرض وغيرَه أطاشَ الريحُ سَهْمَه ؛ أو عاينه «أشهبُ» لقال قد ركِب هذا الشَّهباءَ أنَّى يُلْحَق ، أو سمع « آبنُ وهْب » كلامه لقطع بأنه هِبَـةٌ ربَّانيَّة وبمثله لم يُسْبَق؛ أو بلغ « آبنَ حبيب » خبرُه لأحَبَّ لقاءه ، أو بَصُر به «سُحْنون» لتحقَّق أنه عالم المذْهَب ما وَراءه ؛ أو آستشعر بقُدومه « آبنُ سِيرين » لبَشَّر به، أو جاوره «آبنُ عَوْف» لعـاف مجاورةَ غيره أو مجـاوزةَ طُنُبه؛ أوجالسه «آبن يُونُس» لتأنَّس بمجالسته، أوحاضره «أبو الحسنِ بنُ القَصَّار» لأشْجىٰ قلبه بحُسن محاضَرته؛ أوجاراه «القاضى عبدُ الوَهّاب» لقضىٰ بعُلوِّ مكانَته ، أو آتَّصل ذكره «بالمـازَرِى» لزَرَىٰ علىٰ «مازَر» لبُعْدها عن دار إقامتِه؛ أو آطَّلع

«القاضى عياضٌ» علىٰ تحقيقاته لاَستحسَنَ تلك المَدارك، أوناظره «آبنُ عبدالسلام» لسَلَّمَ أنه ليس له فى المناظرة نظيرٌ ولا فى تدقيقِ البحثِ مُشارِكٌ؛ أو مَرَّ به «آبن الجَلَّاب» لجلَبَ فوائدَه إلىٰ بلاده، أو حضَره «آبنُ الحاجب» لتحقَّق أنه جامعُ الأُمَّهات علىٰ آنفراده .

هـذا وقد حُفَّ بجَلَال لا عهْدَ لأحدٍ بمثله ، ولا طاقةَ لفاضل بمُقاومةِ فضْله ، ولا يَسْمَح الزمان بنظيره من بعده كما لم يَسْمَح به من قَبْله ؛ فاجتمع من جَمال الجَلَال، وجَلال الجَمال، ما لم يكن ليدخُل تحتَ الإمكان، وعُزِّز عددُهما من أعلام الأئمة بثالثٍ ورابع فقام بنـاءُ الدِّين من المذاهب الأربعة علىٰ أربعـةِ أركان ؛ ولا عِبرةَ بمـا يذْهَب إليه الذاهبون من كراهة التربيع تَبَعًا للمنجِّمين فى آعتقادِهم الفاسد ، فقد ورد أنَّ زَوايا الحوض علىٰ التربيع وذٰلك فيه أعظمُ دليل وأقومُ شاهد .

وكان مـذْهَب مالك رحمـه الله هو المُراد من هـذه الوِلاية بالتخصيص ، والمجْلِسُ الجَمالىّ المشارُ اليه هو المقصودُ بهذا التفويض بالتنصيص ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُوَفِّى مرتبتَه السنيَّةَ حقَّها، ونُبَوِّئَ النِّعم مستحِقَّها، ونملِّك رقابَ المعالى مسترِقَّها ، ونقدِّم علىٰ طائفة المـالكيَّة من أضحىٰ لهم جَمـالا ، ونُتحِفهم بمن أمسىٰ لعِزِّهم كمالا ، ونفوِّض قضاءَ مذْهَبهم إلىٰ من إذا جرىٰ فى مَيْدان حُكْمه قالت محاسنُ قضاياه : (هكذا هكذا وإلا فلالا) . ونُسنِدَ الأحكامَ الشرعيةَ إلىٰ من هو بها أعرَف ، ونقِفَها علىٰ من عُرِف أنه علىٰ الحقائق ماضٍ وعند السُّـنَّة يتوقَّف ، ونُعدِق أمرها بمن أَلِفَ النزاهةَ فنكِرَةُ المَطامع عنده لا تَتعرَّف ؛ ونَكِلَ النظرَ فيهـا إلىٰ مَنْ أمسىٰ لشُروط الآستيجاب جامِعا ، ونُقدِّم فى ولاية هذا المنْصِب من شَفَع له آستحقاقُه وكفىٰ بالآستحقاق شافِعا .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف - لازال يَبْسُط لأوليائه من بِساط الأُنْس ما كان مَطْوِيّا ، ويُنيلهم من رغائبِ الآمال ما كان عنهم فى سالِف الأزمانِ مَزْوِيّاً - أن يُفوَّضَ إليه قضاءُ قُضاة مذهب عالم المدينة ، وإمامِ دارِ الهجرة ، مالكِ بن أنَس الأصبحىّ : قدّس الله تعالىٰ رُوحَه . فليتلَقَّ مافُوِّض إليه بأفضل تلقٍّ يليق بمِثْله ، ويتقبَّلْه تقبُّلا يناسب رِفعة محلِّه ، وليبتَهِجْ بأجلِّ تفويض لم يُسْمَحْ بتمنِّيه لآخر من قبــله .

ومن أهمِّ مانُوصِيه به ، ونوجِّه القول إليه بسببه ، تَقْوى الله تعالىٰ التى هى مِلاَك الأمرِ كلِّه ، وقِوَام الدين من أصله ؛ والاشتمــالُ عليها فى سِرِّه وجهره والعملُ بهــا فى قوله وفعلِه ، ثم بِرُّ الخلق والإحسانُ إليهم ، والتجاوُزُ عنهم إلا فيما أوجبه الشرعُ من الحقوق عليهم ؛ ففى التقوىٰ رضا اللهِ وفى البِرِّ رضا الخلقِ وناهيــك بجمعهما من رُتْبــة فاخره ، إذ لا شكَّ أنَّ من حصَّــل رضا الله ورضا الخلق فقد حصَل علىٰ خير الدنيا والآخره ؛ ووراءَ ذلك قاعدةٌ فى الوصايا جامعــه ، وتذكِرة لذوى الذِّكرىٰ نافِعه ؛ وهى أن يتأمَّل أحوال غيره تأمُّل من جعلها لنفسه مِثالا ، ولنَسْجه مِنْوالا ؛ فمـا استحسنه منها أتىٰ مثْـلَه ، وما استقبحه تجنَّب فعـلَه ؛ واقفًا فى ذلك عنــد ما وردَتْ به الشريعة المطهَّرة بنص صريح أو تأويل صحيح ، مُعْرِضا عن العقليَّات المحضَةِ فلا مجالَ للعقْل فى تحسينٍ ولا تقْبيح .

وأما أدَبُ القضاء الجارى ذِكْرُ مثْـله فى العُهُود ، والنظرُ فى أمرِ النُّوَّاب وكُتَّاب الحكم والشُّهود ؛ فهو به أدرَبُ وأدرَىٰ ، وبمعرفة ذلك لهم وعليهــم أحقُّ وأحرَىٰ ؛ غيرَ أنَّا نُوصِيــه بالتثبت فى أمرِ الدِّماء وعَلاقتِها ، وتحقُّق حكمها قبلَ الحكم بإراقتها ؛ فإنَّ ذلك لمـادَّة القلَق فيها أحْسَم ، ومن تبِعاتها فى الدارين أسْـلَم ؛ والوصايا كثيرةٌ

ولكنَّها منــه تُستفاد، وعنــه تؤخَذُ وإليــه تُعاد؛ والله تعالىٰ يتولّاه، ويحُوطه فيما وَلّاه، ويُديم عليه هذه النعمةَ فما فوق مَنصبه منصبٌ يتمنّاه؛ والاعتمادُ (١) ... ... إن شاء الله تعـالىٰ .

وكُتِب لستٍّ إن بَقِين من شهر رجب الفردِ عامَ أربع وثمـانمـائة، حسَبَ المرسوم الشريف، بمقتضىٰ الخط الشريف .

وهذه نسخة توقيع بقضاء القُضاة الحنفيَّة بدِمَشْق، من إنشاء القاضى ناصر الدين ابن النَّشائى، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَنـارَ الشَّرع الشريف مستمِرًّا علىٰ الدَّوام، وشمَّل مَنْصب الحكمِ العزيز للعالِمِ بعد العالِمِ علىٰ ممرِّ الأيام، وأجملَ انتخابَ من يقُوم بأعباء القضايا، ومن تدُوم به مَزايا السَّجايا، فيتخيَّر لذٰلك الإمام بعد الإمام، وأقبل بوجْه اجتبائِه علىٰ ولىٍّ تتأكَّد بإنصاته وإنصافِه إحكامَ الأحكام، وعدَل باعتنـائه إلىٰ تعيينِ من ترتفع به فى العلوم أعلامُ الإعلام، ومن يتأيَّد به الحقُّ فى كل نقضٍ وإبْرام .

نحمده علىٰ نِعَمه الوافرة الأقْسام، السافرةِ [اللثـام] عن وجُوه الزيادة الوِسَام، ونشكره علىٰ مِننه الجِسام، ومَوَاهِبـه التى لا تبرحُ ثغورُ إحسانهـا لذوِى الاستحقاق واضحةَ الابْتِسام .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً كفيلةً بالمَرام، مُنيلةً للإكرام، جميلةَ التلفُّظ والالتئام، جزيلةَ الكَنَف والاعتصام؛ ونشهَد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله الذى أقام اللهُ به شعائرَ الإسلام، وأظهر شرائعَ الدين الحنيف بحُسَامِ نصره الحَسَّام،

(١) أى إلىٰ آخر ما يكتب فى مثله، وحذفه من باب الاختصار .

وأورثَ مَنْ أحلّه من أمّته كُنوزَ العلوم التى لاتنفَـدُ فوائدُها مع كثرة الإنفاق مدى السنينَ والأعوام، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هَدَوْا المؤمنين بإلهام الكلام، وعَدَوْا على المشركين بسِهام الكِلام، وأبدَوْا من إرشادهم إلى خفَايا القضايا ما يظْهر بتهذيبهم ظُهورَ بدْر التّمـام، صلاةً دائمةً باقية تُجْزِل لقائلها الأجْر التام، وتُرسل إليـه سحائبَ المواهب هاطلةَ الغَمام، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ أوْلى من تذْهَب به مذْهَبُه، وتحلّى به محلُّ الشرع الشريف ومَنْصبُه، وأنار بنُور إرشاده ليلُ الشك وغيهَبُه، وسَهُل بتقريبه على فَهْم الطالب مطْلَبُه، وهمى به وابِلُ العلم وصيّبُه، وأُتيح به لاستفيد كنْزُ الفوائد التى يَدْنو بهـا أرَبُه، وشِيم من برق شِيَمِه بالشام ماوُجِد فى الجُود صادِقُه وفُقِـد خُلَّبُه ـ مَنْ علا فى العلوم نَسَـبُه ، وتأكّد فى الدين سَبَبُه، وشَـيَّد مبْنِيَّ المَعَالى مُعْرِبُه، وصقَل مَرَايا الأفهام مُهذِّبُه ، وزاحمَ منكبَ الجَوْزاءِ فى آرتفاع القَدْر منكِبُه، وجمّل مَوَاكِب المباحِث فى الأصول والفروع مَوْكِبُـه، وسحّتْ بدقائقِ الحقائق سُحُبه، واشـتاق إلى قُرْبه موطنُ الحكم العزيز فمـا زالَ يرتقِبُـه ، وآرتاحَ الزمانُ إلى عَفَافه وإنصافه فأرشـد حيثُ نختارُه لذلك ونَنتخِبه .

ولمـا كان المجلس العالى ... ... [1] أيّد الله أحكامَه هو الذى أرشَدَ الطالِبين فى البِـدايه [2] ، وأفاد المنتهِين درجاتِ النِّهايه ، وأفهَمَ المستَفيدينَ صوابَ الهِـدايه ، وغدا سابقًا [فى] حَلْبَة العُلَماء إلى أقصى غايه . كَمْ قرّب إلى الأذهان غامضَ المُشْكل وأوضَحَ مفهُومه ، وكَمْ أشاع فرائد فوائده التى طبّق الأرض بها عُلُومَه، وكم أباح لَقْطَ ألفاظه المشحونةِ بالحِكَم فتحلّى الناس بدُرَرِها المنثورةِ والمنظُومه ؛ معَ ماله من دينٍ

(١) بياض بالأصل متروك لتكملة الألقاب المعلومة كالأميرى الكبيرى الخ .

(٢) فى المصباح مانصه : "والبداية بالياء مكان الهمز عامى" نص عليه ابن برّى وجماعة" .

متين ، وآستحقاق للتقدّم مُبين ، وصلاح بلغ به درجاتِ المتّقين المرتقين ، وآتباع لسُنَن الحق فى الحُكم بين الخَلْق عن يقين - آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن يُقْرَن منصبُ القضاء بجماله ، وأن يُعوّض عن إمامه المفقود بإمامه الموجود ليستمرّ الأمرُ علىٰ حاله .

فلذلك رُسِم ... ... - لا زالت أئمةُ العلم الشريف فى أيامه يخلُف بعضُهم بعضا ، وأقدارهم تدُوم رِفعتُها مدىٰ المُدَد فلا تجد نَقْصا ولا نقضًا - أن يُفوّض ... ...(١)

فليُباشِرْ ذلك بعلمه المأثور ، وحُكمه المشْهور ، و إنصافه الذى يَعْدل فيه ، وآتصافه بالحق الذى ما بَرِح يُوفيه ؛ قاضيًا بينَ الخصوم بما أمر اللهُ عز وجل ، مراقبا لخشية الله علىٰ عادته ، مُذيعًا لِلمّة الحنيفيّة أنواعَ إفادته ؛ قاطعا بنَصْل نَصّه مُشْكل الإلباس ، جامعًا فى أحكامه المسدّدة بمقتضىٰ مَذْهبه بين الكتاب والسُّنّة والقياس .
والوصايا كثيرةٌ وملاكها التقوىٰ وهى مادّتُه ، وطريقُه المستقيمُ وجادّتُه ؛ وما زالتْ عُمْدَتَه التى يعتمدُ عليها ، وعدّتَه التى يستند فى إسناد أمْرِه إليها ؛ والله تعالىٰ يجمّل الأيام بأحكامه ، ويبلّغه من خير الدنيا والآخرة غايَةَ مُراده ومَرامه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضاة المالكيّة أيضا ، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين البساطىّ المذكور عند عَوْده إلىٰ الوظيفة ، لأربع بَقِين من ذى القَعدة سنة سبع وثمانمائة . وقد وافق عودُه عودَ شيخ الإسلام جلالِ الدين عبدالرحمن البُلْقينىّ إلىٰ قضاء قُضاة الشافعيّة أيضا ، وهى :

---

(١) بياض فى الاصل والمراد واضح مما تقدم .

الحمدُ لله الذى أعاد لرُتبة القضاء رَوْنَق « جمالها » وأسعدَ جدَّها بأسعد قِران ظهرتْ آثارُ يُمْنه بما آثرته من ظُهور «جلالها» ؛ وأجاب سُؤلها بأجلّ حاكم لم تعدل عنه يوما فى سُؤالها ، وأسعدَ طَلِبَتها بأكمل كُفْءٍ لم تنفكّ عن خِطْبته وإنْ أطال فى مِطَالها ، وأكرم مآبها بأكرم كافٍ ما فاتها مَنالُ ماضٍ إلا أدركَتْه به فى مآلها .

نحمدُه على أنْ أُعطِيَتِ القوسُ باريها ، وأُعِيدت مياهُ الاستحقاقِ إلى مجاريها ، ورُدّتِ الشاردةُ إلى مالكٍ أَلِفَت منه بالآخرةِ ما أَلِفتْ من خيره فى مَبَاديها .

ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَحَقَّق بالإخلاص مَناطُها ، ويزدادُ مع طول الأمَد نَشَاطُها ، ولا ينْطَوِى على ممَرّ الأيامِ - إن شاء الله تعالى - بِساطُها . ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أفضلُ نبيٍّ رَفَع قواعدَ الدين وشاد ، وقامَ فى الله حقَّ القيام فحَسَم بسيف الشرع مادّةَ الفَساد ، وأحكم بسدِّ الذرائع سِدادَ الأمور فجرت أحكامُ شريعته المطهَّرة على السَّداد ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين استُنْشِق من معْدِلَتهم أطيبُ عَرْف ، وخُصُّوا من صفات الكمال بأحسن حِلْية وأكمل وَصْف ؛ صلاةً تُوهِى عُرا الإلحاد ، وتفْصِمُها ، وتَبُتُّ أعناقَ أهل العِناد ، وتَقْصِمُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فلاخفاءَ فى أنَّ الأبصار تتشوَّفُ لرؤية الهلال مع قُرْب الغَيْبة للأخذ منه بنصيبها ، والشمسَ يُترقَّب طلوعها فى كلِّ يومٍ وإن قرُبَ زمانُ مَغيبها ، والمسافرَ يُسرُّ بإيابه وإنْ تكرر قُدُومه من بَعيد المسافة وقريبها ، والسَّهرانَ يتطلَّع من ليلته الطويلة إلى طُلُوع فجْرها ، والمَناصبَ السنيَّة تأرِز إلى مستحقِّها كما تأرِزُ الحيَّة إلى جُحْرها .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضوى، (إلى آخر ألقابه) أعزَّ الله تعالى أحكامه هو الذى حُمِدت فى القضاء آثارُه، وسارتْ بحُسْن السِّيرة فى الآفاق أخبارُه، وحَسُن بحُسْن تأتِّيه فى الوِرْد والصَّدَر إيرادُه وإصْدارُه؛ وتنافس فى جميل وصْفه الطِّرْس والقلم، وظهرتْ فضائله (ظهورَ نار القِرى ليْلا على علَم)؛ ونشرتِ الأيام من علومه ماتُطْوى إليه المَراحل، وجادتْ مواطرُ فكره بما يُخْصِب به جَنابُ المَرْبع الماحِل؛ وعَمرتْ من منْصِب القضاء بولايته مَعاهِدُه، وجرتْ بقضايا الخير فى البَدْء والعَوْد عوائدُه؛ ونفذتْ بنَفَاذ أوامره فى الوجود أحكامُه، ورُقِم فى صحائف الأيام على توالى الدُّهور نقضُه وإبرامُه؛ وسُجِّل بثُبوت أحقِّيته فانقطعتْ دُونَ بلوغ شأْوِه الأطماع، وحُكِم بمُوجَب فضله فانعقد على صحّة تقدُّمه الإجماع؛ ففرائدُ فوائده المُدوَّنة تُؤْذِن بالبَيان والتحصيل، ومُقدِّمات تنبيهاته المحقَّقة، تكفى نتائجُ إفضالها عن الإجمالِ والتفصيل؛ وجواهرُ ألفاظه الرائقة، نعم الذخيرةُ التى تُقْتنَى، ومَداركُ معانيه الفائقة، حَسْبُك من ثَمرة فكرٍ تُجْتنَى؛ وتهذيبُ إيراداته الواضحة تُغْنى فى إدراكها عن الوَسائل، وتحقيقُ مسائله الدقيقة تُحقِّق فيها أنها عُيونُ المسائل — وكانتْ وظيفةُ قضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية فى رفيع رتبتها، ووافِرِ حُرْمتها، قد ألقتْ إليه مقاليدَها، ورفعتْ بالانتماء إلى مجلسه العالى أسانيدَها، وعرفتْ محلَّه الرفيعَ فتعلّقتْ منه بأعزِّ مَنال، وحظِيتْ بجماله اليُوسُفى المرّةَ بعد الأُخرى فقالتْ:

لابَرَاحَ لى عن هذا الجَمال؛ وعجِمتْ بتكرُّر العَوْد عُودَه فأعرضتْ عن السِّوَى، وقرّتْ بالإياب إليه عيْناً «فألقتْ عصَاها واستقرَّ بها النّوى» — اقتضى حُسنُ الرأى الشريف أن نُعيد الوظيفةَ المذكورةَ إليه، ونُعوِّل فى استكشاف مُشْكِلاتِ الأحكام على ما لديْه، إقراراً للأمر فى نِصَابه، وردًّا له بعد الشِّرَاد إلى مَثابه، وإسعافاً للمَنصب بطَلِبَته وإن أتعبَ غيرَه نفْسَه فى طلابِه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُبْدِئُ المعروفَ ويُعيده ، ويُوَفِّر نصيبَ الأولياء ويَزيدهُ ـ أن يفوّضَ إلىٰ المجلس العالى المشارِ إليه قضاءُ القُضاة بمَذْهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة «مَالكِ بنِ أنَسٍ الأَصْبَحِىّ» رضى الله عنه، علىٰ جارِى عادته المتقدِّمة فى ذٰلك . وأن يُضافَ إليه تدريسُ قُبَّة الصالح والأنظارُ الشاهد بها توقيعُه الشريف، وأن لا يقَرِّر أحدٌ فى دروس المالكية من مدَرِّس ومُعيد إلا بتعيينه، علىٰ أتم العوائد وأجملها، وأعمِّ القواعد وأكملها .

فليُمدّ إلىٰ رُتْبته السنيَّة برفيع قَدْره وعليِّ همَّته، ويقابِل إحساننا بالشكر تُحْفِه بمزيد الإقبال إذ لا زيادةَ فى العُلوّ علىٰ رُتْبته . ثم أوّل ما نُوصيه به، ونؤكّد القولَ عليه بسببه، تقوىٰ الله التى هى مِلَاكُ الأمور كلِّها، وأُولَىٰ المفترَضات فى عَقْد الأمور وحلّها؛ فهى العِصْمة التى مَنْ لجأ إليها نجَا، والوقايةُ التى ليس لِمَنْ حاد عنها من لحَاق قَوارِع الله مُلْتَجا . ونُتْبِعُ ذٰلك بالتلويح إلىٰ الاحتياط فى المسائل التى تفرّد بها مذهَبُه الشريف ضِيقا وسَعَه، واختصَّ بها إمامُه الأصبَحِىّ دون غيره من الأئمة الأربعة؛ وهى مسائلُ قليله، آثارُها فى الورىٰ كثيرةٌ جليله؛ منها سَفْكُ دمِ المنتقِص والسابّ، وتحَتُّمُ قتله علىٰ البَتّ وإن تاب؛ فعليه أن يأخذ فى ذلك بالاهتمام، ولا يُعطِىَ رُخْصة فى حقِّ أحدٍ من الأنبياء والملائكة عليهم السَّلام، ليكون ذٰلك وسيلةً إلىٰ الخُلوص عن القَذىٰ، وذريعةً إلىٰ سلامة الشَّرف الرفيع من الأذىٰ؛ إلا أنَّا نُوصيه بالتثبُّت فى الثُّبوت، وأن لا يعجَلَ بالحكم بإراقة الدم فإنه لا يُمكِنُ تداركُه بعد أن يَفُوت . ومنها : الشهادةُ علىٰ الخط وإحياءُ ماماتَ من كُتُب الأوقاف والأملاك، وتقريبُ ماشَطَّ فلا يَقْبَل فيه إلا اليقظَ الواقفَ مع تحقُّقه دُونَ حَدْسه، ولا يطلِق عنان الشُّهود فإنَّ الكاتب ربما اشتَبَه عليه خطُّ

نَفْسه ـ ومنها : ثُبوتُ الولاية للأوصياء، فيُجْرِيها علىٰ ٱعتقاده، ولكن إذا ظهرتِ المصلحةُ فى ذٰلك علىٰ وَفْق مُراده ـ ومنها : إسقاطُ غَلَّة الوقْف إذا ٱستُرِدَّ بعد بيعه مدّةَ بقائِه فى يَد المشترى ، تحذيرا من الإقدام علىٰ بَيْع الوقف وعقوبةً رادعةً لبائعه المجترِى . إلىٰ غير ذٰلك من مسائل الآنفراد، وما شاركه فيه غيرُه من المذاهب لمُوافَقة الآعتقاد، فيُمضى الحكمَ فيه بأقوى العزائم، ويُلْزِم فيها بما ٱستبانَ له من الحقّ ولا تأخُذه فى الله لَوْمةُ لائم .

وأما غيرُ ذٰلك من الوصايا الراجعة إلىٰ أدب القضاء فلَدَيْه منها الخُبْر والخَبَر، ومنه تُستملىٰ فوصيَّته بها كنَقل التَّمْر إلىٰ هَجَر،والله تعالىٰ يعامِلُه بلُطْفه الجميل، ويَحُفُّه بالعناية الشاملة فى المُقَام والرَّحيل، إن شاء الله تعالىٰ، والآعتماد ... ...

✣

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الحنابلة ، وهى :

الحمدُ لله الذى أطلع فى أفُق الدِّين[(١)] القَيِّم شمسًا مُنيره ، ورفع درجةَ مَنْ جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحُكْم علىٰ بَصيره ، وقلَّد أمورَ الأمّة بمن يَعْلَم أنَّ بين يدَيْه كتابا لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيره، ووفّق لفصل القَضاء مَنْ مشىٰ علىٰ قَدَم إمامه الذى ٱدَّخر منه للحكم فى أيّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضَلَ ذَخيره ، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له مَن تحلّىٰ به بعد العَطَل وكلُّ قَضاء خيره ، وأيقظ عنايتَنا لمن رقد الدهرُ عن فضله فباتتْ عينُ الآستحقاق باستقرار رُتْبته قريره .

نحمده حمدَ من توافَتْ إليه النِّعم الغزيره، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرة فى المُدد اليسيره ، وأخصبَتْ فى أيّامه رياضُ الفضائل فهى بكلّ عالِم عدِمَ النظيرَ نَضيره ،

(١) تقدّمت فى تقليد حنفى بأطول من هذا و ببعض تغيير .

وٱفتتح دولَتَه برفع مَنار العدل فآمالُ أهلِ الظلم عن تَعاطيه قاصرةٌ وأيدى أهل الباطلِ عن الآمتداد إليه قَصيره ، وخَصَّ المَناصبَ فى ممالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّستْ بها هِمَمُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو آمتدّتْ إليها أبصارٌ مَنْ دُونَهم رجعتْ حَسيره .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُصْلِحُ العَلَنَ والسَّريره ، وتُصْبِحُ بها القلوبُ مُوقِنةً والألسُن ناطقةً والأصابعُ مُشيره . ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى بعث اللهُ به الرسلَ مخبِرةً وأنزل الكُتُبَ بمَبْعثه بَشيره ، وٱجتباه فى خير أُمّةٍ من أكرم أَرُومةٍ وأشرفِ عَشيره ، وأظهر أنوارَ مِلّته إلا لمن أعمى الغيُّ بصيرتَه وهل تنفع العُمْىَ شمسُ الظَّهيره ، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً تتقرّبُ بدوامها إلى الله فيضاعِفُها لنا أضعافا كثيره ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلى الأمور بأن تُشادَ قواعِدُه ، وتُتعهَّد معاهدُه ، ويُعلى مَنارُه ، وتُفاضَ بطلوع شمسه أنوارُه ، وتَكْمُل به قُوى الدين تكملةَ الأجسادِ بقُوى الطبائع الأربَع ، وتُعمَّرَ به ربوعُ الملّة التى ليس بعدَها من مَصيف لِملّة ولا مَرْبَع ، وتُثَبَّتَ به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالةِ بعضِها من مَطْمَع ، أمرُ القضاء على مذهب الإمام الرَّبَّانىّ « أحمد بن حنبل » رضى الله عنه ، وكان قد خَلَا بانتقال مباشره إلى الله تعالى ، وتوقَّف مدّة على آرتياد الأكْفاء ، والإرشاد إلى من هو أهلُ الاصطفاء ، وآختيار من تكمُل به رِفعةُ قَدْره ، ويُعيد لدَسْتِه على بِساط سُليمانه بهجةَ صَدْره .

ولما كان فلانٌ هو المنتظَر لهذه الرُّتْبة آنتظارَ الشمس بعدَ الغَسَق ، والمرتقَب لبُلوغ هذه المنزلة التى تقدّمت إليها بَوادرُ آستحقاقه فى السَّبَق ، والمعطوفَ على الأئمة من أصحاب إمامه ــ وإن تأخر زمانه ــ عطفَ النَّسَق ، وهو الذى ما زال

يعدلُ دَمَ الشهداء مِدادُ أقلامه ، وتضعُ الملائكةُ أجنحتها رضًا بما يَصْنَع من نَقْل خُطُواته فى طلب العلم وسَعْى أقدامه ، ودخل من خَشْية الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنَّما ، وهجر المَضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدّتْ هَجَعاتُه لقَلّما ؛ وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقيَّد أوابِدَها ، وأحرَزَ شوارِدَها ؛ ولَجّ فى بِحار المعانى فغاص علىٰ جواهِرِها ، ونظَر نظْرةً فى نُجوم العلوم فاحتوىٰ علىٰ زُهْرِها وزار خمائِلَ الفضائل [فاستوى] علىٰ أزاهِرِها ؛ وآنتهىٰ إليه علمُ مذهبه فبَرَّز علىٰ مَنْ سلف ، وجارىٰ علماء عصره فوقفَتْ أبصارهم عن رؤية غُبارِه وما وقَف ؛ وتعيَّن عليه القضاء وإن كان فرضَ كفايةٍ لافرضَ عيْن ، وقدّمه الترجيحُ الذى جعل رتبتَه همزةَ آستفهام ورُتْبة غيره بيْنَ بين ــ آقتضى رأيُنا الشريف آختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيطِ بهذا اللفظِ الوجيز .

فلذلك رُسِم أن يفوَّضَ إليه كَيْت وكَيْت . فليتولّ هذه الرتبةَ التى أصبح فيها عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نائبًا وبشَرْعه قائمًا ، ويتقلّدْها تقلُّد من يعلم أنه قد أصبح علىٰ حُكم الله تعالىٰ مقدِمًا وعلىٰ الله قادِما ، ويتثبتْ تثبُّت من يعتصم بحبل الله فى حكمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكون ألحَنَ بحجّته وإن كان ظالما ، ويلبَسْ لهذا المنصِبِ حُلَّةً تمنعُ المبطِل من الإقدامِ عليه ، وتدفعُ الظالم عن التطاوُل إلىٰ أمرٍ نزعه الشرعُ الشريفُ من يديه ، ويؤَمِّن الحقَّ من آمتداد يَدِ الجَوْرِ والحَيْف إليه ؛ وليُسَوِّ بين الخصمين فى مجلسه ولحظِه ، ويعدلْ بينهما فى إنصاته ولفظه : ليعلَمَ ذو الجاه أنّه مساوٍ فى الحقّ لخصمه ، مكفوف باستماع حجّته عن الطمع فى ظُلْمِه ؛ ولا ينقُضْ حكمًا لم يخالِف نصًّا ولا سنّة ولا إجماعا ، وليشارِكْ فيما لا يجهلُه من القضايا غيْرَه من العلماء ليتزيَّد بذلك مع اطلاعه آطّلاعا ، وليغتنِمْ فى ذلك الآستعانة

بآرائهم : فإنّ الله تعالىٰ لاينتزع هذا العِلمَ انتزاعا، وليسُدَّ مسالك الهوىٰ عن فكره، ويصْرِفُ دواعىَ الغَضَب لغير الله عن المُرور بذُكره، وليجعل العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحكم بما أراه الله ﴿ والله يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ .

⁂

وهذه نسخة وصية أوردها فى "التعريف" تشمَل القُضاةَ الأربعةَ، قال : وصيةٌ جامعةٌ [لقاضٍ][1] من أىّ مذْهبٍ كان، وهى :

وهذه الرُّتْبةُ التى جعل اللهُ إليها منتهىٰ القَضَايا، وإنهاءَ الشَّكَايا، ولا يكون صاحبها إلا من العُلَماء، الذين هُم ورثةُ الأنبياء، ومتولّى الأحكام الشرعيَّة بها كما ورث عن نَبىِّ الله صلى الله عليه وسلم علمَه، كذلك وَرِث حُكْمَه، وقدأصبح بيده زِمامُ الأحكام، وفَصْلُ القضاء الذى يُعرَض [بعضه][1] بعدَه علىٰ غيره من الحُكّام، وما منهم إلا مَنْ ينقُدُ نقْدَ الصيْرَفِىّ، وينفُذُ حكمُه نَفاذَ المَشْرَفِىّ، فليترَوَّ فى أحكامه [قبل إمضائها، وفى المحاكمات اليه][1] قبلَ فَصْل قضائها، وليراجع الأمرَ مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى يزُولَ عنه الاِلتِباس، ويُعاوِدْ فيه بعد التأمُّل كتابَ الله وسنَّةَ رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماعَ والقِياس، وما أشكل عليه بعد ذٰلك فليُجَلِّ ظُلَمَه بالاستخاره، وليُحُلَّ مُشْكِلَه بالاستشاره، ولا يَرَ نقْصا عليه إذا استشار فقد أمر اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم بالشُّورىٰ، ومِن مِنْ أوّل السَّلَف مَنْ جعلها بينَه وبينَ خطإ الاجتهادِ سُورا، فقد يَسْنَح للمرء ما أعيا غيرَه وقد أكثر فيه الدَّأب، ويتفطَّن الصغيرُ لما لم يَفطَنْ إليه الكبيرُ كما فَطِن ابنُ عمر رضى الله عنهما للنخْلة [و] مامَنَعه أن يتكلّم إلا صغرُ سنِّه ولُزُومًا مع من هو أكبرُ منه للأدب، ثم إذا وضَح له الحقّ

(١) الزائد من "التعريف" ص ١١٦ .

قضىٰ به لمستحقّه ، وسجّل له به وأشهد علىٰ نفسه بثُبوت حقّه ؛ وحكم له به حكما يسُرّه يوم القيامة أنْ يراه ، وإذا كتب له به ، ذُكر بخيْر إذا بَلِيَ وبقِيَ الدهرُ ما كتبَتْ يداه . وليسوِّ بين الخصوم حتّى فى تقسيم النظر ، وليَجْعلْ كلَّ عمله علىٰ الحَقّ فيما أباحَ وما حظَر ؛ وليُجِد النظرَ فى أمرِ الشهود حتّى لا يدخُلَ عليه زَيْف ، وليتحرّ فى آستيداءِ الشهاداتِ فرُبَّ قاضٍ ذُبح بغير سِكّين وشاهدٍ قُتِل بغير سَيْف ؛ ولا يقبلُ منهم إلا مَن عُرِف بالعداله ، وأنِف منه أن يرىٰ أوامرَ النفس أشَدَّ العِدا له ـ وغيرُ هؤلاء ممن لم تجْرِ له بالشهادة عاده ، ولا تَصدّىٰ للآرتزاق بسُحْتها ومات وهو حَيٌّ علىٰ الشّهاده ، فليقبلْ منهم من لا يكونُ فى قَبُول مثله مَلامه ، فرُبَّ عدلٍ بين منطقةٍ وسَيْف وفاسقٍ فى فَرَجيّة وعِمامه ـ ولينقّب علىٰ ما يصدُر من العُقود التى يؤسّس أكثرُها علىٰ شَفا جُرُف هار ، ويُوقِع فى مثل السِّفاح إلا أنّ الحُدودَ تُدْرأ بالشُّبهات ويبقىٰ العار ـ وشهودُ القِيمة الذين يَقْطَع بقولهم فى حقّ كلّ مستحقّ ومالِ كلّ يتيم ، ويُقلَّد شهاداتِهم علىٰ كل أمرٍ عظيم ؛ فلا يُعوِّل منهم إلا علىٰ كلّ رَبّ مالٍ عارفٍ لاتخفىٰ عليه القِيَم ، ولا يُخاف معه خَطأ الحَدْس وقد صقَل التجريبُ مِرْآةَ فهمه علىٰ طُول القِدَم . وليتأنّ فى ذٰلك كلّه أناةً لا تَفْضى بإضاعة الحقّ ، ولا إلىٰ المُطاوَلة التى تُفْضى إلىٰ مَلَلِ من آستحق . وليمهّدْ لرَمْسه ، ولا يتعلّل بأنّ القاضىَ أسيرُ الشهود وهو كذٰلك وإنما يَسْعىٰ لخلاص نفسه ـ والوكلاءُ هم البَلاءُ المُبْرَم ، والشياطينُ المسوِّلون لمن توكّلوا له الباطلَ ليُقضىٰ لهم به وإنما تقطع لهم قطعةٌ من جهنّم ، فليكُفّ بمهابته وَساوِسَ أفكارهم ، ومَساوِىَ فُجّارهم ؛ ولا يدع لمجْنىٰ أحدٍ منهم ثمرةً إلا ممنوعه ، ولا يدَ آعتداء تمتدُّ إلا مغلولةً إلىٰ عُنقه أو مقْطُوعه . وليطهّر بابَه من دَنَس الرسل الذين يمشون علىٰ غير الطريق ، وإذا رأىٰ واحدٌ منهم درْهما ودَّ لو حصل فى يَده ووقَع فى نار الحريق ؛ وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يُوصَىٰ ،

ولا أن يُحصىٰ عليه منه أفرادُ عمَلَه وهو لا يُحْصىٰ، ومنها النظر فى أمور أوقاف أهل مذهبه نظَرَ العُموم، فليعْمُرْها بجميل نظره فرُبَّ نظرةٍ أنفعُ من مواقع الغُيُوم؛ وليأخُذْ بقلوب طائفته الذين خُصَّ من بينهم بالتقديم، وتفاوتَ بُعْـدُ ما بينه وبينهم حتّى صار يُزيلُ عارضَ الرجُل منهم النظرةُ [منه] ويأسُو جِراحَه منه التكْليم . وهذه الوصايا إنمـا ذُكرت علىٰ سبيل الذِّكْرى، وفيه ـ بحمد الله ـ أضعافُها ولهذا ولَّيناه والحمدُ لله شُكْرا؛ وقد جعلنا له أنْ يستنيبَ مَنْ يكون بمثل أوصافه أو قريباً من هذه المَثَابه، ومن يرضى له أن يحمل عنه الكَلَّ ويقاسمه ثَوابه؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ هى جِماعُ الخير ولا سيَّمـا لصاحب هذه الوظيفه، ولمنْ وليها أصْلاً وفرْعاً لا يستغنِي عنها رَبُّ حُكْمٍ مطلقُ التصرُّفِ ولا خليفه .

ويُزاد الشـافعيّ :

وليعلَمْ أنه صدرُ المَجْلس، وأنه أدنىٰ القوم وإن كانوا أشباهَه منا حيثُ نجْلس، وأنه ذُو الطَّيْلَسَان[1] الذى يخضَع له ربُّ كلِّ سيف ويَبْلس؛ وليتحقَّقْ أنه إنمـا رفعه علمُه وتُقاه، وأنَّ سبَب دِينه لادُنْياه هو الذى رَقَّاه؛ فليقدُرْ حقَّ هذه النِّعَم، وليقف عند حدِّ منصِبه الذى يوَدّ لو ٱشترىٰ سَوادَ مِدَاده بحُمْر النَّعَمْ .

ويقال فى وصيته : وأمرُ دَعاوىٰ بيتِ المـال المعمُور، ومحاكماته التى فيها حقُّ كل فردٍ فرد من الجمهور؛ فليحترِزْ فى قضاياها غايةَ الاحتراز، وليعمَلْ بمـا يقتضيه لهـا الحقُّ من الصِّيانة والإحْراز؛ ولا يقبَلْ فيها كلَّ بينةٍ للوكيل عن المسلمين فيهـا مَدْفع، ولا يعمَلْ فيها بمسألة ضعيفة يظن أنهـا ما تَضُرُّ عند الله فإنها ما تَنْفع؛ وله حقوق فلا يجِدُ من يَسْعىٰ فى تملُّك شيءٍ منها بالباطل منه إلا الياس، ولا يلتفت إلىٰ مَن رَخَّص لنفسه وقال: (هو مالُ السلطان) فإنَّه مالنا فيه إلا ما لِوَاحِدٍ من الناس .

(١) ذكر فى "القاموس" أن لام الطيلسان مثلثة .

وأموال الأيتام الذين حذّر الله من أكل مالهم إلا بالمعروف لا بالشُّبهات، وقد مات آباؤهم ومنهم صغارٌ لايهتدُون إلىٰ غير الثدْى للرَّضاع ومنهم حملٌ فى بطون الأمَّهات؛ فليأمُرِ المتحدّثين لهم بالإحسانِ إليهم، وليعرِّفهم بأنهم سيُجْزَوْن فى بَنِيهم بمثل ما يعمَلون معهم إذا ماتُوا وتركُوا ما فى يدَيْهم، وليُحذِّرْ منهم من لاولد له: ﴿ولْيخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافًا خافُوا علَيْهِم﴾. وليَتُصَّ عليهم فى مثل ذٰلك أنباءَ من سَلَف تذْكيرا، وليتْلُ عليهم القرآنَ ويُذَكِّرْهم بقوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ اليَتامَى ظُلْمًا إنَّما يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نارًا وسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا﴾.

والصدقاتُ الموكولة إلىٰ تصريف قلَمه، المأكولةُ بعدَم أمانةِ المباشرين وهى فى ذِمَمِه، يتيقَّظ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه آستحقاقِها، والعملِ بما لا يجب سِواه فى أخذها و إنفاقها. والمسائلُ التى تفرَّد بها مذهَبُه وترجَّح عنده بها العَمَل، وأعدَّ عنها الجوابَ لله إذا سأل، لايعمَلُ فيها بمرجوح إلا إذا كان نصَّ مذهب إمامه أوعليه أكثَرُ الأصحاب، ورآه قد حكَمَ به أهلُ العلم ممن تقدّمه لرُجحانه عنده وللاستصحاب. ونُوّابُ البرّ لا يقلِّد منهم إلا من تحقّق استحقاقَه، فإنه إنما يولِّيه علىٰ مسلمين لا علمَ لأكثرهم فهم إلىٰ ذى العلم أشدُّ فاقه؛ هذا إلىٰ ما يتعرّف من دِياناتهم ومن عَفَافهم الذى يتجرّع المرءُ منهم به مَرارةَ الصبر من الفاقة وهو به يتحلّى، ثم لايزال له عينٌ عليهم فإنَّ الرجال كالصناديق المُقْفَلة لايعُرف الرجلُ ما هو حتّى يتولّى.

ويزاد الحنفىّ:

وليعلَمْ أن إمامه أوّلُ من دوّن الفِقْه وجَمعه، وتقدّم وأَسبَقُ العلماء من تَبِعه؛ وفى مَذهبه ومذاهب أصحابِه أقوال فى المذْهَب، ومسائلُ مالحِقه فيها مالك وهو أوّلُ

مَنْ جاء بعده وممّن يُعَدّ من سوابقه أشهب؛ ومن أهمها تزويجُ الصّغائر، وتحصينهُنّ بالأكفاء من الأزواج خوفاً عليهن من الكبَائر، وشُفْعةُ الجوار التى لو لم تكُنْ من رأيهم لما أُمِنَ جارُ السّوء على رَغْم الأنوف، ولأقام الرجلُ الدّهْرَ ساكناً فى داره بينَ أهله وهو يتوقّع المَخُوف؛ وكذلك نفقةُ المعتدّة التى هى فى أَسْرِ من طلّقها وإن بُتَّتْ من حِباله، وبقِيَت لا هو بالذى يُنفِق عليها ولا هى بالتى تستطيعُ أن تتزوّجَ من رجل يُنفِق عليها من ماله؛ ومن آستدانَ مالاً فأكله وآدّعَى الإعسار، ولفّق له بينةً أراد أن تُسْمع له ولم يدخُل الحَبس ولا أَرْهِق من أمره الأعسار، وأهل مذهبه على أنه يُسجَن ويمكُثُ مُدّة، ثم إذا آدّعى أنّ له بينةً أُحْضرت ثم هل تُقْبل أولا . فهذا وأمثاله مما فيه عمومُ صلاح، وعظيمُ نفعٍ ما فيه جُناح؛ فليقض فى هذا كلِّه إذا رآه بمقتضى مذْهبه، وليهتَدِ فى هذه الآراء وسواها بقَمَر إمامه الطالع أبى حنيفة وشُهُبه؛ وليُحْسِن إلى فُقَهاء أهل مذهبه الذين أدْنَى إليه أكثرَهم الاغتراب، وحلّق بهم إليه طائرُ النهار حيثُ لايحلّق البازى وجناحُ الليل حيث لايَطير الغُراب؛ وقد تركوا وراءَهم من البلاد الشاسعه، والأمداد الواسعه، ما يُراعَى لهم حقُّه إذا عُدّت الحقوق، ويجمعه وإيّاهم به أبُوه أبو حنيفةَ وما مثله من يُنْسَب إلى العُقُوق .

ويزاد المالكىّ :

ومذهَبُه له السيفُ المُصْلَت على مَنْ كفر، والمُذْهِب بدَمِ من طُلَّ دمُه وحصل به الظّفَر؛ ومَن عَدَا قدْرَه الوضيع، وتعرّضَ إلى أنبياء الله صلواتُ الله عليهم بالقول الشّنيع؛ فإنه إنما يُقتل بسيفه المجرَّد، ويُراق دمُه تعزيرا بقوله الذى به تفرّد؛ ولم يزل سيفُ مذهبه لهم بارزَ الصّفحه، مسلَّما لهم إلى مالكٍ خازن النار من مذهب مالكٍ الذى مافيه فُسْحه؛ وفى هذا مايُصَرح غُدُر الدِّين من القَذَى، ومالم تُطَلّ دماءُ

هؤلاء (لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذىٰ)؛ وإنما نُوصيه بالتحرّى فى الثُّبوت، [والبينة التى لا يستدرك بها ما يفوت،](١) وإنما هو رجلٌ يَحْيا أو يموت، فليتمهّل قبل بَتّ القضاء، وليُعذر إليهم لاحتمال ثبوتِ تفسيق الشهود أو بَغْضاء؛ حتّى لا يُعجّل تِلافًا، ولا يَعْجَل بما لا يُتلافىٰ، فكما أننا نُوصيه أن لاينقُضَ فى شَدّ الوَثَاق عليهم إبْراما، فهكذا نُوصيه أن لايُصيب بغير حقّه دمًا حراما؛ وكذٰلك قبول الشهادة على الخَطّ، وإحياءِ ما ماتَ من الكُتُب وإدناء ما شَطّ؛ فهذا مما فيه فُسْحة للناس، وراحةٌ مافيها باس؛ إلا أنه يكون الثبوتُ بهذه البيِّنة للاتصال، لالنَّزْع يدٍ ولا إلزامِ بمجرَّدها بمال؛ وهكذا مايراه من ولاية الأوصياء وهو مما تفرّد به هو دون البقيه، وفيه مصلَحة وإلا فما معنَى الوصيَّه؛ وهو زيادةُ احتراز ما تضُرُّ مراعاة مثلها فى الأُمور الشرعيَّه؛ وسوى هذا مثل إسقاط الرَّبْع فى وقف آستُرِدّ وقد بيع، وعُطْل المشترى من التكسُّب بذٰلك المال مدةً لا يشتَرِى ولا يَبِيع؛ وهذا مما يَبُتُّ قضاءه فى مثله، ويجعلُ عقابَ من أقدم علىٰ بيْع الوقف إحرامَه مدّةَ البيع من مَغَلّه؛ وسوىٰ ذٰلك مما عليه العَمَل، ومما إذا قال فيه قال بحقّ وإذا حكم عدَل. وفُقهاء مذهبه فى هذه البلاد قليلٌ ماهم، وهم غُرَباءُ فليُحْسِن مَأْواهُم، وليكرم بكرمه مَثْواهم؛ وليستقرّ بهم النَّوىٰ فى كنَفه فقد مَلُّوا طُول الدَّرْب، ومعاناة السفر الذى هو أشدُّ الحَرْب، وليُنْسهم أوطانَهم ببِرِّه ولا يَدَعْ فى مآقيهم دَمْعا يَفيض علىٰ الغَرْب.

ويُزاد الحَنْبلىّ:

والمُهِمّ المقدَّم — وهو يعلم ما حَدَث علىٰ أهل مَذْهبه من الشَّناعه، وما رمُوا به من الأقوال التى نَتْرُكها لما فيها من البَشاعه؛ ونكتفى به فى تعْفية آثارِها، وإماطة

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٢١.

أَذَاها عن طريق مَذْهَبه لتأمنَ السالكةُ عليــه من عِثَارها ؛ فتعالىٰ الله أن يُعْرف بكَيْف ، أو يُجاوَبَ السائلُ عنه بهذا إلا بالسيف ؛ والآنضمامُ إلىٰ الجماعة والحذَرُ من الآنفراد ، و إقرارُ آياتِ الصِّفات علىٰ ما جاءت عليه من الآعتقاد ، وأنَّ الظاهرَ غيرُ المراد ، والخُروج بهم إلىٰ النُّور من الظَّلْماء ، وتأويل مالا بُدّ من تأويله مثلُ حديث الامَةِ التى سُئِلت عن رَبّها : أينَ هو فقالت فى السَّماء ؛ و إلا ففى البليَّة بإثبات الجهة مافيها من الكَوارث ، و يلزم منها الحدوثُ والله سبحانه وتعالىٰ قديمٌ ليس بحادِث ولا مَحَلًّا للحوادث ؛ وكذٰلك القولُ فى القرءان ونحن نُحذِّر مَنْ تكلَّم فيه بصَوْت أو حَرْف ، فما جزاء من قال بالصوت إلا سوطٌ و بالحرف إلا حَتْف ؛ ثم بعد هذا الذى يَزَعُ به الجُهَّال ، ويَرُدُّ دُونَ غايته الفِكَرَ الجَوّال ، ينظُر فى أمور مذْهَبه و يعمل بكل ما صَحَّ نقلُه عن إمامه وأصحابه : من كان منهم فى زمانه ومن تخلف عن أيامه ؛ فقد كان رحمه الله إمامَ حقٍّ نهضَ وقد قعد الناسُ تلكَ المُدَّه ، وقام نَوبةَ المِحنة مقامَ سيد تَيم ـ رضى الله عنــه ـ نَوْبةَ الرِّدَه ؛ ولم تَهُبّ به زُعازِعُ المَرِيسِى وقد هبَّتْ مَرِيسا ، ولا آبنُ أبى دُوَاد وقد جمع له كلَّ ذَوْد وساقَ إليــه من كلِّ قُطرٍ عِيسًا ؛ ولا نَكَثَ عُهدةَ ما قدم له المأمونُ فى وصيَّة أخيه من المَواثِق . [ولا روَّعه سوطُ المعتصِم وقد صبَّ عليه عذابَه ولا سيفُ الواثِق] (١) .

فليَقفُ علىٰ أثره ، وليقِف بمسنَده [علىٰ مذهبه] (١) كلِّه أو أكثَره ، وليقض بمفرَداته وما آختاره أصحابُه الأخيار ، وليُقلّدهم إذا لم تختلِفْ عليه الأخبار ؛ وليحترز لدينه فى بيع ما دَثَر من الأوقاف وصَرْف ثمنه فى مثله ، والآستبدالِ بما فيه المصلحةُ لأهله ؛ والفَسْخ علىٰ من غاب مدّةً يسُوغ فى مثلها الفَسْخ ، وتركَ زوجةً لم يترك لها

(١) الزيادة من «التعريف» (ص ١٢٢) .

نَفقة وخلَّاها وهى مع بقائها فى زوجيَّتــه كالمعلَّقه ، و إطلاقِ سَراحها لتتزوج بعـد ثُبوتِ الفَسْخ بشُروطه التى يبقىٰ حكمُها به حكْمَ المطلَّقه ، وفيما يمنع مُضارَّة الجـار ، وما يتفرّع علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : «لا ضَرَرَ ولاضِرَار» ، وأمرِ وقف الإنسان علىٰ نفْسِه و إن رآه سِـوىٰ أهل مذْهبه ، وطلَعتْ به أهلَّةُ علمـاءَ لولاهم لمـا جَلا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبه ، وكذلك الجوائح التى يخفَّف بها عن الضُّعَفاء و إن كان لا يَرىٰ بها الإلزام ، ولا تجرى لديْه إلا مَجْرىٰ المصالحةِ بدليل الإلتزام ، وكذلك المعاملةُ التى لولا الرُّخصةُ عندهم فيها لمـا أكل أكثرُ الناس إلا الحرامَ المَحْض ، ولا أُخِذَ قِسْم الغـلال والمعامِلُ هو الذى يزْرَع البُذُور ويحرُث الأرض ، وغيرذٰلك ممـا هو من مفرَداته التى هى للرِّفق جامِعــه ، وللرَّعايا فى أكثر معايِشهم وأسـبابِهم نافعه ، فإذا ٱستقرّت الفُروع[١] كانت الأصولُ لها جامعَه . وفقهاءُ مذهبِه هم الفُقراء لقلَّة المحصول وضَعْف الأوقاف ، وهم علىٰ الرِّقَّة كالرِّماح المعَـدّة للثِّقاف ، تَخُـدُ بخواطِرهم ، ومُدَّ آمالَهُم فى غائب وَقْتِهم وحاضِرهم ، وٱشْمَلْهم بالإحسان الذى يُرَغِّبهم ، و يقل به طلَبُهم لوجوه الغنىٰ ويكْثُر طُلَّبهم .

---

(١) عبارة "التعريف" « وإذا استقرت الاصول كانت الفروع لها تابعه » .

الطبقـــة الثـانية

(من أرباب الوظائف الدِّينية أصحابُ التواقيع ، وتشتمل على مَراتِبَ)

المرتبــــة الأُولى

(ما كان يكتَب فى النصف بـ«المجلس العالى» كما كان يكتب للقضاة الأربعة أوّلا ، وقد تقـــدّم)

المرتبــــة الثـانية

(ما يكتب فى قطع الثلث بـ«السامىّ» بالياء)

وآعلم أنّ الأصل فيما يُكْتب من التواقيع أنْ يفتتح بـ«أما بعـدُ» إلا أن الكُتَّاب تسامحُوا فيـه فافتتحُوا لمن علَتْ رتبتُـه حيث آقتضى الحـالُ الكتابةَ له فى الثلث بـ«الحمدُ لله» ، وأبقَوْا من آنحطّت رتبته عن ذلك على ما كان عليه من الآفتتاح بـ«أما بعد» وهـأنا أُورِد ماسنح من ذلك مما أنشأه الكُتّاب فى ذلك من الآفتتاحَيْن جميعا . ويشتمل على وظائفَ .

الوظيفـــة الأُولى

(قضاء العسكر)

وقد تقدّم فى المقالة الثانيةِ أنّ موضُوعها التحدّثُ فى الأحكام فى الأسـفار السلطانيّة وأنّ له مجلِسًا يحضُره بدار العَدْل فى الحَضَر . وقد جرت العادةُ أن يكون قُضاة العسكر أربعةً : من كلّ مذهَب قاضٍ .

وهذه نسخةُ توقيع شريف بقضاء العسكر المنصور بالحضْرة السلطانية، وهى :

الحمدُ الذى رفَع للعِلْم الشريف فى أيّامِنا الزاهرة مَنارا ، وزاد بإعلاء رُتَب أهله دولَتنا القاهرةَ رِفعةً وفَخَارا ، وزان أحكامَه الشريفة بحُكّامه الذين طلَعوا فى غَياهب مُشكلاتِه بُدُورًا وتدفّقوا فى إفاضتِه فى الأحكام الشرعيّة بِحارا .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى حَلّتْ فجَلّتْ ، ومِنَنِه التى أهَلّت الجود فاستَهَلّت .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تكون لقـائلها ذُخْرا ، وتُعْلِى للمتمسِّك بهـا فى الملإِ الأعلىٰ ذِكْرا ، ونشهدُ أنّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى هو أسبَقُ الأنبياء رُتْبَـةً وإن كان آخِرَهم عَصْرا ، صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أضْحَوْا للمقتـدين بهم شُموسًا منـيرة وللمهتدين بعُلُومهم نُجوما زُهْرا ، صلاةً لا تزال الألسُن تُقيمها ، والأسماعُ تستديمُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أولىٰ من نوّهْنا بذِكْره ، ونَبَّهنا علىٰ رِفعة قَدْره ، وأطلَقْنا ألسِنَةَ الأقلام فى وصف مَفاخره وشُكْرِه ، وأثّلْنا قواعدَ مجدِه التى لو رام بَنانُ البَيانِ استقصاءَها حال الحَصْرُ دُون حَصْرِه ، ونفّذْنا كلِمَ حُكْمه ورفَعْنا فى أندية الفضائل ألويةَ فُنُونه وأعلامَ نَصْرِه ، من لم يزل دَمُ الشهداء يعـدِلُ مِدادَ أقلامه ، وتُقيمُ مَنارَ الهدىٰ أدلّةُ فضائله وشواهدُ أحكامِه ، وتُوَضِّح الحقَّ حتى يكاد المتأمِّل يلحظُ الحُكْمَ لوضوحه ويُبْصِره ، وينصُر الشرع بأمداد عِلْمه ولَيَنْصُرَنّ اللهُ من يَنْصُره ، وشـيَّد مذهبَ إمامه الإمام الفلانىّ فأصبح فسيحَ الأرجاء وإن لم يكن فيه فُسْحه ، وجدّد قواعدَ العَدْل فى قضايا عسا كرِنا المنصورةِ فهو مُشاهَد من كَمِه ومن نظره فى لَمْحه مِلْحه .

ولمـا كان فلان هو الذى نعَتْنا بمـا تقدّم من الخطاب خلائقَه الحُسنىٰ ، وأثنَينا علىٰ ماهو عليه من الإقبـال علىٰ جَوْهر العلم دُونَ التعرّض إلىٰ العَرَض الأدنىٰ ، مع ما حواه من موادِّ فضائلَ تزكو علىٰ كثرة الإنفـاق ، وفرائد فوائدَ تُجلَب علىٰ أيدى

الطَّلَبة إلى الآفاق ، وقُوّةٍ فى الحق ، الذى لا تأخذه فيه لومةُ لائم ، وعدلٍ أحكام فى الخَلْق ، أَلَذَّ من سِنَةِ الكَرَى فى جَفْن نائم — اقتضى حُسنُ الرأىِ الشريف أن نوطِّد فى عساكرنا المنصورة قواعدَ أحكامه ، ونُوطِّن كُلًّا منهم على أنه تحتَ ما يُمْضيه فى أقضيته النافذة من نقضه وإبرامه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوَّض إليه قضاءُ العساكر المنصورة الشريفة : على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، وأن تُبْسط كلمتُه فى كلِّ ما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف . فليحكُمْ فى ذلك كلّه بما أراه الله من علمه ، وآتاه من حِكَمه وحُكْمه ، وبيّن له من سُبُل الهدى ، وعيَّنه لبصيرته من سُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم التى من حادَ عنها فقد جار واعتدى ، وليقِفْ من الأحكام عند ماقرَّرتْه الشريعةُ المطهَّرة من أحكام الله التى لا يعقلها إلا العالِمُون ، ويأمُرْ كُلًّا من المتقاضِين بالوقوف عند ماحُدّ له : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . والوصايا وإن كثُرت فمن مثله تُفَاد ، وإن جَلَّت فسمْعُه فى غِنًى عما يُبْدأ له منها ويُعاد ، ومِلاكُها تقوى الله تعالى التى هى شِعار أُنْسه ، وحِليةُ يومه وأمسه ، والله تعالى يسدّده فى القول والعمَل ، ويوفّقه لما يرضاه ويصُونُه من الخَطَإ والخطَل .

⁂

وهذه وصيةٌ لقاضى العسكر، أوردها فى "التعريف" وهى أن يُقال :

وهو الحاكم حيثُ لاتنفُذ إلا أقضيَةُ السيوف، ولا تزدحِمُ الغرماء الا فى مواقف الصُّفوف ، والماضى قلمُه وكلُّ خَطِّيّ يُمدّ بالدِّماء، والممضى سجِلُّه وقد طَوى العَجاجُ كالكتاب سجِلَّ السماء، وأكثرُ مايُتحاكم إليه فى الغنائم التى لم تحِلّ لأحدٍ قبل هذه الأمة ، وفى الشَّركة وما تُطلب فيه القسمة، وفى المبيعات وما يُرَدّ منها بعيْب،

وفى الديون المؤجّلة وما يُحكَم فيها بغَيْب، وكلُّ هذا مما لايحتمل طُولَ الأناة فى القضاء، وٱشتغالَ الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردُّد إليه بالإمضاء، فليكن مستحضرا لهذه المسائل ليَبُتَّ الحكم فى وقته، ويُسارع السيفَ المُصْلَتَ فى ذلك الموقف ببَتّه؛ ولْيعلمْ أن العسكرَ المنصورَ هم فى ذٰلك الموطن أهلُ الشهاده، وفيهم من يكون جُرْحه تعديلًا له وزياده، فليقْبَلْ منهم من لاتخفىٰ عليه سِيما القَبُول، ولا يردّ منهم من لايضرُّه أن يردّه هو وهو عند الله مَقْبول، وليجعَلْ له مستقَرّا معروفا فى المُعَسكر يُقْصَد فيه إذا نُصِبت الخِيام، وموضعًا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان علىٰ يمين الأعلام، وليلزمْ ذٰلك طُولَ سفره وفى مُدَد المُقَام، ولا يخالِفْه ليُبْهِمَ علىٰ ذوى الحوائج فما هو بالصالِحيَّة بمِصْر ولا بالعادِليَّة بالشام، ولْيتَّخذْ معه كُتَّابا تكتُب للناس وإلا فمن أين يوجد مركز الشهود، ولْيسجِّل لذى الحق بحقه وإلا فما ٱنسدّ بابُ الجحود؛ وتقوىٰ الله هى التى بها تُنصَر الجنود، وما لم تكن أعلىٰ مايكُون علىٰ أعلام الحَرْب وإلا فما الحاجة إلىٰ نَشْر البُنود.

الوظيفــــة الثــانية

(إفتاءُ دار العَدْل)

وموضوعُها الجلوس بدار العـدل حيثُ يجلِس السلطانُ لفصـل الحُكومات، والإفتاءُ فيما لعلَّه يطرَأ من الأحكام بدار العـدل . وهى وظيفةٌ جليلة، لصاحبها مجلسٌ بدار العدل يجلسُه مع القُضاة الأربعة ومَنْ فى معناهم .

وهذه نسخة توقيع لمن لقبُه «جمال الدين» يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

الحمـدُ لله جاعل العِلْم للدِّين جَمالا، وللدنيا عِصمةً وثِمالا، ولأسباب النَّجاة والنَّجاح شارةً إذا تحلَّى بهـا ذُو التمييز كان أحسنَ ذَوى المراتب حالا، وأجلَّهـم

فى الدارين مَبْدَأ ومآلا ، وأحقّهم برتبة التفضيل التى ضَرَبت لها السنّةُ المطهَّرة فضلَ البَدْر علىٰ الكواكب مِثالا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى خصَّت دارَ عدْلنا الشريف من العلماء بأكْفائها ، وآصطفَتْ لِما قَرُب من مجلسنا المعظَّم مَنْ دلَّ علىٰ أنَّ التأييد قرينُ آصطفائها .

ونشهد أن لا إله الا الله وحدَه لا شريك له شهادةً يفتَرُّ عن شَنَب الصواب ، ثَغْرُها ، ويتفتَّح عن فَصْل الخطاب ، زَهْرها ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بمحكم التنزيل ، المنصوصُ فى الصُّحُف المنزَّلة علىٰ ذكر أُمَّتـه الذين علماؤُهم كأنبياء بنى إسرائيل ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم كالنُّجوم المُشْرقة ، من اقتدىٰ بهم آهتـدىٰ ، وكالرُّجوم المحرِقة ، من آعتدىٰ وجَدَ منها شهابا رَصَدا ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ ما آرتدْنا له من رياض العلم مَنْ سَمَا فيه فَرْعُه ، ورَحُب بتلَقِّى أنواع العُلوم ذَرْعُه ؛ وبسَقَتْ فى فُنون الفضائل أفنانُه ، ونَسقَتْ فرائدَ الفوائدِ فى سلْك الطُّروس بَنانُه ــ فُتْيا دار عدلنا الشريف التى أحكامُنا لها تابِعه ، وأغصانُ العدل بثِمار فتاويها مُورِقةٌ يانِعه ، وأعيُنُنا إلىٰ أفواه مُفْتيها رامقةٌ وآذانُنا لمقالاتهم سامِعَه .

ولما كان فلان هو ثمرةُ هذا الأرتياد ، ونُخبةُ هذا الأنتقاد ، المعقودُ عليه فى آختيار العلماء بالخَناصر ، والعريقُ فى أَصالة العلوم بأَصالة ثابتة الأَواصر ، والذى إذا أجاب تدفَّقتْ أنواءُ الفوائد ، وتألَّقت أضـواءُ الفَرائد ، وآتُّخذَتْ مسـائلُ فِقْهـه قَواعِدَ تترتَّب الأحكام الشرعيـة عليها ومصادرُ وحيـه مَوَارِد ــ اقتضت آراؤنا الشريفـةُ أن نُزيِّن بَهْجةَ هذه الوظيفة بجَماله ، ونُنَزِّه إشراقَها بنُور فضائله التى لو قابلَها بدرُالأفُق نازعتْه حُلَّةَ كَماله .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أحكامُه مع أوامر الشرع الشريف وافِقَه ، ومعـدَلتُه الشريفةُ باقتفاء آثار الحق لِمُشْتَكَيات الظُّلْم كاشِفه ـ أن يفوّض إليـه كذا : فليُباشِرْ هذه الوظيفـةَ السنيَّة مفَجِّرا ينـابيعَ العلوم فى أرْجائها ، محقِّقا للفتاوىٰ بتسهيل مواردِها وتقْريب أوحائها ، موضِّحا طُرُقها بإقامة براهينـه وأدلَّته ، مُبْديا دقائقَها التى يُشْرِق بها أُفُقَ الفكر إشراقَ السماء بنجُومها والأُفُق بأهِلَّتـه ، مُظْهِرا من غوامضـها ما يُقَرِّب علىٰ الأفهام مَنَـالَهُ ، ويُفَسِّح لجياد القرائح مَجَـالَه ، ويَتَّضِح لكل ذى تروٍّ رويَّتُـه ولكل مرتجِل بديهتـه وآرتجـالَه ؛ فإنه الكاملُ الذى قطع إلىٰ بلوغ الغايةِ مَسالكَ اللَّيالى ، والإمامُ الذى غاص فِكْرُه من كل بحر لُجَجَ المعانى فاستخرج منهـا مكنُونَ اللآلى ؛ مع أن علمه المهَـذَّبَ غنىٌّ عن تنبيـه الوَصايَا ، مَلِىٌّ بمـا يلزم هـذه الوظيفـةَ من الخصائص والمَزَايا ؛ فإنَّ البحرَ يأبىٰ إلا تدفُّقا ، والبدرَ إلا تألُّقا ؛ والله تعالىٰ يزيدُه من فضـله ، ويُزيِّن به أُفُقَ العلم ويَزيد منَّا دُنُوا قُرْبَ مَحَـلِّه .

الوظيفـــة الثـالثة

(الحِسْـبة)

وقد تقدّم أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ أرباب المَعايش والصَّنائع ، والأخْذُ علىٰ يَد الخارج عن طريق الصَّلاح فى مَعيشته وصِناعته . وحاضرةُ الديار المِصريَّة تشتمل علىٰ حسْبتين[1] :

الأولىٰ ــ حِسبةُ القاهرة : وهى أعلاهمـا قَدْرا ، وأفخمُهما رُتْبة ؛ ولصاحبها مجلسٌ بدار العَدْل مع القُضاة الأربعة وقُضاة العسكر ومُفْتِى دار العدل وغيرهم . وهو يتحدّث فى الوجْه البحرىّ من الديار المِصرية فى ولاية النّوّاب وعَزْلهم .

(١) أى والثانية حسبة الفسطاط التى سيأتى لها توقيع بعد صفحات .

قلت : ولم تزل الحِسبةُ تُولَّى للتعمّمين وأرباب الأقلام إلى الدولة المؤيَّدية شيخ، فوَلَّاها للأمير سيف الدِّين منكلى بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلىٰ الحُجوبيّة . علىٰ أنَّ فى سجلَّات الفاطميِّين مايشهد لها فى الزمن المتقدّم . وربَّما أُسنِدتْ حسبةُ القاهرة إلىٰ والى القاهرة، وحِسْبةُ مصر إلىٰ والى مِصْر .

وهذه نسخة توقيع من ذٰلك، وهى :

الحمدُ لله مجدّدِ عوائدِ الإحسان، ومُجْرِى أولياء دولتنا القاهرة، فى أيّامنا الزاهرة، علىٰ ماألِفُوه من الرُّتَب الحِسان، ومضاعِفِ نِعَمنا علىٰ من آجتنىٰ لنا بحُسْن سيرته الدعاءَ الصالحَ من كل لسان .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى لاتُحصىٰ بِعدّها، ولاتُحصَر بحدّها، ولا تُستَزادُ بغير شُكْرِ آلاءِ المنعِمِ وحَمْدِها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نُقيمها فى كُلّ حُكْم، وتحاولُ سيوفُنا جاحدِيها فتنهَض فتَنْطِقُ بالحجة عليهم وهم بُكْم؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من آئتمر بالعدل والإحسان، وأعدلُ آمرٍ أمتَه بالوَزْن بالقِسط وأنْ لايُخْسِرُوا المِيزان؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آحتَسبُوا فى سبيل الله جُلَّ عَتَادهم، وآحتبَسُوا أنفُسَهم فى مقاطعة أهل الكُفْر وجِهَادهم؛ فلا تُنْتَهَب جنائبُها فى الوُجُود، وتَسْرِى نجائبُها فى التَّهائم والنُّجود؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ مَنْ دعاه إحسانُنا لرَفْع قَدْره، وإنارة بَدْره، وإعلاءِ رُتْبته، وإدناء منزلته؛ وإعلامِ مُخْلِص الأولياء بمضاعَفة الإحسان إليه أنَّ الله لايُضيعُ أَجْرَ مَنْ أحسَنَ عَملا، وأنَّ كرمنا لا يُخَيِّب لِمَنْ أسلف سَوابِقَ طاعته فى أيّامنا الشريفة أَمَلا؛ مَنْ لم تزَلْ خدَمُه السابقةُ إلىٰ الله مقرِّبه، وعن طُرُق الهوىٰ مُنكّبه، وبالله

مُذَكِّره، وعلى الباقيات الصالحات من الأعمال موفّره، مع ما أضافه إلى ذلك من أمرٍ بمعروف، وإغاثةِ ملهوف، ونهيٍ عن منكر، واحتسابٍ في الحق أتى فيه بكلّ ما تُحمد خلائقُه وتُشكر، واجتنابٍ لأعراض الدنيا الدَّنيّه، واجتهادٍ لما يُرضى الله ويرضينا من اتّباع سيرتنا السَّريّه، وشدّةٍ في الحق حتّى يُقال به ويُقام، ورفقٍ بالخلق إلا في بِدَعٍ تُنْتَهك بها حرمةُ الإسلام، أو غشٍّ إن لم يخُصّ ضرره الخاصّ فإنّ ذلك يعُمّ العام.

ولمّا كان فلان هو الذى اختصَّ من خِدْمتنا، بما رفعه لدَيْنا، وأسلف من طاعتنا، ما اقتضى تقريبَه منّا واستدعاءَه إلينا، ونهض فيما عدَقْناه به من مصالح الرعايا وكان مشكُورَ المساعى في كل ما عُرِض من أعماله في ذلك علينا — اقتضى رأينا الشريف أن يفوّض إليه كذا، فليستقرّ في ذلك مجتهدا في كلّ ما يعُمّ البرايا نفعُه، ويجْمُل لديهم وَقْعُه، ويمنع من يتعرّض باليَسَار، إلى ما لهم بغير حَقّ، أو يضَيّق بالاحتكار، على ضعفائهم ما بسَط الله لهم من رِزْق، ويذُبّ عنهم بإقامة الحُدود شُبَه تعطيلها، ويعرّفهم بالمحافظة على الحق في المعاملات قواعدَ تحريمها وتحليلها، ويُريهم بالإنصاف منَارَ القسطاس المستقيم لعلهم يُبْصِرون، ويؤدّب من يجِدُ فيهم من المطفّفين: ﴿الَّذِينَ إذا اكْتَالُوا على النَّاس يَسْتَوْفُونَ وإذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهم يُخْسِرون﴾ ويأمُرُ أهلَ الاسواق بإقامة الجماعاتِ والجُمَع، ويقابل من تخلّف عن ذلك بالتأديب الذى يَرْدَع من أصرّ فيه على المخالفة ويَزَع، ويُلْزم ذَوِى الهيئات بالصِّيانة التى تُناسِب مناصبهم، وتُوافق مراتبهم، وتنزّه عن الأدْناس مكاسبهم، وتصُون عن الشوائب شاهدَهم وغائبَهم، ولا يمكّن ذوِى البيوع أن يَغْبِنُوا ضُعفاءَ الرعايا وأغنياءهم، ولا يُفْسح لهم أن يرْفَعوا على الحق أسعارهم ويَبْخَسُوا النَّاسَ أشياءَهُم.

وليحملْ كُلًّا منهم علىٰ المعامَلات الصحيحه ، والعقود التى غدَتْ لهـا الشريعةُ الشريفة مُبيحه ؛ و يجنّبْهم العقُودَ الفاسده ، والحِيَلَ التى تَغُرّ بتدليس السِّلَع الكاسده ؛ وهو أخبر بالبيوع المنصوص علىٰ فسادِها فى الشرع الشريف ، وأدرىٰ بما فى عدَم تحريرِهم المكاييـلَ والموازيـنَ من الإخسار والتطفيف ؛ فليفعلْ ذٰلك فى كل مايجب ، ويحتَسب فيه مايدَّخره عند الله و يحتَسِب ؛ ولْتكن كلمتُه فى ذٰلك مبْسوطه ، ويدُ تصرُّفه فى جميع ذٰلك مُحيطة و بمـا يستَنِد إليه من أوامره محُوطه ؛ ولْيُوص نُوّابه بمثـل ذٰلك ، و يوضِّحْ لهم بإنارة طريقته كلَّ حالٍ حالك ؛ و يقدِّمْ تقوىٰ الله علىٰ كلّ أمر ، ويتَّبِـعْ فيه رضا الله تعـالىٰ لارضا زيد وعمرو ؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك بحِسْـبة الفُسْطاط المعبَّر عنه الآنَ بمصر عَوْدا إليهـا ، وهى :

الحمدُ لله الآمرِ بالمعروفِ والناهى عن المنكر، الشاهدِ بالعَدْل الذى تقوىٰ به كلمةُ الإيمـان وتُنْصَر ؛ والغامرِ بالجُود الذى لا يُحصىٰ والفَضْـل الذى لا يُحْصَر ، العامرِ ربوعَ ذَوِى البيوت بتقديم من آنعقدت الخناصرُ علىٰ فَضْله الذى لايُجْحَد ولاينكر .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال ألسنةُ الأقـلام ترْقُم لهـا فى صُحُف الإنعـام ذِكْرا ، وتجدّد لهـا بإصابة مواقع الإحسان العامِّ شُكرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَصْـدَع بنُورها ليلَ الشرك فيئُول فَجْرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه و رسولُه الذى قمعَ اللهُ به من آغترَّ بالمَعَاصى وغَرَّ ، وأقام بشريعتِه لواءَ الحق الأطْهر ومَنارَ العـدل الأظهر ، وعلىٰ آله وصَحْبه

الذين سلكُوا من الهداية بإرشاده مَنْهَجَ الحق الأنور ، واَحتَبَسُوا نفوسَهم فى نُصرته ففازُوا من رضـاه بالحظ الأوْفىٰ والنصيب الأوْفَر .

وبعـدُ ، فإن الله تعالىٰ لما جعل كلمتَنا المبسوطةَ علىٰ العدل والإحسان مقصُورَه ، وأوامرَنا الشريفـةَ بإقامـة مَنار المعروف مؤيَّدةً منصُـوره ، وأحكامَنـا المشهورةَ بالإنصاف فى صحائف الدَّهْر بالمحاسن مَسْطُوره ، وألهمنا من اَتّباع الشرع الشريف ما غدَتْ به قلوبُ الرعايا آمنـةً مسرُوره ـ قصدنا أن نختارَ لمراتب الدِّيانة والعَفَاف مَنْ لم يزل بيتُه بالصَّدارة عليًّا ، ووصفُه بأنواع المحامد والتمَـادح مَليًّا .

ولمـا كان فلانٌ هو الّذى ورِثَ السِّـيادةَ ، عن سلَفٍ طاهر ، وتلقَّ السعادةَ ، عن بَيْتٍ فرُوعه التقوىٰ فأزْرتْ بالروض الزّاهى الزَّاهر ، وسرَتْ سرائُره بحسن سيرته وسَـيْره ، وأبطن من الدِّيانة ماأظهرتْه أدلَّة خَيْره ، وتنقّل فى المَرَاتب الدِّينيَّـة فأرْبىٰ فى حُسْن السُّلوك علىٰ غيْره ، وسلَكَ من الأمانة الطريق المُثْـلىٰ ، واَعتَمَد ماعَدِمَ به مُضاهيا ومِثْـلا ، وجنىٰ ما نطَق بإنْصافه فَضْـلُ الكيل والميزان ، ورجَاه من أهل الخير كلُّ ذى إحسان وخشِيَه أهـلُ الزَّيغ والبُهْتان ، وكانت الحِسبةُ المباركة بمصر المحروسـة قد أَلِفتْ قضاياه وأحكامَه ، وعرَفت بالخُـبْر معروفَه وشكَرت نقْضَـه وإبرامه ، وفارقَها علىٰ رَغْمها منـه اَختيارا ، وعادَتْ له خاطبةً عقِيـلةَ نَزاهته التى لا تُجـارىٰ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العـالى أن يفوَّض إليـه كذا . فليُقَـدِّم خِيرَةَ الله فى مباشرة هذه الوظيفه ، وليُقِمْ مَنارَها بإقامة حدُودها الشريفه ، ولْينظُرْ فى الكيل والميزان اللّذين همـا لسانُ الحق الناطق ، وليَنْشُرْ لواء العَـدْل الذى طالمـا خفَقَتْ بنُودُه فى أيَّامنـا حتَّى غدا قلْبُ المجرم وهو خافق ، وليُحسِنِ النظرَ فى المَطَـاعم

والمَشارب ، ولَيَرْدَع أهلَ البِدَع ممن هو مستخْفٍ باللّيل وسارِب ؛ وفيه ـ بحمد الله تعالىٰ ـ من حُسْن الألْمعِيَّة ما يُغْنِى عن الإسهاب فى الوَصَايا، ويُعِين على السَّداد فى نَفاذ الأحكام وفَصْل القَضايا ؛ وكيف لا وهو الخَبِير بما يأتِى ويَذَر، والصَّدْر الذى لايَعْدُو الصَّوابَ إن وَرَد أوصَدَر ؛ والله تعالىٰ يَعْمُر به للعَدْل مَعْلَما، ويكسُوه بالإقبال فى أيامنا الشريفة ثوبًا بالثَّواب مُعْلَما ، والخطُّ الشريف أعلاه، حجة بمقتضاه .

وهذه وصية محتَسِب أوردها فى "التعريف" وهى :

وقد وَلِىَ أمرَ هذه الرُّتْبه، ووُكِل بعَيْنِه النظرُ فى مصالح المسلمين لله حِسْبه ؛ فلينظُرْ فى الدَّقِيق والجليل ، والكثِير والقَلِيل ، وما يُحْصَر بالمقادِير وما لايُحْصَر ، وما يُؤمَر فيه بمعروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكر، وما يُشترىٰ ويُبَاع ، وما يُقرِّب بتحريره إلى الجنّة ويُبْعِد من النار ولو لم يَكُنْ قد بقِىَ بينَه وبينها إلا قدْرُ باعٍ أو ذِراع ؛ وكل ما يُعْمل من المعايِش فى نهارٍ أو ليل، وما لا يُعرَف قدْرُه إلا إذا نَطَق لسانُ المِيزان أو تكلَّم فَمُ الكيل . وليعمَلْ لديه معدَلا لكلِّ عمَل، وعيارًا إذا عُرِضتْ عليه المعايِيرُ يُعرفُ مَنْ جار ومَنْ عدَل ؛ وليتفقَّدْ أكثرَ هذه الأسباب ، ويحذِّر من الغِشِّ فإنَّ الداء أكثرُه من الطَّعام أو الشَّراب ؛ وليتعرَّف الأسعار ويستعْلِم الأخبار ، فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليُقِمْ عليهم من الأُمَناء من ينوب عنه فى النَّظَر ، ويطمئنُّ به وإن غابَ إذا حضَر ؛ ويأمُره بإعلامه بما أعضَل ، ومراجعتِه مهما أمكن فإنَّ رأى مثله أفضَل . ودار الضَّرب والنُّقودُ التى منها تَنبُث، وقد يكونُ فيها من الزَّيْف مالا يَظْهَر إلا بعد طُول اللُّبث ؛ فليتصَدّ لمهمّاتها بصَدْره الذى لا يَحْرَج،

وليَعْرِض منها علىٰ المحَكّ من رأيه مالا يَجُوز عليـه بَهْرَج ؛ وما يُعلَّق من الذهب المكسورِ ويُرُوبص من الفِضّة ويُخْرَج، وما أكلتِ النارُ كلّ لِحامه أو بعضه فليُقِم عليه من جِهَتِه الرقبـاء ، وليُقِم علىٰ شمسِ ذَهَبه مَنْ يرقُب منه ما تَرَقَّب من الشمس الحِرْباء ؛ وليُقِمِ الضُّمَّان علىٰ العَطَّارين والطُّرُقيَّـة من بيْـع غرائب العقاقير إلا ممّن لايستَراب فيه وهو معْرُوف، وبخَطّ متطبِّب ماهرٍ لمرِيض معيَّن فى دواء موصوف. والطُّرُقيَّـة وأهلُ النِّجامة وسائِر الطوائف المنْسوبة إلىٰ ساسان ، ومن يأخُذ أموال الرجال بالحيلة ويأكُلهم باللسان، وكل إنسان سَوْء من هـذا القَبِيل هو فى الحقيقة شـيطانٌ لا إنسان ، امنَعْهم كلّ المنع ، وآصـدَعْهم مثل الزُّجاج حتىٰ لا يُجَبِر لهم صَدْع، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلا فما يُجْـدِى فى تأديبهم ذاتُ التأديب والصَّفْع ؛ وآحْسِم كلّ هذه الموادّ الخبيثه ، وآقطَعْ ما يُحَدِّدُ ضعفاءُ الناس من هـذه الأسباب الرَّثيثه ، ومَنْ وجدْتَه قد غَشّ مسلمـا ، أو أكل بباطِلٍ دِرْهما ، أو أخبر مشْـتريًا بزائد ، أو خرجَ عن معهُود العَوائد، أَشْهِرْه فى البلد ، وأرْكِب تلك الآلةَ قفاه حتىٰ يَضْعُف منه الجَـلَد ، وغيرُ هؤلاء من فُقَهاء المكاتب وعالمـاتِ النِّساء وغيرهما من الأنواع ممن يُخافُ من ذِئْبه العائثِ فى سِرْب الظِّباء والجآذر، ومن يُقْدِم علىٰ ذٰلك ومثلِه وما يُحـاذِر، آرشُقْهم بِسِهامك، وزَلْزِلْ أقدامَهم بإقدامك ؛ ولا تدَعْ منهم إلا من آختَبَرْت أمانَتَه ، وآخترت صِيانَتَه . والنُّوَّاب لا ترضَ منهم إلا من يُحْسن نَفَاذا ، ويُحْسَب لك أجْرُ استنابتِه إذا قيـل لك من آستَنَبْت فقلْت هـذا؛ وتقوىٰ الله هى نعم المَسَـالك ، وما لك فى كلّ ما ذكَرْناه بل أكثره إلا إذا عملْت فيـه بمذهَبِ مالك .

الوظيفـــة الرابعـــة

(وكالةُ بيتِ المـال)

وهى وظيفةٌ عظيمةُ الشان رفيعةُ المقدار، وقد تقدّم أن موضُوعَها التحدّثُ فيما يتعلّق بمَبيعات بيتِ المـال ومُشْتَرَواته[1] : من أرضٍ وآدُرٍ وغير ذٰلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ، وأنَّ متولّيَها لا يكون إلا من أهل العلم والدِّيانة، وأنّ له مجلسًا بدار العدل: تارةً يكونُ دون مجلس المحتَسِب، وتارة فوقَ مجْلِسه، بحسَب رِفْعـة قدْرِ كل منهما فى نَفْسه. وقد أُضيف إليها فى المباشرة نظرُ كِسْوة الكَعْبة الشريفة وصارا كالوظيفة الواحدة.

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المـال :

الحمدُ لله جامعِ المَناصب الدينيّة، لمن خطَبتْه لهـا رتبتان : العِلمُ والعمَل، ومكمِّلِ الرُّتب السَّنيّة، لمن وُجدت فيه أهبتان : الورَعُ والتُّقىٰ وعُدِمت منه خلّتان : الحِرْصُ والأمَل؛ جاعلِ ٱختصاصِ الرُّتب بأكفائها حِلْيَةَ الدُّول، والنظرِ فى مصالحها الخاصّة والعامّة زينةَ أيامنا التى تتلفّت إلىٰ محاسنها أجيادُ الأيّام الأُوَل.

نحمـده علىٰ نِعَمه التى عصمَتْ آراءنا من ٱعتراض الخلَل، وأمضَتْ أوامرَنا من مصالح الأمة بمـا تَسْرى به المحامدُ سُرىٰ النجوم ويَسِير به الشُّكْرُ سَيْرَ المَثَل.

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لم نزلْ نستنْطق بها فى الجهاد، أَلْسِنةَ الأَسَل، ونُوقظ لإقامتها عُيونَ جلاد، لهـا الغُمُود جفُون والسهام أهدابٌ والسُّـيوف مُقَل؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبـده ورسوله الذى أظهر الله دينَه علىٰ الأديان وشرَّف مِلّته علىٰ الملل، وأسرىٰ به من المسجد الحرام إلىٰ المَسْجد الأقصىٰ إلىٰ سِدْرة

(١) جرىٰ على اللغة العامية وإلا فصواب العربية مشترياته بالياء .

المنتهى وعاد ولم يَكَلِ اللّيلُ بينَ السَّيْرِ والقفل، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هجروا فى المُهاجَرِ إليه الأحياءَ والحِلَل، وشَفَوْا بأسنة سنته العِلل والغُلل، وتفرّدوا بكمال المَفاخر فإذا خلعتِ الأقلامُ على أوصافهم حُللا غدتْ منها فى أبهى من الحُلل، صلاةً تتوالى بالعَشِىّ والإبكار وتتواتَرُ فى الإشراق والطَّفَل، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعـد، فإنّ أولى الرُّتب بإنعام النظر فى آرتياد أكْفائها، وآنتقادِ فرائد الأعيان لها وآنتقائها، وآستخارةِ الله تعالى فى آختيار من يكون أمرُ دينه هو المُهِمَّ المقدّم لديه، وآستنارةِ التوفيق فى آصطفاء من يكون مهمُّ آخرته هو المرئىّ المصوَّر بين عينَيْه؛ مع ما آتصف به من محاسنِ سَجَايَا جُبِلت عليها طِباعُه، وخُصَّ به من سوابِقِ مزايا رَحُبَ بها فى تلقِّ المصالح الدينيَّة صَدْرُه وباعُه، رتبتان يَعم نفعُهما ويَخُصّ، ويحسُن وقْعُهـما بمـا يُبْـديه من أوصافه ويَقُصّ؛ ويتعلّق كلٌّ منهما بجماعة الأمّـة فَرْدا فَرْدا، ويشْـتَمِلان على منـافعهم على آختلافها بَدْأً وإعادةً وعَكْسا وطَرْدا؛ ويكون المتصدِّى لهما مناقِشًا على حقُوقهم وهم ساهُون، ومفتّشا عن مصالحهم وهم عنها لاهُون؛ ومناضلاً عنهم وهم غافِلُون، ومشمِّرا للسعى فى مَصالِحهم وهم فى حِبَرِ الدَّعَة رافِلُون، ومتكلِّفًا لآستمـاع الدَّعوى عنهم جَوْبَ فلَوات الجَواب، ومتكفِّلا بالتحرّى فى المحاوَرَة عنهـم وإصابةِ شاكلةِ الصَّواب، ومؤدّياً فى نصحهم جُهْـدَه تقرُّبا إلى مَراضينا وله عندنا الرِّضا وآبتغاءَ ثواب الله : ﴿والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب﴾ وهُما وَكالةُ بيت المـال المعمور والحِسْـبةُ الشريفةُ بالقاهرة المحروسة : فإنّ منافع وكالةِ بيتِ مال المسلمين عائدةٌ عليهم، آئلةٌ بأحكام الشريعة المطهَّرة إليهم؛ راجعةٌ إلى مايعمُّهم مَسارُّه، مُعَدَّةٌ لمـا تُدْفَع به عنهم من حيثُ لا يشعرُون مَضارُّه؛ صائنةٌ حقوقَهم من تعـدّى الأيدى الغاصبه، حافظةٌ بيوتَ أموالهم من آعتراض الآمال

العاملة الناصبة ، وكذلك نظر الحسبة : فإنه من أخصّ مصالح الخلق وأعمّها ، وآكد الوظائف العامّة وأكملها آستقصائيّةً للصالح الدينيّة والدّنيويّة وأتمّها ، يحفظ على ذوى الهيئات أقدارهم ، ويبيّن بتجنّب الهنات فى الصّدر مقدارهم ، ويصون بتوقّى الشّبهات إيرادهم وإصدارهم ، وينزّه معاملاتهم عن فساد يعارضها ، أو شبهة تنافى كمال الصحة وتناقضها ، ويحفظ أقواتهم من غشّ متلف ، أو غلوّ مجحف ، إلى غير ذلك من أدوية لا بدّ من الوقوف على صحة ترتيبها وتركيبها ، وتتبّع الأقوال التى تجرى بها الثقةُ إلى غاية تجريبها ، ولذلك لا تجمعان إلا لمن أوقفه علمه على جادّة العمل ، وآقتصر به ورعه على مادّة الحق فليس له فى التعرّض إلى غيره أمل ؛ وسمتْ به أوصافه إلى معالم الأمور فوجد التقى أفضل ما يرتقى ، وعرضتْ عليه أدواتُه جوهر الذخائر فوجد العمل الصالح أكمل ما ينتقد منها وما ينتقى ؛ وتحلّى بالأمانة ، فصارت له خلقا وسجيّه ، وأنس بالنّزاهة ، فكانتْ له فى سائر الأحوال للنّجاة نجيّه ، وأرته فضائلُه الحقّ حيثُ هو فتمسّك بأسبابه ، وتشبّث بأهدابه ، وآتّصف به فى سائر أحواله فإن أخذ أخذ بحكمه وإن أعطى أعطى به ، وآحترز لدينه فهو به ضنين ، وآستوثق لأمانته وإن لم يكن فيها بحمد الله متّهمًا ولا عليها بظنين ، وآجتنى ثمار المحامد الحلوة من كمام الأمانة المرّه ، وعلم أنّ رضا الله تعالى فى الوقوف مع الحقّ فوقف معه فى كلّ ماساءه للخلق وسرّه .

ولمّا كان فلان هو الذى أمسكت الفضائل بما كمّها من آداب نفسه ونفاسة آدابه ، وتجاذبته الرّتب للتحلّى بمكانته فلم تكن هذه الرتبة بأحقّ به من مجالس العلم ولا أولى به ؛ وشهدت له فضائله معنًى بما شهدت له به الأئمةُ الأعلام لفظا ، ونوهتْ بذكره العلومُ الدينيّة التى أتقنها بحثا وأكملها درايةً وأثبتها حفظا ، فأوصافُه كالأعلام المشتقة من طباعه ، الدالة بدوامها على آنحصار سبب الآستحقاق فيه

وآجتماعِه ؛ المنبِّهةِ علىٰ أنه هو المقصودُ بهـذه الإشارات التى وراءها كلُّ مايحمَد من آضـطلاعه بقواعد هـذه الرُّتَب وآطِّلاعه ؛ فهو سِرُّ ما ذُكر من نعوتٍ وأوصاف، ومعنًى ماشُهِر من مَعْدَلة وإنصاف ، ورُقُومُ ماحُبِّر من حُلَل أُفيضتْ منه علىٰ أجمل أعْطـاف ـ رُسِم (١) أن يفوَّض (١) تفويضًا يقع به الأمر فى أحسن مواقِعِه، ونَضَع به الحُكْم فى أحمد مواضِعِه، ويَحُلُّ من أجياد هذه المنـاصب مَحَلَّ الفرائد من القلائد ، ويقع من رياض هذه المراتِبِ وُقُوعَ الحَيَا الذى سَعِد به رأى الرائد .

فليباشِرْ هاتين الوظيفتين مُرْهفا فى مصالحهما همَّةً غيرَهمَّة(٢)، مجتهدا من قواعدهما فيا تبرأُ به عنـد الله مِنَّا ومنـه الذِّمّه ، محاقِقا علىٰ حقُوق بيت المـال حيثُ كانتْ محاققةَ من يعلم أنه مطلوبٌ بذٰلك من جميع الأمَّه؛ متحرِّيا للحق فلا يغدُو لمـا يجبُ له مُهْملا ، ولا لمـا يجب عليه مُمـاطِلا ، واقفًا مع حكم الله تعالى الجَـلِيِّ فى الأخذ والعطاء فإنّه سِيّانِ من تَرَك حقًّا أو أخذ باطِلا ، مُجْرِيًا عوائِد الحِسْبة علىٰ ماأُلِف من تدبيره ، وعُرِف من إتقـانِه وتحرِيره ، وشُهِر من آعتماده للواجب فى سائرأموره ؛ مكتفِيًا بمـا آطَّلع عليـه قديمـا من مصالحها ، منتهِيًا إلىٰ ماسـبقتْ معرفتُه به من أسـبابها ومناجِحها ؛ والله تعالىٰ يوفِّقـه فى آجتهاده ، ويُعِينـه علىٰ مايدَّخره لمَعَاده، إن شاء الله تعالىٰ .

✤

وهذه وصيةُ وكيل بيت المـال أوردها فى "التعريف" :

وهو الوكيلُ فى جميع حقُوق المسلمين وماله معهم إلاحقُّ رجلٍ واحد، والمكلَّفُ بالمخاصمة عنهم حتَّى يُقِرَّ الجاحد ؛ وهو القائمُ للدَّعْوىٰ لهم وعليهم ، والمطلوب من الله

(١) بياض فى الموضعين والغرض منه الآختصار والمبيض له مفهوم مما تقدّم مرارا. (٢) أى غير ضعيفه.

ومنًّا بما يُؤخَذ لهم أو يُؤْخَذ من يدَيْهم ، والمُعَدّ لتصحيح العقُود ، وترجيح جهة بيت المال فى العَقَار المبيع والثمن المَنْقود، والمتكلِّمُ بكتاب الوكالة الشرعية الثابته ، والثابتُ القدَم والأقدامُ غيرُ ثابتــه ، والمَفْسوح المَجَال فى مجالس الحُكّام ، والمجادِلُ بلسان الحــقّ فى الأحْكام ، والموقوفةُ كلُّ دعوى لم تُسْمع فى وجْهــه أو فى وجه من أُذِن له فى سَماعها ، والمرجوعُ إليه فى إماتةِ كلِّ مخاصَمة حصل الضجَر من طُول نِزَاعها ، وإبداءِ الدَّوافع ، ما لم يجِـدْ بُدًا من الإشهاد عليه بعَـدَم الدافع ، والآنتهاءِ إلىٰ الحق كان له أوعليه ولا يَقِف عند تثْقِيل مثقِّلٍ ولاشفاعةِ شافع ، وبوقوفه تُحدّد الحدود [وتُمتَحن الشهود][1] ويُمْشَى علىٰ الطُّرُق المستقيمه ، وتُحفظ لأصحابها الحقوقُ القــديمه ، وبه يتم عَقْد كل بيع وإيجارٍ إذا كانت المصلحةُ فيها لعامَّة المسلمين ظاهره ، ولهم فيما يُوكَّل عنهم فيه الحظُّ والغِبْطة بحَسَب الأوقات الحاضره .

ونحن نُوصيه فى ذٰلك كلِّه بالعمَل بما علِم ، والآنتهاء فى مقتضىٰ قولنا إلىٰ مافَهِم ، وتقديمِ تقوى الله فإنه متىٰ قدّمها بين يديه سَلِم ، والوُقُوف مع رضا الله تعالىٰ فإنه متىٰ وقَف معه غَنِم ، والعملِ بالشرع الشريف كيفَما توجَّهت به أحكامُه ، والحذَر من الوقوف فى طريقِه إذا نفذَتْ سِهامُه ، ومَنْ مات وله ورثة معروفةٌ تستكمل بحقها ميراثه ، وتحوزُ بحظِّها تُراثه ، لا يكلِّفُهم ثبوتًا يكون من باب العنَتْ ، والمدافعة بحقّ لايحتاج [مستحِقُّه][1] إلىٰ زيادة ثبَت ، وإنما أنَت ومن كانت قضيَّته مُنْكَره ، والمعروفُ من مستحقِّ ميراثِه نَكِره ، فأولئك شــدِّدْ فى أمرهم ، وأوطِ شُهداءَهم فى الآستِفْسار منهم علىٰ جَمْرِهم ، وتتَبَّعْ باطن الحـال لعله عنك لا يتستَّر ، ولا يُمشى عليك فيــه الباطلُ ويمشى شاهــدُ الزُّور بكُمِّيه ويتبَختَر ، فإن تحققْتَ صحة شهاداتهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٢ .

وإلا فأشهِرْهم فى الدنيا ودَعْهم فى الآخرة لا يُخَفَّف عنهُم العـذَابُ ولا يفتَّر، وكلُّ ما يُباع أو يؤجَّر آرجع فيـه إلى العوائد، وتقلَّد أمرَ الصغير، وجدّدْ لك أمرًا منـًا فى الكبير، وذلك بعد مراعاة ماتجبُ مراعاتُه، والتأنّى كلَّ التأنّى حتَّى يثبُتَ ماينبغى إثباتُه؛ وشهودُ القيمة عليهم المَدار، وبشهادتهم يُقَدَّر المِقْدار، وما لم يكونُوا من ذوى الأقدار، ومن أهل الخبْرة بالبَزّ والجدار، وممن آشترى العَقار وآستغلَّه وبنَى الدار، وإلا فاعلم أنَّ مثله لا يُرجَع إليه، ولا يُعوَّل ولا سيَّما فى حقِّ بيت المال عليْه؛ فاتَّفق[1] مع وُلاة الأمُور من أهل الأحكام، على تعيينِ من تعيَّن لتقليدِ مثلِ هذه الشهاده، وتعرَّف منهم مَنْ له كلُّ الخبْرة حتَّى تعرِفَ أنه من أهـل الزَّهاده؛ ولك أن تدَّعَى بحق المسلمين حيثُ شئتَ ممن ترى أن حقَّه عنده يترجَّح، وأن بيِّنتهم تكون عنده أوضح؛ فأمَّا الدَّعْوى عليك فمن عادتها أن لا تُسْمَع إلا فى مجلس الحكم العزيز الشافعيّ ـ أجلَّه الله تعـالى ـ ونحن لا نغيّر العوائد، ولا ننقضُ ما بنَت الدولُ السالفةُ عليـه القواعد؛ فليكُنْ فى ذلك المجلس سماعُها إذا تعيَّنَت، وإقامةُ البيناتِ عليها إذا تبيَّنتْ؛ واللهَ اللهَ فى حقِّ بيت المـال، ثم اللهَ اللهَ فى الوقتِ الحاضرِ والمآل؛ ومَنْ تستنيبهُم عنك بالأعمال لا تُقِرّ منهم إلا من تَقَرّ به عينُك، ويُوفّى به عند الله لا بمـا تُحصِّـله من الدنيا دَيْنُك؛ ومَنْ كان لعمله مُصْلِحا، ولأمَله مُنْجِحا، لا تغيِّر عليه فيما هو فيـه، ودَعْه حتَّى يتبينَ لك خافِيه؛ ولتستَقْصِ فى كلِّ وقتٍ عنهم الأخبار، ولتسـتعْلِمْ حقائق ماهم عليه بمن تستصحبه من الأخيار، ولا تَزال منهم على يقين، وعملٍ بمـا فيه خلاصُ دنيا ودِين .

(١) كذا فى التعريف أيضا والمراد أن المقومين يشـترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات وإلا فلا يؤخذ بتقويمهم ولا يعوّل على كلامهم .

الوظيفــة الخامسة

(الخـطابة)

وهى من أجلّ الوظائف وأعلاها رتبةً فى نفس الأمر . وموضوعُها معروفٌ . وتختصّ هذه الطبقة من التواقيع بخَطَابة الجوامع .

وهذه نسخةُ توقيع بخَطَابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة، حيث مُصَلَّى السلطان، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ :

الحمـدُ لله الذى أنار بالذِّكْر قلُوبَ أوليـائه ، وكشَفَ بالذِّكْرىٰ بصائرَ أصْفيائه ، وأنال أهلَ العِـلم بالإبلاغ عنـه إلىٰ خلْقِه وِراثةَ أنبيائه، وآختار لإذْكارنا بآلاء الله من فُرْسان المَنابر مَنْ يُجاهد الأعداءَ بدُعائه، ويُجاهِر الأوِدّاء من مواعظِه بمـا يعلَم كلٌّ منهم أنَّ فى مُؤْلِمِ صَوادِعه دواءَ دائِه ، فإذا آفتتح بحمد الله أثنىٰ عليـه بمِوادّ علمه حقَّ ثَنائه ، ونزّهه بمـا ينبغى لسُبُحات وجْهِه وجلالِ قُدْسه وتقدُّس أسمائه ، وأثنىٰ كما يجبُ علىٰ نبِيِّه صلَّى الله عليه وسلم الذى آدمُ ومَنْ بعـدَه من الرُّسلِ تحتَ لِوائه ، و إذا تُليتْ علىٰ خيلِ الله خُطبتُه تشوّقَتْ بلقاءِ أعداء الله إلىٰ لقائِه ، وخَطبتِ الجنانَ من بذْل نفُوسها ونفائسِها بمـا أفْتَتْه فى سبيل الله لآتِّقائه .

نَحمدُه علىٰ أن جعَلَنا لذِكره مستَمعين ، ولأمره ونَهْيه متَّبِعين ، وعلىٰ حَمْده فى كل ملإٍ من الأولياءِ مجتَمعين .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا تزال تختالُ بذِكرها أعطافُ المَنابر، وتتعَطَّر ألسِـنةُ الأقلام بمـا تنْقُله منها عن أفواه المَحابر، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه و رسولُه الذى هَدى اللهُ مَنْ تقـدّم من الأمة بخُبْره ومن تأخّر بخَبَره ، وجعل روضةً من رياض الجنة بين قَبْره ومِنْبَره، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم

أوّلُ من عُقِدتْ بهم من الجُمَع صلواتُها، وأكرمُ مَن زُهيت به من الجهاد والمَنابر صَهَواتُها، صلاةً لا نزال نُقيمها عنـد كلِّ مسْجد، ونُديمها فى كلِّ مُتْهِم فى الآفاق ومُنْجِد، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنّ أوْلىٰ المنابر أن يُرتادَ له من أئمة العلماء علّامةُ عَصْره، ورُحلةُ مِصْره، وإمامُ وقته الذى يَصْدَع بالحق وإن صَـدَع، وعالمُ زمانه الذى يقُوم فى كل مَقـام بمـا يُناسبه مما يأخُذ فى الموعظةِ الحسنةِ وما يَدَع، منبرٌ نُذَكِّر بآلاء الله علىٰ أعواده وإن لم نَزَلْ لها من الذّاكرين، ونُنَبِّه فيه علىٰ شُكْر الله بالرأفة علىٰ خَلْقه وإن لم نَبْرَح لها بذٰلك وغيره من الشاكرين، ونُشَوِّقُ عليه إلىٰ الجهاد فى سبيل الله بما أعدّ اللهُ لنا علىٰ ذٰلك من النصْر والأجْرِ وإنْ كُنّا علىٰ الأبَدِ إليه مُبادِرين، وإلىٰ إقامةِ دَعْوة الحق به مُباكِرين .

ولمـا كان فلان هو الذى تعيَّن لِرُقِىّ هذه الرتبةِ نخُطَب لخَطَابتها، وتبيّن أنه كُفُؤُهَا الذى تتشوّقُ النُّفوس إلىٰ مواعظه فترْغَبُ فى إطالتِهـا لإطابَتِها ــ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُحلِّىَ بفضائله أعطافَ هذا المِنْبر الكريم، وأن نختَصَّ نحن وأولياؤُنا بسَماعِ مواعظِه التى تُرغِّب فيما عندَ الله بجهادِ أعداء الله ﴿ واللهُ عِنْدَهُ أجرٌ عظيم ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال يُطْلِعُ فى أُفُق المنـابر من الأولياء شمسًا مُنيره، ويُقيم شعائرَ الدين من الأئمة الأعلام بكُلِّ مُشْرِق العَلانيَة طاهِرِ السَّريره ــ أن يفوّضَ إليه كذا : فلْيَحُلَّ هذه الرتبـةَ التى لم تُقرّب لغيره جِيادُها، ويُحـلِّ هذه العقيلةَ التى لا تُزان بسوى العـلم والعمل أجيادُها، ويَرْقَ هـذه الهَضْبةَ التى يطُول إلّا علىٰ مِثْله صُعُودُها، ويَلْقَ تلك العصبة التى تجتمع للاولياء به (؟) حُشودها. وهو يعلم أنّه فى موْقف الإبلاغ عن الله لِعباده، والإعلام بمـا أعدّ اللهُ فى دار كرامته لمَنْ

جاهد فى الله حقَّ جهاده ، والإنذارِ لمن قصَّر فى إعْدادِ الأُهْبة ليوم معَادِه ؛ وهو بمَحْضَر من حُمَاة الإسلام ، ومَشْهدٍ ممن قلَّدْناه أمرَ أمَّة سيدنا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ فليَقْصُر خُطَبه على طاعةٍ لله يحُضُّ عليها ، وعَزْمةٍ فى سبيل الله يُشَوِّق إليها ، ومعْدَلة يصِفُ ماأعدّ اللهُ لوُلَاة أمرٍ قدَّمتْها بين يدَيْها ، وتوبةٍ يبعثُ الهِمَم ، على تعجيلها ، وأوقاتٍ مكرَّمة ينَبِّه الأمم ، على احترامها بتقوى الله وتبجيلها ؛ ودُنْيا يُنْذِر من خِداعها ، ويبَيِّن للمُغْتَرِّ بها ماعُرِف من خلائقها المذمومةِ وأُلِف من طِباعها ؛ وأُخْرى يوضِّح للمُعْرِض عنها وَشْك قُدُومها ، ويحذِّر المقصِّر فى طِلَابها من عذابها ويبشِّر المشمِّر لها بنَعِيمها . وليعْلَمْ أنَّ الموعظة إذا خرجَتْ من الألسِنَة لم تَعْدُ الأسماع ، ولم يُحصَلْ منها على غير تعقُّل القرائن والأسجاع ؛ وإذا خرجَتْ من القلوب وقعت فى مِثْلها ، وأثمرت فى الحال بالمحافظة على فَرْض الطاعة ونفْلها ؛ وسكَّنَتْ فى السرائر طِباعَ طاعةٍ تأبى على مُحاوِل نَقْلها ، وقدحَتْ(١) فى البصائر من أنواع المعْرِفة ما لم يُعْهد من قَبْلها . وليجعلْ خُطَبه فى كل وقتٍ مناسِبةً لأحوال مستَمِعيها ، متناسبةً فى وضُوح المقاصد بينَ إدْراك مَنْ يَعِى غوامِضَ الكلام ومَنْ لا يَعِيها ؛ فخيرُ الكلام ما قلَّ ودلّ ، وإذا كان قِصَرُ خطبةِ الرجُل وطُول صلاتِه منبئين عن فقهه فما قصَّر مَنْ حافظَ على ذلك ولا أخَلّ ؛ وليُوشِّح خُطَبه من الدعاء لنا وللمسلمين بما يُرجى أن يوافقَ ساعةَ الإجابه ، وإذا توخَّى الغرضَ بدعائه لعُمُوم الأمة فقد تعيَّنتْ — إن شاء الله — الإصابه ؛ وهذه الوصايا على سبيل الذِّكْرى التى تنفَع المؤمنين ، وترفَعُ المحسِنين ، والله تعالى يجعله — وقد فعل — من أوليائه المتقين ؛ بمنّه وكرمه! ، إنْ شاء الله تعالى .

(١) لعله وقذفت .

وهذه وصية خطيب أوردها فى "التعريف" :

وليَرْقَ هذه الرُّتْبة التى رُفعتْ له ذُرا أعوادِها، وقُدِّمتْ له من المنابر مُقرَّباتُ جِيادِها ؛ وليَصْعَدْ منها علىٰ أعلىٰ دَرَجه ، وليَسْعَدْ منها بصَهْوةٍ كأنما كانتْ له من بُكْرة يومه المُشْرِقِ مُسْرَجه ؛ وليَرْعَ حقَّ هذه الرتبة الشريفه ، والذّروة التى ماأُعِدّت إلّا لإمامٍ فردٍ مثلِه أو خليفه ؛ وليقِفْ حيثُ تخْفُقُ علىٰ رأسه الأعلامُ، ويتكلَّم فتخرَس الألسنة وتَجِفُّ فى فَمِ الذُّرَا الأقلام، ولْيَقرَعِ المسامعَ بالوعد والوعيد ، ويُذكِّرْ بأيام الله مَنْ ﴿كان له قَلْبٌ أو أَلْقَ السَّمْعَ وهُو شَهِيد﴾ . ويُلَيِّن القلوبَ القاسيةَ وإن كان منها ما هو أشدُّ قَسْوةً من الحِجارة والحديد ؛ ولْيَكُنْ قد قدّم لنَفْسه قبل أن يتقدّم، وليُسْبِلْ عليه دِرْعَ التوبة قبل أن يتكلَّمَ، وليجعَلْ لكل مَقامٍ مَقالا يقُوم به علىٰ رءوس الأشهاد، ويفَوِّقْ منه سَهْما لايُخطِئ موقعُه كلَّ فؤاد، وليَقُمْ فى المحراب مَقام من يخشىٰ ربَّه ، ويخافُ أن يَخْطَف الوجَلُ قلْبَه ؛ وليعلم أنَّ صدَفَةَ ذٰلك المحراب ما انفلقَتْ عن مثل دُرّته المكْنُونه ، وصناديقَ الصُّدُور ما أُطْبِقَتْ علىٰ مثل جوْهَرته المخزُونه ؛ وليؤمَّ بذٰلك الجمّ الغفير، وليتقدم بين أيديهم فإنّه السَّفير ؛ وليؤدِّ هذه الفريضةَ التى هى من أعظَم الأركان، وأوّلِ الأعمال التى تُوضَع فى المِيزان ، وأقربِ القُرَب التى يَجْمع إليها داعى كلِّ أذان ؛ وليَقُمْ بالصلاة فى أوقاتِها، وليُرِحْ بها الناسَ فى أوّل مِيقاتِها؛ وليخَفِّف مع الإتمام ، وليتحمَّل عمَّن وراءَه فإنه هو الإمام ؛ وعليه بالتقْوىٰ فى عقْد كل نيَّه ، وأمامَ كلِّ قضيَّه ؛ والله تعالىٰ يجعَله ممن ينقَلِبُ إلىٰ أهله وهو مسْرُور ، ويُنصَبُ له مع الأئمة المُقْسِطين يوم القيامة عن يمين الرحمن منابِرُ من نُور ؛ بمنّه وكرمه .

الوظيفـــة السادسة

(الإمامة بالجوامع، والمساجد، والمَدَارس الكِبَار التى تصـدُر التوليةُ عن السلطان فى مثلها)

وهـــذه نسخة توقيـــع بالإمامة :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمِه التى جعلت أيَّامنا الشريفةَ تَزِيدُ أهلَ الفضائل إكراما، وتَخُص بالسيادة والتقديم من أنشأه الله تعالىٰ قُرَّةَ أعيُنٍ وجعـله للمتَّقين إماما، وقدّمه علىٰ أهل الطاعة الذين يَبِيتُون لربِّهم سُجَّدا وقِياما .

والشَّهادة له بالوحدانيَّة التى تكسُو مُخْلِصَها جَلالا وسَّاما ؛ والصلاة والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى أمَّ النـاسَ وعلَّمهم الصلاةَ وأظهر فى إقامة الدِّين مقالا محمُودا ومقامًا ، وعلىٰ آله وصحبـه الذين تمسَّكوا بسُنَّته توثُّقـا وآعتصاما ـ فإنَّ خير الرتب فى هذا العصر وفيما تقدّم، رُتبةُ الإمامة حيثُ تقدّم سيدُ البَشَر فى مِحْرابها علىٰ الأمة وأمَّ ؛ فاختارها من آتَّبع الطريقَ المحمديَّة وشَرْعها، وعلم سَناءَها ورَفْعها ؛ فزاد بذٰلك سُمُوًّا إلىٰ سموِّه، وحصل علىٰ تَضاعُف الأجرِ ونُمُوِّه ؛ وهو فلان .

رسم ـ لا زالت أيامه الشريفةُ تَشْمَل ذَوِى الأصالة والصَّدارة بجزيل فَضْلِها ، وعوائدُ إنعامه تجرى بإتمام المعروف فتُبقِى الرُّتَبَ الدينيَّةَ بيدِ مستحِقِّها وتسارع إلىٰ تخليد النعم عند أهلها ـ أن يستمرَّ فلان فى كذا جاريًا فيه علىٰ أجمل العادَات ، إعانةً له علىٰ آكتسابِ الأجُور بمـا يعتمده من تأهيـل مَعْهَـد العِبادات ؛ ورعايةً لتكثير المَبَارّ ، وترجيحًا لمـا آشتمل عليـه من حُسْن النظر فى كل إيراد وإصْـدار ، وتوفيرًا للمَنَاجِح التى عُرِفت من بيته الذى كَمْ أُلِفَ منه فعلُ جميل وعَمَلُ بارّ ، ووُثوقًا

بأنه يعتَمِد فى عمـارة مساجِد الله سبحانه وتعالىٰ أنه تَشْهَد به الملائكةُ المتعاقِبُون بالليل والنهار، والله تعالىٰ يجعل النِّعم عنده مؤبَّدة الأستقرار، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة السابعة

(التدريس، وموضُوعه إلقاءُ المسائل العلمية للطَّلَبَة)

وهـذه نسخة توقيـع بتدريس كُتِب به للقـاضى عزِّ الدين آبن قاضى القُضاة بَدْرِ الدِّين بن جَماعَةَ ، عوضًا عن والده ، فى جُمادىٰ الآخرة سـنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله مُتِمِّ فَضْله علىٰ كلِّ أحد ، ومُقِرِّ النِّعمة علىٰ كلِّ والد وولَد ؛ الذى خَصَّ أولياءَنا ببُلُوغ الغايات فى أقْرب المُدَد ، وآستصحابِ المعروف فما يُنْزَع منهم خاتمٌ من يَدٍ إلَّا لِيَد .

نحمدُه بأفضل ما يحمَدُه به مَنْ حَمِد ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً باقيـةً علىٰ الأبد ؛ ونُصلى علىٰ سـيدنا محمد نبيِّه الذى جعـل شريعتَه واضحةَ الجَدَد ، قائمةً بأعلام العلمـاء قِيامَ الأَمَد ؛ صلىٰ الله عليـه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين شَبَّهم فى الهُدى بالنُّجوم وهُمْ مثلُها فى كثرة العَدَد ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ ، فإنَّ نِعَمَنا الشريفةَ لا تَحوَّل ، ومواهِبَنا الجزيلة ... ... تَخَوَّل(1) ، وكرَمَنا يُمهِّد منـازِلَ السُّعود لكل بدر يتَنقَّل ؛ وشِيَمَنا الشريفةَ ترعىٰ الذِّمَم لكلِّ من أنفق عُمُرَه فى ولائِها ، وتحفَظ مالهـا من المآثِر القديمة بإبقائها فى نُجَباء أبنائها ؛ مع ما نُلاحِظُه فى آستحقاقِ التقديم ، وآنتخاب مَنْ ترقَّىٰ منهم بين العِلْم والتعليم ، وحَصَّل

(1) بياض بالأصل ولعله لا تزال لأوليائنا تَخوَّل . وفى اللسان "التخول التعهد وحسن الرعاية" .

فى الزمن القليل العِلمَ الكثير، واستمدّ من نُور والده وهو البَدْر المُنير، وعُلم بأنّه فى الفضائل سرُّ أبيه الذى شاع، وخليفتُه الذى لو لم يُنَصّ عليه لما آنعقد [إلا] عليه الإجماع، والواحدُ الذى ساد فى رُتْبة ابيه وما خلَتْ من مثله - لا أخْلىٰ اللهُ منه البِقَاع!.

وكان المجلس السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ، هو المرادَ بما قدّمنا من صفاته الجميله، وتوسَّمْنا أنه لَمْعَةُ البَدْر وهى لاتخفىٰ لأنها لا تَرُدُّ العُيونَ كَليله؛ ورأىٰ والدُه المشارُ إليه من آستحقاقه ما آقتضىٰ أن يُنَوّه بذكره، ويُنَبّه علىٰ المعرفة بحقّ قَدْره، فآثَر التُّزُول له عمّا باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصرَ المحروسة ليقُوم مَقامَه، ويُقرّر فوائدَه ويَنْشُر أعلامَه، ويَعْلم أنه قد حلّق فى العلياء حتّى لحِق البَدْرَ وبلغ تَمامه؛ فعلِمْنا أنّ البركةَ فيما أشار، وأنّ اليُمْنَ بحمد الله فيما رجّحه من الآختيار.

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف - زاد الله فى شَرَفه، وجعل أقطارَ الأرض فى تصرّفه - أن يُرتّب فى هذا التدريس عوضًا عن والده، أطال الله بقاءَه علىٰ عادته وقاعدته إلىٰ آخر وقتٍ لأنه أحقُّ من آستحق قَدْرُه الرفيعُ التميز، وأولىٰ بمِصْرَ ممن سواه لما عرفَت به مصر من العزيز ثم من عَبْد العزيز.

ونحن نُوصيك أيُّها العالِم - وفّقك الله - بالمُدَاومة علىٰ ما أنت بصَدَده، والمذاكرةِ للعلم فإنّك لاتُكاثِرُ العُلَماء إلا بمَدَده، والعملِ بتقوىٰ الله تعالىٰ فى كل قَصْد وتَصْدير، وتَقْريب وتقرير، وتأثيل وتأثير، وتقليل وتكثير، ونصّ وتأويل، وترتيب وتَرْتيل، وفى كل ماتَزْدادُ به رفعتُك، وتطيرُ به سُمْعتُك، ويحسُنُ به الثناءُ علىٰ دِينك المتين، ويقومُ به الدليلُ علىٰ ما وضح من فَضْلك المبين.

وآعلم بأنك قد أدركتَ بحمد الله تعالىٰ وبكرمنا وبأبيك وباستحقاقك ما آرتدّ به كثيرٌ عن مَقَامك، ووصلتَ فى البِداية إلىٰ المَشيخة فى زاوِيةِ إمامك؛ فاعمل فى إفادةِ الطَّلَبة بما يرفَعُ الرافعيُّ لك به الرايه، ويأْتمُّ بك إمامُ الحرمين فى النّهايه؛ فقد أمسيتَ جارَ البحر فاستخرِج جُمَانَه، وآجتهد لتُصيب فى فَتاويك فإنّ أُولٰئك سِهام رميُها من كِنَانه؛ وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ بمقتضاه والآعتمادُ(١) .

✣

وهـذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعى بالجامع العتيق أيضا، من إنشاء المولىٰ زَيْن الدين بن الخَضِر مُوقّع الدَّسْت، كُتِب به لتاج الدين محمد الإخنائى شاهدِ خِزَانة الخاص، بالنِّيابة عن عمّـه قاضى القضاة تقىّ الدين المـالكىّ فى أيام حياته، مستقِلًّا بعدَ وَفاته، وهى :

أما بعدَ حَمْدا لله علىٰ أنْ زانَ مجالِسَ المَدَارس فى أيّامنا الشريفة بتاجها، وأقرّبها من ذَوى الإنابة من يستَحِقُّ النيـابةَ عن تقِىّ قُوَّى الأحكام بإحكامها وإنتاجِها، ورفع قدرَ بيتٍ مباركٍ طالمـا آشتهر عَلَمُ عِلْمه وصدَر عن صَدْره فكان مادّةَ مَسرّة النفس وآبتهاجِها، وجعل عوارِفَنا ترعىٰ الذُّرِّيَّةَ الصالحـةَ فى عَقِبها وتُولّى كلَّ رُتبـة مَنْ أضحىٰ لأهلها بوَجَاهته مُواجِها؛ والشهادةِ له بالوَحْدانيّة التى تنفِى شِرْكَ الطائفة الكافرةِ ومَعْلُولَ آحتجاجِها، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى آستقامتْ به أمورُ هذه الأمة بعد آعوِجاجها، وتشرّفتْ به علمـاؤُها حتّى صارتْ كأنبياء بنى إسراءيلَ بحُسْن آستنباطِها للجُمَل وجميـلِ آستخراجِها؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين علِموا وعملوا وأوضحوا لهذه المِـلّة قويمَ مِنْهاجِها ــ فإنّ أَوْلَى الأوليـاء ببُلوغ الأمَل، وتعاهـد

---

(١) أى الى آخر ما يقال فى مثله .

مدارس العِلم بصالح العَمَل ، و إظهار سِرّ الفوائد للطالِبين ، وحَلّ عقود مُشْكِلها بجميل الاطِّلاع وحُسْن اليقين ، من حَوىٰ معرفة الفُروع والأصُول ، وحاز من مَذْهبه المُذْهَب خيْرَ محْصُول ، ونشأ فى حِجْر الفضائل ، واقتدىٰ بحُكّام بيته الذين لهم فى العُلُوم بمصرَ والشامِ أوضحُ البراهين وأقوى الدَّلائل ؛ وله فى الآباءِ والأُبُوَّه ، الديانةُ التى بلغ بها من الإقبال مَرْجُوّه ؛ طالَمَا سارتْ أحكامُ عمّه – أجله الله – فى الأقطار ، وحكَمَ فأبدىٰ الحُكْم بين أيدينا أوفى الأمصار ، وله العَفَاف والتُّقىٰ والمآثرُ الجميلةُ وجميلُ الآثار ؛ والفَتاوَىٰ التى أوضح بها مُشْكِلا ، وفَتَح مُقْفَلا ، والفصلُ بين الخصوم بالحقِّ المُجْتَلىٰ ؛ والبركةُ التى لدولتنا الشريفةِ منها نصيبٌ وافر ، والتصميمُ الذى اقترن بغَزارة العِلم والوَقار الظاهر ؛ فهو – أعز الله أحكامَه – من العُلَماء العاملين ، وله البُشْرىٰ بما قاله أصدقُ القائلين ، فى النبإ الذى تَمَّ به الزيادةُ والنماء : ﴿ إنَّما يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماء ﴾ .

ولما كان المجلس السامى هو الذى استوجبَ التصديرَ لإلقاء الدروس ، وأضحىٰ مالكيًّا مالكًا أزمَّة الفضائل حائزًا من أثوابها أفخر مَلْبُوس ؛ وله بخزانة خاصِّنا الشريف و إصْطبلاته السعيدةِ الشهادةُ البيِّنه ، والكتابةُ التى هى العِزُّ الحاضر فلا يُحتاج معها إلىٰ إقامة بَيِّنه ، والكَفَالةُ التى نطقتْ بها الأفواه مُسِرَّة ومُعْلِنه ، والأمانةُ التى حذا فيها حذوَ أبيه واتّبع سَنَنه .

فلذلك رُسِم – لا زال يُديم النِّعَمَ لأهلها ، ويُبْقِى المراتبَ الدينيَّة لمن أضحىٰ محلّه مناسبا لمَحَلّها ، أن يستقر ... ... (١) فلينُبْ عن عمّه فى هذا التدريس ، ولْيَقْفُ ما يَسُر النفوسَ من أثره النفيس ؛ ولْيُفِد الطلبةَ علىٰ عادته ، ولْيُبْدِ لهم من

(١) بياض بالأصل ومراده فى تدريس زاوية الشافعى الخ .

النُّقول ما يُظْهِر غزيرَ مادَّته ، وليستنبِط المسائل ، وليُجِبْ بالأدلَّة المُسائل ، وليرجِّح المَباحث ، وليكن لوالده ـ رحمه الله ـ أحَقَّ وارث ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة المباركة بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالىٰ ، وليتزيَّد من العلوم ليبلُغ من صدَقاتنا الشريفة آمالًا ، والله تعالىٰ يسدِّدُ له بالتقوىٰ أقوالًا وأفعالا ، بمنِّه وكرمه .

وهـذه نسخةُ توقيع بتدريس المدرسـةِ الصَّلاحيَّة المجاورةِ لتُرْبة الإمام الشافعيّ رضى الله عنـه ، كُتِب به لقاضى القُضاة تقِيّ الدين ، ابن قاضى القُضاة تاج الدِّين ابن بِنْت الأعزّ . من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى :

الحمدُ لله شافِى عِىّ البَحْث بخيرِ إمامٍ شافِعِىّ ، والآتى منه فى الزَّمَن الأخير بمن لو كان فى الصَّدْر الأول لأثنىٰ علىٰ وَرَعه ودينِه كلُّ صحابِىّ وتابِعِىّ ، ومُفِيد الأسماع من وَجِيزِ قولِه المحرَّر ما لولا السبقُ لمـا عَدَل إلىٰ شرح وجيزِ سواه الرافِعىّ .

نحمده علىٰ نِعَمٍ ألهمَتْ وضْعَ الأشـياء فى محلِّها ، وآستيداعَها عند أهلِها ، وتأتِّيها بمـا يزيل الإشكال بانجذابِ مَنْ شكْلُه مناسبٌ لشَكْلها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتزيَّن بها المَقَال ، ويتبيَّن بهـا الحقُّ من الضَّـلال ، ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسوله ونبيُّـه موضِّحُ الطُّرُق إلىٰ الحق المبين ، وناهِجُها إلىٰ حيث مجتمَعُ الهدىٰ ومرتَبَع الدِّين ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَهْدِى إلىٰ صراط الَّذِين ، ورضى الله عن أصحابِه الذين منهم مَنْ جاءَ بالصِّدْق وصَدَّق به فقوِىَ سببُ الدين المتين ، ومنهم من فَرَق بين الحق والباطل وكان إمامَ المتقين وسُمِّىَ أميرَ المؤمنين ، ومنهم من جَهَّز جيشَ العُسْرة فثبَّت جأْشَ المسلمين ،

ومنهم من أعطاه صلّى الله عليه وسلم الراية فأخذها منه باليمين ، ورضى الله عن بقيّة الصحابة أجمعين .

وبعدُ، فلما كان مذهَب الإمام الشافعى «محمد بن إدريس» رضى الله عنه هو شُهْدة المتلفظ، وكفايةُ المتحفِّظ، وبَهْجةُ المتلحّظ ؛ وطرازُ مَلْبَس الهدى، ومَيدانُ الاجتهاد الذى لاتقفُ أعنّة جِياده عن إدراك المَدَى ؛ وقد تجملتْ ديارُ مصر من بركة صاحبه بمن تُشَدّ إليه الرِّحال، وتَفْخَرُ جَبّانة هو فيها حالّ ، وجِيدٌ هو بجواهر عُلُومه حالٍ ؛ ومن يَحْسُن إلى ضريحه المُنِيف الاستناد ، وإذا قُرِئَتْ كُتُبه لدَيْه قيل ما أبعَدَ هذا المَرمىٰ الأسنى! وما أقربَ هذا الإسْناد! ؛ وما أسْعَدَ حَلْقةً تُجمع بين يدى جَدَثه يتصدّر فيها أجلُّ حَبْر، ويتصدّىٰ لنشر العلوم بها من عُرِف بحُسْن السِّيرة عند السَّبْر، ومَنْ لولا خَرْقُ العوائد لأجاب بالشُّكر والثناء عليه صاحبُ ذٰلك القَبْر كما قال : «قال صاحب هذا القبر» ــ حَسُن بهذه المناسبة أن لاينتَصِبَ فى هذا المَنْصب إلا من يَحْمَدُ هذا السيدُ الإمام جِوارَه ، ومَن يُرْضيه منه ــ رضى الله عنه ــ حُسْنُ العِباره، ومن يستحقّ أن يتصدّر بين نُجوم العلماء بدارةِ تلك الخِطّة فيقال قد جمّل الله به دارةَ هذا البدر وعمّر به من هذا المدرَّس دارَه ؛ الذى يفتقر إلىٰ تنويل نِعَمه، وتنويه قَلَمه ، من الأئمة كلُّ غنِى ؛ ويُعجَب ببلاغة خُطَبه، وصِياغة كُتُبه، من يَحْتَلِى ومن يجتنى ؛ ومن يَهْنَا المستفيدُون من عذُوبة ألفاظه وصفاءِ معانيه بالمَوْرد الهنِى ، ومَنْ إذا سَحّ سحابهُ الهَطّالُ اعترفَ له بالهُمُوّ والهمُول المزنى ؛ والذى لسَعْد جَدّه من أبيه ليث أكرِمْ به من لَيْث وأكرم ببَنِيه من أشبال! ، وأعزِزْ به من فاتح أبوابِ إشكالاتٍ عَجَز عن فَتْحها القَفّال! ؛ ومن إذا قال سكتَ الناس ، ومن إذا قام قَعَد كلُّ ذى شِماس، وإذا أخذ بالنصّ ذَهَب الاقتباس ، وإذا قاس قيل هذا بحرُ المَذْهب المشارُ إليه بالأصابع فى مِصْره جلالةً ولا يُنْكَر لبحر المِصْر الإشارةُ

بالأصابع ولا القِياس ؛ ومن يزهو بتقى قلبه ورُقى جَوَابه لسانُ التعويل ولسان التعويذ، كما يَمِيس بإحاطته وحِياطته قَـلَمُ الفتوى وقلَمَ التنفيـذ، ومن يَفْخَر [به] كلُّ عالم مفيـد إذا قال : أنا بين يدَيْه طالبٌ وأنا له تلميـذ ؛ ومَنْ حيثُما آلتفتَّ وجدتَ له سُؤددا جَمّـا ، وكيْفَما نظرتَ رأيتَ له من هُنا وِزارةً ، ومن هُنا خَطابةً ، ومن هُنا مشيخةً، ومن هنا تدريسا ، ومن هُنا حُكْمًا !!! ؛ فهو الأصلُ ومَنْ سِواه فُرُوع ، وهم الأثمادُ وهو اليَنْبُوع ؛ وهو مجمُوع السياده، المختارُ منه الإفاده، فما أحسَنَه من آختيار وما أتمَّه من مجموع ، وكان قاضى القُضاة ، سيِّد العلماء ، رئيسُ الأصحاب ، مقتَدَى الفِرَق ،قُدوةُ الطوائف ، الصاحب تقِيّ الدين «عبد الرحمن» ولد الصاحب قاضى القُضاة تاج الدين بن [بنت] الأعز أدام الله شَرَفه ، ورَحِم سلَفَه ، هو منتهى رغبةِ الراغب، ومُشْتهى مُنْيَة الطالب ؛ ومَنْ إذا أضاءت ليالِى النُّفُوس بأقمار فتاويه قيل (بياضُ العَطَايا فى سَـوَاد المَطَالب) ، ومن تتَّفِق الآراء على أنه لِسنّ الكُهُولة شـيخُ المَذَاهب ؛ ومَنْ عليه يَحْسُن الآتفاق ، وبه يجمُل الوِفَاق ، وإذا وَلِىَ هذا المنصبَ آبتهج بولَايتـه إيَّاه مالك فى المدينـةِ وأبو حنيفةَ وأحمـدُ رضى الله عنهم فى العِرَاق ؛ وآهتزَّتْ به وبمجاورة فوائِده من ضريح إمامه جوانبُ ذٰلك القبْرِ طَرَبا ، وقالت "الأُمُّ" لقد أبهجتَ ـ رحم الله سلفَك ـ بجدِّك وإبائك جدًّا وأبا ، ولقد آستحقَّيْتَ أن يقول لك منصبُ سلَفِك رضى الله عنهم : أهْلًا وسَهْلا ومَرْحَبـا ، وهذه نَسَماتُ صَبًا ، كانتِ الإفادة هُنالك تَعرِفُها منك من الصِّبا .

فالحمـد لله على أن أعطى قَوْسَ ذٰلك المحراب بارِيها ، وخصَّ بشَـق سهامها من لا يزال سعده مُبارِيها ، وجمَّل مطلَع تلك السماء ببدرٍكم باتتْ [عليه] الدُّرر تحسُـد دَرَارِيها ؛ وألهَمَ حسنَ الآختيار أن يجرى القلَمُ بمـا يحسُن بالتوقيع الشريف موقعُه ، ويجمُلُ فى أثناء الطروس وضعُه وموضعُه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِى ، السلطانى : ـ أجْراه الله بالصواب ، وكشف بارْتِيَـائه كلّ آرْتِياب ، ولا زال يختـارُ وينتقى للمناصب الدّينيّة كلّ عالم بأحكام السُّـنّة والكتَاب ـ أن يفوّض إليه تدريسُ المدرسـة الصلاحيّة الناصريّة المجاورة لضريح الإمام الشافعىّ بالقرافة رضى الله عنـه . فليُخَوَل وليُنوِل كلّ ذى استفاده، وليَجمَل منه بذلك العِقْد الثمين من علماء الدّين بأنْجُم واسطةٍ تَفْخَرُ بها تلك القِلاده، وليذْكُر من الدروس مايُبْهِج الأسماع، ويُرْضِى الآنتجاع، ويُجادُ به الآنتِفاع ، ويَجْتَلِبُـه من أخلاف الفوائد آرتِضـاءُ الآرتِضاع ، ويتـاقل الرُّواةُ فوائدَه إلىٰ علمـاء كل أُفُق من البِقـاع ، ولْيَقُلْ فإنّ الأسمـاعَ لفوائده مُنْصِـته، والأصواتَ لمَبَـاحثه خاشـعةٌ والقلوبَ لمَهَابته مُخْبِته ، ولْيُنْهِض قوىّ المسائل بمـا يحصِّل لهـا أعظَمَ انتِعاش، ولْيُمِتْ ماأماته إمامُه من البِدَع فيُقال به له : هذا محمدُ آبنُ إدريسَ مُذْ قُمْتَ أنتَ عاش، ولْيُسْمِع بعلومه مَنْ به من الجهل صَمَم، ولْيستَنْطِق مَنْ به من الفَهَاهة بَكَم، ولِيُحقّق عند الناس بتَعَصُّبه لهذا الإمام أنه قد قام بالتنويه به الآنَ الحاكمُ آبنُ الحاكم أخو الحاكم كما قام به فيما سلف بنو عَبْد الحَكَم .

وأما غيرُ ذلك من الوصايا فهو بحمـد الله صاحبُ إلهـامِها ، وجالبُ أقسامِها ، وجُهَينة أخبارِها، ومَطْلَع أنوارِها ، فلا يُعاد، عليه ما منه يُستفاد ، ولا يُنْثَر عليه دُرٌ هو منظِّمُه فى الأجياد، والله تعالىٰ يُعَمِّر بسيادته معالمَ الدين وأكنافَه ، ويزيِّن بفضله المتينِ أوساطَ كلِّ مصر وأطرافَه ، ويُضيف إليـه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشُهُ خَفْضا بتلك الإضافَهْ ، ويجعله لا يُخَصِّص حُنوّه بمَعْهَد دُونَ مَعْهَد ولا بمسافةٍ دُون مَسافَه، ويُبْقِيه ومنفعتَه إلىٰ ساريةٍ ساريةِ الإطافة واللّطافه، وألطافَه بهذه الولاية تقول لكلِّ طالبٍ فى القَرافة التى رافَه .

قلت : ولما تُوفّيَ قاضى القضاة بدرُ الدين بنُ أبى البقاء ـ تغمده الله تعالىٰ برحمته ـ وكان من جملة وظائفه تدريسُ هذه المدرسة ، كان السلطان قد سافر إلىٰ الشام فى بعض الحَركات ، فسافر ٱبنُه أقضىٰ القضاة جلالُ الدين حتَّى أدرك السلطانَ بالطريق ، علىٰ القُرب من غَزَّة ، فولَّاه الوظيفةَ المذكورةَ مكانَ أبيه ؛ وكان القاضى نورُ الدين بنُ هلال الدولة الدِّمَشقىّ حاضرًا هُناك ، فأشار إليه القاضى فتحُ الدين فَتْح الله كاتبُ السر الشريف ـ عامله الله بلطفه الخفىّ ـ بإنشاء صدر لتوقيعه ، يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية ، فأنشأ له سَجْعتين ، هما :

الحمدُ لله الذى أظهَر جلالَ العلماء الشافعية بحضْرةِ إمامهم ، وأقام ساداتِ الأبناء مقـامَ آبائهم فى بثِّ علومهم وصلاتِهم وصِيامِهم . ولم يجاوز ذلك إلىٰ غيره ، فسُطِّر التوقيع بهاتين السجعتين ، وعُلِّم عليه العلامة السلطانية .

وكان من قول نُور الدين بن هلال الدولة للقاضى جلال الدِّين المذكور : إنَّ هذا التوقيعَ يبقىٰ أبيضَ : فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكملتِه علىٰ هذا الأسـلوب . فسمع القاضى كاتبُ السرّ كلامَه ، فكتبَ لِى بتكملتـه علىٰ ظَهْره ، وعاد به القاضى جلال الدين فأعطانيه ، وأخبرنى بكلامِ ٱبن هلالِ الدولة وما كان من قوله ، فتلكَّأْتُ عن ذٰلك ، ثم لم أجِدْ بُدًا من إكماله وإن لم أكُنْ من فُرْسـان هذا المَيْدان ، فأنشأْت له علىٰ تينك السجعتين ما أكملته به ، فجاء منه تِلْوَ السجعتين السابقتين اللتين أنشأهما ٱبن هلال الدولة :

وخصَّ برياسة العلم أهلَ بيتٍ رأتْ كُهولَهُم فى اليَقَظة ما يتمنّىٰ شُيوخُ العلماء أن لو رأَوْه فى مَنامهم .

وجاء من وسطه :

آقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُنَوِّه بذكره، ونقدّمه علىٰ غيره ممّن رام هذا المَقامَ فحُجب دُونَه (واللهُ غالبٌ علىٰ أمْرِه) .

وجاء فى آخره :

والله تعالىٰ يرقِّيه إلىٰ أرفع الذُّرا، وهذه الرتبةُ وإن كانت بِدايتَه فهى نهايةُ غيره (وإنّا لنَرجو فوقَ ذٰلكَ مَظْهرا) .

وقد أعوَزَنى وِجْدانُ النسخة عند إرادة إثباتها فى هذا التأليف لضَيَاع مُسْوَدّتها ولم يحضُرْنى منها غيرُ ماذكرتُه . وفيما تقدّم من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر من توقيع القاضى تقىّ الدين ابن بنت الأعز مالا ينظَر مع وُجوده إلىٰ غيره .

✤

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية بمصر، المختصّة بالمالكية، المعروفة بالقَمْحية، بمصرالمحروسة، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين الأَقْفَهسىّ، وهى :

الحمدُ لله الذى زيَّن معالمَ المدارسِ من أعلام العُلماء بجَمالها، وميَّز مراتبَ الكَمَلة بإجراء سَوابِق الأفكارِ فى مَيادين الدُّروس وفَسِيح مَجالها، وعَمَّر معاهدَ العلم بأجلّ عالم إذا ذُكرت وقائعُ المناظَرة كان رأسَ فُرْسانها ورَيِّسَ رجالها، وناط مقاصدَ صَلاح الدين بأكمل حَبْرٍ إذا أُورِدتْ مناقبُه المأثورةُ تمسَّك أهلُ الدِّيانة منها بوَثيق حِبالها .

نحمَدُه على آختيار الجوهر والإعراض عن العَرَض، والتوفيق لإدراك المَرَامى وإصابة الغَرَض .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له الذى خصّ أهلَ العلم بكريم حِبائه، وشرّف مَقامَهم فى الخليقة فجعلهم فى حَمْل الشريعة ورثةَ أنبيائه، شهادةً تُعذب لقائلها بحُسْن الإيراد وِرْدا، وتُجدِّد لمنتحلها بمواطن الذِّكر عَهْدا فيتّخذ بها عند الرحمٰن عَهْدا، ونشهدُ أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبىٍّ عَلِم وعلَّم، وأكرمُ رسولٍ فصَّل الأحكامَ إذ شَرَع وندَب وأوجبَ وحلَّل وحرَّم، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُنُوا بتفسير كتاب الله تعالىٰ فأدْرَكوا دقيقَ معانيه، وآهتمّوا بالحديث رِوايةً ودِرايةً ففازُوا بتأسيس فِقْه الدّين وإقامة مَبانيه، صلاةً تُحيط من بِحار العلم بزاخِرِها، وتأخُذ من الدُّروس بطرَفَيها فتقارنُ الحمدَ فى أوّلها وتَصْحَب الدعاء فى آخرها، ما تُتُبِّع بالمنقول مواقعَ الأثَر، وعُوّل فى المعْقُول علىٰ إجالة الفِكْر وإجادةِ النَّظَر، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ أَوْلىٰ ماصَرفت النفوسُ إليه هِمَمَها، وأخلصتْ فيه نيّتَها وخلَّصتْ من تَبِعاته ذِمَمَها، وتَبِعتْ فيه آثارَ من سلَف من الملوك الكِرام، وأعارتْه كُلِّىَّ نظرِها وقامتْ بواجبه حقَّ القِيام ــ أمرُ المدارس التى هى مَسْقَط حَجَر الآشتغال بالعِلم ومستَقَرّ قاعِدته، وقُطْب فلَك تَطْلابه ومُحِيط دائرته، ومَيْدان فُرْسان المشايخ ومَدار رِجالها، ومَوْرِد ظِمَاءِ الطَّلَبة ومحطُّ رحالها، لا سيَّما المدارسُ الأيُّوبية التى أُسِّس علىٰ الخير بناؤُها، وكان عن صَلاح الدين منْشؤُها فتألّق برقُها وآستطار ضياؤُها .

ومن أثبتِها وَثِيقه، وأمثلها فى الترتيب طَرِيقه، المدرسةُ القَمْحية بالفُسْطاط الآخذةُ من وجوه الخير بنِطاقِها، والمخصوصُ بالسادة المالكيّة آمتدادُ رُواقها، إن آعتُبِرتْ رعايةُ المذاهب قالت : مالكٌ وما مَالك، وإن عُمِلَتْ حِسْبةُ المدارس فى البِرّ، كانتْ لها فَذَالِك، قد رُتِّب بها أربعةُ دُروس فكانتْ لها كالأركان الأربعه، وجُعلت صدقتُها الجاريةُ بِرًّا فكانت أعظم بِرًّا وأعمّ منفعه .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضَوِى، الشيخىُّ، الكبيرىُّ، العالمِىّ، العاملىّ، الأفضلىُّ، الاكملىُّ، الأوحدىُّ، البليغىّ، الفريدىّ، المُفِيدىّ، التَّجيدىّ، القُدْوِىّ، الحُجّىّ، المحقِّقىّ، الإمامىّ، الجَمالىّ : جمالُ الإسلام والمسلمين، شرَفُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفِيدين، قدوةُ البلغاء زينُ الأمه، أوحدُ الأئمّه، رُحْلةُ الطالبين، فخرُ المدرّسين، مفتِى الفِرَق لسانُ المتكلمين، حُجّةُ المناظرين، خالصةُ الملوك والسلاطين، وَلِىُّ أمير المؤمنين، أبو محمد «عبدُ الله الأَقْفَهْسِىّ» المالكىّ ــ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ــ هو عينُ أعيان الزمان، والمحدَّثُ بفضله فى الآفاق وليس الخبرُ كالعيان، ماوَلِىَ منصبا من المناصب إلا كان له أهْلا، ولا أراد الانصرافَ من مجلس علم إلا قال له مَهْلا، ولا رَمىٰ إلىٰ غاية إلا أدْركها، ولا أحاط به مِنْطَقةُ طلَبةٍ إلا هزَّها بدقيق نظَره للبحث وحرَّكها، إن أطال فى مجلسه أطاب، وإن أوجز قَصّر محاوِرُه عن الإطالة وأناب، وإن أورد سُؤالا عَجَز مناوِئُه عن جوابه، أو فتح بابا فى المناظرة أحجم مُناظِرُه عن سَدِّ بابه، وإن ألَمَّ ببحث أرْبىٰ فيه وأناف، وإن أفتىٰ بحُكْم اندفع عنه المُعارض وارتفع فيه الخلاف، فنوادره المدوّنة فيها البيانُ والتحصيل، ومقدّماته المبسوطةُ إجمالُها يُغْنِى عن التفصيل، ومشارقُه النيِّرة لا يأفُلُ طالِعُها، ومداركه الحسنَةُ لايَسْأَم سامِعُها، وتهذيبُه المهذَّب جامعُ الأمّهات، وجواهره الثمينةُ لاتُقاوَم فى القيمة ولا تُضاهىٰ فى الصفات ــ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُنوِّه بذكره، ونُقدِّمه علىٰ غيره، ممن حاول ذلك فامتنع عليه ﴿ والله غالِبٌ علىٰ أمْرِه ﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكىّ، الناصرىّ، الزينىّ ــ لا زالت مقاصدُه الشريفةُ فى مذاهب السَّداد ذاهِبه، ولأغراض الحقّ والاستحقاق صائبه ــ أن يستقرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه فى تدريس المدْرَسة

الصَّلاحيَّة بمصر المحروسة المعروفة بالقَمْحية عِوضًا عن فلان الفلانى، على عادة مَنْ تقدمه .

فليتلقَّ ذلك بالقَبُول ، ويَبْسُطْ فى مجالس العلم لسانَه فمن كانَ بمثابته فى الفضل حقَّ له أن يقُول ويطُول ؛ ومِلاكُ الأمر تقوى الله تعالى فهى خيرُ زاد ، والوصايا كثيرة وعنه تُؤخَذ ومنه تُستفاد ؛ والله تعالى يبلِّغه من مقاصده الجميلة غايةَ الأمل ، ويرقِّيه من هِضاب المعالى إلى أعلى مَراتِب الكمال وقد فَعَلْ ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخة توقيع أيضا بتدريس المَدْرسة الصلاحيَّة المذكورة، أنشأتُه للقاضى شمس الدين محمد ابن المرحوم شهاب الدين أحمد الدَّفْرى المالكى، فى شعبان سنة خمس وثمانمائة، وهو :

الحمدُ لله مُطْلِع شمسِ الفضائل فى سماء مَعاليها، ومبلِّغ دَرارِى الدَّرارى النبيهةِ الذِّكر بسَعادة الجَدّ غايةَ غيرِها فى مَباديها ؛ وجاعِلِ صَلاح الدِّين أفضلَ قصدٍ فوَّقت العنايةُ سِهامَها بإصابةِ غَرَضه فى مَرامِيها ، ومجدِّدِ مَعالِم المدارس الدارسةِ بخَيْر نظر يقضى بتشييد قواعدِها وإحكام مَبانِيها .

نحمَدُه على أنْ صرَف إلى القيام بنَشْر العلم الشريف اهتمامَنا، وجعل بخيرته العائدةِ إلى التوفيق فى حُسْن الاختيار اعتصامَنا .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له مُفيضُ نتائج الأفكار من وافِرِ إمداده ، ومخصِّصُ أهلِ التحقيق بدقيق النَّظر تخصيصَ العامِّ بقَصْره على بعض أفراده ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أوفرُ البرية فى الفضل سَهْما، والقائلُ

تنويهًا بفضيلة العلم : « لا بُورِكَ لى فى صَبيحة يَوْمٍ لا أزدادُ فيه عِلْما » صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حُلُّوا من الفضل جواهِرَه الثمينه ، والتابعين وتابعى التابعين الذين ضُرِبتْ آباطُ الإبل منهم إلىٰ عالِمِ المدينه .

وبعدُ ، فإنّ أولىٰ ما صُرِفت إليه الهِمَم ، وبَرِئَت بتأدية حقّه الذِّمَم ، وغدَتِ النفوس بالنظر فى مصالحه مشتغِله ، والفكرُ لشرف محلّه منه إلىٰ غيره منتقله ، النظرُ فى أمر المدارس التى جُعِلت للاشتغال بالعلم سبَبا موصولا ، ولطَلَبته رَبْعا لا يزال بمجالس الذكر مأهُولا ، لاسيَّما المدارس التى قد قَدُم فى الإسلام عهدُها ، وعَذُب باستمرار المعروف علىٰ توالى الأيّام وِرْدُها .

ولما كانت المدرسة الصَّلاحية بفُسْطاط مصر المحروسة قد أُسِّس علىٰ التقوىٰ بُنْيانها ، ومُهِّدت علىٰ الخير قواعِدُها وأركانُها ، واختصَّت طائفةُ المالكية منها بالخَصِّيصة التى أغْنىٰ عن باطن الأمر عُنوانُها ؛ وكان المجلسُ الساميّ هو الذى خطَبتْه الرُّتَب الجليلة لنفسها ، وعيَّنته لهذه الوظيفة فضائلُه التى قد آنَ ولله الحمدُ بُزُوغُ شمسِها ، وعَهِدت منه المعاهدُ الجليلةُ حسنَ النظر فتاقَتْ فى يَومها إلىٰ ما أَلِفت منه فى أمْسِها ـ آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن نُفرده بهذه الوظيفة التى يقوم إفرادُه فيها مَقام الجمع ، ونجمعَ له من طرفَيْها مايتَّفِق علىٰ حُسْنه البصَرُ ويقضى بطيب خَبَره السَّمْع .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ، العالى ، المولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلكىّ ، الناصرىّ ، الزَّيْنىّ : ـ لا زال يُقيم للدِّين شِعارا ، ويرفَعُ لأهل العلم الشريف مِقْدارا ـ أن يستقرّ فى الوظيفة المذكورة لما آشتهَر من علمه ودِيانته ، وبانَ من عفّته المشهورة ونَزاهته ، واتَّصفَ به من الإفاده ، وعُرِف [عنه] من نَشْر العلوم فى الإبْداء

والإعاده ، وشاع من طريقتــه المعروفة فى إيضاحه و بيانه ، وذاعَ من فوائده التى قدّمَتْه علىٰ أبناء زمانه ، ورفَعَتْه إلىٰ هذه المرتبة باستحقاقه علىٰ أقرانه .

فليُباشِرْ تدريسَها مُظْهرا من فوائده الجليلة ما هو فى طَىِّ ضميره ، مضْمرا من حُسْن بيَـانه ما يُستغنىٰ بقليله عن كثيره ، مقربا إلىٰ أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظه الرائقة ما يُفيـد ، مُورِدا من علومه المدوّنة ما يجمع له بين نَوادر المقدّمات ومَدَارك التمهيد ، مُوَفِّيا نظرَها بحسن التدبير حقَّ النظر ، موفرا رِزْقها بمـا يُصَدِّق الخُبْرُ فيه الخَبَر ، قاصـدًا بذلك وجهَ الله الذى لايُخَيِّب لراجٍ أملا ، معامِلا فيه اللهَ معاملةَ من يَعْلم أنه لا يُضيعُ أجْرَ مَنْ أحسنَ عملا . ومِلاكُ الوصايا تقوى الله تعـالىٰ فليجعَلْها إمامَه ، و يتخيَّلْها فى كل الأحوال أمامَه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، و يبلِّغه من رضاه نهايةَ سؤله وغاية أمله ، إن شاء الله تعالىٰ .

✣

وهذه نسـخة توقيع بالتدريس بقُبَّة الصالح ، أنشأتُه لقاضى القضاة جمال الدين «يوسُف البِساطِى» بعـد أن كُتِب له بهـا مع قَضاء القُضاة المـالكية ، فى العَشْر الأخير من شعبان سنة أربع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل للعلم جَمَالا تتهافَتُ علىٰ دَرْكه محاسِنُ الفضائل ، وتتوارَدُ علىٰ ثبوت محامده المتواردة قواطِعُ الدلائل ، وتُحقِّق شواهدُ الحـال من فضله ما يُتَلَمَّح فيه من لوائح المَخَايل .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمه التى ما ٱستهلّتْ علىٰ وَلِىٍّ فأقلعَ عنه غَمَامُها ، ولا ٱسـتقرَّتْ بيد صفِىٍّ فٱنتُزِعتْ من يَده حيثُ تَصرَّف زِمَامُها ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تَزْهر بمعالم الدِّين غُروسُها ، وتَيْنَع بثمار الفوائد المتتابِعة دُروسُها ،

وأن سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أشرفُ الأنبياء قَدْرا ، وأولُهم فى عُلُوِّ المرتبة مكانًا وإن كان آخِرَهم فى الوجود عَصْرا ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحْبه الحائزين بقُرْبه أنخرَ المناقب، والفائزينَ من دَرجة الفضل بأرفَع المراتب؛ صلاةً تكون لِحلَق الذِّكر نِظاما، ولأوّلها آفتتاحا ولآخرها خِتاما، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ من شِيَما الشريفه، وسَجَايانا الزاكيةِ المُنِيفه، أنا إذا منَحْنا مَنْحا لانَستَعيده، وإذا أعطينا عَطاءً لانَنقُصه بل نَزِيدُه، وإذا قرّبنا وليًّا لانُقْصيه، وإذا أنعمنا على صَفِيٍّ إنعاما لا نَعُدّه عليه ولا نُحْصيه .

ولَمَّا كان تدريسُ المدرسة المالكية بقُبَّة الصالح من أعلى دُرُوسهم قَدْرا ، وأرفَعها لدى التحقيق ذِكرا، وأعظمِها إذا ذُكِرت الدروس فَخْرا؛ إذ بمجال جِداله تنفطِر المَرائر، وبمَيْدان مَباحثِه تشتهر البُلْقُ من مُضْمَرات الضمائر؛ وبسُوق مُناظرته يَتميَّز النُّضار عن الشَّبَه، وبمحكّ مُطارحته تتبيَّن الحقائقُ من الشُّبَه؛ وبمَظانّ مجلسه يُعرَف العالى والسافِل، وبمَعْركة فُرْسانه يُعرَف مَنِ المفضُولُ والفاضل؛ ومن ثَمَّ لا يَليه من علمائهم إلا الفُحُول، ولا يتصدَّى لتدريسه إلا مَنْ أمسى بحُسَام لسانه على الأقران يَصُول؛ ولم يزَلْ فى جملة الوظائف المضافة لقضاء القُضاة فى الأوّل والآخر، تابعًا لمنْصِب الحكم فى الوِلاية كلَّ زمن إلا فى القليلِ النادر؛ وكان المجلس العالى ، القَاضِوِىّ ، الكبيرىّ (إلى آخر ألقابه) أدام الله تعالى نِعمتَه قد آشتملَتْ ولايتُه عليه لآبتداء الأمر آستحقاقا، وحَفِظَه كرَمُنا عليه فلم يجِد الغيرُ إليه آستِطْراقا - آقتضى حُسنُ الرأى الشريف أن نُتْبِع ذلك بولاية ثانيةٍ تؤكّد حُكمَ الولاية الأولى، ونُردِفَه بتوقيع يجمع له شرفَ القِدْمة والجمع ولو بوجه أوْلى .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزَّيْنىّ – لا زال يعتَمِد فى مَشاهد الملوك أتمَّ المصالح ، ويخُصُّ الصالحَ منهم بمَزيد النَّظر حتَّى يقال ما أحسَنَ نظرَ الناصر فى مَصَالح الصَّالح ! – أن يستمِرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه علىٰ ما بيَدِه من الولاية الشريفة بالتدريس بقُبَّة الصالح المذكورة ، ومَنْع المُعارض وإبطال ما كُتِب به وما سيُكْتَب ما دام ذٰلك فى يده ؛ علىٰ أتمّ العوائد وأكملها ، وأحسَنِ القواعد وأجملها .

فلْيتلَقَّ ما فُوِّض إليه بكِلْتا يدَيْه ، ويَشْكُرْ إحساننا الشريفَ علىٰ هذه المِنْحة فإنَّها نعمةٌ جديدةٌ توجبُ مزيدَ الشكر عليه ؛ وليتصدَّرْ بهذا الدرس الذى لم تزل القلوبُ تتقطَّع علىٰ إدراكه حَسَرات ، ويتصدَّ لإلقاء فوائده التى إذا سمعها السامع قال : هُنا تُسْكَبُ العبَرات ، ويبْرُزْ لفُرْسان الطَّلَبة من ... ...[1] صدْره من كَمِينه ، ويُفِضْ علىٰ جدَاولهم الجافَّة ماسَحَّ به فكره من يَنَابيع مَعِينه ، مستخرجاً لهم من قامُوس قريحته دُرَر ذٰلك البَحْر الزاخِر ، مُظْهِرا من مكنُونِ علمه مالا يُعلم لِمَدّه أوّلٌ ولا يُدرك لمَدَاه آخر ، ويُنفِقْ من ذخائر فضلِه ما هو بإنفاقه مَلِىّ ، متفقِّدا بفضل عَنَائه من هو عن فوائده المُرْبحة غيرُ غَنِىّ ؛ مقرِّرا للبحْث تقريرًا يزول معه الإلتباس ، مسْنِدا فروعَه النامية إلىٰ أثبتِ الأصول من الكتَاب والسنَّة والإجماع والقياس ؛ معتمِدا لما عليه جادّةُ مذهَبـه فى الترجيح ، جاريًا علىٰ ما ذهب إليه جَهابذةُ محقِّقيه من التصحيح ؛ مُقْبِلا بطَلَاقة وجهه فى دَرْسـه علىٰ جماعتِـه ، باذلًا فى آستمالتهم طاقةَ جُهْده محسنا إليهم جُهـدَ طاقته ؛ مربِّيا لهم كما يُربِّى الوالدُ الولد ، مُوفِّيا من حقوقهم [فى] التعليم ما يبقىٰ له ذِكْره علىٰ الأبَد ؛ منمِّيًا ناشئتَهم بالتـدريب الحَسَن تنميةَ الغُروس ، جاهدًا فى ترقِّيهـم بالتـدريج حتَّى يؤهَّل من لم يكن تُظَنُّ فيه أهليةُ الطلب لأنْ يتصـدَّىٰ

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

للفَتَاوىٰ و إلقـاء الدُّروس ، سالكا من مناهج التقوىٰ أحسنَ المسالك ، مُوردا من تحقيقات مذهَبِه ما إذا لَمَحه اللامِحُ لم يشُكَّ أنه لِزِمام المذْهَب مالِك ، والله تعـالىٰ يُجْريه علىٰ ما أَلِفه من مَوارد إنعامه ، ويمتِّع [هذه الرتبة] السنِيَّة : تارةً بمجالس دُرُوسه وتارة بمجالس أحكامِه ، والاعتماد ... ...

✤

وهـذه نسخة توقيع بتدريس الحـديث بالجامع الحـاكمى ، من إنشاء الشِّهاب «محمودٍ الحلبى» للشيخ قُطْب الدين «عبد الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى أطلَع فى أُفُق السـنَّة الشريفة من أعلام علمائها قُطْبا ، وأظهر فى مَطالعها من أعيان أئمَّتِهـا نُجوما أضاءَ بهـم الوجودُ شَرْقا وغَرْبا ، وأقام لحِفْظها من أئمة أعلامها أعلامًا أحسَنُوا عن سَنَدها دِفاعا وأجملوا عن مُتُونها ذَبًّا ، وشَرَّف بها أهلَها فكلَّما بَعُدتْ راحلتُهم فى طلبها آزدادُوا من الله قُرْبا ، وآختار لحَمْلها أُمناءَ شَغَفَتْ محاسِنُهم قلوبَ أهل الفِرَق علىٰ آختلافها حُبًّا ، وسلَكُوا باتباعها سَنَن السُّـنَن فأمنُوا أن تُرَوِّع لهم الشُّبَهُ سِرْبا ، وألهمَنا من تعظيم هذه الطائفةِ ما مهَّد لهم فى ظِلِّ تقرُّبنا إليـه مَقاما كريمًـا ومَنْزِلا رَحْبا ، وعصَم آراءَنا فى الآرتيادِ له من الخَلَل فلا نَخْتـار له إلا من تُسَرُّ باختياره طَلَبة وتُغْبَط بتعيينه أئمةٌ ونُرضِى بآرتيادِه رَبًّا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى صانَتْ هذه الرتبةَ السنيَّة بأكْفائهـا ، وزانَتْ هـذه المرتبةَ الشريفةَ بمن لم تَمِل عينُه فى تأثيل قواعدِها إلىٰ إغفائها ، وجعلتْ هذه الدرجةَ العليَّة فَلَكا تُشْرِق فيه لأئمَّـة الحديث أنوارُ علوم تَفْنىٰ الدُّهورُ دُونَ إطفائها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهـادةَ مُجادل عن سُـنَّته الشريفة بألسِنة أسنَّته ، مجالِدٍ عن كلمتها العاليةِ بقَبْض مَعاقِد سُيُوفه و إطلاق أعِنَّته ، باعث

بالجهاد دعْوَتها إلىٰ كلّ قلْب كان عن قبُولها فى حُجُب أكنّته . ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ جوامعَ الكَلِم ، ولوامِعَ السُّنّة التى من ٱعتصَم بها عُصِم ومَنْ سَلَّم بهـا سَلِم ؛ فهى مع كتابِ الله أصلُ شَرْعه القويم ، وحبلُ حكمِه الذى لا تمكّنُ يدُ الباطل من [حل] عِقْده النظيم ، وكنوزُ دينه التى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَضُّوا علىٰ سُنّته بالنّواجذ ، وذَبُّوا عن شريعته بسُيُوف الجلاد القواطع وسِهام الجدال النوافذ ؛ صلاةً لا يزال يُقام فرضُها ، ويُملأ بها طُولُ البسيطة وعَرْضُها ؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنّ أَوْلىٰ ما توجّهت الهِمَمُ إلىٰ ٱرتياد أئمّته ، وتوفّرتِ الدّواعى علىٰ التقرّب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض مَناصبه إلىٰ البَرَرة الكِرام من أُمّته ـ علمُ الحديث النبوىّ صلواتُ الله وسلامُه علىٰ قائله ، وحفظُه بدرُوسه التى جَعَلتْ أواخرَ زمَنه فى صحّة نَقْله ومعرفةِ أسْراره كأوائِله ؛ وأنْ(١) نختار لذلك من نَشَأ فى طلَبه حتّى ٱكتَهل ، وسَرىٰ فى تحصيله سُرَىٰ الأهلّة حتّى ٱكتمَل ؛ وغُذِى بِلِبان التبحُّر فيه حتى ٱمتزج بأديمه ، وجَدّ فى تحصيله وٱجتهد حتّى ساوىٰ [فى] الطلَب بين حديثِ عُمْره وقديمه ؛ وحَفِظ من مُتُونه ، ما بمثله يستَحِقّ أن يُدعىٰ حافظا ، وغلَب علىٰ فُنونه ، حتّى قلّ أن يُرى [بغير] علومه والنظرِ فى أحكامه لافظا ؛ فإنّه بعد كتاب الله العزيز مادّةُ هذا الدِّين الذى يُحكَم بنُصوصه ، وتتفاوت رُتَبُ العلماء فى حُسْن العمل بمطلَقه ومقيَّده وعُمومه وخُصوصه ؛ وعنهما تفرّعت أحكامُ المِلّة فملأت علُومُها جميعَ الآفاق ، وزكَتْ أحكامُها الشرعيةُ علىٰ كثْرة الإنفاق ؛ وسرىٰ الناس منها علىٰ المَحجّة التى ٱستوىٰ فى الإشراق ليلُها ونهارُها ، وعَلَا علىٰ المِلَل بالبراهين القاطعة نُورُها ومَنارُها ؛ وكفىٰ أهلَها شرفًا أنهم يذُبُّون عن سنّة نبيهم ذَبَّ اللُّيوث ، ويجُودُون

(١) لم يتقدّم ما يعطف عليه ولعل الأصل «فوجب أن نهتم به أجل اهتمام ، وأن نختار الخ» .

على الأسماع بما ينفع الناسَ فى أمر دينهم ودُنْياهم منها جَوْدَ الغُيوث ، ويُحافظون على ألفاظها محافظةَ من سمِعها منه صلى الله وسلم عليه ، ويعظِّمُون مجالسَ إيرادها ونَقلها حتّى كأنهم لحسن الأدَب جلوس بين يدَيْه ، ويُغَالُون فى العُلوِّ طلبا للقُرْب منه وذلك من أسْنَى المَطالب ، ويَرْحَلُون لضمِّ شَوارده من الآفاق فأقْرَبُ المَشارق عندهم من المَغَارب ! .

ولما كان المجلسُ السامىّ الفلانىّ : هو الذى عُنِى بكلّ ماذُكِر من وصفٍ كريم، وحديثِ وَرَع قديم، وقِدَم هِجْرة فى علم الحديث آقتضَتْ له حُسنَ أوْلَوِيّة ووجُوبَ تقديم ، وتلقّ هذا العلم كما وُصِف عن أئمّته حتّى صار من أعيانهم ، ولقِىَ منهم عُلَماءَ أضحى باقتفائهم كما كانوا رُحْلةَ زمانهم ، ونظر فى عُلُومه فأتقنَها فكأنه ينطِقُ فيها بلسان آبنِ الصَّلاح ، وأحرزَ غاياتِ الكمال ، فى أسماء الرِّجال ، فإلىٰ آطّلاعه يُرجَع فى تجريح المجَرَّح وتعديل الصِّحاح ، وكان منصبُ تدريس الحديث الشريف النبوىّ الذى أنشأناه بالجامع الحاكمىّ تكثيراً لنشر أحاديثِ مَنْ لاينطق عن الهوىٰ ، ونوَيْناه لآرتواء الرُّواة من بحر هذا العلم الشريف بالإعانة علىٰ ذلك وإنّما لكُلِّ آمرئٍ ما نوىٰ ، قد آستَغْرَقَتْ أوقاتُ مباشره بتفويضنا الحكم العزيز علىٰ مذهبه إليه ، وتوفير زمانه على ... ... (١) .

قلت : وتختلف أحوالُ التواقيع التى تُكتَب بالتداريس باختلاف موضُوعاتها : من تدريس التفسير ، والحديث ، والفِقه ، واللُّغة ، والنحْو ، وغير ذلك ، فى براعة الآستهلال والوصايا ، وهو فى الوصايا آكَدُ .

(١) ترك هنا بياضا للبقية ولعله لم يكمله اتكالا على ما هو معروف ومشهور فى مثله .

وهذه نُسَخ وصايا أوردها فى التعريف :

وصية مدرّس — ولْيَطْلُع فى مِحْرابه كالبَدْر وحولَهُ هـالةُ تلك الحَلَقـه[1]، وقد وقَتْ أهدابُ ذلك السوادِ منه أعظمَ آسْودادًا من الحَدَقه ؛ وليَرْقَ سَجّادته التى هى لِبْدة جَوادِه إذا آستنّ الجدال فى المِضْمار، وليُخْفِ [أضواءَ] أولئك العلماء الذين هم كالنُّجوم كما تتضاءَلُ الكواكبُ فى مَطالِع الأقْمار، وليُبْرِزْ لهم من وراء المحراب كَمِينَـه ، وليُفِضْ علىٰ جَداولهم الجافَّة مَعِينَه ؛ وليَقْذِف لهم من جَنَبات مابين جَنْبيه دُرَر ذلك البحر العَجّاج، ولْيُرِهم من غُرَر جِياده ما يُعْلَم به أنّ سوابِقَه لايهولُها قَطْع الفِجاج؛ ولْيُظْهِرْ لهم من مكنون علمه ما كان يُخْفيه الوَقار، ولْيَهَبْ من مَمْنون فضله مايَهَبُ منه عن ظهر غِنًى أهلَ الافتقار ؛ ولْيقرِّرْ تلك البُحُوث ويبيّنْ ما يَرِدُ عليها ، وما يُرَدُّ به من مَنْعها وتطرّق بالنقض إليها ؛ حتّى لاتنفصل الجماعةُ إلا بعـد ظُهور الترجيح ، والإجماع علىٰ كلمةٍ واحدةٍ علىٰ الصحيح ؛ ولْيُقْبِلْ فى الدروس طَلْقَ الوجه علىٰ جَماعته ، وليستمِلْهم إليه بجُهْد آستطاعته ؛ ولْيُرَبِّهم كما يُرَبِّى الوالدُ الولَدَ، وليستَحْسِنْ ما تَجِيء به أفكارهم وإلا فـكم رَجُلٍ بالجَبْـه لِبنْتِ فِكْرٍ وأَد ، هذا إلىٰ أخذهم بالآشتغال، وقَدْح أذهانِهم للاشْتِعال ؛ وليُنَشِّئ الطلبة حتّى يُنَمِّى منهم الغُروس، ويؤهِّلَ منهم مَنْ كانَ لايُظَنُّ منه أنه يتعلّم لأن يُعَلِّمَ ويُلْقِيَ الدُّروس .

وصية مقرِئ :

ولْيَدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان فإنه مِصْباحُ قلبه ، وصَلاحُ قُرْبه ، وصَباح القَبُول المُؤْذِن له برضا ربه ؛ وليجعَلْ سُـوَره له أسْوارا ، وآياته تُظْهِر بين عينيه

(١) جرى فى تحريك لام الحلقة على ما رواه يونس عن أبى عمرو بن العلاء من كونه لغة فى السكون أنظر "المصباح" .

أنوارا ؛ وليَتْلُ القُرءان بحُروفه و إذا قرأ آستعاذ ، وليجمَعْ طُرُقه وهى التى عليها الجمهور ويَترُك الشَّواذّ ، ولا يرتدَّ دونَ غاية لإقْصار ، ولا يقِفْ فبعد أن أتمّ لم يبقَ بحمد الله إحصار ، وليتوسَّعْ فى مذاهبه ولا يخْرُجْ عن قراءة القُرَّاء السبعة أئمة الأمصار ، وليبذُلْ للطَّلَبة الرِّغَاب ، وليُشْبِع فإنَّ ذَوى النَّهْمة سِغَاب ، وليَرِ الناسَ ما وَهبه الله من الاقتدار فإنه آحتضَنَ السَّبْع ودخَل الغاب ؛ وليُتِمّ مبانِىَ ما أتمّ « آبنُ عامر » و« أبو عمرو » له التعْمير ، ولقّى « الكِسائى » فى كسائه ولم يقل جَدّى « آبنُ كثير » ؛ وحُمَّ به « لحمزَة » أن يعُودَ ذاهبُ الزمان ، وعَلِم أنه لا « عاصِمَ » من أمر الله يُلْجأ معه إليه وهو الطُّوفان ؛ وطَفِق يتفجَّر علما وقد وقفَتِ السُّيول الدَّوافع ، وضَرأ كثرُ قرّاء الزمان لعدم تفهيمهم وهو « نافع » ؛ وليُقْبِل على ذَوى الإقبال على الطَّلَب ، وليأْخُذْهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتَسَب ؛ وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النَّعماء ، ووصل سببَه منه بحبل الله الممتدّ من الأرض إلى السماء ؛ فليَقْدُر حقَّ هذه النعمة بحسن إقباله على التعليم ، والإنصاف إذا سُئِل فعِلْمُ الله ما يتناهىٰ ﴿وفَوْقَ كلِّ ذى عِلْمٍ عليم﴾ .

وصية محدّث :

وقد أصبح بالسنَّة النبَويَّة مضْطلِعا ، وعلى ما جمعتْه طرُقُ أهل الحديث مُطَّلِعا ؛ وصَحَّ [فى] الصحيح أنَّ حديثَه الحسَن ، وأنَّ المرسَلَ منه فى الطلَب مقْطوع عنه كلُّ ذى لَسَن ؛ وأنَّ سندَه هو المأخوذُ عن العَوالى ، وسَماعه هو المرقّص منه طُولَ الليالى ؛ وأنَّ مثله لا يُوجَد فى نَسَبه المُعْرِق ، ولا يُعرَف مثلُه لحافظَيْن « آبنِ عبد البَرّ » بالمَغرِب و « خَطيبِ بَغْدَادَ » بالمَشْرِق ؛ وهو يعلم مِقدارَ طاب الطالب فإنه طالمَا شَدّ له النِّطاق ، وسعى له سَعْيه وتجشَّمَ المَشَاق ، وآرتحل له يشتدّ به حرصُه والمَطَايا

مُرْزِمه ، و ينبِّهُه له طلبُه والجُفون مُقْفَلة والعُيون مهُومه ؛ ووقف على الأبواب لا يُضْجِره طولُ الوقوف حتى يُؤذَن له فى وُلُوجها ، وقعد القُرْفُصاءَ فى المجالس لا تَضِيق به على قِصَر فُروجِها .

فليُعامِلِ الطلبةَ إذا أتَوْه للفائدة معاملةَ من جَرَّب ، وليُنَشِّط الأقرباءَ منهم ويُؤْنِس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونةً من قريب وآونةً تَغَرَّب ؛ وليُسْفِر لهم صَباحُ قصده عن النَّجاح ، وليَنْتَقِ لهم من عُقُوده الصِّحاح ؛ وليوَضِّح لهم الحديث ، وليُرِحْ خواطرَهم بتقريبه ما كان يُسَار إليه السَّيْرَ الحثيث ؛ وليُؤْتِهم مما وسَّع الله عليه فيه المجَال ، ويعَلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتون والرجال ؛ ويبصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعديل ، والتوجيه والتعليل ، والصحيح والمعتلّ الذى تتناثرُ أعضاؤُه سُقْما كالعليل ؛ وغير ذلك مما لرجال هذا الشان به عِنَايه ، وما يُنَقَّب فيه عن دراية أو يُقْنَع فيه بمجرَّد رِوَايه ؛ ومثله ما يُزاد حلما ، ولا يُعرَف بمن رخَّص فى حديث موضوع أو كَتَم عِلْما .

وصــية نحوىّ :

وهو زيدُ الزَّمان ، الذى يُضرَب به المَثَل ، وعَمْرو الأوان ، وقد كثُر من سيبويه المَلَل ، وما زِنِىّ الوقت ولكنه الذى لم تُستَبَح منه الإبل ؛ وكسائىّ الدَّهر الذى لو تقدّم لما آختار غيرَه الرشيدُ للأمون ، وذُو السؤْدَد ، لا أبو الأسود ، مع أنه ذُو السابقة والأجر الممْنُون ؛ وهو ذو البِرِّ المأثور ، والقدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذَيْل فخاره المجرور ؛ والمعروفُ بما لا يُنْكر لمثله من الحَزْم ، والذاهب عملُه الصالحُ بكل العوامل التى لم يُبْقِ منها لحسوده إلا الجَزْم ؛ وهو ذُو الأبنِيَة التى لا يُفْصِح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرَف أفْصَحُ منها فيما أُخِذَ عن الأعراب ؛

والذى أصبحت أهدابُه فوقَ عمائم الغمائم ثُلاث ، ولم يزلْ طُولَ الدهر يُشْكَرُ منه أمسُــه ويومُه وغَدُه و إنمـا الكلمـاتُ ثلاث . فليتصدَّ للإفاده ، وليعلِّمْهم مثـلَ ما ذُكر فيه من علم النحو نحوَ هذا و زياده ؛ وليكن للطلبة نَجْمـا به يهتدِى ، وليرفع بتعليمه قــدْرَ كل خبَرٍ يكون خبرًا له وهو المبتــدا ؛ وليقدِّمْ منهم كلَّ من صَلَح للتبريز ، وآســتحقَّ أن يُنصَب إمامًا بالتمييز ؛ ولْيُورِدْ من موارده أعذبَ النِّطاف ، وليجرّ إليــه كلَّ مضاف إليه ومُضاف ؛ وليُوقفْهم علىٰ حقائق الأسمـاء ، ويُعرِّفْهم دقائقَ البحوث حتَّى آشــتقاقَ الآسم هل هو من السُّموّ أو من السماء ؛ وليبيِّنْ لهم الأسماءَ الأعجميَّةَ المنقولةَ والعربيةَ الخالصه ، وليدُلَّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يُشْتَبه فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال النـاقصه ؛ وليحفِّظْهم المُثُل وكلمـاتِ الشُّــعراء ، ولينصب نفْسَــه لحــدّ أذهان بعضهم ببعض نصبَ الإغراء ؛ وليعاملْ جمـاعة المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هــذا كلِّه فليرفُقْ بهم فمـا بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .

وهذه وصية لغوىّ أوردها فى التعريف[١] .

---

(١) بياض بأصله ، ولم تذكر هذه الوصية فى نسخة "التعريف" التى بيدنا .

الوظيفة الثامنــــة

(التصـــدير)

وموضُوعه الجلوس بصَدْر المجالس بجامع أونحوه . ويجلس متكلّم أمامَه علىٰ كُرْسىّ كأنه يقرأ عليه ، يفتتح بالتفسير ثم بالرّقائق والوَعْظِيّات ، فإذا انتهىٰ كلامُه وسكَت ، أخذ المتصـدّر فى الكلام علىٰ ما هو فى معنىٰ تفسـير الآ ية التى يقَع الكلامُ عليها ، ويستدرج من ذٰلك إلىٰ ماسنَح له من الكلام . وربمـا أُفْرِد التصديرُ عن المتكلم علىٰ الكرسىّ .

وهذه نسـخةُ توقيع بتصـديرٍ أنشأتُه للشيخ شهاب الدين « أحمدَ الأنصارىّ » الشهير بـ«الشابّ التائب» بالجامع الأزهر، وهى :

رسم ... ...[1] لا زالتْ صدَقاتُه الشريفةُ تخُصُّ المجالسَ بمَنْ إذا جلس صدْرَ مجلس كان لرتبته أجملَ صَدْرٍ يحتبىٰ من علَماء التفسير، ومن إذا دقّق لم يفهم ... ...[2] عنه وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامُه فى الحقيقة تفْسيرَ تفسير؛ وتَصطفِى من سَراة الأماثل مَنْ دارَ نعتُه بين « الشابّ التـائب » و « الشيخ الصالح » فكان له أكرَمُ نعتٍ علىٰ كلِّ تقدير ــ أن يستمرَّ المجلس السامىّ أدام ــ الله تعالىٰ رفعته ــ فى كذا وكذا ، لأنّه الإمامُ الذى لاتُسامىٰ علومُه ولا تُسام، والعلّامة الذى لاتُدرَك مَداركُه ولا تُرام ؛ والحَبْرُ الذى تنعقدُ علىٰ فضله الخَنـاصر ، وفارسُ الحَلْبـة الذى يَعْتَرِف بالقُصور عن مجاراةِ جِيَاده المُناظِر؛ وآيةُ التفسير التى لاتُنْسَخ ، وعَقْد حقيقتِه الذى لا يُفْسَخ ، والمـاهرُ الذى آسـتحقّ بمَهارته التصـدير، والجـامعُ لفُنونه المتنوّعة

(١) أى بالامر الشريف الخ .

(٢) بياض بالأصل ولعله «لم يفهم شرحه إلا عنه» أو نحو ذلك .

جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير ، وتَرْجمانُ معانيه الآتى من غرائب تأويله بالعَجب العُجاب ، والعارفُ بهَدْى طريقه الذى إذا قال قال الَّذِى عِنْدَه عِلْمٌ مِنَ الكِتَاب ، وزَاهِدُ الوقت الذى زيَّن بالعلم العمَل ، وناسِكُ الدهر الذى قصَّر عن مَبْلَغ مَدَاه الأمل .

فليتلَقَّ ما أُلقِىَ إليه بالقَبول ، وليَسْتند إلىٰ صدْرِ مجلس يَقُول فيه ويطُول ، وليبيِّنْ من معانى كتاب الله ما أجمَل ، ويوضِّحْ من خفيِّ مقاصده ما أشْكَل ، وليَسْلُكْ فى تفسيره أقومَ سَنَن ، ويُعْلِنْ بأسراره الخفيَّة فسِرُّ كتاب الله أجْدَرُ أن يكون عن عَلَن ، وليَجْرِ فيه علىٰ ما أُلِف من تحقيقاته فإنه إذا لم يحقِّق المناظرةَ فَمَنْ ؟ ، وليأخُذْ مشايخَ أهل مجلسه بالإحسان ، كما أحسَن الله إليه فهل جَزاءُ الإحْسان إلا الإحْسَان ، ويُحضَّ شَبابهم علىٰ التوبة ليُحِبَّهم الله فيتَّصِل فى المحبة سنَدُهم فإن « الشابَّ التائبَ » حبيبُ الرحمن ، والله تعالىٰ يرقِّيه إلىٰ أرفعِ الذُّرا ، ويرفعَ مجلسَه السامى علىٰ محل الثُّريَّا (وإنا لنرجُو فَوْقَ ذٰلِكَ مَظْهرا) . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة التاسعة

(النظر)

وموضُوعه التحدُّث فى أمورٍ خاصَّة بإباحة ضَروراتها ، وعمَل مَصالحها ، وآستخراج متحصَّل جهاتها ، وصَرْفه علىٰ الوجه المعتَبَر ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وتشتمِل علىٰ عِدّة أنظار :

منها ــ نظرُ الأَحْباس : جمع حُبُس[(١)] وهو الوَقْف : فقد تقدّم فى المقالة الثانية أنه كان أصلُ وَضْعه أراضِىَ آشتراها (الإمامُ الليثُ بن سعد رضى الله عنه)

---

(١) فى المختار «والحبس كالقفل ماوقف» وهو المراد هنا .

ووقفها على جهاتِ برٍّ، ثم تبعه الناسُ فى إضافة الأوقاف إلى ذلك ، إلى أن كانت وِزارة الصاحبِ بهاءِ الدين ابن حنّا فى سلطنة الظاهر بيبرس البُنْدُقدارى ، فأفرد للجوامع والمساجد والرُّبُط والزّوايا ونحو ذلك رِزَقا ، وقصر تحدُّث ناظر الأحباس ومباشِريه عليها ، وأُفردت الأوقافُ بناظر ومباشِرين كما سيأتى :

وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبِيمارَستان المنصورى[1] ، كُتِب بها «لمهذَّب الدين» وهى :

الحمـدُ لله الذى دَبَّر بحكمته الوجُود ، وعمَّ برحمته كلَّ موجود ، وحال بنَفْع الدواء بين ضُرِّ الداء كما حالتْ عطاياه دُونَ الوُعود ، نحمَده ونشكره وهو المشكور المحمُود ، ونُثنى عليه خيرَ الثناء قيامًا وقُعودًا وعلى الجُنُوب و فى السجُود ، ونستزيدُه من فضله فإنه أهلُ الفضل والجُود .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً اللهُ بها والملائكةُ وأولُو العلم شُهود ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبشِّر لأمته بالجنّات والخلُود ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاة دائمةً إلى يوم الوُعُود .

وبعـد ، فإنّا لما أقام الله بنا شَعائرَ الإيمـان ، وأصبح دينُه بحمد الله منصوراً بنا على سائر الأدْيان ، وجاهدْنا فى الله حقَّ الجهاد باليَد والقلب واللِّسان ، وشيَّدنا لعلومه وشرائِعه كلَّ بديع الإتقان ، ورتّبنا فيه من العلماء الأعيان كلَّ رفيع الشان ، وآخترْنا له الأخيار من أهل العلم بالطِّب والفقه والحديث والقُرءان ، ورأينا كل من تقدّمنا من الملوك ، وإن سلك فى سياسة الرعية أحسَنَ سُلوك ، قد آهتمَّ بعلمِ الأديان وأهمل

(١) حق هذا التوقيع أن يذكر فى تواقيع الوظيفة السابعة الخاصة بالتداريس .

علمَ الأبدان، وأنشأ كلٌّ منهم مدرسةً ولم يحفِل ببيمارَسْتان، وغفَل عن قوله صلى الله عليه وسلم : «العِلْم عِلْمان»، ولم يأخُذ أحدا من رَعيته بالاشتغال بعلم الطّب المُضْطَرّ إليه، ولا وقف وقفا علىٰ طلَبة هـذا العلم المنصوص عليه، ولا أعدّ له مكانًا يحضُر مَنْ يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصَب له شخصا يتمثّل هذا المشتغل لديه ــ علمنا نحن بحمد الله تعـالىٰ من ذٰلك ما جهِلُوه، وذكَرْنا مِن هذه القُرْبة ما أهملُوه، ووصَلْنا من هذه الأسباب الدِّينية والدُّنيوية ما فَصَلوه، وأنشأنا بِمارَسْتانا يَبْهَر العيونَ بَهْجه، ويفُوق الأبنيةَ بالدليل والحجّة، ويحفَظ الصحةَ والعافيةَ علىٰ كل مُهْجه ؛ لو حلّه من أشفىٰ لَعُوجِل بالشّـفا ، أو جاءه من أكْمَده السُّقْم لاشْتفَى ، أو أشرف عليـه العُمُر بلا شِفاء لعاد عنه بشَفًا، ووقفْنا عليه من الأوقاف المبرورة مايملأ العينين، ويُطْرِف سمـاعُ جملته الأُذُنين ، ويعيدُ عنه مَنْ أمّه مملوء اليدين؛ وأبحنا التّداوىَ فيـه لكل شريف ومشروف ومأمور وأمير، وساوينا فى الانتفاع به بيْنَ كل صغير وكبير، وعلمنا أن لانظير لنا فى مُلْكنا ولانظيرَ له فى إبقائه فلم نجعل لوقْفه وشرطه من نظير؛ وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعِلْمِ الطب الذى كاد أن يُجهَل ، وشرَعنا للناس إلىٰ وِرْد بحره أعذَبَ مَنْهَل ، وسهّلنا عليهـم من أمره ما كان الحُـلْم به من اليَقَظة أسهَل ؛ وآرتدْنا له من علماء الطّب من يصْلُح لإلقاء الدروس ، وينتفِع به الرئيسُ من أهل الصِّناعة والمرءوس، ويؤتَمن علىٰ صحة الأبدان وحفْظ النفوس ؛ فلم نجد غيرَ رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبه ، ولم نَرْض لها مَنْ لم تكن له هذه المَنْقَبه، وعلمنا أنه متىٰ ولِيَها أمسىٰ بها مُعْجَبا وأضحتْ به مُعْجَبه .

ولمـا كان المجلس السامى « مهـذّب الدين » هو الرئيس المشارُ إليه ، والوحيدُ الذى تُعقَد الخناصرُ عليه، وكان هو الحكيم « بقراط » ، بل الجليـل « سقراط » ، بل الفاضلُ « جالينوس » ، بل الأفضـل « ديسقُوريدُوس » ــ آقتضت الآراء

الشريفةُ أن تُزاد جلالتُه بتولية هـذا المنصب الجليل جلالَه ، وأن تُزَفَّ إليـه تجرُّ أذيالَه ، وأن يقال : (لم يَكُ يَصْلُح إلا لهـا ولم تَكُ تَصْلُح إلّا له) .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال للدّين ناصِرا ، ولأعلامِ العُـلوم ناشِرا ـ أن يفوّضَ إليـه تدريسُ الطب بالبيمارَسْتان المبارك المنصوري ، المستجدّ الإنشاء بالقاهرة المحروسة ، علماً بأنه المتمهّر فى هذا الفنّ ، وأنه عند الفِراسة فيه والظّنّ ، وأنه سقراطُ الإقليم إذا كان غيرُه سِقْراط الدَّنّ ، وثقةً بأنا بالجَوْهر قد ٱلتقَطْنا ، وبالخيْر قد ٱغتبَطْنا ، وعلى الخبير قد سقَطْنا .

فليَتلَقَّ هـذه النعمةَ بالشكر الجليـل ، والحمدِ الجزيل ، والثناءِ الذى هو بالنَّماء والزيادة كَفيـل ، ولينتصِبْ لهـذا العِلم المبارك ٱنتصابَ من يقوم بالفَرْض منـه والسنّه ، ويُعْرَفُ له فيه الفضلُ ويُتقلَّد له فيه المِنّه ، ويُثْنَى على آثاره الجميلة فيه وتُثْنَى إليه الأعِنّه ، ولْيُبطِل بتقويمه الصحّةَ ما ألَّفه ٱبنُ «بطْلان» ، وليُرِنا بتدبيره جِبِلّةَ البِر فإنه «جالينُوس» الزمان ، وليبذل النَّجاة من الأمراض والشفاءَ من الأسـقام فإنه «ٱبن سينا» الأوان ، وليجمع عنده شَمْلَ الطلبه ، وليُعْطِ كلَّ طالبٍ منهم ماطلبه ، وليبلّغْ كلَّ متمَنٍّ من الاشتغال أرَبَه ، وليشرحْ لهم صدرَه ، وليبذُلْ لهم من عمره شطْرَه ، وليَكْشِفْ لهم من هذا العلم المكنون سِرّه ، وليُرِهم ماخفِيَ عنهم منه جَهْره ، وليجعلْ منهم جماعة طَبَائِعيه ، وطائفةً كحّالين وجَرائحيّه ، وقوما مُجبِّرين ، وبالحديد عامِلين ، وأُخرى بأسماء الحَشائش وقُوَى الأدْوية وأوصافها عالمين ، وليأمُرْ كلّا منهم بحفظ مايجب حِفظُه ، ومعرفةِ مايزيد به حَظُّه ، وليأخُذْه بما يُصلِح به لسانَه ولفظَه ، ولا يفتُرْ عنهم فى الاشتغال لحظَه ، وليُفرِدْ لكل علم من العلوم طائفَـه ، ولكل فن من فنونه جماعةً بمجاسـنه عارِفَه ، وليَصرفْ إليهم من وجوه فضائله كـلَّ عارفه ،

ولِيَكْشِفُ لهم ما أشكل عليهم من غوامِضــه فليس لهـا من دُون إيضاحه كاشِفَه ؛ لِيُنْشَرَ فى هذا المكان المبارَك من أرباب هــذه العلوم قومٌ بعدَ قوم ، و يظهرَ منهم فى الغــد ــ إن شاء الله ــ أضعافُ ماهو ظاهرٌ منهم اليوم ؛ وليُقال لكلّ من طلَبته إذا شُرِع فى إجازته وتُزكيته : لقد أحْسنَ شيخُه الذى عليه تأدّب ، وإنَّ مَن خَرّج هذا «المهذّب» ؛ عاملًا فى ذلك بشروط الواقف أعزّ الله نصرَه ، واقفًا عند أمره أمضى اللهُ أمرَه ؛ والخيرُ يكون . إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخة توقيع بنظَر الأحباس مفتَتَحة بـ«أما بعد» وهى :

أما بعــدَ حمدِ الله الذى أَذِن أن تُرفَع بيوتُه ويُذْكَر فيها ٱسْمُــه ، ويُكثّر فيها قَسْم ثوابه ويُجزِل قِسْمه ، والصلاة علىٰ سيدنا محمدٍ الذى عَظُم به قطعُ دابر الكُفْر وكَثُر حَسْمُه ــ فإنَّ خير مَنْ عُوِّل عليه فى تأسيس بيوتِ الله وعِمــارة رُبُوعها ، ولَمِّ شَعَثها وشَعْب صَدُوعها ؛ والقيــامِ بوظائفها ، وتسهيل لطائفها ؛ وتأهيل نواحيها ، لهُبوط الملائكة لتلقّى المصلّين فيها ، مَنْ كان ذا عَزْم لاتأخُذه فى الله لومةُ لائم ، وحَزْم لايُلِمُّ بأفعاله لَمَم المآثم ؛ ونظرٍ ثاقِب ، ورغبــةٍ فى آختيار جميل المآثر والمَناقِب ؛ ومباشرة تَرْعىٰ قوانينَ الأمور وتكتنِفُها آكتناف مُراقِب .

ولمــا كان فلانٌ ممَّن هذه الأوصافُ شِعارُه ، وإلىٰ هذه الأمور بِدارُه ؛ وكم كَتَب الله به للدّولة أجرَ راكِعٍ وساجِد ، وكم شكرتْه وذكرتْه ألسِــنةُ أعلام الجوامع وأفواهُ محاريب المساجد ــ ٱقتضىٰ مُنِيف الملاحظةِ والمحــافظةِ علىٰ كل قريبٍ من بيوتِ الله وشاهِــد ، أنْ خرج الأمر الشريفُ ــ لا بَرِح يكشف الأوْجال ، ويدعُو له فى الغُدُوّ والآصال رِجَال ــ أنْ يفوَّض لفلان نظرُ ديوان الأحبــاس والجوامع والمساجد المعمورة بذكر الله تعالىٰ .

فلْيباشِرْها مباشرةَ من يُراقب الله [إنْ] وقَّع أو توقَّع ، وإن أطاعَ أو تَطَوّع ؛ وإن عزَل أو ولَّى ، وإنَّ أدَب مَنْ نَهىٰ عبدا إذا صَلَّى ؛ وليجتهِدْ كلَّ الاجتهاد فى [صَرْف] رَيْع المساجد والجوامع فى مَصارفها الشرعيَّة ، وجهاتها المرعيَّة ؛ وليأخُذْ أهلَها بالملازمة فى أحيانها وأوقاتِها ، وعِمَارتها بمصابيحها وآلاتها ؛ وحفْظ مايُحفظون به لأجْلها ، ومعاملتهم بالكرامة التى ينبغى أن يُعامَلَ مثلُهم بمثلها ؛ وليحترزْ فى إخراج الحالات إذا خُرِّجت وأُخْرِجتْ ، وفى مستحَقَّات الأجائر إذا آستُحِقَّت وإذا عُجِّلت ؛ وفى التواقيع إذا أُنْزلت وإذا نُزِّلت ، وفى الآستئجارات التى أُهْمِلت وكان ينبغى لو أُهِّلتْ ؛ وإذا باشر [و] ظهَر له بالمباشرة خفَايا هـذا الدِّيوان ، وفَهِـم ما تحتويه جرائدُ الإحسان ، فليكُنْ إلىٰ مصالحـه أوّلَ مُبـادر ، ويكفيه تدبُّرُ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

قلت : وقد كنت أنشأت توقيعا بنظر الأحباس ، للقاضى « بَدْر الدين حَسَن » الشهير بابن الدَّاية ، مفتتَحا بالحمـدُ لله ، جاء فَرْدًا فى بابه . إلا أن مسوَّدَته غُيِّبت عنّى ، فلم أجدْها لأثبِتَها هاهنـا كما أثبتُّ غيرها ممـا أنشأتُه : من البَيْعات والعُهود والتواقيع والرسائل وغير ذٰلك .

ومنها ـ نظرُ الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستَيْن ، ويدخُلُ فيه أوقافُ الحَرَمين وغـيرهما .

وهذه نسخةُ توقيع بنظرها ، وهى :

الحمدُ لله الذى حفِظ مَعالِمَ البِرّ من الدُّثُور ، وأحيا آثارَ المعروف والأُجُور ، وصانَ الأوقافَ المحبَّسة من تبْديل الشروط علىٰ تَوالِى الأيّام والشُّهور .

نحمَدُه علىٰ فضله الموفُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لها فى القُلوب نورٌ علىٰ نُور ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المؤيَّد المنصور ، الطالعُ البُدور ، المبعوثُ بالفُرْقان والنُّور ، المنعوتُ فى التوراة والإنجيل والزَّبُور ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما كَرّتِ الدُّهور ، وطلعَتْ كواكبُ ثم تَغُور .

وبعدُ ، فإنَّ أهل الخير من المؤمنين تقرّبُوا إلىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ من طَيِّبات أموالهم بأوقافٍ وَقَفُوها علىٰ وجوه البِرّ وعَرَّفوها ، وجعلُوا لها شروطا ووصَفُوها ، فتقبَّل الله لهم ذٰلك ، ثم ماتُوا فما آنقطع عمَلُهم بها وهم فى بَرْزَخ المَهَالك ، ووَلِيَها بعدَهم الأمناءُ من النُّظَّار ، فقاموا بحقُوقها وحفْظ الآثار ، وأجْرَوْا بِرَّها الدارَّ فى كلّ دارْ ، وصانُوا معالمَها من الأغيار ، وشارَكُوا واقِفِيها فى الصدقة لأنهم خُزَّانٌ أُمناءُ أخيار .

ولما كان فلان هو الذى لا يتدنَّس عِرْضُه بشائبه ، ولا تُمْسِى المصالحُ وهى عن فكره غائبَه ، ولا تبرحُ نجومُ السُّعود طالعةً عليه غيرَ ثائبه ، وهو أهلٌ أن يُنَاط به التحدُّثُ فى جهات البرّ الموقُوفه ، وأموالِ الخير المصْرُوفه ، لأنه نَزَّه نفسَه عما ليس له فلو كانتْ أموال غيره غَنَمًا ما آختصَّ منها بصُوفَه ، فلذٰلك رُسِم (١) ... ...

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشَرةً حسَنةَ التأْثير ، جميلةَ التَّثْمير ، مأمُونَةَ التغيير ، مخصوصةً بالتعبير ، ولينظر فى هذه الأوقاف علىٰ آختلافها من رُبوع ومَبانى ، ومساكِنَ ومَغَانى ، وخاناتٍ مسبَّله ، وحوانيتَ مكمَّله ، ومُسقَّفات معمُوره ، وساحاتٍ مأْجورةٍ غيرِ مهجُورَهْ . وليبدأ بالعمارة فإنَّها تحفظ العينَ وتكفِى البناءَ دُثُورَه ، وليتَّبع شروط الواقفين ولا يعدلْ عنها فإنَّ فى ذلك سُرورَه ، ويندَرِج فى هذه

(١) بيض له فى الأصل لعله من أمثاله السابقة .

الأوقاف ماهو علىٰ المساجد ومواطن الذّكر : فليُقِمْ شعارَها، وليحفَظْ آثارَها، وليرفَعْ مَنَارَها ؛ والوصايا كثيرةٌ والتقوىٰ ظِلُّها المخطُوب ، ومراقبة الله أصلُها المطلُوب ووصلُها المحبوب، والله تعالىٰ يجمع علىٰ محبّته القُلوب، بمنّه وكرمه ! .

ومنها ــ نظر البيمارَسْتان المنصوريّ بين القَصْرين لأرباب الأقلام ، وهو من أجلّ الأنظارِ وأرفعِها قَدْرا ، ما زال يتولّاه الوزراءُ وكُتّاب السرّ ومَنْ فى معناهم .

[وهذه نسخة توقيع] (١) من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبيّ ، وهى :

الحمدُ لله رافع قدرِ من كان فى خدمتِنا الشريفة كريمَ الخلال، ومُعْلي درجة من أضفىٰ عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العليّة مديدَ الظِّلال، ومجدّدِ نِعَمِ من لم يخُصَّه ٱعتناؤنا بغاية إلا ورَقّتْه همّتُه فيها إلىٰ أسنىٰ رُتَب الكمال، ومفوّض النظر فى قُرَب سلَفِنا الطاهرِ إلىٰ من لم يلاحِظْ من خواصِّنا امرا إلا سرَّنا ما نُشاهِدُ فيه من الأحوال الحَوال .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرى إلىٰ الأولياء عوارِفُها، ومِنَنه التى لاتبرحُ تشمل الأصفياءَ عواطِفُها ، وآلائه التى تُسَدّد آراءَنا فى تفويض قُرَبنا إلىٰ مَنْ إذا باشرها [سُرَّ] بسيرتِه السَّريّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة رَفَع الإخلاصُ لواءَها، وأفاض الإيمانُ علىٰ وُجُوه حَمَلتِها إشراقَها وضياءَها ، ووالى الإيقانُ إعادةَ أدائِها بمواقف الحقّ وإبْداءَها ؛ ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظْمىٰ، المقصوصُ فى السنة ذِكْرُ حوضِه الذى من شَرِب منه شَربةً فإنه بعدَها لا يَظْما ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنَزّلة وبشّرتْ به الهواتفُ نثْرا ونظْما؛ صلّى الله

(١) تقدمت فى وظائف الطبقة الثانية من ذوات التواقيع ببعض تغيير وٱختصار .

عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته، بالرُّتب الفاخره، وحازُوا بالإخلاص فى محبَّته، سعادةَ الدنيا والآخره، وأقبلُوا علىٰ حظهـم من رضا الله ورضاه فلم يُلْوُا علىٰ خِدَع الدنيا الساحره، صلاةً دائمةَ الآتصال، آمنـةً شمسُ دوْلتِها من الغُروب والزَّوال، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـد، فإنَّ أوْلى الأمور بإنعـام النظَر فى مَصالحِها، وأحقَّها بتوفير الفِكْر علىٰ آعتبار مَنَاهِجِها وآعتماد مَنَاجِحِها ـ أمرُ جِهات البر التى تقرِّب والدُنا السلطان الشهيد ـ قدّس الله رُوحَه ـ بهـا إلىٰ مَنْ أفاض نِعَمه عليـه، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليـه، ورَغِب بها فيما عندَ الله لعِلْمه أنَّ ذٰلك من أنفس الذخائر التى أعدّها بينَ يديْه، وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقـلَه اللهُ بها عن سريره إلىٰ مَقْعَد صدق عنـد ربِّه، وعمَر بها مواطِنَ العبادة فى يوم سِـلْمه بعد أنْ عفَّى علىٰ مَعَاقل الكفر فى يوم حرْبِه، وأقام بها مَنـارَ العلوم فعلا مَنالُهـا، وأعدّ للضُّعفاء بها من مَوادّ البِر والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُل إليه أموالُهـا، وأن نرتادَ لهـا مَنْ إذا فوّضنا إليـه أمرا تحقّقنا صَلَاحه، وتيقَّنَّا نجاحَه، وآعتقدْنا تنميةَ أمواله، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفـاعه وآنتفاعه علىٰ أقوالِه وأفعالِه، وعلمنا من ذٰلك مالا نحتاجُ فيه إلىٰ إخبار ولا آختبار، ولا يحتاج فى بيان الخيرةِ فيه إلىٰ دليلٍ إلّا إذا آحتاجَ إليْه النّهار، لنكونَ فى هـذا بمثابة مَنْ ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابِها، أو جدّدَ لها وَقْفا لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد الأكفاءِ لها من أبوابها .

ولذٰلك لـمـا كان فلانٌ هو الذى صانَ أموالَ خواصِّـنا، وأبانَ عن يُمْن الآراء فى استِئْثارنا به لَمصالحنا الخاصَّةِ وآختصاصِنا، وآعتدَدْنا بجميل نظره فى أسباب التدبير التى تملا الخَزائن، وتدُلُّ علىٰ أنَّ من الأولياء من هو أوقعُ على المقاصـد من سهام

الكَائِن ، وتُحَقِّق أنه كما فى العَنَاصر الأربعـة معادنُ فكذلك فى الرجال مَعَـادِن ؛ ونَبَّهت أوصافُه علىٰ أنه ما وَلِىَ أمرًا إلا وكان فوق ذلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضِيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُب به صَدْرا ، ولا طَلَع فى أُفُق رتبةٍ هلالا إلا وتأمَّلته العيون فى أجَلّ دَرَج الكمال بَدْرا ؛ يُدْرِك ما نأىٰ من مصـالح ما يليه بأدْنىٰ نظـر ، ويَنْسِق فى سَـدَاد ما يباشره علىٰ ما يجب سَـدَاد الآراء ومواقِعَ الفِكر ؛ فنحن نَزْداد كل يومٍ غبطةً بتدبيره ، ونتحقَّق أن كل ماعدقنا به إليه : من أمرٍ جليلٍ فقد أسندناه إلىٰ عارفه وفوّضْـناه إلىٰ خَبيره ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُعْدق بجميل نظره أمر هذا المُهِمِّ المقدّم لدَيْنا ، وأن نفوّض إليه نظر هذه الأوقاف التى النظرُ فى مَصَالِحها من آكد الأمور المتعيِّنة علينا .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زال فضلُه عميما ، وبِرّه يقدِّم فى الرتب مَنْ كان من الأولياء كريمـا ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت .

فلْيَلِ هـذه الرتبةَ التى أُرِيد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهَمّ ، وقُصِـد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلَماء ، والفُقَراء ، والضُّعفاء ومراعاةُ ذٰلك من أخصّ المصالح وأعَمّ ؛ ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخصوصِها نظرا يَسُدّ خَلَلَها ، ويزيح عِلَلَها ، ويُعَمِّر أصولها ؛ ويُثَمِّر محصولها ، ويحفظ فى أماكنِها أموالَها ، ويُقيم معالم العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمـة لساكنِها بألسنة قُرَّائها ؛ ويستعيد صحّةَ مَنْ بها من الضعفاء بإعداد الذَّخائر لملاطَفة أسـقامها ومعالجة أدْوائها ؛ ويحافظُ علىٰ شُروط الواقف ـ قدّس الله رُوحَه ـ فى إقامة وظائفِها ، وآعتبار مَصارِفها ؛ وتقديم ما قدّمَه مع مَلَاءَة تدبيره باستكمال ذٰلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلِها بمـا يستدعى إليها من الأصناف التى يعِزُّ وجودُها ويُجْتلب ؛ وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثقُ من أيدى

أمنائه وثقاته، ولا مُودَع لها أوفقُ من أمانة من يتقِى الله حقَّ تُقاته؛ وليفعل فى ذلك جميعه ماعرَفْناه من تدبيره الجميل خُبْرا وخبرا، وحَمِدناه فى كل مايليه وِرْدا فى المصالح وصَـدَرا ؛ فإنه ــ بحمد الله ــ الميمونُ نظرًا وتصرُّفا، المأمونُ نزاهة وتعفُّفا ؛ الكريمُ سجيَّةً وطِباعا، الرحيبُ فى تلقِّى المهمات الجليلة صَدْرا و باعا ؛ فلذلك وكَلْناه فى الوصايا إلى حُسْن معرفته وآطِّلاعه، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وآضْطِلاعه ؛ والله تعالى يُسَدِّده فى قولِه وعمـلِه ، ويحقِّق بالوقُوف مع مَرَاضِى الله تعـالى ومَرَاضِينا غايَةَ أمله ؛ إن شاء الله تعالى .

✦✦✦

ومنها ــ نظر الجامع الناصرىّ بقلعة الجَبَل .

وهـذه نسخةُ توقيعٍ بنظره ، كُتِب به للقاضى جلالِ الدين القَزْوِينىّ وهو يومئذ قاضى قُضاة الشافعيَّة بالديار المِصريَّة ، وهى :

الحمدُ لله الذى زادنـا الدين رِفْعةً وجَلالا ، وجعل لنا على إعلاء مَنار الإسـلام إقْبالا ، وأحسن لنظَرنا الشريف فى كلِّ آختيـارٍ مآلا ، ووَفَّق مَرامِى مَرامِنا لمن أخلَصْنا عليه آتِّكالا .

نحمدُه حمدا يتواتَرُ ويتوالى ، ويُقرِّب من المُنَى مَنَالا ، وتُنير به معاهدُ نِعَمه عندنا وتَتلالا ، ونُديمه إدامةً لانَبْغِى عنها حِوَلًا ولا آنتِقالا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نصدِّقها نيَّة ومَقالا ، ونرجُو بالتَّغالى فيها القَبولَ منـه تعالى، ويتراسَلُ عليها القلبُ واللسانُ فلا يعترِى ذاك سَهْوٌ ولا يخاف هذا كَلالا ؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى كَرُم صَحابةً وآلا ، ودَلَّهم على الرُّشـد فورَّثُوه من علماء الأمّة رجالا ، صلَّى الله عليه وعليهم صلاةً نَسترعى عليها

من الحفظة أكفاءً أكفالا ، ونستمد لرقمها المذهبات بكرا وآصالا ، وتسمو إليه الأنفاس سمو حباب الماء حالًا فحالا ، ما مدت الليالى على أيامها ظلالا ، وما بلغ سوادُ شبابها من بياض صُبح اكتهالا ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنّ من بنى حقّ عليه أن يُشيد[1] ، ومن أراد [أن] سنّته الحُسنى تبقى فليتخذ مُعينا على ما يُريد ، ومن أنشأ برًّا فلا بدّ من مباشرٍ عنه يضمن له التجديد ، ويُظنّ به مع تأثيره التخليد ، ومَنْ تاجرالله بمعروف فما يسخو بالمشاركة فيه إلا لمن يقوم مقام نفسه أو يزيد ، ومن بدأ جميلا فشرطُ صلاحه أن يُسنده إلى مَنْ له بالمراقبة تقييد ، فيما يُبدئ ويُعيد ، وأىُّ إشادةٍ أقوى ، من التأسيس على التقوى ، أو معين أجلّ من حاكم آستخلصناه لنا ولإخواننا المسلمين ، أو مباشرٍ أنفعُ ، من سيدٍ آرتدى بالمجد وتلفّع ، وتروّى بالعلوم وتضلّع ، أو مشاركٍ فى الخير أولى من ولىٍّ قلّدناه ديننا قبل الدنيا ، وأعليناه بالمنصبين : الحُكم والخَطابة فتصرّف منهما بين الكلمة العالية والدرجة العُليا ، أو أحسنُ مراقبةً من حَبرٍ يعبدُ الله كأنّه يراه ، وإمامٍ يدعو إليه دُعاءَ أوّابٍ أوّاه ، قد آنفردَ بمجموع المحاسن يقينا ، وأصبح قدرُه الجلىّ الجليل يغنينا وعن المدائح يُغنينا ، فحسبُنا الوصفُ إيضاحًا وتبيينا ، ولكن نُصرّح باسمه تنويها وتعيينا ، وتحسينا لسيرة أيامنا الشريفة بعالِمِ زمانها وتزيينا ، لا عُذرَ لفكرٍ لم ينضّد مناقبه وقد تمثلت معاليه جواهر ، وقلمٍ لم يُوشّ الطُّروس بمعانيه بعد ما زانَ من فنونها أنواعَ الأزاهر ، هو المجلسُ العالى القضائىّ ، الإمامىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، العلّامىّ ، الكاملىّ ، الفاضلىّ ، القُدوىّ ، المُفيدىّ ، الخاشعىّ ، الناسكىّ ، الورعىّ ، الحاكمىّ ، الجلالىّ : حجةُ الإسلام والمسلمين ، قُدوةُ العلماء العاملين فى العالَمين ، بركةُ الأمه ،

(١) مأخوذ من أشاد بنائه اذا طوّله . أنظر اللسان فى مادة ش و د — ج ٤ — .

عَلّامة الأئمه ، عِزّ السنّه ، مؤيّد الدّوله ، سيفُ الشريعه ، شمسُ النظر ، مُفتى الغُرر ، خَطيبُ الخُطَباء ، إمامُ البُلَغاء ، لسانُ المتكلّمين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو المَعَالى محمدُ آبنُ قاضى القضاة سعدِ الدين أبى القاسم عبدالرحمن بن عُمَر بن أحمد القَزْوِينى قاضى القُضاة الشافعية : أدام الله عِزّةَ الشرع الشريف بأحكامه ، وتَرْفيهَ سُيوفِ الجلاد وأسَله بلسان جِداله وأقلامه ؛ قاضٍ يُفَرِّق بين المهترِجين(١) برأيٍ لا يَطِيش حلمُه ولا يَزِلُّ حُكْمُه ، ويتّقِى الشُّبهات بوَرَع يَتْبعُه عملُه ويَهْديه عِلْمُه ؛ ما لحَظَ جهةً إلا حَظِيَتْ ببركة دارّة مُزْنُها ، سارية مَناجِحُها سارٍّ يُمْنُها ؛ ولا أقبلَ علىٰ بيتٍ من بيوتِ الله إلا حَنّ منه إلىٰ سُبُحات الجلال ، ولا تكلّمَ فى وَقْفٍ إلا أجْراه فى صالح الأعمال علىٰ أقْومِ مِثَال ؛ ونحنُ لهذه المَزَايا نَرُدُّ إلىٰ نظره الكريم ما أهمَّنا من عِمارةِ مسجدٍ وجامع ، ونُقَلّده من أوقافنا ما يَخْلُفُنا فيه خيرًا فإنّ الأوقافَ ودائع .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الناصرىّ ـ لا زال يُصيب الصَّواب ، ولا يَعْدُو أُولِى الألباب ـ أن يفوَّض إليه نظرُ الجامع الناصرىّ المعمُور بذكر الله تعالىٰ ، بقَلْعة الجبل المحروسة ، وأوقافِه ، والنظرُ علىٰ التربة والمدرسة الأشرفِيَّتَيْن وأوقافِهما .

✣

ومنها ـ نظرُ مَشْهد الإمام الحسين رضى الله عنه بالقاهرة المحروسة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خِطَط القاهرة فى المقالة الثانية أنّ الصالحَ طلائِعَ آبنَ رُزِّيكَ حين قصد نقلَ رأسِ الإمام الحُسَين إلىٰ القاهرة ، بَنَىٰ لذلك جامعه

(١) يريد المتخاصمين ولكنا لم نعثر على هذا البناء فيما بأيدينا من كتب اللغة .

خارجَ بابى زُوَيلة[1]، فبلغ ذٰلك الخليفةَ فأفردَ لهـا هذه القاعةَ من قاعات القَصْر وأمر بنَقْلها إليهـا .

وهذه نسخة توقيع بنظره، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبيّ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَواطنَ الشَّرف فى أيّامنا الزاهرة، محصُورةً فى أكفائهـا ، ومَشاهِدَ السيادة فى دولتنا القاهرةِ ، مقصورةً علىٰ من حَبَتْه أوامرُنا باعتنائها ، وخصَّتْه آلاؤنا باصطفائها، الذى أجرىٰ حُسنَ النظر فى مَظَانِّ الآباء الطاهرةِ علىٰ يَدِ مَنْ طلع فى أُفُقِ العَلْياء من أبنائها، وعَمَر معاهِدَ القُرُبات بتدبير مَنْ بدأ بقَواعِدِ دِينه وأجاد إحكامَ تشييدِها و إتقانَ بِنائها .

نحمده علىٰ ماخُصَّت به أيامُنا من رَفْع أقدار ذَوِى السِّيادة والشَّرف، واتَّصف به إنعامُنا من مَزِيد بِرٍّ عُلِم بحُسْن ظهُوره علىٰ الأولياء أنَّ الخيرَ فى السَّرَف .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شـهادةً يُعرِّف بهـا من اعترف ، ويُشَرِّف قدرُ من له بالمحافَظة عليها شَغَف؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى طهَّر الله بَضْـعتَه الزهراءَ وبَنِيها ، وخصَّهم بمزيَّة القُربىٰ التى نزَّهه أن يسال علىٰ الهِدايةِ أجرا إلا المَودّة فيها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم أجدَرُ بالكَرَم ، وأحقُّ بمحاسن الشِّيَم، ومامنهم إلا مَنْ (تَعرِف البَطْحاءُ وطْأتَه ✻ والبَيْتُ يَعْرِفُه والحِـلُّ والحَرَم) ؛ وعلىٰ آله وأصحـابه الذين أنعم الله به عليهم ، واتَّبعوه فى ساعةِ العُسْرة فمنهـم الذين أُخرِجُوا من دِيارهم والذين يُحِبُّون مَنْ هاجرَ إليهم؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ مَن زُيِّنت به مواطِنُ الشَّرف، وعُدِقت به العِنايةُ بخِدْمة من دَرَج من بَيت النبوّة وسَلَف، وعُمِرت به مشاهِدُ آثارِهم التى هى فى الحقيقة لهم غُرَف ،

(١) بجهينة وسقينة . انظر شرح القاموس فى مادة زول .

[ونالَتْ الدولةُ] منْ تدبيره الجميل بعض حظِّها ، وخصَّت بُقعته المباركة من نظره بمـا ينُوب فى خِدمةِ محلِّه الشريف عن مواقع لَحْظها ، وجَعلَتْ به لأبنِ رسول الله من خدمة أبيه معها نَصِيبا ، وفعلَتْ ذلك إذ خبرَتْ خدمتـه أجنبيًا علمـا أنها تتضاعف له إذا كان نَسِيبا ، وحكمَتْ بمـا قام عنـدها مَقام الثُّبوت ، وأمرتْه أن يبدأ بخدمة أهلِ البيت [فإن] لازمَها لديْها مقدَّمٌ علىٰ البيوت ــ مَن طَلع شِهابُ فضله من الشَّرف السَّنِىِّ فى أكرم أُفُق ، وأحاطتْ به أسبابُ السُّؤْدَد من سائر الوجُوه إحاطةَ الطَّوْق بالعُنق ؛ وزانَ الشَّرفَ بالسُّؤدَد والعـلمَ بالعمَل ، والرياسـةَ باللطف فاختارتْه المناصبُ وآختالتْ به الدُّوَل ، وتقـدّم بنَفْسه ونَفَاسـةِ أصله فكان شَوْطُ من تقدّمَه وراء خَطْوه وهو يمشى علىٰ مَهَل ؛ وآصـطفتْه الدولةُ القاهرةُ لنَفْسـها فتمسَّك من المُوالاة بأوْثقِ أسبابِها ، وآعتمدَتْ عليه فى بَثِّ نِعمِها ، وبَعْث كَرَمها ، فعرَّف فى ذٰلك الأمورَ من وجهها وأتى البيوتَ من أبوابِها ؛ وحَمِدَتْ وفُودُ أبوابِنـا العاليةِ لحسن سَيْرتهِ فى إكرامهم السُّرىٰ ، وآكتفَتْ [حتى] مع تَرْك الكرامة إليهم ببَشاشةِ وجهِه التى هى خَيْرٌ من القِرَىٰ ؛ وصان البُيوتَ عن الإقواء بتدبيرِه الذى هو من موادِّ الأرزاق ، وزاد الحواصلَ بتثميره مع كَثْرة الكُلَف التى لو حاكتْهـا الغمائمُ لأمْسكَتْ خَشْيةَ الإنفاق .

ولمـا كان فلان هو الذى تُلِيت مناقِبُ بيته الطاهر ، وجُلِيت مفـاخِرُ أصـله الزاهر ، وتجملت بشَرَف خِلاله خِلالُ الشَّرف التى تركها الأوّلُ للآخر ، وكان مشْهد الإمام السيد الحسين آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بُقْعةٌ هى منْتَجَع الرحمه ، ومَظِنَّةُ إجابة الأُمَّه ، وروضةٌ من شُرِّفت بانتقاله إليهـا ، وتربةُ شهيدِ الزهراء صلوات الله علىٰ أبيها وعليها ؛ وبه الآنَ [من] رواتب القُرُبات ووظائف العلوم وجهات الخير ما يَحتاج إلىٰ آختيار من يُجْمِل النظرَ فيه ،

ويسلك نهج سلفه فى الإعراض عن عرض الدنيا ويقتفيه ـ رأينا أن نختار لذلك من آخترناه لأنفسنا فكان الكفء الكريم ، وآختبرناه لمصالحنا فخبرنا منه الحفيظ العليم ، وأن نقدم مهم ذلك البيت على مهم بيوتنا فإن حقوق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالتعظيم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالت مكارمه بتقريب ذوى القربى جديره ، ومراسيمه على إقدار ذوى الرتب على مايجب قديره ، ـ أن يفوض إليه النظر على مشهد الإمام الحسين آبن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة ، على قاعدة من تقدمه فى ذلك ، بالمعلوم الشاهد به ديوان الوقف : لما قدمناه من أسباب رجحته لذلك ، وبيناه من أمور أوضحت فى آختيارنا له المسالك ، ومن أولى منه بهذه الرتبة التى شهدت له باستحقاقها مناصبه ومناسبه ، أو أقدر منه على أمثال هذه الوظيفة وقد أقرت بكماله وكرم خلاله مراتب الباب الشريف ورواتبه .

فليمعن النظر فى مباشرة أوقاف هذه البقعة المباركة مظهرا ثمرة تفويضها إليه ، مبينا نتيجة تعرضها له وعرضها عليه ، منبها على سر التوفيق فيما وضع أمرنا من مقاليد أمرها فى يديه ، مجتهدا فى تمييز أموال الوقف من كل كاتب [حديث] ، موضحا من شفقة الولد [على] ما نسب إلى الوالد ما شهدت به فى حقها الأحاديث ، سالكا من خدمة ذلك المشهد ما يشهد له به غدا عند جده ، ناشرا من ... ...(١) لواء فضل رفعه فى الحقيقة رفع لمجده ؛ وليلحظ تلك المصالح بنظره الذى يزيد أموالها تثميرا ، ورباعها تعميرا ، وحواصلها تمييزا وتوفيرا ، وآرج أيها السيد الشريف

(١) بياض بالأصل ولعله "من عنايته به لواء الخ" .

عندَ الله تعالىٰ بذٰلك عن كل حسنةٍ عشرا إن ذٰلك [كان] علىٰ الله يسيرا . وصُنْ مابيدِك عن شوائب الأدناس : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . وقد خبَرْنا من سيرتك وسريرتِك مالا نحتاج أن نَزْداد به خُبْرا، ولا أنْ نبلُوَه بعد ماسَلَف مرّةً أخرىٰ ؛ ولكن نُذَكِّرك بتقوىٰ الله التى أنت بها متّصف ، وبوُجودِها فيك معروفٌ وبوُجُوبها عليك تعترِف ؛ فقدِّمْها بين يديْك ، وٱجعَلْها العُمْدة فيما ٱعتمَدْنا فيه عليك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الثالثـــة

(من الوظائف الدينية ما يُكتب فى قطع العادة الصغير ، مفتتحا بـ«رُسِم بالأمر الشريف »)

وهو لمن كانت رتبتُــه مجلس القاضى ، ورُبَّمــا كُتِب فيــه بالسامى بغــير ياء لمن قُصِد تعظيمُه وهو قليــلٌ ، وبه يُكتَب لأرباب الوظائف الصِّغَار من الخُطَبــاء ، والمدرِّسين ، ونُظَّار الأوقاف ، وغيرِهم ممن لاينحصِرُ كثرةً .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنظر البِيمارَسْتَان العتِيق الذى رتَّبه السلطانُ صلاحُ الدين «يوسُف بن أيُّوب» فى بعض قاعات قَصْر الفاطميِّين ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالَت أيّامُهُ تُفيد عَلَاء ، وتستخدِم أكْفاء ، وتُضْفى ملابِسَ النَّعماء علىٰ كلّ علىّ فتكسُوه بَهْجَةً وبَهاء ــ أن يستقِرّ فلان فى نَظَر البيمارَسْتان الصَّلاحىّ بالقاهرة المحروســة ، بالمعلوم الشاهــد به الدِّيوان المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت ، لكَفاءته التى ٱشتهر ذِكْرُها ، وأمانته التى صدَّق خَبَرها خُبْرُها ، ونزاهتِه التى أضحىٰ بها

علىٌّ النفس فغدَا بكل ثناء مليًّا ، ورياستِه التى أحلَّتْ قدْرَه أسمىٰ رتبةٍ فلا غروَ أن يكون «عليًّا» .

فليباشِرْ نظرَ البيمارَسْتان المذكورِ مباشرةً يظْهَر بها انتفاعُه ، وتتمَـيَّز بها أوضاعُه ، ويَضْحىٰ عامِرَ الأرجاء والنَّواحى ، ويقول لسان حاله عنـد حُسْن نظره وجميـل تصرُّفه : الآنَ كما بَدَا صَلَاحِى ، وليجعلْ هِمَّتـه مصروفةً إلىٰ ضَـبْط مقبُوضه ومصْروفه ، ويُظهِرْ نهضَـته المعروفةَ بتثمير رَيْعـه حتى تتضاعَفَ موادُّ معروفه ، ويلاحِظْ أحوالَ مَنْ فيه ملاحظةً تُذْهِب عنهم الباس ، ويراعِ مصالحَ حالِه فى تنميته وتزكيته حتَّى لا يزالَ منـه شرابٌ مختلِفٌ ألوانُه فيه شِفَاء للناس ؛ وليتناول المعـلومَ الشاهدَ به الدِّيوانُ المعمور من ٱستقبال تاريخه بعد الخط الشريفِ أعلاه .

وٱعلم أنَّ من تواقيع أرباب الوظائف الدينية مايكتب فى هيئة أوراق الطريق ، أو علىٰ ظهور القِصَص ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة توقيع بالتحدّث فى وقف :

رُسِمَ بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه ، وأنفذه وصرَّفه ـ أن يستقرّ القاضى فلانُ الدين فلان فى التحدُّث فى الوقف الفلانىّ ، بمـا لذٰلك من المعلوم الشاهدِ به كتابُ الوقف . فليعتَمدْ هـذا المرسوم الشريف كلُّ واقف عليـه ، ويعمَلْ بحسَبِه وبمقتضاه ، بعـد الخط الشريف ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــرب الثـالث

(من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية — الوظائفُ الديوانية)

وهى علىٰ طبقتين :

الطبقـــة الأولىٰ

(أربابُ التقاليد، فى قطع الثلثين ممن يُكتب له «الجنابُ العالى»
وفيهـا وظيفتان)

الوظيفـــــة الأولىٰ

(الوزارة ، إذا كان متولِّيها من أرباب الأقلام، كما هو الغالِبُ)

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائِف الديار المصرية نَقْـلا عن "مَسَالك الأبصار" أن رَبَّها ثانى السلطان لو أُنصف وعُرِف حقُّه، إلا أنها لمـا حدَثَتْ عليها النيابة ، تأخرتْ وقعَد بها مكانُها حتّى صار المتحدِّثُ فيها كناظر المـال، لايتعـدَّى الحديثَ فيـه ولا يتّسع له فى التصرُّف مَجَال ، ولا تمتدّ يدُه فى الولاية والعزْل لتطلُّع السـلطان إلىٰ الإحاطة بجَرَيان الأحوال فى الولاية والعزل . وقد تقدّم ذكر ألقابه مستوفاةً فى الكلام علىٰ مقدّمة الولايات فى الطَّرَف الأوّل من هذا الفصل، والكلامُ علىٰ طرّة تقليده فى الكلام علىٰ التقاليد .

وهذه نسخة تقليـدٍ بالوزارة ، كُتِب بها للصاحب « بهاءِ الدين بن حَنَّا » . من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله الذى وهَبَ لهذه الدولة القاهرةِ من لدنْه وليًّا، وجعل مكانَ سرِّها وشَدَّ أَزْرها عليًّا، ورضِىَ لهـا من لم يزل عند ربِّه مَرْضيًّا .

نحمدُه على لُطْفه الذى أمسى بِنا حَفِيا، ونشكُره على أن جعل دولتنا جنّـةً أورث تدبيرَها من عبادِه مَنْ كان تَقِيًّا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُسَبّح بهـا بُكْرة وعشيًا ، ونصلّى على سيدنا محمدٍ الذى آتاه اللهُ الكتّابَ وجعله نبيًا ، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً نتّبِـع بها صراطًا سويّا .

وبعـدُ، فإنّ أولى ما تَنَغّمتْ ألسنةُ الأقلامِ بتلاوة سُوَره، وتنعّمتْ أفواهُ المحابرِ بالاستمداد لتسطيرِ سِيَرِه، وتناجَتِ الكِرامُ الكاتبونَ بشُكْرِ مجمَله ومفصَّله، وتناشَدتِ الرُّواة بحُسْن لَسَـنه وترنّمت الحُداةُ بِطيبِ غَزَله ؛ وتهـادتِ الأقاليمُ تُحَف معجَّله ومؤجَّله، وعنَتْ وجوهُ المَهارِق لصُعُود كَلِمه الطيِّب ورَفْع صالح عَمَله ـ ما كان فيه شكرٌ لنعمةٍ تَيَمُّنُها على الدولة سعادةُ جُدُودِها وحُظُوظِها، وإفادةُ مَصُونها ومحفُوظِها، وإرادةُ مرمُوقها بحُسْن الاستيداع وملْحُوظِها؛ وحمدٌ لمِنْحةٍ أفاءَتْها بركاتٌ أحسنَتْ للمْلكة الشريفـة مآلا ، وقرّبتْ لهـا مَنالا ، وأصلحَتْ لهـا أحْوالا ، وكاثَرتْ مَـدَدَ البحر فكلّما أجْرى ذاكَ ماءً أجرت هى مالًا ؛ وإن ضَنّت السُّحُب أنشأتْ هى سُحُبا، وإن قيل ـ بِشُحِّ سَيْحنا ـ : رَوْنَقُ الأرض ذهَبَ، عوّضتْ عنه ذَهَبا، كَمْ لها فى الوجود من كَرَم وكرامَه، وفى الوجوه من وُسوم ووَسَامه؛ كم أحيَتْ مُهَجا، وكم جعلَتْ للدولة من أمْرِها مخْرَجا ؛ وكم وسّعتْ أملا ، وكم تركَتْ صدْرَ الحَزْن سَهْلا، وكم تركت صَـدْر الخزائنِ ضَيِّقا حَرَجا؛ كم استخدمَتْ جيشَ تهجُّد فى بطْن الليل، وجيشَ جِهادٍ على ظُهو ر الخيل؛ وكم أنفقَتْ فى واقفٍ فى قَلْبٍ بين صفوف الحروب، وفى واقفٍ فى صفُوف المساجد من أصحاب القُلُوب ؛ كم سبِيلٍ يَسَّرت، وسُعودٍ كثّرت ؛ وكم مخاوِفَ أدبرتْ حين درّت ، وكم آثارٍ فى البلاد والعِباد آثرَتْ وأثرَت ، وكم وافتْ ووفَت؛ وكم كفَتْ وكَفَّت ، وكم أعفَتْ وعفَت وعفَّت، وكم بهـا موازِينُ للأولياءِ ثقُلت وموازينُ للأعداء خَفّت ؛ كم أجْرتْ من وُقُوف ،

وكم عُرِفَتْ بمعروف، كم بيوتِ عبادةٍ صاحبُ هذه البركات هو محرابُها، وسماءِ جُودٍ هو سَحابُها ومدينــةِ علم هو بابُها ؛ تُثْنى الليالى على تغليسه إلى المساجد فى الحَنادس، والأيامُ على تهجيره لعيادة الفُقَراء وحُضور الجنائز و زيارةِ القُبور والدَّوارِس ؛ يَكتَنّ تحت جَناحِ عدْله الظاعنُ والمُقِيم، وتَشْـكُرُ مَباره يثرب و زمزمُ ومكّةُ والحَطِيم ؛ كم عَمّتْ سُنَن تفقّداته ونوافِلُه، وكم مرَّتْ صـدَقاتُه بالوادى ـ فَسّح الله فى مُدّته ـ فأثنَتْ عليه رِمَالُه و بالنادى فأثنت عليه أرامِلُه ؛ ما زار الشامَ إلا أغناه عن مِنّة المطر، ولا صَحِب سلطانَه فى سفر إلا قال : نِعْم الصاحبُ فى السَّفَر والحضَر .

ولمـا كان المنفردُ بهـذه البركاتِ هو واحدُ الوجُود ، ومَنْ لا يُشـاركه فى المَزَايا شريكٌ وإنَّ الليـالىَ بإيجاد مثْـله غيرُ وَلُود، وهو الذى لو لم نُسَمِّه قال سامع هذه المناقب : هذا الموصُوف، عنْد الله وعند خلقِه معْروف، وهذا الممدُوح، بأكثر من هذه الممادح والمحامد من ربه ممْدُوح ومَمْنُوح ؛ وهذا المنعوتُ بذٰلك، قد نعتّه بأكثر من هذه النُّعوت الملائك، وإنمـا نذكُر نعوتَه ٱلتِذاذا، فلا يعتقد خاطِبٌ ولا كاتب أنه وفّى جلالتَه بعضَ حقّها فإنه أشرف من هذا، وإذا كان ولا بدّ للمَادح أن تجول، وللقلم أن يقُول ؛ فتلك بركاتُ المجلس العـالى، الصاحبىّ، السـيّدىّ، الوَرَعىّ، الزاهـدىّ، العـابِدىّ، الوالِدىّ، الذُّخرىّ، الكَفِيلىّ، المُهَدىّ، المشـيَّدىّ، العونىّ، القِوامىّ، النِّظامىّ، الأفضَلىّ، الأشرفىّ، العالِمىّ، العادِلىّ، البَهائىّ، سيد الوُزَراء فى العالمين، كهف العابدين، ملجأ الصالحين، شرف الأولياء المتّقين، مدبِّر الدول، سدَاد الثُّغور، صلاح الممالك، قُدوة الملوك والسلاطين، يمينِ أمير المؤمنين، علىّ بن محمد : أدام الله جلاله . من تَشْرُف الأقاليمُ بحياطة قلَمه المبارك ، والتقاليدُ بتجديد تنفيذه الذى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك ؛ فمـا جُدّد منها إنمـا هو بمَثابة آياتٍ

فتُرَدِّد، أو بمنزلة سجلات فى كل حين بها يُحْكم وفيها يُشْهَد ؛ حتى تتناقل ثبوتَه الأيامُ والليالى، ولا يخلو جيدُ دولة من أنه يكون الحالى بما لَهُ من فاخر اللآلى.

فلذلك خرج الأمرُ العالى ـ لا بَرِح يُكْسِب بهاءَ الدين المحمدىّ أتمَّ الأنوار، ولا بَرِحت مراسِمُه تزهو من قلم منَفِّذه بذى الفِقَر وذى الفَقَار ـ أن يضمَّن هذا التقليدُ الشريف بالوزارة التامة، العامَّة، الشاملة، الكاملة : من المآثر الشريفة الصاحبية، البهائية، أحسنَ التضمين، وأن يُنْشر منها مايَتلقَّ رايتَه كلُّ ربِّ سيف وقلم باليمين ؛ وأن يُعْلِم كافَّةُ الناس ومن تضُمُّه طاعةُ هذه الدولة ومُلْكها وسِلْكُها من مَلك وأمير، وكلِّ مدينةٍ ذاتِ مِنْبر وسرير ؛ وكلّ من جمعته الأقاليمُ من نُوّاب سلطنه، وذى طاعةٍ مُذْعِنه ؛ وأصحابِ عقْد وحَلّ ، وظَعْنٍ وحَلّ ؛ وذى جُنُود وحُشُود ، ورافعِى أعلامٍ وبُنُود ؛ وكلّ راعٍ ورعيه، وكل من ينظر فى الأمور الشرعيه ؛ وكلّ صاحب علم وتدْريس، وتهليلٍ وتقديس ؛ وكلّ من يدخُل فى حكم هذه الدولة الغالبة من شُمُوسها المضيئة، وبُدُورها المُنِيرة وشُهُبها الثاقبة ، فى الممالك المصريَّة ، والنُّوبِيَّة ، والساحليَّة، والكركيَّة، والشَّوْبكيَّة، والشاميَّة، والحلبية، وما يتداخَلُ بينَ ذلك، من ثُغُور وحُصُون وممالك ـ أنَّ القلَم المبارَك الصاحِبِيَّ البَهائىَّ فى جميع هذه الممالك مبْسوط، وأمْرَ تدبيرِها به منُوط ، ورِعايةَ شفقَتِه لها تَحُوط ؛ وله النظرُ فى أحوالها، وأموالها ؛ وإليه أمرُ قوانينها، ودواوِينها، وكُتَّابها، وحُسَّابها، ومرَاتبها، ورَوَاتبها ؛ وتصريفها، ومَصْروفها ؛ وإليه التولية والصَّرْف، وإلىٰ تقدُّمه البدلُ والنعتُ والتوكيدُ والعَطْف ؛ فهو صاحبُ الرُّتْبة التى لا يحُلُّها سواه وسِوىٰ من هو مرتَضيه ، من السادة الوزراء بَنِيه ، وما سمَّينا غيرَه وغيرَهم

بالصُّحُوبيــة[١] فليحذر من يُخاطِبُ غيْرَه [و] غيرهم بها أو يُسمِّيه ؛ فكما كان والدُنا الشهيدُ رحمه الله يخاطبه بالوالد قد خاطَبْناه بذلك وخطَبْناه ، وما عدَلْنا عن ذلك بل عَدَلْنا لأنه ما ظَلَم مَنْ أشبَهَ أباه ؛ فمنزلتُه لاتُسامىٰ ولا تُسام ، ومكانتُــه لا تُرامىٰ ولا تُرام ؛ فمن قَدَح فى سِيادته من حُسَّاده زِنادَ قَدْحٍ أُحْرِق بشَرَرِ شَرِّه ، ومَنْ رَكِب إلىٰ جَلَالته ،ثَبَجَ سُوء أُغْرِق فى بحْره ، ومن فَتَل لسعادته ، حَبْلَ كيْدٍ فإنما فَتَلَه مُبْرِمُه لنَحْره ؛ فلتلزَمِ الألسِــنةُ والأقلامُ والأقدامُ فى خِدْمته أحسنَ الآداب ، وليقُل المتردّدون : حِطَّةٌ إذا دخلُوا الباب ؛ ولا يغرّنهم فرطُ تواضُعِه لدينه وتقواه ، فمن تأدّب معه تأدّب مَعنا ومن تأدب مَعَنا تأدّبَ مع الله . وليُتْلَ هــذا التقليدُ علىٰ رءُوس الأشهاد ، وتُنْسخ نُسْخَتُه حتّى تتناقلها الأمصارُ والبِلاد ؛ فهو حجَّتنا علىٰ من سمَّيناه خصُوصا ومن يدْخُل فى ذٰلك بطريق العُمُوم ، فليعملوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم ؛ والله يَزِيد المجلس الصاحبيَّ الوزيريَّ البهائيَّ سيدَ الوزراء من فضله ، ويُبْقيه لغاب هذه الدولة يصُونُه لشبْله كما صانه لأسَده من قَبْله ، ويمتّع ببنيتــه الصالحة التى يحسُنُ بها ـ إن شاء الله ـ نَماءُ الفرع كما حَسُن نَماءُ أصلِه ، بمنّه وكرمه! .

✣

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كُتِب به للصاحب تاج الدين محمد بنِ فخر الدين ابن الصاحب بهاءِ الدين علىِّ بن حنَّا ، فى ربيع الأوّل سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، من إنشاء المولىٰ شهاب الدين محمودٍ الحلَبيّ ، تغمده الله برحمته ، وهى :

(١) فى التعبير بالصحوبية تسامح فى العربية .

الحمد لله مكمّل شرف الوزارة بطَلْعة تاجها ، ومشرِّف قَدْرها بمَنْ تُشْرق عليها أشعَّة سعده إشراقَ الكواكب على أبراجها ، ورافع لواء مجدها بمن تلقَّتْه بعد الجفاء فى حُلَل سُرورها وحُلِىِّ آبتهاجها ، وتحلّتْ بعدَ العَطَل من جواهر مفاخره بما تتزيَّنُ عقُود السُّعود بازْدواجها ، وترفُل من آنتسابها إلى أُبَّهة بهائه بما يودُّ ذَهَبُ الأصيل لوآمتزَج بسُلُوك آنتساجها ؛ الذى شيَّد قواعدَ هذه المرتبة السنيَّة فى أيَّامنا وجدَّدها ، وبعثَ لها على فَتْرة من الأكفاء مَنْ حَسَم الأدْواءَ فكان مَسِيحَها وشَرَعَ المَعْدَلَة فكان محمَّدَها ؛ وردَّها بحكم الآستحقاق إلى من لا يُختلَف فى أنه صاحبُها ، ورجَعها إلى من خطَبَتْه لنفْسها بعد أن أحجَم لشَرَف قَدْرها خاطبُها .

نحمدُه على أن شَدّ أزْر مُلْكنا بأكرَم وزير ، وأيمَن مشير ؛ وأجلِّ مَنْ ينتهى إلى بيتٍ كريم ، وحسَبٍ صَميم ، ومن إذا قال لسان مُلْكنا : ﴿ آئتُونِى به أستَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ قالت كفايتُه : ﴿ آجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نقرِّبها سِرًّا وعلَنًا ، ونُقرِّبها هذه العقيلةَ الجليلةَ عند من يكْسُوها مجْدُه رفعةً وسَنا ، ويُلْبِس جَفْنَ الدَّهر عنها وسَنًا ؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله المخصوصُ بكل صاحبٍ شهد الكتابُ والسنَّةُ بفضله ، وقام بعضُهم بحُسن مُؤازَرته مقامَ من شدّ الله [به] عضدَ من سأله وزيرًا من أهْله ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً لا تَغْرُب شمسها ، ولا يعزُب أُنْسُها ، ولا يتفاوتُ فى المحافظة عليها غَدُها وأمْسُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ أولى من خَطَبَت بحمده الأقلام ، وآبتَهجت به الدولةُ التى ابتسمت بنسيمها ثُغُورُ الأيام ؛ وودَّت مسكةُ الليل لو مازجَتْ أنفاسَه ، وأمّل بياضُ النهار لوأخذ من غير سمة عوضًا ورق الوَرَق قِرطاسَه ؛ وتحاشدت النجوم لتنتسق فى سلك

معانيـه وطارتْ بذكره فى الآفاق أنباء السُّـعود، وحكمتِ الجُـدُود بأنه فى آقتبال إقباله نهايةُ الآباءِ وغايةُ الجُدُود ؛ وآفترّت به ثُغور الممالك عن أحسن الدُّرّ النَّضِيد ، وسَرَتْ بذكره رِفاقُ الآفاقِ ففى كلِّ نادٍ مُنادٍ وفى كلّ بَرٍّ بَرِيد ، وآختالتْ به أعطافُ الدولة القاهرةِ فأوتْ من الرأى السَّديد إلىٰ كلّ ركنٍ شديد، ونطق به العدلُ والحقُّ فخَرِس الظُّلم وما يُبـدئُ الباطلُ وما يُعيد، وجرتْ به أقدارُ ذَوِى الرُّتَب علىٰ أجمـل مَناهجِها فأمّا أهـل العدل فيُقَرَّبون نجيًّا وأما أهـل الظُّلم فأُولٰئِـكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيد ، وبدَتْ به وجوهُ المصالح سـافرةً بعد الحِجَاب ، بارزةً بعد طُول الآنتقال إلى الآنتقاب ، داخلةً بوفُود المحامد من كلِّ باب ، إلا الظُّلْمَ فإنه بحمد الله قد سُدَّ ذلك الباب . وأقرّ منصبُ الوزارة الشريفة أنّا أعَدْنا به الحقَّ إلىٰ نِصابه ،ورددْناه إلىٰ من هو أوْلىٰ به بعد آغتصـابِه ، وألبَسْـناه من بَهْجة أيّامنا تاجًا رَدَّ عليـه عِزًّا لاتطْمعُ يَدُ الذَّهَب فى آنتزاعه عنه ولا آستلابِه ، وتقليدَه لمن يودُّ الفرقدُ لو عُقِد به إكليلُه ، ويتمنّى الطَّرْفُ لو أدرَكَ غاية مَجْـده وإن رجع وهو حسيرُ البصر كَليلُه ؛ وتفويضَ ذلك إلىٰ من كان له وهو فى يَدِ غيره، ومَنْ به و ببيتِه تمهَّدت قواعدُه فمـا كان فيه من خير فهو من سَيرِتهم وماكان من شَرٍّ فمن قِبَل المُقَصِّر من عِثارهم فى سَيْره ؛ وما أُحدث فيـه من ظُلْمٍ فهو منه بُرَاء إذْ إثم ذلك علىٰ من آجترأ عليه ، وما أُجْرِى به من معروف فإلىٰ طريقهم منسوبٌ و إن تلبَّس منه بمـا لم يُعْطَ مَنْ نُسِب إليه ؛ وما خلا منهم هذا الدَّستُ الكريم إلا وهم بالأولَوِيَّة فى صَدْره الجلوس، ولا تصدَّىٰ غيرُهم لتعاطيه إلا وأقبلَتْ عليه فى أيّامه الجُسوم وعلية النُّفُوس .

ولذلك لمَّـا كانتْ هـذه الدولةُ القاهرة مفتتحة بالبركات أيَّامُها، ماضيةً بكَفِّ الظلم ونَشْر العدل سُيُوفها وأقلامُها، مستـهِلّةً بالارزاق سُحُبُ فضـلها التى لايُقْلِع

غمامُها ـ آقتضتِ الآراءُ الشريفةَ آختيارَ خيرِ صاحبٍ يُعين على الحق بآرائه ، ويجمّل الدَّست ببهجتِـه ورُوائه ، ويجْرِى الأرزاقَ بوجْهٍ لو تأمّـله آمْرُؤ ظـامئ الجوانح لآرتوى من مائه ؛ وكان المجلسُ العـالى ، الصاحبىُّ ، الوزيرىُّ ، التاجىّ : أدام الله تعـالى نعمتَه ، ورَحِم سَلَفَه ، هو المخطوبَ لفضله ، والمطلوبَ لهـذا الدَّسْت الذى تعين له دونَ الأكفاء و إن لم يكنْ غيْرُ أهْلِه من أهلِه ؛ ومازال يتشوّفُ إليه تشوّف البُروج إلى نُجُوم السُّعود ، ويتطلّع إلى مُحيّاه الذى هو كنُور الشمس فى الدُّنُوّ وكَمَحلّها فى الصُّعُود ، وما زالتِ الأدعيةُ الصالحةُ ترتفع فى أيامه لمـالكِ عَصْره ، والآراءُ تُقام منها جُنودٌ لتأبيده وحُشُود لنَصْره ، والأموالُ تُحملُ منها إلى خزائنه بأشْبَهَ بموج البحر فى الحُضْر دُونَ حَضْره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ ضاعفَ الله مواهبَه العَميمه ، وكمّل جلالَ دولته بتفويض أمُورها إلى ذَوِى الأصول العريقةِ والبُيوتِ القديمه ـ أن تُحلَّى منه هـذه الرتبةُ العلية بمـا حَلَّ به الدِّين ، وتُعقَدَ له رايةُ فضلِها المَتين ؛ ليتلقّاها شرْقًا وغَرْبا ، وبُعْدًا وقربا ؛ وبَرًّا وبحرا ، وشامًا ومِصْرا ، ويُحلِّى حِلاه عِلْمٌ وعَلَمٌ ، وسـيفٌ وقلم ؛ ومِنبَرٌ وسرير ، ومأمورٌ وأمير .

فليتلقَّ أمرَه بالطاعة كلُّ مؤتمرٍ بأمْرِنا الشريف ، جارٍ فى طاعتنا المفروضـة بينَ بَيَـانِ التقليـد وعِنَانِ التصريف ؛ وليُبادرْ إلى تدبير أمور الأقاليم بأقلامه المباركه ، ويمضِ القواعدَ على ماتَراه آراؤُه المنزّهة عن المنازعة فى الأمرِ والمشاركه ؛ ولينْشُرْ كلمة العدل التى أمر اللهُ بإضافة الإحسانِ إليها ، ويُمِتْ بِدَع الظلم فإنّ الله يشكُره على تلك الإماتة ويحمَدُه عليها ؛ ويسهِّلْ رِزْقَ الصدقات ، ووظائفَ القُرُبات ، فإن ذلك من أجَلِّ ما قدّمتْه [الطائفة] الصالحةُ بين يَدَيْها ؛ وليُكْثِر بذلك جنودَ الليل فإنها لاتَطيش سهامُها ، ويتوقَّ من مُحارَبتها بظُـلْم فإنّه لايُداوى بالرُّقَى سِمامُها ، وليعوِّدْ بتمام التيسير

مواهبنا فإنّ تمام النعمة تمامُها، وليطلق قلمَه فى البَسْط والقبض وليُعِدْ بتدبيره على هـذا المنصب الشريف بهجته ، ويتدارك بآرائه ذَمَاءَه وبدوائه مُهْجته ؛ ويَصُن عن شوائب الظُّلم حرمتـه ، ويخلّص ذمّتنا من المآثم وذِمّته ؛ وليعلم أنّ أمور المملكة الشريفة منُوطةٌ بآرائه وأحكامه، مضـبوطةٌ بأقواله وأقلامه؛ فليجعل فِكرَه مرآةً تجْلُو عليه صُوَرَها ، ويُقِمْ آراءه صُحُفا تَتْلو لدَيْه سُوَرَها ؛ ويأمُرِ النوّاب بمـا يَراه من مصالحنا ليُدَبِّروه سامعين، ويُسْهِر جَفْنه فى مصالح البِلاد والعِباد لترْقُد الرَّعَايا فى مِهاد الأمْن وا عين ؛ ويعَضِّـد الشريعـةَ المطهَّرة بتنفيذ أحكامها ، وإعلاء أعلامها ، وإظهارِ أنوارها ، وإقامةِ مارفعه الله من مَنارها ؛ ولا يَعْدِل فى أمور مباشرتها بالممالك الشريفة عن آرائه ، ولا يُمْضِى فيها عزْلا ولا وِلايةً إلا بعد تتبُّعه الواجبَ فى ذٰلك وٱستقرائه ، وهو أعلم بمـا يجب لهذه الرُّتبـة من قواعدَ إليـه يُرْجَع فى أوضاعها ، وعليـه يُعوّل فى ٱصطلاحها لانفرادها فيه وٱجتماعها ؛ فليفعلْ فى ذٰلك ما هو عليـه بحُسْن الثناء جدير، وليعتصِمْ بالله فى أموره فإنّه نِعْم المولىٰ ونِعْم النصير؛ إن شاء الله تعـالىٰ .

* * *

وهـذه نسخة تقليد بالوزارة، كُتِب به للصاحب ضياء الدين بالاستمرار على الوزارة، . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ :

الحمد لله الذى شدّ أَزْر مُلْكِنا الشريف، بمن أضاء فى أُفُق الدِّين علمُه ، وشـيّد قواعدَ عدْلِنا المُنيف، بمن أعلَتْ منارَ الحق آياتُه فى أحكام الممالك وحِلْمُه، ووطّد أركانَ دولتنا القـاهرة بمن يفعل فى نِكاية أعداء الله فعلَ الحرب العَوان سِـلْمُه ،

وأجرى الأرزاقَ فى أيامنا الزاهرةِ على يَدِ من كَفَّت أقلامُه كَفَّ الحوادث فلا عُدْوانَ تغشَى ظُلَمُه ولا عادٍ يُخشَى ظُلْمُه ، وصانَ ممالكنا المحروسةَ بآراء مَنْ إن صَرَفَ إلى نكاية أعداء الله حَدّ يراعِه لم يَنْبُ موقِعُه ولم يَعْفُ كَلْمُه ، و إن صرفه فى حماية ثغر لم يُشَمْ برقُه ولم يَدِقّ بالوهم ظُلْمُه ، و إن حمى جانبَ إقليم عزّ على الأيام ثَلّ عُروشِ ما حَماه وَثَمُّه ، و إن أرهفَه لذَبّ عن دين الله راعتْ عدوَّ الدين منه يقظتُه وسلَّه عليه حِلْمُه .

نحمده على نِعمه التى زانتْ أسنَى مناصبِ الدنيا فى أيامنا الزاهرةِ بضياءِ الدّين ، وأعلَتْ أقدارَ الرُّتَب العُلْيا بتصرُّفها بآراء من أصبح عِلْمُه عَلَما للمتقين وعَمَلُه سَنَنا للمقتدين، وفُجِّرت ينابيعُ الأرزاق فى دولتنا القاهرةِ بيدِ من أغنَى بيدنا المعتَفين وقَمَعَ بمهابتنا المعتدين .

ونشهد أن لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أعاد يُمْنُها على سَمْع المنابر من نُعوتنا ما فَقَد ، وأطفأ إعلانُها عن حَملتِها لَهَبَ العِناد وقد وَقَد ، وفوّضَ اعتناؤُنا بمصالح أهلها أمورَهم إلى أكمل من انتقَى لنا التأييدُ من ذخائر العلماء وأفضل من انتقَد ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أقامنا الله للذّبّ عن أمّته ، وجلا بنُور جهادِنا لأعدائه عن قَلْب كل مؤمن ما أظَلَّه من غَمِّه ورانَ عليه من غُمّته ، وعضَّدنا من أئمة مِلّته بمن أردْنا مصالحَ العباد والبلادِ فى إلقاء كلّ أمر إليه بأزمّته ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحْبه الذين منهم من فاز بسَبْقه ، وحاز بتصديقه قدمَ صِدْقه ، واختصّه الله بمؤازرة نبيّه دُونَ مَنِ اجتباه من خَلْقه ؛ ومنهم من كان الشيطان يُنكَّب عن طُرْقه ، ونَطَق من الصواب بما نزل الذِّكْرُ الحكيمُ على وَفْقه ، وسُمّى الفارُوقَ لتمييزه بين الحقّ والباطل وفَرْقه ؛ ومنهم من قابَلَ المعتَدين

برِفْقه وقُتِل شهيدًا علىٰ حَقِّـه ، وكانت ملائكةُ الرحمن تستحْيِى من خُلُقـه الكريم وكرم خُلُقه ؛ ومنهم من طلَع [لا]معُ نُور الإيمان من أُفُقه ، وكان سيْفُه من كل مُلْحد فى دين الله بمثـابة قِلَادةِ عُنُقه ، وطلَّق الدنيا تورُّعا عنها وبيده مفاتيحُ ما بَسَـط الله للأمَّة من رِزْقه ؛ صلاةً يُقِيم الإيمانُ فرضَها ، ويملأ بها الإيقانُ طُولَ البسيطة وعَرْضَها ، وتُزَيِّن كواكبُ ذِكْرها ومواكبُ نَصْرها سمـاءَ الدنيا وأرضَها ؛ وسـلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ من رُقِمت لأعطاف فَضْله حُلَل الكلام ، ونُظِمت لأجياد ذِكْره فرائدُ المَعانى المسـتخرجةُ من بحار الفِكْر علىٰ أَلْسِنة الأقلام ، ووُشِّحت التقاليد من مناقبه بما هو أحسنُ من ٱتِّساق الدَّرارىِّ علىٰ هالاتِ البُدور ، وجُلِّى علىٰ المَسَامع مفاخِرُه بمـا هو أبهىٰ من النُّور فى العيون ! وأحلىٰ من الأمن فى القُلُوب ! وأوقعُ من الشِّفاء فى الصُّدُور ، وأُطلِعَ فى أُفُق الطروس من أوصافه شمسٌ أسفَر بأنواع العلوم ضِـياؤُها ، وأُنْشِئت فى أثناء السـطور من نعْت مآثره سُحُبٌ إذا قابلتْها وجُوه الحَيَا سترها بحُمْرة البَرْق حَياؤُها ، وأودعتِ المَهارِق من ذِكْر خلاله لُطْفا يَوَدُّ ذهبُ الأصيل لو ناب عن أنْقاسها ، ومُنِحت صدُورُ المعانى من معاليه طُرَفًا تتمنَّى الرياضُ العواطرُ لو تلَقَّتْ عن أنفاسِها ـ مَن سَمَت الوزارةُ بٱستقرارها منه فى مَعْدن الفضائل ، وٱتَّسمت منـه بالصاحبِ الذى أعادتْ أيَّامُه ما فُقِـد من محَاسن السِّـيَر الأوائل ، وٱبتَسمتْ من علومه بالعَلَّامة الذى تتفرّعُ من أحكامه أحكامُ الفروع وتتفجَّر من تَواقيعـه عُيون المسائل ، وٱتَّصفت من مَعْـدَلته بالمُنْصِف الذى هَجَر فى أيَّامه هجيرَ الحَيْف والظُّلْم فالأوقاتُ فى أيامه المباركةِ كلُّها أسحارٌ وأصائل ؛ وٱبتهجتْ من إنْصافه بالعادل الذى سَهَّل علىٰ ذَوِى المطالِب حجـابَ بابه فلا يحتاجُ أن يُطْرَق بالشَّفاعات ولا أن يُستفْتَح بالوسائل ، وأشرقتْ من مفـاخِره بالكامل الذى حسُنتْ به حُلَل

الثناء فكأنها ٱبتسامُ ثُغور النَّوْر فى أثناء الخمائل ؛ فالعدْل فى أيّامه كالإحسان شامل ، والمعروف بأقلامه كالسُّحُب المتكفِّلة برىّ الأرض الهامل ، والظلمُ والإنصاف مفترقان منه بين العَدَم والوجود فلا يُرى بهذا آمرا ولا يُردُّ عن هذا آمل ؛ قد أعطى دَسْتَ الوزارة الشريفة حَقَّه : فالأقدار بآياته مَرْفُوعه ، والمضارُّ بمعْدَلته مَدْفوعه ، وكلمةُ المظلوم بإنصاف إنصاته مسمُوعه ، وأسبابُ الخيرات بحُسْن نيّته لنيّته الحسنة مجْموعه ؛ والأقاليمُ بكِلَاءة أقلامه محُوطـه ، وأحوال المملكة بآرائه المشتملة على مصالحها منُوطه ؛ والثُّغُور بحُسْن تفقُّده مفتَّرةُ المَباسِم ، مصُونة بإزاحة الأعذار عن مَرّ الرِّياح النَّواسم ، آهلةُ النَّواحى بموالاة الحُمُول التى لا تزال عيسُها بإدامة السُّرى دامِيةَ المَنَاسِم ؛ والبلادُ بما نشرتْ أقلامُه من العَدْل معمُوره ، والرَّعايا بما بسطَتْ [يدُ] إحسانه من الإحسان مَغْمُوره ، وأربابُ التصرُّف بما تقتضيه أقلامُه عن الحَيْف منهيَّةٌ وبالرِّفق مأموره ، والأيدى بالأدْعِيَة الصالحة لأيّامنا الزاهرة مرتَفعه ، والرعيَّةُ لتقلّبها فى مِهَاد الأمْن والدَّعة بالعَيْش منتفعه ؛ وبيوتُ الأموال آهلةٌ ، على كثْرة الإنفاق ، والغَلَال متواصلَة ، مع التوفُّر على عِمَارة البلاد ، والحُمولُ متواليةٌ مع أَمْن من صدرتْ عنهم على ما فى أيْديهم من الطَّوارِف والتِّلاد ؛ والأمورُ بالتيقُّظ لها على سَعة الممالك مضْبُوطه ، والنُّفوس بالأمْن على ماهِىَ عليه من التملِّى بالنِّعَم مغْبُوطه ؛ والمناصِبُ مَصُونة بأكفائها ، والمراتبُ آهلةٌ بالأعيان الذين تنبّهت لهم فى أيّامه عيُونُ الحظّ بعد إغْفائها ؛ ومجالِسُ المَعْدَلة حاليةٌ ، بأحكام سِيرته المُنْصفه ، ومواطِنُ العلم عاليةٌ ، بما يُملى فيها من فوائده التى أتعَبَ ألسِنة الأقلام ما فيها من صفَه .

ولما كان الجنابُ العالى ، الصاحبىّ ، الوزيرىّ ، الضِّيائىّ ، وزير الممالك الشريفة ، هو الذى كَرُمت به مناسِبُها ، وعظُمت بالانتماء إليه مَناصِبُها ، وتحلّت

بعلمه معاطفُها ، ونزلَتْ علىٰ حكم حِلْمه عوارِفُ بِرِّها العميمةُ وعواطفُها ؛ وزهَتْ بجواهرِ فضائله أجيادُها ، وآستوتْ فى مَلابِس حُلل المَسَرَّة به أيامُها الزاهيةُ وأعيادُها ؛ وأنارتْ بمعْدَلته لياليها ، وأشرقَتْ بالأنتظام فى سِخَاب[1] إيالته لآليها ؛ فكَمْ من أقاليمَ صان قلَمُه أموالَها ، وممالكَ حَلَّى عدْلُه أحوالَها ، وبلادٍ أعان تدبيرُه السُّحُب علىٰ رَيِّها ، وأعمال أبانَ عن آستغنائها بتأثيره عن مِنَّة الحَيا حسنُ مسمُوعها ومرئيِّها ، وأرزاقٍ أدرَّها ، ورِزَق أجراها علىٰ قواعدِ الإحسان وأقرَّها ؛ وجهاتِ بِرٍّ أعان واقفيها عليها ، وأسبابِ خيرٍ جعل أيَّامنا بإدامة فتْحها السابقةَ إليها ؛ وقَدَم سِعايةٍ أزالها وأزَلَّها ، وكلمةِ حادثةٍ أذَالَها وأذَلَّها ؛ ووُجوهِ مَضَرَّة ردَّها بيد المعْدَلة وصدَّها ، وأبوابِ ظُلم لا طاقةَ للرعيَّة بسُلوكها أغلقَها بِيُمْنىٰ يُمنه وسَدَّها ؛ فدأبُه أن يُسَدِّد إلىٰ مقاتِل العِدا باتخاذ اليَد عند الفقراء سِهامَ الليل التى لا تَصُدُّها الدُّروع ، وأن يجدِّدَ لأوليائنا من عوارِفِ آلائنا أخلافَ بِرٍّ تَرْوِى الآمالَ وهى حافلةُ الضروع ـ آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُزَيِّن بمجده غُرَر التقاليد ، ونجدِّدَ إليه فى أمور وزارتنا الشريفةِ إلقاء المَقَاليد ؛ وأن نُوَشِّى الطروسَ من أوصافه بما يجدِّد علىٰ أعطافها الحِبرَ ، ونرَدِّدَ علىٰ ألسنة الأقاليم من نُعوته مالا تَمَلُّ المسامعُ إيرادَ الخَبَر منه بعد الخَبَر.

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَولوِىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ـ لازال الدِّين فى أيامه الشريفةِ مُشْرِقا ضياؤُه ، آهلةً باعتلائه مرابِعُ الوُجُود وأحياؤُه ، ممْدُودةً علىٰ الامة ظِلالُه الوارفةُ وأفياؤُه ـ أن يُجدَّد هذا التقليد باستقراره تجديداً لا يُبلِي الدهْرُ حُلَلَه ، ولا تقوّض الأيام حِلَلَه[2] ؛ بل يُشْرِق فى أُفُق الممالك إشراقَ

---

(١) السخاب بكسر السين المهملة وبالخاء المعجمة قلادة من مسك وقرنفل ومحاب بلا جوهر جمعه ككتب .

(٢) جمع حلة بالكسر بمعنى البيوت وهى مائة فما فوقها انظر المصباح .

النجوم الثّوابت، ويتفرّعُ فى مصالح المُلْك تفرّع الأفنان الناشئة فى الأُصُول النّوابت، وتختالُ به مناصِبُ الدولة القاهرة فى أسنىٰ مَلابسها، وتُضِيء به مواطِنُ العلوم إضاءةَ صَباحةِ المِصباح فى يَدِ قابِسِها، وتُسترفَعُ لنا به الأدعيةُ الصالحة من كلِّ لسان، وتُجتلىٰ به لأيامنا الزاهرة من كل أُفُق وجوهُ الشُّكر الحِسَان.

فلتَجْر أقلامُه فى مَصالح دولتنا الشريفة علىٰ أفضل عادَتِها، ويُرسِلْها فى نَشْر العدْل علىٰ سجيّتها وفى إجراء الجُود علىٰ جادّتها، ويكُفَّ بها أكُفَّ الحوادث فإنما تُزال أسبابُ الظلم بحَسْم مادّتها؛ وليُنْطِقها فى مَصالح الأموال بما تظَلّ له مسامعُ الحُمول مُصْغيه، ويُطْلِقها فى عِمارة البِلاد بما تغْدو له ألسنةُ الخِصْب حافظةً ولما عَداه مُلْغِيه؛ وكذٰلك الخزائن التى هى معاقلُ الإسلام وحُصونُه، وحِماه الذى لا يُبتَذَلُ بغير أمرنا الشريف فى مصالح المُلْك والمِلَّة مَصُونُه؛ فليجعلها بتدبيره كالبِحار التى لا تَنْقُص بكثرة الوُرّاد جِمامُها، ولاتنزَحُها السُّحُب لكثرة ماتحمِلُ الى الآفاق غَمامُها؛ ولتكُنْ كلمةُ العدل من أهمِّ ما تُفتَتَح به مجالِسُه، وآكَد ما يؤمَرُ به مُحاضِرُه من الأولياء ومُجالِسُه، وأزكىٰ مايَستجيدُ [به] لأستثمار الدعاء الصالح مَغارِسَه، وأوثَق مايحُوط به حِمىٰ الملك الذى إذ اغفَا جَفْنُ عينه كان حارِسَه. وأوّل ما ينبغى أن يُنافِس عليه حاضِرَ دَسْته وغائبَه، وأولىٰ ما يُعِدّ علىٰ إهماله نَكالَه ويَعُدّ علىٰ إقامته رغائبَه.

ولْيلاحِظْ من مَصالح كلّ إقليم ما كأنّه ينظر إليه بعين قلبه، ويمثّلُ صورتَه فى مِرْآة لُبِّه؛ فيُقِرّ كلّ أمر علىٰ ما يَراه من سَدَاده، ويُقرِّر حال كلّ ثغر علىٰ ما يحصُل به المراد فى سِدَاده؛ فيغدُو لأعذاره بموالاة الحُمُول إليه مُزيحا، ويُمسى بسَدّ خَلَله لخواطر أهل الكفر مُتْعِباً ولخواطرنا الشريفة مُريحا؛ وينظر فى أحوال

من به من الجُنْد والرجال بما يؤكِّد الطاعةَ عليهم ، ويجدد الاستطاعةَ لديهم ؛ ويُزيل أعذارهم واعتذارَهم [بوصول حقوقهم اليهم ، ويُوفِّرهم على إعداد الأهبة للأعداءِ] (١) إذا أتوْهم من فَوْرِهم ، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم على الرعايا وجَوْرِهم ؛ ويتفقَّد من أحوال مباشِريها ووُلاة الحكم والتحكُّم فيها ما يعلمون به أنه مناقِشُهم على الأمور اليسيره ، والهَفَوات التى يرَوْنها قليلة وهى بالنسبة إلى كثرة الرَّعايا كثيره ؛ ويتعاهدُ أمور الرتب الدينيَّة فلا تؤخَذُ مناصِبُها بالمَناسِب ، ولا تَغْدُو أوقافُها المُعَدّة لاكتساب العلوم فى المَكاسب ؛ بل يتعين أن يرتادَ لها العلماءَ الأعيان حيثُ حَلُّوا ، ويُقرِّر فى رتبها الأئمَّةَ الأكفاءَ وإلا اتخذ الناسُ رُءُوسا جُهَّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا . ولتكنْ أقلامُه على كلِّ ما جرتْ به العوائدُ فى ذلك محتَوِيه ، وأيامُه على أكمل القواعد فى ذلك وغيره منطَوِيه ، فما تمَّ شىءٌ من قواعد الوزارة الشريفة خارجٌ عن حكمه فليكتُبْ يُمتَثل ، وليقُلْ فى مصالح دولتنا القاهرة يكُن قولُه أمضَى من الظُّبَا وأسرَى من الصَّبا وأسيَرَ من المَثَل ؛ فلا تُمضَى فى ذلك ولايةٌ ولا عَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقد [ولا] حل ؛ إلا وهو معدُوق بآرائه ، متوقِّف على تنفيذه وإمضائِه ؛ متلقًّ ما يقرَّر فيه من تِلْقائه ، وفى الاكتفاء بسيرته ما يُغنِى عن إطرائه ؛ إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخة تقليد بالوزارة :

الحمد لله الذى شَدَّ لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أزْرا ، وخصَّ أيَّامَنا الزاهرةَ باجتباء مَنْ حماها عدْلُه أن تَضَع أو تحمل وِزْرا ، وأفاض إنعامَنا على مَنْ طلع

(١) الزيادة من التقليد الآتى بعد .

فى أُفُق خدمتنا هِلالًا وٱستقلّ بحسن السَّيْر والسِّيرة بَدْرا، وضاعف إحساننا لمن [لا] نرفعُه إلىٰ رتبة شرف إلا وكان أجلّ الأكفاء علىٰ ذٰلك قُدْرةً وقَدْرا، وجمّل مُلْكنا بمن إذا ٱفتخرت الدُّول ببعض مناقبه كَفَاها ذٰلك جَلالا وفخرا، وإذا ٱدّخرت تدبيره وبذلَتْ ما عداه فحَسْبُها ما أبقتْـه وقايةً للملك وذُخرا، وبسط عدْلنا فى الأقاليم بيـد مَنْ حين أمرْنا القلمَ بتقليده ذٰلك سجد فى الطِّرس شكرا، وٱفتتح بحمد الله يذكِّر النعمة به علىٰ آلائه إنَّ فى ذٰلك لذِكْرىٰ، وأخذ فى وصف دُرَرِ مَفاخِره التى تمثَّلت له فنضَّدها دُون أن يستدعىَ رَوِيَّةً أو يُعْمِل فِكْرا.

نحمـده حَمْدَ من والىٰ إلىٰ أوليائه، مَوادَّ النِّعم، وأضفىٰ علىٰ اصـفيائه، ملابِسَ الكَرَم، وحفِظ لمن أخلَص فى طاعته مَعارفَ معروفه التى هى فى أهل النُّهىٰ ذِمَم، ونَبَّه لمصالح رعاياه مَنْ عَمّ عدْلُه وإن لم يَغْفُ عن ملاحظة أمورهم ولم يَنَمْ.

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً نُعلِنُها ونُعلِيها، ونُرْخِص أرواحَ جاحديها ونُغْليها، ونُوالى النِّعمَ علىٰ المتمسِّك بها ونُوليها، ونقرِّب بِيُمْنها رُتَبَ الأولياء من إحساننا ونُدْنيها، ونجدِّد لهم بتأبيدها ملابِسَ المِنَن نُظْهِرُ عليهم آثارَ النِّعم السنية فيها، ونرفَعُهم بحسن عنايتنا إلىٰ أشرف غايةٍ كانوا يُسِرُّون أهليَّتهم لها والله يُبْديها؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أقامنا لنصر دينـه فقمْنا به كما أمَرْ، وأبقىٰ علىٰ أيّامنا حكْمَ أيّامه فاستمرّ الحالُ علىٰ ماسبقَتْ به دعوتُه من تأييد الدين بعُمَر، وخَصَّنا ممن ينتمى إلىٰ أصحابه بأجلّ صاحبٍ ينُوب عن شمس عَدْلنا فى محو ظُلْمة الظُّلْم مَنابَ القَمَر، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الزُّهْرِ الغُرَر، وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعـد، فإنَّ أوْلىٰ من اختيرت جواهرُ الكلام لِوَصْف مفاخره، وا تُخِيت غُرَرُ المعانى لوَصْف آثاره فى مصالح الإسلامِ ومآثِرِه؛ وقامتْ خطباءُ الاقلام علىٰ منابِرِ

الأنامل بشيرة بيُمْن أيامه ، وتطلّعت مُقَل الكواكب مشيرةً إلى ما أقبل على الأقاليم من إقباله وسَحّت سُحُبُ أقلامه ؛ وتبرّجت زُهْر النجوم لينتظم فى عقود مناقبه سعودُها ، وتأرّجت أرجاءُ المَهارق إذ تبلّج من ليل عن فجرٍ عمودُها ؛ وسارت به أنباءُ السُّعود والقلم الناطق بذ كره وهو الحلّق الميمُون طائره ، والطِّرس الموشّع بشُكره وهو المخلّق الذى تملأ الدنيا بشائره ــ من استخلصتْه الدولةُ القاهرة لنفسها فتملّاها عينا وسُرّ بها قلبا ، وآختصّتْه بخواصها الشريفة فرحُب بها صدْرا ولبّاها لُبّا ، وكلِف بمؤازرتها بـاتها حتّى قيل : هـذه «تُراوِدُ فَتَاهَا عن نَفْسه قد شَغَفَها حُبّا» ؛ وأحلّته من وزارتها الشريفة بالمكان الأسنى والحرَم الحريز ، وأثنت على فضله الأسمى بلسان الكرم البسيط الوجيز ، وآعتمدتْ فى أمور رعاياها على ما فيه من عَدْل وورَع لا يُنْكَر وُجودُهما من مثله وهو فى الحقيقة عُمَرُ بنُ عبد العزيز ، وأدنتْـه عنايتُنا منّا لمـا فيه من فضـلٍ عميم ، وحسَبٍ صميم ، ونَسَبٍ حديثُ مَجْده قديم ، وأصالة إذا آفتخرت يوما تميمٌ بقومها قالت أين تميمُك من جدّه صاحبِ رسول الله صـلى الله عليه وسلم تميم ؛ وغرستْه لنفسها وطال ذلك الغـرسُ وطابَ الثَّمر ، وآعتضـدتْ بتـدبيره فكان له عنـد أطرافِ العَوالى فى مكانه الأعزّ أظرف سَمَر ، ووثقتْ بمـا فيه من عَدْل ومعرفة لا يُنْكَرُ من نحا الصوابَ آجتماعهما فى عُمَر ؛ وآشتقّت له بإحساننا من نِسْبته وَصْفا جميلا ونعتا جَليـلا ، وخصّته لمزيّة ذلك الآشتقاق بمزيد قُرْبنا فأمسى فى خدمتنا جَليلا وأصبح خَليلا ؛ ورعتْ له ما قد تمّ من تدبير أتى عليه بنفسه ، وسَـدادٍ ظهرتْ مزيّتُه كل يومٍ منه على أمسِـه ؛ وسعْيٍ جميل مابَرِح فى مصالح الإسلام رائحا وغاديا ، واجتهادٍ فى أمور أهل الجهاد مابَرِح يدْأبُ فيه علما بمـا أعدّ اللهُ لمن جهّز غازيا ؛ ودانَ له من حُسْـن ملاحظته الأمورَ ما ليس للوصف به من

قبل، وتأملت ما يُكشف له على البُعد من المصالح التى يأمر بالصواب فيها وكيف لا وعُمرُ الذى شاهد السَّرِيَّة على البُعْد من سارية الجبل؛ وأيقنت ببسط العدل فى الرَّعايا إذ هو مؤتمِر والعادل آمر، وتحققت عمارة البلاد على يديه لأنّ عُمرَ بحكم العَدْل عند الحقيقة عامر .

ولذلك لما كان المجلس العالى الفخْرى – ضاعف الله نعمته – هو الذى قرّبته طاعتُنا نجيًّا، ورفعته ولايتنا مكانًا عليًّا، وحقّق له اجتهادُه فى مصالح الإسلام الأملَ من رِضَانا وكان عند ربّه مَرْضيًّا، وأخلص فى خدمة دولتنا الشريفة فاتّخذته لخاصّ الأمور وعامّتها صفيًّا، وأظهر ما بطَن من جميل اجتهاده فجعلته لمصالح المُلْك وزيرا وصاحِبًا ووليًّا؛ وأنجزتْ منه لتدبير أمور الممالك ما كان الزّمنُ به ماطلا، وأجرتْ على يده التى هى مليّة بتصريف الأرزاق ما لا يبْرَح غمامُه هاطلا، وقلّدته رعايةَ الأمور وأمورَ الرعايا علمًا أنه لا يترك لله حقًّا ولا يأخذُ باطلا، وقلّدتْ جيدَه بأسنى حلّ هذه الرتبة الجليلة وإن لم يكن منها بحكم قُربه منا عاطلا، ورفعتْ له لواء عدل ما زال له بالمُنى فى أيّامنا الشريفة حاملا، وكمّلتْ له ببلوغ الغاية من أُفق العُلُوّ رفعة قدره وما زال المُؤَهّل للكمال باعتبار ما يئول إليه كاملا، ونوّهتْ بذكره وما كان لظهور مخايلِ هذا المنصب الجليل عليه فى وقتٍ خاملا، ونظرت الرعايا فما عدلتْ بهم عن بَرٍّ رفيق، وصاحبٍ شفيق، ووزيرٍ عُمَرىّ السيرة ماسلك طريقا إلا وعدلَ شيطانُ الظلم عن ذلك الطريق؛ وكان هذا المنصب الجليل غايةً مدارُ الممالك عليها، وقبلةٌ تَوَجّهُ وجوهُ أهل الطاعة فيما يُفاض عليهم من نِعمنا إليها؛ وهو الذى يتدرّع صاحبُه من أنواع الطاعات لَبُوسا، ويعالجُ من أدواء المَهامّ ما بغير عزائمه لا يُوسى، ويتردّد فى المخالصة والمناصحة من مالكِ أمره بمنزلة هارُون من مُوسى – اقتضت آراؤنا الشريفة ان نُفوّض ذلك إلى مَنْ نهض فى طاعتنا

الشريفة بما يجب ، وعلمنا تحرُّزه لدينه ولنا فيما يأتى ويجتنب ؛ ومَن تُزاد به مع فخره أيامُنا الشريفة فخرا ، ويُصبح له مع ماله من الجلالة فى نفسه رُتَبُ جلالةٍ أخرىٰ .

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالى المولوىّ ، السلطانىّ ، الملكىّ ، الفلانى : ـ لا زال يُصرّف الأقدار بيمين أيامه ، ويُشرّف الأقدارَ ببِرّه وإنعامه ، ويدرّ علىٰ الأولياء وابلَ جُوده الذى تخجل الدِّيمُ من دوامه ـ أن تفوّض إليه الوزارةُ الشريفة الكاملةُ علىٰ جميع الممالك الإسلامية : شرْقا وغرْبا ، وبُعْدا وقربا ؛ وبرًّا وبحْرا ، وشاما ومِصْرا ؛ علىٰ أجمل القواعد فى ذٰلك وأكملها ، وأسنىٰ الفوائد وأفضلها ، وأتمّ الأحوالِ التى يُستغنىٰ بمجملها عن مفصّلها .

فليُعْطِ هـذه الرتبةَ من جلالتـه حَظًّا كانتْ من إبطائه علىٰ وَجَل ، ويُجارِ الغمائمَ بوابِلِ إنعامنا الذى يُعْلَم به أن حُمْرة البرْق فى أثنائه تخجل ؛ ويُطلِق قلمـه فى مصالح الدولة القاهرة بَسْطا وقبْضا ، وإبراما ونقْضا ، وتدبيرًا يُعين النِّيلَ والغَمام علىٰ تَتَبّع المَحْل ماوجَدَ كلٌّ منهما أرْضا ، ويُعْمِلُ آراءه المباركةَ تدبيرا للمناجح وتدْريبا ، وتقريرًا للقواعد وتَقْريبا ، ونظرًا يجعل لكلّ عملٍ من ملاحظته نَصيبا ، وفكرا يحاسبُ به علىٰ حقوق الله وحقوق خَلْقه فإنّ الله هو المناقِشُ علىٰ ذٰلك ﴿وكَفَى بِاللهِ حَسِيبا﴾ .

ويبدأُ بالعَدْل الذى رسم الله به وبالإحسان فى مُلْكنا الشريف ، ويخفّفُ ـ مع الجمع بين المصالح ـ عن خَلْق الله الوطأةَ فإنّ الإنسانَ ضعيف ، ويُنجِزُ لأولياء دولتنا مَوادَّ الارزاق فإنّ سيْفَ المنْع الذى تُحاشى أيامُنا عن تجريده أقلّ نِكايةً من التسويف ، ويمنعُ الوُلاة من ظُلم الرعايا باعتبار أحوالهم دُونَ أقوالهم فإنّ منهـم من يدّعى العدل ويجُور ويُظْهر الرِّفق ويحيف ، وليتتبّعْ أدواءَ المَحْل تتبّعَ طبيب خبير ،

ويُصرّف الأمورَ بجميل تدبيره فإنّ البركة معْدوقةٌ بحُسْن التدبير، ويستقبلْ رَىَّ البلاد - إن شاء الله تعالى - بسَدَاد حزم يُغْتفر به هذا القليل لذلك الكثير، ويستخلف بالرِّفق والعدْل أضعافَ مافاتَ فى أمْسه فإنّ ذلك على الله يَسير. وليهتمَّ ببُيوت الأموال فيُوالى إتيانَ الحُمول إليها من أبوابِها، ويضاعفُ بها الحواصلَ التى لايُطَّلع بغير حُسْن التدبير علىٰ أسبابِها، فإنّها مَعادِنُ الذخائر ومواردُ الرجال، وإذا أعدّ منها جِبالًا شوامِخَ تَلَا إنفاقُنا فى سبيل الله : ﴿ ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ ﴾ .

وكذٰلك الخزائنُ التى هى مَعاقِلُ الإسلام وحُصُونُه، وحِماهُ الذى لا يُبْتذل بغير أمرنا الشريف فى مَصالح الملك والملة مَصُونُه، فيجعلها بتدبيره الجميلِ كالبِحار التى لاتنقُص بكثْرة الورّاد جِمامُها، ولا تَنْزَحها السُّحُب علىٰ كثرة ماتحمِل إلىٰ الآفاق غَمَامُها؛ وليُلاحِظْ من مصالح كلّ إقليم بما تُمثّله له على البُعْد أفكارُه، ويأمر فى أحوال مَنْ به من الجند بمايُؤكّد الطاعةَ عليهم، ويجدّد الأستطاعة لديهم، ويُزيح أعذارَهم وٱعتذارَهم بوصول حقوقهم إليهم، ويُوفِّرُهم علىٰ إعداد الأُهْبة للأعداء إذا أتَوْهم من فَوْرهم، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن ٱعتدائِهم على الرعايا وجَوْرهم؛ ويجعلُ ثغورَ كل جانبٍ - بتيسير محصُولها، وتثميرِ ذخائرِها التى هى من مَوارد رجالِها - مُصَفَّحة بالصِّفاح، مُشْرِقةً بأسنّة الرِّماح، مسدُودةً من جهة العدُوّ عنها مسالكُ الرياح؛ ويتفقّد من أحوال مباشِريه، ووُلاةِ الحكم والتحكّم فيه؛ مايعلمُون به أنه مناقِشُهم على الأمور اليسيره، والهفَواتِ التى يرَوْنَها قليلةً وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرعايا كثيره، والأحوالِ التى إذا عدَّدها الكُتّاب عليهم قالوا : ﴿ يا وَيْلَتَنَا مالِهٰذَا الكِتَابِ لايُغادِرُ صغيرةً ولا كبيره ﴾ ، ويتعاهدُ أمورَ الرُّتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها بالمَنَاسب، ولا تُعَدّ رِزَقُها المعدّةُ لٱكتساب العِلم فى المكاسب؛ بل يتعيّن أن يرتاد

لذلك العلماءَ الأعلام حيث حَلُّوا ، ويقرِّر فى مراتبها الأكفاءَ وإلا آتخذ الناس رُءُوسا جُهّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا؛ وقد جعلنا [أمره] فى ذلك جميعه من أمرنا، فليقُلْ يُمتثَل، وينْشُر كلمة عدلِنا التى يَسير بطريقتها المُثْلىٰ المَثَل؛ ولا تُمضىٰ ولايةٌ ولا عزل، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقد ولا حَلّ؛ الا وهو معدُوق بآرائه، متلقٍّ من تِلْقائه، متوقِّف علىٰ تنفيذه وإمضائه ؛ وقد آختصرنا الوصايا، آكتفاءً بما فيه من حُسْن الشِّيَم، وآقتصرْنا علىٰ ذكر بعض المزايا، إذ مثله لا يُدلُّ علىٰ صواب ولا يُزاد مافيه من كَرَم ؛ لكنّ تقوى الله أولىٰ ما ذُكِّر به من لم يزَلْ لربِّه ذاكِرا، وأحقُّ ماشكِر علىٰ التوفيق مَنْ لم يبْرح له به شاكِرا؛ والله يَزيد قدْره آعتِلاء، ويضاعِفُ للدولة الشريفة احتفالا بشُكْره واعتِناء .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخة تقليد بالوزارة .

الحمدُ لله الذى شدّ أزْر المَلك من الوزراء بالمكِين الأمين، وأشرك فى أمْر مُلْكه من هو علىٰ صَلَاح الجمهور خيرُ مُعين؛ وألقىٰ مقاليدَ حُسْن تدبيره لمن دلّت عليه بركةُ الاستِخاره، وصوّب أمْر دقيقه وجليله لمن هو لجميل الثناء المغْنىٰ وإليه ببَنان الأجتباء الإشارَهْ ، وناولَ كِتابَها لمن هو أحقُّ بتحمل أعبائه ، ورقّىٰ منصبها لمن لاشُبْهة بأنه الحقيقُ باستِعلائه؛ وناولَ قلمَ إعطائها ومنْعها لواضع الإشارة فى محلّها، وعدَق تثمير أموالها بمن لا يأخُذُها بمقتضىٰ يُبْديه إلا مِن حِلّها .

نحمدُه علىٰ حُسْن إلهامه ، وشريف إفهامه ؛ ونشهد أن لا إلٰه الا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ عبدٍ مخلِص فى أدائها، محقٍّ فى إعادتها وإبْدائها؛ ونشهد أن محمدا

عبده ورسوله خيرُ مَنْ هو بالحق مبْعُوث وبالصـدق منْعُوت ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لاتزال مستمرّةً فى كل وقت موْقُوت ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ يدَ الوزارة هى اليدُ الباسطةُ فيما قَلَّ وجلّ ، والمتحكّمة فيما عُدِق بالمَلك من كلِّ عَقْد وحَلّ ، والموقوفُ عند إشارةِ بَنانها وإليها التحكُّم فى كل إعطاء ومَنْع ، وتفريقٍ وجمْـع ، وعزْلٍ وولاَيه ، ونهايةُ كل نَهْى وأمْر وما لهـا من غايه ، ورُتْبتها من المَلِك كالرُّوح الباصرةِ من العيْن ، واللسانِ المعبِّر عن كلِّ زيْن وشَيْن ، وحَسْبُه أنه فى المحلِّ من ذاتِ اليمين ، ومن مكانَة التمكُّن فى الحِرْز الحَصين ، ولهذا لا يؤهَّل لها إلا من آنْعقد علىٰ سُؤْدَده الإجماع ، وآنقطعتْ دُون لَحاق شَرَفه الأطماع ، وتأصَّل فى نَجَارها وتفرّع ، وقام بفُروض كِفـايةِ كَفَالتها وتَطوّع ، وسار حديثُ مناقبـه فى الآفاق ، وجاءَ بالآختيار والآختبار بالوِفاق ، وحَسُن صورةً ومعنىٰ ، وتعـدّدتْ مناقبُـه فدلَّت علىٰ أنه الفرْد إذا آتَّسقَت عقُوده مَثْنىٰ مثنىٰ . وكان المجلس العـالى الفلانىّ رَبَّ حَوْزتها وسريرها ، ورُوحَ بصَرِ مرتَمِق هـذه المحامِد وإليه [أمر] مَصـيرِها ، والذى حكَمتْ له السيادةُ بمَنالهـا وحكَمتـه ، وأوضحَتْ بأصالتها وَجْه الصواب فى آختياره لهـا وأحكمتْـه ، وقد حازَ من متفرِّق لوازمهـا ما تفرّق فيمن سِوَاه ، وحَوىٰ من أدواتها [مادل] علىٰ أنَّ الله خلقـه فسَوّاه ، إن قال فالصوابُ موكَّل بمَنْطِقـه ، أو صمَت فعِظَمُ مَهابته قائم مقامه بجميل الخُلُق لا تخلُّقه ، قد جمـع إلىٰ التواضُع فرطَ المَهَـابه ، وإلىٰ الآبتـداء بالمعروف حُسْنَ الإجابه ، إن ذُكِرت الصَّـدارة فهو مالكُ زِمَامها ، أو الرِّياسة فهو غُرَّة لِثامها ، أو الكَفالة فهو مُصرِّف عِنانهـا ، أو الوزارةُ فهو عيْن أعيانها ، لم تزَلْ رتبتهـا متشوّقةً لحلوله ، ممهّـدة لشريف تأهيله .

ولما تحلّىٰ منها بهذه الحلىٰ ، وسار حديثُ مَلاءته بتخويلها فى الملا ، وتلا لسانُ القلم سُوَرَ هذه المحاسن وتلا الثانى بالأوّل منها إذا تلا ؛ رُسم بالأمر العالى - أمتعه الله بما وُهبه من حُسْن مؤازرته، وشدّ عَضُدَ مملكته بالإمتاع برِبْح حُسْن معاملته لله وله ولمتاجرته - أن تُفوّض الوزارةُ المفخّمه ، المكرّمة المبجّلة المعظّمه ؛ للمشار إليه : تفويضًا عامًّا للقريب من مصالحها والبَعيد، والطارف والتليد ؛ والمُقيم والنازح ، والغادى والرائح ؛ والسانح والبارح ، والباغم والصادح .

فليُباشرْ ما فُوّض إليه منها مباشرةَ مثله لمثلها ، وليُعطها من نَيْله مُناسب نَيْلها ؛ وليأخذْ أمرها بكلتا يدَيْه، وليُعِرْها جانبًا من آحتفاله ليَظْهَر عليها آثارُ سُؤدده كما ظهر شريفُ تَخْويلها عليه ؛ وليُطْلِقْ فيها لسان نَهْيه وأمرِه ، وليُعْمِلْ فى مصالحها صالحَ فكرِه ؛ فقد عُدقت به مَهامُّها : جليلُها وحقيرُها ، وقليلُها وكثيرُها ؛ وأميرُها ومأمورُها، وخليلُها وضريرُها؛ وناعقُها وناعبُها، وكاسيها وكاسِبُها؛ ودانيها وقاصيها، وطائعُها وعاصيها، ومستقبلُها وحالُها وماضيها، وواليها وقاضيها؛ ثقةً بتمام تدبيره، وحميدِ تأثيره، وأنّه إن حَكَمَ فصَل ،وإن قطَع أو وصَل كان الحزم فيما قَطع ووصَل؛ إذ هو الوزيرُ الذى قد صُرف عن عمل الأوزار وسار، إلا أنه فى كل مَنْهج سارْ؛ تَقْطُر السيادةُ من معاطِفه، وتُجْنى ثمرَ المُنىٰ من أغصان قلمه يدُ قاطفه؛ لاشىءَ يخرج عن حُكْمه، ولا مصلحةَ تعزُب عن عِلْمه ؛ فولايةُ الحُكّام معدوقةٌ بإشارته، موقوفةٌ علىٰ مايُثْبِته ببليغ عبارته . ومع جَلالة قدْرِه لايَحتاج إلىٰ التأكيد فى الأموال وآستدْرار أخلافها ، والرَّعايا والآستدامة بالإحسان وُدَّ أحْلافها ؛ وبيوتِ الأموال وآستيداء حقوقها ، ومُراعاة جانبها إذ هى الأمُّ الحَنُونة بتَجنُّب عقُوقها . والخزائنِ فهو أدرىٰ بما يجب من تضييق صَدْرها بالمناقيص عن الآنشراح ، والآهتمام بحواصل تشريفها المستجلبة إفاضةُ ملابسها قلبَ مَنْ غدَا وراح ؛ وثَمّ دقائقُ ، هو أدرىٰ بما لَها من

طرائِق ؛ وحقائقُ ، هو أعرَفُ إذ كان فيها الفاتِقَ الراتِق ؛ فهو ـ أجلّه الله ـ غنيٌّ عن تفصيلها، وذهنُـه أشرفُ عن الوصايا المنـدوبة لتوصيلها؛ والله تعالىٰ يقدّر له وبه الخَـيْر، ويمتّع بحسن تدبيره المقرونِ بجميـل السريرة والسِّيْر؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

✤

وهذه وصية وزير أوردها فى "التعريف" وهى :

يُوصىٰ بتقوىٰ الله فإنَّه عليـه رقيب ، وإليـه أقربُ من كلِّ قريب ؛ فليجعَلْه أمامَه، وليطْلُبْ منه لكل ماشرَع فيه تمـامَه؛ وليُجِلْ رأيَه فى كلِّ ماتَشُدّ به الدولةُ أَزْرها، وتُسنِد إليه ظهْرَها؛ وليجعلِ العدْلَ أصلا ينْبِى علىٰ أُسِّه، والعملَ فى أموره كلِّها لسلطانه لا لنَفْسه ؛ وليَـدَعْ منه الغرضَ جانبا ، وحظَّ النفس الذى لا يبْـدُو إلا من العَـدُوّ ليُصْدِق من دَعَاه صاحِبا ؛ وليُبصِرْ كيف يُثمِّر الأموالَ من جهاتهـا ، وكيف يخلِّص بيوت الأموال بالاقتصار على الدَّراهم الحلال من شُبُهاتها ؛ وليتزّه مطاعِمَ العساكر المنصورة عن أكل الحَرَام فإنه لايُسْـمِن ولا يُغْنِى من جُوع ، ولا يُرىٰ به من العيْن إلا مايُحرِّم المُجوع ؛ وليحذَرْ من هذا فإن المُفاجِئ به كالمخاتِل ، وليَتجنّب إطعام الجُنْد منه فإن [آكل] الدرهم الحرام مايُقاتِل؛ وليُحْسِنْ كيف يُولِّى ويَعْزِل، ويُسَمِّن ويَهْزِل؛ وعليه بالكُفَاة الأُمَناء، وتَجنُّب الخَوَنة وإن كانوا ذَوى غَناء؛ وإيّاه والعاجِزَ، ومن لو رأىٰ المصلحةَ بين عيْنَيْه ألفىٰ بينه وبينها ألف حاجِز؛ وليطَهِّرْ بابه، ويُسَهِّل حِجابَه؛ ويفكِّرْ فيما بَعُدَ أكثرَ ممـا قَرُب: مقدِّمًا للأهمّ فالأهمّ من المصالح ، وينظر إلىٰ ماغابَ عنـه وحضَر نظرَ المُمـاسِى والمُصابِح ؛ ولا يَستَبْدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُه أو ثبتت عنده خيانتُه ، ولا يدَعْ من جميل نظره مَنْ صحّت لديه كفايتُه ،

أو تحقّقتْ عنده أمانتُه؛ وليسلُكْ أقصدَ الطُّرُق فى أمر الرواتب التى هى من صدَقاتنا الشريفة وصَدَقات مَن تقدّمَ من الملوك، وهى إمّا لمن وجب له حقٌّ وإن كان غنيًّا أو عُرِف صلاحُه وهو صُعْلوك؛ وكذٰلك ما هو لأيتامِ الجُنْد الذين ماتُوا علىٰ الطاعه، وأمثالِهم ممن خَدَم دولتنا القاهرة بما آستطاعَهُ؛ فإن غالِبَ مَن مات منهم لم يُخلِّف لهم إلا ماتَسمَح لهم به من معروف، ونُجْريه لهم من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلِّفه الآباء للأبناءِ من المال المتملَّك والوقْف الموقُوف؛ وليصْرِف آهتمامَه إلىٰ آستخلاص مالِ الله الذى نحن أُمَناؤه، وبه يَشْغَل أوقاتَه وتمتلئ كالإناء آناؤُه؛ فلايَدَعْ شيئا يجب لبيت المال المعمور من مستحقه، ولايتسمَّح فى تخلية شيء منه كما أننا نُوصيه أنه لا يأخذُ شيئا إلا بحقِّه؛ وليُبْق لأيامنا الزاهرةِ بتواقيعهِ ذِكْرا لايَفْنىٰ، وبِرّا لايزال ثمرُه الطيِّب من قلمه يُجْنىٰ؛ ليكونَ من رياح دولتنا التى تغتنم ما يُثيره من سَحَابها المَطِير، وحسَناتِ أيّامنا التى ماذُكرنا وذُكر معنا إلا وقيل: نِعْمَ الملك ونِعْمَ الوزير.

الوظيفة الثانية

(كتابةُ السِّرّ، ويُقال لصاحبها "صاحبُ دَواوين الإنشاء")

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ الوظائف أنَّ موضُوعها قراءةُ الكتُب الواردةِ على السلطان، وكتابةُ أجْوبتِها، وأخذُ خَطِّ السلطان عليها وتسفيرُها، وتصريفُ المراسيم وُرُودا وصُدُورا، والجلوسُ لقراءة القصص بدار العدل، وأنّه صار يُوقِّع فيما كان يُوقَّع فيه بقلم الوزارة.

قلت : وقد كان فيما تقدّم يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النصف بلقب «المجلس العالى» ثم آستقرّ أن يُكتَب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بلقب «الجناب العالى» . وقد تقدّم الكلامُ على تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بكتابة السرّ ، كُتِب بها للمَقَر المُحْيَوِىّ «مُحيِي الدين بن فضل الله» عند عَوْده إلى كتابة السّر بالديار المصرية ، فى جمادى الأولى سنة ثلاث ... (١) ... 733
من إنشاء السيد الشريف شِهاب الدين ، أحد كُتّاب الدَّرْج الشريف ، وهى :

الحمدُ لله المانّ بفَضْله ، المستعانِ به فى الأمر كلِّه ، الذى رفَع أوّل الأولياءِ من العَلْياء إلى محلّه ، ووضَع النِّعم عند من يَنُصّ الآستحقاقُ على تقديمه بمنصبه ويُجِلّ مافُوِّض إليه من أجْله ، وأبدَعَ نظام السُّؤدَد بأجمل حالٍ ما دام يَحْيَى جامعَ شَمْله ، وأودَع سِرَّ مُلْكنا الشريف عند الحفيظَيْن منه ومن نَجْله ، وأرجعَ الرياسةَ إلى من سَما ثَباتا ، ونما نباتا ، وعَلا عَزْما ، ووَفى حَزْما ، فبِيُمْن آثاره تُضْرَب الأمثالُ ولا تجد فى يُمْن سَجاياه كمِثْله .

نحمده على أن أعاد بنا الحقَّ إلى أهله ، ونشكُره على أن جادَ روضَ الآمال بواكِف سَحاب كَرَمنا ووَبْله ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مَن وُفِّق للصواب فى قوله وفِعْله ، وتُحقِّق منه جميلُ الإخلاص فى جميع مذاهبه وسُبْله ، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه المُؤْوِى يومَ الجزاء إلى سابِغ ظِلّه ، والمُرْوِى يوم العطَش الأكبر بسائغ نَهْله ، والنبىُّ الذى بعثه خاتِمَ رُسْله ، وآتاه من الكَرامة مالم يؤتِ أحدًا من الأنبياء من قَبْله ، والمجتبِى من علماء صَحابته من أهّله لإيداع سِرّه وصَوْنه وإبلاغ أمْره وحَمْله ، صلّى الله عليه وعلى آله الذين سبَقوا إلى غايات الفَخار

(١) بياض بالأصل .

وخُصُّوا بِخَصْله ، ورضى الله عن أصحابه المجاهدين فى حُبّه المعتصمين بحَبْله ، خُصوصًا الصدِّيق الذى أحسنَ الخلافةَ من بعده وقاتل مَن آرتدّ بقَتْله ، ومَنْ فَرَق بين الحق والباطل بحُسْن سيرته ومَحْض عَدْله ، ومن تلقَّ عنه آيات الكتاب فا(١) ...... فى ترتيبه وجمْعه وأدائه ونَقْله ، ومَنْ كان فارسَ حَرْبه ، وحارِسَ سَرْبه ، وكاتبَ وحْيه وخاطبَ كِفْله ، وعن بقية المهاجرين والأنصار الذين آنفردُوا بأكمل الفضل وأجلّه ، صلاةً ورضْوانا وضَح بهما نورُ الهدىٰ لمستدلّه ، ماشفىٰ كرمُنا الصُّدورَ بصُدور إقباله إلىٰ مَنْ قام بفرض وَلائه ونَفْله ، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

أما بعد ، فنِعَمُنا لاتزال للعُهود حافِظه ، وبالجُود متْحِفة وبالسُّعود ملاحِظه ، وعلى المعهود من كَرَم شيَمِها محافِظه ، وللخِدَم مكافيه ، وللقِسَم مُوفِية وبالنِّعم مُوافِيَه ، وبمألُوف الكَرَم مُلافيه ، آتِّباعا لسبيل الصَّواب ، وإيداعًا للمِنْحة عند من لحَقّه فى آستحقاقها إيجاب ، فلمَحَلّه آقترانٌ بالآقتراب ، ولفعله إنجازٌ لوعُود الصُّعود وإنجاب ، ولفَيض الله تعالىٰ عليه من القَبُول أبهىٰ جِلْباب ، وله سَبْق ولاءٍ لمُلْكنا بعد جفاء فيه السنين والأحْقاب ، وصِدْقُ وُدٍّ ماضاع لدينا ولا خاب ، وقِدَمُ هجْرة كَمْ لها فى تأييد الدِّين آنتصار وآنتصاب ، وتعَدُّدُ مناقبَ هى فى الإشراق والرِّفعة كالنُّجوم وفى الكثْرة عَدَد الرمل والحَصىٰ والتُّراب ، فما دَعاه سلطانُنا إلا آستجاب ، ولا آستوْعاه سِرَّه إلا غدَا به يُصان ولايُصاب ، ولا آستنطقْنا قلمه إلا كفىٰ الخَطْب بأمْلح خِطاب ، ولا آستَثرْنا رأيَه إلا حضر الرُّشْدُ وما غاب ، فكَمْ فرّق للأعداء من كتيبة بكتاب ، وقرَّب من ظَفَر والسيفُ فى القِراب ، فبدَعواته يُستَنْزَل من النَّعماء أهْمَرُ سَحاب ، وببركاته جاء نصرُ الله والفتحُ وكان كيدُ الكافرين فى تَباب ، وبأقلامه إنعامنا يَهَبُ وآنتقامنا يَهاب ، فهى على الممالك أمنعُ سِياج ، ولها فى مسالك الخير

(١) بياض بالأصل ولعله فأحسن فى ترتيبه الخ .

أبدَعُ منهاج، وللدولة به و بولده استغْناء و إليهما آحْتياج، فكم ضَمّنَا دُرَر كلامِهما الأدراج، وأطْلعا زُهْر أقلامهما من المَهارِق فى أبْراج، وكم واصلتْ فى ليل النِّقْس السُّرىٰ والإدْلاج، حتى أبدَتْ صَباح النجاح ذا آبْتِلاج، فلا عَجَب أن كان للنِّعم إليهما معادٌ ومعَاج، ولِضيق الخطب عند باعهما الرَّحْب فُسحةٌ وآنْفِراج .

ولما كان المجلس العالى المُحْيَوىّ هو أسْرىٰ من تَلَقّىٰ إليه الأسرار، وتَبَقّىٰ منه عند أحْرىٰ الأحرار، فكم لها صانَ أينَ صار، وكم لخواطرنا الشريفة من أفعاله سارّ حيثُ سار، وكم له من كَرَمنا دارٌ فى كل دارٍ، فمِنّا لقُربه إيثار، ولأثْنيتنا عليه إكْثار، ولنا بفضائله إقْرار، يُوجب للنِّعم عندَه الإقرار - آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُعيد إليه مَنْصِبَه، ونَزِيد لدَيْه المَوْهِبه، ونجعلَ وُجودَ تفضيله لدولتنا أعظمَ مَزِيّة ومنْقَبه، ونَراه أجلّ كُفْء لآستجلاء عقائلِ الأسرار المحجَّبه، وإن كان لنزاهته لايَخْطُبها فهى لوَجاهته ترغَبُ أن تخْطُبَه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ الفلانىّ - لا بَرِح بفضل الله يحيي الدِّين، و بتأييده يَبِين أنّه الحقُّ المبين، و بتَسْديده يُصيب عينَ الصواب فى التعيين - أن نفوّض للمشار إليه صحَابةَ دِيوان الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة شرّفها الله وعظّمها : علىٰ أجمل عوائده، وأ كمل قواعِده، وأحسن حالاته فى حُسْن مقاصده، ونُفوذ ما يُبلِّغه من رسائل عَدْلنا فى مصادرِ كل أمر ومواردِه، وليستقرّ بآسمه من المعلوم كذا وكذا .

فلْيتلَقّ منصِبَه المباركَ بأمَل فى كَرَمنا مبْسوط، ورتبتَه التى يحمى حِماها ويَحُوط، مُمْضيًا للهِمّات والمَراسم، مبْقيا من يُمْن آثاره ما تَضْحىٰ به ثغور الثُّغور بَواسم، مُعيدا لمن عنده من كُتّابنا أوقاتَ الأُنْس فأيّامُهم [به] كلُّها مَواسم، وبها لهم من الخيْرات

أجزلُ المَقاسم ، وقد وَفَّروا دواعيَهم إلى الخدمة إذ وَفَّر على نفقتهم دَواعِيَه ، وهو لسانُ الدولة وهم أذُنُ صونٍ لما يُلقيه إليهم واعِيَه ، فحقّ لهم إلى وِداده أن يجنَحُوا ، وبإسعاده أن يَنجَحُوا ، وعن وَلائه لن يبرَحُوا : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ، فلسَرِير المُلك به سُرور ، وللدولةِ من أشِعَّة إيابه وطَلعة شِهابه نُورٌ على نور ، وبهما عمادُ الشرف الأعلى مرفوعٌ وبيتُ الفضل الأوفى معْمُور ، وهو وَبْل هذا الغيث الغَمْر وشِبْل هذا الليث الهَصُور ، طالما هَزم الصُّفوفَ من كُتُبنا بالسُّطور ، وجَهَّز بُرُدا سِرُّها بالصون مكتُوم وعَلَمُها بالنصر مَنْشور ، وهو كنز الفضائلِ وكَتَابَهُ الذَّهب شُذُور ، ومن هذه الأُسْرة العُمَرية بأُفُق العلياء نجومٌ وأهِلَّة وبُدُور ، وللنَّيِّر الأكبرِ إشراقٌ وأَتِلاقٌ وسُفُور ، وغيرُه بالوصايا المأمُور ، وسواه نُبَيِّن له قصدَ السبيل حتَّى لا يَضِلّ ولا يجُور ، ولانحتاجُ أن نُذَكِّره بما هو من علمه مَذْكور ، وفى صحائفه مسْطُور ، ولا نعلِّمه سَدَادا إذ هو عليه مجبُول ومفْطُور ، بل الهُدى منه ملتَمَسٌ ، ومقتفًى ومقتَبَس ، ومأْثُور ؛ وبحمد الله مافى حَزْمه قُصُور ، ولا فى عَزْمه فُتُور ، وهو بحرُ العِلْم المحيطُ وثَبِير الحِلْم الموفُور ، وليس التقديمُ له بمستغْرَب بل فضله المعروفُ المشهُور ؛ والله تعالى يَرْعى له فى خدمتنا عَهْدا قديما ، ويُبْقيه للدعاء مُواصلا ومُديما ، ويُوزِعُه شكرَ فضل اللهِ على ذلك ﴿ وكانَ فَضْلُ اللهِ عليْكَ عَظِيما ﴾ إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخةُ تقليد بكتابة السرّ ، كُتِب بها للقاضى شهاب الدّين بن فضل الله ، وهى :

الحمدُ للهِ على عنايةٍ حَفِظت مُلْكَنا الشريف بمعَقِّباتها ، وصانَتْه بصاحبِ تصريف تَقُوم كُتُبه وآراؤُه مَقامَ الكتائبِ ورَاياتها ، وسَنَّت لنا الخِيَرَةَ لمنْ نجتنى بقلمه النصر

من ثمراتها ، وبينت الحُسنىٰ فى طريقته المُثلىٰ حتى آنقسم الصُّبح من قَسماتها ، واقتُسم النُّجح من عاداتها ، وآتَّسم فكرُهُ بالنُّصح وقد ضلَّت الأفكارُ عن إصاباتها فظلَّتْ فى غَفَلاتها .

نحمدُه حمدًا يَهُبُّ مع الأنفاس فى هَبَّاتها ، ويَهَبُ من اللطائف الحِسَان أفضلَ هِبَاتها ، ويُنَبِّه القلوبَ لتقييد شَوارِد النِّعم بِصِدْق نِيَّاتها ، ويُنافِس الكرامَ الكاتبين علىٰ نفائس الثَّناء فى تسبيح لُغاتها بصَفيح سَمٰواتها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تملأ الصُّحفَ بحَسناتها ، وتُمَلِّي الوُجوهَ بالأنوار فى توجُّهاتها ، وتلُوح من سِماتها سِيمياءَ لا تَشُقُّ على الأبصار فى تَوسُّماتها ، وتفْخر برَقْمها الأقلامُ بأنه لا طَعْن فى آعتدال حَركاتها ، على الرِّماح فى آعتِدال قاماتها ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أدَّى الرسالةَ بما تحمَّله من أماناتها ، ورَعَى العهودَ لمن أخلَص فى مُراعاتها ، ودَعَا الأُمّةَ بإذْنِ الله إلىٰ سبِيلِ نَجاتها ، وآستأْمَن على الوَحْى كُتَّابًا سبقُوا فى السَّعادة إلىٰ غاياتها ، وبلَّغُوا عنه السُّنَّة بإباناتها والسُّورَ وآياتها ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه فُرْسان البلاغةِ ورُواتِها ، وحفظةِ الأَسْرار وثِقاتِها ، وصاغةِ المَعانى فى الألفاظ الغُرِّ بنَفثاتها ، وأُولى الأحلام التى لا تُطِيشُها وقائعُ الدهر برَوْعاتها ، ولا تُذْهِلُها عن الأَوْراد فى أوقاتِها ، وتَلَقِّ الوفُود بأقْواتها ، والأخلاقِ التى آتَّسع نِطاقُها فى تصرُّفاتها ، وآمتنع حِجابُها أن تتخطَّاه الخِدَعُ بهَفواتها ، صلاةً تَزِيدُ الأعمارَ بزكاتها ، وتُزيِّنُ الأعمالَ ببركاتها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّ المُلْك عمودٌ بِناؤُه بِسرِّه ، وآرتفاعُه بالتأسيس لمستَقَرِّه ، وآمتناعُه بعد العساكر المنصورة بكاتبٍ يُحاتِل العدُوَّ فى مكْرِه قبل مكْرِه ، ويقاتل فى الحَرْب

والسّلم بنفّاذ رأيه ونفّاث سحْره ، ويقابل كلّ حال بما يحسُن موقعُه من صَدْمه بصَدْره أو صَدّه بصَبْره ، وينظُر فى العواقِب نظر البصير بأمْره ، الواعى لاَحتيال عُذْره قبل آحتيالِ الباغى فى غَدْره ، إذا جادلَ فبالحُجّة البالغه ، وإذا جاوبَ أبطل الأهوالَ الزّائغه ، وإذا أمرْنا بالعدل والإحسان سيّرهُما عنّاً كالشمس البازغه ، وملأ بهما حُبّاً لنا القلوبَ الفارغه ، وقد جرّبْنا علىٰ طُول المَدىٰ كُتّابا ، وآنتخبْنا منهم كثيراً آرتضَيْناهم أصْحابا ، ومارَسْنا جماعةً آزددْنا بهم إعجابا ، ورأينا طوائِفَ فيهم مَنْ إنْ أجاد آجتناءً لزَهرات القول حادَ عن الجادّةِ آجتنابا ، وإن كلّف نفْسه مذاهبَ الكُتّاب أخلّ بمقاصد الملُوك إن كتَب عنهم كِتابا .

ولم نظْفَر بمن تمّت فيه الشروطُ المشرُوطه ، ومتّ بالدائرة المحيطةِ إلى الفضائل المبْسوطَه ، وآمتاز بفَهم لايُقْبِل على الفسادِ ولا يَقْبَل الأُغْلوطه ، إن أمليْناه إملاءً ذكَره ، وإن حُمْنا حولَ معنًى لا تؤدّى إليه العبارة فَسَره (١) ، وإن سرَدْنا عليه فصْلا مُطوّلا خَبَره ، وربما رأى المصلحةَ فى آختصاره فاختَصره ، وإن أودعْناه سرّاً ستَره ، وصانه بمحوِ غيْب أثَره ، وكتمه إمّا بخَطّه عن قلبه فلم يُدْرِكْه أو بقَلْبه عن لحْظه فلم يَرَه ، وإن خلّينا بينه وبينَ غرَض من أغراضنا الشريفةِ آستخرجَه كما فى خواطرنا وأظهَره ــ كالمجلس العالى ، القضائىّ ، الأجلىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، العلّامىّ ، القوامىّ ، النّظامىّ ، المدبّرىّ ، المُشيرىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوْحدىّ ، المُفَوّهىّ ، الخاشعىّ ، السفيرىّ ، الشّهابىّ : صلاحِ الإسلام والمسلمين ، سيّدِ الرؤساء فى العالَمين ، قُدوةِ العلماء العاملين ، إمامِ الفضلاء والمتكلّمين ، رئيس الأصحاب ، مَلاذِ الكُتّاب ، سفيرِ الأمّة ، عمادِ الملّة ، لسان السلطنة ، مدبّرِ الدُّول ، مشيّد الممالك ، مُشير الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين

(١) فى المصباح فسره من باب ضرب أوضحه و بينه والتثقيل مبالغة .

«أحمدَ بن فضلِ الله» ضاعف الله نعمتَه . فإنّا خطَبْناه لهذه الوظيفه، وآستخلَصْناه على كثرة المتعيِّنين لأنفُسنا الشريفه، وآمتحنّاه فى الأمور الجليلةِ واللطيفه، وحمّلْناه الأعباءَ الثقيلةَ والخفيفه، وأوقفْناه مرّةً وأخرى أطلقنا تَصْريفه، وأنعمْنا النظرَ فى حاله حتى تحقّقنا تثقيفَه، وكتَب وآستُكتِب عنا سِرًّا وجهْرا فملأ قلْبا وسَمْعا، وباشرَ مراسِمَنا العاليةَ مِصرًا وشامًا وصْلا وقطعا فعزَّ رفعةً وعَمَّ نَفْعا، وأنشأ التقاليدَ وقلّدها، ونَفّذ المُهمّاتِ وسَدّدها، ووَقّع التواقيعَ وأطلق بها وقد قيّدها، ومَشّى المصالحَ باحترازِ ما بدّدها وآحتراسِ ما عقّدها، وجهّز البُرُدَ بهِمّة ما قيّدها طلبُ الراحة ولا أقعَدَها. وهو كاتبُ مُلُوك، وصانِعُ سُلوك، وشارعُ سُلُوك، وصائغُ ذهبٍ مسْبُوك، وناسِجُ وَشْى محُوك، وجامعُ صفاتٍ ماسواها هو المتْروك؛ لا يَعْدُو بالكلمة محلّها، ولا يُؤاخى بالقرينة إلا شكْلَها، ولا يسمَح بمخاطبةٍ إلا لمن تعيّن لها، ولا يعاملُ بالغِلْظة إلا من آستوجبَها ولا يخُصّ بالحُسنىٰ إلا أهْلَها؛ نأمُره بالتهويل فيُزلزِل قواعدَ العَدُو، ونُشير إليه بالتهوين فيُفيد مع بقاء المَهابة الهُدُو؛ وقد رضيناه حقَّ الرضا، وأضرَبْنا به عمّن بقِىَ من أكابرِ الكُتّاب ونَسِينا من مضىٰ؛ وتعيّن علينا أن نحكمَ له بهذا الآعتبار ونحمِلَه علىٰ هذا المقْتضَىٰ، وأن نُطْلعه فى سَماء دَسْتنا الشريف شِهابًا أضا؛ وأن نقلّده مُهِمًّا مازال هو القائمَ بتنفيذ أشغالِه، والساعىَ بين أيدينا الشريفة فى تدبيرِ مقاصدِه وجملةِ أحواله؛ إلىٰ مالَه من بيْتٍ أثّلوا مجْده، وأثّروا سعْدَه، وأرّثوا عندنا وُدّه؛ وبنىٰ كما بنَوْا، وآجتنَىٰ من السُّؤدد ما آجتنَوْا، ورمىٰ فى خدمة الدُّوَل إلىٰ مارمَوْا، إلا أنّ مذْهبَه فى البيان أحلىٰ، وأسلوبَه أجلىٰ، وقيمةَ كلامه أغلىٰ، وقِدْحَه فى الكمال هو المُعَلَّى، وأدبُه بحمد الله قد لحظَتْه سعادةُ أيّامنا الزاهرةِ فما فيه لَوٌّ ولا لَوْلا؛ سوىٰ أنه آتّفق مُعارِضٌ آعترَض بين السَّهم والهَدَف، وسَفِه نفْسَه فوقَف فى مَواقف التَّلَف، ودَقّ عنه شأنُ كاتب السر فسَقَط من حيثُ

طمِعَ فى السُّقوط وما عَرَف ، ورام الدُّخولَ بينَ الملِك و بين يَدِه ، وبينَ اللّسان وما يُحدِّثه به الضميرُ من حقيقة معتَقَدِه ، والاِطلاعَ علىٰ ما لو لم يكن للإنسان لما أداره فى خَلَدِه ، والتعدّىَ بما ليس له من لَفْظـه متوقع ، وسرىٰ فى مَسْرًى لو طَمَح إليـه طَرْفُ السُّها لتقطَّع ، وما علم أنّ كاتب السر هو مستَوْدَع الخَبـايا ، ومستَطْلَع الخَفَايا ، وقلَمـه (ٱبنُ جَلا وطَلّاعُ الثَّنايَا) ، وفى ٱستِمْداده يُعْرَف بالمُـنَى ويُرْعَف بالمَنايا ، وله الكِتَابةُ والتوقيع ، والتصرّفُ فيما للتنفيـذ من التحسِـين والتَّنويع ، وغير ذلك من التفريق والتجْميع ، والتأصِـيل والتفْريع ، والترغيبِ والترهيب والتأْمين والتَّروِيع .

ولـما دَلَّ ذلك المعترِض بإكْبارِه ، وأطالَ المَطَارَ فى غير مَطَاره ، وقال الناس إنَّ أبوابَنا العاليةَ جَنّةٌ حُفَّت من سُوء أخلاقه بالمكارِه ، رمَيْنا به من شاهِق ، وأبعدْناه لآخرته أزهَدَ ما هَدَر من تلك الشقاشق ، وتقـدّمْنا بإنشاء هـذا التوقيع الشريف تقويةً لكاتب سِرِّنا الشريف فى تَصْريفـه ، وبيَّنّا أنه لا يُقاس به أحدٌ فإنّه لسان السلطان ويَدُه وكفىٰ بذٰلك دلالةً علىٰ تشريفه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ـ لازال إذا عَزَم صَمَّم ، وإذا بَدَأ المعروف تَمَّم ، وإذا ٱستخار الله فى شىء رَضِى بخِيرَته وسَلَّم ـ أن يـستَقِلّ المجلس العالى ، القَضَائىّ ، الشِّهابىّ « أحمدُ بنُ فضل الله » المشارُ إليه بصَحَابة دَواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلاميّة المحروسة : رفيقًا لأبيه المجلس العالى ، القضائىّ ، المُحْيَوىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه و بركتـه فى المباشَره ، وشريكًا بل منفَرِدا ليقوم معه ودُونَه بمـا قام به من كتَابة باطنة وظاهِرَه ، ٱستَقَلَّ كلٌّ منهما بها فيما بَعُد وقَرُب ممـا يضُمُّه نطاقُ الدولة القاهِرَه ، مع ماهو مستقِرٌّ فيه من كتابة

السر الشريف ، والتصرف فى المهمّات الشريفة والتصريف ؛ وهو المنفَرِد بتقديم البريد وعَرْضه ، ومباشرة خَتْمه وفَضّــه ، وقراءته بين أيدينا ، وآستخراج مراسيمنا الشريفة فى كل مَنَاب ، ومُشافَهة وخِطَاب ، وآبتــداء وجَواب ، ومَلَطَّف ومكبَّر ، ومقَدَّم ومؤخَّر ، ومكمَّل ومشطَّر ؛ وإليه أمرُ البَرِيد والقُصَّاد والنَّجَّابه ، ومن آشتَمل من الدُّجىٰ جِلْبــابَه ، أو ألقتْه إلىٰ مُلاءة الصَّباح المنشورة يَدُ ليــلةٍ مُنْجابه ؛ وتعيينُ مَنْ يَرىٰ تعيينه منهم فى المهمّات الشريفة السلطانيّه ، والمصالح المقدّسةِ الإسلاميّه ؛ وإليه الحمــامُ الرسائلِىّ وترجيته ، وزَجّالتُه ومَدْرجتُه ؛ ومن يصل من رُسُل الملوك إلىٰ أبوابنا العاليــة ، وجميعُ من يُكاتِب الدولةَ الشريفة من كل منتَسِب وغريب ، وبعيد وقريب ؛ وقراءةُ القِصَص لدينــا ، والكِتَابةُ علىٰ ما يَسُوغ كِتَابةُ مثله ، وأخذُ العلامة الشريفةِ من يَدِه .

وأما من تَستكتِبُهم عنّــا فى ممــالكنا الشريفة فهو المقلَّد لأعبائهـــم ، والمخَلِّى بينه وبين ما يراه فى آجتبائهـــم ؛ يستكتِبُ كلَّ أحد فيما يراه ، ويرفَعُ بعضَهم فوقَ بعض درجاتٍ منهم مستيقِظٌ ومنهم نائم فى غَمَراتِ كَرَاه ؛ كلُّ هذا من غير معارَضَةٍ له فيه ، ولا آعتراض عليه فى شىء منه ؛ يبلِّغنا مهمَّاتِنا الشريفةَ ويتلقَّ عنا ، ومنه إلينا وإليه منّــا .

وأما ما يَرِد عليه من الرسائل عنّا بمــا يُكْتَب به فيمَشِّى منــه مالا يمكن وقُوفه ، ويراجعنا فيما لا يكون إلا بعد مراجَعتِنا تصريفُه ؛ فليَمْشِ علىٰ هذه القــاعده ، وليستَقِلَّ بهذه الوظيفة آستقلالا هو كالخبر محَلّ الفائده ، ولينشُر من إقبالنا الشريف عليه بالصِّلات العائده ؛ ونحن نختَصِر [له] الوصايا لانّه الذى يُمْلِيها ، ونقتَصِر منها على التقوى فإنهــا الذخيرة النافعــة لمن يُعانيها ، والباقيــةُ الصالحة خيرٌ لمن يقتفيها ؛

والله تعالىٰ يقوّى أسبابَه ، ويُنير شِهابَه ، ويَزيد من المعالى آكتسابه ، ويُغْنينا بقلمه عن سِنانٍ يتقدّم عامِلَهُ ، وبلسانه عن سيفٍ يُفارِق قرابَه ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

وهذه نسخة تقليد بعَوْد القاضى شِهاب الدّين بن فضل الله إلىٰ كتابة السر . من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف ، وهى :

الحمدُ لله الذى أحمَدَ العُقْبىٰ بفضله ، وأكّد النُّعْمىٰ بوَصْله ، وأودَع سِرّ مُلْكِنا الشريف عند أهْله ، وأطْلع شِهابَ الدين من أُفُق العلياء فى محلّ شرفه وشَرَف محلّه ، ورفع قَدْره فى سيْره إلىٰ بُروج السُّعود وحُلُوله بدرجات الصُّعود وتَقلُّبه ، وأرجَع المَوْهِبةَ منه إلىٰ مَنْ يشكُرها بقوله وفِعْله ، وأينع الفرْعَ الزاكِى الذى يحيا أصلُه بواكِف سحاب كَرَمنا ووَبْله ، وأتمّ النّعمة عليه كما أتمّها علىٰ أبوَيْه من قبْله ، وضمّ له أطرافَ الرياسة وجمع شَمْلها بشَمْله ، وعمّ بفضلِه وفضلِنا أهلَ هذا البيت الذين فُطِروا على السُّؤدَد وبَصُروا من رِضانا باتّباع سُبُله .

نحمده علىٰ إضفاء ظِلّه ، ونشكُره علىٰ إصْفاء نَهَله ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لاشريكَ له شهادةً أشرق نورُ هُداها ، بمستَدِلّه ، وأغدقَ نَوْءُ نَداها ، بمستَهِلّه ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أرسله خاتمَ رُسْله ، وجعلَ له الفضلَ على الخلق كُلّه ، وألهم به سُبُل هديه وسَنَن عَدْله ، وأرشدَه إلىٰ فَرْض دينه ونَفْله ، وأوْدعه السّرّ الذى لم يُودَعْه سواه وحمّله من أعباءِ الرِّسالة ما لم يَنْهَض غيرُه بحَمْله ؛ صلىَّ الله عليه وعلىٰ آله أغصانِ الشجرة الزّهْراء التى هى بَضْعةٌ منه ونَبْعة من أصْله ، ورضى الله

عن أصحابه الذين أجلّهم من أجله ، خصوصا مَنْ بادر إلى الإيمان فخُصَّ من السَّبق بخَصْله ، ومَنْ أيّد به الدينَ وفرَّ الشيطانُ من ظلّه ، ومَنْ جهّز جيش العُسْرة حتّى غزا العدا بخَيْله ورَجْله ، ومَن كان بابَ مدينة العلم ومانحَ جَزْله وفاتحَ قُفْله ؛ وعن بقيّة المهاجرين والأنصار الذين ما منهم إلا مَنْ جاهد حتّى قام الدينُ بنَصْره ونَصْله ، صلاةً دائمةً يجعلها اللسان أهمَّ شُغُله ، ويتلقّى قادمَها في مواطن القَبول بأكرم نُزُله ، ما رَمىٰ قوسُ العزم بصائب نَبْله ، وحَمىٰ حِمىٰ الملك بلَيْثه وشِبْله ، وفوض أجلّ المناصب إلى فاضل العصر وأجلّه .

أما بعـدُ ، فإنَّ آراءنا لا تزالُ لمصالح مُراعِيَه ، ولا تبرحُ بالإسعاد إلى الأولياء ساعِيه ، فتدعُو إلى مقامها من وَفَر على الإخلاص دواعِيَه ، وتُدْنِي من مُلْكها مَنْ له بالخَفَايا أعظمُ بصـيرةٍ وفي جميل القضَايا أجملُ طواعِيَـه ، وتُلْقِي أسرارَها إلى مَنْ له لسانُ حقٍّ ناطقٌ وأُذُنُ خيرٍ واعِيَه ، وتُقدّمُ مَنْ له قدمُ صِدْقٍ ثابتةٌ ويدٌ بيضاءُ طُولىٰ في المهمّات عاليـه ، لتغدُوَ سِهامُ أقلامه إلى الأغراض راميـه ، وصوائبُ أفكاره عن حِمىٰ المُلْك محامِيَه ، وتكونَ عبارتُه للمقاصـد مُوفِيةً وإشارتُه لمَوْعد اليُمْن مُوافِيه ، وتُضْحِي دِيَمُ نِعَمنا الواكفةُ لسوابق خِدَمه مُكافِيه ؛ لما يتّصل بذلك من المَصالح ، وتُناجِي خواطِرُنا الشريفةُ به المَناجِح ، ويقْبِل عليه وجهُ الإقبال ، في كل حال ، ويَغْدو إليه طَرْفُ الإجلال ، وهو طامِح ؛ فنجمّل به ممالكَنا مِصْرا وشاما ، ونُسَدّد به مَرْمًى ونُصيب مَراما ، ونحفَظ له ولأبيه في خدمتنا حقًّا وذِمَاما ، ونكونُ له في الحـالتين بِرًّا وإكراما ، ونُعلي محلّه إعلانا بعُلُوِّ مكانه وإعلاما ؛ فيُؤلِّف للرياسـة نِظاما ، ويُضاعف للرُّتبة إعظاما ، ويُعمِل يَراعًا بل حُسَاما ، ويَجلو وجهَ المُنىٰ طَلْقًا ويبدو بعـدَ البِشر بَسَّاما ، ويُحْسِن بأعباء المهمّات قِياما ؛ وحيث نقلتْـه أوطانُه هِضابَ المجدوقَلّته ، وأينَ وجَّهته أعلتْ قدْره ونوّهته ؛ وكلمـا أوفدَته أفاضتْ عليـه مَلْبَس

العزّ وجدّدته، وآختصّته بالتصرف وأفردته، وآنتضت ماضى آجتهاده وجرّدته، وأجرته من إجراء فضلها على ما عوّدته، وآستقلّت له منائحها من كثير المواهب ماخوّلته، ومن كبير المناصب ماقلّدته.

ولما كان فلان هو الذى أُودع الأسرارَ لحفظها، وآطّلع على الدقائق فرعاها ببصيرته ولحظها، وباشر مهمّاتنا فأمضاها، وسرّ خواطرنا وأرضاها، وظهرت منه بين أيدينا كفايةٌ لا تُضاهى، وقلّد أجيادَ أوليائنا من تقاليده عُقُودا، وأدنى من المقاصد بلُطف عبارته بعيدا، وأغنى الدولةَ أن تجهّز جيشا وجهّز بريدا، وأبان بمقاله عمّا فى أنفسنا فلم يُبق مزيدا، وصان الأسرارَ فجعلَ لها فى خَلَده خُلُودا، وجمع أشتاتَ المحاسن فأضحى فريدا، كم لعمّه فى خدمتنا من هجرة قديمه، ولأبيه من موالاة هى للمُخالصة مواصلةٌ ومُديمه، وكم لهما أسبابٌ فى الرياسة قويّة وطرائق فى الهداية قويمه، وكم كاتبٍ يسّر الله بهُداهما تعليمه وتفهيمه، وقدّر على يديهما وصولَه إلى رُتَب العَلياء وتقديمه، فمنفعتُهما عميمه، ونبعتهما صَميمه، ولهما فى الشام ومصر أجملُ شيمه، وكم له هو أيضا من تقدّمات آقتضتْ تكريمَه، وكفايةٍ عند علومنا الشريفة معلومه، وكتابةٍ حُلَلُ المَهارق بوشيها مرقومه، فلو قابله الفاضلُ «عبدُ الرحيم» لبادَر إلى فضله إقرارَه وتسليمَه، أو «عبدُ الحميد» لكانت مناهجُه الحميدةُ بالنسبة إلى مذاهبه ذَميمه، أو سمع «عبدُ الرحمن» مقاله لضمّن ألفاظه معانيَه العقيمه، أو أدركه «قُدامةُ» لعرف تقديمه، وآقتدى بسُبُله المستقيمه، أو حوى «الجوهرىّ» فرائد ألفاظه لعرَف أنّ صحاحه إذا قُرنت بها سَقيمه، أو رأى «آبنُ العَديم» خطّه لآستغنت منه بسلاسل الذّهب نفسُه العَديمه، أو «الولىّ» لآستجدى من صَوب إجادته أغزرَ ديمه، أو نظره «آبنُ مُقلةَ» لوجدتْ مُقلتُه نُضرةَ خطّه ونعيمه،

أو «ٱبْنُ البوّاب» لكان خَدِينَ بابه وخديمَه ، فهم صدُورٌ صُدُورهم سليمه ، وأماثِلُ معدودةٌ وأمثالهم معْدُومه .

ٱقتضى حسنُ رأينا الشريف أن نُلقى إليه منصباً هو أَوْلىٰ به ، وتُقرّ عينَه بدُنُوّه منّا وٱقْتِرابِه ، ونمتّع البصر والسمع بخطّه وخِطابِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ، العالى ، المولَوِىّ ، السلطانىّ ، الملَكىّ ، الفلانىّ ـ لا بَرِح يُعيد نعمَه كما بَدَأها أوّلَ مرّه ، ويَسُرُّ القلوبَ بكافٍ أَوْدَعه سِرّه ، ويحمَد لأحمدِ الأولياءِ عوْدَه ومستقرّه ـ (١) .

فلْيتلقَّ هذه النّعمة بشُكْرِها وليترقَّ منصبا رفيعا يناسِب رِفْعة قدْره ، وليبْسُط قلَمه فى تنفيذ مُهِمِّ الممالك من نَهْيه وأمره ، وليحفَظْ ماأُودِعَه من خَفِىِّ سِرّه ، وليُلاحظ المهمَّاتِ بفكره ، وليحافِظ علىٰ مايَعْرِفه من رضانا طُولَ دَهْره ، ونحن نعلَمُ من صوابِ أفعاله وتسديدِها ، ما لا نحتاجُ معه إلىٰ تكثير الوصايا وتعْديدِها ، ولا إلىٰ تكْريرها وترديدِها ، لاسيمَّا وقد سلفَتْ له بها خِبْرة لا نَفتقِر إلى ٱستيعابِ ذِكْراها ولا إلىٰ تجْديدها ، وتقدّمتْ له مباشرةٌ ٱستبشَرْنا بيمُونها وأثنينا علىٰ حميدِها ، وٱستَدْنَيْنا سَناها وٱستغنينا عن سِواها بوجُودها ، وله بحمد الله توفُّر التوفيق ، وهو الحقيق بما فوّضنا إليه على التحقِيق ، وفضْلُه من الشوائبِ عرِىٌّ وفى المجانبين عريق ، وقدْره بتجديد النِّعم جدير و بخلال الكَرَم خلِيق ، والله تعالىٰ يُوضِّح به من الخير أَبْيَنَ طريق ، ويُسُرُّ بمَقْدمه الولىَّ والصديق ، ويَفْرُق به بينَ الحقّ والباطل بحدّه الفاروقُ وهو من أكرم فَرِيق ، بمحمد وآله ! .

(١) حذف المرسوم به اختصارا فى الكتابة واتكالا على فهمه من نظائره المتقدّمة فهو ملحوظ له ومراد .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمدُ لله الذى أظهر لتدبير دولتنا شِهَابا يعلو علىٰ فَرْقَد الفَراقد، وكمّل به عقُودَ الممالك فسَمَتْ جواهرُ فرائدها علىٰ الدّرارىّ إذ كان واسطةَ تلك الفَرائد، ومُعيد إحساننا إلىٰ خَيْر ولىّ أغنىٰ تدبيرُه عمّن سواه فكان بالألْف ذٰلك الواحد، ومُخوِّل موادّ كرمنا لمن هو صدر أسرارنا ويمينُ مملكتنا فى كلّ صادرٍ عنها ووارِد، ومنقّل الأكفاء إلىٰ مراتب سعودهم فتُصبح ألويةُ محامدهم فى معاقل العزّ أفخرَ معاقد، ومُحلّى مُلكنا الشريف بأكمل كافٍ ما أمّ مصرا إلا تلقّته بالهناء ولا فارقَ شاما إلا أسِفَتْ عليه تلك الربوعُ والمعاهِد .

نحمده علىٰ نِعَم أقرّتْ عُيونَ الأولياء لمّا أقرّتْهم من موادّ جُودنا علىٰ أكمل القَواعد، ونشكره علىٰ ما بلّغنا من جميل المآرب وبلُوغ المقاصِد، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لاشريك له شهادة تُنجّى قائلَها من جميع الشدائد، ونشهد أنّ سيد[نا محمدا سيد] البَشَر عبده ورسولُه الذى جاد بهدايته فكان أكرمَ جائد، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحابته خصوصًا علىٰ أوّل الخلَفاء أبى بكر الصدّيق الذى لا فخرَ كفخَاره، وعلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب حاملِ أسرارِه وفاتح أمصارِه، وعلىٰ أمير المؤمنين عثمانَ بن عفّانَ مُبَدّل عُسْره بيَسَاره، وعلىٰ ابن عمّه علىّ بن أبى طالب أعزّ نُسَبائه وأخصّ أصهاره، وعلىٰ بقيّة مهاجِريه وأنصاره، صلاةً سَهْلة المَشَارع عَذْبةَ المَوارد .

وبعد فإنّ من سجيّتنا إذا تيمّنّا بولىّ لا نزال نلحظُه ، ونرْعىٰ حقُوق خدمه فى القُرْب والبُعْد ونَحفظُه، ونُقابل ماأسلفه لدينا بنفائس النّعم، ونُفيض عليه مَلابِس الجُود والكرم ؛ لا سيّما من لم يزل يُظْهِر لنا كلّ يوم تعبُّدا جديدا، ومن أصبح

فى الفَصاحة والبَلاغة وَحِيدا ، ومن جمع أطرافَ السؤدد والرياسة فلم يَبْرَح بهما فريدا ؛ ومن تَحْسُن النعم بإفاضتها عليه ، وتَكْمُلُ المِنَنُ بإضافة محاسِنها إليه ؛ وتزهو فرائدُ البلاغة بانتظامها فى سِلْك مَجْده ، وتُشْرِق كواكبُ البَراعة فى اتّساقها فى فَلَك سَعْده ؛ وكان لِلبابَتِه فى الاختصاص بنا اليدُ الطُّولىٰ ، وتَلا عليه لسانُ اعتنائنا فى الحالين : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ .

ولَمّا كنتَ أيُّها الصدرُ «شهابُ الدين» أحقَّ الناس بهذا المَنْصِب لما لِوالِدك - أبقاه الله تعالىٰ - ولِعَمِّك - رحمه الله تعالىٰ - من الحُقُوق ، ولما أسلَفاه من الخِدَم التى لا يحسُن التناسِى لها ولا العُقُوق ؛ ولأنك جمعتَ فى المجد بَيْنَ طارِفٍ وتالِد ، ووُفِّقت بأزكىٰ نَفَر وعَمٍّ وإخوةٍ ووالِد ؛ وجلالَةٌ ، ما وَرِثْتها عن كَلالة ؛ وخِلال ، مالها فى السِّيادة من إخْلال ؛ ومَفَاخر ، تُكاثِر البحرَ الزّاخر ؛ ومآثِر ، يَعْجِزُ عن وصفها الناظمُ والناثر ؛ ولما نعلَمه من فضائلك التى لا تُجْحَد ، رعيناك فى عَوْدك لوظيفتك وعودُ « أحمدَ » أحْمَد .

ولما كان فلانٌ هو الذى تَقْطُر[(1)] الفَصاحةُ من أعطاف قَلَمه ، وتَخْطِر البلاغةُ فى أثواب حكَمه ؛ وتنزِل المعانى الممتنعةُ من مَعاقل القَرائح علىٰ حُكْمه ، وتقِف جِيادُ البَداهة المتَسَرِّعة حَيْرىٰ قبل التوسُّط فى علْمه ؛ إن وَشّى الطِّرْس فرِياض ، أو أجرىٰ النِّقْس فحِياض ؛ أو نَظَم فقلائد ، أو نَثَر ففرائد . لا يتجاسَرُ المعنىٰ المطرُوقُ أن يُلِمَّ بفِكره ، ولا يُقْدِم المعنىٰ المتخيَّلُ المسبوقُ لمرور بذِكْره ؛ ولا يجوزُ زَيْف الكلام علىٰ ذِهْنه المتَّقِد ، ولا يَثْبُت غُثاء الكلام لدىٰ خاطره المنتقِد ؛ فـ«عبدُ الحميد»

---

(١) هذه عبارة أخرى تكتب بدل الأولى ولا يجمع بينهما أى فالكاتب مخير فى تصدير مقاله بإحداهما كما لا يخفى .

كـ«عَبْد الرحيم» فى العَجْز عن لَحَاق علُومه التى يجد «الراغبُ» علىٰ نُورها هُـدىً ، والأصمعىُّ لو أدركه لتـلا عليه : ﴿هَـلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّـا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ «والطُّغرائىّ» لو عاصره لزاد نظْمَه وٱزداد علىٰ نُوره هدىً ، و«الحريرىّ» لو رافقه لأَمِن فى "مَقاماته" من التَّجْرِيح والرَّدىٰ ؛ قد قَصَّرتْ عن غاية كماله جيادُ القرائح ، وعَجَزت عن وصْف صفاتِه جميع المَدَائح ؛ وشَرُف منصِـبُه بٱنتسابه إليه ، ورُفِع قدرُه بمثُوله لديْه ؛ مع ما تميَّز به من نَزاهةٍ صَرَف بها عن الدنيا طَرْفه ، وزَهادةٍ زانَتْ بالسَّعْد صَدْرَه ومَلاءةٍ ملأَتْ بالعِفَّة كفَّه ؛ فهو واحدُ زمانه ، وأوحدُ أوانه ؛ والبحرُ الذى يُحدَّث عن فضـله ولا حَرَج ، والروضُ الذى يُنْقَل عن فضله إلى الأَسْمـاع أطيَبُ الأَرَج ؛ وكان قد مال عن منصِـبِه وهو يذْكُره ، وفارقَه وهو يَشْكُره ، ونادىٰ غيره و بقوله يلَبِّى ، وشُـغل بغيره وهو يقول حَسْـبِى « شهابُ الدين » حَسْـبِى : ﴿فَلَمَّـا رءَاه مستَقِرًّا عِنْدَهُ قال هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى﴾ . فلما حَصَل له الاِستئناس ، وزال عنـه القَلَق والاِلتباس ، قال : ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْـلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاس﴾ - ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُخصَّـه بٱستقرار رُتْبَته لديْه ، وأن نستمرّ به علىٰ وظيفته السنيةِ ٱستمرارَ السُّعود المقبلِ عليه .

فرُسِم بالأمر الشريف - لا زال شِهابُ سـعده لامعا ، وسَحابُ كرمه هامعا ، ومُطاعُ أمره لمصالح الدِّين والدنيا جامعًا ؛ - لمَنَاقبه(١) التى وَفَرت مَيَامنها ، وأسفَرت بوصْف آثاره الحسنةِ كوامنُها ، وأن يُعادَ إليها كما يُعادُ السِّوارُ إلىٰ الزَّنْد ، أوكما يعود نسيمُ الصَّـبا إلىٰ الرَّنْد . فلْيُؤْنِسْ منصبًا كان إليه مشتاقا ، ومجلسًا كانَ منتظرًا أن يَزُرّ من ملابس جلاله علىٰ عُنقه أطْواقا ؛ وليجَمِّل هالَةً كانت مُتشوِّقَةً إلىٰ عقُود دُرره . فٱحمَد الله علىٰ ما خصصْناك به من مَزِيد الاعتناء ، وأن السـعادةَ فى أيّامنا الشريفة

(١) المراد أن يستقر فى كذا لمناقبه ... ... وأن يعاد .

متصلةٌ فتشمَل الآباءَ والأبناء ، ويكْفيك بهذا التوقيع الشريف إذ بلغتَ به جميعَ الأمانِي ، وتوّجْناه بيمِيننا الشريفَة لقرب عَهْدها بمصافحةِ الرُّكن اليماني ، وآصطفيناك بقلمٍ عَظُم شأناً بتلك السُّتُور ، وغدا معْموراً بالهداية ببركة البيت المعْمُور ، وآزداد بمشافَهة الحرم الشريف نُوراً علىٰ نُور . فليُحْسن نظرَه المبارَكَ فى ذلك كلّه ، وليُبْدِ ما يحسُنُ فى هذه الوظيفة من مثْله ، وفى تقدُّم مباشرته فى هذه الوظيفة وعلْمِه ما يُغْني عن كثْرة الوصايا ، ومِلاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى أكمل المَزايا ؛ وليُحْمِدْ أفعالَه ويصِلْ أسبابَ آعتمادِه بسببها ؛ والله تعالىٰ يُجَمِّل له مواهبَ تخْويله ، ويجعل له الخيرَ فى تنقُّله وتحْويله ؛ والخطُّ الشريف أعلاه ، حجّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمد لله الذى جعل خَواطرَ أوليائنا بإقرار نِعَمنا مستقِرّه ، ومَواطرَ آلائنا علىٰ ذَوى الإخلاص فى ولائنا دائمةَ الدِّيَم مستمِرّه ، وبشائرَ رضانا تجدّد لكلٍّ من ذَوى الآختصاص آبتهاجَه وبِشْرَه ، وسوافرَ أوجه إقبالنا لأُولى الآصطفاء والوفاءِ مُشْرِقة الأوضاح متهلِّلَةَ الأسِرَّه ، مُودِعِ أسرار مُلْكنا الشريف من آل «فَضْل الله» عند أكرم أُسْره ، ومُمتّع دولتنا بخير كافٍ دَقّق فى مصالحنا فِكَره ، وأنفق فى مناجحنا عمره ، ومُجْمِع آرائنا علىٰ أعلىٰ علىٍّ حلَّ من بَهْر بيْته بمعرفه وبَهرَ خيْرَه ، ومُطْلِع أنجمهم بأُفُقِ تقريبنا مرّةً بعد مرّه ، فنحيي نيرهم الأكبر وقد شيّدْنا بإرتقائهم بيتَه وشدَدْنا بعلائهم أزْرَه .

نحمده علىٰ أنْ جبَل سجَايانا ، علىٰ الإحسان والمَبرّه ، ونشكره علىٰ أنْ أجزل عطايانا ، لمن لم يزلْ يَعرِف حقَّه ويألف خيْرَه ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له

شهادةً تشْرَح لمُؤْمنها صدْره ، وتُصلِح لمُوقِنها أمْرَه ، ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أسمىٰ علىٰ الخلائق قَدْرَه ، وتولّى فى المَضايِق نَصْره ، وأعلىٰ فى المَشارق والمَغارِب ذِكْره ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله أعزِّ عِتْره ، ورضى الله عن أصحابه الذين أسْدَوُا المِنّة وسَدُّوا الثُّغْره ، صلاةً ورضوانا متواصلَيْنِ فى كلّ أصيل ومكرَّرين فى كلّ بُكْره ، ما وُهِب فضلُ الله مستحِقًّا فسَرَّ بالعواطف والعَوارف سِرَّه ، وعقَّب فى سماء الإسعاد كوكبٌ كوكبًا فحَلَّ محلَّه وقرّ مَقرّه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ فشِيَمُنا ترعىٰ لأوليائها حُقُوقا ، ونِعمُنا الغامرةُ تُسْنِى صدَقاتِها لمن لم يزَلْ فى وَلائها صَدُوقا ، وتَزِيد هِباتِها توفيرًا لمن عَهِدتْ منه لمَراضيها توفيقا ، وتُجدِّد بتعاهدها معْهَدَ الفضل فلا يُمسِى خليًّا بل يُضْحِى بإكرامها خليقا ، وتشَيِّد بإحسانها بيتا أُسِّس علىٰ تقوىٰ الله وطاعةِ سلطانها فغدَا بالحِفْظ حقيقا ، وتحمِى بأعتنائها جوانِبَه من الغِيَر فلا يَرهَب حِماه لها طُرُوقا ، ولا تجِدُ بفضل الله لها عليه طَرِيقا ، وتُطْلِعُ فى بروج سُعودها زُهرا تَرُوق شُروقا ، وتجمَع علىٰ مُهِمَّاتها مَن عَظُموا فضْلا وكَرُموا فرِيقا ، وتُودِع أسرارَها عند سَراتِهم رُكُونًا إليهم وسُكونا ورضًا بهم ووُثُوقا ، وتشفَعُ منائحَها بمنائحَ تَزِيدُ آمالَهم نجاحا وتُفِيد أمانِيَّهم تحقيقا ، وترفَعُ مكانًا عليًّا إلىٰ حيث آتّسع السِّرار من مُلْكها من كان بالمَيامن مَلِيًّا وفى المحاسن عَرِيقا ، ويَخلُف فى خِدَمها شقِيق منهم شَقِيقا ، ويُصَرِّف أوامرَها ونواهِيَها من أعيانهم من تأمَن المصالحُ مع آجتهاده ، تفويتًا وتخافُ الأعداءُ لسداده ، تعويقا ، طالمَا آئتمنّاهم علىٰ إيداع أسرارِنا فلَّت من سرائرهم مستَوْدَعا وثيقا ، وعُنُوا للمَعالى فصادفَتْ طويّتُنا من يَقظتِهم ونهضتِهم تَصْدِيقا ، فهمْ أوْلىٰ أن نجعل لأجيادهم بعُقُود جُودنا تطوِيقا ، وأحقُّ أن نرفع بنِعَمنا محلَّهم ، ونجمعَ فى خِدْمتنا شمْلَهم ، فلا يخشَوْن نقْضًا ولا تفْرِيقا .

ولما كان المجلس العالى الفلانى هو الذى لحظته عنايتنا، فعلا فعلا، وأيقظته إشارتنا، فغدا فى الحكم كهلا، وحفظته رعايتنا، فعمرت بيته العمرى الذى مازال بالعوارف ملموحًا وللقبول أهلا، وأحظته سعادتنا، فى إقامته مقام أبيه فى حفظ أسرارنا التى هو أحق بإيداعها وأولىٰ ـ آقتضى حسن الرأى الشريف أن نجرى بمراسمنا أقلامه، ونوفر من إنعامنا أقسامه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا برحت سحائبه عامه، ومواهبه لها مزيد وإدامه، ورعايته إذا آبتدأت فضلا رأت إتمامه، وكواكبه تسير فى منازل عزها ولنيرها الأكبر الإرشاد والإمامه ـ أن يفوض إليه كذا وكذا، علىٰ أجمل العوائد، وأكمل القواعد، نظير ما كان مستقرًا لأخيه .

فليباشر هذه الوظيفة التى لها به وبأهله أعظم فخار، وليحل هذه الرتبة التى ما منهم إلا من لها يجتبىٰ ويستخار، وليجمل هذا المنصب الذى إليهم مصيره فى جميع الأمصار، وليحل المهارق بإنشا آته التى شان مطاولها عن شأوها الإقصار، وليتوقل هذه الهضبة التى لها علىٰ عليائهم آقتصار، وفى آبائهم وأبنائهم لها تعين وآنحصار، وليدبج الطروس من خطه بالوشى الرقيم، وليبهج النفوس من خطابه بالدر النظيم، وليسرج الشموس من أوضاع كتابته التى تبرز من إبريز كنوزها «آبن العديم»، وليجهز البرد التى تقدمها مهابتنا فلم يكتبها من كتائب الأعداء هزيم، وليزين مقاصدها التى قرن بها الفتح القريب والنصر العزيز والفضل العظيم؛ وهو بحمد الله غنى عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم، علىٰ القدر لا يحتاج مع ألمعيته إلىٰ تنبيه ولا إلىٰ تعليم؛ وهم أئمة هذه الصناعة ولهم الفضل القديم، وسبيلهم السوى وصراطهم القويم؛ والله تعالىٰ يوفر لهم فضلنا العميم، ويظفر أقدارهم من لدنا

بتكرير التكريم، ويُسْنِى أمرَهم فى آفاق العلياء يُسعِدُ ويُقْعِد ويُقيم، ويديمُ لكلٍّ منهم فى ظلِّ نعمِنا المزيدَ والتأكيدَ والتقديم؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه وصيةٌ لكاتب السرّ، أوردها فى "التعريف" وهى :

وليأمُرْ عنّا بما يُقابَل بالامتثال، ويقال به : السيوفُ لأقلامه مِثال؛ ويَبلُغ [من] ملوكِ العدا مالاتبلُغه الأسِنّه، ولاتصِل إليه المراكبُ المُشْرَعة القلوعِ والخيولُ المطلَقةُ الأعِنّه؛ وليُوقّعْ عنّا بما تَذْهَب الأيامُ ويبقىٰ، ويُخلّدُ من الحسنات ما يُلقىٰ آخرةً ويُلقىٰ؛ ويُملِ من لَدُنْه من غُرَر الإنشاء مايُطرِّز كلَّ تقليد، وتُلقىٰ إليه المقاليد؛ ولينفِّذْ من المهِمّات ماتُحجب دُونَه الرِّماح، وتُحجِم عن مجاراة خَيل البريد بِه الرِّياح؛ وليتلقَّ مايَرِد إلينا من أخبار الممالك علىٰ آتّساع أطرافها، وما تضُمُّه مُلاءة النَّهار مِلْءَ أطرافها، وليُحْسِن لدَينا عَرْضَها، وليؤدِّ بأدائها واجبَ الخدمة وليُتِمّ فرضَها؛ وليُجبْ عنّا بما آستخرج فيه مراسِمَنا المُطاعه، وبما وُكِل إلىٰ رأيه فسمِع له الصوابُ وأطاعَهْ؛ وليُمْضِ ما يَصْدُر عنّا مما يجُوبُ الآفاق، ويزكُو على الإنفاق، ويجُول ما بينَ مِصْرَ والعِراق، ويطيرُ به الحمام الرسائِلىُّ وتجرى الخيلُ العِتَاق؛ وليُرِ النوّابَ ما أبْهِم عليهم بما يُريهم من ضَوْءِ آرائنا، وليؤكِّد عندهم أسبابَ الوَلاء بما يُوالِى إليهم من عَميمِ آلائنا؛ وليأمُرِ الوُلاةَ بما يقِف به كلٌّ منهم عندَ حَدِّه ولا يتجاوَزُه فى عمله، ولا يقِف بعده علىٰ سواه بأمَله؛ وليتولَّ تجهيزَ البَريد، وآستِطْلاعَ كلِّ خبرٍ قريبٍ وبعيد؛ والنَّجّابة وما تَسير فيه من المصالح، وتأخُذ منه بأطراف الأحاديثِ إذا سالتْ منه بأعناق المَطِىّ الأباطح؛ وأمورَ النُّصحاء والقُصّاد،

ومن يَظَلّ سِرُّهم عنده إلى صَخْرة أعيا الرجالَ انصداعُها وهُمْ شتّى فى البِلاد؛ وليعرف حقوقَ ذوى الخِدْمة منهم، وأهلِ النصيحةِ الذين رضى الله عنهم، ولا يَنْس عوائدَهم من رُسوم إحساننا الموظَّف، وكرمنا الذى يَسْتَميلُ به القلوبَ ويتألَّف؛ وليصُنِ السرَّ بجُهْده وهيهات أن يختفى، وليحجُبْهُ حتى عن مِسْمَعَيْه فسرُّ الثلاثة غير الخفى؛ والكشَّافةَ الذين هم ربيئة النظر، وجلّابة كل خَبَر؛ ومن هم أسرَعُ طروقا من الطيف، وأدخَلُ فى نُحور الأعداء من ذُبابِ السَّيْف؛ وهم أهلُ الرِّباط للخيل، وما منهم إلا من هو مُقْبِل ومُدْرِك كالليل؛ والدَّيادِبُ والنَّظّاره، ومن يَعلمُ به العِلْمَ اليقينَ إذا رفَع دُخانه أو ناره؛ وهم فى جنباتٍ حيثُ لا يخفى لأحد منهم مَنار، ولا يزال كلُّ نبإ بتنويرهم كأنه جبَل فى رأسه نار؛ والحمامَ الرسائلَ وما يحمِل من بَطائقَ، ويتحمَّل من الأنباء ما ليس سواه [له] بطائق؛ ويخوضُ من قطع الأنهار، ويقطع إلينا ما بَعُد مسافةَ شهر وأكثرَ منه فى ساعةٍ من نَهار؛ ويعزِم السُّرى لا يَلْوِى على الرِّباع، ويعلم أنها من ملائكةِ النصر لأنها رُسُل ولها أجنحةٌ مَثْنىٰ وثُلاث ورُباع؛ وغير هذا مما هو به معْذوق، وإليه تُحْدىٰ به النُّوق؛ من رُسُل الملوك الوارده، وطوائف المستأمَنين الوافده؛ وكلُّ هؤلاء [هو لآ] مالهم المترَجِم، والمصرِّح عن حالهم المُجَمْجِم؛ فليعامِلْهم بالكرامه؛ وليُوسِعْ لهم من راتب المُضَيِّف ما يحبب إليهم فى أبوابنا العاليةِ الإقامه؛ وليعلَمْ أنه هو لدَيْنا المستشارُ المؤتمَن، والسفيرُ الذى كلُّ أحدٍ بسفارته مرتهِن؛ وهو إذا كتب بَنانُنا، وإذا نطق لسانُنا؛ وإذا خاطب مَلِكا بعيدَ المَدىٰ عُنوانُنا، وإذا سدد رأيَه فى نُحور الأعداء سهمُنا المرسَلُ وسِنانُنا؛ فليُنْزِل نفسَه مكانها، ولينظر لدَيْنا رتبتَه العليَّة إذا رأى مثل النجوم عِيانَها.

فليراقِب اللهَ فى هذه الرتبه، وليتوقَّ لدينه فإنَّ الله لا يَضيع عنده مثقالُ حبَّه، وليخَفْ سُوءَ الحساب وليتق الله ربَّه؛ وجماعة الكُتّاب بديوان الإنشاء بالممالك

الإسلامية هم على الحقيقة رعيّتُه ، وهداهم بما تُمِدّهم به من الآلاء ألمعِيتُه ؛ فلا تستكتِبْ إلا من لا تجِدُ عليه عاتِبا ، ولا يجِدُ إلا إذا قعَد بين يدَيْه كاتِبا ، والوصايا منه تُسْتملىٰ .

الطبقة الثانيــــــة

(من أرباب الوظائف الديوانيــة بالحضرة الســلطانية أصحابُ التواقيــع ، وهم علىٰ ثلاث درجات)

الدرجـــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«ـالمجلس العالى» وكلُّها مفتَتَحة بـ«ـالحمدُ لله»)

وتشتمل علىٰ ثلاثِ وظائفَ سوىٰ ماتقدّم أنه نقل إلىٰ رتبة التقاليد، وهو كتابة السرّ

الوظيفـــة الأولىٰ

(نظرُ الخاصّ)

وقد تقـدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّها وظيفة محـدَثةٌ ، أحدثها السلطانُ الملك الناصر « محمدُ بن قلاوون » حينَ أبطل الوِزارةَ ، وأنَّ أصل موضوعها التحدّثُ فيا هو خاصٌّ بمـال السلطان ، وأنّ صاحبها صار كالوزير لقُرْبه من السلطان وتصرُّفه فى تدبير جُملةِ الأمور ، وتعيينِ المباشرين ، إلا أنّه لا يقدر علىٰ الاستقلال بأمر ، بل لابدّ له من مراجَعة السلطان . وقد تقدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام علىٰ مقدّمة الولايات من هذا الفصل ، وعلىٰ طُرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهـذه نسخة توقيع بنظر الخاصّ ، كُتِب به للقاضى شمسِ الدين مُوسىٰ بن عبد الوهّاب فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى :

الحمدُ لله الذى جعـل كلَّ جُرْح بنـا يُوسىٰ، وعجَّل كلَّ نعمة تُبدِّل بُوسا، وتغيِّر بالسُّرور من المَساءة لَبُوسا .

نحمَدُه حمْـدا يشْرَح صدُورا ويسرّ نفُوسا ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً ترفَع لقائليها رُءوسا ، وتُطلِـع فى آفاق ممالِكنا الشريفة شُموسا ، وتُنْشِئ فى أيَّامنا الزاهرة غُرُوسا ، ونشهد أن محمَّدا عبدُه ورسوله الذى بَشَّر به مُوسىٰ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً تملأ طُرُوسا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن العمل بالسنَّة أَوْلىٰ ما يَتمسك به المتمسِّك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ٱبْدَأْ بنَفْسِك» ؛ وكانت الخواصُّ الشريفةُ هى المصلحةُ الخاصَّةُ بنا، المتعلِّقةُ دُونَ كل شىء بأنفُسنا ؛ لأن من خزائنها العالية تتفرّقُ مَواهِبُنا الشريفةُ فى الوجُود، وتُحلِّى مَعاطِف الأمراء والجُنُود ؛ وكان فيها مَن لم يزَلْ هو وبَنُوه قائمين بها أحسن قيام، [و]فيها من ممـالكنا الشريفةِ مايُضاهى بمَدَده الغَمام ؛ مَنْ حضَر منهم لايـتَفَقَّد معه مَنْ غاب ، ومن كتب منهم فى شىءٍ من مصالحها قال الذى عِنْده عِلْمٌ من الكتاب ؛ كم أجرتْ صدَقاتُنا الشريفةُ بأقلامهم من إنعام، وتقسَّموا فى مصالحنا الشريفة هذا فى الخاص وهذا فى العَامّ ؛ طالمـا ٱنقطع والدُهم رحمه الله تعالىٰ بعُذْر فمَشَّوا الأمور علىٰ أكمل سَـدَاد ، وأجملِ ٱعتِياد ، وأتمّ مالو حضَر أبُوهم وكان هو المتولِّىَ لمـا زاد ؛ فمـا خلَتْ فى وقتٍ منه ، أو من أحد منهم لَمَّـا غاب مَنْ بقِىَ يسُـدّ عنه ؛ فلم يزل منهم ربعُها مأنُوسا ، ولا سُئِل فيها عن قصَّة إلا وأنبأت بها صُحُفُ إبراهيم ومُوسىٰ .

وكان المجلس العالى فلان هو الذى تفرّد آخِرًا بهذه الوظيفه ، وٱستقَلّ فيهـا بين أيْدينا الشريفه ، وسافر فيهـا إلىٰ ثغْر الإسكندرية ــ حرسها الله تعالىٰ ــ فأفترّ بيُمْن تصرُّفه ، وحسن تعفُّفه ، وعدم فيها المضاهىَ لأنه لاشىءَ يُضاهى الشمسَ إذا حلَّ

سِرُّها فى مَنازِل شَرَفه ، كَم كفَتْ له كِفَايه ، وبدَتْ بِدايه ، وكم بلَغ من غايَهْ ؛ كَمْ له من هِمَم ، وكَمْ تقدمتْ له قَدَم ، وكَم اعترف السيفُ ببزِّ القَلَم ؛ كَم له فى خِدْمة المقامات العالِية أولادِنا أثَرٌ جميل ، وفعلٌ جَلِيّ جليل ، وسلُوكٌ فلا يُحتاج فى الشمس إلىٰ دليـل ؛ كم أحسَنَ فى مَرَّه ، كم رددْناه إلىٰ الكرك كَرَّه ؛ كم غَلَب علىٰ السحاب فرقىٰ إليهـا ، وبلَغ النُّجومَ وله قُـدُوم عليها ؛ فلمـا انتقل والدُه القاضى تاجُ الدين عبدُ الوهاب إلىٰ رحـمة الله تعالىٰ ، احتاج إلىٰ توقيع شريف بالاستقلال فى وظيفة نظر الخاصّ الشريف التى خلَتْ عن أبيه ؛ ليعلم كلُّ متطاوِل إليها أنه لا يَصل إليهـا مع وُجود بَنِيه ؛ فمـا عادَ إلا وعادَ بعين العِناية محرُوسا ، ولا أقبـلَ علىٰ كرمنا إلا قالَ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَىٰ ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ زاد الله شرَفَه ، ومكَّن فى الأرض تصَرُّفَه ــ أن يفوّض إليـه نظرُ الخاصّ الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة ، علىٰ عادةِ والده رحمه الله فى هذه الوظيفه ، وقاعدتِه فى رُتْبتها المُنيفه ؛ ليقضىَ ما كانَ فى خاطرِ أبيه من الوَطَر ، ولأنه فى أمثالِه عينُ الأعيانِ والعينُ أَوْلىٰ بالنظَر .

فليُباشر ماأنعمَتْ به صدَقاتُنا العميمةُ عليه علىٰ ماعُهِد [منه] بالأمس ، وعُرِف به من حُسْن السلوك كمن يَمْشِى فى ضَوء الشمس ؛ وليقـدّم تقوى الله والأمانةَ فهما أفضـلُ مايُقدّم ، وأجملُ مايَعمَل به من تقدّم ؛ والنهضةَ فإنهـا هى التى تقُوم بها المصالح ، والتصدّىَ لمـا هو بصَـدَده فإن به يتمّ كلُّ عمـل صالح ؛ وليَحتفظْ علىٰ الخزائن العالية ، وليكُنْ فيها كواحد من رُفْقته عملا بالعادة [فيها] ، وإلا فنحن نعلَم من كفايته [أنه] يكفيها ، وليُثمِّر الجهات التى إليه مرجعُها ، والأموالَ التى يدُوم إليه من العين تطلُّعها ؛ وليستجْلِبْ خواطرَ التُّجَّار بإيصال حقُوقهم إليهم ، والقائمين فى خدْمة

أبوابنا الشريفة بتعجيل ما تُنعِم به صدقاتُنا الشريفةُ عليهم ؛ وليكُنْ إلىٰ ما تبرُز به مراسمنا الشريفة مُسَارِعا ، ولها فى كلّ ما أشكَل عليه من الأمور مُراجِعا ؛ وبقيّة هذا من كلّ ما يَحتاجُ أن نُوصِيه بتعلّمه فقد عُلِم مما جرتْ به عادتُنا الشريفةُ بأن نقولَهُ فى مثله ، ولهذا نختصر فى الوصايَا التى تُشْرَح آكتفاءً بما آتاه الله بنا من فضله ؛ والله تعالىٰ يأخُذ به إلىٰ النّجاح ، ويفتَح له بنا أحسَنَ الآفتِتاح ؛ والآعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص :

الحمدُ لله الذى جعل خَواصَّ النِّعَم لمُلْكنا الشريف لأجلِّها ، ونفائِسَ الذخائرِ من دولتنا القاهرة بمَحلِّها ، وأخايرَ المَفاخرِ مبسوطا فى أيّامنا ظِلُّها .

نَحمَدُهُ بمَحامِدِه التى لا نَملُّها ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً أشرَقَ مستَهَلُّها ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى خُتِمت به أنبياؤُها ورُسُلُها ، وبعثه الله للأرحام يَبُلُّها ، وللأولياءِ يُجِلُّها ، وللأعداء يُذِلُّها ، ولسُيوف النصر من الغُمود يَسُلُّها ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ماشُدّ علىٰ مطِيّةٍ رَحْلُها ، ووَلِيَ المراتِبَ أهلُها ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ خزائنَ مُلْكنا الشريف مستَوْدَعُ كلِّ ثَمِين ، وممالكَنا المعظّمةَ لاتُعْدَق إلّا بالثِّقة الأمين ؛ ومتاجِرَ خواصّنا الشريفة لا يُثمِّرها إلا مَنْ رأيُه يعضُد قلَمه فى اليمين ، والمَتْجر المحروس لا يقُوم بنَماءِ محصُوله إلا مَنْ له حَزْمٌ سديدٌ وعَزْمٌ متين ؛ ونَظَر الخواصّ هو الذِّروة العالية فمُرتَقيها علىٰ كل ما يعترضه مُعين .

ولما كان فلان هو المختارَ على يقين، والمخطوبَ لهذا المنْصب ليزيده فى التحسين والتحصين ، والذى إن نَظَر فى القليل عاد كثيرا بالألوف والمئين، فإنْ دبَّر تدبيرا حُفِظ وحُرِس وصين، وضبط فى حُسْن الاعتماد بَلَغ إلى الصين، وإن توجَّه إلى الثغر المحروس تفجَّر له عن أمواله الجمَّه ، وأخرجَ له من فاخر الحُلَل ما حَسَّن راقمُه رَقْمَه، وصدَر عنه إلى أبوابنا الشريفة بالتُّحف المُثْمنه، والحُمول التى أوقرت السُّفُن فى النِّيل، والإبلَ فى السبيل، فأزال الغُمَّه ، وأنارَ الأمورَ المُدْلهِمَّه، ونشر ما طواه لدينا فشكَرْنا له ما تقدم به مما أتمَّه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ... ... فليُباشِرْ هذا المنصبَ الكريمَ بتدبيرٍ يُصْلح الفاسد، ويُنَفِّق الكاسد، ويَكْبِت الحاسد ، ويُكَثِّر الأموال ، ويُسْعِد الأحوال ، ويُثَمِّر الذَّخائر، ويَسُرّ السَّرائر، ويُوَفِّر حاصلَ الجواهر، ويُكَثِّر التُّحَف من كل صِنْف فاخر، ويُوفى المهمَّاتِ الشريفةَ حقَّها فى الأوّل والآخر، ويَنْشُر التشاريف كالأزاهر . وليُختَرِ الأُمناءَ الثِّقات، وليُحَرِّر كلٌّ منهم الميقات ، وليَبِعْ لخاصِّنا الشريف ويَشْتَرِ بالأرباح فى سائر الأوقات ؛ وليَتلقَّ تجارَ الكارمِ الواردين من عَدَن ، باستجلاب الخواطر وبَسْطِ المِنَن ، ونَشْرِ المَعْدَلة عليهم ليَجدُوا من اليُمْن ما لم يَجِدُوه فى اليَمَن ؛ وكذلك تجار الجهة الغربيَّة الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليُحْسِنْ لهم الوِفَاده، وليُعامِلْهم بالمعدلة المستفاده، فإنَّ مكاسبَ الثغر منهم ومنَ الله الحُسْنىٰ وزياده . والوصايا كثيرةٌ وهو غَنِيٌّ عن الإعاده ، و [ملاكها] تقوىٰ الله فليَقْتفِ رَشادَه ، وليُصْلِح مآبَه ومَعادَه ، ولا يتدنَّس بأقذار هذه الدنيا فإنها جَمْرة وَقَّادَه ، والله تعالى يحرُس إرفاقَه وإرفادَه، بمنّه وكرمه ! : بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثـانيـــــة
(نظر الجيش)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضوعها التحدّثُ فى الإقطاعات بمِصْرَ والشام، والكتابةُ بالكَشْف عنها، ومشاوَرةُ السلطان عليها، وأخْذُ خطّه . وقد تقـدّم ذكْرُ ألقابه فى جملة الألقاب فى الكلام علىٰ مقدّمات الوِلايات من هذا الفصل، وتقدّم ذكْرُ ما يُكتَب فى طرّة تقليده فى الكلام علىٰ التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمـدُ لله الذى عَدَق[1] بالأكْفاء مصالحَ الجُنود ، وصرّف أقلامَهم فيما نُقْطعه من الجُود، واَجتبىٰ لمراتب السيادة من تحمدُه الأقلامُ فى العطايا البِيض والسّـيوفُ فى الخُطوب السُّود .

نحمَـدُه وهو المحمُود، ونشكُره شكرا مُشْرِقَ الميَـامِن والسُّعود، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَذْبَةَ الوُرُود ، يجِـدُ المخلِص بركتَها يومَ العَرْض ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُود﴾ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أضحَتْ به جيوشُ الإسـلام منشُورةَ الألْوية والبُنُود ، منصورةَ السَّرايا فى التَّهـائِم والنُّجود، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه ما أورَقَ عُود، وأُولِجَ نَهارُ السيوف فى لَيْل الغُمُود، وسلّم تسليما .

وبعـد ، فإنّ أجلّ رُتَب هذه الدولة الشريفة مُرْتَقىٰ، وأجملَها منتَقىٰ ، وأكرَمَها هادِياً حَلَّ بعِقْد السّـيادة مَفْرِقا، رتبةٌ حكّمنـا مرتقِيَها فى أرزاق الجُيوش الذين هم حُماةُ الدين وأنصارُه ، ولهم رَواحُ الظَّفَر وآبتكارُه، ولهـذا لايَحْظىٰ بتسنُّمها إلا من عَلَا مِقْدارا ، وشكرتِ الدولةُ الشريفـةُ له آثارًا ، وجيّبتْ عليـه السعادةُ أثوابَها ،

(١) (عدق) جمع .

وأوكفتْ عليه سحابَها، وأنزلته ساحتَها ورِحابَها؛ وغدتْ لأحاديثِ عَلْيائه تَرْوى، وحمدِه الميسورِ والمنْشورِ والمطْوِى .

ولما كان فلان هو الذى نَمتْ مآثِرُه، وكَرُمت مفاخِرُه، وآستوتْ على العَلْياء مَظاهِرُه؛ وشُكِر آستبصارُه وحِياطتُه، وكَمُل سلوكُه منهجَ الفَخَار وجادّته؛ وأحصَى الجُنود عددا، وإن كاثَرُوا النجومَ مددا؛ وأحاط بالأرض المُقْطَعه، فلم تكنْ نواحيها عنه ممتنعه؛ ولم يُغادِرْ منها شيئا إلا أحصاه، وآتَّبع سببَ مَراضينا حتّى بلَغ أقصاه؛ فالعلم يُثْنِى عليه والعَلَم ، والحربُ والسِّلْم يشكرانِه لمناسبة نظرِه القرطاسَ والقلَمَ ــ آقتضى حسنُ الرأى الشريف أن نرقّيه هَضْبةً ساميةَ العُلَى[1]، فاخرةَ الحِلَى؛ ومنبَعَ أرزاق أئمة الفضل وأبطالها، ورتبةً شهِد منالُها بعدَمِ مِثالها .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هذه الوظيفةَ المباركه، وليُحلَّ ذَراها الأسْمَى، وليجمل آطّلاعَه على الجيوش المنصورة حتّى لا يُغادِرَ منها آسما؛ لتغْدُوَ مصالحُها وَرِيقةَ الغِراس باسقه، وعقُودُها نفيسةَ الفرائد متناسقه؛ وليُجْرِ نظرَه المبارك فيما صَرَّفناه فيه، آخذًا بيُمْنِ السَّداد من فعله وحُسْنِ التنفيذ مِنْ فيه؛ مُلْزِما مَنْ تحت نظَره بإتقان ماهمْ بصدَده من العُروض والأمثله، حتّى تغدُوَ لديه ممثّله؛ مُحرِّرا للإقطاعات وعِلْم خَفَاياها فيما نَهَبُه ونُقْطعه، ونصله ونَقْطَعُه؛ والمقايَضات وإن آختلفت، والإفراجات وإن آكتنفَتْ، والمَغَلَّات الآتية والأُخْرَى التى سلَفَتْ؛ وما يخصُّ المتَّصل، من فعل المنفصِل؛ والمتحصل والعِبْره، والخاص والعُدّة لذوى الإمره؛ ومنها مصرى لاغِنَى عن تحريرِه، وشامىّ يفتقر إلى الإتقان فى قليله وكثيره؛ ولينظُرْ فيمن له جامكيّة أو إقطاع مُجْزَل، وكلاهما فى دولتنا سِماك : هذا رامحٌ وهذا أعزَل .

[1] ١

هذه وصايا جَمّة ، وأنت غنيٌّ عن أن يستقصِيَ القلمُ ذكرَها أو يُتِمَّه ؛ والله تعالىٰ يجمِّل به رُتَبَه ، ويبلِّغه أربَه ، ويرفع عليه لواءَ المجد وعَذَبه ؛ بعد العلامة الشريفة أعلاها الله تعالىٰ أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمدُ لله الذى أعزَّ الجيوشَ المنصوره ، وجزَّ أعناقَ العِدَا بالسُّيوف المشهوره ، وهزَّ ألويةَ التأييدِ المنشُوره ، وجعل الجحافِل مُشْرِفةً وأجنِحتَها خافقةً وساقتَها مُحدِقةً وقلوبَها مسْروره .

نحمده بمَحامده المذكوره ، ونشهَد أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مأثُوره ، موصولةً غيرَ مهجُوره ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أبطل من الشيطانِ غُرُورَه ، وصان للإسلام حَوْزَتَه وثُغُوره ، وسنَّ لأمَّته الآستخارةَ والمَشُوره ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نورت من الليل دَيْجُوره ، وكَثَّرتْ لقائلها أُجُورَه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أحوال جُيوشنا يتعيَّن حُسْنُ النظر فى أمْرها ، والقيامُ بموادّ نَصْرها ، وإسعافُها بناظر يحرّر جهات أرزاقِها ، ويضبِطُها مخافةَ آفتراقِها ، ويأمُر بنَظْم جرائد أسمائهم وآتفاقِها ؛ ويُتقِن الحِلىٰ ، ويبيِّن يومَ العَرْض محلَّه فى آرتقاء العُلىٰ ؛ ويصُون المحاسَباتِ لكل منفَصِل ومتَّصِل من الخَلَل ، ويُسْرِع فى الدخول والخُروج مايَصل به لكلٍّ حقُّه عند آستحقاقِ الأجَل .

ولما كان فلان هو الممدُوحَ بألسِنة الأقلام ، والرئيسَ بينَ الأنام ، والمشكورَ بين أرباب السُّيوف وذَوِى الأقلام ، والمأمونَ فيما يُعْدَق به من مَهام ؛ والعزيزَ المثَال ،

والسائرَ تجدُه الأمثال، والمنشورَ فضلُه فى كل منشُور، والظاهرَ أثرُه تجريده[(١)] فى الديوان المعمور، والذى شكرته المملكةُ الشريفة فهو من صُدُورها فى الصُّدُور.

فلذلك رسم ... ...[(٢)] فليباشِرْ نظرَ هذا المنصِب السعيد بأمانةٍ تحفَظُ أرزاقَ العساكر، وتجلُو الظَّلامَ العاكر، وليُحرِّر جرائدَ التجريد، وليصُنِ العُدَّةَ الكاملةَ من التَّبْديد، ولتكن أوراقُ البياكر نُصْبَ عينيه حتَّى إذا طُلِبت منه أحضَرها محرَّره، وإذا وقع فيهم حركة كانت أقلامُه غير مقصِّره؛ وليرغَبْ فى اقتناء الثناء حتَّى يُصْبح عنده منه جملةٌ من الألُوف، وليكن للأمانةِ والنُّصْح نِعم الألُوف؛ وليتَّقِ الله مع أصحاب السُّـيوف، وليستجْلِب خواطِرَ أرباب الصُّفوف، وليجعـلْ له برًّا فى كل أرض يطوف؛ وتقوى الله فهى السبيلُ المعروف، فلْيَنْعَمْ بجنَّتها الدانيةِ القُطوف، وليلْبَسْ بُرُدتَها الضافيةَ السُّجوف، والله تعالىٰ يُنجِّيه من المَخُوف، بمنِّه وكرمه!.

✣

وهذه وصية ناظر جيش أوردها فى "التعريف" قال:

وليأخُذْ أمرَ هذا الديوان بكُلِّيته، ويستحضِرْ كلَّ مسمًّى فيه إذا دُعِى باسمه وقُوبِل عليه بحِلْيته؛ وليَقُمْ [فيه] قياما بغَيْره لم يُرضَ، وليُقدِّم من يجب تقديمُه فى العَرْض؛ وليَقِفْ علىٰ معالم هذه المُباشره، وجرائد جُنودِنا وما تضحى له من الأعلام ناشِره؛ وليقتصِدْ فى كل مُحاسَـبه، ويحرِّزْها علىٰ ما يجب أو ما قارَبَه وناسَـبه، وليستصحْ أمرَ كلِّ ميت تأتِى إليه من ديوان المَواريث الحَشْرِيَّةِ ورقةُ وفاته، أو يخبِره به مقدَّمه أو نقيبُه إذا مات معه فى البِيكار عند مُوافاته؛ وليحرِّر ما تضمنتْه الكشُوف،

(١) لعله والظاهر أثره وتحريره الخ.

(٢) بياض بالاصل ومراده بالأمر الشريف الخ.

ويحقّق ما يقابل به من إخراج كلّ حال علىٰ ما هو معروف، حتى إذا سُئل عن أمر كان عنه لم يخف ، وإذا كَشَف علىٰ كَشْف أظهر ما هو عليه ولا يُنكَر هذا لأهل الكَشْف؛ وليحترزْ فى أمر كل مَرْبَعه، وما فيها من الجهات المُقْطَعه؛ وكلّ منشور يُكتب، ومثالٍ عليه جميعُ الأمر يترتّب؛ وما يَثْبُت عنده وينزل فى تعليقه، ويُرجع فيه إلىٰ تحقيقه ؛ وليعلم أنّ وراءَه من ديوان الاستيفاء من يُساوقه فى تحرير كل إقطاع ، وفى كل زيادة وأقطاع ، وفى كل ما يُنْسَب إليه وإن كان إنما فعله بأمرنا المُطاع ؛ فليتبصَّرْ بمن وَراءَه ، وليتوقَّ آختلاق كلّ مبطل وآفتراءَه؛ وليتحقّق أنه هو المشار إليه دُون رُفْقته والمُوكَّل به النظر ، والمحقّق به جملةُ جندنا المنصور من البَدْو والحضَر . وإليه مَدارج الأمراء فيما تَنْزِل ، وأمرُ كلّ جنديّ له ممّن فارق أو نُزِّل ؛ وكذلك مُساوَقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشورِ أو على السِّياقه ، ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطَّليعة أو فى السّاقه . وطوائف العَرَب والتُّركمان والأكراد، ومَنْ عليهم تقدمةٌ أو يلزمهم رَوك بلاد، أوغير ذلك مما لايفوت إحصاؤه القلم، وأقْصاه أو أدْناه تحتَ كل لواءٍ يُنْشَر أو عَلَم؛ فلا يزال لهذا كله مستحضِرا، وعلىٰ خاطره مُحْضَرا ؛ لتكون لَفَتات نظرنا إليه دُونَ رُفْقته فى السؤال راجعه ، وحافظتُه الحاضرةُ غنيةٌ عن التّذْكار والمُراجَعَه .

الوظيفــة الثـالثة

(نظرُ الدواوين المعبَّرُ عنهـا بنظر الدَّوْلة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضوعَها التحدّثُ فى كل ما يتحدّثُ فيـه الوزيرُ، وأن كلّ ما كتَب فيه الوزيرُ « يُكْشَف » مثلا ، كَتَب فيـه « يُكْشَف عمّا رُسم به » ونحو ذلك . وتقـدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام

علىٰ مقدّمات الولايات من هـذا الفصل ، وتقدّم ذكرُ ما يُكتب فى طُرّة توقيعـه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين، كُتِب به لتاج الدِّين بن سعيد الدولة، وهى :

الحمـدُ لله الذى خصّ من أخلَص فى الطاعة من آلائنا بحُسْن النظر ، وأجْنىٰ من غَرَس فى قلْبه أصلَ الإيمـان من عَوَارف أيّامنا الزاهرة يانِعَ الثَّمَر ، ورفَع مَن آستضاءَ فى دولتنا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من حُجُول الرُّتَب إلىٰ مكان الغُرَر ، وأظهر لَوَامِعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ مَنْ أضاء له الرُّشْدُ فرآه بعين البَصيرة قبْل البَصَر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتنىٰ وأنفَـعُ ما يُدَّخر ، وأفضـلُ ما نجتْ به الفِرقة الموحِّدة وهلكتْ به الفِرق الأُخَر ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشَر ، وأرْأفُ البَدْو والحضَر ، والمبعوثُ إلىٰ الأُمم كافّةً لمـا قضاه الله تعالىٰ من سعادةِ من آمَنَ وشَقاوةِ مَنْ كفر ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المَيَامِين الغُرَر ، صلاةً دائمـةَ الوِرْد والصَّدَر ، باقيةَ العيْن والأثَر ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من خصَّه برُّنا بالنظر الحسَن ، وشَمِله كرَمُنا من الرُّتَب بما يُهْجَر فى بلوغ مثله الوَسَن ، وآشتمل عليه معروفُنا بمـا يجعل يَرَاعَه فى مصالح الدولة القاهرة جميلَ العِبارة حسَنَ اللَّسَن ، مَنْ سَمَتْ به نفْسُه إلىٰ سعادة الآخرة فأتتْه سعادةُ الدنيا تابعـه ، وسلَك فى مَرَاضى الدولة القـاهرة طريقَ الإخلاص فغـدَتْ لكلِّ خيرٍ حاويةً ولكُلِّ يُمْن جامِعَه ، مع كفاءةٍ جاءتِ المناصبَ علىٰ قَدَر ، ومعرفةٍ ما لحَظَتِ المَصالحَ بأقربِ نَظَر ، إلا نَمَّت الأموالَ وبدَرَتِ البِـدَر ، وخِبرةٍ ما آعتُـبِرت فيهـا محاسنُ سَـيرته فى كل ما يباشرُه إلا صَغّر خُبْرُها الخـبَر ، ونزاهةٍ سلكتْ به فى كل

ما يليه أحسنَ المَسالك، وعِفَّةٍ رفعتْه من الرتب الديوانيَّة إلىٰ مَفارِقها ولا رُتْبةَ للتَّاج إلا ذٰلك .

ولمَّا كان فلان هو الذى ٱجتَنىٰ من إحسان الدولةِ القاهرةِ بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفاز من عوارفِها العميمةِ بجميل الخُالَصة مازاد علىٰ المُنىٰ، وٱنتمىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهما أنفَسُ ما يُدَّخر للرُّتب الجليلة وأنفَسُ ما يُقتنىٰ، وغُنِى من أسباب ٱستحقاقه المناصبَ بما ٱقتضىٰ إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتَنىٰ .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّض إليه نظرُ الدواوين المعمُورة : فلْيُباشِرْ ذٰلك محلّيًا هذه الرتبةَ بعقود تصرُّفه الجميل، ومجلّيا فى هذه الحَلْبة بسبق معرفته الذى لا يَحتاجُ إلىٰ دليل، ومبيِّنا من نتائج قلَمه ما يُبَرْهِن علىٰ أنه موضعُ الاختيار، ومن كوامن ٱطّلاعه ما لا يَحتاجُ إلىٰ بُرهانٍ إلا إذا ٱحتاجَ إليه النَّهار، فلا يزالُ فرعُ يَراعه فى روض المصالح مُثمِرا، وليلُ نِقْسِه فى ليل الأعمال مُقمِرا، وحُسن نظره إلىٰ ماقرُب ونأىٰ من المصالح مُحدِقا، ولسانُ قلمه لما دَقَّ من أمور الأقاليم محقِّقا، ورسمُ خطِّه لما يستقرّ فى الدواوين المعمُورةِ مُثبِتا، ووَسْم تحريره لما يُجتنىٰ من غُروس المصالح مُنْبِتا، ولدَرّ أخلافِ الأعمالِ، بحُسْن ٱلاطِّلاع محتَلِبا، ولوجُوه الأموال، بٱتفاق التوجه إلىٰ تثميرها إن أقبلت مجتَلِيا وإن أعرضَتْ مجتَلِبا، فإنَّ الأمور معادنُ يستثيرُها التصرّفُ الجميل، ومناتٌ يُنَمِّيها النظر الجلىّ والإتقانُ الجليل، ومِلاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالىٰ فليجعلْها إمامَه، ويتخيَّلْها فى كلِّ حالٍ أمامه، والله تعالىٰ يوفّقه بمنه وكرمه! .

قلت : وربَّما أضيف إلىٰ نظر الدواوين المعمُورة نظرُ الصُّحبة الشريفة الآتى ذكرُها، وكُتِب بهما جميعا لشخص واحد .

وهـذه نسخة توقيع(١) بهما جميعاً، كُتِب بها لتاج الدِّين بن سـعيد الدولةِ علىٰ أَثَر إسلامه، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى، وهى :

الحمدُ لله الذى خصَّ مَنْ أخلصَ فى الطاعة من آلائنا بحُسْن النظَر، وأجنىٰ من غَرَس فى قلبه أصلَ الإيمانِ من عَوارف أيَّامنا الزاهرة يانِعَ الثمر، ورفَع من ٱستضاء فى دولتنا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من حُجُول الرُّتَب إلىٰ مكان الغُرَر، وأظهر لوامعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ من أضاء له الرُّشْد فرآه بعين البصيرة قبْل البَصر .

نحمَدُه علىٰ إحسانِه الذى غَمَر، وٱمتِنانه الذى بَهَر، وفضلِه الذى عَمَّ كلَّ من ظَهر له الهُدىٰ فلم يُعارِض الحقَّ إذا ظَهر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتَنىٰ وأنفَـع ما يُدَّخر، وأوضَحُ ما نجتْ به الفِرقةُ الموحِّدة وهَلَكت به الفِرقُ الأُخَر؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه و رسولُه أشرفُ البشر، وأرأفُ البَدْو والحضَر، والمبعوثُ إلىٰ الأمم كافَّةً لمـا قضاه الله من سَعادةٍ من آمنَ وشَقاوةِ من كفر؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الميامينِ الغُرَر، صلاةً دائمةَ الوِرْد والصدَر، باقيةَ العيْن والأثَر؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من خصَّه بِرُّنا بالنظر الحسَن، وشمِله كرَمُنا من الرُّتَب بمـا يُهْجِر فى بلوغ مثـلِه الوَسَن، وٱشتمَل عليـه معرُوفُنا بمـا يجمل يَراعه فى مَصـالح الدولةِ القاهرةِ جميـلَ العِبارة حَسَن اللَّسَن؛ مَن سمَتْ به نفْسـه إلىٰ سعادة الآخرة فأتته [سعادة] الدنيا تابعه، وسلك فى مَراضى الدولة القاهرةِ طريقَ الإخلاص فغدَتْ لكل خيْرٍ حاويةً ولكل يُمْن جامعه؛ مع كفاءةٍ جاءتِ المناصبَ علىٰ قدَر، ومعرفةٍ مالَحَظتِ المصالح بأقرَب نظرٍ إلاَّ نَمَّت الأموالَ وبدَرت البِدَر، وخِبْرةٍ ماٱعتبِرت فيها

(١) هى عين سابقتها خلا أن فيها ضم الصحبة مع تغيير يسير، فتنبه .

محاسنُ سَيْرته فى مباشرةِ الاصغَرِ خُبْرُها الخبَرَ، ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل مايليه أحسنَ المَسالك، وعفَّةٍ رفعتْه من الرتب الديوانية إلىٰ غُررها ولا رُتْبةَ لِلتّاج إلا ذلك .

ولما كان فلان هو الذى آجتَنىٰ من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفازَ من عَوارفِها العميمة بجميل المخالَصة مازادَ علىٰ المُنىٰ، وآنتمىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمالِ المعرفةِ والعِفّة وهما أنفَرُ ما يُدَّخر للرتب الجليلة وأنفَسُ ما يُقتنىٰ، وغُنِى من أسباب آستحقاقه المناصبَ والرتبَ بما آقتضى إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعْتنىٰ — فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف أن يفوِّض إليه نظر الدواوين المعمورة ونَظَر الصُّحبة الشريفةِ .

فليباشرْ ذٰلك محلِّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل، ومجلِّيًا فى هذه الحَلْبة بسَبْق معرفته التى لاتحتاج إلىٰ دَليل، ومبيِّنًا من نتائج قلمه مايُبرهِن علىٰ أنه موضعُ الآختيار، ومن كَوامنِ آطِّلاعه ما لايحتاج إلىٰ بُرهان إلا إذا آحتاجَ إليه النَّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يراعه فى روض المصالح مُثمِرا، وليلُ نِقْسه فى ليل الأعمال مُقْمِرا، وحُسنُ نظَره إلىٰ ماقرُب ونأىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قَلَمه لما دقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقِّقا، ورسمُ خطِّه لما يستقرُّ فى الدواوين المعمورة مُثبِتا، ووَسْم تحريره لما يجتنىٰ من غُروس المَصالح مُنْبِتا، ولدَرّ أخلافِ الأعمال، بحُسْن الآطِّلاع محتَلِبا، ولوجوه الأموال، بإنفاق التوجُّه إلىٰ تثميرها إن أقبلتْ مجتَلِيًا وإن أعرضَتْ مُختلِبا؛ فإنَّ الأمور معادنُ يَسْتَثْيرُها التصرفُ الجميل، ومنابتُ يُنَمِّيها النظرُ الجليُّ والإتقانُ الجليل؛ ومَلاكُ كلِّ أمرٍ تقوى الله تعالىٰ فليَجعلْها إمامَه، وليَتخيَّلْها فى كل وقتٍ أمامَه؛ والله تعالىٰ يوفِّقه بمنِّه وكرمه! . والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

الوظيفة الرابعـــــة
(نظر الصُّحبة)[1]

[وهـذه نسخة توقيع بنظر الصحبة] كُتِب به للشريف شهـاب الدين ناظر الصُّحْبة ، من إنشاء الشهاب محمود الحلبيّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل الشرَفَ حيثُ حلَّ ركابُنا مُصاحِبا ، وأطلَع للفضل فى أُفُق خدْمتِنا من أولياء دولتِنا شِهابًا ثاقِبا ، وعَدَق النظرَ فى صُحْبتنا بمَنْ لم يزَلْ لمصالحنا ملاحِظًا ولأوامرِنا مُراقِبا ، وفوّضَ أمورَ مباشرةِ حالِ من آجتهد أو قصَّر فى خدمتنا إلىٰ مَنْ لم يزَلْ بنفسه فى واجبِ الطاعةِ مُنافسا وعلىٰ فرض المُوالاةِ مُحاسِبا .

نحمَـدُه حمدَ مَنْ أجملَ فى أوليائنـا نظَرا ، وخَصَّ بالنظر فى صُحْبتنا من آختبرتْ خدمتُـه فتساوَتْ فى الطاعة والمناصحةِ سَفَرا وحضَرا ، وآعتمد فى ملاحظة مباشِرى مايمتز عليه من ممالكه علىٰ مَنْ لايُهْمِل له حقًّا ولا يُحْدِث له ضَرَرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتزال جيوشُنا لإعلاء منَارِها مُجَهِّزه ، وسرَايانَا إلىٰ مَقاتِل جاحِديها البارِزةِ مبَرِّزه ، ووُعودُ النصر علىٰ مَنْ ألحَدَ فيها لنـا معجَّلةً وعلىٰ أيدينا منَجَّزه ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أنهضَنا الله من جهاد أعداءِ دينه بمـا فَرَض ، وأيقظَنا لرفع أقدارِ أهل بيته فلم يُقَصَّر بأحد منهم فى أيَّامنا أملٌ ولا بَعُد عليه غَرَض ، وخَصَّنا منهم بمَن تمسَّك بجوهره الأعلىٰ فلم

---

(١) يظهر قياسا على ماسبق فى نظائره أن هنا سـقطا ، هو « وموضوعها أن صاحبها يتحدّث مع الوزير فى كل مايتحدّث ويشاركه فى الكتابة فى كل مايكتب فيـه ويوقع فى كل مايكتب فيه الوزير تبعا له » . انظر صفحة ٢٩ ج ٤ من هذا المطبوع .

يتعرَّض من هذا الأدنىٰ إلىٰ عَرَض ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن (يكادُ يُمسِكُه عِرْفانَ راحتِه)، وإلَّا المؤْثِرُ طاعةَ الله ورسولِه وأولى الأمر علىٰ راحتِه ؛ صلاةً دائمـةَ الإتِّصال، آمنـةً شمسُ خُلودها من الغُروب والزَّوال ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من آختَرْنَاه لصُحْبتنا الشريفةِ علىٰ علْمٍ، وأعدَدْناه لمهمَّاتنا الكريمةِ لمـا فيه من تَسَرُّع إدراكٍ وتثبُّتٍ فى حُكْمٍ ؛ وبسَطْنا له فيما عدَقْناه به من ذٰلك لسانًا ويدًا، وحفِظْنابه الأحوالَ من [وصول] مسترِقِ السَّمْعِ إليها ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَـدًا﴾ وآدَّخرْنا أقلامَه لمصالحِ كلِّ إقليم يمرّ ركابُنا الشريفُ عليه، وفوَّضـنا مناقشةَ مباشِريه علىٰ ما أهملُوه من حقوق الله تعـالىٰ وحقُوق الرَّعايا إليـه ؛ وأقمناه لتصفُّحِ ذٰلك بنفْسه، وتلمُّحِ زيادةِ كلِّ يومٍ علىٰ أمْسه ؛ وآنتزاعِ الحقِّ ممن مدَّ يدَه إلىٰ ظُلْمٍ بكفِّ كفِّه عنه ورفْعِ يدِه ، وآرتجاعِ الواجبِ ممَّن أقدم عليه بالباطل فى يومِه وآطِّراحِ المؤاخذةِ به فى غَدِه ؛ وغيرِ ذٰلك مما أحصاه الله ونَسُوه ، وآعتمدُوا فيه علىٰ المصلحة فآجتنَوْا ثمرةَ ماغرَسُوه ـ مَنْ كان له فى المناصحـةِ قَدَمُ صدقٍ عنـد ربِّه ، وفى خدمـةِ الدولةِ القاهرةِ قِدَمُ هجـرةٍ تقتضى مَزِيدَ قُرْبِه ؛ فكان أبدا بمرأًى من عنايتنا ومَسْمَع ، ومن إحساننا بالمكانِ الذى ليس لأحدٍ من الأكفاءِ فى بلوغ غايتِه أملٌ ولا مَطْمَع ، وتفرّد بآجتماعِ الدِّين والمَنِصب والأصالةِ والعِلْم والكرم وهـذه خِلَال الشرف أجمع .

ولـمَّا كان فلان هو الذى آجتنىٰ من إحسانِ الدولةِ القاهرةِ بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ ، وفازَ من عوارِفها العميمة بجميلِ المخالَصة مازاد علىٰ المُنىٰ ؛ وآنتمىٰ من أدوات نفسه ونسَـبِه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهـما أفخـرُ مايُدخَر للرُّتب الجليلة وأنفَسُ

ما يُقتنى، وعُنِي من أسباب آستحقاقه المناصبَ والرتب بما آقتضى إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتنَى . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الدواوين(١) المعمورة .

فليباشر ذلك محلّيًا هذه الرتبةَ بعقود تصرّفه الجميل ، ومجلّيًا فى هذه الحلبة بسَبْق معرفته التى لاتحتاجُ إلى دليل، ومبيّنا من نتائج قلمه مايُبَرْهِن على أنه موضعُ الآختيار ، ومن كوامن آطّلاعه مالا يحتاج إلى برهان إلا إذا آحتاجَ إليه النّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يَراعه فى روض المصالح مُثمِرا، وليل نِقْسه فى ليل الأعمال مُقمِرا؛ وحُسنُ نظره إلى ما قَرُب ونأى من المصالح مُحْدِقا ، ولسانُ قلَمه لما دقّ وجلّ من أمور الأقاليم محقّقا ؛ ورسمُ خطّه لما يستقرّ فى الدواوين المعمورة مثبِتا ، ووسم تحريره لما يجتنى من غُروس المصالح مُنْبِتا؛ ولدَرّ أخلاف الأعمال بحُسن الآطلاع محتلِبا، ولوجُوه الأموال بإنفاق التوجّه إلى تثميرها إن أقبلَتْ مجتليًا وإن أعرضَتْ مختَلِبا ؛ فإنّ الأمور معادنُ يَستثيرُها التصرّفُ الجميل ، ومنابتُ يَنمّيها النظرُ الجلىّ والآتقانُ الجليل ؛ وملاكُ كل أمرٍ تقوى الله تعالى فليجعلها إمامَه، ويتخيّلْها فى كل حال أمامَه؛ والله تعالى يسدّده ويوفّقه بمنّه وكرمه ! ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وربّما أُضيف إلى نظر الصُّحبة نظرُ الدواوين الشريفة، وحينئذ فيَحتاج الكاتبُ أن يأتى فى براعة الآستهلال بما يقتضى الجمعَ بينهما ، ويوردَ من الوصايا ما يختصّ بكل منهما . والكاتبُ البليغ يتصرّف فى ذلك على وَفق ما يحدُث له من المعانى ويسنَحُ له من الألفاظ .

---

(١) الصواب نظر الصحبة .

الدرجــــــة الثـانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدِّيوانية بالحَضْرة بالديار المصرية ما يُكتَب في قطع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء، مفتتحا بـ«الحمدُ لله» إن قُصِد تعظيمُ المكتوب له علىٰ ما هو الأكثرُ، أو بـ«أما بعدَ حمد الله» جَرْيا على الأصل لما يُكتَب في قطع الثلث، علىٰ ماتقف عليه فى النُّسَخ)

وتشتمل علىٰ وظائف :

الوظيفـــــة الاولىٰ
(كتابة الدَّسْت)

والمراد دَسْت السلطنة . وقد تقدّم الكلامُ عليها فى مقدمة الكِتَاب فى الكلام علىٰ ديوان الإنشاء، وتقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضُوعَها أن يجلس أصحابُها بدار العدل أيّامَ المواكب خَلْف كاتبِ السرّ، ويقرءُون القِصصَ على السلطان بعد قراءة كاتبِ السرّ، ويكتُبون عليها بما تقتضيه الحالُ، بعدَ إشارة السلطان بالكتابة؛ ثم يحمُلُ ما يكتُبون عليه من القِصص إلىٰ كاتب السرّ فيُعيِّنُها . وأنّ هذه الوظيفة كانتْ من أجَلّ الوظائف وأرفعِها قَدْرا، منحصرةً فى عددٍ قليل نحو الثلاثة فما حولَها، ثم وقع التساهُل فى أمرها، ودخَل فيها العددُ الكثير حتّىٰ جاوز عددُهم العشرين، وبقيت الرياسةُ فيهم لعَدَد مخصوص منهم، وقَنِع الباقون بالاسم . وقد تقدّم ذكر طرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّسْت، وهى :

الحمدُ لله الذى فَضّل الكِرامَ الكاتبين، وأحيا بفضائل الآخِرين الأوّلين الذاهبين، وأنزل فى القَصَص : ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

نحمده وهو المحمودُ المُعين ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ قومٍ مُخلصين، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله خاتَمُ النبيين، ورسولُ ربّ العالمين، والشافعُ فى المُذْنبين من المؤمنين، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً باقيةً إلىٰ يوم الدّين، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ العدْل الشريفَ دارٌ جُدْرانُها الأمرُ المُطاع ، وأبوابُها الخيرُ الذى لا يُضاع ، وسَقْفُها الرحمةُ والاتّضاع ، وصدْرُها الإحسانُ المديدُ الباع ، وصَحْنُها الأمنُ والسُّرور فلا يُخافُ أحدٌ فيه ولا يُرَاع ، وجلساؤُها الكاتبُون عارِضُو الرِّقاع ، هم مَعْدِن الصَّداره ، ومَوْطِن الكِتابة والكِتَابة والإشاره ، وأقلامُهم تأتى بحُسْن التشبيـه والاستِعاره ، وتُطرِّز حواشِىَ الرِّقاع بوَشْيٍ بادِى الإناره ، ما آختِيرَ أحدُهم للجلوس فى دَسْته إلا وقد أرضَىٰ مَنِ آختاره ، وتميّز بحُسن السَّمْت والوَفاء والوَقار والشّاره .

ولمـا كان فلان هو الذى له فى السُّؤدَد أصلٌ عرِيق ، وفى الفضائل له قلَمٌ مُطِيق ، وفى البلاغة له لسانٌ منْطِيق ، وإذا دبّج قرطاسَه فهو للروض شَقِيق ، ونباتُه الجوهرُ لا الآسُ والشَّقِيق ، وأصبح للجُلوس فى الدَّسْت الشريف أهلًا على التحقيق .

فلذٰلك رُسم أن يستقر... ... ... فلْيحُلَّ هذا الدَّسْتَ الشريف مُبْهِجا ببَيانه ، مُثْلِجا للصُّدور بعِرْفانه ، متبلّجا بنُور يدِه ولسانه ، قارئا من قِصَص الناس وظُلاماتِهم فى إبوانِه كلَّ شىْءٍ فى أوانه ، لا يكتُم ظُلامةً مكتوبةً فى رُقْعه ، بل يُعرِّف مَلِكَه بها ويبلّغُها سَمْعَه ، فإنه فى هذا المحلّ أمينٌ والأمينُ محـلُّ النُّصح والخيرِ والرِّفْعه ، وإذا وقّع فهو مأمُور ، نلْيأتِ بمـا يُبْهج الصُّدُور ، ويَشْفى غليلَ الشاكى ، بلفظه الزاكى ، والوصايا كثيرة لكن السليم (1) لبعضها الحـاكى ، وتقوىٰ الله فهى تاجُها المجوْهَر ،

(1) لعله لكن مسَلِّم ببعضها الحاكى ، وهو تقوى الخ . تأمل .

وبدْرُها المنوَّر، وكوكَبُها الأزْهَر، والله تعالىٰ يمتِّعه بالفضل الذى لا يحُول ولا يتغيَّر، بمنِّه وكَرَمه! إن شاء الله تعالىٰ.

✣

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى أَفَاض على الأولياءِ من فضْله، وأَهمىٰ عليهم من مَواهبه ما يقْصُر عنه الغَمَامُ فى وَبْله وطَلّه؛ ومنَح دَسْتَ المُلْك الشريف من الألفاظ المجيده، والفضائل المُفيده.

نحمَده علىٰ نِعَمِه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجملتِ آمتنانَها، وبزغَتْ مُزْهِرةً فقدَّمَتْ من الدولة أعيانَها؛ ونشكُره علىٰ عَوارِفه التى أَلْقى لأهل الثناءِ عِنانُها، ورَحُب لذَوِى البيوت صدْرُها وفُضَّ عُنوانُها.

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تشهَد القلوبُ إيمانَها ويدَّخر القائلُ لها ليوم المَخاف أمانَها؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر الله به الشريعة المطهَّرة وأبانَها، وشرَّف [به] هذه الأمَّةَ ورفع علىٰ جميع الأمم شانَها، وبعثه رحمةً إلىٰ كافَّة الخلق فأقام بمُعْجزاته دليلَ الهداية وبُرهانَها، وأطفأ بنُور إرشاده شرَرَ الضَّلالة ونيرانَها؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من نَزَّه نفْسَه النفيسةَ وصانَها، وسلَكَ فى خِدْمته وصُحْبته الطريقةَ المُثْلىٰ فأحسنَ إسرارَ أمورِه وإعلانَها، صلاةً دائمةً باقيةً تُجمِّل بالأجور آقترانَها؛ وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعدُ، فانه لمَّا كانتْ وظيفةُ توقيع الدَّسْت الشريف من أجلّ الوظائف وأسْناها، وأنفَسِها وأعْلاها، وأجمَلِها وأبْهاها؛ القائمُ بها سفيرُ الرعيَّة إلى المَلِك

فى حاجتهم ، وترجمانٌ مُعْرِب عن شكايتهم ، وكاشفُ أحسنُ ناشر عن ظُلامتهم ؛ جالسٌ على بساط الأُنْس بقُرْب الحضره ، منفذٌ نَهْىَ مليكه وأمْرَه ، مبلِّغ ذا الحاجة من إنعامه جُودَه وبِرَّه - تعين أن يُندَب رئيسٌ وآبنُ رئيس ، وجوهرُ بحرٍ نفيس ؛ ذو أصْل فى السُّؤدد عَرِيق ، ولسانٍ فى الفضائل طَلِيق ، وقَلَمٍ حَلَّى الطُّروس بما يفُوق زَهَرِ الرياض وهو لهـا شَقِيق ، وفاضلٌ لا يُقاس بغيره لأنه الفاضلُ على التحقيق ؛ وكان المقرّ العـالى الفلانىّ هو المشارَ إليه بهـذه الأوْلوِيَّة ، والمرادَ من سطور هـذه المحامِد اللُّؤلُؤِيَّة . فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة توقيع الدَّسْت الشريف عِوضًا عن فلان بحُكم وَفاته .

فليباشرْ ذلك مباشرةً تُشْكَر مدى الزمان ، وتُحمَـد فى كلِّ وقتٍ وأوان ؛ وليُدَبِّج المَهارِقَ بوَشْى يفُوق قلائدَ العِقْيان ، وليَمْـلأْ بالأجُور لنـا صُحُفا بمـا يوحيه عنا من خيراتٍ حِسان . ونحن فلا نُطيل له الوصَايا ، ولا نُحلِّيه بها فهى له سَجَايا ، مع ما أدّبه به عِلْمُـه الجَمّ ، وعمَلُه الذى ما آنصرَف إلىٰ شىء إلا تمّ ؛ ويجمعُها تقوىٰ الله تعالىٰ وهى عَقْد ضميره ، ومِلاك أُمُورِه ، وما بَرِح هو وبيتُه الكريم مصابيحَ أُفُقِها ومفاتيحَ مُغْلَقِها ، ولهم جُدُد ملابِسها وللناس فواضلُ مُخْلَقِها ؛ والله تعالىٰ يزيدُه من إحسانه الجزيل ، ونِعَمِه التى يرتَدِى منها كلَّ رداءٍ جميل ، ويمتِّعه بإمارته التى ما شُكِر بها إلا قال أدبًا : حسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ؛ والاعتمادُ فى مَسْعاه ، على الخط الكريم أعلاه .

الوظيفـــة الثـا نيـــة

(نظر الخزانة الكُبرىٰ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائف الديار المصرية أنَّ هذه الوظيفةَ كانتْ كبيرةَ الموضِع من حيثُ إنها مستودَع أموال المملكة ، إلىٰ أن حدثَتْ عليها خزانةُ

الخاصّ فانحطّت رتبتُها حينئذ، وسمّيت الخزانةُ الكُبرىٰ باسمٍ هو أعلىٰ منهـا ، وأنه لم يبقَ فيها سوىٰ خِلَع تُخْلَع وتُصْرف أوّلا فأوّلا . وقد تقدّم ما يكتب فى طُرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الخزانة :

الحمدُ لله الذى جعل الخزائنَ لذخائرنا كُهُوفا ، وملابس إقبالِنا شُنوفا ، ومَواهِبَنا تُجْزل عطاءً ومعْروفا ، وإقبالَنـا علىٰ مُحسِن التدبير ومجمـل التأثير عَطُوفا ، وأياديَنا فى إسكان جَنّتِها قُطوفا .

نحمدُه حمدًا مألوفا ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أوضحَتْ معرُوفا، ونشهد أنّ سـيدنا محمدًا عبـدُه ورسوله الذى أزال مَخُوفا، وأقام الصـلاةَ والجهادَ صُفُوفا، وشهَر علىٰ العِدا عنـد تأييد الهُدَىٰ سُيُوفا ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما سدَل الليلُ سُجُوفا، وسلّم تسليما .

وبعـد، فإنّ المُلْك الشريف له تُحَف مَصُونه، وذخائرُ مكْنونه، وأصنافٌ حِسانٌ فى خزائننا مخزُونَه ، وجواهرُ عالية القِيمة ثمينـة [لا يقوم عليها إلا من] لا يمُـدُّ عينَ عَفافه إلىٰ المـال وإن كثُرتْ آلافُه ، ووَلَج لُجّـة هذه الذخائر ولم تُلِمَّ بالبَلَل أطرافُه ؛ وهو فلان : العريقُ فى انتسابه ، الوثيـقُ انتمـاؤُه إلىٰ فضـل اللهِ وجَنابِه ؛ النقِىّ ثوبُ عِرْضه ، التّقِىّ بتمسّكه بسُنّته وفَرْضـه ، الوفِىّ نظره بغضّـه ، المستمسك بجميع الخيْر دُون بعضِـه ، من بيتِ السيادة ومَنْ هو من بَيتِ السِّيادة فالسُّؤدد نجمُ سَمائه وطَودُ أرضه . فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقرّ ... ...

فلْيباشر هـذه الوظيفة بعمَلٍ ونيّه ، متسلّما ذخائرهذه الخزانة العليّه ؛ وأمورَها وأحوالَهـا ، وتفصيلَها وإجمالَهـا ، وحُمولَها وأحمالَهـا ، وحُلَلَها المرقُومه، وذخائرَها

المعْلومه، وجواهِرَها المنظُومه، وأكياسَها المختُومه، وصناديقَها المرْكُومه؛ ما عَن علمه فيها شَيءٌ خاف، وصونُه لها كاف، وأمْرُ الله بينَ النُّون والكاف .

ولْيَعْلَمْ أن خزائنَنا تُصَبُّ فيها سحائبُ التُّحَف والأموال والأصناف، من سائر المَمالك والمُدن والثُّغور والأطْراف؛ ومنها يُخْرج بجهاز مواهبِنا وإنعامنا للأولياء الأشْراف، وإنما هى لمصالح المسلمين فى الجمْع والإِئْتلاف، وتَقْوية أهلِ الطاعة علىٰ أهل الإِخْتِلاف، فليَضْبِطْ ما تُطلقُه وإن كانتِ الأقلامُ لا تستطيع ذٰلك لكثْرة الإِسْعاف، ولْتكُنِ التشاريفُ المثمَنة الكامِله، حاصلةً بمَناطقها المجَوْهَرة الهائله، وطُرُزِها الطائِلَهْ، وتَعابِيها الفاضِلَهْ، حتّى إذا أنعَمْنا منها علىٰ أحدٍ بشيءٍ يأْتى بحُمُوله وقد حَمِد فاعِلَه . والوَصايَا كثيرةٌ وتقْوى الله نِظام عِقْدها، وتَمَام رِفْدها، وزمام مَجْدِها، وتَمامُ سَعْدها؛ فلْيكُنْ متلفِّعًا ببُرْدِها، متضوِّعا بنَدِّها، وهو غنىٌّ عن الوصايا ومَدِّها، والله تعالىٰ يؤيِّد حركاتِه فى قصْدِها؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

✦
✦ ✦

وهذه وصية لناظر الخزانة، أوردها فى "التعريف" :

وليَملأْ بنظَره صُدُور الخزائن، وليجمَعْ فيها أشتاتَ المَحاسن؛ وليُعِدَّ فيها كلَّ ما يُدَّخر للإنفاق، ويحتَفِظْ به للإطْلاق؛ ويحصِّلْ ما يُضاهى البحرَ بالتفريع والتأْصِيل، والجُمَل والتَّفاصِيل؛ وما لا يُوزَن إلا بالقناطير، ولا يُحصَى منْه مِلْءُ الأساطير؛ وما يُهيَّأُ من التشاريف الشريفة التى تُباهى أشِعَّةَ الشُّموس بلَمْعها، وتُحاسِن وشائعَ الروض بخِلَعها؛ وما فيها من مُخلَّقات ألْوانٍ لا تُماثَل بتصوير، ولا يظُنُّها الأولياءُ إلا الجنةَ ولِبَاسُهم فيها حَرِير؛ وما تحتوى عليه من عتّابىٍّ وأطلس، ومُشَرْبَش ومُقَنْدس؛ وكلِّ طِراز مُذْهب وباهى، وما هو من ذهَب أوْ له يُضاهى؛ وكُلّ

ما يتشرّفُ به صاحبُ سيف وقلَم، ويُعطىٰ إنعاما أو عند أوّلِ آستخدامٍ فى خِدَم؛ وماهو مع هذا من أنواع المستعْمَلات، والنواقص والمُكَمّلات؛ ومايُحَمل من دار الطّراز، ويحمد ممـا يأتى من المُبتاع من بَزٍّ وبزاز؛ وما هو مُرْصَدٌ للخزانة العالية من الجهات؛ التى يحمَلُ إليها متحصَّلها: لينفق فى أثمانِ المَبيعات، ومايُستعمل، ومايُعلَّم منه بالطَّرْز ويُعْمَل، وبقية مايُدَّخر فى حواصلها من مال بيت المـال الذى يُحَمـل؛ وذٰلك كلُّه فهو الناظرُ عليه، والمناظِرُ عنه ممـا خرج من عِنده ووصل إليه، والمحاجِجُ عنه بالمراسيم التى تُمْسَك للحِفْظ وتُنْزَل لديه؛ فلْيراعِ ذٰلك جميعَه حقَّ المراعاة، وليحرِّرْ قدر مايُنفَق من الأثمـان وقيمةِ المَبيعات، وليحترِز فيما يُزَكّى بعضُه بعضا من شهادة الرسائل المكتتبة إليه بالحُمول وما يُكتَب بها من الرَّجعَات؛ ولْيُعر المعامَلين من نظره مالا يجِدُون معه سبِيلا، ولا يقدِرُون معه علىٰ أن يأخذُوا فوقَ قَدْر آستحقاقِهم كثيرا ولا قَلِيلا؛ وليُقدِّم تحصيلَ كل شيءٍ قبل الآحتياج إليه ويَدَعْه لوقته، ولا يمثل لديه إلا سرعة الطلب الذى متىٰ تأخر أُخِّر لوقْتِه(؟)؛ والأمانةَ الأمانة، والعَفاف العفافَ فمـا كان منهما واحدٌ رداءَ آمرِئٍ إلّا زانَه، ولولاهما لمـا قال له الملك إنَّك اليوْمَ لَدَيْنا مكين أمين وسَلَّم إليه الخزانَة.

الوظيفـــة الثالثـــة

(نظر خزانةِ الخـاصّ)

وهى الخزانة التى آسـتُحدِثَتْ فى الدولة النـاصرية «محمـد بن قلاوون» عنـد آستِحْداث وظيفةِ « نَظَر الخـاصّ » وقد آنتقَل ما كان يحمل إلى الخزانة الكُبْرىٰ ويُصْرف منها إلىٰ هذه الخزانة، سوى الخِلَع، كما تقدمت الإشارةُ إليه فى الكلام علىٰ توقيع ناظر الخزانة الكُبْرىٰ.

وهـذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص ، كُتِب به للقـاضى شرف الدين محمد ٱبن علاء الدين الجَوْجَرِىّ(١)، فى مستَهَلّ شهر رجب الفَرْد ، سـنةَ تِسع وثلاثين وسَبْعِمائة، وهى :

الحمدُ لله الذى زاد بنظرِنا الشريفِ شَرفَ مَنْ لَحَه من أوليائنا [و]لَحَظَه، وأفاد المستأنَفَ من بِرِّنا مَنْ عَهِدْنا له الفِطرةَ السليمةَ وتيقَّناً منـه الفِكْرَة واليَقَظَه . وأعاد لخَلَف الكريم ، من المشايخ ما كان للسَّلَف القديم الصالح من التقديم ، الذى شَمِلهم بالتكريم ، وجعلَهم علىٰ خزائنِ جُودِنا العميم : لأنهم العلمـاءُ الحَفَظَه . وجاد بالطُّرَف من خاصِّ إنعامنا العامِّ لَمِنْ لقلمه عنـد الإدْناء من سَرِيرِ المُلْك إنجازُ عِدَة ولِلسانِه عند ٱرتقاء مِنْبر النُّسْك إبرازُ عِظَه .

نحمـدُه علىٰ أن أجزلَ لمن عَوّل علىٰ شامِلِ كَرَمِنا جزاءَه وعِوضَه ، ونشكُره علىٰ أن تطوّل بنَوافلِ نِعَمِنا لمن قام بعدَ أبيه بلوازم خدْمَتِنا المفتَرَضَه، وعكف أعمالنا علىٰ بيتٍ مبارَكٍ مامنهم إلا من شُمِل من إحساننا بالمِنَح لمـا بذَلَ لسلطاننا من النُّصْح ومَحَضَه .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُودَع مَصُونُهـا فى الأرائك المتعلِّية ويَقطَع يقينُها الشكوكَ المعترِضه، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى عظُمتْ عطايا بَذْله ، فالبحار المرتفعةُ عنها منخفِضه، وكَرُمتْ سَجَايا فضله ، فليست بمنتقِلة وأُبْرِمت قضايا عدْله ، فليست بمنتقِضه ، وعَمَّتْ البرايا يَدُه البيضاءُ التى هى بالأرزاقِ فى الآفاقِ مُنبسِطةٌ وليستْ عن الإنفاق خشيةَ الإمْلاقِ منقبِضَه، صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهـم إلا من أقرضَ الله قَرْضا حسناً فضاعفَ له ما أقرضَه، صلاةً تُدْنِى لقائلها فى الأُولىٰ من النِّعمة والأمانِ أملَه وتؤْتِيه فى الأُخْرىٰ من الرحمة والرضوان غَرَضَه، وسلم تسليما كثيرا .

(١) نسبة الى «جوجر» بفتح الجيمين و راء بليدة بالقرب من دمياط انظر ياقوت ج ٢

وبعـد، فإن أَوْلىٰ مَنْ رُفع بإكرامنا إلىٰ رُتْبة عَلائه، وٱنتفع من مقامنا الشريف باختصاص خِدْمته وإخلاص وَلائه ـ مَنْ شفَع مزاياه بجَمْع أشتات العُلوم فى أبكاره وآنائه، وٱستُودِع ذَخائرَ مُلْكنا المصونةَ فكان حفيظًا عليما عند ٱقترابه منّا وإدنائه، وصَدَع القلوب بإبْداع وَعْظه وإبْدائه، وٱتبع سبيلَ والده القويم، فى الشِّدّة فى الحق والتَّصميم، وسلك طريقته التى هـداه الله إليها بتوفيقه فأدرك غايتَه فى ٱبتـدائه، وقَنِـع بمـا آتاه اللهُ تعالىٰ فآثرتْ مكارمُنا رفعةَ محلّه وتوسعةَ حِبائه، وبَرَع فى إتقانِ الفضائلِ التى آذنَتْ باصطفائه وٱجتبائه، ووَقَع عليه ٱختيارُنا الذى نستخير اللهَ تعالىٰ له فى إبْرام كلِّ أمرٍ وإمضائه، وأجمعَ عليه رأيُنا الذى كم أصابَ الصوابَ فى تعيين العُلَمـاء الأنجاب فنصَّ عليه الٱستحقاقُ بإيجابِ الترجيح وٱقتضائه .

وكان المجلس السامى الشَّرَفىّ هـو الذى قدَّمْناه بعد أبيه لشهادة خَزائننا الشريفة فشاهَدْنا من حُسْن سَيْره ماأَبْهج، ونظَمْناه فى سِلك أولياء المُلْك فسَلك من الخَيْر أقومَ مَنْهج، ثم أردْنا الآنَ أنَّ هلالَه يَنتقل إلىٰ رُتْبة الكمال لَمـَّا تدرَّبَ وتدرَّج، وأعَدْنا له تامَّ الإقبال حيثُ شَرفُ دولتِنا الأعلىٰ ـ زاد الله تعالىٰ تأبيدَه ـ بذِكره لدَيْنا وبشُكْره عندنا يَلْهَج ـ فٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أنَّ هـذا النظرَ الجميل عنه لا يَخْرج، وهذا الوِقْرَ الجليل لا يُعـدَل به عن فرعٍ مُنْجِب لأصلٍ طيِّب أثمـرَ الوَلاءَ والدُّعاءَ لأيّامنا الشريفة وأنْتَج .

فلذلك رُسِم ... ... لا زالتِ الصدُور بصُدُور أحكامه تَثْلَج، والأمورُ بمُرور إنعامه تفْضُل على الحقّ الأبْلَج ـ أن يستقرّ ... ... فلْيُنطِق لسانَ كلمـه بالإخلاص فى حمـد الخاصّ والعامّ من هـذا الإكرام الذى بمَطارِفه تَسَرْبل وبعَوارِفه تتوَّجْ، ولْيُطلِق سنانَ قلَمه فى تبييض المَصاحف بذكر إنعام المَقام الذى هو كالبَحر ويُفْصِح

عن حمْده فهو بحمد الله لا يتلجلج ، وليُحقّق ببيان حُكْمه ضبطَ الأصل والخصْم والواصِل والحاصِل والمُحضَر والمُخرَج ، ولْيُنفق فى أوليائنا من عوائد صِلاتِ نَعْمائنا التى تَقْبضُها أيدى ملوك المَدائن ببَسْط ومن بَعْضِها صُدُور الخزائن تَخرُج ، ولْيسلُك سُنَن أبيه التى بها يستظْهِر ويفتخِر ويستدِلّ ويحتجّ ، ويَستمْسِك بسببه الأقوىٰ من الدِّيانة التى بابُها من النجاة فى الدارين غير مُرْتَج ؛ ونترك له تفصيلَ الوصايا لأنه قرينُ كفيلٍ مُلْكنا القوىّ الأمين ذِى الإرشاد والسَّداد فمع مرافقتِه فى الإصدار والإيراد والتَّكرار والتَّعداد لم يحتجْ ، والله تعالىٰ يجعل الطُّروس بذِكْر تقديمه تحبَّر وتُدبَّج ، والدروس تنْشَر وعلومه تَعطَّرُ وتتأرّج ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الرابعة

(نظر البيوت والحاشية)

وقد تقدّمَ أنّ موضُوعَها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه أستاد الدار ، وتقدّم الكلامُ علىٰ ما يُكتَب فى طرّة تقليد ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البيُوت والحاشيةِ :

الحمدُ لله الذى عَمَّر البيوتَ بنَواله ، وكثَّر فيها أصنافَ النِّعم بإفضاله ، وجعلَ فيها الخيرَ يتضاعفُ مع كلِّ يوم بتجدُّدِه ومع كلِّ شهرٍ بإقباله .

نحمَده علىٰ مَديد ظِلاله ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ صادق فى مَقاله ، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولهُ الذى رَحِم الله العالَمين بإرْساله ، وسقىٰ الجيْشَ من كَفّه بنَبْع زُلاله ، وأَوىٰ إلىٰ المدينة دار هجرته وانتقاله ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الناصِرين لهذا الدين فى كل حاله ، وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنّ طِراز المُلْك الشريف البيوتُ الكريمة : فمنها يتفجّر ينبوع الرِّزق الجارى ، ومنها يُضىء سَقْط الزَّند الوارى ، ومنها تُبْسَط الخوانات ، وتُمَدّ الأسمطة فى المهمّات ، ومنها يقومُ للسعد نُصْبات(١) وأىّ نُصْبات ، ومنها تُقسَّم ألوانُ الطيّبات علىٰ مُقْتَرَح الشهوات ، وعمادُ أمْرِها علىٰ ناظر يقُوم بتأصيلها وتفريعها ، وتجنيسها وتنويعها ، وتكثير حاصلها ، وٱستدْعاءِ واصلها ، وجمع كلّ مافيه مرْغُوب ، وٱدّخار كلّ ماهو محْبُوب ، وتأليفِ القلوبِ علىٰ شكره وجُلُّ مافيها عملُ القُلُوب .

ولمّا كان فلان هو الرشيدَ فى فِعله ، المأمونَ فى فضْله ، الأمينَ فى عَقْده وحَلّه ، المسدَّدَ فى الحال كلّه ، المُعطىَ المباشرةِ حقّها علىٰ ما ينبغى فى الشهر من مستَهَلّه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقرّ ... ... فليباشِرْ هذه الوظيفةَ الكريمةَ مستجْلِبا المَنافع ، مشنِّفا بحُسْن سِيرتِه المسامع ، طالعًا من العَفاف فى أبْهىٰ المَطالع ، مستَدْعِيًا ما جرتِ العادةُ بٱستدعائه من أصناف(٢) المَتْجَر السعيد من أصنافٍ متعدِّده ، وأنواعٍ منَضَّده . وليُزِحْ أعْذار المصالح السعيدة من كلّ صِنف علىٰ حِدَه ، وليستجْلِبْ خواطر المُعامَلين بوفائهم و إنجازهم كلَّ عِدَه ، والرواتبَ اليوميّةَ ليَصْرِفْها لمستحقّها ، والبُيوتات فليسدّ خَلَلَها حتّى لا يظهر نقصٌ فيها ، ومرتّبات الآدُر(٣) الشريفة فلتكُنْ نُصْبَ عينيه علىٰ مايُرضيها ؛ وما ٱخترْناه لهذه الوظيفة إلا أنّه أنسَبُ من يليها ، والوصايا كثيرةٌ وتقوىٰ الله فلتكُنْ أطيبَ ثمراتٍ يجتَنيها ، وأحسَنَ مِنْحاتٍ يجتَليها ، وأزينَ زينةٍ يجتَليها ، وهو غنىٌّ عما تُشافِهُه [به] الأقلام منْ فِيها ، والله تعالىٰ يَصُون هِمَمَه ويُعْليها ، بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى القاموس النصبة بالضم السارية ولعله المراد .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ . (٣) جمع دار على القلب .

وهذه نسخة توقيع بنظر البيوت :

الحمدُ لله الذى جدّد لأوليائنا ملابس السُّعود، وشيّد لهم مبانى العزّ وضاعف لقدرهم الترقّى والصُّعود، ووالى إلى(١) أوليائهم سحائب الفضل المستهلّة بالكرم والجود.

نحمده على نعمه الضافية البُرُود، ومنّنه الصافية الوُرُود؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرغم بها أنف الجحود، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صاحبُ الحوض المورُود واللّواء المعقود؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين جادَ كلٌّ منهم بماله ونفسه فى رضاه والجودُ بالنفيسين أقصى غاية الجودُ؛ صلاةً دائمةَ الإقامة فى التهائم والنُّجود، مستمرّةَ الإدامة ماتعاقب السَّحابُ روضًا بجود؛ وسلّم تسليما كثيرا

وبعدُ، فإن أولى من غدت البيوتُ آهلةً بوفود نظره، عامرةً بسداده وجميل فكره، مشيّدةً بما يُبديه من أوضاح التقرير وغُرره - من سما همّةً وحسُن سمْتا، وسلك فى الأمانة طريقًا لا عِوج فيها ولا أمْتا؛ وحلّ فى الرُّتب خلالها، وتنقّل فيها فما قالت له إيه إلا وقال الذى فارقها آها؛ وكان فلان هو الذى آستحقّ بكفايته حُسنَ التنقّل، وآستوجبَ الصِّلة والعائد لما فيه من جميل التأنّى والتوصُّل - آقتضى حُسنُ الرأى الشريف أن ننقله إلى رُتب السعاده، وأن نخُصّه كلَّ حين من نِعمنا بالحُسنى وزياده. فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقرّ...

فليضبط أصولها وفروعها، ومفردَها ومجموعها، وليؤنس بحياطة آجتهاده رُبوعها؛ وليكفُلها بأمانة تضمّ أطرافها، ونزاهة تُحلّى أعطافها، وكتابة تحصُر جليلها ودقيقها،

(١) لعل الصواب ووالى إليهم سحائب . تأمل .

ونَبَاهةٍ تُوفِّي شُروطَها وحُقوقَها، وليحَرِّرْ واردَها ومصْروفَها، ليغْدُوَ مشكورَ الهِمَم موصُوفَها، ولْيلاحِظْ جرائدَ حِسابها، ويحفَظْ من الزيغ قلمَ كُتَّابها، حتَّى يَنمِي تصرُّفه فيها علىٰ الأوائل، ويُشْكرَ تعرُّفه وتعطُّفه علىٰ كل عاملٍ ومُعامل، والله تعالىٰ يبلِّغه من الخير ما هو آمِل، بمنِّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الخامسة

(نظرُ خزائنِ السِّلاح)

وقد تقدّم أنَّ موضوعَها التحدُّث فيما يستعمَل ويُبْتاع من أنواع السِّلاح الذى يحمل للزَّرَدْخاناه السلطانية . وقد جرَتِ العادة أن يحمَلَ ما يتحصَّل من ذٰلك فى كل سنةٍ إلىٰ الزَّرَدْخاناه مرَّةً واحدة . وقد تقدّم ما يُكتب فى طرة توقيع ناظِرِها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر خزائن السلاح من إنشاء المَوْلى « شمسِ الدين بن القَيْسَرانِىّ » كُتب به «لفخر الدين» أخى جمالِ الدين ناظر الخاصّ، وهى :

أما بعدَ حمد الله تعالىٰ الذى ضاعفَ فخرَ المناصِب، بمتَولِّيها، ورَفَع قدرَ المراتب، بمن يُكبِّرُها بقدْره العلى ويُعْليها، وأمدّ المَقانِبَ(١) بنظر ذى المَناقب الذى يُزَيِّن بمرهَف حَزْمه أسلِحتَهم ويُحَلِّيها، ويُمضِى بماضى عَزْمه كلَّ فِرِنْدٍ فريدٍ ليُسَعِّرَ نارَ صَليله بنظره السعيد ويجَلِّيها، جاعلِ أيامنا الشريفة تُقدِّم لخِدَمها كلَّ سَرِىٍّ تسرى به هِمَمُه إلىٰ العلياء، وتَنتخِبُ لحُسن نظرها من يعْلو بكَرَم الذات وجَمال الإخاء، وتُولِّى من الأولياء من يُعِدّ للأعداء خزائنَ سلاح تُبيدهم بها جيوشُنا المؤيَّدةُ فى فَيافِى البَيْداء، إذا دارتْ رحىٰ الحرب الزَّبُونِ وثارتْ وَغىٰ الغارة الشَّعْواء. والشهادةِ له بالوحْدانية

(١) جمع مقنب "كمنبر" وهم جماعة الخيل والفرسان .

التى اتّسق بدْرُها، فى سماء الإخلاص، وأشرقَ فجْرُها، بضياء القُرْب والاختصاص، وسَما نجْرُها، بجلال الجمال فأصبح بحمد الله آخذًا فى المَزِيد آمنًا من الانتقاص، وعلا ذكْرُها، بما درّعنا به من دُروع التوحيد وأسبغ علينا منه كلَّ سابغةٍ دِلاص. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى خصّه الله بالتكريم والتعظيم، وختَم به الرسُلَ الكِرام بما منَحه من الاصطفاء والتقديم، وأوحى إليه فى الكتاب الحكيم: ﴿أنِ اتّبِعْ مِلّةَ إبْرَاهِيم﴾. وعلى آله وصَحْبه الذين هم أشدّاءُ على الكُفّار رُحَماءُ بينهم، وقرّب قُرْبهم لديْه صلى الله عليه وأذهَب بيْنَهم — فإنّ من شِيَم أيّامنا الشريفة أن تُبلّغ أولياءَها مَراما، وترعى لأصفيائها ذِماما، وتصطفِى لولاية الرُّتَب من أضحى ثغرُ وَلائه بَسّاما، وتُجرّدَ لحسن النظر من يُجرّد بهِمَمه حُسَاما حَسّاما؛ لا سيّما من اقتفى سَنَن أخيه — أجلّه الله — فيما يأتى ويَذَر، واهتدى بهَدْيه فى كلّ وِرْد وصَدَر، وحذا حَذْوه السديدَ الأثَر، السعيدَ النظر، واتّبع رُشْدَه الساطعَ البَلَج اللامعَ الغُرَر، وسار سيْرَه الذى تتأرّجُ به أرجاءُ الممالك فحيثُ سارَ سَرّ؛ إذ هو جمالُ الجُود، جَلال الوُجود، مُقيل عِثار الملهُوف والمجهُود، موئلُ التَّهائم والنُّجود، مستجْلِب الدعاء لنا من الطائفين والعاكفين والرُّكّع السُّجود؛ ذُو المآثر التى ذِكْرُها أعطرُ من الروض المَجُود المَوْجود، والمناقب التى يُساوى فيها الكواكبَ ويسامِتُها فى السُّعود والصُّعود.

ولما كان المجلسُ العالى الفخْرىّ قد أصبح نَجْرُه بأخُوته نامِيا، وقدْرُه بأبُوّته سامِيا؛ وأصبحتْ مَفاخِرُه به خالِدَه، وجمع مَزَايا وسَجايا جَمعتْ له طارفَ السّعد وتالِدَه — اقتضى رأينا الشريف أن نُشدّدَ له بأخيه[(١)] أزْرا، ونُجدّدَ له فى إصلاح السلاح نَظَرا؛ ليكون لأخيه — أعزه الله تعالى — النظرُ على الخاصّ والعام، وبيده مقاليدُ خِزانتنا التى يشْمَل منها البرايا بصُنوف الإنعام؛ وتدبيرُ خواصّنا الشريفة وجيوشِنا

(١) لعله «أن نشدّد به لأخيه».

المؤيَّده، وله النظرُ علىٰ اعمال لَبُوس، تقى من الجيوش البُوس : البَيْض [ذات] القوَانِس ، واليَلَب المُدار والسُّمْرِ المَدَاعِس، والبِيض المُهَنَّده .

فلذٰلك رُسِم ... ... لا زال يجمع لأوليائه علىٰ آلائه شَمْلا، ويرفع أقدارَ أهلِ الكرم باستقرار النِّعم إذْ كانُوا لها أهْلا وبها أَوْلىٰ - أن يستقِرَّ فلان فى نظر خزائن السِّلاح المنصورةِ علىٰ عادةِ من تقدَّمه وقاعدته، وبمعلومِه الشاهدِ به الدِّيوانُ المعمورُ لهـذه المآثرالتى بثَّها القَلَم، والمَفاخِر التى آشتهرت كالنار على العَلَم؛ فلْيَكْشِفْ مابهذه الخزائن من عُدّة الحرب، والآلات المُعَدّة فى الهيجاء للطَّعْن والضَّرْب؛ ويشمِّرْ فى تكثيرها عن ساعد آجتهاده، ويعزِّزْ موادَّ الإمداد بها بحُسن نظره ويُمْن آعتماده؛ ويستعْمِلْ برَسْم جهاد الأعداء كلَّ نصلٍ صقيل، وصَمْصامٍ له فى الهامِ صَليل؛ وصفيحةٍ بيضاءَ تبيَضُّ بها بين أيدينا الصَّحيفه، ولبوسٍ تُرهِبُ عدوّ الله وتُضاعف تخويفَه؛ وزاعِبيٍّ يُرْعِب، وسَمْهَرِيٍّ يُزهِق بلسان سِنانه النُّفوسَ ويُذْهِب؛ وخِرْصانٍ تُكلِّم الأبطالَ بأَسَل ألسِنَتها فى الحروب، وقَواصِلَ لهـا فى سمـاء العَجاج شُروق وفى تَحلِّي[1] الكفَّار غروب؛ وبَدَنٍ يقُدّ الأبدان، ولأمةٍ لم تُبارَ فى تحصينها وتخييرها ولم تُدان؛ وفَضْفاضةٍ علىٰ جنُود الإسلام تُفَاض، وسابغةٍ تُسْبَغ علىٰ كل راجلٍ من أهل الإيمـان ليَقْضِيَ من أهل الشرك ما هو قاض .

وليحفَظْ ما يُنْفَق علىٰ هـذا العَدَد من الضَّياع، ويأتِ بمـا تأتى به الضِّياع علىٰ أحسن الوجُوه وأجمـل الأوضاع؛ وليَضْبِطْ ما يُصرفُ عليها من الأموال، ويعتمدْ فى نظرها ما تُحمَد عاقبةُ أمره فى سائر الأحْوال؛ ويتيمَّنْ فى سائر أفعاله بميامن كماله، ويستَرشِدْ بمَراشِده فى أموره باليُمْن والرُّشد من خِلال جَمـاله؛ ويسْلُك بحُسْن نظره لهـذه الخزائن ما يُنتظَر به أن يَفُوقَ أنظار الأنظار ويرتَقَبْ ، ويعلَمْ أنَّ هـذا أوّلُ

(١) التحلى الشعر أو سواده .

إقبالنا عليه (وأوّلُ الغيثِ قَطْرٌ ثم يَنْسكب) ؛ والله تعالىٰ يجعل خزائنَ الإسلام بجمال نحره آهِلَة ، ويُورِدُها مواردَ العزِّ الدائم ويُصَفِّى من أكدار الأقدار لها مَناهِلَه ؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الوظيفة السادسة

(آستيفاء الصُّحْبة)

وصاحبها يَتحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيه ناظرُ الصُّحْبة المقدّم ذِكْرُه .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك ، من إنشاء القاضى «ناصرِ الدّين بن النَّشائى» وهى :

الحمدُ لله الذى زادَ نَخارَ أوليائنا رِفعةَ المِقدار ، وأفاد الصُّحبةَ الشريفةَ خيرَ كافٍ آستوجب منّا بجميل خِدْمتِه جزيلَ الإيثار ، وجاد بالجُود وآبتدأ السعود لمن حسُن فيه الاِختيار وحُمِد الاَختبار ، وآرتاد للمناصِب العليّة كلَّ "مستوفٍ" للمحاسن له حقُوقُ وفاءٍ لا تُضاع وقدَمُ ولاء أجملَ فيه الإيرادَ والإصْدار .

نحمده علىٰ نِعمٍ أجزلت الآثار ، ونشكُره علىٰ مِنَن أجملت المَسارّ ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِص يترشّف ساحَ ثوابها الدارَ فى تلكَ الدار ؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أيّد الله به المؤمنين وأخمدَ نارَ الكُفّار ، وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناءَ الإسلام بعدَ ما كاد يَنْهار ، وأسرىٰ به إلىٰ السَّبْع الطِّباق فطبّق نبأُ معجزاتِه الأرضَ وملأَ الأقطار ، صلاةً باقيةً لا تزال أغصانُ أجُورها دانيةَ القُطوف زاكيةَ الثّمار ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنّ أجلَّ النِّعم ما علَتْ ملابِسُها ، وأجملَ المِنَن ما غلَتْ نفائسُها ، وأكملَ المِنَح ما زكَتْ فى رياض الإقبال غرائسُها ، وأجزلَ العطايا ما جُلِيَتْ فى حُلَل الفَخار

عرائسُها ؛ وأولى الأولياء بتحويل ذلك لديْه ، وتخويل هذه المواهب إليه ، وإسباغ أثواب الآمتنان عليه، وآجتبائه لرُتَب علتْ محلًّا ، وآختياره لمنصب يُصْبِح به جيدُه من عقود العناية مُحلًّى - من شُكِرت أوصافُه ، وآشتهر عَفافُه ، وحَسُن منَّا إسعادُه و إسعافُه ، وحُمدت خلالُه ومآثِرُه ، وحاز فَخْرَ نَعْته وفَخْرَ ذاتِه فلا غَرْوَ أن تعدّدت مفاخِرُه ، وأسلَفَنا من خِدْمته ما آستوجَبَ أن يَجْنِيَ به ثِمارَ الإحسان ، وقدّم بين أيدينا الشريفةِ من يُمْن تصرُّفه ما أنتج له مضاعفةَ الآلاءِ الحِسان .

ولمّا كان فلان هو الذى تحلَّى من هذه الأوصاف بعُقُودها ، وتجلَّى فى مَطارِف بُرُودها ، وأثنَتْ على خِصاله ألسنةُ الأقلام ، وأثبتَتْ جميلَ خِلالِه فى صُحُف أوراقها وصحائف الأيّام ، وحازَ من الأمانة والنَّزاهة كلَّ ما يُشكَر به على الدَّوام ، وآمتاز بحُسْن الكتابة التى تَقَرّ النواظر وتَسُرّ الخواطر وتُزْرى بالروض البسّام . ما باشرَ رُتْبة إلا وَفَى بها ، وحفظ أموالَها وغلالَها وضَبط أمورها وكَفَى بها - آقتضى رأيُنا الشريفُ أن نَنْقُله إلى درجات السعاده ، ونمنَحَه من إقبالنا الشريف زيادةَ الحُسنى وحُسْن الزِّياده ، ونخُصّه بوظيفةٍ تُدْنيه منّا قُرْبا لنكون قد أجمَلْنا له الآبتداءَ والإعادهْ .

ولذلك رُسِم بالأمر الشريف - لا زالَ فخرُ أوليائه بمزيد آلائه ساميا، وقدْرُ أصفيائه بمديد عطائه ناميًا - أن يستقرّ فى كذا .

فليتلَقّ هذا الإحسانَ ، بيدِ الآستحقاق، وليتقلّدْ عقودَ الآمتنان، الذى طالما قلّد جُودُه الأعناق، وليُباشرْ ذلك مباشرةً يَسُرُّ خُبْرُها ، ويسير خَبَرُها ، ويشنّف الأسماعَ تأثيرُها وأثَرُها، وليَسلُكْ فيها من السَّداد، ما يؤكّد حَمْدَه، ومن حُسن الآعتماد، ما يؤيّد سَعْدَه ، وليعتمدْ فيها من الأمانة ما هو المشهورُ من آعتماده ، ومن العَفاف ما صحّ عنه نقلُ إسناده ، وليدبّج المراسيمَ الشريفةَ بقلمه السعيد، وليوشّها بكتابته التى بها الحسن

مبدئ ومُعيد ، ولْيضبِطْ جميعَ أموال الديوان المعمُور وغِلالِه ، وسائرَ أموره وأحواله ، ولْيستوْفِ بقلَمه على مُباشِريه وعُمَّاله ، ولْيُحِطْ علما بخَراج بِلاده وأعماله ؛ ولْيسترَفع الحساب شامًا ومصرا ، وليتصَفّح الرِّقاع بالممالك الشريفة المحروسة ليَحْوِى بجميعها خُبْرا ، وليتعَيَّنْ جُمَلها وتَفْصيلَها ليكون بمُخرَجها أدربَ و بمَرْدُودها أدْرى ؛ ولْيَحْصُرْ متحصَّلَها ومصْرُوفَها ، ومعَجَّلَها وموقُوفَها ؛ حتّى لا يخرُجَ شىءٌ عن علمه ، ولتكُنْ جُملةُ هـذا الأمرِ محرّرة فى ذهْنـه ليجيب عنها عنـد السؤال بتحقّق فهمه ؛ والوصايا كثيرة وهو بهـا خبـير عليم ، حائزٌ منها أوفى وأوفر تقسيم ، وملاكُها تقوى الله تعالى فليجعَلْها عُمدتَه ، ولْيتّخذْها فى كل الأمور ذَخيرتَه ؛ والله تعـالى يُضاعف له من لَدُنَّا إحسانا ، و يرفَع له قدرًا وشانا ، والاعتمادُ على الخطِّ أعلاه .

وهذه وصية لمستوفِى الصحبة أورَدَها فى "التعريف" وهى :

فهو المُهَيْمن على الأقلام ، والمؤمَّن على مصرَ والشام ، والمؤمَّل لمـا يَكْتُب بخطِّه من كل ترتيبٍ و إنعام ، والملازِمُ لصُحْبة سلطانه فى كل سفَر ومُقام ؛ وهو مستوفى الصُّحْبه ، والمستَوْلِى بالهِمَم على كل رُتْبه ؛ والمعوَّلُ على تحريره ، والمعمولُ بتقريره ، والمرجوعُ فى كل الأمور إلى تقـديرِه ؛ به يتحرّر كلُّ كشف ، ويُكَفُّ كلُّ كَفّ ، و بتنزيله و إلّا ما يكمُل آستخدامٌ ولا صَرْف ؛ وهو المتصفّح عنّـا لكلّ حساب ، والمتطلّع لكلّ ما حضَر وغاب ؛ والمناقِشُ لأقـلام الكُتّاب ، والمحقّق الذى إذا قال قال الّذى عِنْـدَهُ عِلْمٌ من الْكِتاب ؛ والمُظْهِر لخبَـايَا ، والمُطْلِع لخفَايا ؛ والمتّفق على صِحّـة ماعنده إذا حصـل الخِلاف ، ووصـل الأمرُ فيه إلى التّلاف ؛ ولْيُلْزِمِ الكُتّاب بمـا يَلزَمُهم من الأعمال ، ويحررها بمستقرّ إطلاقه وضرائب رءُوس

المال ، وعملِ المكلفات وأن يكلَّفوا عملَها ، وتقديرِ المساحات وليتتبَّع خللَها ، وليُلزِمهم بتمييز قِيَمِها بعض عن بعض ، وتفاوتِ ما بين [تسجيل](١) الفُدُن فى كل بلد بحسَب ما تصلُح له زراعةُ كلِّ أرض ، و بمستَجدِ الجرائد وما يقابل عليه ديوانُ الإقطاع والأحباس ، وغير ذلك مما لا يحصل فيه آلتباس .

ومثلك لا يُزَوَّد بالتعليم ، ولا يُنازَع فكلُّ شيء يؤخَذُ منه بالتسليم ، وما ثَمَّ ما يُوصىٰ به ربُّ وظيفةٍ إلا وعنده يتَزَّل علمُه ، وفيه يتَزَّه فهمُه ، وملاك الكل تقوى الله والأمانة فهما الجُنَّتان الواقيتان ، والجَنَّتان الباقيَتان ، وقد عُرِف منهما بما يُفاض منه عليه أسبَغُ جِلْباب ، وأسبَلُ سِترٍ يُصان به هو ومن يتخِذُهم من مُعِينينَ ونُوّاب ، والله تعالىٰ يبلِّغه من الرتب أقصاها ، ويُجرِى قلمَه الذى لا يدَع فى مال ممالكنا الشريفة صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها .

الدرجة الثالثة

(من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية
ما يُكتَب فى قطع العادة : إما فى المنصورىّ ، مفتتَحا بـ«أما بعد حمد الله»
أو علىٰ قَدْر المكتوب له فى القطع الصغير ، مفتتَحا بـ« رسم بالأمر الشريف »
إن آنحط قَدْره عن ذٰلك)

وفيها وظائف :

منها ـ كتابةُ الدَّرْج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّرْج الشريف ، كُتِب به للقاضى تاج الدين ، عبد الرحيم بن الصاحبِ فخر الدين بن أبى شاكر ، وهى :

(١) الزيادة من التعريف ص ١١٥ .

رُسِم ... ... ـ لا زالت صـدقاتُه الشريفةُ تشمَل نُجباءَ الأبنا، ومبرّاتُه الجسيمةُ تُجزِل للولَد البارِّ حُسْن الزيادة وزيادةَ الحُسنىٰ، وهباتُه الكريمةُ تُقبِل بوجْه الإحسان علىٰ فرْع الأصـل الأسمىٰ وتُرصِّع تاجه بجوهر فخره الأسنىٰ، وسِماتُه الوسيمةُ، تجمل شَدَّ أزر الوزارة الفخيمة، بأكْفا نجل تمنّىٰ الزمانُ عنانَ الرياسة إليـه وعليه أثنىٰ ـ أن يستقرّ فلان فى كذا وكذا : لأنه رُبِّى فى حَجْرِ الرياسه، واجتنىٰ من الروض المجد الذى أعلىٰ السعدُ غراسَه ، ونَشأ من محلّ السُّؤْدَد والفخار، وبزَغ من بيتٍ حقّت له رفعةُ الأقدار ، وبَسَق غُصنُ فرعه من أصلٍ ثابت، وسَمـا بدَوْح عزٍّ فى مواطن المَعـالى نابتٌ، وهمىٰ ندىٰ قلمِه بانتسابه إلىٰ سَراة الكُتّاب فناهيك من كاتبٍ لأبى الخَلَل كـاتبٌ ؛ تَعترفُ الدولةُ لسَلَفه بسالف العُهُود، وتغترف من مَنْهَل تدبيرِهم المَوْرُود ، وتُحلَّىٰ من تاجهم بأسنىٰ العقُود ، وتسمُو من فخرِ وزارتِهم ووِزارةِ فخرِهم بمـا يملأ الوُجُود بالجُود، وتختال من تصريف أقلامهم وأقلامِ تصريفهم فى روض التنفيذ المَجُود فإنْ ذُكرت مآثرُ جَدّه قصَّرتْ عن إدرا كها الحُـدُود ، وإن شُكِرت مناقبُ والده ـ أجله الله ـ ففَجْرها البـاذخ مشهود، وهو بلسانِ العـامّ والخاصّ مَمْدُوح محمُود ، وإلىٰ معانى خَطّه تنتهى درجاتُ الصُّعود والسُّعود، فلا غَرْوَ لهـذا الفَرْع الناجبِ أن يَتْبع أصْـلَه ، وأن يَسْلُك فضائلَه وفضْـلَه ، وأن يقْفُوَ مَنْهَجه ، ويَحْذُوَ فى الكتابة طريقتَه المُبْهجه ، ويأتىَ من البراعة بسَنَنِها القويم، ويبْرُز من البراعة وَشْىَ خَطِّه الرقيم، وأن يُحَلِّىَ أجيادَ المَهارق بجوهرِ تاجِه النَّضيدِ النَّظِيم، وأن تحلُوَ ألفاظُه فى الإنشاء حين تمُرّ علىٰ الأسماع مُرورَ النسيم ؛ [لا] سِيَّما وقد ظهرتْ عليـه من مَخايل الرآسـة دَلائِل ، وشُرِعتْ له مناهِلُ الأدَب والفضائل ، وحازَ من حُسْن النشأة ما سار بُشكره المَثَل ، وحصَل من الاشتغال علىٰ كَنْز المعرفة واشتمل ؛ وغدا جديرًا بكل مرتبةٍ سنيَّه، وكل رِفْعة هى بأعدائها مبنيه .

فليباشرْ ذلك مباشرةً يجعلُها لباب المعالى مفتتحا ، وللزيادة من كلّ خير سببا كلّما أبدى الدهرُ مساءً وضُحىً ؛ ولينقُلْ فى اتباع مَهْيَع المجد عن والده وجدّه أبقاهما الله تعالى، وليدأبْ للتحلّى بأخلاقهما الحسنة أقوالًا وأفعالا ؛ وليُبهج الطُّروسَ بوَشْيِ قلمه، ولينمق المكاتباتِ ببلاغة كلِمه ، ولْيتخذِ الصَّوْنَ شِعاره، والعَفاف دِثاره ؛ والأمانةَ معتمَده ، والنزاهةَ مستنَده ، وضَبْطَ القولِ مادّته ، وحِفظَ اليد واللسانِ جادّته ؛ والوصايا كثيرة وملاكها التقوى وهى حِليْته الحقيقيّه ، وعقيدَته العقْليّة والمَنْطقيّة ؛ فليجعلْها دأبَه ، وليُرْضِ فى إعلانه لها ربَّه ؛ والله تعالى يُعْلِى قدْره وجدّه ، ويحفظُه وأباه وجدّه .

✣

وهذه نسخةُ توقيع شريف بكتابة دَرْج تجديدًا ، وهى :

رُسِم ... ... – لا زال يمنَحُ الأولياءَ ، بتجديد النِّعَم إحسانًا ، و يُولِى البُلَغاء ، فضْلًا يُعْلى لهم رُتْبةً وشَانا ، ويُبْدى لهم فى ديوان إنشائِه الشريف فضائلَ جَمَّةً وبيانًا – أن يجدَّد هذا التوقيعُ الشريفُ باسم فلان تجديدًا لِأنوارِ الإحسانِ إليه ، وتأكيدًا لمَزايا الامتنان لدَيْه ، وتسديدًا لمستَنَده الذى ألقاه وجْهُ الإقبال إليه ؛ لِما حازه من فضيلةٍ تامّة ، وبلاغةٍ ملأتْ ببديع المَعانِى ومَعانِى البديع ألفاظَه وكلامَه ، وكتابةٍ أجْرتْ فى حواشِى الطروس بمحقَّق التوقيعاتِ أقلامَه ، وأمانةٍ بنَتْ على الصِّدق والعفَاف أقسامَه ، ورياسةٍ تأثّل مجدُها ، فبلغ مَرامَه ، واتّصل سعدُها ، فلا يَخشى انفصامَه ، وبَعُد شأوُها فهى الساميةُ إلى رفع المنازل من غيرِ سآمه . قد اتّصف من البَراعة بجميل الأوْصاف ، وظهر استحقاقُه فهو بادٍ غيرُ خاف ؛ وتَروّى من بحرِ البلاغة

حيثُ وَرَد منْهلَهـا الصَّاف، وسلَك طُرُقَ الخير فتضاعفَ له الإسْعاد والإسْعاف، وآمتازَ بمزايا التجمُّل فى أمورِه والعَفَاف، وآستحقَّ بذٰلك أن نُجَدّد له فضلَ الأُلْفه، ونُؤَكّد له بكرمنا نَيْلا آعتادَه وعَرَفه .

فليستَمِرَّ فى ذٰلك آستمرارًا به أسبابُ الخير مؤتَلفه، ووجُوه الفضائل عن صُنُوف الكتابةِ غيرُ منصرفه، ولْيُبدِ من البَـلاغة بيانَها البديع، ويُجمِّل منْزِل العليـاءِ الرفيع، ويَسْلكْ مَسْلَكه فى الأمانه، ويتَّقِ الله تعالىٰ بملازمة المُراقبـةِ والدِّيانه، والله تعالىٰ يُعلِي مكانَه، ويزيدُ فى آقتناء الفضائل إمكانَه، والآعتمادُ على العلامة الشريفة أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت ورُبَّمـا كُتِب التوقيع لكاتب الدَّرْج بزيادةِ معلوم، فيَحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أن يأتىَ بعبارةٍ تجمع إلىٰ ما تقـدّم من براعة الآستهلال ما يَليها من موجب الآستحقاق، وسببِ الزيادة وترادُفِ الإحسان .

✤

وهذه نسخة توقيع بشهادة الخزانة، كُتِب به لابن عُبادة، وهى :

أما بعدَ حمدِالله الذى أفاضَ على الأولياء من خزائنِ فَضْلِه، وأفاءَ لهم أوفرَ نصيبٍ من إحسانه المشكورِ فيه عَدْلُ قَسْمه وقَسْم عَدْلِه، وأهمىٰ عليهم من سُحُب مواهبِه مايَقْصُر عنه الغَمام فى وَبْله وطَلِّه، وأسبغَ عليهم من جُودِه العميم مايصْفُو لديهم المَرَحُ فى وارفِ ظلِّه، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ نبيه ورسولِه أشرفِ رُسْلِه، وخاتمِ مَنْ جاء من الأنبياء منْ قبْـله، والهـادِى ببعثته الشريفةِ إلىٰ طُرُقِ الحق وسُبْله، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تابعُوه فى قوله وفعْله، وبايَعُوه على المظاهرةِ فى نُصرة الدين

الحَنيف وأهْلِه ، وجمعُوا هِمَمَهم على ٱلتِئام كلمةِ الإيمـان وجمْع شَمْلِه ، وأرهفَ كلٌّ منهم فى نَصْره ماضِىَ عزمِه ونَصْلِه ـ فإنَّ أوْلىٰ من رُعِيت له حقوقُ ذِمامه ، ومُنِح أجزلَ العطاء الذى تَقْضِى الأقدارُ بدوامه ، ولُوحِظ بعين الإقبال ما أسْلفه من حُسْن الطاعة لله ولرسولِه ولإمامِه ـ مَنْ جَدّ فى الخدمة فأضحىٰ الجَدّ له خادما ، وداوَمَ علىٰ المناصحةِ فغَدَا سعدُه دائِمـا ، وأخذَ من كلِّ فضلٍ بزِمامه ، ومَتَّ بمـاله علىٰ الدولة الشريفة من حُرْمته وذِمَامه ، وسلك فى أداءِ الأمانة السَّنَنَ القويم ، وجُعِل علىٰ خزائِن الأرض بمـا تَلَا لسانُ فضله : ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ، وتمسَّكَ من الإخلاص بأقوىٰ الأسباب ، وجَعَلَتْ له التقوىٰ مَحَلًّا يُدْخل عليه ملائكةَ القبول من كلِّ باب ، وزَيَّن سمـاءَ المعالى بكواكِب مجدِه فمـا تشوَّف إليها طَرْفُ متطاوِلٍ إلا وأتْبَعه شِهاب .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى غَدَا حسنُ مناقِبه إلىٰ شكرِه مُرشِدا ، وإلىٰ ذكره بالجميل مُسْعِدا ، وألهجَ لسانَ القلم فى وصفه مُنشِدا ، وٱختصَّ من هذه المحامد بأوْفَرها قِسْما ، وطلع فى أُفُق هذا الثناء الجميلِ نَجْما ، فلذلك رسم ... ...

ومنها ـ ٱستيفاء الدولة .

وموضوعُها التحدّثُ فى كل مايتحدّث فيه الوزيرُ وناظرُ الدولة ، وضبطُ الأموال الديوانيـة ، وكتابةُ الحُسْبانات ، وكلُّ مايجرى مَجْرىٰ ذلك . وقد جرتِ العادةُ أن يكون فيها مستوفيان .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة :

أما بعـدَ حمدِ الله الذى صانَ الأموالَ بالأقلام المحرَّره ، والدفاترِ المُسطَّره ، والحُسْبانات المصدَّره ، والجوامِع المسيَّره ، والتيقُّظ الذى ٱستخرجَ البواقىَ المنكسِره ،

والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد الذى أزال ظَلام الظُلْم ونوّره، ومحا الجورَ وغيّره، وأيّد الحق وأظهرَهْ، وعلى آله البرَرَه، وصَحْبه خصوصا العشرةَ المبَشَّره ــ فإنّ للدولة الشريفة من الأقلام ضابطا، ولها من الحِساب نِظامًا أصبح عليها سِيَاجًا وحائطا، يصون الأموال أن تكونَ بأيدى الخائنين نُهْبَى، ويُحرِزُ المطلَقات بُعْدا وقُرْبا ؛ وقَلَمُ الاستيفاءِ هو الذى إذا طاشَتْ أقلامُ الكُتّاب كان فى رأسِها لِجَاما، وإذا خَصَم المباشرون بالمَصْروف قَبِل السائغَ الصحيحَ وردّ ما كان سقيما وخرّج ما لم يكن تمَاما .

ولما كان فلان هو الذى فى الرآسة كبيرٌ معْروف، وفى السعادةِ حميدٌ موصُوف، وفى قلمه تصحيحُ كلِّ مصروف ، وله فى الدولة آثارٌ مرضيَّة تشكُرها الأقلام والسُّيوف ؛ ما نظر فى حِساب ، إلا أزال عنه ما به يُعَاب ؛ ولا رأى فَذَالِك ، إلا وأوضَحَ فيها المَسَالك ؛ ولا عُرِض باقِى، إلا آستخْرج ما يتعيّن آستخراجُه بقلمه الراق ، وفَهْمِه الواقى؛ فلذلك رسم أن يستقر ... ...

فليُباشرْ هذه الوظيفةَ بتحريره وتحبيره، وتمييزه وتثميره، وتوفيره وتكثيره، وإيراده وتصديره، وتسهيله وتيْسيره، وإزالة تعسيره ؛ وإذا أمسك دفاترَه، أظهر مآثرَه، وإذا نُسيت الجُمَلُ أبدى تَذاكرَه ، والعمْدةُ على شَطْبه فى الحُسْبانات الحاضره ، فلا يخرُج من عنده شىءٌ بغير ثبوت فإنّ التواقيع الشريفة والمراسيمَ الشريفة هى كالأمثال سائرَهْ ؛ ولا يتّخذ المُعين ، إلّا الأمين ، ولا يستعين ، إلا بمن هو مأمونُ اليمين ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو غنيٌّ عن التبيين ، فليتّق الله ربَّ العالمين ، وليستجْلب لنا الأدعيَةَ من الفقراء الصالحين ؛ فإنّ صدقاتِنا الشريفةَ تَنْعِم عليهم بمرتَّبات وأرزاق ، ونِعَم وأطلاق ، فليُسَهِّل عليهم الصَّعْب فى كلِّ بابٍ وإطلاق، والله تعالى يُمِدُّه بالإرفاق؛ بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد يكتب لوظيفة آستيفاء الدولة مفتتحا بـ«رسم» .

وهــذه نسخة توقيع من ذلك باستيفاء الدولة، كُتِب به لعَلَم الدين بن ريشــة ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لابَرِحتْ أيّامه الشريفةُ تَرْفَع لذوى الكفاءة مِنْ إحسانها عَلَما ، وتُرجِع مصالحَ الدولة إلىٰ مَنْ أحسَن فيهـا خِطاباً وأعمل فى مُهِمّاتِها قلمـا ، وتختارُ مَنْ دأَب فى تكيل أدَواتِه حتّىٰ صار علىٰ أنظاره متقدِّما ـ أن يرتَّب فلان علْما بكفايته التى وضَحَت ، ودِرايتِه التى فاقَتْ مُناظِرَها و رجَحتْ ، وأمانتِه التى حصَّلتِ الثناء وأربحتْ ، وهمّتِه التى ميّزت الأموال بإحرازها فعلَى السَّداد خُتِمت و بالتحرّى آفتُتِحتْ .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ التى تحتاج إليه باحتراز مثلِه ، والرُّتبةَ التى يتعيّن علىٰ مُباشِرها إيصالُ كلِّ حقٍّ إلىٰ أهـله ، فقد أرجعْنا ضبطَها وتحريرَها إليه، وآعتمدْنا فى تيسير أموالهـا وسدِّ أحوالهـا عليه ؛ فهو جديرٌ ببلوغ القصـد فيما قرّرناه لديْه، وحرّرناه بقلمه ويَدَيْه .

فليبسُطْ فى مصالح الدّيوان المعمُورِ وأموالِه قلمَه، وليَعْمَلْ بمـا هو عالم من تبيين حقائقِ آحوال وظِيفته ويُخلِصْ فيه قولَه وكَلِمَه ؛ ولْيصُنِ الأموال، ويتفقَّدْ ما يلزم العُمّال، ويَحُثَّ علىٰ حمول بيتِ المال؛ وليسترفع الحُسْبانات من جهاتها على العادة، وليستودِعْ دفاترَها وجرائدَها من يتحقَّق تحرّزَه وسَدادَه، ولْيتخذْ مُعينيـه من أرباب الحِذْق والدِّراية والآطّلاع علىٰ كل نقْص وزيادَه ، و إبداء وإعاده ؛ وله من نَفْسه مالا يحتاج معـه إلىٰ زيادةِ الوصايا وتكثيرها ، ومن ألمعيّته ما يُدْرِك به الفضلَ فى جليـل الأمور وحَقيرها ؛ فإنّه قد تخلّق بأخلاق أهل الأدَب ، وشارك فى جليل

الخَطْب وسدَّ ما إليه عزمه آنتدب؛ والله تعالى يبلغه من الجُود غاية الأرَب، ويُعينه على صالح العمل وآنتهاز القُرَب؛ والآعتماد ...

ومنها ـ آستيفاءُ الخاصّ . وصاحبها فى الخاصّ كمستوفى الدولة فى ديوان الوزارة .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بآستيفاء الخاصّ لمن لقبُه «أمينُ الدين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أيامُه الشريفةُ تُقْدِم بمهمَّاتها أمينا ، وتقدِّم فى خدمتها من أضحى معلَّى شمالا ويمينا ؛ وتُولِّى الرتب السنيَّةَ مَنْ جعل التحرز لقلمه مصاحِبا ولكَلِمِه معُينا ـ أن يستقرّ فلان فى كذا : لمِا عُرِف من رآسته التى ميَّزَتْه، وأمانته التى جمعتِ الرَّفْع فأحرزَتْه، وضبْطه الذى ترقَّى به فى المراتب وتنقّل، وإدراكه الذى يَصُونُ به غوامِضَ المصالح ويَعقِل؛ ولِمَا سلَف له من خدمةِ ملكَ فيها السَّداد، ومباشرةٍ عُلِم بها ماهو متَّصِف به من حُسْن الآعتماد .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى وُلِّيها، وليُشْهِر من همَّته فيها ما يرفَع مكانتَه ويُعْليها؛ وليُدِمِ المراقبةَ لمصالح ديوان الخاصّ الشريف فى كلِّ قولٍ وعمل ، وليُسارِعْ إلى مايُفِيد المَناجِحَ ويبلِّغُ من الضبْط والتحرُّز غايةَ الأمل؛ وليُصِنِ الأموال من ضَياعها، ويحافِظْ على سلوك طرائِقِ الحقّ وآتِّباعِها ؛ وليسترفِع الحُسْبانات من أربابها ، ويتفقَّد محرَّراتِها التى هو أعلَمُ وأدْرى بها ؛ ويَتّخِذْ من مُعِينيه من أضحت معرفتُه للدقائق جامعَه ، ويحتفِلْ بتحصّلات أموال الخاصّ بعزْمته التى أضحت لمكانته رافعه ، لاسيَّما ثغرُ الإسكندرية التى قد أصبحَتْ جهاتُها لطلَبِ أقلامه مُتابِعةً طائعه، وليُلْزِمْ كلَّ عامل بتحرير ما يجب عليه وما تنبغى فيه المراجَعَه ؛ فإنا قد أقمناه لذلك مستَوْفيا ، وليتصفَّح أمورَه الجليلةَ والحقيرةَ مستوضِحا مستقْصِيا ؛ وليَتَّقِ آلله

الذى يبلِّغُه من زيادة منْحنا الأمل ، و يعينُه على صالح العمَل ، والله تعالى يمنحُه من الخير ما يُنْجِح مَسْعاه ويتزّهُه عن الزَّيغ والزَّلَل ، والاعتماد ... ...

✤

وهذه نسخة توقيع فى المغنى لمن لقبه «بدر الدين» وهى :

رُسم بالامر الشريف ــ لازال يُطلِع لذَوى الكفاية من إحسانه فى سَماء الإقبال بَدْرا ، و يرفعُ لمن أمَّ الأبوابَ لأوليائه (١) من ذَوى الرآسة قَدْرا ، ويشْفَع لمن شُكرت معرفتُه بنُجْح القصد فآنشرح له بالمِنَن الجمَّة صَدْرا ــ أن يستقر فلان فى كذا : لكفايته التى خُطب بسببها إلى مقرّه ، ودرايته التى آستوْجَب بها أنْ نطق لسانُ القلَم بذِكْره ، ونزاهته التى أجمعت بها أمثالُه على شُكْره ، وأمانته التى تستدْعى الحقّ فى حُلْو الأمر ومُرّه ، وديانته التى هى أصلٌ فى كل أمره ، وصيانته التى يعتمِدُها فى سِرِّه وجهرِه ، ومشارفته المصالح بعينِ يقظتِه التى يلُوح لها وجهُ الصواب فيقف عند حدِّه وقدْره .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى أسلفها حُسنَ الاعتماد ، وليوفِّها من معهود يقظته يُمنَ الاجتهاد ، وليحقِّق حسنَ ظنِّ المباشرين فى رغْبتهم (٢) فيه فى الإنصاف فى الإرْفاق والإرْفاد ، ولْيعَمِّر جهاتِ الأموال بجميل الاقتصاد ، ويُنْجِز الأحوالَ على سبيل السَّداد ، ولْيتّبع منهاجَ الخير فى كل ما يأتْيه من إصدارٍ و إيراد ؛ فقد رجَع ضبطُ هذه الجهةِ إليه ، وآعتُمِد فى تحريرها عليْه ؛ فليَصُنِ الأموال ، ويتفقّد ما تحْسُن به العُقْبىٰ والمآل ، ولْيتَحَرَّ فى جميع ماهو لازمٌ له أن يكونَ على الحق الواضح ، والسَّنَن القويم فإنه المَتْجر الرابحُ والمآبُ الناجح ، وتقوىٰ الله تعالىٰ فهى عمدةُ كل عبدٍ صالح ،

(١) لعله من أوليائه ذوى الخ .
(٢) لعله «ورغبتهم فيه من الانصاف» الخ تأمل .

والوصايا كثيرةٌ مبيَّنــة تُغْنى عن إفصاح الشارح، والله تعالىٰ يُلْهمه الطريقَ السديدةَ ويُرْشده، ويُعينه بالتوفيق ويُنْجِده، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ـ آستيفاء البُيوت والحاشية .

وهذه نسخة توقيع بذٰلك ، كُتِب بها لعَلَم الدين «شاكر» عوضًا عن تاج الدين ابن الغزولى فى الأيام الأشرفية «شعبان بن حسين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ صـدَقاتُه الشريفةُ تمنَحُ الأكفاءَ من إحسانها نِعَمًا، وتُضاعِف لهم من عَطائها كَرَما ، وأيّامُه الشريفة تَعُمُّ البُيوتَ الكريمـةَ بكافٍ قد نَشَرت له الأمانةُ فى دولتِه الأشرفيَّةِ علَمًا، ومَواهِبُه تقدّم للوظائف مَنْ أضحىٰ شاكرًا لله تعالىٰ وتبسُطُ له فى دواوين أعزِّ الأنصار قلَمًا ـ أن يستقرّ المجلسُ السامى القاضى، فلانُ الدين فى كذا وكذا : لأمانته الموْفُوره ، ومعرفتِه المشهُوره، ومحاسِنه المذكُوره ، وسـيرته المشْكُوره، وكتابته التى أضحَتْ فى صَفَحات الحُسْبانات مسْطُوره، وديانته التى جدّدتْ بهجَتَه وسُرورَه، وخِبْرته بمنازل البُيوت المعمُوره ؛ وقِدَمِ هِجرته فى الوظائف التى أوجبت نُقلتَه إلىٰ أجلِّها، وصَدَارته التى رفعَتْـه إلىٰ أرفَع محالِّها؛ كم له فى دَواوين أعزِّ الأنصار من أقلام منَفَّذه، وآراءٍ مُسدَّده؛ ونظَرٍ أصلح به كلَّ فاسد، وكَبَتَ به كلَّ حاسد؛ وضَبْطٍ لأصول الأموال، وتَتَبُّعٍ للمصالح فى البُكَر والآصال .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ التى هو أخبَرُ بمباشَرتِهـا، وأعلَمُ بأحوال البُيوت الكريمة وعمارَتِهـا، ولْيُظْهِرْ فى الحاشية السعيدةِ مآثِرَه الحسنَه، ونزاهتَه التى نطَقت بشكرها الألْسنَه، ولْيُبْدِ فى مباشرته من كل شيءٍ أحسَنَه ، ولْيَسْلُك طرائقَ الأمانه، ولْيَقْفُ آثارَ ذوى العَفَاف والصِّيانه ، ولْيلازمْ مباشرةَ أعزِّ ولِيٍّ فى المَسَاء والصَّباح،

ولا يشغَله شاغلٌ عن مصالح ممهِّد الدول مَنْ [هو] لسلطاننا الأشرف أميرُ سلاح ، والله تعالى يفتح له من الخير أبوابَ النَّجاح . والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : ومما ينخرط فى سلك تواقيع أرباب الوظائف السلطانية وظائفُ دواوين الأُمَراء الخاصكيَّة ، فإنه ربما كُتِب عن السلطان التوقيعُ لبعض أرباب وظائف دواوينهم كما يُكتَب فى الوظائف السلطانية .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيع كريم بنظر دواوينِ بعض الأمراء ، وهى :

أمّا بعد حمدِ الله الذى هدى إلى المِلَّة المحمَّدية مَنْ أسرَّ الإيمانَ فى قلبه ونَواه ، وضَمَّ إلى الأمَّة [الاسلامية] من أضمر الإخلاصَ فأظهره اللهُ فى متقلَّبه ومثْواه ، وجمَع لولىِّ الدولة ومُخْلِصها الفرجَ والفرَحَ لأنه مَن توكَّل عليه كفَاه ؛ والشهادة بالوَحْدانية التى تُبلِّغ قائلَها من رضاه مُناه ، وتجعل جَنَّاته لمن أسرَّها جَنانُه مستقرَّه ومأْواه ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ الذى قَصَم عِداه ، وفَصَم عُرا مَنْ عاداه من أهل الشرك وعَدَاه . وعلى آله وصَحْبه الذين اهتدَوْا بهُدَاه ، واستجْدَوْا جَدَاه ، ولَبَّوْا نِداه ، وأمُّوا نَدَاه ؛ صلاةً تُجزِل لمصلّيها ثوابَه ، وتُجْمِل مآبَه ، وتُحمِد عُقْباه ــ فإنَّ أَوْلى من رفَع له الكرمُ محَلَّا ، وقلَّدته النِّعم عِقْدا مُحلَّى ؛ وأُعيد إلى رتبة الاصطِفاء ، وفُوِّض إليه ديوانُ أعزِّ الأخصَّاء ؛ وصُرِّف قلمُه فى مَهامِّه ، وحصلتْ هِمَمُه على جميع أقسامه ؛ وعُدِقتْ مصالحُه بتدْبيره ، ومناجِحُه بتأثيله وتأثيره ؛ ومتَحصَّلاتُه بتمييزه وتثْميره ، وأحوالُه وأموالُه : هذه بحُسْن تصرُّفه وهذه بيُمْن تقريره ــ مَنْ دخل فى دين الله القَويم ، واجتَباه وهدَاه إلى الصِّراط المستقيم ؛ وكَساه الإسلامُ حلَّةَ شرَفه ، وبوَّأه الإيمانُ

مَبانِىَ غُرَفه، ونَوىٰ الاستقامةَ فى إقامته ومُنْصَرَفه ؛ والتحَفَ بجِلْباب الإسلام وآرتدَىٰ، وتَلَبَّس بالإيمان فصَدّ عنه الأذىٰ وردّ الرَّدىٰ، وغدَا من أصحاب الصِّراط السَّوِىِّ ومَن آهتدىٰ؛ مع كفايةٍ أوجبَتْ له التقريبَ والتقديم، وجدّدَتْ له مَلابِسَ التكبير والتكْريم؛ وكتابةٍ فاقَ بها أمثالَه، وعلا مِثالَه، و بلّغتْه من العَلْياء مَرامَه ومَنالَه؛ ومعرفةٍ بفنُون الحِسَاب، وخِبْرة آعترَف له بها الكُتَّاب والحُسَّاب، وأوجبَتْ له من الإقبال مالم يكُنْ فى حساب .

ولما كان مجلس القاضى فلان : هو الذى أخَذ القلمُ فى مدْحِه، والكَرَمُ فى مَنْحه؛ آقتضىٰ رأيُنا الشريف أن تُقْبِل على إقبالِه علىٰ الدين بوجْه الإقبال، وأن نبلّغه فى أيّامنا الشريفة ما كان يرجُوه من الآمال . فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يرْفَع مَن كان للدّولة وليًّا، ويضَع الشىءَ محلَّه بتقديم مَنْ أضحىٰ عِرفانُه جليًّا[(١)] .

فليُباشِرْ ذٰلك مباشرةً تبلّغه أمَلًا من الاعتلاء، وتُنوِّلُه مَرامًا من الاعتناء، وتُؤمِّنه من طوارِق الزّمن وحوادِثِ الاعتداء، عالمًا بأنّ دولتنا الفلانيةَ المنصورةَ تُجازِى عن الحسنة بأمثالها، وأنّ أيّامنا الفلانيةَ المشهورةَ المشكورةَ تبلّغ أولياءها غايةَ آمالها؛ وأنّا أجزَلْنا بِرّه، وأجملْنا ذِكْرَه، وأجرَيْنا علىٰ لسان القَلَم حمْدَه وشُكْرَه؛ فليعتَمِدْ فى مباشرته الأمانةَ المُبِرَّة، والنزاهةَ التى رَفَعت ماساءَه ووضَعَتْ ماسَرَّه؛ وليشَمِّرْ فى مصالح هذا الديوان السعيد عن ساعِد آجتهادِه، ويعتمِد فى أموره ماأُلِفَ من سَدَاده، ويَتحَرَّ من السعادة ما كان قبل القول من سُعَاده؛ وليتّقِ الله حقّ تُقاتِه، ويجعَل التقوىٰ حِلْيةً لأوقاته، وحُلّةً علىٰ سائر تصرُّفاته؛ ويَسِرْ بتقواه سَيْرًا خَبَرًا وخُبْرًا، ويَذَرْ جورا وجَبْرا، ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يجعَلْ لَهُ مِن أَمْرِه يُسْرا﴾ .

(١) أن يستقر فى ديوان كذا الخ وحذفه اختصارا للكتابة وكثيرا ما يفعل مثل ذلك .

قلت : وغالب مايُعتنىٰ به فى تواقيع أرباب الأقلام المفتتحة بـ«رُسم» الدعاءُ المصدّرُ به التواقيع [و] آشتمالُه علىٰ بَراعةِ الآستهلال .

وهذه جملةُ أدعيةٍ من ذٰلك يُنْسَج علىٰ مِنوالها :

أثير الدّين — لازال فَلَكُ فضله أثيرا ، وطالعُ سَعْدِه مُنِيرا ، وهُبُوب ريح مَبَرّاته للخيرات مُثِيرا .

أمين الدّين — لازال يَبْتغِى لخِدَم الشريفةِ خَيْرَ أمين ، ويصْطفِى للقيام بالمصالح أنهضَ مُعِين ، ويجتبى لأهمِّ المُهِمّات من هو غير متَّهَم فى المناصحة وغيرُ ظَنِين .

بدر الدين — لازال يُولِّى المناصبَ الدِّينيّةَ من سَلَك فى النزاهة مَسْلكا جميلا ، ويُولِى الفضل الجزيل مَنْ أضحىٰ إشراقُ بدْره علىٰ آثار حظِّه دليلا .

برهان الدين — لازالتْ أوامرُه الشريفةُ ترفَع للعلماء شانا ، وتُقيم على آستحقاقِهم دَلِيلا واضحا وبُرْهانا .

تاج الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ ترفَع تاجَ الفضائل على الرُّءُوس ، وبِرُّه الشاملُ يُذَكِّى النفوس ويُزَكِّى الغُروس ، وتَواردُ إفضاله يُوشِّى المَهارِقَ ويدبِّج الطُّروس .

تقىّ الدين — لا زالتْ صدقاتُه الشريفةُ تقدِّم كلَّ تقىّ ، وتُرَجِّح ميزانَ مَنْ هو بالفضائل أملىٰ مَلِىّ ، وترفَع قدْرَ من إذا سُئِل عن محلّه فى الرياسة قيل عَلِىّ .

جمال الدين — لازال جمالُ جميله للنُّفوس رائقا ، وإفضالُه المتوافر لكل إفضالٍ سابِقا .

جلال الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفة تزيد جلال ذَوى الفضل جَلالا، وإحسانُه المتواترُ يُوسّع فى البِرّ لأُولى الاستحقاق مجالا، وبِرُّه المتتابعُ تقصر عنه خُطا كلّ برّ فيُنادى: هكذا هكذا وإلا فلا لا .

رضىّ الدين — لازال رضىَّ السَّجايا، ظاهرَ المَزايا، مسترسِلَ ديَم العَطايا .

زينُ الدين — لازال نَوالُه الشريفُ زينًا لنائله، وسؤالُه المحقَّق إجابتُه شرفًا لسائله، وقاصدُ بابه الشريف يُؤمّ بالخير فى عاجلِ الأمرِ وآجِله .

سراج الدين — لازالتْ عنايتُه الشريفةُ تَخُصُّ أولياءَها بجزيل المَواهب، وتُبلّغهم من صدَقاتها العامّةِ غايةَ الآمال وأقصى المَطالب، وتُوقد لهم من أنوار سَعادتِها سراجًا يَغلِب على نُور الكواكِب .

سرىّ الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ تَصْطفى من أرباب الكتابةِ من يُجيد المعانِىَ فلا يضَع لفظا إلا جعَل تحته معنًى سَريًّا، وترتضى من فُرسان البَراعة فى مَيْدان اليَراعة مَنْ يرتقِى ببلاغتِه مكانًا عليًّا، وتجتَبِى من أهل الإجادة من تميّز بالإفادة فلا يزال كلامُه لأجياد الطُّروس حُليًّا .

شرف الدين — لازالت صدَقاتُه الشريفةُ تضَع الشىءَ فى محلّه، وتُرجِع الفضلَ إلى مستحقِّه وأهلِه، وتختارُ للمناصب من ظَهر شرفُه بين قولِه وفعلِه .

شمس الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُطْلع فى سماء المَعالى من ذَوى الرياسة شمْسا، ونِعَمُه الجسيمةُ تُنْبِت فى روض الإحسان غَرْسا، ومراسمُه العاليةُ تَنقُل إلى رُتَب الرياسة من شَدّت كفُّه على عدد الأمانِىّ خَمْسا .

شهاب الدين — لا زالتْ صدقاتهُ الشريفةُ تُطْلِع فى أُفقها شِهابا، وتُهْمِل من جزيل المَواهب للأمانِيِّ سَحابا، وتضَع الشيءَ فى محله وتَزِيدُ الأمورَ آنتظاما والدعاءَ آستجلابا .

صدر الدين — لا زالتْ آراؤه الشريفةُ تستجيدُ من ذَوِى الفضائل مَنْ جاوَزَ الجَوْزاء نَظْما وفاق النَّثْرة نَثْرا ، وتستفيدُ[1] به المناصب من الأماثل مَنْ تقْصُر عن مجده الكواكِبُ رِفْعة وقَدْرا، وتستزيد منه المراتب من فاق سَحْبانَ وائلٍ وسادَ الأوائل فأضحىٰ فى مجالس العلياء صَدْرا .

صلاح الدين — لازال أمرُه الشريفُ يقدّم من يُفيد ويُجيد ، فيكون لكلِّ أمرٍ صلَاحا ، وكرَمُه الطويلُ المَديد ، يشْمَلُ مِن ذَوِى الفضائل مَنْ فاق "سَحْبانَ" وائلٍ فصاحةً وفاق "حاتِمَ" الأوائِل سَماحا ، ورأيُه الرشيدُ السديدُ، يختارُ مَنْ إذا آنتضىٰ اليراعةَ غلَب رأيُه سُيوفا وطال قلَمُه رِماحا .

ضياء الدين — لا زالتْ آراؤه الجميلةُ، تختار من ذَوِى الفضائل الجليلةِ من تَزْداد به المناصب ضياءً ، ونِعمُه الجزيلة، تعُمُّ كلَّ بارع إذا آدلهمَّتِ الخُطوب كان فُوه لها جِلاء ، وعوارفهُ المستطيلةُ، تشمَل كلَّ فاضل بذَلَ فى الخدمة جُهْده وتكْسُوه هيبة وبَهاء .

علم الدين — لا زال جزيلُ إحسانه ، أَوْضَحَ من نارٍ علىٰ عَلَم ، ومزيدُ آمتِنانه، يشمَلُ أربابَ السيفِ والقَلَم، وسُحُب بَنانِه تَسُحُّ فلا تَشِحُّ بجزيل الكَرَم .

علاء الدين — لا زال عَلاءُ دولتِه يصطفِى ذَوِى الفضائل ، ويختارُ من الفُصَحاء من يفُوتُ الأواخرَ كما أضحىٰ يفُوت الأوائِل ، ويقدّمُ مَنْ هو فى تدبيرِ اليَراعة كعلىِّ بن هِلَال وفى حُسْن البَراعة كسَحْبانِ وائِل .

---

(١) لعله « وتستعيد للمناصب ..... وتستزيد فى المراتب الخ » . تأمل .

عِــزّ الدين — لا زالتْ صدقاتُه الشريفة تَزِيد ذَوِى الأقلام، من جزيل الإنعام، فتُنيلُهم عِزّا، وتستجيدُ من كُتّابها الأعلام، من خُصّ بجواهر الكلام، فكلُّ حُسْن إلىٰ كلامه يُعْزىٰ، وتستفيدُ من نُجَباء الأيّام، كلَّ بارع كأنَّ كلامَه زَهْر الكِمام، فلو خاطب سَحْبان لأورثه قُصُورا وعَجْزا .

عِمَاد الدين — لا زالتْ آراؤُه الشريفةُ تتّخِذ من نُجَباء الكُتّاب، عِمادا، وتختارُ من ذَوِى الفضائل فى الخطاب، مَنْ تجِـدُ لكلامه حُسْنا وسَـدَادا، وتُقدّم من أهل الفضل فى السؤال والجوابِ، مَنْ لا تَعْدَم فى كلّ مقاصده رَشَادا .

عضد الدين — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تجعل من إنعامها، لخدّامها، عضُدا، وتلحَظُ بعين إكرامها، وحسن آحترامِها، مَنْ طال فى الفضل مَدىٰ، وتزيّن مطالعَ أيامها، بشُموس أعلامِها، فلا ترىٰ مثلَهم أحدا .

غَرْس الدين — لازالَتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُنْبِت فى روض الإحسان، من أرباب البيَـان، غَرْسا، وتجتنِى من كِمام اللّسان، أزاهِرَ النُّكَت الحِسان، وتزيّنُ بها طِرْسا، وتُفيض من مَواهب البنَـان، ما يشهَد لهـا بجزيل الآمْتِنان، فيَطِيب كلُّ آملٍ نَفْسا .

غياث الدين — لا زالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُبْـدِى لكلّ آملٍ غِياثَهـا، وتُضفِى ظِلَّها علىٰ من آستجار بها وآستَغاثَها، وتنْطِق ألسُنُ أقلامها، بمواهب إنعامِها، فتبذُل طريفَها وتُراثَها .

فتح الدين — لا زالتْ صـدَقاتُه الشريفةُ تتخيّرُ من ذَوِى الأقلام، مَنْ يفتح أبواب الكلام، فتحا، وتَهَب جزيلَ الإنعام، لمن يستحقه من الكُتّاب الأعلام،

فينال بذلك ثناءً وربحا، وتُقرّب بيد العناية والإكرام، من ذوى الرياسة والاحترام، مَنْ هزّ على البلغاء قِدْحا .

فخــر الديـن — لا زالت آراؤه الشريفة تُنصّب فى المناصب، من يَزيد بحُسْن مباشرته فخـرها، وتُمْطِى ظُهورَ المراتب، من إذا أظلمت الأيامُ لعدم فاضل ظهرَ بفضيلته فجْـرُها .

قُطْب الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُدير علىٰ قُطْب البـلاغة من أرباب البراعة نُجُوما، وتُشير بعنايتها إلىٰ مَنْ حاز من الفضل فُنُونا وأحيا من الآداب رُسوما، وتُنير بدُورَ سعدها لمن لم يزل قلمُه لأسرار المُلْك كتُوما .

كريم الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفة تشـمَل من ذوى الفضائل مَنْ عُدّ فى فضـلِه وأصلِه كريمـا، فتُقدّم مَنْ لا له فى البلاغه ممـاثلٌ فلا يَزالُ بكل فَنٍّ عليما، وتُنَصّب فى المَنـاصب مَنْ فات قُسّ الأوائل رأيا وفاقَ قُسًّا بحـديث بلاغته قديمـا .

كمال الديـن — لا زالتْ سعادتهُ الباهره، تُطْلِـعُ فى سماء العَلْياء مَنْ فاق البُدورَ كمالا ، وأوامرُه القاهره، تُقدّم أسنىٰ البُلَغاء جَلالا، وأسمىٰ صدقاته الوافيه، تعُمّ من ذوى الفضائل مَنْ زاد المَناصِبَ بحُسن مباشرته مَهابةً وجَمالا .

مجد الديـن — لا زالت صدَقاتُه الشريفةُ تملّك أعنّةَ الأقلام، من تراه لها مَجْدا، وتُودِع بجيد الأيّام، من جواهر الفضلاء عقْدا، وتشمل بأياديها الكرام، مَن اذا جُمِع البُلَغاء كان بينهم فردا .

محيى الدين — لازالت أوامره الشريفة تشمل من البلغاء من شهر بفصل الخطاب، وإذا ماتت الفضائل يحييها، وغيث جوده الهامى[(١)] يفيض فيض السحاب، فيبادر العفاة ويحييها، وعنايته تعم ذوى الألباب، فتمهد رتب العز وتهييها .

موفق الدين — لازالت صدقاته الشريفة تطلع كل هلال من اهتدى به كان موفقا، وتملك اليراع من يزرى بابن هلال أنى كتب: رقاعا ومحققا ، وتفيض لراجيها أفضل نوال من شبهه بالغيث كان محققا .

ناصر الدين — لا زال يقرب من أضحى لأهل الكلام ، بمرهفات الأقلام، ناصرا، ويهب طويل الإنعام، لمن باعه مديد فى النثر والنظام، فما برح فضله وافرا، وينتخب من غدا شريعا لعادات الكرام، مضارعا لصفات الكتاب الأعلام ، وأصبح فى البيان نادرا .

نجم الدين — لازالت أوامره الشريفة تطلع فى أفق السعاده، من ذوى السياده ، نجما، وتعم بجزيل الإفاده، من عرف بالفضل وبالإجاده، وفاق أقرانه نثرا ونظما، وتسمح من عنايتها بالإراده ، لمن هو أهل الحسنى وزياده، فتجزل له من كرمها قسما .

نور الدين — لا زالت صدقاته الشريفة تعم بالنوال، من هو فى البراعة متسع المجال، فيزيد الكلام نورا، وحسناته تشمل ذوى الآمال، بما يحمد فى البدء والمآل ، فتملأ القلوب سرورا ، ومبراته تصل أولى الكمال ، وتنتخب أخيار العمال، فلا برح أنفذ الملوك أمورا .

(١) فى الاصل «الوهام» ويظهر أنه تحريف .

نظـام الديـن — لازال يتخيَّرُ مَنْ كان فى الناس مَجيدا، وفى البيان مُجيدا، فحَسُن لفظُه نِظاما، ويَهَبُ مِن بِرِّه مَزِيدا، لمن كان فى الخدمة مُرِيدا، فلا ينقُض للنصيحة ذِمَاما، ويبذُل كَرَمًا مُفيدا، لمن يراه فى الفضـل مُبْدِئا ومُعيدا، فحاز فَخَارًا وطابَ كَلَاما .

هُمـام الديـن — لازال يرتَضِى مَنْ هو فى فُرْسان اليَرَاعة أنهضُ هُمَـام، ويقتضِى وعْدَ كرمه لمن نهضَ فى الرياسـة نُهوضَ اهتِمام، وينتضِى عَضُـد[1] ذهنه فيصيب مَفْصل كلِّ كَلَام .

وَلِىّ الديـن — لازال يُحلِّى أجيادَ المناصب من ذَوِى البلاغه، بمن يُحسِن فى الكلام الصِّـياغة، فينظمه حُلِيًّا، ويُحلِّى كُرَب المراتب من فُرْسان اليراعه، بمن راحَ فضلُه ولفظُه جَلِيًّا؛ ويُولِّى المناصبَ من غدا فى البيان وافر البضاعه، فاتخذَتْه الأقلامُ وليًّا .

---

(١) لعل الصواب معضد كثير : تأمل .

الضــرب الرابــع

(من الوظائف التى يُكتب فيها بالديار المصرية مَشْيخةُ الخوانق، وكلُّها يُكتب بها تواقيعُ)

وهى على طبقات:

الطبقــة الأولى

(مايكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» مفتتحا بـ«الحمد لله» وهو مَشْيخة الشـيوخ خاصّـة)

وٱعلَمْ أنَّ مشيخةَ الشُّيوخ كانت فيما تقدّمَ تُطلَق على مشيخة الخانقاه الصَّلاحيَّة، «سعيد السعداء» فيكتَبُ فيها بذلك. ولم يزل الأمرُ على ذلك إلى أن بَنَى السلطان الملك الناصرُ «محمدُ بن قلاوون» الخانقاه الناصريَّةَ بِسرياقُوس، ٱستقرتْ مشيخةُ الشيوخ على من يكون شيخًا بها، والأمرُ على ذلك إلى الآنَ.

وهــذه نسخةُ توقيع بمَشْيخة الشُّيوخ بالخانقاه الصَّلاحية «سـعيد السُّعداء» بالقاهرة المحروسةِ باسم الشيخ شمس الدِّين بن النَّخْجُوانىّ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله العمرىّ، وهى:

الحمدُ لله مُرقِّى أوليائه، ومُوَفِّى أصـفيائِه، ومُلَقِّى كلمةِ الإخلاص لمن تلقَّى سرَّها المصُونَ عن أنبيائِه.

نحمدُه على مُصافاةِ أهـل صَفائِه، ومُوافاة نِعَمنا لمن تمسَّك بعُهود وَفائه، وتَسَلَّك فأصبحتْ رجالٌ كالجواهر لا تنتظم فى سِلْكه ولا تُعَدّ من أكْفائه، وطلَعَ للدِّين شمسًا يُباهِى الشمسَ بضيائه، ويُباهِلُ البدرَ التّمـامَ فيتغيّرُ تارةً من خَجَله وتارةً من حيائِه.

ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نعـدُّها ذُخْرا للقائه ، وفخرا باقِيًا ببقائِه ، راقيًا فى الدرجات العُلىٰ بارتقائِه .

ونشهد أنَّ سـيدَنا محمدا عبدُه ورسـولُه مبلِّغُ أنبائه ، ومسَوِّغُ الزُّلفىٰ لأحِبَّائه ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه والتابعين لهم بإحسانٍ من أهل وَلَائه ، ومَنْ عَرَف به اللهَ لَمَّا تفكَّرَ فى آلائِه ، صـلاةً يُؤمَّل دوامُها من نَعْمائه ، ويؤمِّن عليها سُـكَّانُ أرضه وسَمـائِه ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن أَوْلىٰ ما آستقامَ به [الشخص على] الطريقَه ، وآستدامَ به الرجوعَ إلى الحقيقه ، وآستَنَام به يطمئن إلىٰ خالقه لا إلى الخليقه ؛ وحفظ أُفُقه بنيِّرٍ تستضىء به النيِّرات ، ونَوْءٍ تتقسَّم به الغمائمُ المُطِرات ـ طائفـةُ أهل الصَّـلاح ، ومن معهم من إخْوان أهلِ الصـفاء الصُّوفيَّة داعِى الفَلَاح ؛ ومن تَضُمُّهم من الواردين اليهم إلىٰ جَنَاح ، والصادِرِين عنهم بنَجاح ؛ ومن تُفْتَح له فيهم أبوابُ السماء ، وتُمنح بتَفَسهم عامةُ الخلق مَلَابِسَ النعماء ؛ ومن يُكشَف بتهجُّدهم جُنْحُ كلِّ ظَلام ، ويُكسَفُ بتوجُّههم عارضةُ كلِّ بدْرِ تمـام ؛ ويُستشفىٰ ببركاتِهم من داء كل سَقَام ، ويُستَسْقىٰ بدعائهم إذا قَصَّر النِّيلُ وقَصَّ جناحَه الغَمَام . وهم أولياء الله وأحِبَّاؤه ، وبهـم يتعلَّل كل لبيبٍ هم سَقامه وهُم أطبَّاؤه ؛ أنحلَهُم الحبُّ حتّىٰ عادوا كالأرْواح ، وأشغلهم الحبُّ بصوتِ كلِّ حَمام شجاهُم لمَّا غنَّىٰ وبرَّحَ بهم لمَّـا ناح ؛ وأطربَهـم كلُّ سَمْع فوجدُوا بكل شيء شَجَنا ، وعذَّبهم الهوىٰ فاستعذَبُوا أن لا يلائمُوا وَسَنا ؛ ومثَّل فرطُ الكَلَف لهم الأحباب فمـا رأَوْا لهم حالًا إلا حَسَنا ، وأثقـلَ تكرارُ الذِّكْرىٰ قلوبهم فمـا عَدُّوا غُرْبةً غُرْبةً ولا وطَنًا وطَنًا ؛ قَرَّبت المحبةُ لهم فى ذات الله كلَّ مُتباعِد ، وألَّفَتْ أَشتاتَهم فاختلفَت الأسمـاءُ والمعنىٰ واحد .

والخانقاه الصلاحيّةُ بالقاهرة المحروسة المعروفةُ بـ«سعيد السعداء» ـ قدّس الله رُوح واقفها ـ هى قُطْب نُجومهم السائره، ومراكزُ أفلاكهم الدّائره، وإليها تحطُّ رِحَالُ سُفَّارهم، وعليها تحطُّ رِحَال أسْفارهم، تضطرب فِرَقُهم فى البِلاد وإليها مَرْجِعُهم، وعليها مجتمعُهم، وفيها مواضعُ خلَوَاتهم، ومطَالِع جَلَواتهم، ومكانُ صَلَاتهم، وإمكانُ صِلاتهم، ومَشْرِق شُموسهم، ومُؤْنِق غُروسهم، ومِنهاجُ طريقتهم، ومِعراجُ حقيقتهم، مأْوىٰ هـذه الطائفةِ الطائفة فى شَرْق البِلاد وغَرْبها، وبُعْدها وقُرْبها، وعَجَمها وعُرْبها، ومَنْ رفع سُجوفَها أوهو محجوبُ بحُجُبها، والمؤهَّلة والعراب، وأهل الاغتراب، هى فَسيحُهم الرَّحيب، وصَفيحُهم القريب، ومِثالُهم إذا اجتَمَعُوا فى الملإ الأعلىٰ زُمَرا، واختَرقُوا المَهَامِهَ وما جازوا بَيداءَ ولا جابُوا مُقْفِرا، وبلغُوا الغايةَ وما أزعج رِكابَهم حادٍ فى ليلِ سُرىً، ووصلُوا وما فارقُوا فُرُشَهم المُمَهَّدة إلىٰ ما وراءَ الورىٰ، شرطُ كلِّ خانقاه أن لا تُغْلَق فى وجه من ينْزِل فيها بابا، ولا تُطيلَ جهاتُها المُمنَّعةُ له حِجَابا، ولا تُعْجِلَ مقاماتُها المرفعة له قبل (١) ... ...

✣

وهذه نسخة توقيع بمَشْيخة الشيوخ، وهى مَشْيخة الخانقاه الناصريّة بِسرياقَوْس، ممـا كُتِب بذٰلك للشيخ نِظام الدين الأَصْفِهانى، من إنشاء السـيد الشريف شمس الدين :

الطـرّة

توقيعٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلى المجلس العالى، الشـيخىّ، النّظامىّ، إسحٰق ابن الشيخ المرحوم جلال الدين عاصِم، ابن الشيخ المرحوم سعد الدين محمد الأصفِهانىّ

(١) بياض فى الأصل وبه علامة التوقف .

القُرشىّ الشافعىّ ـ أدام الله النفع ببركته ـ مشيخةُ الخانقاه السعيدةِ الناصريّة بسِرياقَوْس ـ قدّس الله رُوح واقِفها ـ ومشيخةُ الشيوخ بالديار المصريّة والبِلاد الشاميّة والحلبيّة ، والفُتوحات الساحليّة ، وسائر المَمالك الإسلاميّة المحروسة ، علىٰ عادَته فى ذلك وقاعدَته ومعلُومه ، وأن يكون ما يخصّ بيتَ المال من مِيراث كلّ من يُتوفّىٰ من الصوفيّة بالخانقاه بسِرياقَوْس للشيخ نِظام الدين المشارِ إليه ، بحيث لا يكونُ لأمِين الحكم ولا لِديوان المَوارِيث معه فى ذلك حديثٌ ، وتكونُ أمور الخانقاه المذكورةِ فيما يتعلّق بالمَشْيخة وأحوالِ الصوفيّة راجعةً للشيخ نِظام الدين المشارِ إليه ، ولا يكونُ لأحدٍ من الحُكّام ولا من جِهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذلك حديثٌ معه ، ولا يَشْهدُ أحدٌ من الصوفيّة ولا ينْتَسِب إلا بإذنه ، علىٰ جارى عادته فى ذلك علىٰ ما شُرِح فيه ، وأوله :

الحمدُ لله علىٰ نِعمه التى ألّفتْ للصالحِين من عباده نِظاما ، وآستأنفتْ للصّالحين إلىٰ مُرادِه إحراما ، وصرّفتْ أوامرَنا بالعدْل والإحسانِ لمن فوّض أمُورَه إلىٰ ربّه فأنجح له من مَزِيد التأييد مُرادًا ومَراما ، وعطَفتْ بأوجه إقبالها الحِسانِ علىٰ من هو متنزّه عن دُنياه ، متوجّهٌ إلىٰ أخراه ، يُمضى نهاره صِيامًا وليْلَه قِيامًا .

نحمده علىٰ أنْ جعلَنا نَرْعىٰ للأولياء ذِمَاما ، ونَسْعىٰ بالنّعماء إليهم ابتداءً وإتْماما ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً ترفَع للمخْلصين فى عِلّيّين مَقاما ، وتدْفَع بأعمال الصّدْق عن المتوكّلين عليه بَأْسا وأسْقاما ؛ ونشهد أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعله للمتّقين إمامًا ، وفضّله على النبيّين إجلالًا وإعْظاما ، وكمّله بالسّمات المُكرّمات ، والصّفات المشرّفات ، مما لايُضاهىٰ ولا يُسامىٰ ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله الذين شَرُفوا إضافةً إلىٰ نسبه الشريف وآنْضماما ؛ ورضى اللهُ عن أصحابه

الذين عرفوا الحقّ فبذلوا فى إقامته ٱجتهادًا وٱهتمامًا، صلاةً تُجمِل ٱفتتاحا وٱختتامًا، وتُجزِل إرباحًا و إنعامًا، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فشيمُنا العدلُ والإنصاف، لمن له بيُمنِ الأعراق ٱتصالٌ وبحُسن الأخلاقِ ٱتّصاف، ومن كرمِنا الفضلُ والإسعاف، لمن لاخفاءَ فى تعيُّنه لتصدير التقديم وتكريرِ التكريم ولا خلاف، ومن سجايانا الجميلةِ أن لا تُضاع حقوقُ مَنْ هو فى الزَّهادة والعُبوديّة إمامٌ، لألسنة الأيّام، بحِلاه الحسنة إقرارٌ وٱعتراف، ولمزايانا جميلُ المحافظةِ، وجليلُ الملاحظةِ، لمن توكّل على الله حقّ التوكّل فله ٱنتصارٌ بالله تعالى وٱنتصاف: لأنّه العريقُ الأسلاف، الرّفيق بالضّعاف، الحقيقُ بتوفير التوفيق الذى له بحركاته المباركة ٱكتناف ، المُطيقُ النّهوض بأعباءِ الرّياسة: لأنّ للقلوب علىٰ محبّته ٱئتلاف، السَّبوقُ إلىٰ غايات الغَلَوات الذى تخِفُّ به فى بُلوغ آماد الإسعادِ من الله تعالىٰ ألْطاف، والصّدوقُ النيّة مع الله تعالىٰ فكَمْ والىٰ لنعمائه الزيادةَ والاستئناف .

وكان المجلسُ العالى الشيخىّ، الإمامىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العاملىّ، الأوحدىّ، القُدْوىّ، الورَعىّ، الزاهدىّ، الناسكىّ، الخاشعىّ، السالكىّ، الأصيلىّ، العريقىّ، القوامىّ، العلّامىّ، النّظامىّ : جمالُ الإسلام والمسلمين، شرفُ العلماء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاء ، قُدوة المشايخ ، مربّى السالكين ، كنزُ الطالبين، موضّح الطريقه، مبيّن الحقيقه، شيخُ شيوخ العارفين، بركةُ الملوك والسّلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين ، إسحٰق ٱبن الشيخ المرحوم فلان ـ أدام الله النفْعَ ببركاته ـ هو المفوّضَ أموره إلىٰ ربّه ، المُعرِضَ عن الدنيا بباطنه وقلبه، المتعوّض بما عندَ الله من فضله فما زال الإيثارُ من شأنه ودأبه ، إلىٰ إخوانه وصَحْبه ، فهو من الذين يُطْعمون الطعامَ علىٰ

حُبِّه، ويُلْهَمُون من العمل المبْرُور إلىٰ أقربه من الله وأحبِّه، ويقُومون الظَّلامَ مع أولياء الله المخلصين وحِزْبه، ويستديمونَ الإنعام من الله تعالىٰ بالإحسان إلىٰ عبادِه ففرعُهم لأصلِهم فى صُنْعهم مُشْبِه، ويستسْلِمُون لأحكامِ الله تعالىٰ وكلُّهم شاكر لربِّه، علىٰ حُلْو القضاء ومُرِّه صابرٌ علىٰ سَهْل الأمرِ وصَعْبِه، سائرٌ بالصِّدق فى شَرْق الوجود وغَرْبِه، مثابرٌ على الحق فى عَجَم الخلق وعُرْبِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا زال يُوصِّل الحقُوقَ إلىٰ مستحِقِّيها، ويُجمِّل الوثُوقَ بمن تتجمَّل المراتبُ الدينيةُ منه بترقِّيها ـ أن يفوِّض إلى المُشار إليه مشيخةُ الخانقاه السعيدة الناصرية بسِرْيَاقَوْس ـ قدّس الله رُوح واقفِها ـ ومشيخةُ الشيوخ بالديار المصريَّة، والبلاد الشاميَّة والحلبية، والفُتوحات الساحليةَّ، وسائر الممالكِ الإسلاميَّة المحروسة، علىٰ عادَتِه فى ذٰلك وقاعدتِه ومعْلُومه، وأن يكون ما يُخصّ بيتَ المال المعمُورِ من ميراث كلّ من يُتوفَّى من الصُّوفية بالخانقاه المذكورة لِلمشارِ إليه، بحيث لا يكونُ لأمين الحكم ولا لدِيوان المَوارِيث معه فى ذٰلك حديث، وتكون أمورُ الخانقاه المذكورةِ فيما يتعلّق بالمَشْيخة وأحوال الصوفيَّة راجعةً إليه، ولا يكُون لأحدٍ من الحكّام ولا من جهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذٰلك حديثٌ معه، ولا يشْهَد أحدٌ من الصُّوفية ولا ينْتَسب إلا بإذنه على العادةِ فى ذٰلك، ويكون ذٰلك معدُوقًا بنظره .

فلْيعُدْ إليها عَوْدا حميدا، وليُفِدْ من الإصلاح مالم يَزَلْ مُفيدا، وليعتَصِمْ بالله تعالىٰ مَوْلاه فيما تَوَلَّاه وقد آتاه اللهُ تثْبِيتا وتَسْديدا، وليُشْهِد بها من القوم المباركين مَنْ [كان] عَوْدُه قبل الصوم عيدا، وهو أعزَّه الله تعالىٰ المسعودُ المباشَره، المحمودُ

المُعاشَره، المشهودُ منه اعتمادُ الاجتهادِ فى الدنيا والآخره، المعهودُ منه النَّفع التامّ، فى فُقَراء مصرَ والشام، فكم أثرُ الخير وآثره، وكثَّرَ البِرَّ وواتره، ويسَّر السيرَ الحسن الذى لم يبرح لسانُ الإجماع شاكِرَه.

ونحن نُوصِيه عملاً بما أمر الله تعالىٰ به رسولَه صلى الله عليه وسلم فى كتابه المُبين، بقوله وهو أصدقُ القائلين: ﴿ وذكّر فإنّ الذِّكْرَىٰ تنفعُ المُؤمنين ﴾ وإن كنا نتحقق ما هو عليه من العلم والدِّين، والحِكَمِ الرَّصين، والزُّهد والورَع اللذين نحن منهما علىٰ بيِّنة ويقين، باتِّباع شرُوطِ الواقفين، والإمتاع بالعوارف أولياءَ الله العارفين: فإنّه ما زال حيثُ حلَّ فى جميع الآفاق، واصلاً للأرزاق، مُواصلا بالأشواق، شاملاً بالإرفاق، عاملاً بالحقّ فى إيصال الحقُوق لذوى الاستحقاق. ونأمُرُهم أن يكونَ لهم علىٰ تكريمه اتِّفاق، وفى مُتابعته اجتماع واتِّساق، فإنّه شيخُ الطَّوائف، وإمامٌ تُقتبَس منه اللَّطائف، وتُلتمَس منه الهدايةُ فى المَواطِن والمَواقف، والله تعالىٰ يمتّع ببركاته الأمّه، ويَسْمَع منه فى الخلَوات لنا الدَّعواتِ التى تكونُ لأوراده المقبولة مفتتِحةً ومُتمَّه، ويصِلُه بعنايته التى تقيِّد الهَمَّ وتؤيِّد الهِمَّه، ويجعله حيثُ كانَ للفقراء نعمةً وبيْنَ الناس رَحْمَه، والعلامةُ الشريفةُ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه.

الضـــربُ الخامس

(من أرباب الوظائف بالدّيار المصريّة بالحضرة ـ أربابُ الوظائف
العاديّة، وكلُّها تواقيعُ)

وهى علىٰ طبقات :

الطبقـــة الأُولىٰ

(مَـنْ يُكتَب له فى قَطْع النصف بالمجلس العالِى، وهو رئيسُ الأطبَّاء
المتحدّثُ عليهم فى الإذن فى التطبُّب والعلاج والمنْع من ذٰلك
وما يجرِى هـــذا المَجْرىٰ)

وهذه نسخة توقيع بِرياسة الطِّبّ ، وهى :

الحمـدُ للهِ مُؤْتِى الحكمةِ مَنْ يشاءُ من عباده، ومُعْطِى أمانةِ الأرواح مَـنْ تَرَقَّى فى حفظها إلىٰ رُتْبة ٱجتهاده، وجاعلِ علمِ الأبْدان أحدَ قِسْمَيِ العلمِ المُطْلَق فى حالَيِ ٱجتماعِه وٱنفِراده، وموفِّق من جعل نُصْح خلقِ الله فيـه سببًا لسعادة دُنْياه وذخيرةً صالحةً ليوم مَعاده، ومُبلِّغ[1] مَنْ كان[دائبا] فى إعانة البريَّة علىٰ طاعةِ ربِّها بدَوامِ الصِّحَّة غايةَ مَرامه وأقصىٰ مُراده ، ورافعِ رتْبـةِ من دَلّ ٱختيارُه وٱختبارُه علىٰ وُفُور علمِه ونُجح علاجِه و إصابةِ رأْيه وسَدادِه .

نحمَـده علىٰ نِعمه التى خصَّتْ بنِعَمِنا من كُلٍّ فى نَوْعه وفضْـله وحَسُن فى علْمـه وعمَلِه قولُه وفِعلُه ، وجمعَ من أمانةِ وظيفتِه ومعْرِفتِها ما إذا جَلَس فى أسْنَى مناصبِها قيل : هذا أهْلُه .

(١) فى الأصل "ومقلب ... ... بدوام الصحة" الخ تأمل .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُشْرِق البصائر، بأضْوائِها، وتُفْرِق الضمائرُ، باخلاصها من أدوائِها[1]، وتُغدِقُ بيُمنها أنواءُ التوفيق فتتأرّج رياضُ الإيمانِ بين رُوائِها وإرْوائِها. ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أنارتْ ملّتُه، فلم تخْفَ على ذى نَظَر، وعلَتْ أدلّتُه، فلم ينَلْها مَنْ فى باع رَوِيَّته قِصَر، وبهرتْ مُعجزاتُه فلو حاولت الأنفاسُ حصْرَها أفناها العِيُّ والحَصَر، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين كانُوا لأدْواء القلوب عِلاجًا، ولسَلْسبيل الإيمان مِزاجا، وللبَصائر السائرةِ فى دُجىٰ الشُّبهات سِراجا، صلاةً دائمةَ الإقامه، متصلةَ الدَّوام إلى يوم القِيامه، وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعد: فإنَّ صِناعة الطِّبّ علم موضوعُها حفظُ الأبدان النَّفيسه، ومقصُودُها إعانةُ الطبيعة على حِمَاية الأعضاءِ الرَّئيسه، ومَدارُها الأعمّ، على معْرِفة العَوارِض وأسبابِها، ومَدْرَكُها الأتمّ، الوقُوعُ على الصواب فى معرفةِ الجُسوم وأوْصابِها، وحينئذٍ تتفاوتُ رُتَبُ أهلها عند تشعُّب مَدارِكها، واختلافِ مَسالِكها، وتَشابُهِ عِلَلِها، والتباس صَوابِها بخَلَلِها، إذ لا يميِّز ذٰلك حقَّ تميـيزِه إلا مَنْ طال فى العِلم تبحُّره، وحَسُن فى رُتَب هذا الفنّ تصدُّرُه، وطابَق بين نَقْله وعلاجِه، وعَرَف حقيقةَ كل مركَّب من الأدوية ومُفْرَدٍ بعينه واسمه وصفتِه ومِزاجه، وتكرّرتْ عليه الوقائعُ فعرَفَها دُرْبة وأحكمها نَقْلا، ولُقِّب بشرْعة التقوىٰ إذ كان الإقدامُ على النفُوس قبل تحقُّق الداء والدَّواء مذمُومًا شرعًا وعقلا، ولذٰلك تحتاجُ إلىٰ رئيس يُنْعِم فى مَصالحها نَظَره، ويُجْمِل فى منافِعها وِرْدَه وصَدَره، ويعتبِر أحوالَ أهلها بمِعْيار فضلِه، ويُلْزِم الداخلَ فيها ببُلوغ الحدّ الذى لا بُدّ منه بينَ أرباب هذا الشأن

(١) من أفرق المريض والمحموم برأ.

وأهلِه ، ويَعْرِف لأكابرهذا الفنّ قدرَ ما منَحهم الله من عِلْمٍ وعَمَل ، ويَبْسُط رجاءَ المبتدئِ إذا كمّل نفسه حتّى لا يكُون له فيها بغيركمال الاستحقاق طمعٌ ولا أمَل .

ولما كان المجلسُ السامِي ، القاضي ، الأجلُّ ، الحكيم ، فلانُ الدين : هو الذى بلَغ من العلم غايةَ مُراده ، وٱحتوىٰ من هذا الشان علىٰ ما جمَع به رُتَب الفاضلين فيه على ٱنفراده ؛ فلو عاصَره «الرئيس» لٱعتمَد عليه فى كُلّيَّات قانونه ، أو « الرازىُّ » لعلم أن « حاوِيَه » من بعض فنونه ؛ قد حَلَب هذا العِلْمَ أشْطُرَه ، وأكمل قراءةَ هذا الفنّ رُموزَه وأسْطُره ، وحلَّ أسرارَه الغامضـه ، وٱرتوىٰ من سُحُب رُموزه بأنْواءٍ لم يَشِم غيرُ فكرِه بُروقَها الوامِضـه ؛ وأسلَفَ من خِدْمة أبوابنا العالية سفَرا وحضَرا ما ٱقتضَىٰ له مزيةَ شُكْره ، وتقاضَىٰ له مزيدَ التنبيـه علىٰ قَدْره والتنويهِ بذِكْره ؛ وحُمِد فيـه القَرِيدان : صحةُ نقْلِه وإصابةُ فِكْره ، وعُلِم أنه جامعُ علوم هذه الصِّناعة فلا يشِذُّ منها شيءٌ عن خاطره ولا يَغِيب منها نَقْل عن ذُكْره .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال شِهابُ فضله لامعا ، وسَحاب برِّه هامعا ــ أن يكونَ فلان متولِّيَ رياسة الأطباء بالديار المصرية علىٰ عادة مَن تقدّمه .

فلْيباشرْ هـذه الرياسةَ ناظرا فى مَصالحها ، مُطْلِعا من شِهاب فضله مايَزِين أُفُقَها زينـةَ السماء بمصابيحها ؛ متفقّدا أحوالَ مباشِريها ، متلمِّحا أحوال المستقلّ بأعبائها والداخلِ فيها ؛ سالكًا فى ذٰلك سبيلَ مَن تقدّمَه من رُؤسائها ، حاكمًا فى أمُورها بمـا جرَتْ به العادةُ المستقرّةُ بينَ أكابرِها وعلمائها ، مُطارِحا مَن قَدُمت هجرتُه فيهـا بمـا يقتضِى له مراجعةَ أصُوله ، مُلْزِما من ظهَر قصُورُه فيها بالتدرُّب إلىٰ حدٍّ لايُقْنَع منـه بدُون حصُوله ؛ مجيبًا فى الإذن لمن أظهرَ الاستحقاقُ صِـدقَ ما ٱدّعاه ، قابلًا فى الثُّبوت من مشايخ هـذه الصِّناعة من لايَشْهد إلا بمـا علمه ولا يُخْبِر من التدرُّب

إلا بمـا رآه ووعاه، متحرّيًا فى الثبوت لدينه، آذنًا بعد ذٰلك فى التصرّف إن ترقّى علمُه باستحقاقه إلىٰ رتبة تعيينه؛ وليُعْطِ هذه الوظيفةَ حقَّها من تقديم المبرّزين فى علمها، وتكريم مَنْ منحه الله درجتَىْ نقلها وفهمها، وتعليم مَن ليس عليه من أدواتها المعتبرة غيرُ وَسْمها وآسْمها؛ ومَنْع من يتطرّق من الطُّرُقية إلىٰ معالجة وهو عارٍ من ردائهـا، وكَفّ يَدِ من يتهجّم على النفوس فيما غَمُض من أدوائها قبل تحقّق دوائها؛ وآعتبارِ التقوىٰ فيمن يتصدّىٰ لهذه الوظيفة فإنّها أحدُ أركانها، وآختيارِ الأمانة فيمن يصْلُح للاطلاع على الأعضـاء التى لولا الضرورةُ المبيحةُ حَرُم الوقوفُ علىٰ مكانها؛ وليكُنْ فى ذٰلك جميعه مجانبا للهوىٰ، ناويًا نفع الناس فإنما لامرئ مانوىٰ؛ والله تعالىٰ يحقّق له الأملَ، ويسدّده فى القول والعمل، بمنّه وكرمه!.

قلت: وربمـا آفتتح توقيعها بـ«أما بعد حمد الله».

وهذه نسخةُ توقيع برياسة الطّب، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمود الحلبىّ، كُتِب بها لـ«شهاب الدين الحكيم» فى المحرّم سنة تِسْع وسبعمائة، وهى:

أمّا بعـدَ حمدِ الله حاسم أدْواء القلوب بلطائف حِكَمتـه، وقاسم أنواع العُلوم بين مَنْ كُل آستعدادُهم لقَبُول ما آقتضَتْه حِكمةُ قسمته؛ وجاعلِ لباس العافية من نِعَمه التى هى بعدَ الإيمـان أفضـلُ ما أفاضَ على العبد من بِرِّه وأسبغَ عليه من نعمته، والمنزّلِ من القُرءان ماهو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين قُلْ بفضْـلِ اللهِ و برحمتـه؛ ومقرِّبِ ما نأىٰ من الفضائل علىٰ مَنْ أسرىٰ إليها علىٰ مَطايَا عزْمِه وسَرىٰ لتحصيلها علىٰ جِياد هِمّتـه، ومُلْهِم آرائنا بتفويض أمانة الأرواح إلىٰ من أنفق فى خدمة الطبيعة أيّامَ عُمْره فكان بلوغُ الغاية فى علمها نتيجةَ خِدْمته؛ والصـلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى شرحَ اللهُ بالهـدىٰ صدُورَ أمّته، وخصَّـه منهم بأعلامِ كلّ علم وأئمّته، وجلا

بيقينٍ ملّته عن كلّ قلبٍ ماران عليه من الشّك وغُمّته، وعلىٰ آله وصحبه الذين حَماهم من الزَّيْغ والزَّلَل ما بحّر الهُـدىٰ لهم من جَوامِـع الكَلِم وأفاضَ التُّقىٰ عليهم من أنوار عِصْمته ـ فإنّ أَوْلىٰ الأمور أن يُعتَمَد فيها علىٰ طَبيبِها الخبير، ويُصانَ جَوْهَرُها عن عَرَض العَرْض علىٰ غير ناقِدِها البصير؛ وتُحْمىٰ مَوارِدُها عمن لم يعرف كيف يجتنب مَواقِـعَ التكدير، وتُرفَع كوا كِبُها عمّن لم تُدرِك أفكارُه دقائقَ الحوادث وحقائقَ التأثير ـ أمرُ صِناعة الطّب التى موضُوعها الأبدانُ القائمة بالعِباده، والأجسامُ القائمة بمـا يتعاقَبُ عليها من الحوادث والزّياده؛ والنُّفوس التى ما عنْها إنْ حصَل فيها التفريطُ بدَلٌ ولا عِوَض، والأرواحُ التى إنْ عَرَض الفَناءُ لجوْهَرِها فلا بَقاءَ بعدَه للعَرَض؛ والطابيعةُ التى إن خُدِمت علىٰ ما يُحَب نهَضت علىٰ ما يجِب بالصِّحَّة حقّ النُّهوض، والأمزِجةُ التى إن نفرَتْ لعدم التأنّى فى سياستها أعجزَتْ مَنْ يرُوض .

ولذلك تفْتقر علىٰ كَثْرة أربابها، وتحتاجُ مع غَزارة المتمسّكين بأسبابها؛ وتُضْطَر وإن آندفعت الضروراتُ بكَثْرة متْقِنيها، وتتشوّفُ وإنْ وُجِد الجمُّ الغفِـير من المتلبِّسين بأدواتها والمُتبحِّرين فيها ـ إلىٰ رئيس ينْعِم فى آعتبارِ أكفائها النَّظَر، ويدْفَع عن رُتْبتها بتطَرُّق غير أهلها الغِيَرْ، ويَعْرِف من أحوالِ مُباشِريها ما لا يَكْفى فى خُبْرها الخَبَر؛ فلا يقبل إلا مَنْ عَلِم مقدارَ عِلْمه، ووَثِق مع الحِفْظ بصحّة فهمه، ورضِىَ عن خُبْره فى الطّبّ وآجتهاده، وآعتبر منـه كل نوع تحتَ أجناسه المتعدّدة علىٰ حِدَته وآنفراده؛ وجاراه فى كُلّيّات الفنّ فرآه فى كلّ حَلْبَـةٍ راكضا، وطارَحه فى فُصول العلم فوجدَه بحمل أعباءِ ما تفرّع منها ناهضا؛ واختَبَر دُرْبتَه فوجدَها موافقة لتحصيله، مطابِقةً لمـا حَواه من إجمالِ كلّ فنٍّ وتفصيله؛ وتتبَّع مواقِعَ دِينه فوجدَها متِينه، ومواضعَ أمانتـه فألْفاها مكِينه، وأسـبابَ شفقتِه ونُصْحه فعرَف أنها علىٰ ما جَمَع من الأدوات الكاملةِ مُعينه؛ ويتعيّن أن يكونَ هـذا «الرئيس» فى أوانه،

و «الرازىَّ» فى زمانه ، و «الفارابىَّ» فى كونه أصلا تتفرّعُ فنونُ الحِكَم من أفنانه ؛ علاجُه شفاءٌ حاضر ، وكلامُه(١) نجاةٌ من كل خَطَر مُخامر ؛ وتدبيرُه للصحّة تقويم ، وتصفُّحه تثقيفٌ لعلماء الصّناعة وتسليم ، ودُروسُه ذخائرُ يُنفق من جواهرِ حِكَمِها كلُّ حكيم .

ولمـا كان المجلس العالى الصَّدْرىّ ، الشّهابىّ : هو المرادَ بالتعيُّن لهذه الوظيفه ، والمقصودَ بمـا أُشيرَ إليه فى آستحقاق هذه الرتبة من عبارةٍ صريحةٍ أو كنايةٍ لطيفه ؛ وأنّه جمع من أدوات هـذا الفن ما آفترق ، وآحتوىٰ علىٰ أُصوله وفُروعه فاجتمعت علىٰ أولَويّته الطوائفُ وآتّفقتْ علىٰ تفضيله الفِرَق ؛ فلو عاصَره «أبقراط» لقضىٰ له فى شَرْح فُصوله بالتَّقْدمه ، ولو أدْرَك «جالينوس» لآقتدىٰ فى العِلاج بمـا علّمه ؛ مع مباشرةٍ أَلِفت بين الصحّة والنُّفوس ، وملاطفةٍ أشرقَت مواقعُ البُرء بها فى الأجساد إشراقَ الشُّموس ؛ وآطّلاع يعْرِف به مبْلَغَ ما عنـد كلِّ متصـدٍّ لهذه الصناعة من العـلم ، وتبحُّرٍ فى الفنون لا يُسـلِّم به لأحدٍ دَعْوى الأهلية إلا بعد حرب جدالٍ هو فى الحقيقة عينُ السِّلْم ـ فرُسِم بالأمر العالى أن يستقرّ فلانٌ فى رياسة الأطبّاء الطبائعيَّـة بالديار المصرية والشام المحروس ، علىٰ عادته وعادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك ، ويكون مستقِلًّا فيها بمفرده .

فلْينظُرْ فى أمرِ هذه الطائفة نظَراً تبرأ به الذمّه ، ويحصُـل به علىٰ رضا الله تعالىٰ ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فى الشَّفَقة على الأُمّه ؛ ويُعطِى به الصناعة حقَّها ، ويُطْلق مِن يدِ مَنْ تطاولَ إليهـا بغير أهليّةٍ رِقَّها ؛ ويصُون النفوسَ من إقْدامِ من تقدّمَ بغير خِبْرة كاملةٍ عليهـا ، ويذُبُّ عن الأرواح تطرُّقَ من يتطرّق بغير معْرفة وافرةٍ إليهـا ، فإنّ فارطَ التفريط فى النفُوس قلَّ أن يُسـتدْرَك ، ومن لم تجتمع فيه

(١) لعل الأنسب "وكلامته" .

أدواتُ المعرفة التامة والدِّين فما ينبغى له أن يدخُل فى المعالجة قبْل الكمال و إن دخَل فلا يُترَك ، فإنَّ من لازمِ صَلاح الأرواح صَلاحَ الأجساد ، و إنَّ الداءَ الذى لا دَواءَ له أن تكونَ العلَّة فى وادٍ والمعالجةُ فى واد؛ فلا يَقْبَل فى التزكِيَة إلا مَن يثق بدِينه كوُثوقه بعلْمه، ولا يُصرِّف أحدًا فى هذه الصناعة إلا الذين زكَتْ أعمالُهم قبل التزكيه، وليَشْفَعها بالامتحانات التى تُسْفِر(١) وجُوه الوثُوق بالأهليـة عن ألم دقائقها المُنْكيه ، فإنَّ العِيان شاهد لنفسه ، ومن لم تنفَعْه شهادةُ فعلِه فى يومِه لم ينْفَعه غيرُه فى أمسه، ولا يُمضِ فيها حُكمًا قبل آستكمال نِصابِ الشَّهاده، وقبل التثبُّت بعد كمالها : فانَّ المعالجةَ محاربةٌ للداء والموتُ بجَهَالة المحارب له شَهاده؛ وليأمُرْ من ألجئَ إلىٰ معالجـة مرض لايعرفُه بمتابعة مَنْ هو أوفَقُ منـه بالتقديم، ومراجعة من هو أعلم منه به : فانَّ الحوادث قد تختلف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾. وملاكُ الأمور تقوى الله فليجعلها حجَّته فيما بيْن الله و بيْنَه، والافتقارُ إلىٰ توفيقه فلْيَصْرِفْ إلىٰ ذٰلك قلْبَه وعيْنَه، والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ .

✣

وهذه وصيةُ متطبِّب طبائعِى، أوردها فى "التعريف" قال :

ولْيتعرَّفْ أوَّلًا حقيقةَ المرض بأسبابِه وعَلاماتِه ، ويَستقصِ أعراضَ المريض قبل مُداواتِه ، ثم ينظُرْ إلى السِّنّ والفَصْـل والبلد ، ثم إذا عرفَ حقيقةَ المرض ، وقدَّرَ ما يحتَمله المزاجُ من الدواء لما عَرَض، يشْرَع فى تخفيف الحاصـل ، وقطْع الواصل، مع حِفْظ القُوىٰ . ولا يهاجِم الداء، ولا يستَغْرب الدَّواء، ولا يَقْدَم علَى الأبدان إلا بما يُلائِمها، ولا يبعد الشبه ، ولا يخرُج عن جادَّة الأطبَّاء ولو ظنَّ

(١) لعله تَسفر عن وجوه الوثوق بالأهلية لتام دقائقها الخ . تأمل .

الإصابة حتّى يقوى لديْه الظنّ و يتبصّر فيه برأى أمثاله . وليتجنّب الدّواء، ما أمكنه المعالجةُ بالغذاء ؛ والمركّب، ما أمكنه المعالجةُ بالمفرد ؛ وإيّاه والقياسَ إلّا ماصحّ بتجريبِ غيره فى مثْل مِزاج من أخذ فى علاجه ، وماعَرَض له ، وسنّه ، وفصْله ، وبلده، ودرجة الدّواء . وليحذَرْ من التجْربة ، فقد قال أبقراط وهو رأسُ القوْم : إنها خطَر . ثم إذا اضْطُرّ إلىٰ وصفِ دواءٍ صالحٍ للعلّة نظر إلىٰ مافيه من المُنافاة وإن قلّتْ ، وتحيّل لإصلاحه بوصف يصْلُح معه ، مع الاحتراز فى وصْف المقادير والكمّيات والكيفيّات ، فى الاستعمال والأوقات ، وما يتقدّم ذلك الدواءَ أو يتأخّر عنه . ولا يأمر باستعمالِ دواء ، ولا مايُستغرب من غذاء ، حتّى يحقّق حقيقته ، ويعرف جديدَه من عتيقه : ليعرف مقدارَ قوّته فى الفعل . وليعلمْ أنّ الانسان هو بِنْيةُ الله وملعونٌ من هَدَمها ، وأن الطبيعةَ مكافية وبُؤْسىٰ لمن ظلَمها ، وقد سلّم الأرواح وهي وديعةُ الله فى هذه الأجسام ، [فليحفَظْها وليتقِ اللهَ ففى ذلك جميعُ الأقسام] (١) وإيّاه ثم إيّاه أن يصفَ دواءً ثم [يكون هو الذى] (١) يأتى به ، أو يكون هو الذى يدُلّ عليه ، أو المتولّى لمناولته للمريض ليستعمله بين يدَيْه ، وفى هذا كلّه لله المنّة ولنا إذ هديْناه له وأرشدْناه إليه .

✢ ✢ ✢

وهذه نسخة توقيع برياسة الكحّالين (٢) .

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٣٩ .

(٢) بياض بالأصل .

الضـــرب السادس
(من أرباب الوظائف بالديار المصـــرية)

زعمـاء أهل الذمة

ويُكتب لجميعهم تواقيعُ فى قَطْع الثلث بألقابهم السابقـةِ مفتتحةً بـ«أما بعـد حمد الله» .

ويشتمل هذا الضربُ علىٰ ثلاث وظائف :

الوظيفـــــة الأولىٰ
(رآســةُ اليهود)

وموضوعُها التحدّثُ علىٰ جماعة اليهود والحُكْمُ عليهم، والقضاءُ بينهم علىٰ مقتضىٰ دينِهم وغيرُ ذٰلك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ النِّحل والمِلَل أنّ الموجودين من اليهود ثلاثُ طوائفَ : وهم الرَّبّانيُّون، والقَرّاءُون، والسامِرة . وقد جرتِ العادةُ أن يكون الرئيسُ من طائفةِ الرَّبّانيِّين دونَ غيرهم، وهو يحكم على الطوائف الثلاثِ .

وهذه نسخةُ توقيع برآسة اليهودِ، من إنشاء القاضى مُحيى الدين بنِ عبْدِ الظاهر، وهى :

أما بعـدَ حمد الله الذى جعـل أَلطافَ هذه الدولة القاهرةِ تَصْطفِى لذِمّتها من اليهود رئيسًا فرئيسا، وتختـارُ لقَوْمها كما آختار من قَوْمِه مُوسىٰ، وتُبهج لهم نُفُوسـا كُلّمـا قدّمتْ عليهم نَفِيسا؛ والصلاة والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ النبىِّ الأُمىِّ، والرسولِ الذى أجلَّ الوصـيّةَ بالمِلّىِّ والذِّمّىِّ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما هَطَل وَبْلىٌ،

وما نزل وَسُمِىَ ـ فإنَّ مَعْدَلة هذه الدولة تكتنِف المِلَل والنِّحَل بالاحتياط ، وتعمُّهم من إنصافها و إسعافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط ؛ وتلمُّهم من حادث الزمن إذا اشتطَّ ومن صَرْفه إذا شاط ، وتضُمُّهم كما ضَمَّت البُنُوة إلى جناح النُّبوة الأسباط ؛ لا تزالُ ترقُب الإلَّ والذِّمه ، فى المسلمين وأهلِ الذِّمَّه ، وتَقضى لهم بحُسْن الخِيرَة ورعاية الحُرْمه ؛ وتُبيحهم من أمر دينهم ما عليه عُوهِدُوا ، وتمنحُهم من ذٰلك ما عليه عُوقِدُوا ؛ وتحفظ نواميسَهم بأحْبارٍ تُحمَدُ موادُّهم إذا شُوفِهوا وتَحْسُن مَرآهم إذا شُوهِدُوا : من كل إسرائيلىٍّ أجمَلَ للتوراةِ الدِّراسه ، وأحسن لأسْفارِ أنبيائه اقتباسَه وأجملَ التماسَه ، ومن نَبَّهَتْه نباهتُه للتقدمة فما طَعِمَ اجتهادَه يومًا حتّى صار وجْهَ الوجَاهة فى قومه ورأسَ الرِّآسه ؛ فأصبح معدُومَ النظير ، معدودًا منهم بكثير ، وموصُوفا بأنه فى شَرْح أسفارٍ عِبرانية حَسَنُ التفسير ؛ واستحَقَّ من بين شِيعته أن يكون رأسَ الكَهَنه ، وأن تُصْبِح القلوبُ فى مجامعهم بحُسْن منطقِه مرتَهَنه ، وبان للجَهالة بتثقيفه لشيعته تحجُبُ عقائدِهم عن أن تغدُوَ ممتَهَنه .

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بَهْجَه ، ولجَسد هذا التفويض مُهْجَه ، ولمَادح هذا الثناء العريض لَهْجَه ؛ ولعينِ هذا التعيين غُمْضَها ، وليد هذه الأيادى بَسْطَها وقَبْضَها ؛ ولأبكار أفكارِ هـذه الأوصافِ متقاضيها ومُقْتَضُّها ، ومَنْ أُدْنِيَتْ قِطافُ النعماء لِيَد تَقْدِمتِه «علىٰ غيظ مَن غُصَّ منها» واجتنىٰ غَضَّها ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يميِّزَ علىٰ أبناء جنْسه حقَّ التمييز ، وأن يُجازَله من التنويه والتنويل أجلُّ ما جيز .

ورُسم بالأمر الشريف ـ لازال يَختارُ فيُجمِل الاختيار ، ويغدُو كالغيْث الذى يعُمُّ بنفعه الرُّبَا والوِهادَ والأثمارَ والأشجار ـ أن تُفوَض إليـه رآسةُ اليهود علىٰ

آختلافهم : من الرَّبَّانيين، والقَرَّائين، والسامرةِ بالديار المصريةِ حماها الله وكَلأَها. فلْيجعَلْ أسبابهم بالتَّقوى تَقوى، وغُروسَهم بالتدبير لاتَذْوى، ومقاصِدَهم لايُمازِجُها شكٌّ ولا شَكْوى، ولْيُنْزِل عليهم مِنًا مَنًّا يسليهم صنعا حتّى لا يُفارقُوا المَنّ والسَّلْوى، ولْيتق الله فيما يذَرُه ويأْتيه ، ويُحسِنْ فى آجتلابِ القُلوب وآختلابِها تأتِّيه ، وإيَّاه والتِّيهَ حتّى لايقال : كأنَّه بعدُ لم يخرُجْ من التيه .

وجماعةُ الرَّبانيِّين فهم الشَّعْب الأكْبَر، والحِزْب الأكثَر، فعامِلْهم بالرِّفق الأجْدىٰ والسِّرِّ الأجدر، ولكُونِك منهم لا تَمِلْ معهم على غيرِهم فيما به من النفس الأمَّارةِ تُؤمر .

وجماعةُ القَرَّائين فهم المعروفُون فى هذه المِلَّة، بملازمة الأدِلّة، والآحترازِ فى أمْرِ الأهِلَّة، فانصِبْ لأمرِهم من لم يَتولَّهْ حين يتَولّه، ومَنْ كان منهم له معتقَدٌ فلا يُخرِج عن ذلك ولا يُحْرَج، ولا يُلْجَم منهم بِلجامٍ من نار إنكارِ من فى ليلة سَبْتِه [بيته] عليه لايُسْرِج .

والسامرةُ فهم الشَّعب الذين آذَن التنظيف أهلَه بحُروبِه، ولم يكُ أحدُهم لَمطْعِمٍ لكم ولا مَشْرَب بأكُولِه ولا شَرُوبِه ؛ فمن قدَرت على ردّه بدليلٍ من مذهبِك فى شُروق كل بحثٍ وغُرُوبه، فاردُدْه من مَنْهج تحيُّده عن ذلك وهُرُوبه، وإلا فقل له : ياسامِرِىُّ بَصُرتُ بما لم تَبْصُرُوا به . ولتكُنْ تستكِلُ فيهم بالبَتِّ، وآرفُقْ بهم فإن " المُنْبَتَّ لا أرضًا قطَع ولا ظَهرًا أبقىٰ " فإيَّاك أن تكونَ ذلك المُنبَتّ، ومُرْهم بملازمة قوانينِهم كَيْلا يَعْدُوَ أحدٌ منهم فى السَّبْت ؛ وآجعلْ أمورَ عقُودِهم مستَتِبَّه، وأحسِنِ التحرِّيَ والتحريرَ لهم فى إتقان كل كِتْبَه ؛ ولا تَخْتَرْ إلا الأعيان، من كل حَزَّان ودَيَّان ؛ ومن كان له من داودَ عليه السلام لُحْمَةُ نَسَب،

وله به حُرمةُ نَسَب ، فارْعَ له حقَّه ، وأَصْحِبْه من الرِّفق أكرمَ رُفْقه . والجزيةُ فهى لدمائكم وأولادكم عِصْمه ، وعلى دِفاعها لا دافعها وَصْمه ، ولأجلها ورَدَ : «مَنْ آذى ذِميًّا كنتُ خَصْمَه» ، وهى أَلَمٌ من السيف إجارَه ، وهى أجرةُ سُكنى دار الإسلام كما هى لاستحقاق المنفعة بها إجارَه ؛ فأدُّوها ، وبها نفوسكم فادُوها ، ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ ، فعُدُّوا ألطافَ الله بها ولا تَعُدُّوها ؛ وداوِمْ على مَدِّه ، زجرا لتاركِ عَلامه ؛ ومن قصد منها خَلاصه ، فقل له فى الملإ : ماذا خَلاصُه ؛ ومَنْ ركَن فى أمرها إلى الإخلاد والإخلال ، وسكَن إلى الإهمال ، ولم يرض بأنَّ رايةَ الذِّلَّة الصفراءَ على رأسه تُشال ؛ فأوسِعْه إنكارا ، وألزمه منها شِعارا ؛ وإن قام بنصْره منهم مَعْشرٌ خَشِن فأرِهم بعد العَلامة خُشْكارا ؛ وخُذْهم بتجنُّب الغِشِّ الذى هو للعهد مغيِّر ومغيِّب ، واكفُفْ من هو بما يُنافيه معيَّر ومعيَّب ؛ وأما من هو مجيبٌ لذلك فهو لقصده محبَّب ، وانقل طِباعَهم عن ذلك وإن أبتْ عن التناقل فأنت ما تتلو : ﴿قُلْ لا يَسْتوِى الخَبِيثُ والطَّيِّب﴾ . وقد عُلِم أن الذى تتعاطَوْنه من نفخ فى البُوق إنما هو كما قلتم للتَّذْكار ، فاجتهدُوا أن لا يكونَ لتَذْكار العِجْل الحنيذ الذى له خُوار ؛ هذه وصايانا لك ولهم فقُلْ لهم : هذه مَوْهِبَة الدولة وإحسانُها إليكم ، ولُطْفها بكم وعاطِفَتُها عليكم ، وبصِّرهم بذلك كلَّما تلا إحسانُنا إليهم : ﴿يا بَنى إسْراءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أنْعمتُ عَلَيكُم﴾ .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع برآسةِ اليهودِ أيضا :

أمَّا بعدَ حمدِ الله على أنْ جعل مُلاحظةَ هذه الدولة القاهرةِ لجميع المِلَل ناظره ، وإحسانَها لا يُغفِلُ مصلحةً لأُولى الأديان غائبةً ولا حاضِرَه ؛ والصلاةِ على سيدنا محمد الذى جعل ذمَّتَه وعهْدَه وَفِيَيْنِ لكل نَسمة مؤمنة وكافره ـ فإنَّ الله تعالى لما مَدّ

رُواق عدلِ هذه الأيام الشريفة على كل مُعاهِد: من متقرِّب ومُتباعِد، وساوى بينهم في النظر الذي صدَق الرأى وصدَّق الرائد ـ اقتضى جميلُها أن يُسْنِيَ لكلٍّ من أهل الذمة أوفرُ نصيب، وأن لا يُقال لأحدٍ منهم من الإجحاف ما يُريب، وأنْ لا تكونَ أمورُهم مُضاعَه، ولا تَعبُّداتهم مُراعَه، ولا شرائعُهم غيرَ مَصُونه، ولا أحكامُهم عارية [عن] حُسْن مَعُونه؛ وكانتْ جماعةُ اليهود وإن كانوا أُولى غَيّ، وصدَق النصارى فيهم وصدَقوا في النصارى من أنهم ليسُوا على شيء؛ لا بدّ لهم من مباشرٍ يأخذُهم بالأمر الأحْوَط، والناموسِ الأضْبَط، والمَراسِيم التي عليهم تُشْرَط؛ وكان الذي يُختار لذلك ينبغي أن لا يكونَ إلا من أكبرَ الكَهَنة وأعلَمَ الأحبار، وممن عَرَف من دينهم ما لأجْله يُصْطفَى ولمِثْله يُختار؛ وممَّن فيه سياسةٌ تحجُزه عن المضارّ، وتحجُبُه عن الاستِنْفار؛ وكان فلانٌ الرئيس هو المتميزَ بهذه الأوصاف على أبناء جنْسِه، وله وازعٌ من نفسه، ورادعٌ من حُسْن حَدْسِه، وخدمةٌ في مهمَّات الدولة يستحقُّ بها الزيادةَ في أُنْسِه؛ وهو من بين جماعته مشهورٌ بالوَجَاهه، موصوفٌ بالنَّباهه؛ ذو عِبْرانيةٍ حسنةِ التعبير، ودراسةٍ لكُتُب أهل ملّته على ما فيها من التغْيير ـ اقتضى جميلُ الاختصاص المُنِيف، أن يُرْسَم بالأمر الشريف ـ لا بَرِح يرقُب الإلّ والذِّمَّه، ويَرْعى للمعاهَدين الحُرْمه ـ أن تُفوَّض إليه رآسةُ اليهود الرَّبَّانيين والقَرَّائين والسامره، على عادةِ من تقدّمه.

فلْيباشرْ ذلك مستوعِبًا أمورَهم كلَّها، مستودَعا دِقَّها وجِلَّها، مباشرًا من أحوالهم ما جرَتْ عادةُ مثله من الرُّؤساء أن يباشرَ مثلَها؛ غيرَ مفرِّط في ضبْط ناموسٍ من نواميس المِلكه، ولا مُغْفل الإنكارَ على من(١) يتجاوزُ ذلك إلى مَوارِد الهَلَكه؛ ومَنْ فعل مايقتضي بنقْض عهْده، فعليه وعلى مستحسِنه له من المقاتَلة مايتّعظ به كلُّ مَنْ يفعلُ

(١) في الأصل ممن. تأمل.

ذَلك من بعـده ؛ بحيثُ لا يخرُج أحدٌ منهم فى كنيستِه ولا فى يَهودِيَّته ولا فى منع جزيتِه عن واجبٍ مَعْهود، ومن خالَف فوراءَ ذلك من الادب ماتقشعِرُّ منه الجلود؛ وما جعلَهم الله ذمّةً للسلمين إلا حَقْنًا لدمائهم ، فلا يَمْحُها أحدٌ منهم فتجتمع له شماتةُ أهل الأديان من أعدائِهم بأعدائِهم - والوصايا كثيرةٌ وإنمـا هذه نُخْبتُها الملخَّصه، وفيها من حساب الإحسان إليهم ماتغـدُو به أيّام الإمْهال لهم مُمَحَّصه؛ والله يوفّقه فى كل تصرُّف مرغُوب، وتأفف من مثله مطْلُوب؛ بمنه وكرمه ! .

✣

وهذه وصية لرئيس اليهود أوردَها فى "التعريف" وهى :

وعليه بضَمّ جماعتِه، ولَمّ شَمْلهم باستطاعتِه؛ والحُكْمِ فيهم علىٰ قواعد مِلّته، وعوائدِ أئمتِـه ، فى الحكم إذا وَضَح له بأدِلّته ؛ وعقودِ الأنكحة وخواصّ مايعتبر عندهم فيها على الإطلاق ، وما يُفتقَرُ فيهـا إلى الرضا من الجانبَيْن فى العقْـد والطّلاق؛ وفيمن أوجبَ عنده حكمُ دينِه عليه التّحْريم ،وأوجبَ عليه الأنقيادَ إلى التحكيم ؛ وما آدّعَوْا فيه التواتُرَ من الأخبار، والتظافُر على العمل به ممـا لم يُوجَد فيه نصٌّ وأجمعتْ عليه الأحْبـار؛ والتوجُّه تِلقاءَ بيت المَقْدس إلىٰ جِهة قِبْلتهم ، ومكان تعَبُّد أهل ملّتهم ؛ والعمل فى هـذا جميعه [بمـا شرَعه مُوسىٰ الكليم ، والوقُوف معـه] (1) إذا ثبت أنه فعـلُ ذلك النبيّ الكَريم ؛ وإقامةِ حُدود التّوراة علىٰ ما أنزل اللهُ من غير تحريف، ولا تبديلِ كلمةٍ بتأويلٍ ولا تصريف؛ وآتباعِ ما أعطَوْا عليـه العَهْد ، وشَدُّوا عليه العَقْد؛ وأبقَوْا فيه ذَمَاءَهم، ووَقَوْا به دِماءَهم؛ وماكانت تحكم به الأنبياءُ والرّبّانيُّون، ويُسَلِّم إليه الإسلاميُّون منهم ويعبِّر عنه العِبرانيُّون ؛ كلُّ هذا مع إلزامه لهم بما يلزَمُهم

(1) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٣ وهى لازمة لاستقامة الكلام.

من حُكم أمثالهم أهلِ الذمّة الذين أُقِرّوا فى هــذه الدّيار، ووقايةِ أنفُسهم بالخضُوع والصَّغار، ومدِّ رءوسهم بالإذعان لأهل مِلّة الإسلام، وعدمِ مضايقتِهم فى الطُّرُق وحيثُ يحصُل الآلتباس بهم فى الحمّام، وحملِ شِعار الذمّة الذى جُعل لهم حِلْيةَ العمائم، وعُقِد على رءوسهم لحفْظهم عقْدَ التمائم، وليَعْلَم أنّ شِعارَهم الأصفر، مُوجَب لئلا يُراق دمُهم الأحمر، وأنّهم تحت علَم علامتِه آمنُون، وفى دَعة أصائله ساكِنُون، وليأخُذْهم بتجديد صَبْغه فى كلّ حين، وليأمُرْهم بملازمتِه ملازمةً لا تزال علائمُها على رءُوسهم تَبِين، وعدمِ التظاهُر بما يقتضِى المناقَضه، أو يُفْهَم منه المُعارضه، أو يدع فيه غير السّيْف وهو إذا كلّم شديدُ العارضه، وله ترتيبُ طبقات أهل ملّته من الأحبار فمَنْ دُونهم على قدر آستحقاقهم، وعلى مالا تخْرُج عنه كلمةُ آتّفاقهم، وكذلك له الحديثُ فى جميع كنائس اليهود المستمِرّة إلى الآن، المستقرّةِ بأيديهم من حِينِ عقد عهْد الذمة ثم ما تأكّد بعدَه لطُول الزمان، من غير تجديد متجدّد، ولا إحداث قدرٍ متزيّد، ولا فِعلِ شىء مما لم تُعقَد عليه الذمه، ويُقرّ عليهم سلفَهم الأوّلَ سلفُ هــذه الأمه، وفى هذا كفايةٌ وتقوى الله وخوفُ بأسنا رأسُ هذه الأمورِ المهِمّه.

⁂

[وصيــة رئيس السامرة][1]:

ولا يَعْجِز عن لَمّ شَعَث طائفته مع قِلّتهم، وتأمين سَرْبهم الذى لو لم يُؤَمَّنوا فيه لأكلهم الذئبُ لذلّتهم، وليصُنْ بحسن السُّلوك دِماءَهم التى كأنّما صُبِغتْ عمائمُهم الحُمرُ منها بماطُلّ، وأُوقِد لهم منها النارُ الحمراءُ فلم يتّقُوها إلا بالذُّل، وليَعْلَمْ أنّهم شُعبةٌ من اليهود لا يخالِفُونهم فى أصــل المعتقَد، ولا فى شىء يخرُج عن قواعد دينهم لمن

(١) لم يعنون فى الأصل وزدناه من "التعريف" ص ١٤٤ .

آنتقد، ولولا هذا لما عُدُّوا فى أهل الكتاب، ولا قُنِع منهم إلا بالإسلام أو ضَرْب الرِّقاب؛ فلْيَبْنِ على هـذا الأساس، [ولْيُثْنِ قومَه أنهم منهم وإنما الناس أجناس](١) وليلتزم من فُروع دِينه مالا يخالِفُ فيه إلا بأن يقول لا مِسَاس، وإذا كان كما يقول: إنه كهرون عليه السلام فليلتزِمِ الجَدَد، ولْيَقُمْ من شَرْط الذمّة بما يُقيم به طُولَ المُدَد، ولْيَتمسَّك بالمُوسوية من غير تبديل، ولا تحريفٍ فى كلِمٍ ولا تأويل، ولْيُحْصِ عملَه فإنه عليه مَسْطور، ولْيقِف عند حدّه ولا يتعدَّ طَوْره فى الطُّور، وليَحْكُمْ فى طائفته وفى أنكحتِهم ومواريثِهم وكنائسهم القديمـةِ المعقُودِ عليها بما هو فى عقد دينـه، وسببٌ لتوطيد قواعده فى هذه الرتبة التى بلَغَها وتوطينه.

الوظيفةُ الثانيـــــة

(بَطْرَكيَّة النَّصارىٰ الْمَلَكِيَّة، وهم أقدمُ من اليَعاقِبَة)

وقد تقـدّم فى الكلام على النِّحل والمِلَل أنهم أتْباع ملكا الذى ظهر قديمًا ببلاد الرُّوم، وأنّ الروم والفَرَنج كلَّهم آتباعُه، وبالديار المِصريَّة منهـم النَّزْر اليسير، ولهم بَطْرَك يخصُّهم.

وهذه نسخة توقيع لبَطرك المَلَكية:

أمّا بعد حمد الله مُنوِّع الإحْسان، لأولِى الأدْيان، ومؤَصِّله ومفرِّعه لكلِّ طائفة ولكل إنْسان، والصلاةِ على سـيِدنا محمد الذى أبادَ اللهُ به مَنْ أبادَ وأبانَ من عهده وذِمّته من أبان ـ فإنّ الطائفةَ المَلَكيَّة من النصارىٰ لمّا كانتْ لهم السابقةُ فى دِينهم، ولهم أصلُ الرِّآسـة والنَّفَاسة فى تعيينهم؛ وما برِحَتْ لهم فى الكِلاءَة والحِفْظ قَدَمٌ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٤.

السابقه، ورُتبةٌ بملوكهم الرُّومانيّة سامقه، وما زالت لهم خِدَمُ الدول إلىٰ أغراضها مُتساوِقةٌ ومُتسابِقه؛ ولهم جِوارٌ مشكور، وتبتُّلٌ مشْهُور، وعليهم وَصايَا من المُلُوك فى كل وُرُود وصُدُور؛ ولهم من نفُوسهم مَزَايا تستوجبُ آحترامَهم، وتستدْعى إكرامَهم؛ وكان لا بُدّ لهم من بَطْرِيرك يُلاحظ أحوالَهم أتمّ المُلاحظه، ويستدْعى لهم من الدّوْلة أعظَم محافَظه؛ ويحفَظ نوامِيسَ قِيلِهم، ويُحْسِن دِراسةَ أناجيلهم؛ ويعرِّفُهم قواعدَ معْتقَداتهم، ويأخذُهم بالدُّعاء لهذه الدولةِ القاهرة فى جميع صَلَواتهم؛ ويجمَعُهم علىٰ سَدَاد، ويفرِّقُهم علىٰ مُراد. وكان البَطْرِيرك فلان هو المتّفَق بين طائفته علىٰ تعيينه، والمُجمَع علىٰ إظهار آستحقاقه وتَبْيِينه؛ والذى له مَزايَا لو كان فيه واحدةٌ منها لكَفَتْه فى التأهيل، ولرفَعَتْه إلىٰ مَنْصبه الجليل. فلذلك رُسم... ... — لا بَرِح يُعْطِى كلَّ أحد قِسْطه، ويدْخُل كلٌّ لأبوابه ساجدًا وقائلًا حِطّه — أن يباشِرَ بَطْرَكيّةَ النصارىٰ المَلَكية علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه من البَطارِكة السالفة بهذه الدولة.

فليَحُط أُمورَها الجزئيّة والكليّه، والظاهرةَ والخفِيّه؛ وليأخُذْهم بما يلزَمُهم من قوانينِ شِرْعتِهم، وكلِّ ما يُرِيدون من حُسْـن سُمْعتِهم؛ وأما الدَّيْرة والبِيَع والكنائس التى للملكية فمَرجعها إلىٰ صَونه، وأمرُها مردُودٌ إلىٰ جميل إعانته وعَوْنه؛ والأساقفةُ والرُّهبان فهم سَوادُ عيْن معتَقَده، وخُلاصةُ منتقَده؛ فلا يُخْلِهم من تبْجِيل، وحُسْن تأهيل؛ وتتقَدّم إلىٰ مَنْ بالثغور من جماعتك بأنْ لا يدْخُل أحدٌ منهم فى أمرٍ مُوبِق، ولا فى مُشْكِل موثِق؛ ولا يَميلون كلَّ الميل إلىٰ غريبٍ من جنسهم، وليكُن الحذَرُ لغَدِهم من يومِهم وليَوْمِهم من أمْسِهم؛ ولا يُشاكلونَ رسولًا يرِد، ولا قاصدًا يفِد؛ وطريقُ السلامة أوْلىٰ ماسُلِك، ومن ترْكَ الدخولَ فيما لا يَعْنِيه تُرِك؛ هذه جملةٌ من الوصية لامعةٌ أفلح وآهتدىٰ مَنْ بها آستنار، ورَشَد من لها استشار؛ والله يوفّقك فى كل مَقْصد تَرُوم، ويجعلُك بهذه الوصايا تقُول وتقُوم.

✣

وهذه وصية لبَطْرَك المَلَكية أوردها فى "التعريف" وهى :

وهو كبيرُ أهلِ ملّته، والحاكمُ عليهم ما امتدَّ فى مُدّته، وإليه مَرْجِعُهم فى التحريم والتحليل، وفى الحُكْم بينهم بما أُنزِلَ فى التوراة ولم يُنْسَخ فى الإنجيل، وشريعتُه مبنيَّة على المُسامحة والاحتمال، والصبرِ على الأذى وعدمِ الاكتراث به والاحتفال؛ فخُذْ نفسَك فى الأوّل بهذه الآداب، واعلَمْ بأنك فى المَدْخَل إلى شريعتك طريقٌ إلى الباب؛ فتخَلَّق من الأخلاق بكلّ جميل، ولا تستكثِرْ من متاع الدنيا فإنّه قليل؛ وليُقدِّم المصالحةَ بين المتحاكمَيْن إليه قبل الفصل البَتّ فإنّ الصلح كما يقال سيِّد الأحكام، وهو قاعدةُ دينه المَسيحىّ ولم تخالِفْ فيه المحمّديّةُ الغراءُ دينُ الإسلام، وليُنَظِّفْ صدُورَ إخوانه من الغِلّ ولا يقنَعْ بما يُنَظِّفُه ماءُ المعمُوديّة من الأجسام؛ وإليه أمرُ الكنائسِ والبِيَع، وهو رأسُ جماعتِه والكلُّ له تبَع؛ فإيّاه أن يتخذَها له تجارةً مُرْبِحه، أو يقتطِع بها مالَ نصرانىٍّ يقرِّبُه فإنه ما يكونُ قد قرّبَه إلى المَذْبَح وإنما ذَبَحه؛ وكذلك الدِّياراتُ وكل عُمْرٍ[1]، والقَلالىُّ فيتعيَّن عليه أن يتفقّد فيها كلَّ أمرٍ؛ وليجتهِدْ فى إجراء أمُورها على ما فيه رَفْع الشُّبُهات، وليعلَمْ أنهم إنما اعتزلُوا فيها للتعبُّد فلا يَدَعْها تُتّخذ متنزَّهات؛ فهُم إنما أحدَثُوا هذه الرَّهبانيَّةَ للتقلُّل فى هذه الدنيا والتعفُّف عن الفُروج، وحبَسُوا فيها أنفُسَهم حتّى إنّ أكثرهم إذا دخَل فيها ما يعُودُ يبقى له خُرُوج؛ فليحذَرْهم من عملِها مصْيدةً للمال، أو خَلوةً له ولكن بالنساء حرامًا ويكون إنما تنزّه عن الحَلال؛ وإيّاه ثم إيّاه أن يُؤْوِىَ إليها من الغُرباء القادمين عليه مَنْ يُرِيب، أو يكْتُمَ عن الإنهاء إلينا مشكِلَ أمرٍ ورَد عليه من

(١) هو بالضم المسجد والبيعة "قاموس" .

بعيد أو قريب ، [ثم الحَذَر الحَذَر من إخفاء كتابٍ يرِد عليه من أحدٍ من الملوك ،](١) ثم الحذَر الحذَر من الكتابة إليهم أو المَشى على مثل هذا السُّلوك ، ولْيتجنَّب البحرَ وإيَّاه من اقتحامه فإنه يَغرق ، أو تَلَقِّ ما يُلقيه إليه جَناحُ غرابٍ منه فإنه بالبَيْن يَنْعق ؛ والتقوى مأمورٌ بها أهلُ كلِّ مِلَّه ، وكلُّ موافِق ومخالِف فى القِبْله ؛ فليكُنْ عملُه بها وفى الكِنَايةِ ما يُغنى عن التَّصْريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمرَ المَسِيح .

الوظيفـــــة الثـالثة

(بَطْركِيَّـة اليَعاقِبَـــة)

وقد تقدّم فى الكلام على النِّحل والمِلَل الخُلْف فى نِسْبتهم : فقيل إنهم أتْباع ديسقرس ، وإنه كان آسمه فى العِلْمـانيَّة يَعْقوب ، وقيل أتباع يعقوب البَرْذعانى ، وقيل غيرُ ذلك ، والأصحّ عند المؤرّخين الأول . وبَطْركُهم يحكم على طائفةِ اليَعاقِبة ، وجميعُ نَصارى الحبشـةِ أتباعُه ، وفى طاعتِه ملكُ الحبشـةِ الأكبر ، وعنه تصْـدُر وِلايتُــه .

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى اليعاقبة :

أما بعدَ حمد الله الذى أظهرَ دينَ الإسلام على الدِّين كلِّه ، وأصدرَ أمورَ الشرائع عن عقْد شَرْعِه وحَلِّه ، وصيَّر حكمَ كلِّ ملةٍ راجعاً إلى حُكم عَدْلِه ؛ والشهادةِ له بالوحدانيَّة التى تدُلُّ على أنه الواحدُ الأحدُ الذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ وليس شىءٌ كمثله ، والصلاةِ والسلامِ على سـيدنا محمد أعظَمِ أنبيائه وأكرمِ رُسُـلِه ، وأشرف ولَد آدم ونَسْلِه ، المصطفى فى عِلْمِ الله من قَبْله ، ووسيلته فى التوراة من غرور الشيطان وخَذْله ، والذى أطفأ اللهُ ببركتِه نارَ نُمروذَ عن إبراهيم وجعلها بَرْدا وسلاما وأجلَّه من أجْله ،

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٥ .

وبَشَّر به عيسى بنُ مريمَ عبدُ الله وٱبنُ أَمتِه وأقرّ موسىٰ بنُ عِمرانَ كليمُ الله بفضْلِه؛ وعلىٰ آله الطيِّبين الطاهرين من فُروع أصله، وأصحابِه سامعى قوله، وتابِعى سُبْله — فإنَّ الله تعالىٰ لمـا آرتضَى الإسلامَ دينا، وأفضىٰ بالمُلْك إلينا وقضىٰ لنا فى البَسيطة بَسْطةً وتمكينا، وأمضىٰ أوامِرَنا المطاعةَ بشُمول اليُمْنِ شِمـالًا ويمِينا — لم نزل نُولى رَعايانا الإحسانَ رِعايةً وتوطِينا، ونُديم لأهل الذمّة منّا ذِمّةً وتأمِينا؛ وكانتْ طائفةُ النَّصارىٰ اليَعاقِبةِ بالديار المصرية لهم من حِينِ الفتح عَهْدٌ وذِمَام، ووصيَّةٌ سابقةٌ من سيِّدنا رسولِ الله عليه أفضلُ الصلاة والسلام؛ ولا بُدّ من بَطْرِيكٍ يرجعُون إليه فى الأحكام، ويجتمعُون عليه فى كلِّ نَقْض وإبْرام.

ولمـا كانتِ الحضرةُ الساميةُ الشيخُ الرئيسُ، المبجَّل، المكرَّم، الكافى، المعزَّز، المفخَّر، القِـدِّيس، شمسُ الرِّآسـة، عِمادُ بَنِى المَعْمُودية، كنْزُ الطائفة الصَّليبيّه، آختيار الملوك والسلاطين، فلان: وفّقه الله،هو الذى تجرّدَ وترهَّب، وأجهدَ رُوحه وأتْعب، وصامَ عن المأْكَل والمَشْرَب، وساحَ فأبْعَـد، ومَنع جَفْنه لذيذَ المَرْقَد، ونهض فى خِدْمة طائفتِـه وجَدّ، وخفَضَ لهم الجَناحَ وبَسَط الخـدّ، وكفَّ عنهم اليَدَ، وٱسـتحَقّ فيهم التبجيلَ لمـا تميّز به عليهم من مَعْرِفة أحكام الإنجيل وتفرّد — آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريفِ أن نُلْقِيَ إليه أمرَ هـذه الفِرْقة ونُفَوِّض، ونُبَدِّلهم عن بطريكهم المتوفَّى ونُعوِّض.

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف — لابرِحت مراسِمُه مُطاعه، ومَراحِمُه لإنزال أهل كرمها ببعثهـا مرعيّةً غيرَ مُراعه[(١)] — أن يقدَّم الشيخُ شمسُ الرِّآسـة المذكور على المِلّة النصرانية اليَعْقوبيّـة، ويكونَ بَطْرِيركا عليها، علىٰ عادةِ مَن تقـدّمه وقاعدته بالديار المصرية، والثُّغور المحروسة، والجهات التى عادتُه بها إلىٰ آخرِ وقت.

(١) أى غير مفزعة ولم يذكر القاموس ولا اللسان أراعه وانما الفعل راعه وروّعه أى أفزعه.

فليسلك سبيلَ السَّوا ، ولا يملِّكْ نفْسَه الهوى ، وليتمسَّكْ بخوف الله تعالى إن فَعَل أو نوى ، أو أخبر عن الحوارِيِّين أو رَوى ؛ فالعليمُ مراقِب ، والعظيم مُعاقِب ، والحكيم أمَرَ أُولِى العقول بالفكرة فى العَواقب ، والحاكمُ غدًا بحقوق الخلق غدًا يُطالِب ، والظُّلم فى كلِّ ملّة حرامٌ والعدلُ واجِب ، فليستوفِ الإنصاف بين القوىّ والضعيف والحاضر والغائب ، وليقْصِد مصلحتَهم وليعتمِدْ نصيحتَهم ، وليُمْضِ على ما يدينُون به بُيوعَهم وفُسوخهم ومَوارِيثهم وأنكِحتَهم ، وليقْمع غاوِيَهم ، وليَسْمع دعاوِيَهم ، وليُلْزِمْهم من دينهم بما وجدُوه ، فظنُّوه وآعتقدُوه ، وليَتَّبِع سبيلَ المَعْدَلة فلا يعدو[ها] عائدةٌ إليه أمورُ القِسِّيسين والرُّهبان ، فى جميع الدِّيرة والكنائس بسائر البُلْدان ، ولا يُعترَض عليه فيما هو راجعٌ إليه من هذا الشان . ولا يقدَّم منهم إلى رُتبة إلا من استصْلَحه ، ولا يرَحِ إلى منزلة إلا من رشَّحه إليها ورجَّحه ، متَّبِعا فى ذلك ما بيَّنه له العدلُ وأوضَحه ، مرتجِعَ الرتبة ممن لم تكُن الصدُور لتَقْدمته منْشَرِحه ، مجمعا لغيره فى الإيرادِ والإصْدار على آعتماد المَصْلحه ؛ وقد أوضحنا له ولهم سبيلَ النجاة فليقتَفُوه ، وعرَّفناهم بالصواب والخِيرَة لهم إن عرَفُوه ، وليسالِ اللهَ ربَّه السلامةَ فيما له يفْعل وبه يَفُوه ؛ والعلامة الشريفة أعلاه .

✣

وهذه نسخة توقيع لبَطْرك النصارى اليعاقِبة ، كُتِب به للشيخ المؤتَمن ، فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة ، وهى :

أما بعدَ حمد الله على نِعَمه التى نَشَرتْ لواء دولتِنا فى الآفاق ، فأوَى كلُّ أحد إلى ظِلِّه ، وبسطَتْ معدلَتنا فى البلاد على الإطلاق ، فمنحَتِ الخاصَّ والعامَّ من برِّنا بوابله وطَلِّه ، وآصطنعَتْ بذمَامها ملوكَ المِلَل وحُكَّامَ الطوائف فنطقوا عن أمرِنا

فى عَقْد كلّ امر وحلّه ؛ والشهادةِ بوحدانيّته التى تُنجح أملَ المخلص فى قوله وفعْله ، وتفتح لمن تمسّك بعُروتها أبوابَ النجاة فيُصبح فى أمانٍ فى شأنه كلّه ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً فى مُحكَم الذكر ونَقْله ، المبعوثِ رحمةً للعالمين زيادةً فى رِفْعة مقامه وتقريرا لفضْله ، المنعوتِ بالرأفة والرحمة فى محكم كتابه الذى لا يأتيه الباطلُ من بيْنِ يَدَيْه ولا من خَلْفه ولم يستطِعْ أحدٌ أن يأتىَ بسُورةٍ من مثْله ؛ وعلى آله وصَحْبه الذين اتّبعُوا طريقته المُثلى وسلكُوا مناهجَ سُبْله ، وعقَدُوا الذّمم لأهل المِلَل واستوْصَوْا بهم خيراً لما عَرَفُوه من سَعةِ حلْمه وبَذْله ـ فإنّه لما كانت الطائفةُ المَسيحيّة ، والفِرقة اليعقوبيّة ، ممن أوتْ تحتَ ظلّنا الذى عَمّ الوجُود ، وسكنَتْ فى حَرَم ذِمامنا الذى سار نبؤُه فى التّهائم والنُّجُود ، وتمسّكتْ من طاعتِنا واتّباع أوامِرِنا بما سلَف لها من العُهَد والعهود ؛ وكانتْ أحكامُهم مما يحتاجُ إلى من يدُور عليه أمرُها فى كلّ حال ، وتنتظِمُ به مصالحُ شملها ليبلُغُوا بها الآمال ، ويأمنوا فى معتقدهم فيها من الإخلال ؛ وأنه إذا مات بطْريرك لهم لا بُدّ أن نَرسُمَ لهم بغيره ، ليعتمِدوا فى ذلك ما يتقدّمُ به إليهم فى نَهْيه وأمْره ؛ ويسْلُكَ بهم فى أحكامهم ما يجب ، ويعرّفَ كلًّا منهم ما يأتى ويذَر ويفعَلُ ويجتَنب ؛ ويفصِلَ بينهم بمقتضى ما يعتقدُونه فى إنجيلهم ، ويُمشّى أحوالهم على مُوجَبه فى تحريمهم وتحليلهم ؛ ويزجُر من خرج عن طريقه ، ليرجعَ إلى ما يجبُ عليه أسْوة رفيقه ؛ ويقضى بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام ، ويبيّن لهم قواعدَ دِينهم فى كل نقْض وإبرام ؛ فلما هلَك الآنَ بطرِيكُهم مع مَنْ هلَك ، رَسَمْنا لهم أن ينتخِبُوا لهم من يكونُ لطريقتِه قد سَلَك ؛ وأن يختاروا لهم من يسُوس أمورهم على أكمل الوُجُوه ، لنرْسُم بتقديمه عليهم [فيقوم] بما يؤمّلُونه منه ويرجُوه[(١)] .

(١) حذف نون الرفع رعاية للسجع .

وكان الحضرة الساميةُ، القدّيس، المبجّل، الجليلُ، المكرّم، الموقّر، الكبير، الدّيّان، الرئيس، الرُّوحانى، الفاضل، الكافى، المؤتمَن، جرجس بن القسّ مفضّل اليعقوبى، عمادُ بنى المعموديّه، كنزُ الأمة المسيحيّه، منتخَب الملة الصليبيّه، ركن الطائفة النصرانيّه، آختيارُ الملوك والسلاطين : أطال الله تعالىٰ بهجتَه، وأعلىٰ علىٰ أهل طائفتِه درجتَه، قد حازَ من فضائل ملّته أسْماها، وصَعِد من درجات الترقّى علىٰ أبناء جنْسِه أعلاها؛ فنزّه نفسَه عن مشاركة الناس، وتقشّف بين أهله فى المأْكل واللّباس، وترك الزواج والنّكاح، وآشتغل بعبادته التى لازمَ عليها فى المَساء والصّباح، وألقىٰ نفْسه إلى الغاية فى الأطّراح، وساحَ بخاطره فى الفكرة وإن لم يكن بجسَده قد ساح، وآرتاضَ بترْك الشّهوات مدّةَ زمانِه، وآطّرح المَلاذّ لتعلو درجتُه بين أهله برِفْعة مكانِه، وآشتمل من علوم طائفته على الجانبِ الوافِر، وعرَف من أوامرهم ونَواهيهم ما تَقرّ به منهم العينُ والناظر، وطلَب من الربّ الرءوف الرحيم القوّةَ علىٰ أعماله، وسأل الإلهَ أن يزيّن لأهل ملّتــه ما يأتى به من أقوالِه وأفعاله؛ فوقع آختيارُهم عليه، وسألوا صدقاتِنا الشريفةَ إلقاء أمْرِهم إليه .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لازال إحسانُه إلىٰ سائر العالَم واصلا، وجُودُه لكل طائفــةٍ بارتيــاد أكفائها شاملًا ــ أن يقدَّم حضرةُ القِدّيس المؤتمن جرجس المشار إليه على الطائفة اليعقُوبية، من الملة النصرانية، بالديار المحروسة والجهاتِ الجارى بها العادة، ويكون بَطْرِيركا عليهم علىٰ عادة من تقدّم فى ذلك ومستقر قاعدته إلىٰ آخر وقت، قائمًا بما يجب عليه من أمور هذه الملّة، باذلًا جهْدَه فى سلوك ماينبغى مما يَنْظِم عليه أمرَه كلّه؛ فاصلًا بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام، متصرفًا علىٰ كل أُسقُفّ وقَسّ ومَطْران فى كل نقْض وإبرام، مالكًا من أمور القِسّيسين والرُّهبان والشَّمامسة الزّمام؛ مانعًا مَنْ يرومُ أمرا لا يُسوّغه وَضْع ولا تقرير، جاعلا نظرَه عليه

منتقدا بالتحرز فى التخيير، زاجرًا من يخرج منهم عن اتّباع طريق الشريعة المطهّرة التى يَصح بها عقدُ الذمه، ملزما بسُلوكها فى كل ملمة فإن ذلك من الأمور المهمّه؛ آمرا مَنْ فى الدِّيَرة من الرُّهبان بمعاملة المارّين بهم والنازلين عليهم بمَزِيد الإحسان ومَديد الإكرام، والقيامِ بالضِّيافة المشروطة من الشَّراب والطَّعام.

ولْيتحدّثْ فى قِسمة مَواريثهم إذا ترافعُوا إليه، وليجعَلْ فصلَ أمورِ أهلِ طائفته من المهـمَّات لديه؛ ولْيُشْفِقْ على الكبيرِ والصغير، وليتنزّهْ عن قليل متَاعِ الدنيا والكثير، وليزهَدْ فى الجليل قبل الحَقير. وفى اطّلاعه على أحكام دينه ما يكْفيه فى الوصيّه، وما يرفعُه بين أبناء جنسه فى الحياة الدنيويّه؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله أعلاه.

✤

وهذ نسخة توقيع لبطْرك اليَعاقِبة، وهى :

أما بعدَ حمد الله على أنْ جعَل من إحسانِ هذه الدولة لكلّ مِلّىّ وذمّىّ نَصيبا، وفوّقَ إلى أهداف الرِّعاية سهْما فسَهْما مامنها إلا ماشُوهِد مُصيبا، والصلاةِ على سيدنا محمد الذى أحْمَدَ الله له سُرَى فى صَلاح الخلائق وتأويبا ـ فإنه لمّا كان من سجايا الدولة القاهرةِ النظرُ فى الجزئيّات والكلّيّات من أمور الأمّه، وتجاوزَ ذلك إلى رِعاية [أهل] الذمه، لاسِيّما مَن سبقَتْ وصيةُ سيد المرسلين عليهم من القِبْط الذين شرّفهم رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوُصْلته منهم بأمّ إبراهيم ولده عليه السلام، وقَبولِ هديّتهم التى أبقَتْ لهم مزيّةً على ممَرّ الأيّام؛ وكانوا لابُدّ لهم من بِطْريك يحفظ سَوامَهم، ويَضْبِط خواصَّهم وعَوامَّهم؛ ويجمعُ شَمْلَ رُهْبانهم، ويُراعى مصالحَ أديانهم، ويحرّرُ أمورَ أعيادِهم ومَواسمهم فى كل كَنِيس، ويدعُو للدولة القاهرة فى كل تقْديس، وتُجعَل [له] الخِيرَةُ فى ضَبْط أمور البِيَع والدِّيَرة واختيار الأساقفة

والكُهّان ، وحِفْظ النواميس المسيحيّة فى كل قُرْبان ؛ ولا يصلُح لذٰلك إلا من هو بَتُول، وكُلّ خاشع عاملٍ ناصبٍ يستحقّ بذٰلك أنّ هذا الأمرَ إليه يَئُول .

ولما كان البطْرِيرك فلان هو المجمَع علىٰ صلاحيته للبَطْرَكِيّة علىٰ شَعْبه ، والتقْدِمة علىٰ أبناء المعْمُوديّة من شِيعته وصَحْبِه ، لما له من عِلْم فى دينه ، ومعرفة بقوانينه ، وضَبْط لأفانينه ؛ وعقْلٍ يمنعُه عن التظاهر بما يُنافى العهُود ، ويُلافى الأمرَ المعهُود ـ آقتضىٰ جميلُ الآختيار أنه رُسِم بالأمر الشريف ـ لابَرِح يضَع كلَّ شىء فى موضعه من الآستحقاق ، ويُبالغُ فى الإرفاد لأهل المِلَل والإرفاق ـ أن يباشرَ بطْرَكيّةَ جماعةِ اليَعاقبة بالديار المِصريّة ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى هذه الرتبه ، ومن آرتقىٰ قبلَه إلىٰ هذه الهَضْبه .

فلْيباشرْ أمرَ هذه الطائفه ، وليجعل مَعونته بهم طائفه ؛ وليَضْبِط أمورَهم أحسنَ ضَبْط وأجملَه ، وأتمّه وأكملَه ؛ وليأخُذْهم بما يلْزَمهم من القيام بالوظائف المعْرُوفه ، والعُهود المألُوفه ؛ وليُلْزِمْهم بما يَلْزَمُهم شرعا من كَفٍّ عن تظاهرٍ ممنُوع ، أو تعاطى محذورٍ منكورِ الشرور والشروع ؛ أو تنكُّبٍ عن طريق الآستقامه ، وكما أنهم عدَلُوا عن الإسلام لايَعْدِلُون عن السّلامه .

وأمّا أمورُ الدِّيَرة والكنائس فأمرُها إليكَ مردُود ، فاجْرِ فيها على المعْهُود ؛ وأقِم فيها عنك من يُحْسِن النِّيابه ، ومن يُجْمِل الإنابه ؛ ومن يستجْلب الدعاءَ لهذه الدولة القاهرة فى كل قُدّاس ، ويُعدّد التقدّس والأنفاس ؛ وعلىٰ رُهْبان الأدْيرة للمساجد والجوامع وظائفُ لاتُمنعُ ولا تؤخّر ، ولاتُحوجُ أحدًا منهم أنه بها يُذَكَّر ؛ وليَشْرُطْ علىٰ أهلها أنهم لا يأْوُون طليعةَ الكُفّار ، ولا من يحصُل منه إلا خيرٌ وإلا يحصُل الإضرار ؛ وليأمُرْهم بحُسن الجِوار ، والقيامِ بما هو موظَّف عليهم للسلمين السُّفَّار

وغير السُّفّار، هـذه نُبْذة من الوصايا مُقْنِعه، ولو وُسِّع القولُ لكان ذا سَعَه، وفى البطْريرك من النَّباهة ما أُلْهِمه الصَّواب، والله يجعل حسنَ الظنّ به لا ٱرتياءَ فيه ولا ٱرتياب، بمنّه وكرمه!، والاعتماد ... ...

✣

وهذه نسخةُ توقيع لبَطْرك اليعاقِبة، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله الذى خصَّ كلَّ ملّةٍ منّا بمنّه، وأقامَ بأوامرِنا على كلِّ طائفةٍ مَنْ نرضاه فتُحقِّق بإحساننا ظَنّه، وجعل من شِيَمنا الشريفةِ الوصيةَ بأهل الكتاب عملًا بالسنّه . والشهادةِ بوحدانيّته التى تتّخذ بينها وبينَ الشَّكِّ والشرك من قوّة الإيمان جُنّه، ونَدَّخر أُجورَها فنسمُو بها يومَ العَرْض إلى أعلى غُرَف الجَنّه . والصلاة والسلام على نبيّه محمد أكرم من أرسَلَه إلى الأُمم فأنال كُلّا من البرايا يُمنَه، وأعظمِ من بعثَه فشرَع الدينَ الحنيف وسنّه، وعلى آله وأصحابه الذين لم تزلْ قلوبُ المؤمنين بهم مطمئنّه ـ فإنّ لدولتنا القاهرة العوارفَ الحِسان، والشِّيَم الكريمةَ والعطايا والإحسان، والفواضِلَ التى للآمال [منها] ما يُرْبى عليها ويَزيد، والمآثِرَ التى يَجُرُّ بِرَّها الوافرُ المديد، ولكل ملّةٍ من نِعمها نوالٌ جزيل، ولكلِّ فِرْقة من مَواهبها جانبٌ يقتضى التخْويل ولا يَقْضى بالتحويل، ولكلِّ طائفة من يُمْنها ومَنّها منائحُ طائفةٌ بمزيد التنويل، ولكل أُناس من معْدَلتها نصيبٌ يشْمَل الملَل، وعادةُ معروف تواتَرَتْ مع أنها خالصةٌ من السّآمة والملَل، سجيّةٌ سَخِية بنا شَرُفت، ومَزِيّة مَرْويّة منّا أُلِفت، وإنّ من أهل الكتاب لَطائفةً كثُرت بأبوابنا الشريفة عَدَدا، وٱستصْفَتْ من مَناهل جُودِنا مَوْردا، وٱنتظمَتْ فى سِلْك رعايانا فأضحى سببُ فضلنا لها مؤكَّدا، وكانت المِلّة المَسيحيه، والفِرْقة اليعْقُوبيّه، لا بُدّ لها بعد موتِ بِطْريكها من إقامة غيره،

وتقديم من يُرتضىٰ بفعله وقوله وسَيْره ، لتقتدىَ به فى عَقْد أمورها وحلّها ، وتحريمها وتحليلها ووَصْلها وفصلها ، وتهتدىَ به فى معتقدها ، وتَرْكَن إلىٰ مايذكُره من مجموع أحكام الإنجيل ومفردها ، وينتصبَ للفَصْل بين خصومها بما يقتضيه عرفانُه ، ويَظْهر لأهل ملّته بيانُه ، حتّى لا تجدَ فى أمرِ دينها إلا ما تُريده ، وبما نُديمه لها من آستمرار الهُدْنة تُبْدى دُعاءَها وتُعيده ؛ فإنّ سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرَنا أن نستوْصِىَ بأهل الكتاب خيْرا ، ونحن نسلُك من آتّباع شريعته المطهّرة ماتُحسِن فيه ـ إن شاء الله ـ سيرةً يسيرةً وسيرا .

ولما كانت الحضرةُ الساميةُ ، الشيخُ ، الرئيسُ ، المبجّل ، المكرّم ، الفاضلُ ، الكافى ، الثّقة ، عمادُ بنى المعموديّه ، كنزُ الطائفة الصليبيّه ، آختيارُ الملوك والسلاطين ، فلان ـ أطال الله بقاءَه ، وأدام علىٰ أهل طائفته آرتقاءَه ـ ممّن آتفق علىٰ شُكره أبناءُ جنْسه ، وآستوجب أن يرقىٰ إلىٰ هذه الرُّتبة بنَفْسه ، وآشتهر بمعرفة أحوال فرقه ، وهجرَ الأهلَ والوطنَ فى تهذيب خُلُقه ، وحَرَّم فى مدّة عُمره النكاح ، وسار فى المَهامه والقِفَار وساح ، وأضحىٰ خَميصَ البطن خاوىَ الوِفَاض ، قد ترك الطِّيباتِ وهجر التنعّم وآرتاض ، وآعتمد فى قوله علىٰ الإله ، وسأل الرَّبَّ أن يبلّغه فى أهل ملّته ما تمنّاه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يجمع الفِرَقَ على الدعاء لأيامه الشريفه ، ويُديم للأقربين مَوادَّ مَواهبه المألوفه ـ أن يقدّم الشيخُ فلان على المِلّة النصرانية اليعقُوبيّة ، ويكونَ بطركا عليها علىٰ عادة من تقدّمه ، ومستقرّ قاعدته ، بالديار المصريّة والثُّغور المحروسة ، والجهات التى عادتُه بها ، إلىٰ آخروقت ، [فليتولَّ ذلك] سالكًا من طُرُق النزاهة مايجب ، فاصلًا بين النصارىٰ بأحكام دينه التى لاتخفىٰ عنه

ولا تحتجب، مالكًا أزمّة كل أُسْقُف وقِس ومِطْران، مرجّحا بين القِدّيس والقِسّيس والشّمّاس والرُّهبان، لتُصبح أحكام كبيرهم وصغيرهم به منُوطه، ومواريثهم مقسومةً بشرْعته التى هى لديهم مبْسُوطه، ويقف كلٌّ منهم عند تحريمه وتحليله، ولا يخرُجَ فى شِرْعتهم عن فعله وقوله ولا يقدّم منهم إلا من رضِىَ بتأهيله، وليأمُرْ كلّ قاصٍ منهم ودان، ومن يتعبّد بالدّيرة والصّوامع من الرجال والنّسْوان، برفع الأدعيَة بدوام دولتنا القاهرة التى أسْدَتْ لهم هذا الإحْسان، ويُلْزِمْ كلًّا منهم بأن لا يُحدث حادثا، ويكْرِمَ نُزُل من قدم عليه راحلًا أو لابثًا، فإن هذه الولاية قد آلتْ إليه، وهو أدربُ بما تنطوى شروطُها عليه، والله تعالىٰ يجعل البهجة [لديه] مُقيمه [والنعمة عليه مستديمه]، والخطُّ الشريف أعلاه، حجةٌ بموجَبه وبمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

✣

وهذه وصية لبَطْرك اليعاقبة أوردها فى "التعريف" قال:

ويُقال فى وصيَّة بَطْرك اليعاقبة مثلُ مافى وصيَّة بَطْرك المَلَكيّة، إلا فيما يُنَبَّه عليه. ويسقط منه قولنا: «واعلَمْ بأنّك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتك طريقٌ إلى البْاب» إذ كان لايَدين بطاعة البْاب الذى هو رأْس المَلْكانيّين، وإنما هو رأْسُ اليَعاقبة نظيرُه للمَلْكانيين، ويقال مكان هذه الكلمة «واعلَمْ بأنك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتك قَسيم البـاب وأنتما سواءٌ فى الأتْباع، ومتساويان فإنّه لا يزدادُ مِصْراع علىٰ مِصْراع». ويسقط منه قولنا: «وليتجنّب البحر وإيّاه من اقتحامه فانّه يغْرَق» وثانيةَ هذه الكلمة إذا كان مُلْكُ اليعاقبة مُغَلْغلا [فى الجنوب](١) ولا بَحْر، ويبْدَل بقولنا: «وليتجنّبْ ما لعلَّه ينُوب، وليتوقّ ما يأتيه سِرًّا من تِلْقاء الحبَشة حتّىٰ إذا قَدَر فلا

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٦.

يَشُمُّ أنفاسَ الجَنُوب، وليعلم أنَّ تلك المادَّة وإن كثُرت مقصِّره، ولا يحفِلْ بسُؤْدد السُّودان فإنَّ الله جعل آيَةَ الليلِ مُظْلمةً وآيَةَ النهارِ مُبْصِره» ثم يُختم بالوصية بالتقوىٰ كما تقدَّم، ونحو هذا والله أعلم .

النـــوع الثـانى

(ما هو خارجٌ عن حاضرتَىْ مصر والقـاهرة : من وظائف الديار المصريَّة ممـا يُكْتَب لأربابها . وهى ثلاث جهات)

الجهـــةُ الأُولى

(ثغرُ الإسكَنْدريَّة ، والوظائفُ فيها علىٰ ثلاثةِ أصناف)

الصـــنفُ الأولُ

(وظائفُ أربابِ السُّــيوف وبهـا وظيفةٌ واحدة وهى النِّيابة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائفِ الديار المصرية أنَّها كانتْ أوّلًا وِلايةً، إلىٰ أنْ طرَقَها الفرَنْج فى ســنةِ سَبْع وستِّين وسبْعمائة ، فاستقرَّتْ من حينئذ نيابةً، يُكْتَب لنائبها تقليد فى قطع الثلثين بـ«الجَناب العالى» مع الدُّعاء بمضاعفَة النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بنيابة ثغر الإسكَنْدريَّة :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمٍ باسِمة الثَّغْر، مُسْفِرة الفَجْر، رافعة القَدْر .

نحمَدُه حمدًا يشْرح الصَّدْر، ويطْلُع طلوعَ البَدْر، ونشهدُ أنْ لا إلَٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُحالِف من يُحالِفُها، وتُخالِف من يُخالِفُها، ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه

ورسولُه أفضلُ نبىٍّ رَابَطَ فى سبيل الله وجاهَدَ، وكابَدَ فى الجهاد أعداءَ الدِّين وكايَدْ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين خاضُوا فى غَمَرات الدُّجىٰ كلَّ غَمْر، ونُدِبوا لِحماية الدِّين ... ... (١) كَرِيهة وسِدَاد ثَغْر .

أمَّا بعدُ، فإنَّ الاهتمام بالثُّغور هو أَوْلىٰ ما إليه حُمِد، وعلىٰ مصالحها اعتُمِد؛ وكان ثغرُ الإسكندريَّة المحروسُ هو المفترَّ عن أحسَن الثَّنايا، والمخصُوصَ من الحِياطة بأتمِّ المَزَايا، والذى كم شَفَتْ (٢) شِفاهُه من سُقْم عند ارتشاف، والذى المُثاغِرُ به والمرابِطُ كَمْ له بالحسَنات من ائتلاف؛ وكانت المصلحةُ تقتَضِى أن لايُختارَ له إلا كُلُّ كامِل الأوصاف، كافِلٍ بما تستدْعِيه مصلحةُ أهله من إنْصاف؛ ذُو عَزْم يمضِى والسِّهَامُ مستوْدَعة فى الكنائن، ويقْضِى بالعدل المُزِيل للشَّوائب والشَّوائن، ومن له حزم يسُدّ ثغر المَعايِب دُونَ كلِّ ملاحِظ ومُعايِن، وله سِياسةٌ تُحفَظ بمثلها الثُّغور، وتُصان الأمُور، وله بشاشةٌ تستجْلِب النُّفُور، وتُوفِّق ما بين الألسِنة من أولى الوُدِّ والصُّدور، وله حياطةٌ بينا يقال : هذا جانبُه دَمِثٌ إذ يُقال : هذا جانبُه صَعْب ممتنِع، وبينما يُقال ليَقظته للصلحة : هذا سحابٌ يتجهم (٣) إذ يُقال هذا سيْلٌ مندفِع .

ولما كان فلانٌ هو مستوعبَ هذه الصِّفات، ومستوْدَع هذه الأسماء والسِّمات، وإليه بهذه المَناقب يُشار، وهو ساحِبُ أذيالِ هذا الفَخَار ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى

(١) بياض بالأصل ولعله فكانوا ليوم الخ .

(٢) فى الأصل «كنفت» وهو تصحيف من الناسخ .

(٣) لعله سحاب جهام . أى لا ماء فيه . تأمل .

الشريف أن تُفوِّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس ، تفويضًا يُمضى فى مصالحه لسانَه وقلمَه ، ويُصرِّف بين الأوامر والنَّواهى إشاراتِه وكلِمَه ، ويزيِّن مواكبَه بطلْعته ، ويزيد مهابتَه ببُعْد صيتِه واشتهار سُمْعته .

فليباشر هذه الوظيفةَ مُجمِّلا مواكبَها ، مكمِّلا مراتبَها ، موثِّلا(١) بقواعد الأمْن أرجاءَها وجوانبَها ، ناشرًا لواءَ العدل علىٰ عوالمها ، قابضًا بالإنصاف لمظلومِ رعيَّتِها علىٰ يدِ ظالمها ، مُعْليا منارَ الشرع الشريف بمعاضدةِ حُكَّامه والانقياد إلىٰ أحكامه ، والوقوف فى كل أمر مع نَقْضه وإبرامه ، وليَتَحرَّس جوانبَ هذا الثغر ويحميها ، وليصُنْ عوارضَه وما فيها ومَنْ فيها ، وليكلأْه برًّا وبحرا ، وليُرْخِ عليه من ذَبِّه سِترًا فسترًا ، وليُنْجِح لِسافِرته(٢) طَلَبًا ، وليبلِّغهم من العدل والإحسان أرَبًا ، وليُجْمِل معاملةَ من وجد منهم فى سَفَره نَصَبا ، واتخذ سبيلَه فى البحرِ عَجَبا . والرعيَّة فهم طِرازُ الممالك ، وعُنوان العِمارة الذى مَن شاهده فى هذا الثغر عَلِم ما وراءَ ذلك ، وأحسِنْ إليهم وارأفْ بهم ، وبلِّغهم من عَدْل هـذه الدولة غايةَ أربِهـم ، وأمورُ الخُمُس والديوان فلها قواعدُ مستقِرّه ، وقوانين مستمِرّه ، فاسْلُكْ منها جَدَدا واضحـا ، وابتغِ لهـا عَلَما لائحا ، وغيرُ ذلك فلا يكادُ علىٰ فَهْـمك يخفىٰ ، من تقوىٰ الله التى بهـا تُكَفُّ عينُ المَضارِّ وتُكْفىٰ ، والله تعـالىٰ يُلهِمك صَوابا ، ولا يجعل بينَ حِجاك وبينَ المَصالح حِجـابا ، بمنِّه وكرمه ! .

---

(١) موثلا ممكنا . من وثل الشئ أصله ومكنه .

(٢) (لسافرته) هم المسافرون .

الصنف الثانى

(من الوظائف التى يكتب بها بثغر الإسكندرية ـ الوظائف الدينية، وكلها تواقيع، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى(١)

(ما يكتب منها فى قَطع الثلُث بـ«السامى» بالياء، وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(القضاء)

وهو الآنَ مختصٌّ بالمالكيَّة، وقاضيها يتحدّثُ فى نفس المدينة وظاهِرِها، ليس له ولايةٌ فيا هو خارجٌ عنها .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاءِ ثَغْر الإسكندريَّة لمالِكىٍّ، كُتِب به للشيخ «وجيه الدين محمد بن عبد المُعْطى الإسكَنْدرىّ المالكىّ» وهى :

الحمدُ لله رافِع قدْر من نَوَّه العلمُ بذِكْره، ونَوَّر التُّقىٰ مواقِعَ فِكْره، ونَبَّه الورَعُ علىٰ رِفْعة قَدْره، وأشرقَ به مَنْصِبُ الحكم العزيز إشراقَ الأُفُق بطلوع بَدْره، وأضاءتْ بنُور أحكامه غوامِضُ القضايَا الشرعيَّة إضاءةَ الدُّجىٰ بغُرّة فَجْره، وقضىٰ له دوامُ الإصابة فى الاجتهاد بإحراز أَجْرَيْه إذا كان أحدُ قِسمَىِ الاجتهاد مقتضِياً لأَجْره، ومُلِئَ صدرُه بأنواع العلوم الدينيَّة فوسّع له الشرعُ الشريفُ صدرَ مجلِسه وأعدّ له مجلِس صَدْره، وزَخَر من خاطره بحرُ العلم فأرتوتْ رياضُ الخواطر بأنوار فرائد دُرّه،

(١) لم يذكر الثانية فما يأتى .

وأسفر وجهُ الدين بنُور علمه وعَمله : فقام هذا مَقامَ السُّرور فى أساريره وناب هذا مَنابَ الشَّنب فى ثَغْره .

نحمدُه حمدًا يزيدُ قدْرَ النِّعم تنويها، ويُسوِّغ فى المحامد تعظيمًا لمُسْدِى المِنَّة وتنزيها، ويَنْهَض بشكر التوفيق فى ٱختصاص مَنْصِب الحكم بمن كانَ عند اللهِ وَجيها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفترّ ثغورُ الإسلام بإدامتها ، وتُبنَىٰ قواعدُ الإيمان علىٰ إقامتها ، وتَشيمُ بوارقَ النصر علىٰ جاحدِها من أثناء غمامتها، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أنارتِ الآفاقُ بملّته ، ودارَتْ أداةُ التشبيه بين أنبياء بنى إسرائيل وعلماءِ أمَّته، وضاهىٰ شرعُه شمسَ الظهيرة فى وُضُوح أحكامِه وظهور أدلَّته ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عمِلُوا بما علِمُوا ، وجاهدُوا أعداءَ الله فما ضعُفوا لذٰلك ولا ألِمُوا، وقضَوْا بالحق بينَ أمَّته فلا المَقْضِىّ لهم أثموا ولا المَقْضِىّ عليهم ظُلِموا ؛ صلاةً لا تزالُ لها الأرض مسجدا، ولا يبرح ذِكْرُها مُتْهِما فى الآفاق ومنْجِدا؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من قُلِّد الحكمَ وإن نأىٰ به الورَعُ عن توقُّعه، وخُطِب للقضاء وإن أعْرَض به الزُّهدُ عن طِلابه وتتبُّعه ، ودُعِىَ إليه إذِ الإجابةُ عليه متعيِّنه ، ووُضِعَتْ مقاليدُه بحكم الاستحقاق [فى يديْه] إذْ أولويَّته البيِّنةُ لا تحتاجُ إلىٰ بيِّنه ـ من عُقِدت علىٰ تعيُّنه لهذا المَنْصب الجليلِ الخَناصر، ودَعَت إلى ٱستدعائه إليه فضائلُه الثابتةُ القواعدِ وزَهادتُه الزاكيةُ الأواصر؛ ودلَّت عليه علومُه دَلالةَ الأضواء، على لَوامع الشُّهب، ونَبَّهتْ عليه فنُونُه تنبيهَ الأنواء، علىٰ مَواقع السُّحُب؛ وشهِدَ بِوَرَعِه المتينِ، تفقُّهُه وٱعتزالُه ، وأنبأ عن نُهوضه بنُصرة الدين، قوّةُ جِداله الذى هو جِلادُ مثله ونِزالُه ؛ وتبحَّر فى أنواع العلوم حتّى جاوَرَ البحرَ بمثله ولكنَّه

العذب الزُّلال ، وشغل نفسه بالتنوع فى الفُنون فكان التحلّى بعبادة الله ثمرةَ ذلك الاشتغال ، ومشَى على قدم الأئمة العلماء من أسلافه فلم يُشَقّ فى ذلك المضمار غُبارُه ، ونشأ على طريقة العلم والعمل : فنهارُه بالانقطاع إليه ليلُه وليلُه بالاشتغال بهما نهارُه .

ولما كان فلان هو الذى خطبته هذه الرتبةُ السنيَّة لنفسها ، وتشوّقت إلى الإضاءة بطُلُوعه فى أُفُقها تشوّقَ المَطالع إلى الإضاءة بطُلُوع شمسها ، وأثنى لسانُ القلم على فضائله وهو يعتذر من الاختصار ، واقتصرتِ البلاغةُ على اليسير من التعريض بوصفه وطالبُ ما لا يُحصَر معذورٌ فى الاقتصاد والاقتصار ، وعُيِّن لما تعيَّن عليه من مصالح الأمّة وذلك يقضى لمثله من أهل الورَع أن يُجيب ، وطُلب لعموم مصالح الإسلام التى ما ينبغى لمثله من أنصار السُّنَّة أن يتأخّر عن مثلها أو يَغيب ، وكان ثغرُ الإسكندرية المحروسُ من المَعاقل التى يفترّ عن شَنَب النصر ثغرُها ، ومن أركان الدين التى يَغَصّ بأبطالها بحرُها ، وهى مأوى صُلَحاء[(١)] الجهاد الذين سهامُ ليلهم أسبقُ إلى العِدا من سهامهم ، وموطنُ العلماء من أهل الاجتهاد الذين يَعدل دمَ الشهداء مِدادُ أقلامهم ، وهى دارُه التى تَزهَى به نواحيها ، وموطنُ رِباطه الذى يومٌ وليلةٌ منه فى سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها ـ اقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَخُصّ منصبَ حكمها بعالِم أُفقها المُنير ، وزاهد ثغرها الذى ما شام برقَه بصرُ عدوٍّ إلا وانقلب إليه خاسئًا وهو حَسير ، أن[(٢)] نُفوّض إليه منصبَ القضاء والحكم العزيز بثغر الإسكندريّة المحروس ، على قاعدة من تقدّمه فيه ، نظرًا فى عموم ذلك الثغر المحروس به (؟) إلى من انعقد إجماع أئمة عصره ومصره على سَعة علمه ووُفُور وَرَعه وكمال فضله .

(١) مرادُه أنها مأوى صلحاء المتعبدين الذين الخ .
(٢) يظهر أن فى هذه العبارة سقطا وحرر .

فليباشر هذا المنصبَ الذى مِلَاك أمرِه العلمُ والتُّقَى ، ونِظامُ حكمه العدْلُ والورَعُ وهما أكمَلُ مابه يُرْتَقَى ، وليحكُمْ بما أراه الله من قواعد مذهبِه المُحكَمه ، وأحكام إمامِه التى هى بمصالح الدِّين والدنيا محكَمَة ، وليَقضِ بأقوال إمامِ دار الهِجْرة التى منها صدرَت السنَّة إلى الآفاق ، وعنها أُخذتْ ذخائرُ العلم التى تزكو على كَثْرة الإنفاق ، وبها حِمَىُ الأحكامِ الدينية موطَّأُ الأكناف ، وفيها آستقام عمودُ الملَّة ممدُود الطَّرَف على سائر الأطراف ؛ فليَلِ من ذلك وغيره جميعَ ما كان يليه مَنْ تقدّمه ، وتقتَضيه قواعدُ ولايته التى أمضينا فيه لسانَه وقلَمَه .

فأمّا ما يدخُل تحتَ هذا الإجمال من آداب القضاء وقواعِده ، وأدَواتِه وعوائِده : من تخصيص الحُكْم بأوقاتِه ، ومُساواته بين الخصمين فى إنصافِه و إنصاته ، وآجتناب الحُكْم فى الأوقاتِ المقتضِيَة لِتَرْكه ، وتوَقِّى نقض الأحكام التى نَظَمَها عَدَمُ مخالفة النص والإجماع فى سِلْكه ؛ فإنه مكتَفٍ بالإجمال عن تفصيلها ، مكتفٍ عن ذكر كثيرِها بالإيماء إلى قليلها ؛ إذ هو أدرَى بأوضاعِها شَرْعا وعُرْفا ، وأدرَبُ بما قد يشِذُّ منها عن ألمعيَّته أو يخفَى ؛ وملاكُ الوصايا تقوَى الله تعالى وهى من خصائص نفْسِه ، وفواتِح ما آبتدأ الورَعُ بإتقان دَرْسه ؛ والله تعالى يؤيد حُكْمه ، ويُعْلِى عَلَمه ؛ بمنّه وكرمه ! والآعتماد ... ... إن شاء الله تعالى .

⁂

وآعلم أنه كان فيما تقدّم قد وليها قاضٍ شافعىٌّ .

وهذه نسخةُ توقيع بقضائها ، كُتِب به للقاضى «عَلَمِ الدين الإخنائى» الشافعى ، فى ثامنِ شعبانَ سنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى رَفع لنا فى كل ثغرٍ علَما، وأجرىٰ لنا فى جِوار كلِّ بحرٍ مايضاهيه كَرَما، وجعل من حُكّام دولتنا الشريفةِ من يُعْرَف بنسبه الإسنائىِّ بل السَّنائىِّ أنه يمحُو من الظُّلْم ظُلَما .

نحمَدُه علىٰ أن زادَنا نِعَما، ووفَّر للأحكام الشرعيَّة مناقِبَها، وأغلىٰ قِيَمًا، [فأضحت] تُنافِسُ الدُّرَّ الثمين قِيَما ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُجرِّد لإقامتها سيفًا وقَلَما، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى جعل اللهُ له شريعةً مَاذِيَّةً(١) ودِينًا قِيَما، ونَصَب من أئمة أتباعه كلَّ علَمٍ يهدى أُمَما، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً باقيةً مابقِيَت الأرضُ والسَّما ، وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنَّ أوْلى الثُّغور بأن لايَزالَ به عَلَمٌ مرفُوع، وعِلْمٌ مصونٌ حِجابُه الممنُوع، وعملٌ يمشِى به أئمةُ الأمة علىٰ طريقه المشروع ، ثغرُ الإسكندرية ــ حماها الله تعالىٰ ــ فإنها من دار الملك فى أعزِّ مَقام، ومن مُجاورة البحر فى مَوْطِن جهادٍ تَخْفُق به الأعلام ، وغالبُ مَن فيها إما فقيهٌ يتمسَّك بالشريعة الشريفة فى عُلُوِّ علومه ، أو ربُّ مالٍ له وقوف بمجلس الحكم العزيز ينتصِفُ من خِصام خُصُومه ؛ ولم تزَل وظيفةُ القضاء بها آهِلةَ الصدور ، كامِلةَ البُدور، متهلِّلةً بما لايفوتُ الشَّنَب كبارق الجَزْع إذا حكىٰ إيماضَ الثُّغور ، وكان لها مدّةٌ قد خلَتْ ونحن نفكّر فيمن يكون سَدادا لثغرها، وكافيًا فيما يَهُم فى الأحكام الشرعية من أمْرِها، وكافلًا من الحق الذى أمر اللهُ به بما يقِى النفوس، وقائمًا فى مَدارسها بما يَزِيد معالِمَها إشادةً فى الدروس ؛ حتّٰى أجمعت آراؤُنا الشريفةُ علىٰ من يحسُن عليه الإجماع ، وتُحسَم به دواعِى النّزاع ، ويحسُد علمَه علمُ الشمس لِما علا عنها من كُرَة الارتفاع ، ومن يتضوَّعُ بنَشْر العدل

(١) أى سهلة بيضاء .

فى يمنىٰ كفه القلم ، وإذا وقفت به الركائبُ قالت : ياسارى القصدَ هذا البانُ والعَلَم ؛ وكان المجلس السامىّ القضائىُّ العَلَمِى الإسنائى الشافعى، أدام الله علوّه هو العَلَم المنشور ، والعِلْم المشهور ، والمرادُ بما تقدم من وصف مشكور ؛ فقتضت مراسمنا المُطاعة أن تُناط به من الأحكام الشرعية القضايا ، وأن يبْسِم هذا الثغر بحكمه عن واضح الثّنايا .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف، العالى، المَوْلَوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الناصرىّ : زاده الله شرفا ، وضاعف له تصرّفا ـ أن يفوّض إليه القضاءُ بمدينة إسكندرية ـ حماها الله تعالىٰ ـ علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدتِه المستقرّة إلىٰ آخر وقت، علىٰ أنه يَستنيبُ عنه فى تحمّله وفيما شاء منه من هو موصوفٌ بصفته ، موثوقٌ بدينه وعلمه ومعرفته ؛ ولْينتصبْ فى مجلس الحكم العزيز لمن ينتصف ، ولْيعمل بما يُرضينا من مراضِى الله تعالىٰ فإنّ للعيون أن تنظُر وللألسنة أن تَصِف؛ ولينظُرْ فى أمر الشهود فإنّ الأحكام الشرعيةَ علىٰ شهادتهم تُبْنىٰ ، وليحترزْ من الوكَلاء فإنّ منهم من يجعل الظنّ يقيناً واليقينَ ظنّا ، ولينظر فى أمور الأيتام ويتصرّف فى أموالهم بالحُسْنىٰ؛ وليُقِم الحدودَ، علىٰ مقتضىٰ مَذْهَبِه ، وليعوّل فى العقُود، علىٰ من لايخافُ معه امرؤ علىٰ إلحاقٍ فى نسبه؛ وغيرُ هذا مما إليه مرجعُه ، وإليه ينتهى مفترَقه ومجتمعُه وبحكمه يفصَلُ أمرُه أجمَعُه ؛ وليتخذِ الله تعالىٰ عليه رَقيبا ، وليعلَمْ أنه سيرىٰ كلَّ ما يعملُه عند الله قريبا ؛ وتقوىٰ الله هى التى تتخذ معه عليها عَهْدا مسئُولا ، ورجاءً مأمولا ، وقولا عند الله وملائكته وأنبيائه مقبُولا ، وتقلّده منها علىٰ كل مخالفٍ سيفًا مسلُولا ؛ ونحن نرغَبُ إلىٰ الله أن يوفّقه فى حكمه ، ويُعينَه علىٰ كل مايُملىٰ من الوصايا بما هو مليٌّ به من عَمَله وعِلْمه ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجةٌ فيه .

قلت : وكان قد استُحدِث بالإسكندرية قاضٍ حنفيّ فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » يُولّى من الأبواب السلطانية رفيقًا للقاضى المالكىّ بها، يتحدّثُ فى الأحكام فى القضايا المتعلّقة بمذْهَبه خاصّة ، وأمرُ مُودَع الأيتام ونظرُ الأوقاف ، وغيرُ ذٰلك من متعلّقات قضاء القضاة مختصٌّ بالمالكى ؛ ثم صارت بعد ذلك تارةً يولّى بها حنفىّ كذٰلك ، وتارة تَشْغَر منه . فإنْ وليها حنفىّ ، كتب له فى قطع الثُّلُث كما يكتب للقاضى المالكىّ ، وليس بها الآن شافعىّ إلا نائبا عن المالكىّ ، ولا حنبلىٌّ بها أصلا .

الوظيفة الثانية

(الحِسْبة بثغر الإسكندرية)

ومحتَسِبها يُمضِى تحدُّثَه فيما يختص به قاضِيها ، وليس له نُوّاب فيما هو خارج عن ذٰلك من البلاد .

وهذه نسخة توقيع بالحِسْبة بثغر الإسكندرية .

الحمدُ لله الذى جعل المناصِبَ فى أيّامنا الزاهرةِ محفوظةً فى أكفائها ، مضمونةً لمن تقاضت[له] من الإقبال ر[دّ]جَفَائها ، معدوقةً فى مآلها إلىٰ مَنْ زانها بمعرفته الحسنة بحسن... ... ... (١) بمن دلّتْ كفاءتُه وكِفايتُه علىٰ أنه أولىٰ بتقرّبها وأحقُّ باصطِفائها .

أحمدُه علىٰ نِعَمِه التى لم تُخيِّب فى إحساننا أملا ، ولم تُضَيِّع سعْىَ من أحسن [العملَ] فى مصالح دولتنا إنَّ الله لا يُضِيع أجْرَ من أحسَنَ عَمَلا ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أشرفُ مافاهَ به اللّسان ، وأفضلُ ما تُعُبِّد به

(١) بياض بالأصل . ولعله "بمعرفته الحسنة وحسن بهائها ، مخصوصة بمن الخ" .

الإنسان ، وأرفعُ ما مُلكت به فى الدنيا والآخرة عِظامُ الرُّتَب الحِسان ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى أحلّ الطيّبات وأباحَها ، وأزال الشُّبهات وأزاحَها ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تمسَّكُوا بأحكامه ، ووقَفُوا مع ما شَرَع لهم من حلال دينه وحرامه ، وحافظُوا على العمل بسنَّته بعدَه محافظَتَهم عليها فى أيَّامه ، صلاةً يتوقّد سراجُها ، ويتأكّد بها آنتساقُ السنَّة وآنتساجُها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ مَن رجع فيه حقُّ منصِبه إلىٰ نصابه ، وردّ به واجبُ رتْبته إلىٰ من جعلَتْه سوابقُ سيرته أولَىٰ به ، وتقاضتْ له سيرتُه عواطفَ كرمنا ، ونهضَتْ نزاهتُه باستطْلاع ما غابَ عنه من عوارفنا ونِعَمِنا ، وأغنَتْه أوصافُه عن تجديد ثناء يُستعادُ به بِرُّنا القديم ، ويستَدَام له به فضلُنا العميم ، وتستدرّ به أخلافُ كرمنا الذى تَساوَىٰ فى عمومه الظاعنُ والمُقيم — مَن زانَ التقىٰ أوصافَه ، وكمّلت العفّةُ معرفتَه وإنصافه ، وتولّت الديانة نظره فيما عُدق [به] من مصالح الرعايا خُصوصًا وعمومًا ، وتكفلت الخبرة من آعتباره لأمور الأقوات بأن جعَلَ لكل منها فى الجَوْدة حدًّا معلوما ، وباشَر ما فُوِّض إليه بجمع بينَ رِضا الله تعالىٰ ورضا خلْقه ، وعُوِّل عليه فى حِسْبة أعزّ الثغور لدينا فتصبح الرعايا فيما بَسَط لهم من رِزْقه .

ولما كان فلان هو الذى أضاءت أوصافُه وهل تُنكَر الإضاءةُ للسّراج ، وتشوّفت إليه رتبتُه فلم يكنْ لها إلّا إليه مَلاذٌ وإلا عليه مَعاج ، فسلَك من السِّيَر أرضاها لربِّه ، ومن الأحوال أجمعَها لأمْن عاقبتِه وسلامةِ غيبِه ، ومن الآجتهاد فى مصالح الرعايا ما يُضاعَف شكْرُه على آحتسابه ، ومن الخبرة ما يُعرِّف كلا منهم كيف يكونُ آكتساء البرية فى آكتسابه — رُسِم أن يستقر (١) ... ...

(١) بياض بالأصل وهو معلوم مما تقدم وحذفه اختصارا فى الكتابة .

فليستمرّ فى ذلك على عادته التى ناضلَتْ عنه فأصابَتْ ، وقاعدته التى دعَتْ له عواطفَ نِعمَنا فأجابَتْ ، وليَزِدْ فى التحذير والتحقيق ما استطاع ، ويُناقِش حتى يستقِرَّ على الصحة فيما يُباع أو يُبتاع ، ويقابِلْ على الغِشّ بما يردَع متعاطيه ، ويزجُر صانعَ الأعمال الفاسدة عن استدامتها ومَن يُوافقه على ذلك ويُواطيه ، ويُثمِّر أموالَ الأحباس بملاحظة أُصُولها ، والمحافظةِ على رَيْعها ومحصُولها ، وإمضاء مَصارفها على شروط واقفيها إن علمت ومزية (؟) ماقدّم من شكره والثناء عليه ، ومِلاكُ ذلك جميعِه تقوى الله تعالى وهى أخصّ ماقُدّم من أوصافه ، والرِّفْقُ بالرَّعايا وإنَّه من أحسنِ حِلَى معرفَتِه وإنصافِه ، والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالى .

الوظيفـــة الثـالثة

(نظَرُ الصـادر)

وموضُوعها التحدُّث فى قَدْر مقرَّر يؤخَذ من تُجّار الفرَنج الواردين إلى الإسكندرية ، وعليه مرتَّبات لناسٍ مخصوصِين من أهل العِلم والصلاح ، يُنفَق عليهم بمقاديرَ معلومة من متحصِّل هذه الجِهة .

وهـذه نسخةُ توقيع بنظر الصـادر والوارِد ، أنشأته عن السلطان الملِك الناصر «فرج بن الظاهر برقوق» للقاضى ناصر الدين «محمد الطَّنَاحى» إمام المقام الشريف السلطانى ، فى منتصف شهر صفر سنةَ أربع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمد لله الذى جعل من سُلطاننا الناصر لأخَصّ ولىٍّ أعزَّ ناصر ، وخصَّـه من فائضِ كَرَمنا المتتابع ومَنّنا المترادِف بأكرم وارِد وأبرِّ صادِر ، وبوّأه من فضْلنا المُنيف أفضل مبوَّإ : فتارة تأتمّ به الملُوك وتارة يخطُب الكافَّةَ على رءوس المَنابر .

نحمده علىٰ أنْ جعلنا نتَّبع فى الولايات نَهْجَ الصَّواب وتقتفيه ، وآثرنا من أثَرة الأبوة بأعلىٰ مواقع الاجتباء والولدُ سِرُّ أبيه ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له الذى أذلَّ طُغاةَ الكفر بقَمْع آناف كُبرائهم ، وألزمهم الصَّغار بمالٍ يؤخَذ من أقوياءِ أغنيائهم فيفرَّق فى ضُعفاء المسلمين وفُقَرائهم ، ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذى نَدَب إلىٰ مَبَرَّة أهل الفضل وذَوِيه ، ورغَّب فى رِعاية المودَّة للآباء بقوله : «إنَّ مِنْ أبَرِّ البِرِّ بِرَّ الرجُل أهْلَ وُدِّ أبيه» صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُدِقت بهم مهمَّاتٌ ، فقاموا بحقِّها ، ووُكِلت إليهم جلائلُ الولايات ، فأحرزُوا بجميل التأثير قَصَب سَبْقِها ، صلاةً يبقىٰ علىٰ مدَى الأيام حكمُها ، ولا يتغيرَّ علىٰ مرِّ الزمان رَسْمُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن من كَرِيم سجايانا التى جُبِلنا عليها ، وشريف شِيَمِنا التى يجذبُنا طيبُ العُنْصُر إليها ، أن نخُصَّ أخصَّ الأولياء بأسنىٰ الوِلايات ، ونُتحِف أصفَى الأصْفياء بنهايةِ غيْرِه فى البِدايَات ، ونرفَعَ قدْرَ من لم يزَلْ ظهرُه للملوك مِحْرابا ، ونُنَوِّهَ بذكر من رَغِبت فيه الوظائفُ فعدَلَتْ إليه عن سِواه إضرابا .

وكان المجلس السامىّ ، القاضَوِىّ ، العالِمىّ ، العامِلىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، البارِعىّ ، البليغىّ ، الماجدىّ ، الأوْحدىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، العَرِيقىّ ، الأصِيلىّ ، الخَطِيبىّ ، الناصِرىّ ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، شرفُ الرؤساء ، أوحدُ الكبراء ، صدْرُ الأعيان ، جمال الخُطَباء ، جَلَال النُّظَّار ، صَفوةُ الملوك والسلاطين ، أبو عبد الله محمد ، ابن المجلس السامىّ ، الجمالىّ ، المرحوم عبدالله الطَّناحى ، إمام المقام الشريف : أدام الله تعالىٰ رفعته ـ قد طالَتْ فى المخالصة قُدْمته ، ووُفِّرت من صِدْق المُوالاة قِسمتُه ، فرُفع علىٰ الابتداء خبَرُه ، ونصب علىٰ ... ...(١) تقدّمُه فحُمِد فى الاختيار

(١) بياض بالأصل ، ولعله "المدح أو التعظيم" .

أثَرُه، وكانت وظيفتا نظرِ الصادر وخَطَابة الجامع الغَرْبىّ بثغر الإسكندرية المحروس ـ حرسه الله تعالىٰ وحماه، وصانَ من طُروق العدو المخذُول حِماه ـ من أرفع الوظائف قَدْرا ، وأميَزِها رُتْبة وأعْلاها ذِكْرا ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُسند وِلايتَهما إليه ، ونَعتَمِد فى القيام بمصالحهما عليه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ آراؤُه مسدَّده، ونِعَمُه على الأولياء فى كلِّ حينٍ مُجَدَّده ـ أن يَستقِرَّ المشارُ إليه فى الوظيفتين المذكورتين عوضًا عمن كانتا بيده، بما لهما من المعلوم، ويُفْسَح له فى الاستنابة علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذلك : آستنادًا إلىٰ أمانتِه التى بلغَتْ به من العِفَّة مُنتهاها ، وكِفايتِه التى عَجَز المتكلِّفون عن الوُصول إلىٰ مَدَاها، وفصاحتِه التى أعجزَتْ ببراعتها الخُطباءَ الأماثِل، وبلاغتِه التى قضَتْ بالعِىّ علىٰ قُسّ إيادٍ وحكَمَتْ بالفَهاهة علىٰ سَحْبانِ وائل .

فليتلقَّ ماأسند إليه بيَدِه الطُّولىٰ وباعه المَدِيد،وليُقابِلْ هذه النعمةَ الحفيلةَ بالشُّكر فإنَّ الشكر مستلزِمٌ للمزيد،عالما أنَّ نظَر الصادر يقدِّمه أهلُ الثغر علىٰ عامَّة الوظائف مادَقَّ منها وما جَلّ،ويتبرَّكُ المرتَّبون عليه بما يأخُذونه من راتبه وإن قلّ ؛ فليُحسِنِ النظرَ فيه وِرْدا وصَدَرا، ويميِّزْ رَيْعه بحُسن النظر فيه حتَّى يقول المعانِدُ : ما أحْسَنَ هذا نَظرا ! .

والجامعُ الغربىّ فهو أجلُّ جوامع الثغر الإسكندرىِّ قَدْرا، وأعظمُها فى الأقطار صِيتًا وأسْيَرُها فى الآفاق ذِكْرا ؛ يحضُر الجُمعةَ فيه أهلُ الشَّرق والغَرْب، ويُلِمُّ بخُطبته سُكّان الوِهَاد والهَضب ؛ فليَرْقَ مِنبره رُقِىَّ مَن خطبه المِنبر لخُطبته ، وعلِمَ علُوَّ مقامه فقابله بعلُوِّ رُتبته ؛ ويَشْنِف الأسماعَ بوعْظِه ، ويَشْجِ القلوبَ بلفظه ؛ ويُحْيى العُقول بتذكيره ، ويُبْكِ العيونَ بتحذيره ؛ وليُعِدْ للجامع ما تعوّده من الإسعاد ،

ويجدّد مادَرَس من معالم خَطَابته حتّى يقال : هذا آبنُ المُنَيِّر قد عاد ، وعِمادُ الوصايا تقوى الله فهى مِلاكُ الأمور كلّها ، وعليها مدارُ أحوال الدُّنيا والآخرة فى عقْدها وحَلّها ؛ وهاتان مُقـدّمتا خيرٍ فليكُن لنتيجتهما يرتَقِب ، ولا يَقْطع بالوُقُوف معهما رجاءه « فأوّلُ الغيث قَطْر ثم يَنْسكِب » ؛ والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه ، حجةٌ فيه بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الثالث

(من الوظائف التى يُكتَب بها بثغر الإسكندريّة المحروس، الوظائفُ الدِّيوانيةُ ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقـــة الأولىٰ

(مَنْ يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء وهو ناظر المباشَرة بها ، وعنه يعبَّر بناظر الإسكندرية ، دون ناظر الأصْل[1] المقدّم ذكره فى جملة الوظائف الديوانية بالحضرة)

وموضوعُ هذه الوظيفة التحدّثُ فى الأموال السلطانية بالإسكندريّة مما يتحصّل من المأخوذ من تِجّار الفرنج ، وسائر المتَاجِر الواصلة برًّا وبحرًا بالقَبْض والصَّرْف والحملِ إلى الأبوابِ السلطانية .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر ثَغْر الإسكندرية ، كُتِب به للقاضى «جمالِ الدين آبن بَصّاصة» وهى :

---

(١) وهو ناظر الخاص المتحدّث فى الأموال السلطانية كما تقدّم .

الحمدُ لله الذى أضحكَ الثُّغُور[١] بعد عُبُوسها ، وردّ إليها جَمالَها وأنار أُفُقَها بطلوع شُمُوسها ، وأحيا معالمَ الخَيْرِ فيها وقد كادت أن تُشرِفَ على دُرُوسها ، وأقام لمصالح الأئمة مَن يُشرِق وجهُ الحق ببَيَاضِ آرائه ، وتلتذُّ الأسماع بتلاوةِ أوصافِه الجميلةِ وأنبائه .

نحمدُه حمدَ من أُسبِغت عليه النَّعماء ، وتهادتْ إليه الآلاء ، وخَطَبتْه لنفسها العَلْياء ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً ترفع قَدْرَ قائلها وتُعلِيه ، وتُعِزُّ جانب منتَحِلها وتُدْنيه ، وأن محمدًا عبده ورسوله أفضلُ نبيٍّ رابَطَ وجاهَد ، وأكرمُ رسول جنَحَ للسِّلْم بأمر رَبِّه فهادَنَ وعاهد ، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه ، وأشياعه وحِزْبه .

وبعدُ ، فأحقُّ مَن ماسَ فى أرْدِية الرياسة عِطْفا ، واستجلى وجوهَ السعادة من حُجُب عزِّها فأبدَتْ له جمالا ولُطْفا ، واصطفَتْه الدولةُ القاهرة لمهمَّاتها لمَّا رأتْه خيرَ كافل ، وتنقَّل فى مَراتبها السنيَّة تنقُّل النيِّرَيْنِ فى المَنازِل[٢] .

ولما كان فلان أدام الله رفعته ممن أشارت إليه هذه المناقب الجليله ، وصارت له إلى كل سؤل نعم الوسيله ، رسم بالأمر الشريف ــ لا زال ... ... أن يستقرّ فى نظر ثغر الإسكندرية المحروس ويباشرَ هذا المنصبَ المبارَك بعَزَماته الماضيه ، وهِمَمه العاليه ، برأى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك : ليُصْبِح هذا الثغرُ بمباشرته باسمًا حاليا ، وتعودَ بهجَتُه له بجميلِ نظرِه ثانيا ، وينتصبَ لتدبير أحواله على عادته ، ويقرّرَ قواعدَه بعالِى همّته ، ويجتهدَ فى تحصيل أموالِه وتحصين ذخائِره ، واستخراج زكاته

(١) تقدّمت فى صفحة ٤٠ و ٤١ من هذا الجزء ببعض زيادة وتغيير واختصار .

(٢) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل أحق من ماس ... ... من كان لحلل العفاف لابسا ، ومن نور الايقان قابسا ، الى غير ذلك من الأوصاف .

وتمية متاجره ، ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه ، والرفق الذى نقلوا أخباره السارّة عنه ؛ فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ؛ ومن ألسنتهم يطّلع علىٰ ماتجنّه الصدور ، وإذا بذر لهم حبّ الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ؛ وليعتمد معهم ماتضمّنته المراسيم الشريفة المستمرّة الحكم إلىٰ آخر وقت ، ولا يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلّم والمقت ؛ وليواصل بالحمول إلىٰ بيت المال المعمور ، وليملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل ماتستغنى به عن الواصل فى البرور والبحور ؛ وليصرف همّته العالية إلىٰ تدبير أحوال [المتاجر بهذا الثغر بحيث ترتفع رءوس أموالها وتنمى ، وتجود سحائب فوائدها وتهمى ، وليراع أحوال][1] المستخدمين فى مباشراتهم ، ويكشف عن باطن سيرهم فى جهاتهم ، ليتحقّقوا أنه مهيمن عليهم ، وناظر بعين الرأفة إليهم ، فتنكفّ يد الخائن منهم عن الخيانه ، وتتحلّى أنامل الأمين بمحاسن الصّيانه ؛ وليطالع بالمتجدّدات فى الثغر المحروس ، ليرد الجواب عليه منا بما يشرح الصدور [ويطيّب النفوس][1] وليتناول من المعلوم علىٰ ذٰلك فى غرّة كل شهر ما يشهد به الديوان المعمور ، والله تعالىٰ يتولّاه ويعضّده ، ويؤيده ويسدّده ، بمنّه وكرمه ! .

قلت : وربما كتب لناظرها توقيع مفتتح بـ«أما بعد حمد الله» فى قطع الثلث .

⁂

وهذه نسخة توقيع بنظر ثغر الإسكندرية ، وهى :

أما بعد حمد الله مفيض حلل إنعامنا علىٰ من أخلص فى طاعتنا الشريفة قلبه ولسانه ، ومولى فضل آلائنا العميمة علىٰ من أرهف فى مصالحنا عزمه وبنانه ؛

(١) الزيادة مما تقدم فى صفحة ٤١ من هذا الجزء .

ومُحَلِّى رتب عليائنا الشريفة بمن أشرق فى سماء المعالى بَدْرُه وإنسانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمانىّ قطوفُه وأفنانُه ، ومُبلّغ أقصى غاية المجد فى أيامنا الزاهرة بمن تبتسم بجميل نَظَره الثغور ، وتعتصم بحميد خبَره وخبرته الأمور ، وتُشرق من جميل تدبيره البدُور ، وتعتمد على هِمَمه الأيامُ والدهور . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، والناشِر لواءَ العدل بسُنّته الواضح وشرعه القويم ، والمُنجِز لمن آقتفى سُبُلَه أوفى تكريم ، وأوفرُ حظٍّ عظيم ، وعلى آله وأصحابه ما آهتدى بهديهم ذَوُو البصائر والأبصار ، وآرتدى بأرديتهم المُعْلَمة مقتفِى الآثار — فإنّ أَوْلَى من أسنَدْنا إلى نظره الجميل رُتْبة عزٍّ مازالت طيورُ الآمال عليها تحُوم ، وعدَقْنا بتدبيره الجليل منصبَ سِيادة مابَرِحت الأمانىُّ له تروم ، وآعتمدنا على هِمَّته العلية فصدَّق الخُبْرُ الخبَر[1] ، وركَنّا إلى حميد رأيه فشَهِد السمعُ وأدّى النظر .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى آتّسق فى ذِرْوة هذه المعالى ، وآنتظم به عِقْد هذه اللآلى ، وحَوى بفضيلة اللسان والبيان مالم تُدرِكه المُرهَفات والعَوالى ؛ فما حل ذِروةَ عزٍّ إلا وحلّاها بنظره الجليل ، ولا رَقِىَ رتبةَ سيادةٍ إلا وأسفَر فى ذروتها وجهُ صُبْحه الجميل ، ولا عُدِق بنظره كفايةُ رتبةٍ إلا وكان لها خيرَ كفيل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف — لا زال ينتصِى[2] للرتب العلية خيرَ مُنْجد ومُمِير ، ويمتطِى للمناصب السنيَّة نِعم المَوْلى ونعم النصير — أن يستقرّ ..... فإنه القوىُّ الأمين ، والمتمسِّك من تقوى الله تعالى ومراقبته بالسبب المتين ، والمستنِدُ بجميل كفايته ، وحميد ديانته ، إلى حِصْن حصين ، والمستذرِى بأصالته وإصابته إلى الجُنّة الواقية والحَرَم الأمين ؛ فليقدّم خيرةَ الله تعالى فى مباشرة الوظيفة المذكورة بعزم

(١) لم يذكر خبرا لإنّ وهو معلوم من نظائره السابقة أى من كانت صفته كذا وكذا الخ .

(٢) بالصاد المهملة أى يختار وينتق .

لاينْبُو، وهمّة لاتَخْبُو، وتدبير يتضاعف على ممرّ الأيام ويَرْبُو، ونظرٍ لا يعزُب عن مباشرته فيه مثقالُ ذرّة إلا وهى من خاطره فى قرار مكين، وضَبْطٍ لا تمتدّ معه يدُ لامس (١) [اليها] إلا ويجد من مرهَفِه مايكُفّ كفّها عن الخيانة بالحقّ المبين؛ ولْيضاعِفْ همّته فى مصالح هذه الجهة التى عدَقْناها بنظره السعيد، وليوَفّر عزْمتَه فإن الحازم من ألقى السمْعَ وهو شهيد؛ والوصايا كثيرةٌ ومثله لايُدَلّ عليها، والتنبيهات واضحةٌ وهو - وفقه الله - أهدى أن يُرشَدَ إليها؛ والله تعالى يوفّقه فى القول والعمَل، ويُصْلِح بجميل تدبيره وحميد تأتّيه كلّ خلل؛ بمنّه وكرمه!.

الطبقـــة الثانية

(مَنْ يُكتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بغير ياء أو «مجلس القاضى» وفيها وظيفتان)

الوظيفـــة الأولى

(كتابة الدَّرج)

وصاحبُها هو الذى يقومُ بالإسكندرية مَقام كاتب السرّ بالأبواب السلطانية فى قراءةِ المُكاتبة على النائب، وكتابةِ الأجوبةِ وما يجرى مَجْرى ذلك.

وهذه نسخةُ توقيع من ذلك:

رُسم بالأمر الشريف - لا زال شاملًا فضلُه، كاملًا عدلُه، هاملًا بالإحسان وبْلُه، متّصلا بالجميل حبْلُه، ملاحِظًا بعين العناية للبيتِ الزاكى فَرعُه الطيّب أصلُه، معليا نجمَه إلى أسنى المراتب التى لا ينبغى أن يكون محلَّها إلا محلُّه - أن يستقرّ فلان

(١) فى الأصل ملتمس الا الخ.

فى كتابة الدَّرْج بثغر الإسكندرية المحروس على عادةِ من تقدّمه فى ذلك وقاعدته، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ إلى آخر وقت: لأصالته المُعْرِقه، وغُصون نَسبه المُورِقه، وآدابِه الجَمّه، وفضيلته التى أبدى بها عِلْمَه، وكتابتـه التى حلّت المَهارق، وأبدَتْ من الجواهر ما تَمَنّى لمسَه المَفارِق، وتَذْوِى لنَضارته أزاهرُ الروض النَّضير، وتنفرِد فى الحسن فلا تجِد [لها] من نظير، وتبرُز كالعقُود فى أجياد الترائب، وتُنْشِئُ كُتُبا تغنِى عن الكتائب، مع ماله من رآسة أثبتَت مَعاليَه، ونفاسةٍ أضحتْ بجواهرها الأوصافُ حاليَهْ، وصَـدارةٍ توالتْ منه فاستوجب بهـا مزيدَ الحسنى المتواليـه، قد خُوِّل فى كرم الأصل فلا غَرْوَ أن أمسى نجيبا، ودعا بديعَ اللفظ ولطيفَ المعنى فغدا كلٌّ منهما لأمره طائعًا وبالإذعان مُجيبا، وعلَا كوكبُه فأضحى فى الرِّفعة بعيـدا وإن كان فى مَرْأَى العين قريبا، وزكا من أكابره إلى كل فريدٍ فى سُؤْدَده، واحدٍ فى عُلَاه يَفوق الجمعَ فى عدَده، فهو إنسانُ عينِ زمانه، ومالكُ زِمام الإنشاء ومُصَرِّف عِنَان بنانِه، ومُبْرِز الحسناتِ بسفارته المقبولةِ وإطلاقِ بَيانه، فلا غروَ أن آستوجبَ منّـا مايقْضى له بالمَزيد، وآستحقّ بآتّباع أصلِه العالِمِ التقىّ إدراكَ مايُريد، وتحلّى بمناقبه ومآثره، ونقل عن عَفَافه ومَفاخره.

فليستمرَّ فى ذلك على أجمـل عوائده، وأجزل فوائده، سالكًا فى ذلك طرائقـه الحميـدَه، ومناهجَه ومناهجَ أسلافه السَّديده، مُبْرِزا من خطّه مايُخْجِل به الطُّروس، ويَسُرّ بمزاياه النفُوس، ويُنظِم كالعقُود، ويلوح للأبصار حسنُ رونقه [المشهود]، والله تعالى يجعل إحسانَنا لدى بيته الكريم مستمرّا، وآمتنانَنا العميمَ عنده مستقِرّا، وثغرُ العِناية به مفترًّا، بمنّه وكرمه! إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثانيـــة

(نظرُ دار الطِّراز بثغر الإسكندرِيّة)

وهذه نسخةُ توقيع بذٰلك ، كُتِب بها لصلاح الدين بن علاء الدِّين علىّ بن البرهان، سنةَ إحدىٰ وأربعين وسبعمائة ، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء، وهى :

رسم بالأمر الشريف ـ لا زالَ إيثارُه، يُكْرِم منْ غدا صلاحُه لِحُلَّة العُلىٰ طِرازا، وآختيارُه، يقدِّم للمناصب الجليلة من ورِثَ من أبيـه نهضةً وآحترازا ـ أن يستقر فلان فى كذا : لكفايتـه المعروفة المحقَّقه ، ودرايتِه المألوفة بركاتها الموفَّرةُ وحركاتُها الموفَّقه، وديانته التى منها الأ كابرُ علىٰ ثِقَه ، وأمانتـه التى تعتمِدُ الحقَّ مستَدْعِيةً ومنْفِقه، وصيانتِه التى هى للواصل حافظةٌ وعلى الحاصل مُشْفِقه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى كانت فى سالفِ الزمان إلى الحُكَّام تُضَاف، وللعلمـاء الأعلام عليها نظرٌ وإشراف ؛ ومنها يُسْدَل علىٰ أوليائنا لباسُ الإنعام وترَسَّلُ أجناس الإتحاف، وتُسربَلُ الكعبةُ البيتُ الحرامُ فى كلِّ عام بجِلْبابهـا المحكم النَّسج المُعْلَم الأطراف؛ ولِيصُنْ ذَهبها عند صَرْفه وقَبْضه ، وليَزِنْ خزَّها بتقريبِ مَشُوبه وتحرير مَحْضه، ولْيُبِن عن حسن التدبير فى إبرامِ حريرِها ونقْضـه ؛ وليستَجْلِب رجالَهـا وصُنَّاعها ، ولْيُجنِّبْ أحوالَها ضَياعها ، ولْيستجِدْ أصنافَها وأنواعَها، وليتفقَّدْ أكنافها وبِقَاعها ؛ حتّىٰ يُظْهِر فى أعمالها آثارَ الصلاح، وتُشكَر مباشرتُه التى هى محمودةُ الآنتهاء مسـعودةُ الآفْتتاح ؛ والله يَقْرِن رجاءه بالإرباح ، ويُؤذِن له حيثُ سـلَك بإصابة الصواب والفلاح، بمنه وكرمه ! .

قلت : ودارُ الطِّراز هذه هى التى تُعمَل فيها المستعملاتُ السلطانية : مما يُحمَلُ إلىٰ خزانة الخاصّ الشريف من الأقمشة المختلفة الصِّفات : من الحرير والمقترح المخوَّص بالذهب، والتَّفاصيل المنقُوشة بضروب النقوش المختلفة، وغير ذٰلك من رقيق الكَتَّان وغيره مما لايُوجد مثلُه فى قُطْر من أقطار الأرض؛ ومنه[1] تُتَّخذ الأقمشةُ التى يَلْبَسها السلطان وأهل دُورِه؛ ومنه تعمَلُ الخِلَع والتشاريفُ التى يَلْبَسُها أكابر الأمراء وأعيانُ الدولة وسائرُ أهل المملكة؛ ومنه تُبْعَثُ الهدايا والتُّحف إلىٰ ملُوك الأقطار . وقد كان يُكتب لناظر هذه الدار توقيعٌ عن الأبواب السلطانية خارج عن توقيع ناظر الإسكندرية علىٰ ما تقدّم ذكره . أما الآن فقد صار ذٰلك تحتَ نظر ناظر الإسكندرية يتحدّثُ فيه كما يتحدّثُ فى سائر أمورِها ، ومرجع الكلّ إلىٰ ناظر الخاصّ بالأبواب السلطانية .

الجهة الثانية

(مما هو خارج عن حاضرتَىْ مصر والقاهرة بالديار المصرية ــ بلادُ الرِّيف)

والمراد بالرِّيف فى أصل اللغة موضعُ المِياه والزَّرْع .

وقد تقدّم أنّ رِيفَ الديار المِصريّة وجهان :

الوجه الأوّل

(الوجه القِبْلى ، وهو المعبَّر عنه بالصَّعيد)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أنه ينقَسِم إلىٰ صعيد أعلىٰ، وصعيدٍ أسفَل . وقد كانت ولايتُه العامّةُ فى الزمن المتقدّم يعبَّر عن صاحبها

---

(١) الضمير عائد على ماتقدم من الحرير والكتّان .

بـ«والى الوُلاة بالوجه القبلىّ» ثم آستقرّتْ نيابةَ سلطنة على حدّ تقدمة العسكر بغزّة فى رُتْبة المكاتبة، فى الأيام الظاهرية «برقوق» وهى على ذلك إلى الآن . ونائبها يكتب له تقليدٌ بنيابة السلطنة بها فى قطع النصف .

وهذه نسخة تقليد شريف من ذلك ، من إنشاء الشريف «شهاب الدين» كاتبِ الإنشاء، وهى :

الحمدُ لله الذى رَحِم بتعاهُدِ نظرِنا البلادَ والعِباد ، وحَسَم بموارِدِ زواجِرنا موادَّ الفَساد ، وأحمدَ فى هذا الوجهِ لنا الآثارَ ووطَّأ بنا المِهاد ، وأفردَ آراءَنا بجميع المصالح على الجَمْع والإفراد، وأَوْلَىٰ بنا الرعيةَ الخيرَ فى آسترعاء مَنْ يبذُل فى صيانتهم الآجتهاد، وأعْلَىٰ بنا كلمةَ العدل فهى تُنشَر وتُذَاع وأوهىٰ بنا كلمةَ الظُّلم فهى تُقْهر وتُذاد ، وأجلى بانتقامنا فِئةَ الضلال فلها عن مُلكِنا الشريف آنْدِفاع وآنْطِراد[1] .

نحمده على أنْ قرَن بآرائنا السَّداد، ونشكره على أن ضَمّن آصطفاءنا حُسنَ الآرتياد، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة تَقُوم حُجَّتُها، يوم يقُوم الأشهاد، وتدُوم بهْجَتُها، علماً للإرشاد، ونشهد أنّ سيد البشر محمدًا عبدُه ورسولُه الذى فَضَل العالَمَ وساد، وأجزل المكارِمَ وجاد، وهَدىٰ بشَرْعه مَن حَادَ، وأردىٰ برَدْعه من حادّ، وأجرى بجُوده النفْعَ حيثُ كان وأبدىٰ ببأْسِهِ القَمْعَ لمن كاد، وأخمدَ بأسيافه الباطلَ فبادَ، وجعل لِأَنْفِ مخالفه الإرغامَ ولجيش مجانفه الإرعاد، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الأنجاب الأنجاد، صلاةً لها تضاعفٌ وتَعداد، وبفتكاتهم (؟) للنوائب إخماد، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

(١) دعته مراعاة السجع الى استعمال الانفعال من طرد ونص أهل اللغة على أنها لغة رديئة . فتنبه .

وبعد فإنّ الله تعالى لما أعلى هِممنا وأصعدَها، ووفَّى عزائمنا من النصر موْعدَها، وأسعف بُملكنا الرعية وأسعدَها، وضاعف بنا لديهم النِّعمة وجدّدها، وأوضح بنا سُبُل المعْدَلة وجدّدها، وأنجح بسُلْطاننا آمالَ الخليقة وأنجدها — لم نُخْلِ من ملاحظتنا أدنى الأقطار ولا أبعدَها، ولم نُغفل من ممالكنا ناحيةً إلا نحاها فضلُنا وقصدَها فأقرّبها الصالحاتِ وخلَّدها، وأثرّبها المسامحات وأبّدها، ونصر الشريعة وأيّدها، وسدَّ الذَّريعةَ بأفعال حزْمٍ سدّدها، ووطّن أهلها ووطّدها، وأوردَ مَنْ بها موارد الأمن لما وردَها.

ولما واجه إقبالُنا فى هذه الأيّام الوجْهَ القِبْلىّ، وصعد إلى الصعيد الأعلى ركابُنا العلىّ، نحنا بلادَه وتعدُّدَها، وتعيّنَ ملاحظتِه وتأكُّدَها، وكثرةَ السُّلَّاك لسُبُله، والمُلَّاك لحَوْله، والوُرّاد لنَهَلِه، والوُفّاد من قِبَله، وهو مَنْهج التّجار فى التوجه من أبوابنا الشريفة والجواز، وبابُ اليَمَن والحجاز، وفى الحقيقة هذا المجازُ يتعين له الحفْظُ وفيه الاحتراز، وبه كَراسىٌّ منها السّيارة تمتارُ وعلى سواها من البِلاد تمتاز، وبه مراكزُ وُلاة ينفرِد كلٌّ منها عن الآخر وينحاز، وهى: إطْفيحُ، والبَهْنسى، والأُشْمُونين، ومَنْفَلُوط، وسيُوط، وإخْميمُ، وقُوص. وهذه الأقاليم مجتمعةٌ متفرقه، وحدودُ بعضِها ببعضٍ متعلّقه، وبها إقطاعاتُ مقدّمى الألُوف والطّبلخاناه والمماليك والحَلْقه، وإليها تردّدُ الرَّكّاضة والمرتزقه، وربّما أخاف المفسدُون من بعضها سُبُلَه وقطَع طُرُقَه، فاتُّهِم البَرِىّ، وسَلِم الجَرِىّ، ولُبِّس على من هو عن الخيانة عَرِىّ؛ فرأينا أنْ ننْصب بهذه الأقاليم والِىَ وُلاة يجُوس بنَفْسه خِلالَها، ويدُوس بخَيْله سَهْلَها وجبالَها، ويفجَأ مُفْسِدها، ويبْعَثُ بعثَه بها(1)، ويُخْمِد نِفاقَها، ويُمهِّد وِفاقها، ويُنصف ضِعافَها، ويُذْهب خلافَها، ويُزيل شَكْواها، ويَكُفُّ عَدْواها، ويُصْلح

(1) فيه تصحيف ولعله «ويفجأ مفسديها، ويبغت معتديها».

فسادَها ، ويُوضِّح سَدادها ، ويوصِّل حقُوقها ، ويستأصِل عُقُوقَها ، ويُواصِل طُروقَها ، ويقابِل بالعِقاب فُسوقَها ، ويمنع بِاهتمامِه، أهواءَها ، ويَشْفِي بحسامِه، أدْواءَها .

ولما كان المجلس السامىّ، الأميرىّ، الحُسامىّ هو الذى عَرَف أحوالها وخبَرَها، ووَلِيَ من أقاليمها ما علِم به مصالحَها واَعتبَرَها ، وعُهِدت منه الأمانةُ والكِفايه ، وتُحُقِّقتْ نهضتُه فى كل عمل ويقظَتُه فى كل وِلَايه ـ اَقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن تُفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بهذه الأعمال المذكورة والأقاليم كُلِّها ، وأن يَنتضِى فيها حُسامَه الذى ينبغى أن يُرتضَىٰ ويُنْتضَىٰ لمثلها ، وأنْ يُحَلَّ محَلَّه إذ اَختَرْناه لأعلىٰ رُتَب الوُلاة وأجلِّها ، وأن نصِلَ أسبابَ النعمة لديه بهذه النعم التى كلُّ ولايةٍ فرْعٌ لأصْلها .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أيامه الشريفة تخُصُّ الرتبَ العلية بأهلها ، وتشْمَل ذَوِى الاَهتمام بإحسانها وفضْلها ـ أن يُفوّض إلىٰ المشار إليه ولايةُ الوُلَاة بالوجْه القبلىّ . فليُباشِرْ ذٰلك بهِمَّة تَمْضى فى البلاد عزائمُها ، ونهضةٍ تسير إلىٰ دانيها وقاصيها صوارِمُها ، وشهامةٍ يُدْهِش المتمرّدين قادِمُها ، ويَفْقِدُ موادّ الفساد من حُسامها حاسِمُها .

ونحن نَرسُمُ له بأمور يُلازِمها ، ونُوصِيه بوصايَا يُداوِمُها ؛ أن يكون بتقْوىٰ الله تعالىٰ عامِلا ، وللنُّصْح باذِلا ، وللشريعة معَظِّما ، ولمراقبة الله تعالىٰ مقَدِّما ، وللحقّ متّبِعا ، وإلىٰ الخير مُسْرِعا ، وللمؤمنين مؤَمِّنا ، وللمنافقين مُوَهِّنا ، وللرَّعايا موَطِّنا ، وللنَّزاهة مُظْهِرا ومُبْطِنا ، وعن الأبْرِياء كافًّا ، وعن الأتقياء عافًّا ، وعن الأموالِ متنَزِّها ، وإلىٰ ما يُصلح الأعمالَ من صالح الأعمال(١) موجِّها . ولْيغْدُ فى الأمور متثبِّتا ، ولذوى

(١) فيه شبه استخدام فالأول بمعنى الجهات والثانى بمعنى الفعل . فتنبه .

الفجور مشتّتا، ولسماع حُجج الخصوم منصتا، ولا يجعل حلوله الأقاليم حينا مؤقتا، بل يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، وليبغت بحلوله هذه النواحى ليعلم ما هم عليه من ترك الفواحش أو فعلها، وليُقِمْ بكل جهة من يعلمه بما يحتاج إلى علمه، ويبكّر له بما يفتقر أهل البلاد إلى السّتر عنه وكتمه، وليلحظ المحارس والأدراك، وليجعل لكل شارد من بطشه أسرع إدراك — وقد رسمنا لولاة الأعمال المذكورة ومن فيها من نوّاب الأمراء والمشايخ بهذه الصورة وأن لا يجيروا مفسدا ولا يئووه، ولا ينزلوا خائنا ولا يحووه، ولا يستروا مختفيا ولا يخبّوه، ولا يحلّوا نازحا ولا يوطّنوه، بل يحضروه ولا يؤخّروه، ويمسكوه ولا يتركوه، ويسلموه ولا يحموه؛ ومن خالف هذا المرسوم، أو آعتمد غير هذه الرسوم، فهو لنفسه ظلوم، وقد برئت منه الذمه، وزالت عنه الحرمه، وزلّت قدمه، وذهب ماله ودمه؛ وقرئت مراسيمنا بذلك هنالك على منابر الجوامع، وسمعها كل سامع، وهم لك على آمتثال أوامرنا مساعدون، وعلى آجتناب نواهينا معاضدون، وللإصلاح ما آستطاعوا مريدون وقاصدون، فلا تمكّن أحدا من العربان ولا من الفلّاحين أن يركب فرسا، فإنما يعدها للخيانة مختلسا، ولا يكون لها مرتبطا ولا محتبسا؛ وكن لهم ملاقيا مراقبا، فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقبا، ولا تمكّنهم من حمل السلاح ولا آبتياعه، ولا آستعارته ولا آستيداعه، وتفقّد من بالأقاليم من تجّاره وصنّاعه؛ نخذ بالقيمة ما عند التجّار، وآقمع بذلك نفس الفجّار، وأضرم نار العذاب على من أضرم لعمل ذلك النار؛ وأمر كلّ فئتين متعاديتين بالمصالحه، وآكفف بذلك يد المكافحه، وحلّف بعضهم لبعض بعد تحليف أكابرهم لنا على السيرة الحميدة والنيّة الصالحه، وخذهم فى الجنايات بالعدل والمشاححه، وفى المطالبات بالرفق إن لم تكن مسامحه، وآحملهم على محجّة الحق الأبلج والشريعة الواضحه . وإذا رفعت إليك شكوى فأزلها، أو سئلت إقالة

عثرة لذى هيئة فأقلها، أو وجب حدٌّ فأقِمْه لحينه، أو آرتبْتَ فى أمر فتروَّ حتّى تهتدىَ ليقينه، ولا تعتقلْ إلا من أجْرَمَ جُرْما يُوجب الاعتقالَ والحَبْس، ولا تُسرعْ إلى ما تَخشَى فيه اللَّبْس، وآعملْ على براءة الذِّمّه، وآجهَدْ أن لايكون أمرُك عليك غُمَّه، ولا تُرجّح للهَوى على خَصْمٍ خَصْمَه، ولا تظلمه فانّ الظُّلم ظُلْمه، وخَفْ نقمةَ الله فهى أعظمُ نِقَمه، ولا تأخُذْك على البرىء غِلظةٌ ولا قسوةٌ كما لاينبغى أن تأخذَك فى الجرىء رأفةٌ ولا رحمه، والله تعالى يرفعُ لك بالطاعة رُتَبا، ويُنجح لك بالخِدْمة طلبا، ويبلّغ بك فى الإصلاح أرَبا، ويردُّ بك أمرَ كل مفْسِد مخيَّبا، ويُوضِح لك من الهداية مُغَيَّبا، ويُنزل بك من الخيرات صَيِّبا، والخطُّ الشريف أعلاه، حجة بمقتضاه. إن شاء الله تعالى.

✦✦✦

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالوجه القِبْلى أيضا، من إنشاء الشريف شهاب الدين، كُتِب به «لعلاء الدين المُرادى» وهى:

الحمدُ لله الذى جعلَ إقبالَنا مُسْفِر الوجُوه، ونوالَنا مبلِّغا كلًّا من الأولياء ما يؤمِّلُه من القُرْب من أبوابنا الشريفة ويَرْجُوه، وإفضالَنا يوفِّر أقسامَ النِّعم لمن وَفَّر دواعيَه على طاعتنا فلا يزال آستحقاقه يُعيِّنه ويدْعوه، وإجمالَنا يُنجِز وعود التقديم لمن تعدّدتْ خدمُه فلا يتجاوزُه التكريم ولا يعدُوه.

نحمَدُه على أنْ جعل إنعامَنا يهَبُ الجزيل ويحْبُوه، ونشكره على أن أقامَنا نُحِقُّ الحق فنرفعُه فيدمغُ الباطلَ ويعلُوه.

ونشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً هى خيرُ ما ينطِق به الإنسان ويَفُوه، لا يبرحُ اللسان يكرِّر إخلاصَها ويتلُوه، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبده ورسوله

الذى رفع الله ببعثته عن هذه الأمة كلّ مكروه، وحمىٰ بشْرعته الدينَ الحنيفَ فلا يُلم به التبديلُ ولا يَعْرُوه ، وأفاضَ ببركاته فى كل وجهٍ ما يُوسع الخيرَ ويُدِرّه ويمنع الشر ويَدْرُوه ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله الذين هم عِترتُه وأقربُوه ، وصَحْبه الذين ٱستمعُوا قولَه وٱتَّبعوه ، صـلاةً لا يزال وافدُها يَتْبع سبيلَ الإجابة ويَقْفُوه ، ويصلُ إلىٰ محل القَبُول ولا يَجْفُوه ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـد ، فإنَّ الله تعالىٰ لمـا قَرَن آراءَنا بالسَّداد ، وأحسَن بنا النظرَ فى صَـلاح البلادِ ومَصالحِ العباد ؛ لم نزَلْ نرفَع أقدار المخلِصين بمزيَّةِ الاختيار والارْتياد ، ونجمعُهم فى صعيد الإحسانِ ونُحِلُّهم رُتَبَ الإصْعاد ، ونُدْنِى منهم من له تامُّ ٱهتمام وشادُّ اجتهاد ، ونميز منهم من حَسُن حالًا بالجمع والإفراد .

والولايةُ علىٰ الوُلاة بالوجه القبلىّ من أهم ما يُلْمَح ، وأعمّ ما يختار له مَنْ للحق يَنْصُر وللخلق ينصَح ؛ إذ بهـذا الوَجْه عُيون البُلْدان ، ووجُوه العُرْبان ، وكراسىُّ الأقاليم الحِسان ، ومراكزُ الوِلايات التى تُحِلُّ دائرةَ السَّوْء بأهل العُدْوان ، وإقطاعاتُ الجند والأمَراء ، والخواصُّ الشريفـةُ التى علىٰ عمارتِها إجماعُ الآراء ، وعليه تتردّدُ التُّجّار ، وإليه بالمِيرَة يُشَار ، ومنه تتعدّدُ المنافعُ فيتعيَّن أن ندفَع عنه المَضارّ ، ونُلْقِىَ أمورَه لمن يُنتقىٰ حزمُه وعزْمُه ويُختار .

ولـمَّـا كان فلان هو الذى له وِلاياتٌ ٱقتضتْ تقديمَـه ، وسبقَتْ منـه سوابقُ خِدَم أجزَلَتْ تكريمَه ، وما زالَ فى الشامِ علىَ الهِمَّة حسنَ الشِّـيمه ، وطهَّر البَرَّ من كل فاجر ، ورأىٰ أن التَّقوىٰ أربحُ المتاجر ، وأعذبَ للرعية من المَعْدَلة المواردَ فصدَر من أبوابنا إلىٰ أحمدِ المصادر ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نجعلَ له من إقبالنا النصيبَ الوافر . فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا برِح يزيد الأقدارَ علاء ويُظْهرها

من تكريمه فى أحسنِ المَظَاهر ـ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالوجه القِبلىّ وجميع نواحيه، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك ومستقرّ قاعدتِه إلىٰ آخرِ وقت .

فليتلَقَّ هذه الولايةَ المباركة بقَبُولٍ حسَن، ولْيُوقظْ جَفْنَ سَيْفِه الذى لم يَعْرِف الوسَن ؛ ولْيتَّقِ الله ربَّه فى السِّرِّ والعلَن ، ولْيحكم بمـا شَرَع الله وسنّ ؛ وليجتهِد فى إخماد العواقِب و إخماد الفِتَن ، لِيَسْكُن من تردّد إليها أو سَكَن . ولْيلاحظ هذه الأقاليمَ بعزائمه السَّيَّاره، وليحافِظْ علىٰ سلوكِ سِيرته الساره ؛ وليستَطْلِع من كل بلد أخبـارَه، و يتتبَّعْ من كل والٍ آثارَه؛ و إن رأىٰ منكرًا أزالَه ، أو وجد مُبْطلا أذاله أو حقًّا أدالَه ؛ ولْيعظِّم أحكام الشرع وحُكّامه، وليجعلْه إمامَه ليَسْعىٰ نورُه أمامَه ؛ ولْيطالِعْنا بمـا تتعيَّن فيه المطالَعـه، و يراجعْ أوامرَنا فيما تجب فيـه المراجَعـه ؛ ولْيستجلِبْ لأيامنا الأدعيةَ النافعه، ولْيباشِرْ بنفسه الأمورَ التى هى له راجِعه ؛ ولْيراعِ فى القضايا المصلحةَ الجامعه ، ولتكُن حِمايتُه للمؤمنين واقِية وفَتْكتُه بالمجرمين واقِعه ؛ ولْيَسَع الرعايا بالمعْـدَلة الواسِـعه ، و يمنع المجترئين بالأخْذة الرابِيـة والهَيْبة الرادِعه ؛ ولا يمكِّنْ أحدًا من العُرْبان بجميع الوجه القبلىّ أن يركَبَ فرَسا ولا يقتَنِيَه، و يكف بذٰلك الأيدىَ المعتـدِيةَ فإنَّ المصلحة لمَنْعِهـم من رُكوبِها مقتضِيَه ؛ ولْيقِم الحُرمـةَ والمَهابه ، ولْيدِم قيامَه فى الخِدمة وانتصابَه ، ولْيرْهِف حدّ عَزْمه و يُمضيه ، و يجرِّدْ سيـفَ الانتقام على المُفسِدين و ينتَضِـيه ؛ ومن وجده من العُرْبان خالَف المرسوم الشريفَ من منْعه من ركوب الخيل كائنًا من كان ضرب عُنُقه ، وأرهقَـه من البطش بمـا أرهقَه : ليرتَدعَ به أمثالُه ، ولا يتَّسِع لأحدٍ فى الشرِّ مجالُه .

وقد كتَبْنا إلىٰ سـائرِ وُلاة الأقاليم بمساعدته ، وأمرْناهم بمعاونَته ومعاضـدَته ، وأكَّدْنا عليهم فى المبـادَرة إلىٰ مايراه من جميـع الامور، من غير تهاوُنٍ ولا تقصـير

ولا فُتُور، حتّى لا تفوتَ مصلحةٌ عن وقتها، ولا تزال جموعُ المعتـدين معاجلة بكَبْتها، وقد حذَّرنا العُربان من مخالفة مارسمْنا بالتعرّض لمـا يوجب هلاك نفُوسهم، وقطْعَ رءُوسهم .

وليُقْرأ هذا المرسومُ الشريفُ على المنابر بجميع نواحى الوجه القبلى لتمتثلَ مراسمُه، ويتلَقَّ بالقبول قادمُه، وليقفوا عنده، ويَقْفُوا رُشْـده، ويرهبُوا من الشرّ وعيـده ويستنْجزوا من الخير وَعْدَه، وهو ـ بحمـد الله ـ ما برح مهـذَّبا، وبآ كلِ الآدابِ مؤدَّبا، وبما يفعله إلى رضا الله تعالى ورضانا مقربا، والله تعالى يجعلُه مختارا مجتبى، ويُوزِعُه شكرَ مَنْحنا الذى أجزل له الحبا، وخصَّ به هـذا العملَ الجليلَ فضاعف خِصْبَه واهتزَّ وربا، ويُطلِعه مباركا ميمونًا حيثُ حلَّ قيل له : مرْحبا، ويَصْعَدُ به هذه الرتبةَ ويهبُه توفيقًا مستصْحَبا، ويمهِّد به الطرقَ للسالكين حتّى يتلُوَ عليه لسان التأمين : ﴿فتيمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبا﴾، والخطُّ الشريف أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالى .

✤

وهـذه نسخة تقليد شريف بنيابتـه أيضا ، من إنشـاء المَقرّ الشهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله مطلق التصرّف فيما كان ممنُوعا، ومُنطقِ المتصَرِّف ليكون قولُه الصوابُ مسموعا، ومُوسِّع نطاقِ المَصْرف فى جميع ما تعيَّن أن يكونَ له مجمُوعا .

نحمدُه حمدًا يعذُب ينْبُوعا ، ويُنبِت بمزيد الشكر زُرُوعا ، ويُدِرّ ضُروعا، ونشهد أنْ لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً تتفرّعُ فُروعا ، وتسكّن جُموعا وتسكّتُ جُمُوعا، ونشهد أنَّ محمّدا عبـده ورسولُه الذى أقْوى لأهل الطُّغيان رُبُوعا، وأجرى

لعيُون الزَّرد عليهـم دُمُوعا ، وأغرىٰ القِسِىَّ بالحَنِين إليهـم وُرُوعا ، وأسـقط علىٰ لَبَّاتهم طُيورَ السِّهام وُقُوعا ، ومهَّد البلاد بقتْلاهم فآمَن مَنْ خاف وأطعَم من تشكَّى جُوعا ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعمُّ ثُمَّ دِرْع الفجر بشفَقها المخلَّق صُدُوعا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإنّه لايستقيم نجاحُ الأمور ، ويُستدام صَلاحُ الجمهور ، إلا بتفقُّد أحوال وُلَاتِهم ، وتعهُّد سُلوكِ الرعايا مع رُعاتِهم ، وردُّ مجمُوع كلِّ عمل إلىٰ من لا يبِيتُ طَرْفُه فى مصالحهم مملوءًا من الوسَن ، ولا يقِرّ له فى التنقُّل فى مُهِمَّاتهـم جَوادٌ فى رَسَن ، ولا تهْـدأُ سيوفُه فى الأغماد ما بَرَقت بارقةُ فِتَن ، ولا يَشْربُ المـاءَ إلا ممزوجًا بدمٍ ولا يبِيتُ [إلا] علىٰ دِمَن ، وكانتِ الديارُ المصريةُ المحروسـة أحوجَ شىء إلىٰ هذا الموصُوف ، وأكثرَ آضْطِرارا إلىٰ ما تُشام له فى صَلاح رعاياها لوامعُ سُيوف ، والوجهُ القبلىّ بهـا هو الجامعُ ما يَزِيد على السَّبعة الأقالِيم ، الحائزُ من أهـل الحضَر والبادية لكلِّ ظاعنٍ ومُقِيم ، قد آمتدَّ حتَّى كاد لاينتهى إلىٰ آخِر ، ولا يلتَهِى بما يكْنُفه من برٍّ مُقفِر وبحرٍ زاخر ، قد جاوَر بالأوْدِية العميقة الحُوتَ فى المـاء وجاوَره فى السماء برفعة الجبال ، وتَطاولَ حتَّى آتَّصـل طرَفاه الجنوبىُّ بالجَنُوب والشَّمالىّ بالشَّمال ، وحوَتْ مجارِيه من النيل المبـارَك [ما] مَدَّ الرِّزْق الممتـدّ ، وأمدّ المَدّ المبيَضّ علىٰ عَنْبرة ثَراها المُسْودّ ، وهو الوجْهُ الذى تُعْرَف فى كوثَر نيله نَضرةُ النَّعِيم ، ويَبْهَر حُسْـنا من أوّل قَطْرةٍ تقع من مَرْآه الجميل علىٰ وَسِيم ، قد حالَ فيه الماءُ محمرًّا كأنمـا يَشْربُ ندىٰ وَرْد الخدُود ، وحَلَا كأنما ضُرِبَ الضَّرَبُ فى لَمىٰ رِيقِه المورُود ، وكان لا ينهَض بأعبائه ، ويرُدّ بالغَيْظ متقرِّحةً عيونَ رُقبائه ، ويمنـع كلَّ مِنْسَر مُنْسَرٍ يحـذَر أن ينتهب وَذِيل[1] خِبَائه ، إلا مَن تقـدّمت له دُرَبٌ يتعلَّم فى جليـل الخُطُوب من مَضائها السَّـيفُ

(١) فى الأصل «أن ينه وديل» .

المُدَرَّب، ويقتدى فى دقيق التلطّف بسياستها القلمُ المجرَّب ؛ وكان فلانٌ هو الذى تتهادىٰ كفايتُه الأعمال، ويتعادىٰ نفعُه والسُّحبُ فلا يُدْرَىٰ لمن منهما التروّى ولمن الارتجال ؛ وقد ولِىَ الأعمالَ البَهْنَساويّةَ وهى فى هذا الوجهِ الجميلِ أبهجُ صُوره، وأبهىٰ فيما تكثُرُ منافعُه المشهوره؛ فأضحىٰ المَغَلُّ فى بيادِره يتبادر، والإقبال يتكاثرُ إقبالُه والمَحْلُ يتنازر، ومُزْدَرَعاتها تُعرَف سيماها فى وجوهها من أثرِ سجود الليلِ كزرعٍ أخرجَ شطْأَه فاستآزر؛ فاقتضىٰ حسنُ رأينا الشريف أن نُطلِق تصرُّفه فيما جاوره من الأعمال، وأن نَشْغَل له يمينًا باليمين وشِمالا بالشِّمال .

فخرج الأمر الشريفُ العالى ـ لا زال يؤيِّد عزَّ الدين ظُهورا، ويُتِمُّ له فى أعماله نُورا ـ أن يكون فلان كاشفًا ووالِىَ الوُلاة بالوجه القبلىّ بأجمعه : معطَّله ومُزْدَرَعه، وبَرّه وبحره، وعامِره وقَفْره، وأهلِ حضَره وباديته، وأصحاب زَرْعه وماشيته، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته فى ذلك، ليأمَنَ المقيمُ والسالك، ويجمَعَ على الطاعة مَنْ قِبَلَه هُنالك، وينتظِمَ عِقدُ عقائدهم المُتهالك، وبقوىَ الله أجْره، والشرعُ الشريفُ يكون نهيَه وأمْره، والحُكّام والأحكامُ هما ماهما فليحفَظْ زِمامَهما، وليَنفُذْ إلى الأغراضِ سِهامَهما، وليُوصِّلِ الحقوقَ إلىٰ أربابها، ويسهِّل المطالبَ علىٰ طُلّابها، ولْيُنصِف إنصافا لا يُشتكىٰ معه حَيْف، ولْيُقِم المهابةَ حتّى لا يَقْدِر علىٰ التعدّى طارقُ طَيْف، وليجرِّد عزائمَه فإنّ من العزائم ماهو أمضىٰ من السَّيْف، ولْيُحسِنْ قِرَى النِّيلِ القادمِ فى كل قرية فإنّه ضَيْف .

فعليك بما نأمُرك به من تعبئة صُفوف الجسور لأمْداده، والاستعداد لمجرّ عوالى صواريه ومجرىٰ جياده، وتفقّدْ قبلَ قُدومه طريقَه، واترُكْ عن رَىّ البلاد تعويقَه، وأقِم الجسور، فهى قِيام الجسور، واحفِر التُّرَاع(١) فإنها تُراعىٰ، وأسْفِرْ له

(١) لم نعثر على هذا الجمع فى كتب اللغة وإنما الترعة كغرفة إفرادا وجمعا .

عن عرائس قُرَاها المجلوّة وُجُوها كلّما قِسنَ له إصْبَعا يَقِيس ذِرَاعا ، وآقطعْ بإيصال حقّ كلّ ناحيةٍ إليها من الماء مُنازعةَ الخُصُوم ، ونَبِّهْهم أنّ الماءَ قِسمةٌ بينهم لكلٍّ منهم شِرْبُ يومٍ مَعْلوم ، ولا تدعْ [به أحدا] من أهل المَفَاسد ، ومن جرتْ لهم بسوابقِ الفِتَن عوائد ، ومَنْ يتعزّز بربِّ جاه ، ومن لا يكونُ(١) له إلىٰ حِمايةٍ آتّجاه ، ومَنْ خرج بوجهه للشرّ مُصَرِّحا ، أو لبابِ عقابٍ مستَفْتِحا ، أو وقف علىٰ دَرْب أو قَطع طريق ، أو توعّدَ أهـلَ رِفاقٍ أو أهلَ فَريق ، أو أقـدَمَ علىٰ ضررِ أحدٍ فى نفس أو مال ، أو خُشِيت له عاقبةٌ فى بِدَايَةٍ أو مَآل ، أو نزلَ فى بلدِ أميرٍ ليتغطّىٰ بجناحه ، أو ترامىٰ إلىٰ عُصْبة يحمِلُ منهم حَدّ سِلاحه ، فسُلَّ عليهم سيفَك الماضى ، وأحسِنْ إلىٰ الناس إذا خَشِيتَ أن تُسىءَ إليهـم التقاضى ، ومَنْ أمسكتَه منهم فأمْضِ حكمَ الله فيهم ، وأقِمِ الحُدُودَ علىٰ متعدّيهم ، وطَهِّر الأرضَ بمـاء السُّيوف من أنجاسهم ، وعلّق منهم أناسًا بحبل الوريد إلىٰ مَدارج أنفاسهم ، وآصْلُبْ منهم على الجُذُوع من تناوحُ الرياحُ بسَعَفِهم ، وأَوْثِقْ منهم بالسَّلاسل والأغلال من لاتقتضى جرائمُهم إيصالَهم فى المقابلة إلىٰ حدّ تلفِهم . وأكرِمْ قُدومَ من يَرِدُ عليك من الكارِم ، وقرِّر بحُسـن تلقّيك أنك أوّلُ ما قدّمْناه لهم من المَكارم ؛ فهم سُمَّـارُ كلِّ نادى ، ورِفاقُ كلِّ مَلّاح وحادى ؛ ولا بُدّ أن يتحدّث السُّمّار ، وتُتَداوَلَ بينهم الأسْمار ؛ فاجعلْ شُـكرَنا دأبَ ألسنتِهم ، ومِنَنَنا حِلْيةَ أعناقِهم ، ومِنحنا سبباً لاِسـتجلاب رِفاقِهم ؛ فهم من موادِّ الإرفاق ، وجَوادِّ ما يُحمَل من طُرَف الآفاق ؛ وقد بقِىَ من بقايا أهل العقائد الفاسده ، والمَعاقد البائده ، مَن يتعيّنُ إقعادُ قائمِهم ، والتيقُّظُ لمتيقّظِهم والنومُ عن نائمِهم . ونحن نُنَبّهك علىٰ هـذه الدّقائق ، ونُوقِفك علىٰ أطرافها ولك رأيُك إذا حَقّت الحقائق ؛ وطالِعْ أبوابَنا العاليةَ بمـا أشْـكل عليك ، تتنزّلْ أنوارُ هُدانا أقربَ من رَجْع نَفَسك إليْك ،

(١) لعل حرف النفى زيادة من قلم الناسخ .

*

واقْدُر حقَّ هذه النِّعمة فإنَّا أولَيْناك منها ما لا يُضاهى، ووَلَّيناك من بلادنا قِبْلةً تَرْضاها، وتولَّيناك حيثُ وجَّهتَ وجْهك شَطْر المسجد الحرام، ونُوِّعت لك أرواحُ الحجاز وأنتَ فى مصرَ وريفها العام، والله تعالى يديم منك سَيفًا يَرُوع مَهزُّه، ويؤيِّد بك الدِّين فإنه بك يقوم جاهه ويدُومُ عزُّه، والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه. إن شاء الله تعالى.

الوجــــه الثانى

(من وجهى الديار المصرية البحرىُّ، وهو الشَّمالىّ)

وكانُوا فى الزمن القديم يخصُّونه بآسم الرِّيف، مثل آختصاص الوجْه القبلىّ بالصعيد. وأربابُ الولايات فيه على ضربين[(١)]:

الضـــرب الأوّل

(أرباب السيوف)

وتختَصُّ الكِتابةُ منهم الآنَ عن الأبواب السُّلطانيـة بنائبِ السلطنة بالوجْه البحرىّ، ومَقَرُّه مدينةُ دَمَنْهُور من البُحَيرة. وكان فى الزمن المتقدّم يكتفى فى البُحيرة بواليها، وكذلك فى كلٍّ من سائر الأعمال بالوَجْه البحرىّ، وفوقَ الكلِّ ولايةٌ عامَّة، يعبَّر عن صـاحبها بوالِى الوُلاةِ، وربمـا [زِيدَ] بالوجه البحرىّ، ورُبَّمـا عُبِّر عنـه بالكاشف. ثم آستقرَّتْ نيابةً فى رُتْبة تقـدمةِ العسكر بغَزَّة فى أيام الظاهر بَرْقُوق، على ماتقدّم ذكره فى المَسالك والممـالك فى المقالة الثانية.

وهذه نسخةُ تقليد تصلُح لنائب الوجه البحرىّ، ممـا كان كَتَب به المقرُّ الشهابىّ ابنُ فضل الله لوالى الولاة بها، وهى :

---

(١) لم يذكر الثانى. فتنبه.

الحمدُ لله الذى أقام بنا كاشفًا لكلِّ شكْوَىٰ ، كاسفًا بَالَ كُلِّ عَدْوىٰ ، عارفًا بنهاية كلِّ دَعْوىٰ، عاطفًا بعَدْلنا إلىٰ إزاحة كل لَأْوىٰ، و إزالةِ كلِّ بَلْوىٰ .

نحمدُه وهو أهلُ الحمد والتَّقوىٰ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نأمَنُ بهـا الدانيةَ والقُصْوىٰ، ونُؤمِن بها على السِّرِّ والنَّجْوىٰ، ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه و رسولُه أشرفُ من مَهَّد له جَنَّـةَ المأْوىٰ ، وأشرَفَ به علىٰ شَرَفِ المَثْوىٰ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين فَطَمَ بشريعته نُفُوسَهم عمَّا تَهْوىٰ، وفطَر فِطَنَهم عليهـا حتَّى لا تَضِلَّ ولا تَغْوىٰ ، صلاةً ترتَوِى بفائِضها السُّحُبُ ما تَرْوىٰ ، وسـلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ فإن من سَجَايا أيَّامنا أنْ نكشِفَ كلَّ كَرْب ، ونُحْسِنَ إلىٰ رعايا بلادِنا إحسانًا يُنوِّعُ فى كلِّ ضَرْب ، ونُديمَ الأمنَ حتَّى لا نَدَعَ سِـوىٰ النِّيل قاطعَ طريقٍ أو خارجًا علىٰ دَرْب، ونجرِّدَ من المَهابة سيفًا يُخْشىٰ من قُرْبه ، وطَيْفا يَبِيتُ به طيرُ الكَرا متمَلْمِلا علىٰ جَنْبـه ، وخَوفًا لُبابُه من الخصائص المحمَّدية أنه يتقدَّمُ إلىٰ قلوب الأعداء مَسيرةَ شهرٍ [جيشُ] رُعْبِه، وكانت الديارُ المصريهٰ المحروسةُ هى التى لا يُحمدُ سِوَاها ذُو وَجْهيْن، ولا يُوجَد لها فى جانبَيْها مماثل فى شيئيْن، والوجهُ البحرىُّ أوسعُهُما عَرْضا، وأقربُهما من الرِّىّ أرضًا ، وأصدَقُهما للبَـارِق المُحمَرّ وَمْضا ، وأجمعُهما للذَّهَب مَذاهِبَ وللفضَّـة إفْضَا ، وأثبتُهما وطاةً لمجرىٰ النيل إذا أقبَـلَ فى تيَّـاره يتدافَعُ وآشـتدّت خيلُه ركْضا ، وهو الوجهُ المتهلّل بِشْرا ، المتضوِّعُ بِطيب رِياحه نَشْرا، المتزيِّن بمدائنه أكثرَ ممـا زيَّنه فى مَقاصيره قيصَرُ و فى مدائنه كِسْرىٰ، المُتَمَتِّع بعروسِ كلِّ قريةٍ زُفَّ بهـا النِّيلُ فى مَسْرىٰ ، و به الثغور التى لا تُشام لهـا بُروق ، والمَحَـارس التى ما لعاديةٍ إليها طُروق، وله من البَحْرَيْن حاجِزان، ومن الجـانبَيْن برٌّ مُقْفِر وريفٌ مُقْمِر متبارزان ، وفيـه من الشُّعوب والقبائل فى الحَضَر والباديَة من

لا يُؤْمَن منه بادِرُه، ولا يُحْمَد بغير ما يُراق من دمِ مُفْسِديهم ثائِرُه (١). وكان لا يقُوم بها كلَّ القيام، ويجمعُ فرائدَها المشذَّرةَ فى أكمل نِظام، إلا من تقلّبت الأمورُ بقلبه كلَّ التقليب، وجرّدت النُّوب عَزْمه فى النوائب بجُردتْ سيفا يُحمَدُ فى التجريب؛ ولم يزَلْ منذُ بلغ الحُلُم أميراً مُطاعا، ومنْدُوبا لا يَفْرَق فى المهمّات إذا طارتْ نُفوس الأنظار شَعاعا، وأوْقَدت الأسنّة سُوَاعا، وهُمامًا لو أومض البرقُ ساعةَ بُؤْسِه لارتعدَتْ فرائصُه زَمَعا لا إزْماعا (٢)، أو قابلَه الرِّيحُ المعتدلُ عند أحكامه لأطبقت الأممُ على أنه لا يُماثِلُه فى العدل قَطْعا وأجمعَتْ على تفرّده إجْماعا.

وكان فلان هو العلىَّ هِمَما، الجَزْلَ مداومةَ الجزيل دِيَما، المَلِىَّ بما لا يَقْدِرعلى مثل دفْعه البحرُ متدفّقا وهَمْىُ الغمامِ منْسِجما، وقد حَمِدْنا له فى كلِّ ما باشرَه أثرا، وأحْمَدْنا بجميل ملاحظته كلَّ برّ ضرا؛ فباشر الوجه القبلىَّ فملأ عينَ الناظر المتوسِّم، وعمّ سرُورُه حتّى غامرَه جارُه الوجهُ البحرىُّ ببنانه المخضَّب وضاحكه بثغره المتبسِّم؛ فلما تنقّل فيهما آستقرار(؟) الوجهين وما والاهُما، وعُرِف فى وَجْهه نَضْرةُ النعيم بما أولاهما، وأخصَب جانباهما، وجَدَّ بهذا كلّه ثم جدّ بهذا فطاب الواديان كلاهما؛ فآقتضى حسن الرأى الشريف أن لا يخْلُو الوجهان معًا من نظره الجلىّ الجميل، وأن يَخْلُو عليه محاسنُهما الكاملةَ ليُفارِقَ على وجه جميلٍ ويواصلَ على وجهٍ جميل.

فخرج الأمر الشريف ـ لازال يختارُ عليًّا، ويختالُ كلَّ غمامٍ يرتَضى له وليًّا ـ أن يكون والىَ الوُلاة بالوجه البحرىّ جميعه، متفرّدا بأفراده ومجْموعه، ومحكّما فى قبائله وجُموعه، وبعيده وقريبه، وبديعه وغريبه؛ وكلُّ ما هو داخل فيه، عائدٌ إلى أعماله وراجع إلى متوليه، على عادة مَنْ تقدّم وقاعدته فيما يليه؛ وهى ما يُذْكَر من الأعمال:

(١) لم يتقدّم مايعود اليه الضمير وان كان الغرض واضحا.
(٢) خوفا ودهشا.

الغربيّـة ، الشّرقية ، البُحَيْرة ، المَنُوفيَّة ، إبْيار ، أشْمون ، قَلْيوب . ولا أمْر ولا نَهْى إلَّا إليـه راجع ، وله فى متجدِّدات الأُمور مَرَاجع ؛ ولا أرباب تصريف إلا وله عليهم تصرُّف ، ولا صاحبَ جِدٍّ ولا حَدٍّ إلَّا فيه يَمْضِى ويتوقَّف ؛ وتقوى الله تعالى أوَّلُ مانُوصيه بسببها ، ونُوصِّله إلى رُتَبها ، وإقامةُ الشرع الشريف وإدامةُ مبارِّه وإعلاء مَنارِه ، ومعاضدةُ حكمِه وحكّامه وأعوانه وأنصارِه ، والوقوفُ معه فى إيرادِه وإصداره ، وإعلانه وإسرارِه ، والعملُ به فإنه مايضلُّ من مَشى فى ضوء نهارِه ، وعمـارةُ البلاد ، بادامة العدل وتكميل الرِّىّ وتوْطين السُّكَّان وقَمْع الفساد ؛ وآعتمادُ حكم التذاكر الشريفة لأمر الجراريف التى تُعْمل ، والتُّرَع التى تُراعَى والجسور التى لايُقْدِم جَسُور على أنها تُهْمَل ؛ فهما قانونُ الرِّىّ الكامل ، والضامنُ لخصْب البرّ السابِل ؛ وإذا أجرى الله النيـلَ على عاداته الجميلة لا يدَعُ لمحلٍ عينًا حتّى يوارِىَ بالرِّىّ سَوْءَته ، ويخفِّف بتيسر وُصولِ حقّ كلِّ مكانٍ إليه وَطْأته ؛ ولا يدَع عاليـا إلا مستفلا ، ولامعطَّلا إلَّا معتملا ؛ ولا طَوْقَ بحر إلا تمتدُّ يدُ النيل إلى زَرّجيو به ، ولا طـائفَ رَمْل إلا يطوف طائف شِرْب(١) على جَرْعائه وكَثِيبِه ، حتّى يعُمَّ الجميع ، ويَعْمُر ربُوعَها بمـا ينسجُهُ لهـا من ملابس حُلَل الربيع . وعليـه بالإنصاف بينَ المساكين ، والإنصات إلى الباكِينَ منهم والمُتَباكين ؛ ووَصْـلِ أمورِهم على الحق الذى نَشَر اللهُ فى أيَّامنا الزاهرةِ عَلَمَه ، ومقتضَى الشرع الشريف فإنه ما خاب من أدامَ عليه حُكْمَه وأدار إليه عَمَـله . وأما أهلُ الفساد والأشْباه ، ومن يحتمى بصاحب شوكةٍ أو يتمسَّك بِرَبِّ جاه ؛ أو يَنْزِل بلَدَ أميرٍ كبير مستظِلًّا بذَرَاه ، أو ملتجئًا من خوفٍ أو مستطعِمًا من قِرى قُرَاه ؛ فجميعُ هٰؤلاء تَتبَّعْ فِرقَهـم ورِفاقَهم ، وطهِّر الأرض منهم وآمسَحْ بالسُّيوف أعناقَهم ؛ وأسجِم(٢) فى قَتْلاهم ، وأثقِلِ بالقُيود أسْراهم ،

(١) فى الأصل شربيب . (٢) لعله وأثخن .

وشدَّد وَثَاقهم وكذلك مَنْ حَمَاهم ووالاهم ، أو آستحسَنَ أو مَنَّ عليهم أو مانَعَ عنهم ، أو قالَ ماهُو منهم وهو منهم ، وكلُّ أجرِهم فى الحكم مُجراهم ، وأطل تحتَ أطباقِ الثَّرىٰ ثَوَاهم ، ونبِّه منهم أُناسا علىٰ رُءوس الجُذُوع وأنِمْ آخرين نومةً لاينتبهون بها من كَرَاهم ، حتَّىٰ يتأدَّبَ بهم كلُّ مَنْ أعرض ، و يتداوىٰ بمداواته كلُّ مَنْ فى قلبه مَرَض . وما أشكَلَ عليك فاسترشِدْ فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة : لتجدَ هدى واضحا ، وحقًّا لائحا ؛ والله تعالىٰ يجعلك من المُمَهِّدين لأرضه ، القائمين فى أنواع الجهاد بفرضه ؛ والآعتمادُ على الخط الشريف أعلاه .

الجهـــة الثالثــة
(درب الحجاز الشريف)

وقد تقـدَّمَ أنه كان فى الزمن المتقدّم يُكْتَب عن السلطان تقليدٌ لأمير الرَّكْب فى الدولة الفاطمية وما تلاها . أما الآنَ فقد تُرِك ذلك ورُفِض كما رُفِض غيرُه من الكتابة لأرباب السُّيوف بالحَضْرة السلطانيـة ، ولم يَبْقَ الآنَ من يُكتب له من ديوان الإنشاء شىءٌ سوىٰ قاضِى الرَّكْب . وقد جرت العادةُ أن يُكتَب له توقيعٌ فى قطع العادة مفتتَحا بـ«رُسِم» .

وهـذه نسخة توقيع من ذلك ، كُتِب به للشيخ « تقِىّ الدين السبكى » رحمه الله فى مبدإ أمره ، وهى :

رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا زال يُعِينُ على البِرّ والتقْوىٰ ، و يرتادُ لوَفْدِ الله مَن يَتَمَسَّك فى نَشْرِ الأحكام الشرعية بينَهُمْ بالسبيل الأقومِ والسببِ الأقْوىٰ ـ أن يستقر فلانٌ فى كذا : لما آختُصَّ به من غَزَارة علومه ، و إفاضة فضائله المتنوِّعة إلىٰ قوَّته

فى الحق وتصميمه ؛ فإنَّ مثله مَن يُختار لهذه الوظيفةِ الجارية بينَ وفدِ الله الذين هم أحقُّ ببراءة الذِّمم ، وأَوْلىٰ بمعرفة حكم الله تعالىٰ فيما يجبُ على المتلبِّس بالإحرام والداخلِ إلى الحَرَم ، وأحْوجُ إلىٰ الاطلاع علىٰ جَزاءِ الصيد فيما جزاءُ المتعرِّض إليه مثلُ ماقتلَ من النَّعَم ؛ إلىٰ غير ذٰلك من ثُبوت الأهلَّة التى تترتَّبُ أحكامُ الحجِّ عليها ، والحكْم فى محظورات الإحرامِ وما يجبُ على المتعرّض إليها ؛ فلْيباشِر هذه الوظيفةَ فى الوقتِ المشارِ إليه علىٰ عادةِ من تقدّمَه فيها ، مجتهدًا فى قواعدها التى هو أَوْلىٰ من نَهَض بها وأحقُّ من يُوفِّيها .

قلت : أمَّا شهودُ السبيل المعبَّر عنهم بشهود المحمَل ، فإنما تكتب لهم مربّعات شريفةٌ من ديوان الوزارة .

تم الجزء الحادى عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثانى عشر

وأوله القسم الثانى

(مما يُكتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية ـ أربابُ الوظائف بالممالك الشامية)

والحمد لله ربِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتَمِ الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه والتابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل

(المطبعة الأميرية، ٥٠٧٠/١٩١٧/٣٠٠٠)